الجمهوريـــــة الجزائريـــــة الديمقراطيـــــة الشعبيـــــة

وزارة التعليـــم العالـــي و البحـــث العلـــمي

المدرســـــــــــــــة العليـــــــــا للأساتـــــــــــذة

العلامة الشيخ مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري

– بوزريعـــــــــة–

مديرية التكوين في الدكتوراه و البحث العلمي.

أثـــر النزعـــة المذهبيـــة في الكتابـــة التاريخيـــة عند المؤرخيـــن المشارقـــة خـــلال القرنيـــــن السابـــع و الثامـــن الهجرييـــــن (ق13- 14م).

أطروحـــــة مقدمـــة لنيـــل شهـــادة دكتـــــوراه في التاريـــخ الوسيـــــط.

لجنة المناقشة:

- أ / د. خالد كبير علال – المدرسة العليا للأساتذة – رئيسا.

- أ / د. بوطارن مبارك – المدرسة العليا للأساتذة – مشرفا.

- أ / د. موسى هيصام – جامعة يحيي فارس المدية – عضوا مناقشا.

- أ / د. مروان بن شوش – المدرسة العليا للأساتذة – عضوا مناقشا.

- أ / د. وسيلة فراج – المدرسة العليا للأساتذة – عضوا مناقشا.

- أ / د. مصطفى مغزاوي – جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف – عضوا مناقشا.

إعداد الطالب: حديد مختار　　　　**إشراف الأستاذ:** د: بوطارن مبارك

السنـــة الجامعيـــة: 1439 – 1440هـ/ 2018- 2019م

- المقدمـــــــــة:

بسم الله الرحمان الرحيم، الحمد لله ربِّ العالمين، و الصلاة و السلام على سيِّدنا رسول الله و آله و أصحابه و بعد:

يُعدُّ تاريخ المذاهب من أبرز فروع التاريخ الإسلامي؛ فقد كان للحياة المذهبية دورٌ فعّالٌ في تاريخ المسلمين منذ النِّصف الأوّل من القرن الأوّل الهجري (ق7م)؛ حيث أفضت الفتنة الكبرى (35- 41هـ) (655- 661 م) خلال صدر الإسلام إلى نتائج ذات خطورة بالغة؛ إذ برزت طائفتا الشيعة والخوارج وسرعان ما انشقّت كلّ منهما إلى عدّة فِرَق متباينة المقالات، وشهد النِّصف الأوّل من القرن الثاني الهجري (ق8 م) ظهور طائفة المعتزلة في العراق، غير أنّ جمهور المسلمين ثبت على عقيدة أهل السّنة والجماعة.

و طرأت خلال (ق2هـ/8 م) تغيّرات مؤثرة في مذاهب الشيعة، كما برزت طائفة الجهمية و أثّر ذلك تأثيرا قويّا على تاريخ الأمّة؛ إذ ساهم في بروز طائفة الكلابية خلال النِّصف الأوّل من القرن الثّالث الهجري(ق9م)، وذلك أدّى إلى انشقاق آخر خلال القرن الرّابع الهجري(ق10م) بظهور طائفتي الأشاعرة و الماتُريدية في العراق و بلاد ما وراء النّهر.

واستقرّت الحياة المذهبية في الجانب الفقهي على أربعة مذاهب؛ الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي؛ كما يُمكِن أن نشير إلى المذهب الظاهري ومذهب الشيعة الزيدية. و أثّرت الفِرَق و المذاهب العقدية و الفقهية على الحياة العلمية و الاجتماعية والسياسية تأثيرا قويا متعدّد المظاهر؛ فهو بذلك جدير بالبحث والتّحقيق.

ولا ريب في أنّ اهتمام المسلمين بالتّاريخ كان كبيرا؛ ومن أوضح أمارات ذلك غزارة التّصنيف وتعدّد أنماطه؛ فمن جهة الكمّ نجد عددا كبيرا من المصنّفات خاصة بالنّسبة للقرون الأخيرة من العصر الإسلامي . وكانت المادّة التّاريخية المتعلّقة بالمشرق أغزر من المتعلّقة بالمغرب بفعل عدّة عوامل. أمّا

من جهة النّمط؛ فقد تباينت اهتمامات المؤرّخين من حيث مواضيع كتبهم؛ فمنهم من سلك سبيل التّأريخ العام، ومنهم من أرّخ لدولة واحدة، وتتبّع آخرون أخبار أقاليمهم عبر كافّة الفترات، في حين خصّت طائفة من المصنّفين بعض المدن أو الخلفاء أو السلاطين بالتّأليف، وخصّ آخرون مذاهبهم بالتّرجمة لأعلامها والتوسّع في ذلك، كما اهتمّ بعضهم بذكر الخِطط وأحوال العمران والتّنظيمات السلطانية؛ وبهذا كلّه تجمّع عندنا كمّ هائل من المادّة التّاريخية، وهو ما يحملنا حتما على التّساؤل عن مدى صحة مضامينها، وعن العوامل التي أثّرت على ذلك وعلى رأسها آثار الحياة المذهبية على التّدوين التّاريخي. ونرى لذلك أهمية بالغة لعدة اعتبارات؛ فالمصنفات التاريخية هي المضانّ التّي يُعتمد عليها في نقل وقائع الماضي وتحليلها والاعتبار بها والاستفادة منها، وهي المنابع التي نهُلت منها معطيات المراجع والدّراسات في كافّة المستويات. فلا مناص إذا من الإلماع بتّأثيرات الجانب المذهبي على التّأريخ وبيان مظاهر ذلك للوقوف على مدى أهمية كل مصدر ومدى توفره على الإنصاف و إدراك المنزلة التي ينبغي أن يتبوّأها في البحث والتّحقيق. كما أن دراسة اثر النزعة المذهبية على الكتابة التاريخية يساهم في توسيع المدارك عن معطيات أهل كل مذهب، وتحليل العلاقات المذهبية و انعكاسات الحياة المذهبية على الحركة العلمية.

وقد كثُرت الدّراسات في التّاريخ الإسلامي عن الجانب السياسي والعسكري وهذا بالنّسبة لكافّة القرون، غير أنّ البحوث في الجانبين المذهبي والاجتماعي لم تكن بالقدر نفسه ولا قريبا منه، رغم قوة تأثير المذاهب على الحياة العلمية -لا سيما المصنفات التاريخية- والحياة الاجتماعية خاصّة من حيث العلاقات بين أهل المذاهب. وكانت هذه القلّة النّسبية للدّراسات التاريخية المتعلقة بالمذاهب من عوامل سعينا إلى البحث في إشكاليات هذا الموضوع، فضلا عن الأسباب التي تقدّمت الإشارة إليها- خاصّة إدراك مدى توفّر عنصري الإنصاف والموضوعية في المصادر التّاريخية – وأسباب أخرى تأتي في طليعتها أهمية السعي لمناقشة الأخبار والمواقف والآراء التي جانب فيها بعض مؤرّخي الفترة المضبوطة الحقيقة سواء في كتب التّاريخ العام أو الطّبقات أو غيرها.

ولئن كان التّقعيد للتأريخ ذا أهمية كبيرة؛ فإنّ تجسيد المناهج عمليا من خلال الكتابة التّاريخية يُعدّ أهمّ من ذلك، إذ هو المقصود من ضبط القواعد، وبدراسة اثر النزعة المذهبية على المصادر البارزة المصنفة خلال القرنين (7-8هـ) (13- 14م) يتبين لنا مدى اهتمام المؤرخين بتقرير مبادئ التأريخ ومدى تجسيد تلك المبادئ عمليا.

أمّا عن تخصيصنا للمشرق الإسلامي بالدّراسة؛ فإنّه راجع إلى كونه مصدر التّأثير المذهبي؛ فنشأة المذاهب العقدية إنمّا حصلت في العراق غالبا، لذا كان هذا الأخير أكثر الأمصار تأثيرا على غيره، لاسيما وأنّ له دوره مهم في الجانب السياسي أيضا. كما أنّ التّركيبة المذهبية في المشرق أكثر تعقيدا خاصّة في الجانب العقدي. والتزمنا بدراسة القرنين السابع والثّامن الهجريين (13 – 14م) كونهما يمثّلان المرحلة الأخيرة من التّاريخ الإسلامي، ولقلّة البحوث نسبيا في تاريخهما عن الجانبين المذهبي والاجتماعي مقارنة بالقرون السّابقة كالقرن الثّالث الهجري (ق9م)، رغم أنّهما يندرجان ضمن التّاريخ الإسلامي وينطويان على معطيات هامّة, كما أنّ حركة التّأريخ قد ازدادت اتّساعا خلالهما متّخذة أنماط مختلفة.

و تتبادر إلى ذهن المتأمل في المذاهب و انعكاساتها على الكتابة التاريخية إشكاليات عديدة مترابطة؛ فما مدى تأثير النزعة المذهبية على التدوين التاريخي؟ وما مظاهر التأثر السلبي للكتابة التاريخية بالحياة المذهبية؟ وهل كانت آثار الانتماء إلى المذاهب العقدية أعمق أم آثار الانتماء إلى المذاهب الفقهية؟ وما هو نمط الكتابة التاريخية الذي كان أكثر تأثرا بالنزعة المذهبية؟ وهل ساهمت الحياة المذهبية في غزارة التّصنيف وتعدّد أنماطه؟ والى أيّ مدى توفر الإنصاف وصحة الأخبار في مصادر الفترة؟ وما هي المصادر التي يمكن تقديمها على غيرها في البحث والتّحقيق ؟ وما مظاهر التأثر الايجابي للكتابة التاريخية بالنزعة المذهبية؟ وهل كان لتمذهب الحكام أثر على الكتابة التاريخية؟ وهل نجد فروق بين مصنفات المؤرّخين المنتمين إلى إقليم ما وبين مصنفات غيرهم؟ وهل ثمّة فرق بين عرض

المؤرّخين لأحداث ومعطيات السنوات التي عاصروها وبين عرضهم لأحداث الفترات السابقة لعصرهم؟ و هل أثرت النزعة المذهبية على النقد التاريخي؟ وهل كان لها تأثير في الاهتمام بضبط قواعد للتأريخ والنقد التاريخي ؟ وما الأحداث و التطورات التاريخية الكبرى التي تأثرت فيها مواقف المؤرّخين بالمذاهب؟

ولمعالجة الإشكالية المطروحة خصصنا ثلاثة أبواب، فالأول تطرقنا فيه للأوضاع المذهبية في المشرق الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين(ق13-14م)، واشتمل على فصول ثلاث: الأول ذكرنا فيه الفرق و المذاهب العقدية التي وجدت في المشرق الإسلامي خلال الفترة المذكورة؛ فعرفنا بالمذاهب والفرق، و أوجزنا شرح نشأة كل منها، و ذكرنا ابرز أعلامها، و قدمنا لمحة عامة عن التصوف. أما الفصل الثاني فخصصناه للمذاهب الفقهية و انتشارها؛ فاختصرنا ذكر نشأتها و أصولها و أعلامها و انتشارها وابرز المصنفات في كل مذهب. وتعرضنا في الفصل الثالث لذكر مظاهر النشاط المذهبي خلال (ق7-8هـ/ 13-14م) في الحياة العلمية والحياة الاجتماعية والسياسية؛ و لهذه المظاهر صلة ببعض ما تتضمنه الفصول الآتية.

أما الباب الثاني فدرسنا فيه اثر النزعة المذهبية على كتب التاريخ العام وتاريخ الدول والمدن، و قسمناه إلى ثلاثة فصول؛ الأول تطرقنا فيه اثر النزعة المذهبية على كتب التاريخ العام خلال القرن السابع الهجري(ق13م)، فدرسنا اثر النزعة المذهبية على كتاب "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، ثم انتقلنا إلى دراسة أثرها على كتاب " مرآة الزمان في تاريخ الأعيان " لسبط ابن الجوزي. ويعد المصدران المذكوران من ابرز مصنفات القرن السابع الهجري(ق13م). كما درسنا اثر النزعة المذهبية على كتاب"الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية" لابن الطقطقي وكتاب" مختصر أخبار الخلفاء" لابن الساعي، وختمنا كل مبحث باستنتاج، وانهينا الفصل بخلاصة.

ودرسنا في الفصل الثاني اثر النزعة المذهبية على كتب التاريخ العام خلال القرن الثامن الهجري (ق14م) ، فتطرقنا لأثرها على "تاريخ الإسلام" و"العبر" للذهبي و أثرها على كتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، ثم انتقلنا إلى دراسة أثرها على "ذيل مرآة الزمان" لليونيني و "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفدا و "تتمة المختصر" لابن الوردي. وبعد دراسة كل كتاب ذكرنا ما توصلنا اليه من استنتاجات.

أما الفصل الثالث فخصصناه لدراسة اثر النزعة المذهبية على كتب تاريخ الدول والمدن، حيث تطرقنا لأثرها على "كتاب الروضتين في أخبار الدواتين النورية و الصلاحية" وكتاب " الذيل على الروضتين" لأبي شامة، وكتاب " مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" لابن واصل، كما درسنا كتابي "بغية الطلب في تاريخ حلب" و "زبدة الحلب من تاريخ حلب" لابن العديم، و " ذيل تاريخ مدينة السلام" لابن الدبيثي، و " ذيل تاريخ بغداد" لابن النجار.

وخصصنا الباب الثالث لدراسة اثر النزعة المذهبية في كتب الطبقات والتراجم، ففي الفصل الأول منه تطرقنا لأثرها على كتب الطبقات؛ فدرسنا "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي، و "طبقات الحنفية" لعبد القادر القرشي، و" طبقات المالكية" لابن فرحون، و"طبقات الحنابلة" لابن رجب. وذكرنا بعد كل مبحث الاستنتاجات.

وفي الفصل الأخير تطرقنا لأثر النزعة المذهبية على كتب التراجم بدراسة "سير أعلام النبلاء" للذهبي، و "الوافي بالوفيات" للصفدي، و "وفيات الأعيان" لابن خلكان، بالإضافة إلى "الوفيات" للبرزالي و ذيل "الوفيات" لابن رافع. واشرنا ضمن ذلك إلى الاسنتاجات، ثم لخصنا نتائج هذه الدراسة المتواضعة في الخاتمة.

وقد حرصنا على انتهاج التحليل التاريخي لدراسة و تحليل اثر النزعة المذهبية على المصنفات الآنف ذكرها، كما حرصنا على انتهاج المقارنة بين المصادر من حيث مظاهر تأثرها بالمذاهب، ووزنها

العلمي، بالإضافة إلى المقارنة بين مواقف المؤرخين من المعطيات المتعلقة بالمذاهب، والمقارنة فيما يتعلق بتأثير التصوف على المصنفات.

أما عن المصادر الرئيسية فتاتي في طليعتها المصنفات السابق ذكرها كونها المعنية بالتحليل؛ فيعد "الكامل" لابن الأثير من ابرز المصادر وأشملها، وهو مرتب على السنين، وتميز بالتركيز على الحوادث ولم يركز ابن الأثير على الترجمة للأعلام، فبعد ذكره حوادث سنة ما يشير بإيجاز إلى بعض الوفيات.

ومن أهم المصادر نجد " تاريخ الإسلام"؛ أرخ فيه الذهبي للفترة الممتدة من صدر الإسلام حتى أواخر القرن السابع الهجري(ق13م)، واعتنى بالتراجم فاحتوى كتابه على قرابة أربعين ألف ترجمة، إذ نجده يذكر حوادث السنة ثم يترجم للأعلام المتوفين خلالها باستيفاء، ويطيل كثيرا من التراجم، ويهتم بنقل أقوال كبار علماء الحديث عن المترجم له؛ وذلك راجع إلى شدة اهتمام الذهبي بعلم الحديث.

أما كتاب "العبر في خبر من غبر" فقد التزم فيه الذهبي الاختصار؛ وأرخ للفترة الممتدة من بداية القرن الأول الهجري إلى سنة 740هـ/1339م، ورتبه على السنين فذكر أشهر الحوادث الوفيات؛ ورغم الاختصار إلا أننا نجد المصنف يبدي رأيه و موقفه في عدة مواضع من كتابه.

ويعتبر كتاب" مرآة الزمان" لسبط ابن الجوزي من أبرز المصنفات المؤلفة خلال القرن السابع الهجري(ق13م)، رتبه مصنفه على السنين، فذكر الحوادث والتراجم، غير أننا لم نتمكن من الحصول على كافة أجزاء الكتاب.

ومن المصادر الرئيسية التي رجعنا إليها "البداية والنهاية"، وهو مرتب أيضا حسب السنين، وازن فيه ابن كثير بين الحوادث والتراجم، فاشتمل كتابه على تراجم أكثر من التي نجدها في "الكامل" و أقل من التي نجدها في "تاريخ الإسلام"، و آخر ما ذكره حوادث سنة 768هـ/ 1366م، و رغم أنه أرخ لفترة زمنية طويلة إلا أنه اهتم بالنقد والتعليق على بعض ما نقله.

و اختصر أبو الفدا في " المختصر في أخبار البشر" تاريخ الأمم الماضية كتاريخ الفرس والروم، ثم انتقل إلى التاريخ الإسلامي فاختصر أخباره حتى نهاية الثلاثين سنة الأولى من القرن الثامن الهجري (ق14م) تقريبا، وركز على الجانبين السياسي والعسكري.

أما المصنفات في تاريخ الدول و المدن فمن أبرزها " مفرج الكروب" لابن واصل أرخ فيه للدولة الأيوبية وركز على الجانب السياسي والعسكري، وكتاب " بغية الطلب في تاريخ حلب" لابن العديم و ركز مصنفه على التراجم، فترجم لعدد كبير من الأعلام و أطال تراجم كثيرة.

ورجعنا إلى كتب الطبقات ومنها "طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين السبكي، و قد حرص على استيفاء ذكر أعلام الشافعية و التوسع في كثير من التراجم، لكن أسلوبه ابتعد في مواضع كثيرة عن الأسلوب التاريخي إلى الأدبي، وأمعن في إطراء كثير ممن ترجم لهم. كما رجعنا إلى "طبقات الحنفية" لعبد القادر القرشي، و معظم تراجم هذا الكتاب كانت مختصرة، وذكر مصنفه أن كتابه يعد أول ما صنف في طبقات الحنفية. و من كتب الطبقات التي رجعنا إليها أيضا "الديباج المذهب"، ترجم فيه ابن فرحون لأعلام المالكية، وقد اختصر كثيرا من التراجم و أطال تراجم أخرى نسبيا. أما "الذيل على طبقات الحنابلة" لابن رجب فترجم فيه لأعلام الحنابلة ابتداء من وفيات سنة 460هـ/ 1068م حتى وفيات سنه751هـ/ 1350م، لأنه ذيل على "طبقات الحنابلة" لأبي الحسين بن أبي يعلى الفراء، لكن ابن رجب لم يترجم لكثير من أعلام الفترة المذكورة و ولم يترجم لوفيات النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (ق14م) ، ولو فعل لكان أتم و أوفى.

وأبرز كتب التراجم التي رجعنا إليها "سير أعلام النبلاء" ترجم فيه الذهبي للمشاهير ابتداء من فترة صدر الإسلام حتى سنة 746هـ/ 1345م تقريبا، وحرص – رغم كثرة التراجم– على النقد و التعليق على كثير مما ينقله؛ فكتابه غزير الفوائد و المادة التاريخية. و من أبرز كتب التراجم كذلك "الوافي" للصفدي

رتب على حروف المعجم، واشتمل على حوالي اثنتي عشرة ألف ترجمة. كما نشير إلى "وفيات الأعيان" لابن خلكان، وتراجمه أقل من تراجم "السير" و"الوافي".

و استفدنا من "الجامع الصحيح " للحافظ الشهير محمد بن إسماعيل البخاري، ومن "المسند" للإمام أحمد بن حنبل و" منهاج السنة النبوية" لتقي الدين ابن تيمية. ونظرا لتخصص بعض الكتب في موضوع الفرق و النحل فقد رجعنا إليها خاصة في الفصل الأول، ومنها "مقالات الإسلاميين" لأبي الحسن الأشعري، و "الفصل في الملل والنحل" لابن حزم. وحددنا مواقع المدن والبلدات والمواضع بالرجوع إلى عدة مصادر منها "معجم البلدان" لياقوت الحموي، فمعجمه يتميز بالتفصيل والدقة في التحديد. و بينا أنساب الأعلام من المصادر المتخصصة في ذلك خاصة كتاب "الأنساب" للسمعاني.

أما عن المراجع الرئيسية فمنها كتاب" مادة مقالات الفرق " لأبي زيد مكي، وكتاب "الماتريدية و موقفهم من توحيد الأسماء و الصفات" لشمس الدين الأفغاني، ومصنفات عبد القادر السندي عن التصوف، و تضمنت المراجع المذكورة دراسات نقدية للطوائف و الفرق.

كما استفدنا من "سلسلة الأحاديث الصحيحة" و "سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة" للمحقق ناصر الدين الألباني، وهذان الكتابان من أنفع المصنفات الحديثية، و استفدنا من مصنفات الباحث الناقد د/ خالد كبير علال خاصة " التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي" و "الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث" و "بحوث حول الخلافة و الفتنة الكبرى"، وهي مصنفات نقدية عالجت مواضيع متعلقة بالفرق و المذاهب، وتضمنت نتائج هامة.

و واجهنا في إنجاز هذه الدراسة المتواضعة عدة متاعب؛ منها تعذر الحصول على بعض المصادر خاصة الأجزاء المفقودة من تاريخ البرزالي، وعدة أجزاء من "مرآة الزمان". ومنها استغراق استخراج المادة المعرفية المتعلقة بأثر النزعة المذهبية على المصنفات وقتا طويلا كونها مبثوثة في ثنايا التراجم، لا سيما

و أن بعض المصادر متضمن لآلاف التراجم مثل "تاريخ الإسلام"و "سير أعلام النبلاء" و"الوافي". بالإضافة إلى كثرة المصادر التي أوضحنا أثر النزعة المذهبية عليها.

و في ختام المقدمة ، وبعد حمد الله عزّ وجلّ، لا يفوتني شكر كلّ من ساعد في إنجاز هذه الدراسة المتواضعة لا سيما الأستاذ المشرف د/ بوطارن مبارك، و آمل ان أكون قد وفقت في الوصول إلى إجابات على عناصر الإشكالية المتقدم ذكرها، فما كان من توفيق فمن الرحمان ، وما كان من نقص فمن نفسي والشيطان، و الحمد لله رب العالمين.

– الفصل الأول: الأوضاع المذهبية في المشرق الإسلامي خلال القرنين (7–8هـ/13–14م).

لقد كان للمذاهب و الفِرَق تأثير قويٌّ على تاريخ الأُمَّة الإسلامية، تتجلّى مظاهره في الحياة السياسية والعلمية والاجتماعية. وتعود بدايات الحياة المذهبية عند المسلمين إلى فترة القرن الأوَّل الهجري (ق 7م)؛ إذْ أَفْضت الفتنة الكبرى[1] خلال أواخر صدر الإسلام إلى نتائج وانعكاسات خطيرة؛ فقد برزت خلالها:

– طائفة الخوارج: وهم الذين خرجوا على الخليفة الراشد الرابع عليّ بن أبي طالب سنة 37هـ/ 657م وحاربوه، وذلك إثر وقوع التحكيم[2]، ثم انقسمت هذه الطائفة خلال القرن الأوَّل الهجري (ق7م) إلى طوائف فرعية نذكر من انحرافاتها العَقَدية تكفير أهل الكبائر واعتقاد خلودهم في النار، والتبرؤ من عثمان بن عفّان وعليّ بن أبي طالب (رضي الله عنهما).[3]

– طائفة الشيعة: فالشيعة لُغَةً هم الأنصار والأتباع، أمَّا اصطلاحا فهم الذين يعتقدون أنّ الخلافة في عليٍّ رضي الله عنه وجوبا بالنص الشرعي، وأنَّها " لا تخرج من أولاده."[4] و أوّل من قال " بفَرْض إمامة عليٍّ" هو عبد الله بن سَبَأ[5] وأصحابه، كما أنّه أوَّل من أظهر الطعن في أبي بكر الصدِّيق و عمر بن

---

(1) – الفِتنة الشهيرة التي قامت بعد استشهاد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) سنة 35هـ/ 665 م؛ إذْ لم يُجمِع الصحابة على مبايعة الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، واستمرَّت حتى سنة 41هـ/ 661 م. (أنظر: خالد كبير علال، **الصحابة المعتزلون للفتنة الكبرى**، ط1، دار البلاغ – الجزائر، 1424هـ/ 2003م، ص 76.)

(2) – تمّ تحكيم الصحابيين الشهيرين عمرو بن العاص (ت 43هـ/ 663 م) و أبي موسى الأشعري (ت44هـ/ 664 م) بين أهل العراق و أهل الشام خلال الفتنة الكبرى بعد وقعة صِفِّين ، و لم يُفض ذلك إلى نهاية للفتنة الكبرى التي استمرَّت حتى استشهد الخليفة عليّ (رضي الله عنه) سنة 40هـ/ 660 م، ثم بايع الحسن بن علي سنة 41هـ/ 661م مُعاوية بن أبي سفيان الخليفة الأُمَوي الأوّل (ت 60هـ/ 680 م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر في خبر من غَبر**، ج3، (تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1405هـ/ 1985، ص 31).

(3) – أبو زيد مكي، **مادّة مقالات الفرق**، ط1، دار الحراز، جدة – السعودية، 1429هـ/ 2008م، ص 29.

(4) – محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **المِلَل والنِّحَل**، ج1، (تحقيق: أمير مهنا وحسن علي)، ط3، دار المعرفة، بيروت – لبنان، 1414هـ/ 1993م، ص 169.

(5) – يهوديٌّ من أهل اليمن تظاهر بالإسلام، توفي خلال النِّصف الأوَّل من القرن الأوَّل الهجري (ق7 م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **ميزان الاعتدال**، ج4، (تحقيق: علي معوض وعادل أحمد)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1416هـ – 1995م، ص 105).

الخطَّاب وعثمان بن عفَّان و باقي الصحابة، لكنَّ أفكاره المنحرفة لم تنتشر على نطاقٍ واسعٍ خلال الفتنة الكبرى بل خلال الفترات اللاحقة.(1)

وشهد النِّصف الأوَّل من القرن الثاني الهجري (ق8م) ظهور طائفتين خطيرتين كانت لهما آثار قوية خلال القرون اللاحقة وهما:

– طائفة الجَهْمية: تُنسَب إلى مُؤسِّسها أبي محرز الجَهْم بن صَفْوان (ت128هـ/ 746م)، قال عنه الذهبي(2): "... أُسُّ الضلالة و رأس الجَهْمية."(3) وهو من أهل خُراسان(4)، وقد ذمّه علماء الإسلام سواء المعاصرين له أو من كان بعدهم. وتُعدُّ تِرمذ(5) منشأ الجَهْمية، ومنها امتدّ تأثيرها إلى باقي مدن خُراسان. وتتلخص انحرافاتها العَقَدية في إنكار جميع أسماء وصفات الله عزّ وجلّ، و القول بأنّ القرآن مخلوق والزعم أنّ الإيمان هو مُجرّد معرفة القلب أنّ الله هو الربّ الخالق، ولا عِبرة – عندهم – بالإقرار باللسان ولا بالأعمال. كما يُنكرون كثيرا من أمور المَعاد كعذاب القبر ونعيمه وشفاعة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم القيامة، ويعتقدون فناء الجنَّة والنار، ويزعمون أنّ " الله قريب بذاته، وأنّ الله مع كلِّ أحد بذاته عزّ وجلّ ...".(6)

– طائفة المُعتزلة: وهي فِرقة ظهرت خلال النصف الأوّل من القرن الثاني الهجري (ق8هـ) في

(1) – ناصر القفاري، **أصول مذهب الشيعة** ، د ن، ص ص 78 – 80.

(2) – هو المؤرِّخ الحافظ الشهير شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي الدمشقي الشافعي، صاحب التاريخ الكبير " تاريخ الإسلام" ومصنَّفات أخرى كثيرة، توفي سنة 748هـ/ 1347م في دمشق. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، (حقّقه: محمد تامر وآخرون)، ط1، دار البيان العربي، القاهرة – مصر، 1428هـ/ 2006م، ص 587).

(3) – شمس الدين الذهبي، **سِيَر أعلام النُّبلاء**، ج6، (تحقيق: حسين الأسد)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1402هـ/ 1982م، ص 26.

(4) – خُراسان بلاد واسعة تمتدّ شرق بلاد فارس " وآخر حدودها ممّا يلي الهند ... وتشتمل على " مدن كبرى منها نيسابور و مَرْو و هَراة و بلخ و سرخس. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، **مُعجم البلدان**، ج2، ط1، دار صادر، بيروت – لبنان، 1397هـ/ 1977م، ص 350. و أنظر: الملحق الأول ص400).

(5) – تِرمذ مدينة شهيرة في شرق خُراسان. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 430).

(6) – غالب عواجي، **فِرَق معاصرة تنتسب إلى الإسلام**، ط4، المكتبة العصرية، جدة – السعودية، 1422هـ/ 2001م، ص 1137، 1138.

البصرة[(1)] على يد واصِل بن عطاء البَصْري المتوفَّى سنة 131هـ/ 749م، قال عنه الذهبي: "... كان من أَجْلاد المُعتزلة."[(2)] وسُمِّيت " مُعتزلة " بسبب اعتزال واصِل حلقة الحسن البَصْري[(3)] (في مسجد بالبصرة) بعدما ألقى رجلٌ سؤالا بشأن مُرتكِب الكبيرة فبادر واصل إلى الإجابة وقال: " أمَّا أنا فأقول إنّه لا مؤمن ولا كافر بل هو في مَنْزلة بين المنزلتين." أي منزلة الإيمان و منزلة الكُفر، ثم قام إلى آخر المسجد وتبعته جماعة، فقال الحسن: " اعتزلنا واصِل." فسُمّوا "مُعتزلة " لذلك.[(4)]

وقد تأثَّر المُعتزلة بالجَهْمية تأثُّرا جليًّا؛ ولذا نجد العلماء قد أطلقوا مصطلح " الجَهْمية " على الفِرْقتين. و نذكر من انحرافات المُعتزلة نَفْي صفات الله تعالى و القول بخَلْق القرآن و أنّ مُرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين و أنّه خالد في النّار.[(5)] و رغم الظُّهور المبكِّر لهذه الفِرقة و الفِرَق السابقة، فإنّ أهل السُّنة والجماعة قد ظلّوا ظاهرين يُمَثّلون جمهور الأُمّة، لكنّ استمرارية التطورات المذهبية خلال القرون اللاحقة أنتجت معطيات جديدة نُبرزها ببيان واقع المذاهب و الطوائف العَقَدية في المشرق الإسلامي خلال القرنين السابع و الثامن الهجريين (ق13/ 14م).

أوَّلا – المذاهب والطوائف العَقَدية:

قد تشترك المذاهب والطوائف في بعض الأصول وتختلف في أصول أخرى، وقد يكون بينها اختلاف عامّ كما سيتّضح في هذا المبحث:

أ– أهل الحديث:

يُوظَّف مصطلح "أهل السُّنة والجماعة " للدلالة على معنيين؛ فقد يُستخدم في مقابل مصطلح "الشيعة "

---

(1) – البَصْرة إحدى أعظم مدن العراق، وهي في جنوبه. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 430).

(2) – شمس الدين الذهبي، **ميزان الاعتدال**، ج7، ص 119.

(3) – هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يَسَار البَصْري (ت 110هـ/ 728م)، "كان من سادات التابعين و كبرائهم". (أنظر: شمس الدين ابن خلِّكان، **وفيات الأعيان**، ج2، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار صادر، بيروت – لبنان، 1386هـ/ 1968م، ص 69)

(4) – أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص 81.

(5) – غالب عواجي، المرجع السابق، ص 1166. و أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص 82، 83.

كما قد يُطلَق على من يلتزم بكافّة أصول أهل السُّنة؛ قال تقيُّ الدين ابن تيمية[1]: "... فلفظ "أهل السُّنة " يُراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة، فيدخل في ذلك جميع الطوائف " إلاّ الشيعة، " وقد يُراد به أهل الحديث ... فلا يدخل فيه إلاّ من يُثبِت الصفات لله تعالى، ويقول أنَّ القرآن غير مخلوق...، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسُّنة.[2] وتتمثَّل أبرز هذه الأصول في ما يلي:

- الاعتماد على الكتاب (القرآن الكريم) و السُّنة النبوية كمصدرين معصومين وحيدين[3]؛ قال البَرْبَهاري[4]: "... و إعلم رحمك الله أنَّ الدين إنّما جاء من قِبَل الله تبارك وتعالى لم يوضع على عقول الرجال وآرائهم، وعِلمه عند الله و رسوله فلا تتّبع شيئا بهواك ...".[5] وقال ابن تيمية: "... فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان... لم يكن أحدٌ منهم يُعارض النصوص بمعقوله... و إذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام فيه، نظر فيما قاله الرسول، فمنه يتعلَّم وبه يتكلَّم وفيه ينظر ويتفكَّر و به يستدلّ...". فالأصول التي يعتمد عليها أهل الحديث ترتكز على القرآن و الحديث؛ فنجدهم يستدلّون على ما يجب من الاعتقاد بالكتاب ثم بالسُّنة ثم بأقوال الصحابة و التابعين.[6]

- تقديم النَّقْل (الكتاب والسُّنة) على العقل، مع التأكيد على عدم إمكانية تعارضهما؛ فالله عزَّ و جلَّ هو الذي أنزل الوحي، وهو سبحانه الذي وهب الإنسان العقل، وأمره بإعمال عقله في هذا الوحي فَهْمًا وتَدَبُّرا و حِفظًا، ولا يُمكن أن يأمره بتدبُّر ما ترفضه العقول السليمة.[7]

---

(1) – الفقيه المُحدِّث المُفسِّر الشهير " شيخ الإسلام" أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيمية الحنبلي، له مصنّفات كثيرة شهيرة، وكانت وفاته بدمشق سنة 728هـ/ 1327م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **ذيول العِبر**، ج4، ص 84).

(2) – تقيّ الدين ابن تيمية، **مِنهاج السُّنة النبوية**، ج 2 ، (تحقيق: محمد رشاد)، ط1، د ن، 1406هـ/ 1886م، ص 221.

(3) – خالد كبيرعلال، **الأزمة العقيدية بين الاشاعرة وأهل الحديث**، ط1، دار الإمام مالك، البليدة– الجزائر،1426هـ/2005م، ص 7.

(4) – هو أبو محمد الحسن بن علي البَرْبَهاري، وهذه النسبة إلى " بربهار"، وهي الأدوية التي تُجلَب من الهند، قال عنه الذهبي: "... الفقيه القدوة ... كان له صيت عظيم." توفي سنة 329هـ/ 941م في بغداد. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 33).

(5) – فيصل الجاسم، **الاشاعرة في ميزان أهل السُّنة**، ط1، المكتبة الخيرية، الكويت، 1428هـ/ 2007م، ص66.

(6) – تقيّ الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج13، (تحقيق: عامر الجزار و أنور الباز)، ط3، دار الوفاء، المنصورة – مصر، 1426هـ/ 2005م، ص 37. و فيصل الجاسم، المرجع السابق، ص 65.

(7) – أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص 71.

– الاعتقاد أنَّ الإيمان " هو اعتقاد بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح، يزيد وينقص." والمُراد بأنّه "اعتقاد بالجنان" تصديق القلب و إيقانه بأركان الإيمان؛ قال الله تعالى: " يا أيّهاالرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكُفر من الذين آمنوا بأفواههم ولم تُؤمن قلوبهم."[(1)] وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم عن الإيمان: " أنْ تُؤمن بالله وملائكته وكُتبه و رسله واليوم الآخر، وتُؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه."[(2)] ويقترن ذلك التصديق بتحقيق أعمال القلوب من الإخلاص لله والخوف والرَّجاء والتوكل. والأدلّة على ذلك كثيرةٌ منها قول الله تعالى: " إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم و إذا تُلِيَت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربِّهم يتوكلون. الذين يُقيمون الصلاة وممّا رزقناهم يُنفقون."[(3)] أمّا المُراد بـ " قول اللسان" فهو التكلّم بكلمة الإسلام والإقرار بلوازمها، ومن أدلّة ذلك الآية: " قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم و إسماعيل و إسحاق ويعقوب والأَسْباط و ما أوتي موسى و عيسى وما أُوتي النبيّون من ربِّهم...".[(4)] والمُراد بـ "عمل الجوارح" الالتزام العملي بفعل الواجبات وترك المُحرّمات، فالآيتان: " إنّما المؤمنون الذين إذا ذُكِر الله وجلت قلوبهم ..." تدلاّن على ذلك، كما تدلّ عليه الآية: "... فإن تنازعتم في شيء فرُدّوه إلى الله والرسول إنْ كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر، ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا."[(5)] و الحديث: " الإيمان بِضع وسبعون... شُعبة، أفضلها قول لا إله إلاّ الله، و أدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شُعبة من الإيمان."[(6)]

– إثبات كلِّ أسماء الله الحسنى وصفاته سبحانه وتعالى دون تمثيل لها بصفات المخلوقين؛ فيُنزِّهون (أهل الحديث) الله عن المُماثلة للمخلوقات دون " تعطيل الوارد في النصوص من الأسماء و الصفات

---

(1) – سورة المائدة، (جزء من الآية 41).

(2) – مُحيي الدين النووي، **صحيح مُسلم بشرح النووي**، ج1، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر، د ت، ص 134. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 7.

(3) – سورة الأنفال، الآيتان، 2، 3.

(4) – سورة البقرة، الآية 136.

(5) – سورة النساء، الآية 59.

(6) – مُحْيي الدين النووي، المصدر نفسه، ج1، ص 218.

فهم ينطلقون[1] من قوله تعالى: " ليس كمِثْله شيء وهو السميع البصير."[2] وقد وصف الله تعالى " نفسه بأنّه سميعٌ بصيرٌ، وعليمٌ حكيمٌ وقويٌّ عزيزٌ ...، وأنّه كلّم موسى تكليمًا، وأنّه استوى على عرشه إلى غير ذلك من" صفاته سبحانه.[3] و من الآيات الدالّة على ذلك قوله تعالى: " لقد سمع الله قول الذين قالوا إنّ الله فقير ونحن أغنياء...". و " قال لا تخافا إنّي معكما أسمع و أرى." و " الرحمان على العرش استوى." و" ... كلّ شيء هالك إلاّ وجهه...". و " وكلَّم الله موسى تكليما." و " رضي الله عنهم و رضوا عنه...". و" أَلَمْ تر إلى الذين تَوَلّوا قوما غضب الله عليهم...".[4] و من الأحاديث قول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ ."[5]

وأقوال العلماء في إثبات الصفات لله دون تشبيه كثيرة؛ منها قول الإمام مالك[6] بعدما جاء إليه رجلٌ فقال: " يا أبا عبد الله " الرّحمان على العرش استوى" كيف استوى؟ فقال مالك: " الكَيْف غير معقول والاستواء ... غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بِدْعة."[7] (أي أنّ معنى استواء الله تعالى على العرش معلوم من لُغة العرب، وكيفية ذلك غير معلومة.) ومنها قول الإمام أبي حنيفة[8]: "لا يُوصف

---

[1] – أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص 29، 73.

[2] – سورة الشورى، الآية 11.

[3] – أبو بكر الجزائري، **منهاج المسلم**، ط4، دار السلام، د م، دت، ص 15.

[4] – سورة آل عمران، (جزء من الآية 181). وسورة طه، الآيتان 46، 5. و سورة القصص، (جزء من الآية 88). و سورة النساء، (جزء من الآية 164). و سورة البيّنة، (جزء من الآية 8). و سورة المُجادلة، (جزء من الآية 14).

[5] – محمد بن إسماعيل البُخاري، **الجامع الصحيح**، ج1، (تحقيق: محب الدين الخطيب)، ط1، المكتبة السلفية، القاهرة – مصر، 1400هـ/ 1979م، ص 359.

[6] – هو الإمام الشهير أبو عبد الله مالك بن أَنَس بن مالك الخَزْرَجي. قال عنه الذهبي: " إمام دار الهجرة " (المدينة) " وفقيه الأُمّة." وُلد سنة 94هـ/ 713م، وتوفي سنة 179هـ/ 795م في المدينة. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج1، ص 210).

[7] – شمس الدين الأفغاني، **الماتُريدية و موقفهم من توحيد الأسماء و الصفات**، ج3، ط2، مكتبة الصديق، الطائف – السعودية، 1406هـ/ 1986م، ص 20.

[8] – هو الإمام الشهير أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت الكوفي – والكوفة من أهمّ مدن العراق – ، قال عنه الذهبي: "...جمع الفقه والعبادة و الورع و السخاء." وُلِد سنة 80هـ/ 699 م، و توفي سنة 150هـ/ 767م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص 164).

الله بصفات المخلوقين، وغضبه و رِضاه صفتان من صفاته بلا كَيْف، وهو قول أهل السُّنة والجماعة...". ومنها قول حمَّاد بن زيد[(1)] لمّا سُئِل عن الحديث: " ينزِل الله تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا..." فقال: " حقٌّ كلّ ذلك كيف شاء الله." وقال الإمام الشافعي[(2)]: " لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيُّه صلّى الله عليه وسلّم ...، فإنّ هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه و وصفه بها رسوله ممَّا لا يُدرَك حقيقته بالفِكر...، ولكن يُثبت " (المسلم) " الصفات وينفي التشبيه كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذِكْرُه فقال: " ليس كمِثْله شيء وهو السميع البصير."[(3)]" كما قال الإمام أحمد[(4)] عن أحاديث الصفات: " نُؤمن بها ونُصدِّق بها ولا نردُّ منها شيئا إذا كانت بأسانيد صِحاح، ولا نردُّ على الرسول صلّى الله عليه وسلّم قوله ...، ولا يوصف الله تعالى بأكثر ممّا وصف به نفسه ...".[(5)] وقال ابن خُزَيْمة[(6)]: "... نشهد شهادة مُقِرٍّ بلسانه، مُصَدِّقٍ بقلبه مُستيقنٍ بها في هذه الأخبار من ذِكْر نزول الربِّ من غير أنْ نَصِف الكيفية؛ لأنّ نبيّنا المصطفى لم يُبيِّن لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ...، والله جلَّ وعلا لم يترك – ولا نبيُّه عليه السلام – بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم...".[(7)] وقال ابن عبد البَرّ المالكي[(8)]: "... أهل السُّنة مُجمِعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسُّنة، والإيمان بها

(1) – هو أبو إسماعيل حمَّاد بن زيد بن درهم " إمام أهل البصرة "، يُعدّ من كبار علماء القرن الثالث الهجري (ق 9م)، توفي سنة 179هـ/ 795م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 211).

(2) – هو الإمام الشهير أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي القُرَشي " فقيه العَصْر"، وأحد كبار علماء الأُمّة، توفي في مصر سنة 204هـ/ 819 م، له مُصنّفات قيِّمة. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 269).

(3) – فيصل الجاسم، المرجع السابق، ص ص 94 – 98.

(4) – الإمام الشهير أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل البغدادي، قال الذهبي في ترجمته: " شيخ الإسلام وعالم أهل العصر"، توفي في بغداد سنة 241هـ/ 855م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص 342).

(5) – المُوفّق ابن قُدامة، **الردّ على ابن عقيل**، (تحقيق: أحمد المزيدي)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1425هـ/ 2004م، ص24.

(6) – الفقيه الشهير أبو بكر محمد بن إسحاق بن خُزَيْمة النيسابوري " الحافِظ صاحب التصانيف". توفي سنة 311هـ/ 923م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 462).

(7) – فيصل الجاسم، المرجع السابق، ص 112.

(8) – العالم الشهير أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبر البَرّ القُرْطُبي – وقُرطبة مدينة كبرى في الأندلس – ، وهو أحد كبار العلماء، توفي سنة 463هـ/ 1070م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج2، ص 316).

و حملها على الحقيقة لا على المجاز ، إلاّ أنّهم لا يُكَيِّفون شيئا من ذلك...".[1] كما قال الذهبي: " ... فالنزول والكلام والسمع والبصر والعلم والاستواء عبارات جليَّة واضحة للسامع، فإذا اتّصف بها من ليس كمِثْله شيء فالصفة تابعة للموصوف، وكيفية ذلك مجهولة عند البشر."[2]

ومن الأصول التي يتمسّك بها أهل الحديث موالاة كلّ الصحابة والاقتداء بهم، وأفضلهم الخلفاء الراشدون أبو بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعليّ بن أبي طالب[3] (رضي الله عنهم)؛ ففي الحديث: "... فعليكم بسُنّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المَهْديين، عضوا عليها بالنواجِذ."[4] قال ابن عبد البَرّ عن الصحابة: "... وكانوا أعمق الناس عِلْمًا و أوسعهم فهْمًا."[5]

وخلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13–14م) كان معظم علماء أهل الحديث في المشرق الإسلامي حنابلة. [6] ومن أعلامهم في الشام ومصر الفقيه المُحدِّث الشهير أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي المَقْدسي الدّمشقي[7] (ت600هـ/ 1203م) وشرف الدين أحمد بن عبد الله بن قُدامة المَقدسي (ت613هـ/ 1216م)، وعِماد الدين إبراهيم بن عبد الواحد المعروف بالعِماد المَقدسي– أخوه عبد الغني– (ت614هـ/1217م)، وكذا الفقيه الشهير مُوفّق الدين عبد الله بن أحمد بن قُدامة المَقدسي الدمشقي (ت1223/620م)، وجمال الدين عبدالله بن عبد الغني بن عبد الواحد الدِّمشقي (ت629هـ/

---

(1) – تقيّ الدين ابن تيمية، **بيان تلبيس الجَهْمية**، ج1، (تحقيق: يحيى الهنيدي)، ط1، مكتبة الملك فهد، د م، 1426هـ/ 2004م، ص 184.

(2) – فيصل الجاسم، المرجع السابق، ص 139.

(3) – خالد كبير علال، **الأزمة العَقيدية**، ص 7.

(4) – محمد بن عيسى التِرمذي، **سُنَن التِرْمِذي**، ج5، (تحقيق: إبراهيم عوض)، ط2، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة – مصر، 1395هـ/ 1975م، ص 44.

(5) – المُوفّق ابن قُدامة، المصدر السابق، ص 22.

(6) – تاج الدين السُبْكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج3، (تحقيق: محمود الطناجي و محمد الحلو)، ط1، دار إحياء الكتب العربية، بيروت – لبنان، ص 373).

(7) – نشأ في دمشق، لكنّ أسرته مَقْدِسية الأصل (نسبة إلى بيت المقدس)، والأمر نفسه بالنسبة لعدّة أعلام سنذكرهم لاحقا. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج21، ص 443).

1231م).[1]

ومن أعلامهم كذلك " الحافِظ" ضياء الدين محمد بن أحمد المَقْدسي الدِّمشقي (ت 643هـ/ 1245م) وعبدالرَّحمان بن محمد بن أحمد بن قُدامة الدِّمشقي(ت682هـ/ 1283م). ومنهم شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله ابن تيمية الحَرَّاني[2] ثم الدِّمشقي (ت682هـ/ 1283م)، وأبناؤه خاصة العالم الشهير تقيّ الدين ابن تيمية (ت 728هـ/ 1327م) وشرف الدين عبد الله ابن تيمية (ت727هـ/ 1326م).[3] ونذكر أيضا عِماد الدين أحمد بن إبراهيم الواسِطي[4] نزيل القاهرة المعروف بابن شيخ الحزاميين[5](ت711هـ/1311م)، وتقيّ الدين سليمان بن حمزة الدمشقي المتوفّى في دمشق عام 715هـ/ 1315م، وشهاب الدين أحمد بن مُرّي البعلبكي[6] (توفي حوالي سنة 732هـ/ 1331م). كما نذكر محمد بن أحمد بن عبد الهادي المَقْدسي الصالحي [7] (ت744هـ/ 1343م) – وهو من أبرز علماء القرن الثامن الهجري (ق14م) – والعالم الشهير شمس الدين محمد بن أبي بكر بن سَعْد الدِّمشقي المعروف بابن القَيِّم (ت751هـ/ 1350م)، وكلاً من شمس الدين محمد بن مُفلِح بن محمد الدِّمشقي الصالحي(ت 763هـ/ 1361م)، وعبد الرحمان بن أحمد بن رَجَب الدمشقي المتوفّى سنة 795هـ/1392م.[8]

ومن أعلام أهل الحديث في العراق والجزيرة الفُراتية (ق 7–8هـ/13–14م) المُحَدِّث نور الدين عبد اللطيف بن علي بن نفيس البغدادي (ت649هـ/ 1251م)، و" المُحَدِّث الحافظ " عبد القادر بن عبد الله

---

(1) – عبد الرحمان ابن رَجَب، **الذَّيل على طبقات الحنابلة،** ج3، (تحقيق: عبد الرحمان العثيمين)، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض – السعودية، 1425هـ/ 2004م، ص 108، 194، 197، 227.

(2) – حرّان مدينة من أهم مدن الجزيرة الفُراتية، وهذه الأخيرة إقليم في النواحي الشمالية للعراق، و فيها بلدة جزيرة ابن عمر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 235، 138. و الملحق الأول ص 400).

(3) – شمس الدين الذهبي، **العِبَر،** ج3، ص 349. و ج4، ص 81، 84.

(4) – نسبة إلى واسط، إحدى أكبر مدن العراق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج5، ص 347.)

(5) – الحزامون مَحلة في واسط. (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 252). وُلد فيها المترجم له. (أنظر: عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر نفسه، ج 4، ص 381).

(6) – نسبة إلى مدينة بعلبك، وهي من أبرز مدن الشام. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج1، ص453).

(7) – نسبة إلى الصالحية، و هي " قرية كبيرة" في سفح جبل قاسيون قرب دمشق. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 390).

(8) – بكر أبو زيد، **المدخل المُفَصَّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل،** ج1، ط1، دار العاصمة، دم، ص 734، 989، 990.

الرُّهاوي[1] ثم الحرَّاني المتوفّى في حرَّان سنة 612هـ/ 1215م، وفخر الدين محمد بن أبي القاسم الخَضِر بن تيمية الحرّاني المُفسِّر خطيب حرَّان (ت 622هـ/ 1225)، و ابنه سيف الدين عبد الغني بن محمد خطيب حرَّان أيضا المتوفّى سنة 639هـ/ 1241م. و منهم مجد الدين أبو البركات بن عبد الله بن أبي القاسم الخَضِر بن تيمية الحرّاني (ت 652هـ/ 1254م)، وهو جدّ تقيّ الدين ابن تيمية.[2]

وجدير بالذِّكْر أنَّ علماء أهل الحديث من غير الحنابلة قليلون خلال (ق7 – 8هـ/ 13– 14م) فمنهم الفقيه تاج الدين زيد بن الحسن الكِنْدِي[3] الحنفي نزيل دمشق (ت 613هـ/ 1216م)، و" الحافظ" عَلَم الدين القاسم بن محمد بن البِرْزالي الدِّمشقي الشافعي (ت 739هـ/ 1338م). ومنهم كذلك " الحافِظ" جمال الدين يوسف بن عبد الرحمان بن يوسف الشهير بأبي الحَجَّاج المِزّي[4] الدِّمشقي الشافعي (ت 742هـ/ 1341م)، وهو من كبار علماء (ق8هـ/ 14م).[5] و نذكر أيضا " الحافظ الكبير مؤرِّخ الإسلام و شيخ المُحَدّثين " شمس الدين الذهبي الشافعي، ومحمد بن عبد الله بن أحمد المعروف بابن رُشَيِّق المالكي المتوفّى في دمشق سنة 749هـ/ 1348م، والمؤرِّخ المُفَسِّر الشهير عِماد الدين أبو الفِدا إسماعيل بن عمر بن كثير الدِّمشقي الشافعي (ت774هـ/ 1372م). كما نُشير إلى شهاب الدين أحمد بن يحيى ابن أبي حجلة التلمساني[6] الحنفي نزيل القاهرة (ت776هـ/ 1374م)، ومحمد بن عبد الله الطرابلسي[7] الشافعي (ت 779هـ/ 1377م)، و إسماعيل بن علي البقاعي[8] الشافعي المتوفى سنة 806هـ/

(1) – وُلِد في الرُّها، وهي مدينة في الجزيرة الفُراتية. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج 3، ص 106).

(2) – شهاب الدين ابن العِماد، **شَذَرات الذهب** ، ج7، (تحقيق: محمود الأرناؤوط)، ط1، دار ابن كثير، دمشق – سوريا، 1412هـ/ 1999م، ص 424. و عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص176. و بكر أبو زيد، المرجع السابق، ص 465، 534.

(3) – نسبة إلى كِنْدة، وهي قبيلة عربية مشهورة من العرب اليمانية. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، **الأنساب**، ج10، (تحقيق: عبد الفتاح الحلو)، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، 1401هـ/ 1981م، ص 487.)

(4) – المِزَّة: قرية كبيرة قريبة من دمشق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج5، ص 122).

(5) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج22، ص 34، 35. و**العِبَر**، ج4، ص 114، 126.

(6) – تلمسان إحدى أبرز مدن بلاد المغرب. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج2، ص 44).

(7) – نسبة إلى طرابلس، وهي مدينة شهيرة في ساحل الشام. (أنظر: المصدر نفسه، ج 4، ص 25).

(8) – البقاع: أرض واسعة بين بعلبك و حِمْص و دمشق. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص470).

1403م.[1]

وتُعدُّ دمشق و بيت المَقدس وبغداد وحرَّان أبرز المدن التي تركَّز فيها علماء أهل الحديث؛ فقد استقطبت دمشق هجرات هامَّة أبرزها هجرة بعض المَقادِسة الحنابلة 551هـ/ 1156م، والتي أَفْضت إلى ظهور بلدة الصالحية[2] في ظاهر دمشق. وقد أثَّر المَقادِسة تأثيرا قويًّا في تاريخ دمشق العلمي والاجتماعي.[3] كما نشير إلى أنّ الغالب على فئات المجتمع أنّهم على عقيدة أهل الحديث، غير مُعتقدين للأفكار الرئيسية للطوائف التي سنذكرها لاحقا.[4]

– ب– أهل الكلام:

عِلْم الكلام هو السعي لإثبات العقائد بالطُّرُق الجَدَلية الفلسفية، وسُمي بهذا الاسم لأنّ العلماء أطلقوا هذا اللفظ على وجه الذمِّ لكلّ " من يتكلَّم في الله بما يُخالِف الكتاب والسُّنة."[5] وترجع بدايات " الكلام" إلى الجَعْد بن دِرهم[6] (ت 118هـ/ 736م)، فمنه كانت بداية نفي صفات الله تعالى[7]، كما قال بخَلْق القرآن. وقد اتّبعه الجَهْم بن صَفْوان فظهرت فِرْقة الجَهْمية خلال القرن الثاني الهجري (ق 8م)، وظهرت

(1) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 585، 589. وشهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج7، ص 555. و بكر أبو زيد، المرجع السابق، ج1، ص 576.

(2) – نزل هؤلاء المَقادِسة في مسجد أبي صالح في ظاهر دمشق، فسُمّوا بـ " الصالحية "، ثم انتقلوا إلى سَفْح جبل قاسيون فتشكّلت بلدة الصالحية. و أبو صالح المذكور هو مُفلِح بن عبد الله الحنبلي (ت 330هـ/ 942م). (أنظر: محمد بن طولون، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، (تحقيق: محمد دهمان)، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق – سوريا، 1401هـ/ 1980م، ص 64).

(3) – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص 467، 510، 524.

(4) – شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص ص 297 – 299.

(5) – أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص 68، 69.

(6) – قال ابن كثير: " الجَعْد بن دِرهم هو أوّل من قال بخَلْق القرآن ." وقُتل الجَعْد في الكوفة خلال سنة 118هـ/ 736م على يد أميرها خالد بن عبد الله بن يزيد القَسْري الدمشقي (ت126هـ/ 744م) . و القَسْري: نسبة إلى قسر (بطن من قيس من العرب العَدْنانية). وُليّ إمرة الكوفة سنة 106هـ/ 724م حتى سنة 120هـ/ 738م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج5، ص382).

(7) – من مقالات الجَعْد زعمه أنَّ الله تعالى " لم يُكلّم موسى تكليما." (أنظر: ناصر العقل، **دراسات في الأهواء والفِرَق**، ط1، دار إشبيلية، دم، 1418هـ/ 1997م، ص 259.)

خلاله أيضا فِرْقة المُعتزلة كما بيّنا ذلك سابقا.[1]

وقد اشتهر ذمّ العلماء لعِلْم الكلام وأقوالهم في ذلك كثيرةٌ؛ فقد قال أبو عبد الله محمد بن الحسن[2] عن شيخه الإمام أبي حنيفة: " كان أبو حنيفة يحثُّنا على الفقه وينهانا عن الكلام." وقال الإمام مالك: "... ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه." كما قال الإمام الشافعي: " ما رأيت أحدا ارتدى شيئا من الكلام فأفلح."[3] وقال: " حُكْمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجَريد ويُطاف بهم في العشائر والقبائل ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة وأخذ في الكلام." وقال الإمام أحمد: " لا يُفلِح صاحب كلامٍ أبدا، ولا يُرى أحدٌ نَظَر في الكلام إلاّ وفي قلبه دغل." والدغل هو الفساد والرِّيبة. كما قال الفقيه الشهير ابن عبد البَرّ المالكي: "... أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار أنّ أهل الكلام ... أهل زَيْغ...".[4]

وجدير بالذِّكْر أنّ العلماء " لم يذمّوا الحِجَاج العقلي عن عقيدة الإسلام أو شريعته، بل هم يُصرِّحون أنّه يوجد أدلّة عقلية في الكتاب والسُّنة لتقرير العقيدة الإسلامية ...، و إنّما ذمُّوا الحِجَاج العقلي غير المنضبط بالنصوص الشرعية..."؛ ولذلك حذّروا من عِلْم الكلام.[5] ونجد طوائف كلامية في المشرق الإسلامي خلال القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13/ 14م) هي:

1- الماتُريدية:

الماتُريدية طائفةٌ من أهل الكلام تُنسب إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود بن محمد الماتُريدي[6] السمرقَندي الحنفي المتوفّى في سَمَرقند سنة 333هـ/ 944م. و تأثّرت الماتُريدية بالجَهْمية

---

(1) – أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص 77، 78.

(2) – الفقيه الشهير محمد بن الحسن الشيباني الكوفي الحنفي (ت189هـ/ 805م).(أنظر: شمس الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 234).

(3) – محمد الخميس، **حوار مع أشعري**، ط1، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية، 1426هـ/ 2005م، ص ص 24 – 27.

(4) – المُوفَّق ابن قُدامة، المصدر السابق، ص 27.

(5) – أبو زيد مكي، المرجع نفسه، ص 70.

(6) – نسبة إلى ماتُريد، وهي مَحلة من مدينة سَمَرقند في بلاد ما وراء النهر. و " ما وراء النهر " إقليم واسع شرقي نهر جيحون الذي يفصل بين خُراسان و البلاد المذكورة. (أنظر: الملحق الأوّل ص400، و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج11، ص 55. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج 5، ص45.)

و المُعتزلة و الكُلابية[1]، وهذه الأخيرة تُنسب إلى أبي محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب البَصْري (ت241هـ/ 855م). وقد وافق هذا الأخير أهل الحديث في إثبات الصفات الخبرية[2]، لكنّه خالفهم في جوانب أخرى مثل عدم إثباته صفة الكلام؛ " فقد زعم أنَّ الله لا يستطيع التكلّم بمشيئته "، وهو أوّل من ادّعى أنّ كلام الله هو المعنى فقط، و أنّ القرآن " ليس هو كلام الله حقيقة، و إنّما هو ... عبارةٌ عنه... و زعمه هذا لم يسبقه إليه أحدٌ من المسلمين." ولمّا أظهر ابن كُلاب مقالته أنكر عليه العلماء إنكارا شديدا ومنهم الإمام أحمد والفقيه الشهير أبو بكر ابن خُزَيمة.[3]

وممّا تتضمَّنه عقيدة الماتُريدية نفي صفات الله تعالى إلاّ ثمان صفات منها الحياة والعلم والقدرة والإرادة فهم أكثر انحرافا من الكُلابية.[4] كما يعتقدون أنّ " كلام الله كلام نفسي و أنّ" القرآن " ليس حقيقة كلام الله إنّما هو عبارة أو حكاية عنه." وقولهم "هذا لم يدل عليه الكتاب ولا السُّنة ولم يرِد عن أحد من سلَف هذه الأُمَّة."[5] و يعتقدون أيضا أنَّ الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، و أنّه لا يزيد ولا ينقص فيُخرِجون عن مُسَمَّى الإيمان القول باللسان وعمل القلب (مثل الإخلاص والتوكّل...) و باقي الأعمال. و بهذا فإنّ عقيدتهم تُخالِف عقيدة أهل الحديث في عدّة جوانب و توافقها في جوانب أخرى مثل موالاة الصحابة.[6]

وقد كان ظهور طائفة الماتُريدية في مدينة سَمرقند ببلاد ما وراء النهر (ق4هـ/ 10م) ثم اتّسع نطاق انتشارها تدريجيا على يد عدّة مُتكلِّمين منهم محمد بن محمد بن الحسين المعروف بأبي اليُسْر البَزْدوي[7] (ت 493هـ/ 1100م)، و أوحد الدين ميمون بن محمد المعروف بأبي المُعين النَّسَفي (ت 508هـ/

---

(1) – شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 237، 238. و أبو زيد مكي، المرجع السابق، ص84.

(2) – الصفات الخبرية مثل علوّ الله تعالى وسمعه وبصره – سبحانه – و وجه الله الكريم. (أنظر: شمس الدين الأفغاني، المرجع نفسه، ج2، ص 471).

(3) – خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 10.

(4) – ناصر العقل، المرجع السابق، ص 186، 187.

(5) – أحمد الحربي، **الماتُريدية دراسة و تقويما**، ط1، دار العاصمة، دم، 1413هـ/ 1992م، ص 359، 362.

(6) – أبو زيد مكي، المرجع نفسه، ص 61. و شمس الدين الأفغاني، المرجع نفسه، ج1، ص 416، 425.

(7) – نسبة إلى بَزدة؛ وهي " قلعة حصينة " قريبة من نَسَف، وهذه الأخيرة مدينة كبيرة في بلاد ما وراء النهر، و النسبة إليها: نَسَفي. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 409. و ج5، ص 285).

1114م)، ونجم الدين النَّسَفي، وهو عمر بن محمد بن أحمد المتوفَّى عام 537هـ/ 1142م.[1]

وكان انتشار مقالة الماتُريدية بين الفقهاء الحنفية حتى أصبح غالبهم ماتُريدية خلال (ق 7 –8هـ/ 13– 14م)[2]، ووُجدوا بكثرة في بلاد ما وراء النهر وخُراسان، كما كان لهم وجودٌ معتبرٌ في الشام ومصر والعراق. ونذكر من أعلامهم شمس الدين أبا المظفّر يوسف بن قزغلي البغدادي نزيل دمشق(ت 654هـ/ 1256م)، وشمس الدين أبا عمر محمد بن محمد بن أبي بكر الرازي[3] (توفي بعد 660هـ/ 1262م) و برهان الدين محمد بن محمد بن محمد النَّسَفي (ت 687هـ/ 1288م). ومنهم كذلك حافظ الدين عبد الله بن أحمد النَّسَفي (ت 710هـ/ 1310م)، وجمال الدين محمود بن أحمد القُونوي[4] المعروف بابن السِّراج (ت 771هـ/ 1369م)، ومحمود بن محمد البابرتي[5] (ت 786هـ/ 1384م)، وسعد الدين مسعود بن عمر التافتازاني[6] المتوفّى عام 792هـ/ 1390م.[7]

2– الأشاعِرة:

الأشاعِرة طائفةٌ من أهل الكلام تُنسب إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشير بن سالم الأشْعَري البَصْري (ت330هـ/ 942م)، وهو من قبيلة أَشْعر من العرب اليَمانية.[8] وكان الأشْعَري على مذهب عبد الله بن كُلاب في مسألة الصفات، لكنّ الأشاعرة المتأخِّرون – ومنهم أشاعرة القرنين (7 – 8هـ/ 13 – 14م) – توسَّعوا أكثر في نفي الصفات؛ حيث نَفَوا الصفات الخَبَرية التي كان الأشْعَري

---

(1) – شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 284، 309، 312.

(2) – تقيّ الدين المقريزي، **الخِطَط المقريزية**، ج3، (تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي)، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة – مصر، 1420هـ/ 1998م، ص 426.

(3) – هذه النِّسبة إلى الري، وهي مدينة كبيرة شهيرة في بلاد فارس. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج 3، ص 116).

(4) – هذه النسبة إلى قُونية؛ وهي " من أعظم مدن الإسلام بالروم "، أي بلاد الروم، وهي البلاد التي تلي الشام من جهة الشمال الغربي (الأناضول). (أنظر: المصدر نفسه، ج4، ص 415).

(5) – نسبة إلى بابرتى، وهي قرية في نواحي بغداد. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج2، ص 9.)

(6) – نسبة إلى تافتازان، وهي قرية كبيرة في بلاد فارس. (أنظر: المصدر نفسه، ج 2 ، ص 35).

(7) – شمس الدين الأفغاني، المرجع نفسه، ج1، ص 316، 319، 321، 322.

(8) – الخطيب البغدادي، **تاريخ مدينة السلام**، ج13، (تحقيق: بشار عواد)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1422هـ/ 2001م، ص 260.

يُثبتها فخالفوه بذلك[1]، و لم يُثبتوا إلاَّ سبعا منها كالعلم والحياة. وبهذا يُمكن القول أنَّ الاشاعرة والماتُريدية " كادتا أن تكونا فرقة واحدة " من ناحية العقيدة، " وهما واسطة بين " أهل الحديث والمعتزلة.[2]

وقد انتشرت العقيدة الأشعرية انتشارا واسعا بين فقهاء الشافعية والمالكية في المشرق الإسلامي خاصَّة العراق والشام ومصر (خلال ق 7 – 8هـ/ 13– 14م)، ونذكر من مُعتقديها المطهر بن أبي بكر بن الحسين الخبوشاني[3] الشافعي (ت607هـ/ 1210م)، والفيلسوف فخر الدين الرازي، وهو محمد بن عمر بن الحسين الشافعي (ت606هـ/ 1209م)، وسيف الدين الآمِدي[4]، وهو علي بن أبي علي الآمِدي الشافعي (ت631هـ/ 1233م). ومنهم كذلك محمد بن موسى بن النُّعمان المغربي المالكي نزيل القاهرة (ت 683هـ/ 1284م)، وصفي الدين محمد بن عبد الرحيم الهندي نزيل دمشق (ت715هـ/ 1315م) و زين الدين علي بن مخلوف المِصْري المالكي (ت 718هـ/ 1318م)[5]، ونجم الدين أحمد بن محمد بن سالم ابن صرصري الدِّمشقي الشافعي (ت723هـ/ 1323م). كما نذكر كمال الدين أبا المعالي محمد بن علي المعروف بابن الزملكاني[6] الشافعي (ت 727هـ/ 1326م)، وتقيّ الدين علي بن عبد الكافي السُّبْكي[7] الشافعي المِصْري (ت 756هـ/ 1355م)، و ابنه تاج الدين عبد الوهاب بن علي السُّبْكي المتوفَّى عام 771هـ/ 1369م.[8]

---

[1] – عبد القادر بن محمد، **الأصول التي بنى عليها المُبْتدِعة مذهبهم في الصفات**، ج1، دار الغرباء، د م، د ت، ص 49.

[2] – شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 329.

[3] – نسبة إلى خُبوشان، وهي بلدة في ناحية نَيْسابور بخُراسان. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 344).

[4] – هذه النِّسبة إلى آمِد، وهي مدينة كبيرة في الجزيرة الفُراتية. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 56).

[5] – عبد العظيم المُنذري، **التكمِلة لوفيات النقَلَة**، ج2، (تحقيق: بشار عواد)، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1408هـ/ 1987م، ص 197. وشمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 142. و**السِّيَر**، الجزء المفقود، (تحقيق: خيري سعيد)، ط1، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر، د ت، ص 444. و عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج 7، ص 189.

[6] – هذه النسبة إلى زَملكا، وهي قرية قريبة من دمشق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج3، ص 150).

[7] – نسبة إلى سُبْك، وهي بلدة في شمال مصر. (أنظر: عبد الرحيم الإسنوي، **طبقات الشافعية**، ج1، (تحقيق: كمال يوسف)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1407هـ/ 1987م، ص 350.)

[8] – عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 481، 488، 503، 611. وتقيّ الدين ابن قاضي شُهبة، **طبقات الشافعية**، ج3، (تحقيق: عبد العليم خان)، ط1، مطبعة دار المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند، 1399هـ/ 1979م، ص 104، 105.

و جدير بالذِّكْر أنَّ الانتشار الواسع للمذهب الأشعري بين طلبة العلم لا يعني إدراك عامَّة المجتمع لأصوله، وقد أكَّد المُوفَّق ابن قُدامة المَقْدسي أنَّ الأشاعرة " يُخفون مقالتهم في القرآن الكريم من أنّه ليس كلام الله حقيقة، و إنَّما هو عبارة عنه...، وإذا حُكِيت عنهم مقالتهم التي يعتقدونها كرهوا ذلك وأنكروه."[1]

3- الكرَّامية:

تُنسَب الكرَّامية إلى أبي عبد الله محمد بن كرَّام بن حزابة بن البراء السِّجِستاني[2]، نشأ في إحدى قُرى سِجستان، ثم انتقل إلى خُراسان، وخرج عام 251هـ/ 865م من نَيْسابور إلى بيت المقدس فاستقرَّ هناك حتى توفي 255هـ/ 869م. " والكرَّامية ... مُجسِّمة"؛ قال الذهبي: "... ومن بِدَع الكرامية قولهم في المعبود تعالى: أنّه جسم لا كالاجسام." وقال تقيّ الدين ابن تيمية: " والكرَّامية قولهم في الإيمان قول مُنكَر...؛ حيث جعلوا الإيمان قول اللسان و إن كان مع عدم تصديق القلب...، وأمَّا في الصفات... فهم ... من أكثر طوائف الكلام التي في أقوالها مُخالفة للسُّنة." وفي الجانب الفقهي نجد الكرَّامية حنفية[3].

وكان للكرَّامية وجودٌ في خُراسان خلال (ق7هـ/ 13م)، لكنَّه أدنى ممّا كان عليه خلال فترات سابقة قال الذهبي: "... وكانت الكرَّامية كثيرين بخُراسان ولهم تصانيف ثم قلُّوا وتلاشوا، نعوذ بالله من الأهواء." ومن المدن التي تركَّزوا فيها مدينة هَراة التي تُعدُّ من أكبر مدن خُراسان.[4]

ج- الشيعة:

كان مدلول التشيُّع في بداية الفتنة الكبرى لا يعني إلاّ المناصرة الوقوف إلى جانب الخليفة علي بن أبي طالب ليُبايعه من امتنع عن البَيْعة، لكنَّ عبد الله بن سَبَأ – الذي كان يهوديا فتظاهر بالإسلام – نشط في نشر أفكاره المنحرفة؛ إذْ أنَّه أوَّل من قال " بفَرْض إمامة عليٍّ، وأنَّ عليّا وصيُّ " النبيّ صلّى الله

(1) – شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 298. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 39.

(2) – سِجستان ناحية كبيرة تقع جنوب خُراسان. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 190).

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج6، ص 188، 191. و**ميزان الاعتدال**، ج6، ص 314. وشمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 196. و تقيّ الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج3، ص 71.

(4) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج11، ص 424. و **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 937.

عليه وسلّم، كما أنَّ ابن سَبَأ أوّل من أظهر الطعن في أبي بكر الصدِّيق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان (رضي الله عنهم) وفي باقي الصحابة، لكنّ أفكاره لم تنتشر على نطاق واسع خلال الفتنة الكبرى بل خلال الفترات اللاحقة.[1]

وتُعدّ الإمامية من أبرز طوائف الشيعة؛ وسُمّوا بذلك " نسبة إلى مقالتهم باشتراط " المعرفة المسبَّقة للإمام أي الخليفة؛ إذْ يزعمون أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قد نصّ على تعيين عليٍّ للخلافة، واعتقدوا كذلك بإمامة أبنائه من فاطمة[2] بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ثم اختلفوا في وَلَدَي جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت148هـ/ 765م)، فانقسموا إلى فِرْقتين:[3]

1- الإثناعشرية:

تُعدّ أبرز فِرَق الشيعة في المشرق الإسلامي خلال (ق7-8هـ/ 13- 14م)، وسُمُّوا بالإثني عشرية لاعتقادهم أنَّ الإمامة محصورة في إثني عشر رجلا من أهل البيت هم: علي بن أبي طالب وولداه الحسن (ت 50هـ/ 670 م) والحسين (ت61هـ/ 681 م) رضي الله عنهم، وعلي " زَيْن العابدين" بن الحسين (ت90هـ/ 709م)، ومحمد " الباقِر" بن علي بن الحسين (ت 114هـ/ 732م) و جعفر " الصادق " بن محمد الباقِر(ت148هـ/ 765م). وقد اختلفت الإمامية في وَلَدَيه موسى " الكاظِم" (ت182هـ/ 798م) و إسماعيل (ت 143هـ/ 760م)، فجعلت الإثناعشرية الإمامة في موسى الكاظِم ثم إبنه عليّ " الرِّضا" (ت203هـ/ 818 م) و محمد " الجواد" بن علي الرِّضا (ت220هـ/ 835م) وعليّ " الهادي" بن محمد (ت 254هـ/ 868 م) و الحسن " العَسْكري" بن علي (ت 260هـ/ 874 م)[4]، و محمد بن الحسن

---

[1] – ناصر القفاري، المرجع السابق، ص ص 78 – 81.

[2] – كانت وفاة فاطمة رضي الله عنها بعد وفاة رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بستة أشهر سنة 11هـ/ 632 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 11).

[3] – عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدّمة**، (تحقيق: خليل شحادة وسهيل زكار)، ط1، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1421هـ/ 2001م، ص 247، 251.

[4] – ربيع بن محمد، **الشيعة الإمامية**، ج3، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، 1414هـ/ 1993م، ص 173.

العَسْكري الذي يزعمون أنّه اختفى في سِرْداب بسامرَّاء[1] وهو صبيٌّ، ويُسمّونه بـ " المَهْدي"؛ حيث جعلوا له "عدّة مشاهد ينتظرونه فيها ". وذكر تقيّ الدين ابن تيمية أنّهم " قد يُقيمون هناك دابّة ليركبها إذا خرج" وذلك " من حماقاتهم."[2]

وتُعرَف الإثني عشرية " بالرَّافِضة " ؛ وسُمّوا بذلك " لمّا رفضوا زَيْد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة "[3]؛ إذْ فارقوه لترضّيه على أبي بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب؛ فسمَّاهم " الرَّافِضة " وتُعدُّ الإمامة من أبرز أصول عقيدتهم، فيعدّونها رُكنا من أركان الإسلام، و يزعمون أنَّها بنصٍّ من النبي صلّى الله عليه وسلّم، ويُكفِّرون من لم يُقرّ بها. ويدَّعي ابن المُطهّر الحِلّي[4] أنّ إنكار الإمامة شرّ من إنكار النبوة !. ومن انحرافاتهم كذلك عقيدة البداء، " وهو ممّا قالت به اليهود، ولا يجوز على الله ...؛ إذْ أنّ البداء بمعنى أنّه بدا لله شيء كان يجهله أو يجهل الحِكمة منه، ثم بدا له أن يفعله...".[5] ويُعتبر كتاب " أصول الكافي" للكُلّيني[6] من المصنَّفات الدالَّة على اعتقاد الإثني عشرية للبداء. ومن عقائدهم ادِّعاء عِصْمة الأئمة الإثني عشر من كلِّ الذنوب والخطايا، والقول بردّة الصحابة؛ قال الذهبي عن شيعة زمانه: "... يُكَفِّرون الصحابة و يتبرَّؤون منهم جهلا وعدوانا، و يتعدّون إلى الصِدِّيق قاتلهم الله." كما يزعمون أنّ القرآن مُحَرَّف ومُبَدَّل،نُقِص منه وزيد فيه، وصرّح بذلك الكُلّيني وغيره من كبار شيوخهم. ونجد

(1) – سامراء مدينة في العراق في الضِّفة الشرقية لنهر دجلة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 173).

(2) – تقيّ الدين ابن تيمية، **منهاج السُنة النبوية**، ج1، ص 44، 45.

(3) – خرج زيد بن علي بن الحسين في الكوفة على الخليفة الأُمَوي هشام بن عبد المَلِك بن مروان بن الحَكَم (ت125هـ/ 743م) سنة 121هـ/ 739م و قُتِل خلالها. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج5، ص 366، 367).

(4) – هو جمال الدين الحسين بن يوسف ابن المُطهّر الحِلّي الشيعي، يُعدّ من أبرز شيوخ الإثني عشرية خلال (ق8هـ/ 14م)، توفي سنة 726هـ/ 1326م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **ذيول العِبَر**، ج4، ص 77.) و الحلّة: مدينة في العراق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج2، ص 294).

(5) – ناصر القفاري، المرجع السابق، ص 108. و ربيع بن محمد، المرجع السابق، ص 135. ومحمد مجاهد، **بحوث ودراسات في المذاهب**، ج1، ط1، دار هجر، د م، ص 49.

(6) – هو أبو جعفر محمد بن يعقوب، من أهل الري، سكن بغداد إلى حين وفاته عام 328هـ/ 940م. يُعدُّ من أبرز مُصنِّفي الشيعة. (أنظر: صلاح الدين الصَّفَدي، **الوافي بالوفيات**، ج5، (تحقيق: أحمد الأرنؤوط و تركي مصطفى)، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، 1420هـ/ 2000م، ص 147.)

" التَّقِيّة " من أبرز عقائدهم؛ وتعني أَنْ يُظهِر الشخص خلاف ما يُبطِن؛ قال تقيّ الدين ابن تيمية: " ... و يَكذِبون على جعفر الصادق أنَّه قال: التَّقِيّة ديني ودين آبائي، وقد نزَّه الله أهل البيت عن ذلك، ولم يُحوِجهم إليه، فكانوا أصدق الناس وأعظمهم إيمانا، دينهم التقوى لا التَّقِية." [1]

وكان " للرَّافِضة "[2] وجودٌ معتبرٌ في المشرق الإسلامي خلال (ق7 – 8هـ/ 13 – 14م) خاصَّة في العراق، ومن أعلامهم عزّ الدين أحمد بن علي بن معقل المتوفّى في دمشق سنة 644هـ/ 1246م وكان مُغاليا في التشيُّع. ومنهم محمد بن محمد بن علي البغدادي المعروف بابن العَلْقمي (ت656هـ/ 1258م) وزير الخليفة العباسي المُستعصِم بالله[3]، قال عنه الذهبي: " ... ولي وزارة العراق أربع عشرة سنة، وكان ذا حقد وغِلٍّ على أهل السُّنة." إذْ ساهم مساهمة قوية في دخول التتار إلى بغداد، و وقوع المقتلة الكبرى الشهيرة سنة 656هـ/ 1258م. و منهم كذلك عزّ الدين عبد العزيز بن منصور الحلّي المتوفَّى سنة 666هـ/1267م، ومحمد بن أبي صالح بن عبد الله المتوفَّى سنة 674هـ/ 1275م في جبل الجرد ببلاد الشام، ونجيب الدين أبو القاسم بن الحسن الحلِّي المعروف بابن العود(ت679هـ/1280).[4]

وقد تأثّر الشيعة بالمُعتزلة والأشاعرة في عقيدتهم في صفات الله تعالى؛ فنجد – مثلا – ابن المُطهّر الحِلّي مُعتزليا، وهو أحد أبرز شيوخ الإثني عشرية خلال (ق8هـ/ 14م). ونجد نجم الدين سليمان بن عبد القوي الشيعي البغدادي الشاعر نزيل القاهرة أشعريا، وكانت وفاته سنة 716هـ/ 1316م.[5]

---

(1) – خالد كبير علال، **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي**، دار المحتسب، د م، 1429هـ/ 2008م، ص 25. و محمد عبد الستار، **بطلان عقائد الشيعة**، ط1، المكتبة الامدادية، مكة، 1403هـ/ 1982م، ص ص 34 – 36. و ربيع بن محمد، المرجع السابق، ص 84.

(2) – مصطلح " الرافِضة " كثير الاستخدام من قِبَل المؤرِّخين و منهم الذهبي. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، الجزء المفقود، ج17، ص 311).

(3) – هو أبو أحمد عبد الله بن أبي جعفر منصور بن محمد العباسي، آخر الخلفاء العباسيين، قُتِل على يد التتار سنة 656هـ/ 1258م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 284.)

(4) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج23، ص 222، 223. و الجزء المفقود، ص 70، 311. و **العِبَر**، ج3، ص 284. و **تاريخ الإسلام**، ج15، (تحقيق: بشار عواد)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1424هـ/ 2003، ص 381.

(5) – شمس الدين الذهبي، **ذيول العِبَر**، ج4، ص 77. و **السِّيَر**، الجزء المفقود، ص 457.

2- الإسماعيلية:

جعلت طائفة من الإمامية الإمامة بعد جعفر الصادق لإبنه إسماعيل (ت145هـ/ 762م)؛ فأصبحوا يُعرفون بالإسماعيلية، وتُطلِق عليهم المصادر عدَّة تسميات منها الباطنية بسبب " حُكمهم بأنّ لكلِّ ظاهر باطنا "؛ حيث زعموا – مثلا– أنَّ معنى الصلاة مُوالاة إمامهم، ومعنى الحجّ زيارته وخدمته، ومعنى الصوم الإمساك عن إفشاء سرِّ الإمام. وقد " قال علماء الإسلام أنَّ مذهبهم ظاهره الرَّفْض" – أي الغُلوّ في التشيّع– " و باطنه الكُفْر المَحْض." [1]

و وُجد الإسماعيلية في المشرق الإسلامي خلال (ق 7 – 8هـ/ 13– 14م)؛ إذْ يُمكِن تلخيص معتقدهم في " الدعوة إلى الإلْحاد والكُفر بالنبُوات و إبطال الشرائع و إنكار البعث والحساب وتأويل أركان الإسلام ...". [2] ونستخلص ممّا ذكره الذهبي في حوادث سنة 608هـ/ 1211م وجود الإسماعيلية في قلعة أَلَموت[3] التي تُعدُّ من أبرز مراكزهم. كما كانت لهم حصون في بلاد الشام؛ منها حصن القدموس وحصن الكهف في النواحي الشمالية لمدينة طرابلس. فقد ذكر ابن واصِل[4] في حوادث سنة 611هـ/ 1214م أن الفِرنجة قصدوا " بلاد الباطنية " ونازلوا حصنا من حصونهم ثم رحلوا عنه.[5] وتركَّز الإسماعيلية في تلك الحصون ولم تكن أعدادهم كبيرة، ولكنَّ بعضهم وُجِد في مناطق أخرى بصفة فردية ففي سنة 613هـ/ 1216م – مثلا– اغتيل في دمشق رجل على يد الإسماعلية، وكان يُنسَب إلى خدمتهم

(1) – سليمان السلومي، **أصول الإسماعيلية**، ط1، دار الفضيلة، الرياض – السعودية، 1412هـ/ 2001م، ص 474، 485.
وناصر القفاري وناصر العقل، **الموجز في الأديان والمذاهب**، ط1، دار الصميعي، الرياض – السعودية، 1413هـ/ 1992، ص 128.

(2) – ناصر القفاري، المرجع السابق، ص 128.

(3) – أَلَموت قلعة شهيرة في شمال بلاد فارس. (أنظر: شوقي أبو خليل، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، ط5، دار الفكر، دمشق – سوريا، 1425هـ / 2005م، ص 57).

(4) – هو المؤرّخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن واصِل الحَمَوي الشافعي (ت 697هـ/ 1297م).
و " الحَمَوي" نسبة إلى مدينة حَمَاة إحدى أكبر مدن الشام. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 390).

(5) – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 147. و جمال الدين ابن واصِل، **مُفرّج الكُروب في أخبار بني أيوب**، ج3، (تحقيق: جمال الدين الشيال)، دار المنار، القاهرة – مصر، 1373هـ/ 1954م، ص 211، 224. و حسين مؤنس ، **أطلس تاريخ الإسلام**، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة – مصر، 1407هـ/ 1987م، ص 112، 263.

ومُتَّهَما باتّباع مذهبهم.[1]

3- الزيْدية:

تُنسَب الزيْدية إلى زَيْد بن علي بن الحسين، وظهرت هذه الفِرْقة بعد حركة زَيْد بن علي في الكوفة سنة 121هـ/ 739م (تقدَّم ذِكْرها)، فلمّا " خرج أتاه طائفة كبيرة وقالوا: تبرّأ من أبي بكر وعُمَر حتى نُبايِعك فأبى فقالوا: إذا نرفضك، فمن ذلك سُمّوا الرَّافِضة، وسُمِّيت شيعته الزيْدية." ومقالتهم في الإمامة تختلف عن مقالة الإمامية؛ فالزيْدية جوَّزوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل؛ حيث يزعمون أنَّ عليّ بن أبي طالب أفضل من أبي بكر وعمر وعثمان. كما حصروا الإمامة في ذُرِّية عليّ رضي الله عنه من أولاد الحسن و أولاد الحسين، واشترطوا في الإمام العلم والشجاعة والسخاء والخروج لطَلَب الإمامة، ولم يقولوا بعِصْمة الأئمَّة.[2]

وانقسمت الزيْدية إلى طوائف منها البترية[3]، ومُجمل اعتقادهم في الإمامة أنّ علي بن أبي طالب " كان أفضل الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و أولاهم بالإمامة، و أنَّ بَيْعة أبي بكر وعمر ليست بخطأ لأنَّ عليّا ... سلَّم لهما ذلك ". و لم يشهدوا لعثمان بالإيمان و لا بالكُفر، وكفّروا من حارب عليّا. وهذه الانحرافات العَقَدية عند البترية هي أدنى من انحرافات الجارودية[4] الذين يُكفِّرون أبا بكر وعمر ويعتقدون أنَّ النبي صلّى الله عليه وسلّم نصَّ على إمامة عليٍّ بالوَصف والإشارة دون التسمية، وأنّ " الأُمّة ضلّت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره." ولا شكّ أنّ هذا الكلام مُخالف لما كان عليه زَيد بن علي

[1] – أبو شامة المَقدسي، **الذيل على الروضتين**، (تحقيق: العطار الحسيني)، ط2، دار الجيل، بيروت – لبنان، 1413هـ/ 1974م، ص 64.

[2] – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 118. وعبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 247. ومحمد الفيومي، **الشيعة العربية و الزيدية**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، 1423هـ/ 2002م، ص ص 357 – 360.

[3] – نسبة إلى كثير بن إسماعيل النواء الأبتر، توفي حوالي عام 169هـ/ 785م. (أنظر: ناصر القفاري، **مسألة التقريب بين السنة و الشيعة**، ط2، دار طيبة، د م، 1413هـ/ 1992م، ص 166.)

[4] – طائفة تُنسب إلى أبي الجارود زياد بن المنذر الكوفي، " كان رافضيا يضع الحديث...". توفي خلال الفترة (161– 170هـ/ 778– 786م). (أنظر: المرجع نفسه، ص 168).

بن الحسين.[1]

ونجد مواطن الزيْدية خلال (ق 7- 8ه/ 13 – 14م) في اليمن، ومن أعلامهم عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة اليمني (ت614ه/ 1217م)، وعبد الله بن زيد العنسي[2] المتوفَّى سنة 667ه/ 1268م. و منهم كذلك يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحُسَيني العَلَوي، وكانت وفاته سنة 745ه/ 1344م.[3]

4- النُّصَيرية:

النُّصَيْرية فِرْقة من فِرَق الباطنية أسّسها أبو شُعيب محمد بن نُصَير[4]، فبعد وفاة الحسن العَسْكري سنة 260ه/ 874 م اجتمع الغُلاة من المُنتمين إليه و ادّعوا أنَّ له ولدا اختفى في سِرْداب بسامرّاء، وأنّه الإمام بعد أبيه، وبرزت مجموعة من غُلاة الشيعة كلٌّ يدَّعي أنّه الواسطة أو " الباب" بين الإمام الغائب – بزعْمهم – و بين أتباعه، ومن هؤلاء محمد بن نُصَير مؤسِّس فِرقَة النُّصَيرية.[5]

وعقيدة النُّصَيْرية مُركّبة من عدّة خُرافات؛ حيث يُؤلِّهون عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) زاعمين أنّه إمامٌ في الظاهر و إلهٌ في الباطن، و أنّ " الله تجلّى في عليّ "، وقالوا: " إنّ الله خَلَق محمدًا ومحمد خَلَق سَلْمان الفارسي...".[6] كما يقولون بالتناسخ، أي انتقال الروح من جسم بشري إلى جسم آخر وأنّ ذلك يكون أحيانا بين البشر والبهائم. ويعود سبب تعلّقهم بالتناسخ إلى أنّهم لا يؤمنون بيوم القيامة ولا

---

(1) – ناصر القفاري، **مسألة التقريب بين السُّنة و الشيعة**، ص 166، 167، 169.

(2) – هذه النسبة إلى بني عنس من العرب اليمانية. (أنظر: أبو العباس القلقشندي، **نهاية الارب في معرفة أنساب العرب**، (تحقيق: إبراهيم الأبياري)، ط2، دار الكتاب اللبناني، بيروت – لبنان، 1400ه/ 1980م، ص 379م).

(3) – ناصر القفاري، المرجع نفسه، ص 160، 163. و محمد الفيومي، المرجع السابق، ص 390، 391.

(4) – توفي سنة 270ه/ 883 م، وقيل سنة 260ه/ 874 م، و كان من الإمامية ثم انفصل عنهم. (أنظر: غالب عواجي، المرجع السابق، ص 537). وكان يدّعي ربوبية علي الهادي بن محمد الجواد. (أنظر: الحسن النوبختي و سعد القمي، **فِرَق الشيعة**، (تحقيق: عبد المنعم الحنفي)، ط1، دار الرشد، القاهرة – مصر، 1412ه/ 1992م، ص 95.)

(5) – ناصر القفاري و ناصر العقل، **الموجز في الأديان والمذاهب**، ص 136.

(6) – هو الصحابي أبو عبد الله سَلْمان الفارسي، توفي خلال خلافة عثمان رضي الله عنه. (أنظر: محمد بن سعد، **كتاب الطبقات**، ج4، (تحقيق: علي محمد)، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، 1421ه/ 2001 م، ص 87.)

بالحساب و الجزاء في الآخرة؛ فالقِيامة – عندهم – إنّما هي خروج الرُّوح من بدنٍ ودخولها في بدنٍ آخر. ومن عقائدهم كذلك " تعظيم الخمر" واستحلالها و إباحة نِكاح البنات والأخوات والأُمَّهات، و إسقاط التكاليف الشرعية.(1)

وقد سُئِل تقيّ الدين ابن تيمية عن النُّصَيْرية فأجاب أنّهم مع " سائر أصناف ... الباطنية أَكْفَرُ من اليهود والنَّصارى، بل وأَكْفَرُ من كثير من المُشركين، وضَرَرهم على أُمَّة محمد صلّى الله عليه وسلّم أعظم من ضَرَر الكفَّار المُحاربين...؛ فإنّ هؤلاء " (النُّصَيْرية) " يتظاهرون عند جُهّال المسلمين بالتشيّع ومُوالاة أهل البيت "، وهم في الحقيقة " لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمرٍ ولا نهيٍ و...لا جنَّةٍ ولا نارٍ...، بل يأخذون كلام الله ورسوله... يتأوَّلونه على أمورٍ يفترونها يدَّعون أنَّها عِلْم الباطن...؛ إذْ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكلِّ طريق. " فحقيقة أمرهم " أنّهم لا يؤمنون بنبيٍّ من الأنبياء والمُرسلين، لا بنوح ولا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا محمَّد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا بشيء من كُتُب الله المُنزلة ....، ولا يُقِرُّون بأنّ للعالَم خالقا خلقه...". ثم قال ابن تيمية: "... و أمّا استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حُصونهم أو جُنْدهم فإنَّه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذئاب لرَعي الغنم؛ فإنَّهم من أَغَشِّ الناس للمسلمين ولوُلاة أمورهم...، و هم أَحْرَص الناس على تسليم الحُصون إلى عدوِّ المسلمين، وعلى إفساد الجُنْد على وليِّ الأمر...".(2)

وكان للنُّصَيْرية وجودٌ في المشرق الإسلامي خلال (ق7 – 8هـ/ 13 – 14م) رغم قلّتهم، وقد تركَّزوا في منطقة جبل السماق الواقعة في النواحي الغربية لمدينة حَمَاة، حيث انتشرت عقيدتهم هناك خلال القرن (4هـ/ 10 م). كما وُجد أفراد منهم في مدن الشام؛ ففي سنة 656هـ/ 1258م – مثلا – توفي رجلٌ في دمشق يُدعى سيف الدين بن صبرة، وكان " نُصَيْريا رافِضيا ... مُدمن خمر." وذكر الذهبي في وفيات

---

(1) – غالب عواجي، المرجع السابق، ص 561، 570. و صابر طعيمة، **دراسات في الفِرَق**، ط1، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية، 1403هـ/ 1983م، ص 44، 45. و محمد مجاهد، المرجع السابق، ص 63.

(2) – تقيّ الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج35، ص ص 90 – 95.

سنة 690هـ/ 1291م أنَّ سليمان بن علي بن عبد الله التلمساني نزيل القاهرة (المعروف بالعفيف التلمساني) كان نُصَيْريا، وأنّه " أضلّ جماعة." وذكر ابن تيمية أنَّه كان يستحِلُّ جميع المُحَرَّمات ويقول: " البنت والأمُّ و الأجنبية شيء واحد ليس في ذلك حرام علينا "، و أنّه صنّف للنُّصَيْرية عقيدة.[1]

5- الدُّروز:

انبثقت فِرْقة الدُّروز من الإسماعيلية خلال القرن (5هـ/ 11م) في مصر والشام، و ارتبط ظهورها بثلاثة من دُعاة الباطنية هم: حمزة بن علي بن أحمد الزوزني (ت433هـ/ 1041م) الذي انتقل من بلدته زوزن (في خُراسان) إلى مصر فنظَّم دعوته بها خلال أوائل القرن المذكور، والحسن بن حَيْدرة الفرغاني، وقد انتقل من مدينة فَرْغانة[2] إلى مصر، وتوفي فيها خلال النِّصف الأوّل من القرن (5هـ/ 11م)، ومحمد بن إسماعيل الدُّرْزي[3](ت411هـ/ 1020م)، و إليه تُنسَب الفِرْقة.[4]

وتتألّف عقيدة الدُّرُوز من عدَّة خُرافات؛ حيث يقولون بألوهية الحاكم " العُبَيْدي"[5] (ت411هـ/ 1020م)، و أنَّ الله قد " ظهر... في صورة إنسان " هو الحاكم الذي يعتقدون أنّه يتشكَّل في كلِّ عصر بصورة أناس مشاهير. ولا يُؤمن الدُّرُوز بيوم القيامة و لا الجنَّة ولا النار، كما يقولون بالتناسخ، ويُعادون رُسُل الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، حيث أَوْجب داعيتهم الأوّل حمزة الزوزني محاربة دعوة الأنبياء

---

(1) – ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 102. و جعفر الكنج الدندشي، **مدخل إلى المذهب العَلَوي النُّصَيْري**، ط1، دار المكتبة الوطنية، د م، 1422هـ/ 2000م، ص 11. و أبو شامة المَقدسي، المصدر السابق، ص 200. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، الجزء المفقود، ص 251، 252. و عبد القادر السندي، **التصوف في ميزان البحث والتحقيق**، ج1، ط1، مكتبة ابن القيم، المدينة، 1410هـ/ 1990م، ص 199، 200.

(2) – فَرغانة مدينة كبرى في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج4، ص 253.)

(3) – تُطلَق كلمة الدُّرُوز على معانٍ عديدة في اللغة " منها أنها تُطلَق على الأولاد غير الشرعيين الذين لا يُعرَف لهم آباء، وتُطلَق على السِّفْلة ... من الناس؛ فيُقال لهم: أولاد درزة. أمّا في الإصطلاح فتُطلق على الفِرْقة الباطنية التي أسسها محمد بن إسماعيل الدُّرزي. (أنظر: غالب عواجي، المرجع السابق، ص 593، 594).

(4) – محمد الخطيب، **عقيدة الدُّروز**، ط1، دار البيان العربي، القاهرة – مصر، 1422هـ/ 2000م، ص ص 113- 118.

(5) – هو أبو علي منصور بن عبد العزيز بن نِزار " العُبَيدي " الإسماعيلي المُلقب " الحاكِم بأمر الله "، صاحب مصر والشام و أقاليم أخرى؛ قال عنه الذهبي: "... كان شيطانا مَريدا خبيث النفس متلوّن الاعتقاد ... سفّاكا للدماء...، وأمر بشتم الصحابة." (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 219 و:

- O'leary Delacy, A short history of the fatimid kalifate, Lodon, 1923, p186,188.

وتُنكِر هذه الفِرْقة القرآن الكريم و يقولون أنَّه من وَضْع سَلْمان الفارِسي، كما تُنكِر التكاليف الشرعية كلَّها وتستحلُّ دِماء المسلمين و أموالهم.[1]

وقد انتقل محمد بن إسماعيل الدُّرْزي عام 408هـ/ 1017م من مصر إلى وادي التيم[2] في بلاد الشام الذي تقطنه تنوخ، وهي قبيلة عربية، وكانت من الإسماعيلية فدعاهم إلى تأليه الحاكم فأجابوه؛ فانتشرت العقيدة الدُّرْزية في المنطقة المذكورة، واستمرَّ ذلك خلال القرنين (7– 8هـ/ 13 – 14م)، فكانت مواطن الدُّرُوز – وهم قلَّة – خلالهما في وادي التيم والمناطق الجبلية الواقعة في نواحي طرابلس، حيث قال ابن كثير عن هذه الجبال: "... وغالب هذه البلاد للدُّرْزية و الرَّافِضة."[3]

ونستنتج من كلِّ ما تقدَّم أنَّ الخلاف العَقَدي شكَّل خطرا كبيرا على المجتمع، و أنَّ الانحرافات العَقَدية التي سبق ذِكْرها لم تظهر خلال القرن (7هـ/ 13م) بل خلال فترات سابقة، و أشدَّها انحرافا عقائد النُّصَيْرية والدُّرُوز.

د– التصوف في المشرق الإسلامي و آثاره العَقَدية:

سُمِّيت الصوفية بهذه التسمية نسبة إلى لبس الصوف، وكان ظهورهم خلال النِّصف الثاني من القرن الثاني الهجري (ق8 م)، و مرَّ التصوف بعدَّة مراحل؛ إذْ تصاعدت مظاهر الانحراف تدريجيا، وتجاوزت السلوك إلى العقيدة، و وصلت هذه الانحرافات إلى ذِرْوتها خلال القرن السابع الهجري (ق13م) وما بعده، حيث ازداد انتشار عقيدة وحدة الوُجود بينهم[4]، ونوضِّح مضمون هذه العقيدة في العنصرين التاليين:

---

(1) – غالب عواجي، المرجع السابق، ص ص 621– 630. ومحمد مجاهد، المرجع السابق، ص 68، 69، 70.

(2) – منطقة تقع في ناحية بانياس، وهذه الأخيرة مدينة في ساحل الشام. (أنظر: محمد بن عبد الله الحِمْيري، **الروض المِعْطار في خبر الأقطار**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت – لبنان، 1401هـ/ 1980، ص 74).

(3) – محمد الخطيب، المرجع السابق، ص 115، 116. وعِماد الدين ابن كثير، ج7، ص 614.

(4) – غالب عواجي، المرجع نفسه، ص 868. و طارق عبد الحليم، **الصوفية نشأتها وتطورها**، ط2، دار الأرقم، الكويت، 1417هـ/ 1997م، ص20.

1– لمحة عامَّة عن عقيدة وحدة الوجود:

وحدة الوجود عقيدة إلحادية مضمونها أنَّ كلَّ ما في الوجود هو الله عزّ وجلَّ، وأنَّ وجود الكائنات " هو عين وجود الله تعالى" ، لا انفصال بين الخالق والمخلوق؛ إذْ يعتقد أهل هذه العقيدة أنَّ الكائنات كلّها " مظاهر لحقيقة واحدة هي الحقيقة الإلهية ...، وليس هذا الكون" – في هذه العقيدة الباطلة – " إلاَّ الله في زَعْمهم تعالى الله عن ذلك."[(1)]

وكان محيي الدين ابن عربي[(2)] أبرز الدُّعاة إلى وحدة الوجود خلال القرن (7هـ/ 13م)، وله في ذلك مُصنَّفات منها " فُصوص الحِكَم"، و زعم أنَّ ما كتبه فيه قد أخذه عن الله تعالى؛ حيث قال في كتابه المذكور: "... أَسْرِد... في هذا الباب على قدر ما يقع به الأمر الإلهي ...". كما زعم في موضع آخر أنّه أخذ كتابه عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؛ حيث قال: " ... فإنِّي رأيت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في مبشرة أُريتها في العُشر الأخير من المحرَّم سنة سبع وعشرين وستمائة... و بيده صلّى الله عليه وسلّم كتاب فقال لي: هذا كتاب فُصوص الحِكَم خُذه وأخرج به إلى الناس...، فقلتُ: السمع و الطاعة ... فحَقَّقت الأمنية وجرَّدت القصد و الهمّة إلى إبراز هذا الكتاب كما حدَّه لي الرسول صلّى الله عليه وسلّم من غير زيادة ولا نقصان ...".[(3)] وبهذا وصل ابن عربي في " الفُصوص" إلى ذِرْوة الكذب على الله و رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

ولمَّا كان أهل وحدة الوجود يعتقدون أنَّ " كلَّ شيء إنَّما هو الله ... " زعم ابن عربي أنَّ قوم نوحٍ عليه السلام كانوا على صوابٍ في عبادتهم للأصنام، بل اعتبر فرعون من المؤمنين؛ حيث قال عنه:

---

(1) – غالب عواجي، المرجع السابق، ص 994. و عبد الرحمان عبد الخالق، **الفِكر الصوفي**، ط1، مكتبة ابن تيمية، الكويت، 1404هـ/ 1984، ص 69.

(2) – هو محمد بن علي بن محمد المعروف بمحيي الدين ابن عربي المُرْسي، نسبة إلى مُرْسية إحدى أكبر مدن الأندلس. سافر إلى المشرق و استقرّ في دمشق ، وكانت وفاته سنة 638هـ/ 1240م. (أنظر: عبد القادر السندي، **ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق**، ط1، دار البخاري، المدينة، 1411هـ/ 1999م، ص ص 7 – 12. و:

–Eric Geoffroy, Le soufisme dans la culture islamique, Universitat oberta de Catalunya, p 31, 32, 33.

(3) – عبد الرحمان عبد الخالق، المرجع نفسه، ص 70، 71.

"... لذلك قال: " أنا ربُّكم الأعلى " أي و إنْ كان الكلُّ أربابا بنسبة ما فأنا ربُّكم الأعلى منهم...، فصحَّ قوله " أنا ربُّكم الأعلى" ! . واعتبر عبادة العِجْل من طرف قومٍ من بني إسرائيل[1] أمرا صحيحا؛ فذكر في كلامه عن ذلك أنَّ العارف – أي العارف بالله – هو " من يرى " الله " في كلِّ شيء، بل يراه عين كلِّ شيء" !. كما دافع عن مُشرِكي قُرَيش الذين تمسَّكوا بعبادة أصنامهم قائلين " ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى."[2] ودافع عن غيرهم من المُشركين؛ فزعم – مثلا– أنّ قوم نوحٍ لو تركوا عبادة الأصنام لجهلوا " من الحقِّ على قدر ما تركوا من هؤلاء." فاعتبر عبادتهم للأصنام صوابا ! وعمَّم ذلك على كلِّ عابد لغير الله تعالى حيث قال: "... فإنَّ للحقِّ في كلِّ معبود وجهًا ...، فما عُبِد غير الله في كلِّ معبودٍ."[3] ويتّضح لنا ممّا تقدّم أنَّ عقيدة وحدة الوجود تُمثِّل ذِرْوة الإنحراف العَقَدي.

ولابن عربي مُصنَّفٌ آخر في الدعوة إلى عقيدة وحدة الوجود هو كتاب " الفتوحات"، و زعم أنَّه كتبه "عن إملاء إلهي ... و إلقاء ربَّاني...". بل وصل في " الكُفر والإلحاد" إلى أن قال:

العبد ربٌّ والربُّ عبدٌ ياليت شِعْري من المكلَّف.

وقال في " الفُصوص": فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده.

فأنَّى بالغني وأنا أساعده وأُسعده.

كما قال بصحّة الأديان كلِّها في مواضع كثيرة من كُتُبه؛ منها قوله:

عقد الخلائق في الإله عقائدا وأنا اعتقدتُ جميع ما اعتقدوه.[4]

وقوله: لقد صار قلبي قابلا كلّ صورةٍ فمرعى لغزلان ودير رهبان.

---

(1) – قال الله تعالى: " و اتَّخذ قوم موسى من بعده من حُليِّهم عِجْلاً جسدًا له خُوارٌ، أَلَم يروا أنّه لا يُكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً، اتّخذوه وكانوا ظالمين." (سورة الأعراف: الآية 148).

(2) – سورة الزُّمَر، (جزء من الآية: 3).

(3) – عبد الرحمان عبد الخالق، المرجع السابق، ص ص 71– 77.

(4) – كمال عيسى، **نظرات في معتقدات ابن عربي**، ط1، دار المجتمع، جدة – السعودية، 1405هـ/ 1985م، ص 27. و غالب عواجي، المرجع السابق، ص 996. وعبد القادر السندي، المرجع السابق، ص140، 141.

و بيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن.

و وصف الأنبياء عليهم السلام بأنَّ عقولهم ساذجة خالية من أي فقه.[1] وبسبب هذه العقائد السابق ذِكْرها كثُرت أقوال العلماء في تكفير وذمِّ ابن عربي؛ قال تقيّ الدين ابن تيمية: " ... ويقولون " (أهل وحدة الوجود) " أنَّ وجود المخلوقات هو وجود الخالق، والخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، و العبد هو الربُّ، والربُّ هو العبد ...، ونحو ذلك من المعاني التي توجد في كلام ابن عربي..."، فمن اعتقدها " فهو مُلحِد ضالٌّ...". وقال– بعدما ذكر زَعْم ابن عربي أنَّ عُبّاد الأصنام " إنّما عبدوا الله فيها "– :"... فتدبّر حقيقة ما عليه هؤلاء؛ فإنّهم أجمعوا على كلِّ شِرْك في العالم، وعدلوا بالله كلّ مخلوق، وجوّزا أنْ يُعبَد كلُّ شيء، ومع كونهم يعبدون كلَّ شيء فيقولون: ما عبدنا إلاّ الله. فاجتمع في قولهم أمران: كلُّ شِرْكٍ، وكلّ جُحودٍ...، مع ظنِّهم أنّهم ما عبدوا إلاّ الله. ومعلومٌ أنّ هذا خلاف دين المرسلين كلّهم وخلاف دين أهل الكتاب كلّهم والمِلَل كلّها، بل وخلاف دين المُشركين أيضا، وخلاف ما فطر الله عليه عباده...". كما قال: "... ويكفيك بكُفرهم أنَّ من أخفِّ أقوالهم: أنَّ فرعون مات مؤمنا بريئا من الذنوب."[2]

وسُئِل عزّ الدين ابن عبد السلام[3] في القاهرة عن ابن عربي فقال: " هو شيخ سوء كذاب مقبوح...". وقال إبراهيم الجَعْبري[4]: " رأيت ابن عربي... كان شيخ سوء ... مُكذِّبا بكلِّ كتاب أنزله الله على رُسُله...". و ذكر سَعْد الدين الحارثي[5] أنّ الكلام الوارد في " الفُصوص" يتضمّن " الكُفر ومن صدّق به

---

[1] – أحمد القُصَيّر، **عقيدة الصوفية**، ط1، مكتبة الرشد، الرياض – السعودية، 1424هـ/ 2003م، ص 421. وعبد القادر السندي، المرجع السابق، ص 137.

[2] – تقيّ الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج2، ص 296، 156، 157. و عبد القادر السندي، المرجع نفسه، ص 24.

[3] – هو الفقيه عزّ الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم الدمشقي الشافعي، توفي سنة 660هـ/ 1262م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 299.)

[4] – هو أبو إسحاق إبراهيم بن معضاد الجَعْبري الزاهد الواعظ. توفي في القاهرة سنة 687هـ/ 1288م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 364.) و الجَعبري: نسبة إلى قلعة جَعْبر التي تقع على شاطئ الفُرات في شمال العراق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج4، ص 390).

[5] – هو الفقيه المُحَدِّث سَعد الدين مسعود بن أحمد الحارثي البغدادي ثم المصري الحنبلي المتوفّى سنة 711هـ/ 1311م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج4، ص 30، 31.)

فقد تضمّن تصديقه بما هو كُفر...". كما قال شرف الدين الزواوي[1]: "...أمَّا هذا التصنيف" (الفُصوص) " الذي هو ضدٌّ لِمَا أنزله الله عزّ وجلّ في كُتُبه المُنْزلة، وضدّ أقوال الأنبياء المُرسلة، فهو افتراءٌ على الله و افتراءٌ على رسوله صلّى الله عليه وسلّم...، وما تضمّنه من الهَذَيان والكُفر والبُهْتان فكلّه تلْبيس وضلال وتحريف...، ومن صدَّق بذلك كان كافرا مُلحِدا صادًّا عن سبيل الله تعالى."[2]

وقد نُقل ذمُّ ابن عربي أيضا عن أبي الحجّاج المِزّي و جماعة " من أعيان علماء" القرنين(7 – 8هـ/ 13–14م). وقال الذهبي عنه: " ... ومن أَرْدإِ تواليفه كتاب " الفُصوص"، فإنْ كان لا كُفر فيه فما في الدنيا كُفر...". وقال ابن خلدون[3]: " ... ومن هؤلاء ... ابن عربي... ولهم تواليف كثيرة مشحونة من صريح الكُفر...، فالحُكْم في هذه الكُتب كلّها ... إذهاب أعيانها متى وُجِدت بالتحريق بالنار والغسل بالماء حتى ينمحي أثر الكتابة؛ لِمَا في ذلك من المصلحة العامّة في الدّين ...".[4]

2- أبرز من اشتهر بالانحراف من الصوفية خلال القرنين (7 – 8هـ/ 13- 14م):

كان التصوف منتشرا على نِطاق واسع خلال القرنين (7- 8هـ/ 13 – 14م) في كافَّة أقاليم المشرق الإسلامي، ومن أبرز الصوفية الذين اشتهروا بالانحراف نذكر أبا حَفْص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد المصري الشاعر المعروف بابن الفارِض المتوفَّى في الديار المصرية سنة 632هـ/ 1234 م وكان من مُعتقدي وحدة الوجود؛ قال الذهبي مُعلِّقا على إحدى قصائده: "... فإنْ لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زَنْدقةٌ ولا ضلالٌ، اللهمّ ألهِمناالتقوى، فيا أئمّة الدين ألا تغضبون لله؟ !...". ومنهم الحسن بن أبي الحسن بن منصور الحريري الدمشقي(ت645هـ/1247م)

---

(1) – الفقيه شرف الدين عيسى بن مسعود بن منصور الزواوي المالكي. وُلِد بزواوة في بلاد المغرب سنة 664هـ/ 1265م. سافر إلى المشرق وكانت وفاته في القاهرة سنة 743هـ/ 1342م. (أنظر: عبد القادر السندي، المرجع السابق، ص 48).

(2) – المرجع نفسه، ص ، 47، 48. وشمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 85.

(3) – الفقيه المؤرِّخ الشهير أبو زَيْد عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون المالكي. وُلد في مدينة تونس سنة 732هـ/ 1331م، انتقل سنة 784هـ/ 1382م إلى مصر، وتوفي فيها سنة 808هـ/ 1405م. صنّف " التاريخ الكبير" الذي يُعدُّ من أبرز المصنَّفات التاريخية، وهو " كتاب العِبَر و ديوان المبتدأ و الخبر." (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج9، ص 114).

(4) – عبد القادر السندي، المرجع نفسه، ص47، 52. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج23، ص 48.

الذي عُرِف بالفسوق والاستهزاء بالشرع؛ فانحرف بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق وتبعوه، وكان في مجلسه الغناء والرقص ومظاهر فساد أخرى، قال عنه الذهبي: " ... و عندي مجموع من كلام الشيخ الحريري فيه: إذا دخل مُريدي بلاد الرّوم وتَنصَّر و أكل الخنزير وشرب الخمر كان في شُغلي." و لفظ " المُريد" يُقصَد بها هنا أحد الأتباع. و قال الذهبي أيضا: " قال لأصحابه: بايِعوني على أن نموت يهود ونُحشَر إلى النار حتى لا يصحبني أحدٌ لعِلّة."[1]

ويُعتبر علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي[2] المغربي (ت656هـ/1258م) أحد شيوخ الصوفية المُعتقدين وحدة الوجود، وكان حريصا على إخفاء معتقده هذا على غير الصوفية. وقد ارتحل من بلاد المغرب إلى مصر وأقام في الإسكندرية، حيث اتّخذها مركزا لدعوته، و التفّ حوله عدد من المُريدين نذكر منهم أبا العباس أحمد بن عمر بن محمد المُرْسي الذي انتقل من بلاد المغرب إلى الإسكندرية[3] فأقام بها، وكانت وفاته سنة 686هـ/ 1287م، وهو من مُعتقِدي وحدة الوجود.[4] وكان ابن سبعين من أشدِّ الصوفية انحرافا، وهو قُطب الدين عبد الحقّ بن إبراهيم بن محمد بن نصر ابن سبعين الرقوطي نسبة إلى رقوطة، وهي بلدة قريبة من مُرسِية (في الأندلس). ارتحل إلى المشرق، وأقام في مكة حتى توفي سنة 669هـ/ 1270م. وكان يعتقد وحدة الوجود و يزعم أنَّ النُّبُوّة مُكتسبة؛ حيث أقام في بعض الأوقات بغار حِراء يرتجي أنْ يأتيه فيه وَحيٌ كما أتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. واشتهر عن ابن سبعين أنّه كان إذا رأى الطائفين في مكّة يقول عنهم: " كأنهم الحمير حول المدار." وأنّه قال: " لقد زرب ابن آمنة" (يعني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم) " حيث قال: " لا نبيّ بعدي."" و هذه العقائد والأقوال

---

(1) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 192. وعبد القادر السندي، **التصوف في ميزان البحث و التحقيق**، ط1، مكتبة ابن القيِّم، المدينة، 1410هـ/ 1990م، ص 215. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج22، ص 368. و ج23، ص 225. و **العِبَر**، ج3، ص 252.

(2) – نسبة إلى شاذلة، وهي بلدة في إفريقية أقام فيها مدة ثم انتقل إلى تونس، ثم ارتحل إلى مصر. (أنظر: أحمد القُصَيّر، المرجع السابق، ص 193).

(3) – الإسكندرية مدينة كبرى في شمال مصر على الساحل. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 183).

(4) – أحمد القُصَيِّر، المرجع نفسه، ص ص 193 – 195. و عبد القادر السندي، المرجع نفسه، ص 179.

الشنيعة تُبيِّن ما كان عليه الصوفي المذكور " من الكُفر و الباطل"؛ قال تقيّ الدين ابن تيمية عنه: " هو من أكابر أهل الإلحاد." وقال الذهبي: " ... ومن عرف هؤلاء عَذَرني " (أي في ذمِّهم) " أو هو زِنْديق مُبطن" لعقيدة وحدة الوجود. وقال ابن كثير بعدما أشار إلى تعلّم ابن سبعين السِّحر: " ... فكان يُلبِّس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء ...".[1]

ويُعدّ صدر الدين أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد القُونوي[2] من شيوخ أهل الوحدة، وتوفي في قونية سنة 672هـ/ 1273م. ومنهم كذلك عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله بن علي المعروف بالعفيف التلمساني المتوفَّى في دمشق سنة 690هـ/ 1291م. وقد وصفه الذهبي بـ " أحد زنادقة الصوفية "، وبالميل إلى عقيدة النُّصَيْرية حيث قال: " قيل له مرة: أأَنت نُصَيْري ؟ فقال: النُّصَيْري بعض مِنِّي." وقال: " ... كان من غُلاة الاتحادية القائلين بوحدة الوجود." و ممّا صدر عن التلمساني من عبارات كُفر قوله: " القرآن كلُّه شِرْك ليس فيه توحيد ! ." وقوله: " البنت والأمّ و الأجنبية شيء واحد ليس في ذلك حرام علينا."[3] كما نشير إلى ابن هود، وهو الحسن بن علي بن يوسف المُرْسي الذي انتقل من مُرسية إلى المشرق واستقرَّ في دمشق، حيث توفي فيها سنة 699هـ/ 1299م، قال عنه الذهبي: "... أحد الكبار في التصوف على طريقة أهل الوحدة، أعاذنا الله من ذلك." وقال: "... وصَحِب ابن سبعين واشتغل بالفلسفة... وتُرّهات الاتحادية "، و ذكر أنَّ ابن هود كان " إذا طلعت الشمس استقبلها وصلب على وجهه "، لا يُدرى ما يقصد بذلك، و له أبيات في وحدة الوجود منها:

أنا ربٌّ أنا عبدٌ أنا بعضٌ أنا كلٌّ.

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 168. وعبد القادر السندي، **التصوف في ميزان البحث والتحقيق**، ص 207. و عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج7، ص 301، 307.

[2] – ذكر الذهبي أنّ القُونوي صحب مُحيي الدين ابن عربي، و أنّه صنَّف تصانيف في التصوف على طريقة أهل وحدة الوجود. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 240، 241.)

[3]– شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج15، ص240، 655. و **العِبَر**، ج3، ص373. وعبد القادر السندي، المرجع نفسه، ص199.

أنا دُنيا أنا أُخرى أنا هجرٌ أنا وصلُ.[(1)]

و نذكر من الداعين إلى مُعتَقد الاتحادية أيضا تاج الدين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري (ت 709هـ/ 1309م)، ومحمد وفا بن محمد بن محمد الإسكندري المتوفَّى في القاهرة سنة 765هـ/ 1363م، وقد نَظَم قصائد على طريقة ابن الفارِض وغيره من مُعتقِدي وحدة الوجود.[(2)]

ونستنتج ممَّا تقدَّم في هذا العنصر أنَّ عقيدة وحدة الوجود هي ذِروة الانحراف العَقَدي، وأنَّ مُعْتقِديها أصبحوا خلال القرنين (7 – 8هـ/ 13 – 14م) أكثر جُرأة على إظهارها رغم جهود بعض العلماء في التصدي لهم والتحذير منهم.

ثانيا – المذاهب الفقهية و انتشارها:

يُقصَد بالفقه في اللغة الفهم والعِلْم؛ فيُقال: فَقِه أي فهم، وفَقُه أي صار فقيها. أمَّا في الاصطلاح فيُقصَد به " العِلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلّتها التفصيلية. والأحكام الشرعية هي الواجب والمُباح والمحظور والمكروه ...". و قد ظهرت خلال النِّصف الثاني من القرن الأوَّل الهجري (ق7م) والنِّصف الأوّل من القرن الثاني الهجري (ق8م) طريقتان انتهجهما الفقهاء عُرفتا فيما بعد بمدرسة الحديث ومدرسة الرأي. فأمَّا الأولى فكان مركزها الأوّل المدينة؛ حيث تأثَّر علماء هذه المدرسة بفقهاء الصحابة وفقهاء التابعين من أهل المدينة خاصَّة الفقهاء السبعة [(3)] وهم: سعيد بن المُسيّب بن حَزْن القُرَشي المَدَني الفقيه الشهير (ت94هـ/ 713م)، وأبو بكر بن الحارث بن عبد الرحمان بن هشام القُرَشي (ت94هـ/ 713م)

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام،** ج 15، ص 904، 905.

(2) – عبد القادر السندي، **التصوف في ميزان البحث والتحقيق،** ص 328. و أحمد القُصَيِّر، المرجع السابق، ص 147. و شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج8، ص 352. و شهاب الدين ابن حجر، **الدُرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،** ج2، (تحقيق: سالم الكرنكوي)، ط1، دار الجيل، بيروت – لبنان، 1414هـ/ 1993م، ص 392.

(3) – عمر الأشقر، **المدخل إلى الشريعة والفقه الإسلامي،** ط1، دار النفائس، عمان – الأردن، 1425هـ/ 2005، ص 187، 188. و أحمد سعيد، **المدخل إلى مذهب أبي حنيفة النُّعمان،** ط1، دار الأندلس، جدة – السعودية، 1423هـ/ 2002م، ص 21، 22.

و أبو عبد الله عُروة بن الزبير بن العوام القُرَشي " الفقيه الحافظ " (ت94هـ/ 713م)، وعُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود المَدَني (ت98هـ/ 717هـ)، وكلّ من خارجة بن زيد بن ثابت الأنصاري (ت100هـ/ 718م)، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق (ت 107هـ/ 725م)، وسليمان بن يسار المَدَني (ت107هـ/ 725م).[1]

وقد كان الإمام مالك بن أَنَس أبرز فقهاء مدرسة الحديث خلال القرن (2هـ/ 8م)، قال تقيّ الدين ابن تيمية: "... كان له من المكانة عند أهل الإسلام الخاص و العام ما لا يخفى على من له بالعِلم أدنى إلمام." ولم يكن وجود علماء هذه المدرسة في الحِجاز فقط، بل في الأمصار الأخرى كذلك، لكنَّ أهل المدينة كانوا إلى عهد الإمام مالك أَقْوَم بها من غيرهم. و خلال القرن (3هـ/ 9م) ازداد دور بغداد وأصبحت أبرز مركزٍ لمدرسة الحديث؛ فقد سكنها من نشر العِلم مثل الإمام أحمد بن حنبل، فصار فيها من العِلم ما لا يكون مِثْله حينئذٍ في الحِجاز. ونذكر من كبار علماء هذه المدرسة – إضافة إلى الإمامين أحمد و مالك– الإمام محمد بن إدريس الشافعي و أبا عمرو عبد الرحمان بن عمرو الأَوْزاعي[2] إمام الشاميين (ت157هـ/ 774م)، وسفيان بن سعيد الثوري[3] الكوفي (ت161هـ/ 778م)، و " شيخ الدِّيار المصرية " اللَيْث بن سَعْد بن عبد الرحمان المِصْري (ت175هـ/ 791م). ومنهم كذلك الفقيه الشهير عبد الله بن المُبارك المتوفَّى في هيت[4] سنة 181هـ/ 797م، و " الإمام العَلَم " سفيان بن عُيَيْنة الكوفي (ت 198هـ/ 814 م)، وعبد الرحمان بن مهدي بن حسان البَصْري " الحافظ " (ت198هـ/ 814 م) و يحيى القطان بن سعيد بن فروخ البَصْري " الحافظ أحد الأعلام " (ت198هـ/ 814م)، وكافَّة هؤلاء يُعدّون من كبار علماء الاسلام.[5]

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج 1، ص 82، 87، 90، 100.

[2] – هذه النسبة إلى الأوزاع، وهو اسم لقرية في نواحي دمشق. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج1، ص 384).

[3] – الثوري نسبة إلى بطن من قبيلة بني تميم. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 145).

[4] – هيت بلدة في نواحي بغداد. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 421).

[5] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص 174، 181، 206، 217، 250، 255.

و أمَّا المدرسة الثانية فهي مدرسة أهل الرأي، والمُراد بـ " أهل الرأي " الذين أكثروا من استخدام الرأي في بيان الأحكام الشرعية، وليس المُراد أنَّهم لم يكونوا يعتمدون على القرآن والحديث. وكانت الكوفة أبرز المدن التي وُجد فيها فقهاء هذه المدرسة، وهم أصحاب الإمام أبي حنيفة النُّعمان، ومن أعلامهم الفقيه الشهير محمد بن الحسن الشيباني، و زُفَر بن الهُذَيل التميمي البَصْري (ت158هـ/ 775م)، ويعقوب بن إبراهيم الكوفي المعروف بأبي يوسف القاضي (ت182هـ/ 798م)، والحسن بن زياد الكوفي فقيه العراق نزيل بغداد، وكانت وفاته سنة 204هـ/ 819 م.[1]

و نظرا لتوسُّع أهل الرأي في استخدام الرأي فقد نُقِدوا من قِبَل كثير من العلماء ومنهم ابن القيِّم، حيث تحدّث عن عدّة جوانب منها تقديمهم الرأي على الأحاديث في عدّة مسائل. وقد ظهرت خلال القرن (3هـ/ 9م) مدرسة ثالثة كردٍّ فعل على مدرسة أهل الرأي هي مدرسة أهل الظاهر، واعتمد أصحابها على ظاهر النصوص والإجماع[2]، ومنعوا الأخذ بالقياس[3] فخالفوا فقهاء المدرستين السابقتين الذين بيّنوا أخطاء أهل الظاهر؛ ومنها إنكار القياس الصحيح. وأبرز أعلام الظاهرية داود بن علي بن خَلَف الكوفي ثم البغدادي المتوفّى عام 270هـ/ 883م المعروف بداود الظاهري. ونلاحظ ممّا تقدم أنّ مدرسة الحديث قد توسَّطت بين مدرستي الرأي و الظاهر؛ فاعتنى فقهاؤها بالنصوص حِفْظا ومُدارسة، ولم يلجؤوا إلى القياس إلاّ عند الضرورة؛ قال الشافعي: " لا يحِلُّ القياس والخبر موجودٌ." وقال: " القياس عند الضرورة."[4]

وقد التفّ حول الأئمّة الأربعة أبي حنيفة ومالك و الشافعي و أحمد عدد كبير من طلبة العِلم، واعتنوا بجَمع أقوالهم وتصنيفها... والتقعيد لها "؛ فظهرت بذلك المذاهب الأربعة. والمذهب في لُغة العرب الطريق

---

[1] – عمر الأشقر، المرجع السابق، ص194. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 175، 218.

[2] – الإجماع هو " اتّفاق المجتهدين من أُمَّة " رسول الله صلّى الله عليه وسلّم " بعد وفاته في عصر من العصور على حُكْم شرعي." (أنظر: وهبة الرخيلي، **أصول الفقه الإسلامي**، ج1، ط1، دار الفكر، دمشق – سوريا، 1406هـ/ 1986م، ص 490.)

[3] – القياس هو " إلحاق أمر غير منصوص على حُكْمه الشرعي، بأمر منصوص على حُكْمه لاشتراكهما في عِلَّة الحُكْم." (أنظر: المرجع نفسه، ج1، ص 603).

[4] – عمر الأشقر، المرجع السابق، ص ص 195 – 201.

الذي يُذهَب فيه ويُمَرُّ منه. و عند الفقهاء هو المنهج الذي سلكه فقيه مُجتهِد، حيث لحق هذا المصطلح الأئمَّة الأربعة بعد وفاتهم، مع أنّهم ما دَعَوا إلى التمذهب؛ فلم ينتشر هذا الأخير بصفة جليَّة إلاّ خلال النِّصف الثاني من(ق3هـ/9م)، رغم أنَّ بعض مظاهره قد وُجدت منذ النصف الثاني من(ق2هـ/8م)[1].

وجدير بالذِّكْر أنَّ الاختلاف في المذاهب الفقهية الأربعة لا يتجاوز المسائل الفقهية إلى العقيدة؛ فالأئمَّة الأربعة كلّهم على عقيدة أهل السُّنة والجماعة. كما ينبغي أن نُنبِّه إلى أنَّ مسائل الفروع – أي الفقه – " ليست كلّها ممَّا يصحُّ أنْ يدخل في إطار ما يُسمّى بالمذهب الفقهي؛ فالأحكام التي لا مجال للاختلاف فيها ... لا يصحُّ أنْ تُنسَب إلى مذهب شخص بعَيْنه "، مثل وجوب الصلوات الخَمْس و وجوب صوم رمضان " وكون صلاة الظهر أربعا ... و نَحْو ذلك." وتجدر الإشارة كذلك إلى أنَّ كلّ مذهب فقهي يضمّ أقوال إمام المذهب واجتهاداته، كما يضمّ جميع الأقوال والاجتهادات التي ذهب إليها فقهاء المذهب، فلا يمكن أن تُنسَب هذه الأخيرة إلى الإمام[2]. ويلاحظ المُتتبِّع للحياة المذهبية أنّ المذاهب الفقهية ازدادت رسوخا بعد القرن(4هـ/ 10م)، ونوضّح معطياتها خلال (ق7– 8هـ/ 13 – 14م) في العناصر التالية:

أ – المذهب الحنفي:

يُعدُّ المذهب الحنفي أوَّل المذاهب الفقهية الأربعة ظهورا، و إمامه العالم الشهير أبو حنيفة النُّعْمان.

1– التعريف بالإمام أبي حنيفة النُّعمان:

هو أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت الكوفي، وُلِد سنة 80هـ/ 699 م، واتّفق الرواة على أنّه أدرك زمان الصحابة، لكنّهم اختلفوا في رؤيته لهم وسماعه منهم. و ذكر الذهبي أنّ أبا حنيفة لم يسمع من الصحابة. وكانت نشأته في الكوفة، حيث اشتغل بالتجارة ثم تركها، واتّجه إلى طلب العِلم في بلده، كما ارتحل إلى البَصْرة ومكَّة. ومن أبرز شيوخه التابعي الشهير أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي(ت104هـ/

(1) – بكر أبو زيد، المرجع السابق، ج1، ص 33، 54. و عمر الأشقر، المرجع السابق، ص 204. و خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ط1، دار المحتسب، د م، 1429هـ/ 2008 م، ص 7.

(2) – عمر الأشقر، المرجع نفسه، ص 206، 207.

722م)، وطاوس بن كيسان اليماني المتوفَّى في مكّة عام 106هـ/ 724م – وهو من كبار التابعين – وأبو محمد عطاء بن أبي رباح المَكي فقيه الحِجاز (ت114هـ/ 732م). ومنهم كذلك التابعي الشهير أبو عبد الله نافِع (ت117هـ/ 735م) مولى الصحابي عبد الله بن عمر بن الخطاب (ت74هـ/ 693م). ونذكر أيضا أبا إسماعيل حمَّاد بن أبي سليمان الكوفي فقيه الكوفة (ت120هـ/ 738م)، وقد أكثر أبو حنيفة الأخذ عنه، وسماك بن حرب الكوفي (ت123هـ/ 741م)، وهو من كبار علماء عصره، ومحمد بن مسلم بن عُبَيد الله الزُّهري[1] القُرَشي المَدَني (ت124هـ/ 742م) الذي يُعدُّ من كبار أئّمة الإسلام[2].

وكانت وفاة أبي حنيفة في بغداد سنة 150هـ/ 767م، ومناقبه كثيرة؛ لذا كثُر ثناء العلماء عليه؛ قال سفيان بن عُيَينة: " كان أبو حنيفة أكثر الناس صلاة وأعظمهم أمانة وأحسنهم مُروءة." وقال عبد الله بن المُبارك: " ما رأيت أحلم من أبي حنيفة و لا أحسن سَمْتا." وقال سفيان الثوري: " كان أبو حنيفة شديد الأَخْذ للعِلم." وقال الفقيه وكيع بن الجرَّاح بن مليح الكوفي (ت197هـ/ 813م): " كان – والله – أبو حنيفة عظيم الأمانة ...".[3]

وقد انشغل أبو حنيفة بالتدريس فأخذ عنه طلبة كُثر، وانتهج معهم أسلوب المُدارسة؛ فإذا وردت عليه مسألة عرضها عليهم، وسألهم عمّا عندهم فيها من الأدلّة، ثم يُعَقِّب على كلامهم. وقد ذكرت المصادر التاريخية أنَّ أربعين طالبا من أصحاب أبي حنيفة كانوا يُدَوِّنون المسائل الفقهية عنده، ومنهم أعلام كان لهم أثرٌ بارز في نشأة المذهب الحنفي.[4]

---

[1] – هذه النسبة إلى زُهرة بن كلاب بن مُرّة بن كعب بن لُؤي. و بنو زُهرة فرع من قُريش. (أنظر: عز الدين ابن الأثير، **اللُّباب في تهذيب الأنساب**، ج2، ط1، دار صادر، بيروت – لبنان، د ت، ص 82. و شمس الدين الذهبي، **تذكِرة الحُفّاظ**، ج1، (تحقيق: عبد الرحمان المعلمي)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د ت، ص 22).

[2] – أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 34، 58، 59. وعمر الأشقر، المرجع السابق، ص 221. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 96، 99، 112، 113، 116، 120. و عِماد الدين ابن كثير، المصدر السابق، ج5، ص 376، 442.

[3] – محمد بن عبد الهادي، **مناقِب الأئمة الأربعة**، (تحقيق: سليمان مسلم)، دار المؤيد، دم، دت، ص ص 63 – 67.

[4] – أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 59، 79.

2- أصول المذهب الحنفي:

لم يُدوِّن أبو حنيفة وأصحابه الذين أخذوا عنه كتابا جامعا في أصول الفقه[1]، لكنَّ فقهاء المذهب الذين عاشوا خلال فترات لاحقة استنبطوا أصوله من خلال الفقه المنقول عن إمام المذهب وأصحابه، وتتمثَّل في الاعتماد على القرآن الكريم والحديث والإجماع وأقوال الصحابة، لكنَّ أبا حنيفة جعل شروطا للأخذ بأخبار الآحاد[2] إنْ لم تتوفر لم يأخذ بها. كما يُعدُّ التوسُّع في الأخذ بالقياس من الأصول التي اعتمد عليها، وسبب ذلك أنَّ روايته للحديث أقلَّ من رواية غيره من الأئمَّة الأربعة؛ لتقدّم عهده على عهد بقيَّة الأئمة و" فُشُوّ الكذب في العراق "، أي وَضْع الأحاديث أو الكذب على النبي صلّى الله عليه وسلّم من قِبَل الوضّاعين. كما توسّع الحنفية في الاستحسان[3]، وتدلُّ على ذلك مصنَّفاتهم الفقهية، حتى اشتهروا بالأَخْذ به. وخلال القرن(4هـ/ 10م) وما بعده صنَّفوا عدّة كتب في أصول الفقه منها " كنز الوصول إلى معرفة الأصول" لأبي الحسن علي بن محمد بن الحسين البَزدوي المتوفَّى في سَمَرْقند عام 482هـ/ 1089م، و " المنتخب في أصول المذهب" لأبي عبد الله حُسام الدين محمد بن محمد بن عمر الأسخيكثي[4] (ت644هـ/ 1246م).[5]

(1) – عِلم أصول الفقه هو العلم بالقواعد التي يتمّ بها التوصل إلى استنباط الأحكام الشرعية (مثل الواجب والحرام...) من أدلّتها التفصيلية. والأدلّة التفصيلية هي الأدلّة الجزئية، وهي ما يتعلّق بمسألة بخصوصها، و يدلّ كلٌّ منها على حُكْم بعينه، كقول الله تعالى: " ولا تقربوا الزنا." يدلُّ على حُكْم بعينه هو حُرمة الزنا. (أنظر: وهبة الرخيلي، المرجع السابق، ص 24، 25).

(2) – حديث الآحاد هو الحديث الذي لا يدخل في حدِّ المُتواتر. و الأحاديث المُتواترة هي التي رواها جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب. (أنظر: محمد الأمين الشنقيطي، **مذكرة في أصول الفقه**، ط5، مكتبة العلوم، المدينة – السعودية، 1423هـ/ 2001م، ص 119، 122. و عمر الأشقر، المرجع السابق، ص 221، 222.)

(3) – اختُلف في تعريف الاستحسان، فمِن تعاريفه أنّه " ما يستحسنه المجتهد بعقله." وعُرِّف بأنّه " العدول عن حُكم اقتضاه دليل شرعي " في مسألة " إلى حُكم آخر فيها لدليل أقوى من الأوّل ...". (أنظر: محمد الأمين الشنقيطي، المرجع السابق، ص 200. وخالد رمضان، **معجم أصول الفقه**، ط1، دار الروضة، دم، 1419هـ/ 1998م، ص 29).

(4) – نسبة إلى أسخيكث، وهي بلدة في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 347).

(5) – عمر الأشقر، المرجع نفسه، ص ص 221 – 223. و أحمد سعيد، المرجع نفسه، ص 119، 346، 347.

3- انتشار المذهب الحنفي:

نشأ المذهب الحنفي في الكوفة موطن الإمام أبي حنيفة، وقد كانت إحدى أبرز حواضر العِلم خلال (ق2هـ/8م)، يقصدها أهل العِلم من شتّى الأنحاء؛ فكان لأبي حنيفة أصحاب من عدّة أمصار نقلوا إليها فِقهه، فكان بذلك المذهب ينتشر عن طريقهم، خاصَّة في العراق وخُراسان وما وراء النهر. وأمَّا مصر فإنّه لم ينتشر فيها على نِطاق واسع، وأوَّل من نقله إليها القاضي أبو الربيع إسماعيل بن اليَسَع بن الربيع الكِنْدي الكوفي، حيث ولي قضاءها بين عامي(164–167هـ)(781– 783م) من قِبَل المَهدي[1]. وأمّا بلاد الشام فقد انتشر فيها المذهب أكثر من انتشاره في مصر، وذكر ابن فرحون[2] أنّه " ظهر بإفريقية[3] ظهورا كثيرا ثم انقطع منها." و أوّل من نقله إليها عبد الله بن فروخ الخُراساني الذي تفقّه على أبي حنيفة ثم دخل مصر سنة 144هـ/761م، وانتقل إلى إفريقية، وكانت وفاته سنة 175هـ/ 791م.[4]

ويُعدُّ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتقدَّم ذِكْره من أبرز من ساهم في نشر مذهب أبي حنيفة؛ فكُتُبه حفظت أقوال إمام المذهب. كما كان لمحمد بن الحسن الشيباني دورٌ أساسي؛ إذْ صنَّف كتبا اهتمّ بها فقهاء الحنفية بالشرح والتعليق منها كتاب " الجامع الكبير" في الفقه. ويُعتبر الفقيهان المذكوران أشهر أصحاب أبي حنيفة. إلى جانب زُفَر بن الهُذيل التميمي[5] المتوفَّى عام 158هـ/ 775م.[6]

وقد استمرَّ انتشار المذهب الحنفي خلال القرن (3هـ/ 9م) وما بعده. ونذكر من فقهائه هلال بن

(1) – هو الخليفة العباسي محمد المَهْدي بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. كانت وفاته عام 169هـ/ 785م، و هو ثالث خلفاء بني العباس. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 169).

(2) – هو الفقيه برهان الدين إبراهيم بن نور الدين أبي الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم فرحون المَدَني المالكي المتوفّى سنة 799هـ/ 1396م. (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج1، ص 228).

(3) – إفريقية إقليمٌ واسعٌ من بلاد المغرب، من أبرز مدنه القيروان.(أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 228).

(4) – شهاب الدين ابن حَجر، **رفع الإصْر عن قُضاة مصر**، (تحقيق: علي محمد)، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، 1418هـ/ 1998م، ص ص 88، 90. و عبد القادر القُرَشي، **الجواهر المُضِيّة في طبقات الحنفية**، ج2، (تحقيق: عبد الفتاح الحلو)، ط2، دار هجر، د م، 1413هـ/ 1993م، ص320، 321.

(5) – نسبة إلى قبيلة بني تميم، وهي إحدى أبرز قبائل العرب. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص 78).

(6) – مناع القطان، **تاريخ التشريع الإسلامي**، ط5، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، 1423هـ/ 2001م، ص 341. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص 176. و أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 94.

يحيى بن مسلم البَصْري(ت 245هـ/859 م)، و أبا حَفْص أحمد بن حَفْص البُخاري (ت264هـ/878م) شيخ الحنفية ببُخارى، و الفقيه المُحدِّث الشهير أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي[1] المصري (ت321هـ/ 933 م) صاحب التصانيف، ومنها " المُختَصَر" في الفقه.[2]

وكان التصنيف من أبرز الوسائل التي نشرت المذهب، حيث صنَّف كثير من الحنفية كتبا في الفقه وأصوله، ومنهم أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت370هـ/ 980م)، له كتاب " الفُصول في الأصول" أي أُصول الفقه. ولأبي علي أحمد بن محمد بن إسحاق الشاشي[3] (ت344هـ/ 955م) كتاب في أصول الفقه يعرف بـ " أصول الشاشي". كما صنَّف أبو الحسين علي بن الحسين بن محمد السُّغدي[4](المتوفَّى في بُخارى عام 461هـ/ 1069م) كتاب " النُّتَف في الفتاوى". ولأبي القاسم علي بن محمد بن أحمد الرحبي[5] (ت499هـ/ 1105م) عدَّة مصنَّفات منها " أدب القضاة ". واستمرّ التأليف خلال القرن (6هـ/ 12م)؛ فمن المُصنِّفين خلاله حُسام الدين عمر بن عبد العزيز بن عمر البُخاري المتوفَّى في سَمَرقند عام 536هـ/ 1141م، له " الفتاوى الكبرى" ومُصنَّفات أخرى. ومنهم رضيّ الدين محمد بن محمد السرخسي[6] نزيل حلب (ت544هـ/ 1149م)، و له كتاب " المُحيط" في الفقه. و ألّف برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني[7] (ت 593هـ/ 1197م) تصانيف عديدة منها " بداية المبتدئ " في الفقه.[8]

---

(1) – الطحاوي نسبة إلى طحا، وهي بلدة في وسط الديار المصرية. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج4، ص 22).

(2) – أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 98، 99. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص11.

(3) – الشاشي نسبة إلى الشاش، وهي مدينة في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، ج3، ص 308).

(4) – السُّغْدي نسبة إلى سُغد، وهي ناحية من نواحي سَمرقند في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: أحمد سعيد، المرجع نفسه، ص 376).

(5) – الرحبة: مدينة في شمال العراق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج3، ص 34).

(6) – هذه النسبة إلى سرخس، وهي مدينة في خُراسان. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 208).

(7) – فرغانة مدينة كبرى في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: المصدر نفسه، ج4، ص 253).

(8) – أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 344، 358، 359، 360، 376، 377، 378، و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج2، ص 133

3- بعض أعلام الحنفية خلال القرنين (7 – 8هـ/ 13 – 14م):

لقد استمرَّ الانتشار الواسع للمذهب الحنفي خلال القرنين (7 – 8هـ/ 13 – 14م) في المشرق الإسلامي؛ قال ابن خلدون: " ... وأمَّا أبو حنيفة فقلّده اليوم أهل العراق ومُسلِمة الهند... وما وراء النهر وبلاد العَجَم كلِّها...". فيدلُّ هذا على انتشاره الواسع في العراق وكافّة الأقاليم الواقعة شرقه، بالإضافة إلى انتشاره في بلاد الشام خاصّة في مدينة حلب بشمال الشام، و انتشاره المحدود في مصر. ومن أعلامه خلال القرن (7هـ/ 13م) المَلِك الأيوبي عيسى " المُعَظّم" بن سيف الدين أبي بكر العادل (ت624هـ/ 1227م) صاحب دمشق وأعمالها بين عامي (615- 624هـ)(1218- 1227م)، وكان له اهتمام بالعِلم والتصنيف. ومنهم مجد الدين محمد بن محمود بن الحسين الأشْرُوسني[1] (ت 632هـ/ 1234م) مُصنِّف كتاب " الأصول في مسائل القضاء". وبهاء الدين إبراهيم بن عبد الرحمان بن عبد الرحيم المَنْبجي[2] نزيل دمشق (ت640هـ/ 1242م). ومنهم أيضا شمس الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن عطاء الأَذْرعي[3] ثم الدِّمشقي (ت 673هـ/ 1277م)، و أبو الفضل مجد الدين عبد الله بن محمود الموصلي المتوفّى في بغداد عام 683هـ/ 1284م، له كتاب " المختار للفتوى."[4]

ونذكر من أعلام الحنفية المتوفين خلال القرن (8هـ/14م) عزّ الدين عبد العزيز بن محمد ابن العديم الحلبي قاضي حَمَاة[5](ت711هـ/ 1311م)، وعبد الله بن أحمد بن محمود النَّسَفي (ت710هـ/ 1310م) – مُصنِّف كتاب " الكافي" في الفقه – ، وشمس الدين محمد بن أبي البركات بن عزّ الدين أبي العز

---

(1) – أَشْروسنة بلدة كبيرة في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 179).

(2) – مَنبج بلدة في شمال شرق حلب (في شمال الشام). (أنظر: حسين مؤنس، **أطلس التاريخ الإسلامي**، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة – مصر، 1407هـ/ 1987م، ص 58.

(3) – أَذْرُعات بلدة في جنوب الشام. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج1، ص 166).

(4) – عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 567. وعبد القادر القُرَشي، المصدر السابق، ج2، ص 682. و ج1، ص 90. و أحمد سعيد، المرجع السابق، ص 362، 363. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 274، 327.

(5) – خلال عهد السلطان المملوكي المَلِك الناصر محمد بن المَلِك المنصور قلاوون. و يُعدّ السلطان محمد من أبرز سلاطين دولة المماليك. وقد كان تأسيس هذه الدولة سنة 648هـ/ 1250م.) (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 259. و ج4، ص 133.)

الأَذْرُعي (ت722هـ/ 1324م)، وقد درّس و أفتى في دمشق. كما نشير إلى فخر الدين أبي عمر عثمان بن علي بن محجن الزيعلي[1] نزيل القاهرة (743هـ/ 1342م) مُصنِّف " كنز الدقائق" في الفقه، و إلى شمس الدين محمد بن عثمان بن أبي الحسن المعروف بابن الحريري (ت728هـ/ 1327م)، الذي ولي تدريس الحنفية في دمشق[2]. وصنَّف أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود البابرتي[3] (ت786هـ/ 1384م) كتاب " العناية " في الفقه، كما صنَّف جمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي نزيل القاهرة (ت762هـ/ 1360م) كتاب " نَصْب الراية لأحاديث الهداية "، تطرَّق فيه لأحاديث كتاب " الهداية" لبرهان الدين علي بن أبي بكر الفَرْغاني المتقدَّم ذكره.[4]

ونلاحظ من خلال ما أوردته المصادر التاريخية عن فقهاء الحنفية كثرة رحلاتهم من أقاليم الشرق مثل خُراسان وما وراء النهر إلى العراق والشام ومصر. ومن أمثلة ذلك انتقال صدر الدين المُوفَّق بن محمد بن الحسن الخُوارزمي (ت634هـ/ 1236م) من بلاد ما وراء النهر إلى بغداد سنة625هـ/ 1228م، ثم انتقل إلى مصر وكانت وفاته فيها. كما ارتحل جمال الدين أبو المحامد محمود بن أحمد البُخاري من بُخارى إلى خُراسان، ثم قدم إلى بلاد الشام فصار من نُزلاء دمشق، وتوفي فيها عام636هـ/ 1238م حيث كثُر النُّزَلاء في المدن الكبرى خاصَّة مكّة والمدينة ودمشق والقاهرة وبغداد، ومنهم أبو صابر حامد بن أبي القاسم الأهوازي[5] المتوفَّى في القاهرة عام 612هـ/ 1215م. وانتقل جلال الدين عمر بن محمد بن عمر الخُجَندي[6](ت691هـ/ 1292م) من خُوارزم إلى بغداد فدرّس فيها، ثم انتقل إلى دمشق.[7]

---

[1] – الزيلعي نسبة إلى زيلع، وهي " بلدة بساحل بحر الحبشة." (أنظر: أحمد سعيد، المرجع نفسه، ص 364.)
[2] – شمس الدين الذهبي، **ذيول العبر**، ج4، ص28. وأحمد سعيد، المرجع السابق، ص364. وعبد القادر القُرَشي، ج3، ص250.
[3] – نسبة إلى بابرتا، وهي قرية قريبة من بغداد. (أنظر: أحمد سعيد، المرجع نفسه، ص 365).
[4] – عبد القادر القُرَشي، المصدر نفسه، ج1، ص 93. و أحمد سعيد، المرجع نفسه، ص 365، 400.
[5] – هذه النسبة إلى مدينة الأهواز الواقعة " بين البصرة وفارس ". (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 285).
[6] – الخُجَندي نسبة إلى خُجَندة، وهي مدينة في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 347).
[7] – عبد القادر القُرَشي، المصدر نفسه،ج 3، ص 524، 431. و ج2، ص30. وشمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، الجزء المفقود، ص214، 215.

ب- المذهب المالكي:

كان المذهب المالكي ثاني المذاهب الفقهية ظهورا، و إمامه العالم الشهير مالك بن أَنَس.

1 - التعريف بالإمام مالك بن أَنَس:

هو أبو عبد الله مالك بن أَنَس بن أبي عامر الأَصْبحي[(1)] الأنصاري المَدَني، وُلِد سنة 93هـ/ 712م في المدينة ونشأ فيها في بيت عِلم. فحفظ القرآن الكريم في صدر حياته، واهتمّ بحفظ الحديث ومجالسة العلماء، فلازم عبد الله بن هرمز[(2)] مدّة طويلة فتفقّه عليه، ثم لازم التابعي الشهير نافع مولى الصحابي عبد الله بن عمر، و ربيعة بن أبي عبد الرحمان المَدَني عالم المدينة (ت136هـ/ 753م)، و ابن شهاب الزُّهْري، فأخذ عنهم عِلما كثيرا. كما سمع من علماء آخرين منهم عبد الرحمان بن محمد بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق(ت126هـ/ 744م)، وعبد الرحمان بن ذكوان المَدَني المعروف بأبي الزناد (ت131هـ/ 749م)، ويحيى بن سعيد بن قَيْس الأنصاري المَدَني (ت 143هـ/ 760م)، ومحمد بن المنكدر بن عبد الله القُرَشي المَدَني (ت130هـ/ 748م). وكلّهم من كبار فقهاء التابعين في المدينة.[(3)]

وقد درّس مالك في المسجد النبوي فقصده طلبة العِلم فلازموه، ومنهم " الإمام المشهور" عبد الرحمان بن القاسم بن خالد المصري المتوفَّى في مصر سنة 191هـ/ 807م، و زياد بن عبد الرحمان القُرطبي الأندلسي(ت193هـ/ 809م)، ارتحل من الأندلس إلى الحِجاز في طلب العلم، وكان أهل المدينة يدعونه " فقيه الأندلس". ومن أبرز من لازم مالكا العالم الشهير عبد الله بن وهب بن مسلم المصري المتوفّى في مصر عام 197هـ/ 813م، وأسد بن الفرات بن سِنان (ت213هـ/ 828م)، وهو من أهل افريقية، ارتحل

---

(1) – هذه النسبة إلى أصبح، قبيلة من العرب اليمانية. (أنظر: عبد الكريم السمعاني: المصدر السابق، ج1، ص 287).

(2) – الفقيه عبد الله بن يزيد بن هرمز " أحد الأعلام"، و هو من أبرز فقهاء التابعين في المدينة، توفي في حدود 130هـ/ 748م. (أنظر: صلاح الدين الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج17، (تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى)، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، 1420هـ/ 2000م، ص 362).

(3) – مناع القطان، المرجع السابق، ص 345، 346. ومحمد بن عبد الهادي، المصدر السابق، ص ص 79 – 82. و أبو إسحاق الشيرازي، **طبقات الفقهاء**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار الرائد، بيروت – لبنان، 1391هـ/ 1970، ص 65، 66.

إلى المشرق، وأخذ عن مالك وغيره. ومنهم كذلك أَشْهب بن عبد العزيز بن داود بن إبراهيم المصري المتوفَّى في مصر سنة 204هـ/819 م، وعبد الله بن عبد الحَكَم بن أعين المصري (ت214هـ/ 829م)، وكلّهم من كبار أهل العلم.(1)

وقد دوَّن الإمام مالك كتابه " المُوطّأ"، وهو كتاب حديث وفقه. و " فقه مالك ليس مقصورا على المُوطّأ فقد تلقّى طلبة العلم عنه فقهه ونقلوه إلى أَمْصار المسلمين. وكان أسد بن الفرات من أبرز من سمع المُوطّأ من مالك، ثم ارتحل إلى العراق فاتقى بعض كبار أصحاب أبي حنيفة، وانتقل بعد ذلك إلى مصر، وعرض مسائل كثيرة على عبد الرحمان ابن القاسم المصري فأجابه عليها، حيث دوَّن أسد الإجابات، وعاد بها إلى القيروان في إفريقية فظهر بذلك كتاب " الأَسَدية ". وكتبه سُحْنون(2) عن شيخه أسد بن الفرات، ثم قدم به عام 188هـ/ 804 م إلى ابن القاسم في مصر، فعرضه عليه فعدَّل بعض الإجابات، وبرز بذلك الكتاب المعروف بمُدوَّنة سُحنون، " وتبلغ مسائلها ستًّا وثلاثين ألف مسألة ".(3)

وكانت وفاة مالك في المدينة سنة 179هـ/795م، ومناقبه كثيرة، ومن ثناء العلماء عليه قول الشافعي: " إذا ذُكِر العلماء فمالك النجم." وقال عبد الرحمان بن مهدي: " ما رأيتُ أعقل من مالك." وقال الذهبي: "... و لم يكن في المدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم والفقه ... و الحِفظ." وقال: "... كان مالك إماما في نَقْد الرجال، حافظا مجوِّدا مُتقنا."(4)

2- أصول المذهب المالكي:

لم يُدوِّن مالك بن أَنَس " أُصول مذهبه وقواعده في الاستنباط، ومناهجه في الاجتهاد، و إنْ كان قد

(1) – برهان الدين ابن فرحون، **الدِّيباج المُذَهَّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، (تحقيق: مأمون الجنان)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1417هـ/ 1996م، ص 239، 193، 194، 214، 215، 426، 161، 162. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج1، ص 220.

(2) – الفقيه الشهير عبد السلام سُحنون بن سعيد بن حبيب القيرواني. وُلد سنة 160هـ/ 777م. و توفي سنة 240هـ/ 854 م في القيروان، يُعدُّ من كبار علماء (ق3هـ/9م).(أنظر: برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص ص263– 265).

(3) – عمر الأشقر، المرجع السابق، ص 233. و مناع القطان، المرجع السابق، ص 252.

(4) – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 204، 211. و **تاريخ الإسلام**، ج4، ص 723. و **السِّيَر**، ج8، ص 58، 71، 75.

صرَّح ببعضها." و أبرز هذه الأصول – " بناء على ما صرَّح به أو أشار إليه أو استنبطه فقهاء مذهبه من الفروع المنقولة عنه والآراء المُدوَّنة في مُوطَّئه "– الاعتماد على القرآن الكريم والحديث والإجماع و إجماع أهل المدينة[(1)] والقياس وأقوال الصحابة والمصالح المُرْسَلة[(2)] وسدّ الذرائع.[(3)]

وصنَّف فقهاء المالكية كغيرهم من فقهاء المذاهب الأخرى كتبا في أصول الفقه منها كتاب " الإشارة " لأبي الوليد سليمان بن خَلَف بن سعد الباجي[(4)] الأندلسي (ت494هـ/ 1101م)، وكتاب " الإفادة " لأبي محمد عبد الوهاب بن نَصْر البغدادي، وهو من أبرز مُصنِّفي المالكية خلال (ق5هـ/ 11م)، وقد توجّه في آخر حياته إلى مصر فتوفي فيها عام 422هـ/ 1031م. كما صنَّف شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمان القرافي[(5)] المصري (ت 684هـ/1285م) كتاب " التنقيح ". ويُعدُّ القرافي من أبرز أعلام المالكية خلال(ق7هـ/ 13م)، و أُلّفت كتب أخرى في هذا العلم.[(6)]

3- انتشار المذهب المالكي:

نشأ المذهب المالكي في المدينة، ثم انتشر في مصر بوجود فقهاء بارزين مثل عبد الرحمان ابن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وعبد الله بن وهب. وغلب على البصرة ثم ضعف فيها بعد القرن (5هـ/ 11م)، كما " ظهر ببغداد ظهورا كثيرا ثم ضعف فيها بعد " القرن الرابع الهجري (10م). وظهر أيضا في

---

(1) – كان مالك بن أَنَس يرى أنَّ إجماع أهل المدينة حُجّة إذا توفّر فيه شرطان: " أحدهما: أن يكون فيما لا مجال للرأي فيه. الثاني: أن يكون من الصحابة والتابعين لا غير ذلك." (أنظر: محمد الأمين الشنقيطي، المرجع السابق، ص 182).

(2) – المصالح المُرسَلة هي " الوصف الذي لم يُعلَم من الشرع إلغاؤه ولا اعتباره لا بنصٍّ ولا بإجماع، أي لم يوجد في الأحكام الشرعية ما يوافقه أو يخالفه"، فهي " مصلحة لأنها تجلب نفعًا أو تدفع ضررا...، وهي مُرسَلة لأنّها مطلقة." لم يُعلم من الشرع إلغاؤها ولا اعتبارها، " مثل المصلحة التي اقتضت جَمع القرآن. (أنظر: وهبة الرخيلي، المرجع السابق، ص 754. و خالد رمضان، المرجع السابق، ص 269، 270).

(3) – المقصود بالذريعة " التذرّع بفعل جائز " للتوصل إلى عمل غير جائز. (أنظر: مناع القطان، المرجع السابق، ص 355، 356. و عمر الأشقر، المرجع السابق، ص 232).

(4) – نسبة إلى باجة وهي بلدة في الأندلس، وثمَّ باجة أخرى في إفريقية.(أنظر: برهان الدين ابن فرحون،المصدر السابق، ص 197).

(5) – هذه النسبة إلى القرافة، وهو موضع قرب القاهرة فيه مقبرة و" أبنية جليلة ومحالّ واسعة." (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج4، ص 317).

(6) – برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 199، 261، 262، 129، 175.

أبهر وقزوين[1] ونَيْسابور. و انتشر في " كثير من بلاد الشام ". ومنذ أواخر القرن (2هـ/ 8م) بدأ ظهوره في بلاد المغرب والأندلس حتى غلب عليها؛ قال ابن خلدون: " ... وأمَّا مالك رحمه الله تعالى فاختصّ بمذهبه أهل المغرب والأندلس...؛ لما أنّ رحلتهم كانت غالبا إلى الحِجاز، وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذٍ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ على علماء المدينة، وشيخهم يومئذ و إمامهم مالك...". وقال الذهبي في ترجمة مالك: "... و مذهبه قد ملأ المغرب والأندلس و كثيرا من بلاد مصر، و بعض الشام و اليمن و السودان، و بالبصرة و بغداد و الكوفة."[2]

وقد كان لبعض الفقهاء دور بارز في نشر مذهب مالك، منهم الفقهاء الذين نشروه في مصر (تقدَّم ذِكرهم)، ومنهم في العراق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل البغدادي (ت282هـ/ 895م)، صنَّف كتاب " المبسوط " في الفقه. كما صنَّف محمد بن عبد الله بن صالح البغدادي المعروف بأبي بكر الأبهري (نسبة إلى أبهر) كتبا عديدة منها "إجماع أهل المدينة"،(توفي الأبهري في بغداد سنة395هـ/1005م)[3].

أمَّا إفريقية فانتشر فيها المذهب على يد فقهاء كانت لهم رحلات إلى المشرق، من أشهرهم أسد بن الفرات وسُحنون و عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمان القيرواني " إمام المالكية في وقته ...، وجامع مذهب مالك وشارح أقواله "، فمِن مصنَّفاته " النوادر و الزيادات على المُدوَّنة " و "مختصر المُدوَّنة "، وله أيضا كتاب " الذبّ عن مذهب مالك" وكتاب " المناسك"، وكانت وفاته في القيروان سنة 386هـ/ 996م. ومن أبرز من انتشر عنه المذهب المالكي في الأندلس الفقيه يحيى بن يحيى بن كثير الأندلسي(ت234هـ/ 848 م)، وعبد الملك بن حبيب بن سليمان الأندلسي (ت239هـ/ 853م)، رحل إلى المشرق سنة 208هـ/ 823م ورجع إلى الأندلس سنة 216هـ/ 831م، وألّف عدّة كتب منها كتاب " الواضحة في الفقه

---

[1] – أبهر مدينة مشهورة من بلاد الجبل، و هذه الأخيرة تلي العراق من ناحية الشرق، و أكبر مدنها أصبهان. أمّا قزوين: فهي مدينة قريبة من أبهر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، ج1، ص 82. و ج4، ص 242).

[2] – أحمد تيمور باشا، **نظرة في حدوث المذاهب الأربعة**، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ص ص 38 – 40. وعمر الأشقر، المرجع السابق، ص 237. و عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 568. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج8، ص 92.

[3] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 152، 154، 364، 351، 353.

و السُّنن"، و يُعدُّ من أبرز مؤلَّفات المالكية. وقد اعتمد أهل الأندلس على " الواضحة" إلى أن ألّف محمد بن أحمد بن عبد العزيز العُتْبي (نسبة إلى أحد أجداده) الأندلسي(ت255هـ/869م) كتاب " المُستخرَجَة " في الفقه، ويُعرف بـ " العُتْبية "، فاهتمّ الأندلسيون بالكتاب الأخير.[1]

ويُعدُّ التصنيف من الوسائل التي ساهمت في نَشْر المذهب؛ فمن مصنَّفات المالكية – فضلا عن التي ذُكِرت من قبل – كتاب "الموازية " نسبة إلى مُصنِّفه محمد بن إبراهيم الإسكندري المعروف بابن المواز المتوفَّى في دمشق عام 269هـ/ 882م، وهذا الكتاب من " الأمّهات في الفقه المالكي"، وهي: المُدوَّنة والواضحة والعُتْبية والموازية.[2] وصنَّف يحيى بن عمر بن يوسف القُرطبي الأندلسي نزيل القيروان (ت289هـ/902 م) عدّة كتب منها " اختصار المُستخرَجَة ". كما صنَّف الفقيه المُحدِّث الشهير ابن عبد البَر كتاب " الكافي " في الفقه، وصنَّف أبو الفضل عِياض بن موسى بن عياض السَّبتي[3] المعروف بالقاضي عِياض (ت544هـ/ 1149م) كتاب " الأجوبة المُحبرة على الأسئلة المتخيّرة ". ويُعدُّ كتاب " الاستيعاب" لأبي عمر أحمد بن عبد الملك الإشبيلي المعروف بابن المُكوي (ت401هـ/ 1010م) من أبرز ما صنَّفه المالكية خلال القرن (4هـ/ 10م). وممّا صُنِّف خلال القرن (5هـ/ 11م) " الاستيفاء في شرح الموطّأ" و "شرح المُدوَّنة" لأبي الوليد الباجي. أمَّا القرن (6هـ/12م) فممَّا أُلِّف خلاله كتاب " الطراز" (وهو شرح للمُدوَّنة) لأبي علي سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز المتوفَّى في الإسكندرية عام 541هـ/ 1146م، قال ابن فرحون: " ... و ألّف كتابا حسنا في الفقه سمَّاه الطراز شرح به المُدوَّنة."[4]

[1] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 222، 223، 252، 253، 254، 337.

[2] – محمد الحفناوي، **الفتح المُبين في حلّ زموز ومصطلحات الفقهاء**، دن، ص 58.

[3] – سبتة مشهورة من بلاد المغرب، ومرساها " أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل " الأندلس. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 182).

[4] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 224، 225، 429، 272، 100، 199، 262، 207.

4- بعض أعلام المالكية خلال القرنين (7 –8هـ/ 13 – 14م):

لقد كان وجود الفقهاء المالكية في مصر خلال (ق7– 8هـ/ 13 – 14م) أكثر من وجودهم في بقيّة أقاليم المشرق الإسلامي، ومن أبرزهم خلال (ق7هـ/ 13م) عبد الله بن نجم بن شاس المصري (ت616هـ/ 1219م)، له كتاب " الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة "، قال ابن فرحون: " ... والطائفة المالكية بمصر عاكِفة عليه " (الكتاب) " لحُسنه وكثرة فوائده." ومنهم أيضا أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري القُرطبي المعروف بابن المُزيّن (ت626هـ/ 1229م)، رحل من الأندلس إلى المشرق واستقرَّ في الإسكندرية. ونذكر من أعلامهم كذلك صفي الدين عبد الله بن علي بن الحسين القُرَشي المعروف بابن شكر الوزير[1]، له كتاب " البصائر" في الفقه، وكانت وفاته في القاهرة عام622هـ/ 1225م. وصنَّف جمال الدين أبو عمرو عثمان بن عمر بن أبي بكر المصري المعروف بابن الحاجب (ت646هـ/ 1248م) عدّة مصنَّفات منها " الجامع" في الفقه، قال ابن خلدون: " ... و لمَّا جاء كتابه إلى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصا أهلُ بجاية...".[2]

وأُلِّفت كتبٌ أخرى خلال (ق7هـ/ 13م) منها " الذخيرة " في الفقه للقرافي. ومن أعلام المالكية أيضا ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور الإسكندري (ت683هـ/ 1284م) المعروف بابن المُنير، وشرف الدين أحمد بن يوسف بن أحمد القَفْصي[3] (ت651هـ/1253م) الذي انتقل إلى القاهرة واستقرَّ فيها. [4]

أمَّا القرن (8هـ/ 14م) فمِن الذين تُوفّوا خلاله جمال الدين محمد بن سليمان بن سومر الزواوي (ت719هـ/ 1319م)،قدِم من بلاد المغرب إلى مصر عام 645هـ/ 1247م ثم استقرَّ في دمشق. ومنهم

---

(1) – وزر ابن شكر للمَلِك الأيوبي سيف الدين أبي بكر العادل " صاحب مصر و الشام " المتوفَّى عام 616هـ/ 1219م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 164، 187).

(2) – برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 229، 130، 131، 233، 289، 290. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 187. و عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 570.

(3) – نسبة إلى قَفْصة، وهي مدينة " في طرف إفريقية " في النواحي الجنوبية للقيروان. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج4، ص 382).

(4) – برهان الدين ابن فرحون، المصر نفسه، ص 231، 128، 129، 133، 134.

محمد بن محمد بن عبد الرحمان القُرَشي التونسي نزيل القاهرة المعروف بابن القويع (ت738هـ/ 1337م)، وشهاب الدين عبد الرحمان بن محمد بن عسكر البغدادي (ت732هـ/ 1331م) مُدرِّس المالكية في بغداد، وله مُصنَّفات منها " المُعتمَد " في الفقه. ومنهم كذلك ضياء الدين خليل بن إسحاق بن موسى المصري(ت776هـ/ 1374م) مُصنِّف " مُختصر خليل" الذي يُعَدُّ من أبرز كتب الفقه المالكي[1].

ولاحظنا من خلال اطّلاعنا على تراجم المالكية (ق7 -8هـ/ 13- 14م) كثرة رحلاتهم من بلاد المغرب إلى المشرق للحجّ وطلب العلم، واستقرّ كثير منهم في مدن المشرق خاصَّة مكّة والمدينة والقاهرة والإسكندرية. ومن أمثلة ذلك انتقال محمد بن يوسف بن موسى الأندلسي المعروف بابن مُسْدي من الأندلس إلى مصر ثم إلى الحِجاز، حيث استقرَّ في مكَّة حتى وفاته عام 663هـ/ 1264م. كما ارتحل محمد بن أحمد بن محمد الشريشي[2] الأندلسي إلى مصر والعراق والشام واستقرّ في دمشق، وكانت وفاته عام 685هـ/ 1286م. في حين رجع أعلام آخرون بعد رحلاتهم، مثل محمد بن جابر بن محمد الوادآشي[3] التونسي، ارتحل إلى المشرق وحدّث بالحرمين (توفي في تونس عام749هـ/ 1348م).[4]

ج – المذهب الشافعي:

المذهب الشافعي ثالث المذاهب الفقهية ظهورا، و إمامه العالم الشهير محمد بن إدريس الشافعي.

1 – التعريف بالإمام الشافعي:

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب القُرَشي الشافعي (نسبة إلى شافع وهو أحد أجداده)، وُلِد في غزّة[5] سنة 150هـ/ 767م، ونشأ يتيما فتحوّلت به أمّه إلى مكّة

---

[1] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 413، 414، 248، 234، 186. ومحمد الحفناوي، المرجع السابق، ص 59.

[2] – نسبة إلى شريش، بلدة في الأندلس. (أنظر: برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 412.)

[3] – وُلِد في تونس عام 673هـ/ 1274م، لكنّ أسرته ترجع إلى وادي آش، وهي ناحية في جنوب شرق الأندلس. (أنظر: المصدر نفسه، ص 403. وحسين مؤنس، المرجع السابق، ص 171).

[4] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 421، 412، 402. وشمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 91).

[5] – غزّة مدينة في جنوب غرب فلسطين. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج4، ص 202).

فنشأ بها، و أقبل على العربية والشعر فبرع في ذلك، " ثم حُبِّب إليه الفقه " فأقبل عليه، وأخذ في مكّة عن فقيهها أبي خالد مسلم بن خالد الزنجي (ت180هـ/ 796م) و سفيان بن عُيَينة وغيرهما. ثم ارتحل وهو ابن بِضْع و عشرين سنة إلى المدينة، فحمل عن مالك المُوطّأ، وسمع فيها من علماء آخرين، كما أخذ في بغداد عن محمد بن الحسن الشيباني وغيره. ورجع إلى مكة فباشر التدريس وأخذ عنه أعلام مشاهير. ثم سافر إلى بغداد عام 195هـ/ 811م لكنّه لم يستقر فيها مدَّة طويلة، بل ارتحل إلى مصر عام 198هـ/ 814 م، واستقرّ فيها، وكانت وفاته سنة 204هـ/ 819 م.[1]

وقد مرَّ الإمام الشافعي في سيرته العلمية بعد أنْ صار إماما بمرحلتين: المرحلة العراقية؛ حيث أُخِذ عنه العِلم أثناء استقراره في بغداد، خاصَّة من قِبَل الفقيه " الحافظ" الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني[2] البغدادي (ت260هـ/ 874 م)، و الفقيه إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان البغدادي المعروف بأبي ثور (ت240هـ/ 854 م). أمَّا المرحلة الثانية فهي المرحلة المصرية، حيث استقرّ الشافعي في مصر و راجع أقواله السابقة فتراجع عن كثير منها بسبب تراجعه عن بعض أصوله. وأَخَذ عنه في مصر علماء كبار كان لهم دورٌ كبيرٌ في نقل فقهه، ومنهم يوسف بن يحيى القُرَشي المعروف بأبي يعقوب البُويطي[3] المصري (ت 231هـ/ 846 م)، وحرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة المصري " الحافظ" (ت244هـ/ 858م)، والربيع بن سليمان بن داود الجيزي[4] المصري (ت256هـ/ 870م). ومنهم كذلك الفقيه الشهير إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المصري المعروف بالمُزني (ت264هـ/ 878م)، و الفقيه المحدث يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة المصري (ت 264هـ/ 878م).[5]

ومناقب الشافعي كثيرة؛ قال أبو ثور: " ما رأيت مثل الشافعي، ولا رأى هو مثل نفسه." و نُقل عن ابن

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج10، ص 6، 7. و مناع القطان، المرجع السابق، ص 360، 361.

(2) – نسبة إلى الزعفرانية، وهي قرية في نواحي بغداد. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج6، ص 280).

(3) – هذه النسبة إلى بُويط، وهي قرية في صعيد مصر. (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 339).

(4) – الجيزة بلدة في شمال مصر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 200).

(5) – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 373، 339، 323، 346، 379.

المديني أنَّه قال: "عليكم بكتب الشافعي." و كان الشافعي من أبرز العلماء المُنكِرين على الفِرَق المخالفة لمنهج أهل الحديث؛ فممّا نُقِل عنه قوله: " حُكْمي في أهل الكلام أن يُضرَبوا بالجريد ويُحمَلوا على الإبل ويُطاف بهم في العشائر يُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة وأقبل على الكلام." وقوله: " ما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح." وقال لأحد أصحابه: "... إذا سألك رجلٌ عن شيء من الكلام فلا تُجبه..."[(1)].

2 – أصول المذهب الشافعي:

لقد أخذ الشافعي عِلم أهل الحِجاز وفِقهِهم، كما خالط أهل الرأي ونظر في طريقتهم، وألّف – وهو في العراق – كتابه " الرسالة " الذي يُعدُّ أوّل كتاب صُنِّف في أصول الفقه. وأَلَّف في مصر كتابه الشهير " الأم" ، وهو مرتَّب حسب أبواب الفقه. وقد أوجز أدلّة الأحكام لديه في هذا الكتاب فقال: " ... العِلم طبقات شتَّى الأولى الكتاب والسُّنة...، ثم الثانية الإجماع ... والثالثة: أنْ يقول بعض أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم قولا و لا نعلم له مُخالِفا منهم. و الرابعة: اختلاف أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم في ذلك. و الخامسة: القياس...". فأصول مذهبه هي الاعتماد على الكتاب والسُّنة و الإجماع وأقوال الصحابة؛ حيث يرى " الشافعي أنّ قول الصحابي إذا لم يُعلم له مُخالف " من الصحابة " يكون خيرا لنا من رأينا لأنفسنا، و إذا اختلف " الصحابة" في مسألة فإنَّه يأخذ من قول بعضهم ما يراه أقرب إلى الكتاب والسُّنة. " و تأتي مرتبة القياس بعد ذلك عنده، و " انتقد... القول بالاستِحسان ..."[(2)].

3– انتشار المذهب الشافعي:

لقد انتشر المذهب الشافعي انتشارا واسعا خلال النّصف الثاني من (ق3هـ/ 9م) والنّصف الأوَّل من (ق4هـ/ 10م)، واستمرَّ انتشاره الواسع خلال القرون اللاحقة؛ قال ابن خلدون: "... وأمّا الشافعي فمُقلِّدوه بمصر أكثر ممّا سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق وخُراسان وما وراء النهر، وقاسموا الحنفية الفتوى

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج10، ص 27، 29، 32.

(2) – مناع القطان، المرجع السابق، ص ص 369 ، 370، 371، 375، 376. و عمر الأشقر، المرجع السابق، ص 242.

والتدريس ...، وعظُمت مجالس المناظرات بينهم...". و أثّرت إقامة الشافعي في مصر بقوّة في انتشار مذهبه فيها؛ قال ابن خلدون: "... وكان تلميذه بها البُويطي والمُزني وغيرهم." ويُعدُّ محمد بن عثمان بن إبراهيم الدمشقي المعروف بأبي زرعة القاضي (ت302هـ/ 914م) أوَّل من نقل المذهب الشافعي إلى دمشق، فانتشر في الشام انتشارا معتبرا، إلى جانب انتشاره في العراق خُراسان وما وراء النهر واليمن.[1] ومن أبرز الفقهاء الذين كان لهم دورٌ في ذلك أصحاب الشافعي المُتقدَّم ذِكْرهم كالمُزني مُصنِّف الكتاب المعروف بـ " مُختصَر المُزني" في الفقه. ومن فقهاء (ق4هـ/ 10م) أبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب النَيْسابوري (ت342هـ/ 953م)، مُصنِّف كتاب " المبسوط"، وأبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي[2] المعروف بالقفّال الشاشي(ت365هـ/ 975م)، وعنه انتشر المذهب في بلاد ما وراء النهر[3].

وصنَّف الشافعية خلال (ق5 – 6هـ/ 11– 12م) مصنَّفات فقهية كثيرة؛ منها "المبسوط" لأبي عاصم محمد بن أحمد بن محمد الهَرَوي[4](ت 458هـ/ 1066م)، وشرح مختصر المُزني للفقيه الشهير أبي حامد أحمد بن أبي الطاهر بن محمد الإسفراييني[5] البغدادي (ت406هـ/ 1015م)، وشرحه أيضا أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البغدادي المعروف بالماوردي[6](ت450هـ/ 1058م) في كتابه "الحاوي". كما شرحه أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري[7] المتوفَّى في بغداد عام 450هـ/ 1058م. وصنَّف أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي[8] نزيل بغداد (ت476هـ/ 1083م)

---

(1) – عبد الرحمان ابن خلدون، المصدر السابق، ص 567. و أحمد تيمور باشا، المرجع السابق، ص 53، 54.

(2) – الشاش مدينة في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 108).

(3) – عمر الأشقر، المرجع السابق، ص 246. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 63، 70، 122.

(4) – هذه النسبة إلى هَراة، وهي من أكبر مدن خُراسان. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج5، ص 396).

(5) – نسبة إلى إسفرايين، وهي بلدة قريبة من نَيْسابور. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 177.)

(6) – هذه النسبة " إلى بيع الماورد وعمله، واشتهر بهذه النسبة ... لأنَّ بعض أجداده كان يعمله أو يبيعه. " (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج11، ص 104).

(7) – نسبة إلى طَبَرستان، وهي منطقة واسعة تقع جنوب بحر الخزر (بحر قزوين). (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج4، ص 13. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 223).

(8) – شيراز مدينة كبرى في بلاد فارس. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج3، ص 380).

كتاب "المُهذّب" وكتاب " التنبيه " في الفقه. و لعبد الملك بن أبي محمد بن عبد الله المعروف بأبي المعالي الجُويني[1](ت478هـ/ 1085م) كتاب " نهاية المطلب في رواية المذهب"، وقد اختصره أبو حامد محمد بن محمد الغزّالي[2](ت505هـ/ 1111م) في كتاب " البسيط". وشرح ضياء الدين عثمان بن عيسى بن درباس الماراني (ت602هـ/ 1205م) نزيل القاهرة كتاب "المُهذّب " المتقدَّم ذكره.[3]

4- بعض أعلام الشافعية خلال القرنين (7 –8هـ/ 13 – 14م):

استمرَّ الانتشار الواسع للمذهب الشافعي في المشرق الإسلامي خلال (ق7–8هـ/ 13– 14م) فمِن أعلامه خلال (ق7هـ/ 13م) المُحدِّث ضياء الدين عبد الوهاب بن علي بن عبد الله البغدادي(ت607هـ /1210م) المعروف ابن سُكينة، وعبد الرحمان بن محمد بن الحسن المعروف بفخر الدين ابن عساكر الدمشقي (ت620هـ/ 1223م). و يُعدُّ معين الدين محمد بن إبراهيم بن أبي الفضل الجاجرمي[4] (ت 613هـ/ 1216م) من المُصنِّفين في الفقه، فله " إيضاح الوجيز" شرح به كتاب " الوجيز" لأبي حامد الغزّالي. وشرحه أيضا عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم القزويني المعروف بالرافعي (ت623هـ/ 1226م) في كتابه " فتح العزيز شرح الوجيز". وصنَّف علي بن أبي علي بن محمد المعروف بسيف الدين الآمِدي[5] كتاب " إحكام الأحكام" في أصول الفقه. كما صنَّف بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الحلبي المعروف بابن شدَّاد (ت632هـ/ 1234م) كتاب " دلائل الأحكام".[6]

ونذكر من أعلام الشافعية المؤرِّخ الشهير ابن الأثير؛ وهو عزّ الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد

---

[1] – جُوين منطقة في خُراسان من نواحي نَيْسابور. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 192).

[2] – هذه نسبة إلى الغزّال، وهو " اسم لمن يبيع الغزل." (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر نفسه،ج9، ص 139).

[3] – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 308، 211، 296، 334، 339، 387.

[4] – جاجرم: بلدة في خُراسان من نواحي نَيْسابور. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج22، ص 63).

[5] – آمد مدينة في الجزيرة الفُراتية، وقد استقر الآمدي في دمشق، وكانت وفاته فيها عام 631هـ/ 1233م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 210. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 223).

[6] – عماد الدين ابن كثير، **طبقات الشافعية**، (تحقيق: عبد الحفيظ منصور)، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت – لبنان، 1426هـ/ 2004م، ص 712، 721، 732، 744، 747، 763، 776.

الكريم المتوفَّى في الموصل عام 630هـ/ 1232م، والمُحدِّث محمد بن سعيد بن يحيى الدبيثي[(1)] الواسطي المتوفَّى في بغداد عام 637هـ/ 1239م، والفقيه تقي الدين عثمان بن عبد الرحمان بن عثمان الدمشقي المعروف بابن الصلاَح (ت643هـ/ 1245م). كما نُشير إلى ابن النجار، وهو مُحبُّ الدين محمد بن محمود بن الحسن البغدادي (ت643هـ/ 1245م) أحد أبرز مُحدِّثي (ق7هـ/ 13م)، و زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله المنذري المصري "الحافظ... صاحب التصانيف" (ت656هـ /1258م)، والفقيه الشهير مُحيي الدين يحيى بن شرف بن مري النووي[(2)]، توفي بقرية نوى عام 676هـ/ 1277م، وله عدَّة مُصنَّفات منها " المجموع " في الفقه. وممّن توفي خلال (ق7هـ/ 13م) من مشاهير الشافعية القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم الإِرْبلي المعروف بابن خَلِّكان (وخَلِّكان: أحد أجداده) المتوفَّى في دمشق عام 681هـ/ 1282م، و " فقيه الشام" تاج الدين عبد الرحمان بن إبراهيم بن سباع الدمشقي (ت690هـ/ 1291م)؛ قال الذهبي: " انتهت إليه رئاسة المذهب في الدنيا."[(3)]

أمّا القرن (8هـ/ 14م) فقد توفي خلاله كثير من الفقهاء منهم نجم الدين أحمد بن محمد بن علي المصري المعروف بابن الرِّفعة (ت710هـ/ 1310م)، و كمال الدين ابن الزملكاني[(4)]، وتقي الدين محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد المصري، أحد أبرز مُحدِّثي عصره، وكانت وفاته في القاهرة عام 702هـ/ 1302م. ومنهم كذلك تقي الدين علي بن عبد الكافي بن علي السُّبْكي[(5)] المتوفَّى في القاهرة عام 756هـ/ 1355م، وكلّ من علم الدين البِرْزالي وأبي الحجَّاج المِزّي و شمس الدين الذهبي و ابن كثير.[(6)]

---

(1) – نسبة إلى دَبيثا، وهي قرية من نواحي واسط في العراق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 438).

(2) – نوى: قرية من نواحي دمشق. (أنظر: المصدر نفسه، ج5، ص 306).

(3) – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 207، 247، 281، 347، 372. و **السِّيَر**، ج23، ص 132. و عماد الدين ابن كثير، **طبقات الشافعية**، ص 826.

(4) – ولي تدريس الشافعية في عدّة مدارس بدمشق. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 503).

(5) – سُبك: بلدة في شمال مصر. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 320).

(6) – شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج8، ص 308، 214، 236، 298.

ونستنتج ممّا تقدَّم عن المذهب الشافعي أنّ انتشاره الواسع خلال (ق7- 8هـ/ 13 – 14م) هو استمرار للمعطيات التي كانت سائدة قبل هذه الفترة.

د- المذهب الحنبلي:

كان المذهب الحنبلي آخر المذاهب الأربعة ظهورا، و إمامه الفقيه الشهير أحمد بن حنبل.

1- التعريف بالإمام أحمد بن حنبل:

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشَّيْباني[1] البغداداي، نشأت أسرته في البَصْرة، إلاّ أنّ جدّه قد انتقل إلى خُراسان واستقرّ هناك، وانتقلت الأسرة بعد ذلك إلى بغداد، حيث كانت ولادة أحمد سنة 164هـ/ 781م. واهتمَّ منذ صباه بطلب العلم، وحفظ القرآن الكريم وتزوّد من علوم العربية، وأخذ الحديث في بغداد عن "حافظها" هُشيم بن بشير بن أبي خازم الواسطي (ت185/ 801م) و رحل إلى البَصْرة و الحِجاز مرّات عديدة، التقى في إحداها بالشافعي في الحِجاز عام 187هـ/ 803م ثم التقى به بعد ذلك في بغداد. و حجَّ أحمد عام 198هـ/ 814م، والتقى في مكّة المُحدِّث عبد الرزاق بن همّام بن نافع الصنعاني[2] (ت211هـ/ 826م)، لكنّه لم يكتف بهذا اللقاء، بل سافر إلى صنعاء و أخذ عن عبد الرزاق هناك. كما ارتحل إلى أمصار أخرى منها الشام، وسمع من كثير من الأعلام مثل ابن عُيَيْنة و عبد الرحمان ابن مهدي والشافعي والمُزني.[3]

وسمع منه جمع من مشاهير العلماء؛ منهم " الإمام " الشهير محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البُخاري (ت256هـ/ 870م) مُصنِّف الجامع الصحيح، و " الحافظ ... مُسلم بن الحجَّاج النَّيْسابوري صاحب الصحيح" (ت261هـ/ 875م)، وسليمان بن الأشعث بن إسحاق المعروف بأبي داود السِّجِسْتاني[4]

---

(1) – نسبة إلى " شيبان" ، قبيلة عربية شهيرة. (أنظر: عبد الكريم، المصدر السابق، ج7، ص 431).
(2) – نسبة إلى مدينة صنعاء، وهي من أكبر مدن اليمن. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 426).
(3) – مناع القطان، المرجع السابق، ص ص 379 – 381. و محمد بن عبد الهادي، المصدر السابق، ص 127.
(4) – سِجستان ناحية كبيرة تقع جنوب خُراسان. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج3، ص 190).

المتوفَّى في البصرة عام275هـ/ 888م، وهو من كبار علماء (ق3هـ/ 9م). وسمع من أحمد أيضا ولداه " الحافظ" عبد الله المتوفَّى في بغداد عام 290هـ/ 903م، وصالح (ت266هـ/ 879م). كما سمع منه " الحافظ" يحيى بن معين بن عون البغدادي (ت233هـ/ 847م)، و" الحافظ" علي بن عبد الله بن جعفر البصري المعروف بابن المَديني(ت234هـ/ 848م)، والفقيه الشهير أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارِمي[1] السِّجستاني (ت280هـ/ 893م)، وكلّ من المَرْوذي[2] و إبراهيم الحربي[3] البغدادي.[4]

وتعرَّض الإمام أحمد إلى مِحنة شديدة أخبارها مشهورة؛ وذلك لمَّا دعا بعض الخلفاء العباسيين[5] الناس إلى القول بخَلْق القرآن، و أرادوا أنْ يحملوا أحمد على ذلك فامتنع امتناعا شديدا، فعُذِّب وسُجِن لأكثر من سنتين، فزاده ذلك منزلة عند الناس، ثم أُخرِج من السِّجن. و في عام 227هـ/ 842 م مُنِع من التدريس واستمرَّ ذلك حتى عام 232هـ/ 846 م، حيث عاد إلى التدريس. وكانت وفاته في بغداد عام 241هـ/ 855 م. ومناقبه كثيرة، كما أثنى عليه جمع من كباء العلماء؛ قال الشافعي: "خرجت من بغداد وما خَلَّفت بها أفقه و لا أزهد ولا أَوْرع من أحمد بن حنبل." وقال عبد الرزاق الصنعاني: " ما رأيت أحدا أفقه و لا أَوْرع من أحمد بن حنبل." وقال الذهبي: " هو الإمام حقًّا وشيخ الإسلام صدقًا." [6]

وخَلَّف أحمد كتابه "المُسنَد" الذي جمع فيه "ما رواه من أحاديث دَوَّنها بأسانيدها...، وقد استمرّ ... في جَمْع مُسنَده هذا عن الثِّقات الذين رحل إليهم مدى حياته، وكان في أوراق متفرِّقة "، فلمّا أحسّ بدُنُوِّ الأجل

---

(1) – نسبة إلى بني دارِم، بطنٌ من بني تميم القبيلة المشهورة. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج5، ص 249).

(2) – هو أبو بكر أحمد بن محمد المَروذي المتوفى في بغداد سنة 275هـ/ 888م، يُعدُّ من أبرز أصحاب أحمد، و كانت أمُّه مَروذية، نسبة إلى مدينة مَرْو الروذ الواقعة في خُراسان. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 112. و محمد بن أبي يعلى الفرّاء، **طبقات الحنابلة**، ج1، (تحقيق: عبد الرحمان العثيمين)، مكتبة الملك فهد، د م، 1419هـ/ 1999م، ص 137).

(3) – الفقيه إبراهيم بن إسحاق بن بشير المعروف بإبراهيم الحربي المتوفى في بغداد عام 285هـ/ 898م، وهو من أبرز أصحاب أحمد. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 410).

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص 418، 327، 403. و محمد بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر نفسه، ج1، ص 137، 218، 462.

(5) – منهم محمد المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المَهدي، توفي عام 218هـ/ 833م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص 295).

(6) – مناع القطان، المرجع السابق، ص282، 283. و محمد بن عبد الهادي، المصدر السابق، ص 130، 131. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج11، ص 177، 196.

جمع بنيه وخاصّته " وأملى عليهم ما كتب مجموعا لا مُرتّبا"، ثم قام ابنه عبد الله بترتيب المُسنَد.[1]

2- أصول المذهب الحنبلي:

كانت فتاوى أحمد مبنية على أصول منها: الاعتماد على الكتاب والسُّنة؛ فكان " إذا وُجِد النّص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خالفه ولا من خالفه...، و لم يكن يُقدِّم على الحديث الصحيح عملا ولا رأيا ولا قياسا." و من أصوله: الإجماع وما أفتى به الصحابة، فكان إذا " وجد لبعضهم فتوى لا يُعرَف له مُخالف منهم فيها لم يتجاوزها إلى غيرها "، ولم يُقدِّم عليها "عملا ولا رأيا ولا قياسا." أمَّا إذا اختلف الصحابة فإنّه يتخيَّر " من أقوالهم ما كان أقربها إلى الكتاب و السُّنة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإنْ لم يتبيَّن له مُوافقة أحد الأقوال" ذكر الخلاف فيها ولم يجزم بقول. ومن أصوله كذلك القياس، وكان يستعمله للضرورة[2].

ويُعدُّ الفقيه الحسن بن حامد بن علي البغدادي(ت403هـ/ 1012م) أوَّل من كتب في أصول المذهب الحنبلي في كتابه " تهذيب الأجوبة"، أي أجوبة أحمد على المسائل وأصوله في أجوبته. ثم صنَّف في ذلك فقهاء آخرون منهم رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز التميمي البغدادي(ت488هـ/1095).[3]

3- انتشار المذهب الحنبلي:

نشأ المذهب الحنبلي خلال (ق3هـ/ 9م) في بغداد موطن أحمد بن حنبل، ثم صار للحنابلة وجود في أنحاء العراق، ولم يمتدّ إلى خارجه إلاَّ في القرن (4هـ/ 10م) وما بعده، حيث انتشر في بيت المقدس وفي نابلس وقُراها؛ ومنها جماعيل و رامين ومردا، وانتشر كذلك في دمشق وأعمالها خاصَّة بلدة الصالحية (في سَفْح جبل قاسيون القريب من دمشق) وحوران[4]. وأصبح للحنابلة وجودٌ معتبرٌ في المدن الكبرى بالشام مثل حَماة وبعلبك، كما أصبح لهم وجودٌ في مصر خلال (ق6هـ/12م) وما بعده لكنَّه لم

---

[1] – مناع القطان، المرجع السابق، ص 384.

[2] – عبد القادر بن بدران، **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، (تحقيق: عبد الله التركي)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1401هـ/ 1989م، ص ص 113 – 115. و مناع القطان، المرجع السابق، ص 388، 391.).

[3] – بكر أبو زيد، **المدخل المُفصَّل**، ص 149، 150.

[4] – حوران منطقة واسعة في جنوب دمشق ذات قرى كثيرة و مزارع. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج2، ص 317).

يكن على نطاق واسع. وتُعدُّ مدينة حرّان(في الجزيرة الفُراتية) من أبرز المدن التي ترَكَّز فيها الحنابلة.[1]

و قد دَوَّن عدد كبير من أصحاب أحمد بن حنبل " المسائل عنه... وتتبَّعوا عِلمه ... واعتنوا بأقواله ... غاية العناية "، و منهم ولداه عبد الله وصالح وأبو بكر المَرْوَذي. ثمّ ظهر فقهاء آخرون ساهموا في نَشْر المذهب؛ خاصَّة أحمد بن محمد بن هارون البغدادي المعروف بأبي بكر الخلّال(ت311هـ/ 923م) مُصنِّف كتاب "جامع الروايات عن أحمد"، وعُمر بن الحسين بن عبد الله المعروف بأبي القاسم الخِرَقي[2] (ت334هـ/ 845م) مُصنِّف المُختصَر الفقهي الشهير بـ " مُختصَر الخِرَقي"، وهو أوَّل المختصرات في المذهب وأشهرها. ومن فقهاء (ق4هـ/ 10م) كذلك عُبَيد الله بن محمد بن محمد المعروف بابن بطة العُكبري[3](ت387هـ/ 997م)، و " الحافظ" عبد الرحمان بن محمد الرازي الشهير بابن أبي حاتم (توفي في الري عام327هـ/ 939م)، والحسن بن حامد مُصنِّف " الجامع في المذهب" الذي يُعدُّ من أبرز مصنَّفات الحنابلة؛ قال الذهبي: " ... له المصنَّفات العظيمة منها كتاب الجامع...".[4]

وبرز خلال (ق5هـ/11م) كثير من الفقهاء منهم الحسن بن علي البَرْبَهاري، و محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي البغدادي المعروف بالشريف أبي جعفر(ت428هـ/ 1037م)، ومحمد بن الحسين بن محمد البغدادي الشهير بأبي يعلى ابن الفرّاء، توفي في بغداد سنة 458هـ/ 1066م، وله مُصنَّفات منها " شرح الخِرَقي" و "العُدّة في أصول الفقه"، وأخذ عنه كثير من أهل العلم؛ منهم عبد الواحد بن محمد بن علي الشيرازي المعروف بأبي الفَرَج الشيرازي المتوفَّى بدمشق عام486هـ/1093م. و ممّن توفي خلال القرن المذكور" الحافظ" عبد الرحمان بن محمد بن إسحاق بن مَنْده الأصبهاني(ت470هـ/1077م)[5].

---

(1) – بكر أبو زيد، **المدخل المُفصَّل**، ج1، ص 498.

(2) – الخِرَقي نسبة إلى بيع الثياب والخِرَق، وتوفي الخِرَقي في دمشق(334هـ/ 945م).(أنظر: المرجع نفسه،ج2، ص688، 690).

(3) – عُكبراء بلدة من نواحي بغداد. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 142).

(4) – محمد بن أبي يعلى الفراء، المصدر السابق، ج3، ص 273، 293، 103. و بكر أبو زيد، المرجع نفسه، ج1، ص 458. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 205.

(5) – محمد بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر نفسه، ج3، ص 36، 361، 385. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج2، ص 309، 328، 352.

أمَّا فقهاء الحنابلة خلال (ق6هـ/ 12م) فمنهم أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوذاني[1] البغدادي (ت510هـ/ 1116م)، له كتاب "الهداية " في الفقه و "التمهيد" في أصول الفقه. ومنهم أبو الحسين محمد بن أبي يعلى الفرّاء البغدادي المتوفَّى في بغداد عام 526هـ/ 1132م، وأبو الفتح نَصْر بن فتيان بن مطر البغدادي المعروف بابن المنِّي(ت 583هـ/ 1187م)، و"الحافظ" عبد الغني المَقدسي، وعبد الرحمان بن علي بن محمد البغدادي المعروف بابن الجَوْزي(ت597هـ/1200) " صاحب التصانيف الكثيرة."[2]

4- بعض أعلام الحنابلة خلال القرنين (7- 8هـ/ 13- 14م):

تُعدُّ بغداد وحرّان ودمشق وبيت المقدس أبرز المدن التي تَرَكَّز فيها الحنابلة، فمِن علمائهم خلال (ق 7هـ/13م) في الشام العِماد إبراهيم بن عبد الواحد، وجمال الدين عبد الله بن عبد الغني المَقدسي المتوفَّى في دمشق عام 629هـ/ 1231م، والفقيه الشهير المُوفَّق ابن قُدامة مُصنِّف " المُغْني في شرح الخِرَقي" و "العُمْدة" و "الكافي" و "المُقنِع " في الفقه. ومنهم أيضا "الحافظ" ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد الدمشقي المتوفَّى في الصالحية عام 643هـ/ 1245م، وشمس الدين عبد الرحمان بن أبي عمر محمد ابن قُدامة الصالحي (ت682هـ/ 1283م)، وقد شرح كتاب "المُقنِع" الذي ألّفه عَمُّه المُوفَّق.[3]

أمَّا علماؤهم في العراق وحرّان خلال (ق7هـ/ 13م) فمنهم "الحافظ" عبد القادر الرُّهاوي ومحمد بن عبد الله بن الحسين السامُرِّي[4] المعروف بابن سُنَينة، توفي في بغداد سنة 616هـ/ 1219م، وله كتاب "المستوعب" في الفقه. ومن مشاهير علماء الحنابلة أيضا محمد بن الخَضِر بن محمد الحرّاني المعروف بفخر الدين ابن تيمية (ت622هـ/ 1225م)، وعبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الحراني(ت652هـ/

---

(1) – هذه النسبة إلى كلْوذان، وهي قرية من قُرى بغداد. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج10، ص 460).

(2) – محمد بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج3، ص 479. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 429، 431. و ج3، ص 34، 87، 129.

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 162. و بكر أبو زيد، **المدخل المُفصَّل**، ج2، ص680، 783. و عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج4، ص 39.

(4) – نسبة إلى مدينة سامرّاء، وهي قريبة من بغداد. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 173).

1254م)، يُعرَف بمَجْد الدين ابن تيمية، وهو جدّ تقي الدين ابن تيمية، وقد صنَّف عدَّة كتب منها "المُحرَّر" في الفقه.[1]

أمَّا فقهاء الحنابلة خلال القرن (8هـ/ 14م) فمنهم في بلاد الشام تقي الدين سليمان بن حمزة بن أحمد الدمشقي (ت715هـ/ 1315م)، أحد أبرز مُدَرِّسي الحنابلة في دمشق، وشمس الدين محمد بن مُسَلّم بن مالك الصالحي المتوفَّى عام 726هـ/ 1325م، وابن شيخ الحزاميين. ومن أبرزهم أيضا تقي الدين ابن تيمية، له مصنَّفات كثيرة؛ منها شرح كتاب "العُمدَة " السابق ذكره. وأخذ عن ابن تيمية بعض أعلام الحنابلة؛ منهم محمد بن عبد الهادي وابن القيِّم صاحب التصانيف المتنوّعة، ومحمد بن مُفلِح الصالحي مؤلِّف كتاب "الفروع" الذي يُعدُّ من أبرز كتب الفقه الحنبلي. وممّن توفي خلال القرن المذكور جمال الدين يوسف بن ماجد بن أبي المَجْد المرداوي[2] (ت783هـ/ 1381م)، و"الحافظ" زين الدين عبد الرحمان بن أحمد بن رَجَب البغدادي نزيل دمشق(ت795هـ/ 1392م)، وله مُصنَّفات في الفقه وغيره[3].

ونجد من أعلام الحنابلة في العراق خلال (ق14/8م) عدّة مُصنِّفين منهم سراج الدين الحسين بن يوسف بن محمد الدجيلي[4] البغدادي (ت732هـ/ 1331م) مصنِّف "الوجيز" في الفقه (يُعدُّ من أبرز كتب المذهب)، وصفيّ الدين عبد المؤمن بن عبد الحق بن عبد الله القطيعي (القطيعة موضع في بغداد) البغدادي المتوفَّى في بغداد عام 739هـ/ 1338م، وقد صنَّف عدّة كتب.[5]

وتوفي في مصر كثير من فقهاء الحنابلة (ق8هـ/14م) نذكر منهم سعد الدين مسعود بن أحمد بن زيد الحارثي[6] نزيل القاهرة (توفي فيها عام711هـ/ 1311م)، وشمس الدين محمد بن عبد الله بن محمد

[1] – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص 175، 248، 229، 321، 362. و ج4، ص 1، 6، 185، 187.
[2] – نسبة إلى مردا، وهي قرية من قُرى نابلس. (أنظر: بكر أبو زيد، **المدخل المُفصَّل**، ج1، ص 502.)
[3] – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر نفسه، ج4، ص 398، 402، 493. وشمس الدين الذهبي، **ذيول العِبَر**، ج4، ص 78، 132. و بكر أبو زيد، المرجع نفسه، ج2، ص 726، 739، 742، 754.
[4] – الدجيلي نسبة إلى دجيل، وهو رافد من روافد نهر دجلة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 443).
[5] – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر نفسه، ج5، ص 30، 77، 79. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج4، ص 83.
[6] – نسبة إلى الحارثية، وهي قرية قريبة من بغداد. (أنظر: عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر نفسه، ج4، ص 398).

االمصري (ت772هـ/ 1370م)، له تصانيف أبرزها شرح "مُختصَر الخِرَقي."[1]

ونستنتج أنَّ المذهب الحنبلي رغم كونه أقلَّ المذاهب الأربعة انتشارا إلاّ أنَّ الحنابلة قد وُجد فيهم فقهاء كبار سواء خلال (ق7 – 8هـ/ 13 – 14م) أو قبل ذلك.

– ثالثا: مظاهر النشاط المذهبي:

تعرَّضت بلاد المسلمين في النِّصف الأوَّل من(ق7هـ/13م)لاجتياح التتار؛ ففي سنة 616هـ/ 1219م بدأ توسُّعهم في بلاد ما وراء النهر، ثم استولوا على خُراسان عام617هـ/ 1220م، وتوسّعوا إلى حدود العراق، فجرت بذلك نكبات كبرى على المسلمين من القتل والسَّبْي و النّهب.واستمرّت حملات التتار فمنها الحملة التي انتهت بدخولهم بغداد(656هـ/ 1258م) ووقوع المقتلة الكبرى الشهيرة وأصبح العراق بعد سقوط الخلافة العباسية خاضعا لحُكم التتار كما هو حال الأقاليم الواقعة شرقه. هذا مع استمرار الخطر الصليبي في النِّصف الأوّل من(ق7هـ/ 13م) وهو الخطر الذي هدّد الشام منذ فترة طويلة.[2] وقد كان سلاطين مصر و الشام منذ أواخر (ق6هـ/ 12م) من الأيوبيين[3]، ثم نشأت دولة المماليك البحرية[4]

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **ذيول العِبَر**، ج4، ص 19. وشهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج8، ص 384. و عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج4 ص 387.

[2] – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 172، 218، 277. و:

–Claude cahen , La Syrie du nord a l'epoque des croisades , Presses de l' i.f.p.o , Damas, 1940, p 20, 23 , 47

[3] – يُعتبَر السلطان الشهير صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي (ت589هـ/ 1193م) مؤسِّس الدولة الأيوبية عام 570هـ/ 1174م، و بعد وفاته انقسمت دولته التي تشمل مصر و الشام و اليمن وأجزاء من الجزيرة الفُراتية بين أعلام أسرته. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص99. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص 63).

[4] – استكثر السلطان الأيوبي نجم الدين أيّوب بن محمد الكامل بن سيف الدين أبي بكر العادل بن أيوب (سلطان مصر بين عامي 636 – 647هـ/ 1238– 1249م) من استقدام المماليك الأتراك إلى القاهرة ليتّخذهم جُنْدا، ثم بنى قلعة (قلعة الروضة) في جزيرة الروضة الواقعة في نهر النيل و أنزلهم بها، و كان النيل يسمى آنذاك بالبحر، فعُرفوا بالمماليك البحرية. و بعد وفاة نجم الدين سنة 647هـ/ 1249م ولّى أمراء البحرية إبنه توران شاه، ثم قتلوه خلال السنة الموالية، لينتهي بذلك عهد الأيوبيين في مصر، و بدأ عهد المماليك سنة 648هـ/ 1250م. (أنظر: تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص 787 وشمس. الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 259).

(648- 784هـ/ 1250- 1382م)[1]. وقد تراجع دور مدن العراق في الحياة العلمية بعد سقوط الخلافة العباسية؛ و رغم ذلك فقد بقيت بغداد إحدى أبرز حواضر الملسمين. و نجد خلال (ق7-8هـ/ 13 – 14م) مظاهر عديدة للنشاط المذهبي نختصر إيضاحها في العناصر التالية:

أ – مظاهر النّشاط المذهبي في الحياة العلمية:

تعدّدت مظاهر النشاط المذهبي في الحياة العلمية؛ فمِن أبرزها:

1 – وجود المدارس المذهبية:

خُصِّصت خلال (ق7-8هـ/ 13-14م) مدارس كثيرة لدراسة الفقه، ونكتفي بالإشارة إلى مدارس دمشق و حلب و القاهرة و بغداد كونها الأكثر شهرة.

– مدارس الشافعية:

خُصِّصت مدارس كثيرة للشافعية، ومن أسباب ذلك اتّباع الأيوبيين ملوك مصر والشام للمذهب الشافعي؛ فمنها في دمشق وظاهرها المدرسة الإقبالية، نسبة إلى مُؤسِّسها جمال الدين إقبال (ت603هـ/ 1206م) خادم صلاح الدين الأيوبي، والمدرسة التقَوية التي أسَّسها تقي الدين عمر ابن أيّوب أحد أعلام الأسرة الأيوبية (ت600هـ/ 1203م)، والمدرسة الرواحية، أسَّسها التاجر زكيّ الدين أبو القاسم هِبة الله بن رواحة الدمشقي- وهوأشعري-(ت622هـ/ 1225)، وشرط ألاّ يدخلها " يهودي و لا نصراني ولا حنبلي".[2] فقد اعتبر الحنابلة مثل اليهود والنصارى، بسبب الخلاف العَقَدي الذي جعله يتحامل عليهم.

ونجد كذلك المدرسة العادلية الكبرى التي أنشأها السلطان الأيوبي سيف الدين العادل، والمدرسة الشامية البرانية بظاهر دمشق، والمدرسة الشامية الجُوانية بداخلها، ومنشئتهما " ستّ الشام بنت أيّوب بن شاذي" (ت616هـ/ 1219م) أخت السلطان صلاح الدين. كما نجد المدرسة الظاهرية التي أقامها

[1] – قاسم عبده، **عصر سلاطين المماليك**، ط1، دار عين للدراسات، القاهرة – مصر، 1420هـ/ 1998م، ص 11، 84، 127.

[2] – عبد القادر النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، ج1، (تحقيق: إبراهيم شمس الدين)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1410هـ/ 1990م، ص54، 96، 120، 162، 163، 201.

المَلِك الظاهر رُكن الدين بَيْبرس[1] عام670هـ/ 1271م. ولم نُشِر إلى عدَّة مدارس أخرى.[2]

أمَّا مدارس الشافعية في حلب فهي كثيرة أيضا؛ منها – على سبيل المثال – مدرسة الفردوس في ظاهر حلب، أنشاتها ضيفة خاتون(ت640هـ/ 1242م) بنت السلطان العادل الأيّوبي، والمدرسة الظاهرية وهي مشتركة مع الحنفية، ومؤسّسها المَلِك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، صاحب حلب وأعمالها بين عامي(589– 613هـ/ 1193– 1216م).[3] أمَّا مصر فوُجدت فيها عدَّة مدارس للشافعية في القاهرة ومدينة مصر[4] منها الفاضلية وهي مشتركة مع المالكية، أسَّسها مُحيي الدين عبد الرحيم بن علي بن الحسن المصري المعروف بالقاضي الفاضل (ت596هـ/1170م) كاتب صلاح الدين. والمدرسة الحُسامية التي شيَّدها الأمير حسام الدين طرنطاي المنصوري(ت689هـ/ 1290م)، وهو"نائب" السلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون الذي حكم بين عامي(678–689هـ)(1279–1290م).[5]

وكانت في بغداد عدَّة مدارس للشافعية، نذكر منها المدرسة الشرابية وتُسمَّى أيضا الإقبالية، نسبة إلى مُنشئها الأمير شرف الدين إقبال الشرابي[6] المتوفَّى عام 653هـ/ 1255م. والمدرسة المُستنَصِرية الشهيرة " وهي على المذاهب الأربعة "، و تكامل بناؤها عام 631هـ/ 1233م، و واقفها الخليفة العباسي المُستَنصِر بالله منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن أحمد الناصر(ت 640هـ/ 1242م).[7]

---

(1) – السلطان المملوكي الشهير رُكن الدين بَيْبرس، تولّى السلطنة عام 658هـ/ 1260م حتى وفاته عام 676هـ/ 1277م. كان له دورٌ كبيرٌ في تأسيس دولة المماليك ومحاربة التتار والفِرنجة. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير: **البداية و النهاية**، ج7، ص 314، 315).

(2) – عبد القادر النعيمي، المصدر السابق، ج1، ص 264، 271. وعِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 137، 314.

(3) – عزّ الدين ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذِكْر أمراء الشام و الجزيرة**، ج1، (تحقيق: زكي يحيى)، منشورات وزارة الثقافة، دمشق – سوريا، 1412هـ/ 1991م، ص ص 252 – 261.

(4) – مدينة مصر يُقصَد بها الفُسطاط، وهي " بجنب" القاهرة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج4، ص 301).

(5) – تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص 338، 444، 495. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص370.

(6) – بُنِيَت هذه المدرسة عام 628هـ/ 1230م. و" الشرابي" نسبة إلى " حفظ الشراب" ، وهي أيضا نسبة إلى قرية في إقليم الجبل. (أنظر: بشار عواد، **مدارس العراق** (ضمن موسوعة حضارة العراق)، ج8، دار الحرية، بغداد – العراق، 1406هـ/ 1985م، ص 107. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج7، ص 305).

(7) – بشار عواد، المرجع نفسه، ج8، ص 79، 81، 107. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص239.

– مدارس الحنفية:

لقد وُجِدت مدارس كثيرة للحنفية خلال (ق7 – 8هـ/ 13- 14م) خاصَّة في دمشق و حلب والقاهرة ومن أسباب ذلك كثرة الأمراء الحنفية. فمِن مدارس دمشق المدرسة الخاتونية، أنشاتها عِصمة الدين خاتون بنت معين الدين (ت 581هـ/ 1185م) زوجة السلطان نور الدين محمود[1]، والمدرسة النورية الكبرى الموجودة منذ عام 563هـ/ 1167م؛ حيث أنشاها السلطان المذكور، و المدرسة العذراوية التي أنشأتها عذراء بنت شاهنشاه بن أيّوب بن شاذي الأيوبية (ت593هـ/ 1197م)، و وُجدت في دمشق مدارس أخرى لم نذكرها.[2]

كما أُقيمت في حلب مدارس كثيرة للحنفية؛ منها الكمالية العديمية، نسبة إلى الفقيه كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله الحلبي الحنفي المعروف بابن العديم (ت660هـ/ 1262م). وأُقيمت لهم عدّة مدارس في القاهرة ومدينة مصر؛ منها الظاهرية (نسبة إلى المَلِك الظاهر بَيْبرس) وهي مشتركة مع الشافعية وكان بناؤها خلال عامي(660- 662هـ/ 1262- 1264م).[3]

– مدارس المالكية:

لقد كانت مدارس المالكية في مصر كثيرة، أمَّا في الشام والعراق فهي قليلة مقارنة بمدارس الشافعية والحنفية، حيث كان وجود المالكية في الشام أقلّ من وجودهم في مصر. فمن مدارسهم في دمشق الصلاحية؛ أنشأها صلاح الدين الأيوبي. ومن مدارسهم في مصر مدرسة العادل التي بناها السلطان أبو بكر العادل الأيوبي، و المدرسة المنكوتمرية، فُتِحت عام 698هـ/ 1298م، وبانيها هو الأمير سيف الدين منكوتمر(ت 698هـ/ 1298م)، أحد أبرز الأمراء في مصر خلال أواخر(ق7هـ/ 13م). ونجد مدارس

[1] – السلطان الشهير نور الدين محمود بن زنكي، ملك حلب و دمشق. و" كان من أجلِّ ملوك زمانه و أعدلهم ... و أكثرهم جهادا " للفِرنجة. توفي عام 569هـ/ 1173م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص58).

[2] – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 26، 166، 190. و عبد القادر النعيمي، المصدر السابق، ج3، ص 380،424، 466، 461.

[3] – عز الدين ابن شداد، المصدر السابق، ج1، ص 279، 285. وتقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص 452، 540.

أخرى منها المشتركة بين المالكية وغيرهم مثل الناصرية؛ نسبة إلى المَلِك الناصِر[1] محمد بن قلاوون[2].

- مدارس الحنابلة:

لم توجد للحنابلة مدارس كثيرة في الشام ومصر مقارنة بعدد مدارس المذهبين الحنفي والشافعي. ونُشير إلى بعض مدارسهم في دمشق؛ فمنها الجَوْزية التي أقامها الفقيه مُحيي الدين يوسف بن عبد الرحمان ابن الجَوْزي البغدادي (ت656هـ/ 1258م) إثر قدومه إلى دمشق عام 623هـ/ 1226م. ومنها المدرسة الشرَفية (تُعرَف بالحنبلية)، وقد أنشأها الفقيه شرَف الإسلام عبد الوهاب بن عبد الواحد بن محمد الدمشقي الحنبلي (ت536هـ/ 1141م)، والمدرسة الصدرية نسبة إلى واقفها الفقيه صدر الدين أسعد بن عثمان بن أسعد بن المُنجّى الدمشقي الحنبلي (ت657هـ/ 1259م).[3] ولم نجد مدارس خاصّة بالحنابلة في مصر؛ ولكن وُجد تدريس المذهب الحنبلي في مدارس مُخصّصة للمذاهب الأربعة منها الناصِرية. أمّا مدارسهم في بغداد فمنها مدرسة ابن بكروس نسبة إلى مؤسِّسها الفقيه أحمد بن محمد بن المبارك بن أحمد بن بكروس البغدادي الحنبلي(ت573هـ/ 1177م).[4]

2- المُصنَّفات المذهبية:

صُنِّفت خلال (ق7- 8هـ/ 13- 14م) مُصنَّفات كثيرة في العقيدة والفقه، وقد أشرنا سابقا إلى كثير من المُصنَّفات الفقهية؛ و لذلك لا نتطرَّق إليها في هذا العنصر، ونكتفي بالتطرُّق إلى بعض ما أُلِّف في الجانب الآخر.

(1) – السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، تولّى السلطنة سنة 693هـ/ 1294م، ثم عُزِل سنة 694هـ/ 1294م بتآمر بعض الأمراء عليه. ثم رجع إلى السلطنة عام 698هـ/ 1298م حتى عام 708هـ/ 1308م، و هذه فترة حُكمه الثانية. أمّا الثالثة فكانت بين عامي (709هـ – 741هـ/ 1309- 1340م) حيث توفي خلال السنة الأخيرة. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 371، 554).

(2) – عبد القادر النعيمي، ج2 ، ص 6، 7. و تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص480، 485.

(3) – عبد القادر النعيمي، المصدر نفسه، ج2، ص 23، 77. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 451. و ج3، ص 147. وعبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج4، ص 59.

(4) – تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص 465. و بشار عواد، المرجع السابق، ج8، ص98، 108.

– مُصنَّفات أهل الحديث:

صُنِّفت مصنَّفات كثيرة في تأييد عقيدة أهل الحديث و الردِّ على المُتكلِّمين و الشيعة و أهل الوحدة ونذكر منها كتاب " الصفات" وكتاب " اعتقاد الشافعي" لعبد الغني المَقدسي، وكتاب " البرهان" و" لُمعة الاعتقاد" و"مسألة العلو" و " فضائل الصحابة " للمُوفَّق ابن قُدامة. وذكر الذهبي أنَّ ضياء الدين المَقدسي ألّف جزءا في " النهي عن سبِّ الأصحاب"، وله أيضا جزء في مسألة الصفات.[1]

و ألَّف تقي الدين ابن تيمية كتبا كثيرة شهيرة؛ منها كتاب " دَرْء تعارض العقل والنَّقْل"؛ قال محمد بن عبد الهادي: "... هو كتاب عظيم، ردّ الشيخ فيه على الفلاسفة والمُتكلِّمين." وتُعتبر " العقيدة الواسِطية " من أبرز مؤلَّفات ابن تيمية؛ ففي حوالي عام 693هـ/ 1294م طلب أحد أعيان واسِط من ابن تيمية أنْ يكتب " له عقيدة " صارت تُعرَف بالعقيدة الواسِطية. وألَّف أيضا "العقيدة الحَمَوية" عام 698هـ/ 1298م أجاب فيها عن سؤال ورد عليه من حَمَاة عن " آيات الصفات". كما ألّف " مِنْهاج السُّنة النبوية " في الردّ على كتاب " مِنهاج الاستقامة في إثبات الإمامة " لابن المطهر الحِلّي، قال ابن كثير: "...وقد انتُدب للردّ عليه في ذلك الشيخ ...ابن تيمية في مجلّدات أتى فيه بما يُبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة."[2]

ومن أبرز مؤلَّفات ابن تيمية كذلك " التسعينية "، ألّفه عام 706هـ/ 1306م، و ردّ فيه على الأشاعرة و الماتُريدية القائلين أنَّ كلام الله كلام نفسي، وسُمّي هذا الكتاب بـ " التسعينية " لأنّ الردّ كان من تسعين وجها. كما نجد " بيان تلبيس الجَهْمية "، وهو في الردّ على فخرالدين الرازي مؤلِّف كتاب " أساس التقديس" في العقيدة.[3] وكان ابن تيمية من أبرز من صنَّف في الردّ على مُعتقدي وحدة الوجود؛ فله كتاب " بُغية

---

(1) - شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج21، ص 447. و ج 23، ص 128. و عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص 291، 292، 520.

(2) – تقي الدين ابن تيمية، **درء تعارض العقل والنّقل**، (مقدمة المحقق)، ج1، (تحقيق: محمد رشاد)، ط2، دار هجر، القاهرة – مصر، 1411هـ/ 1991م، ص ص 4 – 6. **و مجموعة الفتاوى**، ج3، ص 107، 108. و ج5، ص 7. و عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 497.

(3) – تقي الدين ابن تيمية، **التسعينية** (مقدمة المحقق)، (تحقيق: محمد العجلان)، ط1، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية، 1420هـ/1999م، ص 56، 57. و**بيان تلبيس الجهمية**،ج1، ص 8. وعبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج4، ص 521.

المُرتاد"، ويُسمّى كذلك " الرد على ابن سبعين وأهل الوحدة." كما صنَّف كتاب " الصَّفَدية " بعدما أرسل إليه رجلٌ من أهل صَفَد[1] يسأله عن الذين يزعمون أنَّ " معجزات الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم قِوى نفسانية " فيدَّعون أنّ النُّبوَّة مُكتسبة، وقد ردَّ على القائلين بذلك ومنهم ابن سبعين؛ قال ابن تيمية: "... ابن سبعين كان يطلب أن يصير نبيّا." [2]

و ألَّف ابن تيمية مؤلفات أخرى منها " رسالة في عقيدة الأشعرية وعقيدة الماتُريدي" و" رسالة في الأُصول لأهل جيلان."[3] ونذكر من مؤلّفات أهل الحديث أيضا " العُلوُّ للعليِّ الغفَّار" للذهبي، وكتاب " الصواعق المُرسلة" في الردّ على المُتكلِّمين لابن القيِّم.[4]

– مُصنَّفات الأشاعرة والماتُريدية:

نجد من مصنَّفات الأشاعرة كتاب " تأسيس التقديس" و" المعالم" لفخر الدين الرازي، وكتاب "الزبدة" في العقيدة لصفيِّ الدين الهندي. وألَّف شهاب الدين أحمد بن يحيى بن إسماعيل ابن جهبل الحلبي الشافعي الأشعري(توفي في دمشق عام 733هـ/ 1332م) رسالة في العقيدة. ولأبي العباس أحمد بن محمد بن عيسى اليمني الأشعري (ت689هـ/ 1290م) مصنَّفات في العقيدة. ومن مُؤلّفات الأشاعرة كذلك كتاب "التنبيه" لصلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصَّفَدي (توفي في دمشق عام764هـ/ 1362م)، وشرح " المعالم" لشرف الدين عبد الله بن محمد بن علي المصري المتوفَّى في القاهرة عام 644هـ/ 1246م.[5]

أمَّا مُصنَّفات الماتُريدية فمنها "العقائد النَّسَفية" لبرهان الدين النَّسَفي، و "عُمدَة العقائد" لحافظ الدين

---

(1) – صَفَد بلدة من الأعمال الغربية لدمشق. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 301).

(2) – تقي الدين ابن تيمية، **بُغية المُرتاد**، (تحقيق: موسى الدويش)، مكتبة العلوم و الحِكم، المدينة ، 1422هـ/ 2001م، ص 58، 59. و **الصفدية**، (تحقيق: محمد رشاد)، د ن، 1406هـ/ 1985م، ص ص 1- 6.

(3) – جيلان منطقة في جنوب غرب بحر الخَزر (بحر قزوين)، وليس فيها مدينة كبيرة، إنّما هي قُرى في مروج بين جبال. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 201. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص216)

(4) – محمد عزيز وعلي العمران، **الجامع لسيرة شيخ الإسلام**، ط1، دار عالم الفوائد، مكة، 1420هـ/ 1998م، ص ص 232، 241. و شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج1، ص 76. و عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج5، ص 175.

(5) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 137، 138. و تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج9، ص 34، 35، 162. و إسماعيل باشا، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين**، ج1، دار إحياء التراث ، بيروت – لبنان، د ت، ص 100.

النَّسَفي، وله أيضا " الاعتماد شرح عُمدة الاعتقاد". ومن كتبهم أيضا " الزبدة شرح عُمدَة الاعتقاد" لجمال الدين القُونوي المعروف بابن السِّراج (سبق ذِكره). و " شرح عُمدَة العقائد " لشمس الدين محمد بن يوسف بن إلياس القُونوي المتوفَّى بالمزّة عام 788هـ/ 1386م.[1]

وتجدر الإشارة إلى قلّة المُصنَّفات العَقَدية التي ألّفها الشيعة؛ فمنها العقيدة التي صنَّفها العفيف التلمساني للنُّصَيْرية، وكتاب " منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة " لابن المطهر الحِلّي، وكتاب " العذاب الواصِب" لنجم الدين سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم البغدادي نزيل مصر (ت716هـ/ 1316م)[2].

3- المُناظرات:

كانت المناظرات مظهرا من مظاهر النشاط المذهبي، ويُعدُّ الخِلاف العَقَدي من أبرز أسباب وقوعها ومنها مناظرة عام 698هـ/ 1289م؛ فبعد تصنيف ابن تيمية " العقيدة الحَمَوية " قام عليه جماعة من الأشاعرة في دمشق؛ ثم عُقِد اجتماع بسبب ذلك؛ قال ابن كثير: "... وبحثوا في الحَمَوية، وناقشوه في أماكن منها، فأجاب عنها بما أسكتهم بعد كلام كثير، ثم قام الشيخ وقد تمهَّدت الأمور وسكنت الأحوال."[3] وفي عام 705هـ/ 1305م جَرَت مُناظرة أخرى شهيرة هي مناظرة الواسِطية، ففي رجب من السنة المذكورة ورد كتاب من السلطان محمد بن قلاوون إلى عامله على دمشق جمال الدين الأفرم[4] بأن يسأل ابن تيمة عن اعتقاده؛ وذلك بسبب تحريض بعض الأشاعرة والاتِّحادية (أهل وحدة الوجود) للسلطان، حيث كان ابن تيمية على عقيدة أهل الحديث، كما كان يُحَذِّر من الاتِّحادية مثل ابن عربي وابن سبعين و ابن الفارِض. وجَرَت المُناظرة في ثلاثة مجالس خلال رجب وشعبان عام 707هـ/ 1305م قال ابن كثير: "... كان الحامل على هذه الاجتماعات كتابٌ ورد من السلطان في ذلك، كان الباعث

---

(1) – شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص ص 315- 323. و إسماعيل باشا، المرجع السابق، ج2، ص 172.

(2) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص 497. وعبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج4، ص 404، 410.

(3) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 386.

(4) – هو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم نائب السلطان محمد بن قلاوون على دمشق و أعمالها بين عامي (699- 709هـ/ 1299 – 1309م).(أنظر: المصدر نفسه، ج7، ص 432).

على إرساله قاضي المالكية ابن مخلوف و الشيخ نَصْر المَنْبِجي." وابن مخلوف ولي القضاء في القاهرة بين عامي (685– 718هـ/ 1286 – 1318م). أمَّا المَنْبِجي[1] فهو نَصْر بن سليمان بن عمر المَنْبِجي الصوفي المتوفَّى في القاهرة عام 719هـ/ 1319م، وكان له وجاهة عند بعض أمراء مصر. وفي رمضان من عام705هـ/ 1305م وصل إلى دمشق كتاب من السلطان محمد بن قلاوون يتضمَّن الأمر بإرسال ابن تيمية إلى القاهرة؛ فعُقِد له فيها مجلس حضره " أكابر الدولة " وبعض أعيان الأشاعرة؛ ومنهم شمس الدين محمد بن أحمد ابن عدلان الشافعي (ت744هـ/ 1343م) الذي حرص على التحريض ضدّه، و أراد ابن تيمية أن يُناظِر القائمين عليه كما ناظرهم في دمشق فمُنِع من ذلك وسُجِن.[2]

وجَرَت في عام 706هـ/ 1306م مُناظرة في القاهرة بين شرف الدين ابن تيمية (انتقل مع أخيه إلى مصر) و زين الدين ابن مخلوف، قال ابن كثير: "... جرى بينهم كلام كثير؛ فظهر شرف الدين بالحُجّة على" ابن مخلوف " بالنَّقْل والدليل والمعرفة." كما جَرَت مُناظرة أخرى بين شرف الدين و ابن عدلان؛ قال عنها ابن كثير:" وتكلَّم معه الشيخ شرف الدين وناظره... وظهر عليه أيضا." وأُخرج ابن تيمية من السجن في ربيع الأوّل من عام707هـ/1307م وجَرَت مُناظرة بينه وبين بعض الأشاعرة، ثم أُرجِع إلى السجن.[3]

ونُشير إلى وجود المناظرات بين أهل السُّنة والشيعة، وأشار ابن تيمية في مُصنّفاته إلى جانب من مناظراته مع أفراد منهم.[4] كما نجد المناظرات مع الصوفية؛ مِثْل التي جَرَت عام 705هـ/ 1305م في دمشق بين ابن تيمية والصوفية الرِّفاعية[5] الذين قال عنهم الذهبي: "... وتجدَّدت لهم أحوال شيطانية منذ

---

(1) – نسبة إلى مَنْبج، وهي بلدة قريبة من حلب. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 206).

(2) – تقي الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**،ج3،ص106، 107. وعِماد الدين كثير، **البداية والنهاية**،ج7، ص417، 418، 419.

(3) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 423، 425.

(4) – تقيّ الدين ابن تيمية، **منهاج السُّنة النبوية**، ج1، ص 101، 102.

(5) – الرِّفاعية طائفة صوفية تُنسَب إلى أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن يحيى ين حازم بن علي بن رفاعة الرِّفاعي الصوفي المتوفّى عام 578هـ/ 1182م في البطائح (قُرى في نواحي واسِط). وتُعرَف الرِّفاعية بالبطائحية وبالأحمدية، نسبة إلى الصوفي المذكور. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 75. و:

–Maribel Fierro, The new history of islam, volume 2, Cambrige university press, 2010, p24

أخذت التتار العراق: من دخول النيران... و اللعب بالحيات...". وحرص ابن تيمية في هذه المُناظرة على إبطال حِيَل الرِّفاعية التي يستخدمونها لإيهام الناس أنَّ لهم كرامات؛ فنبّه نائب دمشق الأمير جمال الدين الأفرم أنّهم قبل دخولهم النار "يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج[1] ... و غير ذلك من الحِيَل المعروفة لهم "، و أنّ هذه الحيلة تبطل إذا اغتسلوا " بالخلِّ والماء الحار."[2]

و يمكن القول من خلال ما تقدَّم عن مظاهر النشاط المذهبي في الحياة العلمية أنَّ وجود المدارس المذهبية كان نتيجة لرسوخ المذاهب الفقهية، و أنَّ آثار الخلاف العَقَدي كانت قوية؛ حيث كثرت المصنَّفات العَقَدية و وُجدت المناظرات واشتهر ذِكْر بعضها.

ب – مظاهر النشاط المذهبي في الحياة السياسية:

أثّر الجانب السياسي على الحياة المذهبية قبل (ق7–8هـ/ 13– 14م) وخلالهما؛ فمن مظاهر ذلك:

1 – مذاهب السلاطين و الأمراء:

أيَّد حُكّام الدولة الأيّوبية بصفة عامَّة الأشاعرة؛ ومنهم السلطان محمد الكامل (ت635هـ/ 1237) بن أبي بكر العادل الذي ولي السلطنة في مصر بعد وفاة أبيه عام615هـ/ 1218م. وكان لتحريض بعض أعيان الأشاعرة دور في تحديد مواقف الكامل؛ فلمَّا نزل عبد الغني المَقدسي بمصر سنة 695هـ/1295م (وكان الكامل عاملا لأبيه عليها حينئذ)، لم يترك " المخالفون...الكلام فيه"، وقالوا: " إنّه كافر"، حتى عزم الكامل على إخراجه من مصر، و اعتقله مدَّة يسيرة ثم أطلقه.[3]

وكان المَلِك موسى الأشرف بن العادل على عقيدة أهل الحديث؛ قال الذهبي: " ... كان للأشرف ميلٌ إلى المُحَدِّثين والحنابلة،" ولمَّا " ملك دمشق في سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه بها ألاّ يشتغل

---

(1) – النارنج شجرة مُثمرة دائمة الخُضرة ، تسمو بضعة أمتار ، أوراقها خُضْر لامعة، لها رائحة عطرية. (أنظر: مجمع الغة العربية، **المعجم الوجيز**، ط1، نشره مجمع اللغة العربية، د م، 1400هـ/ 1980م، ص 610).

(2) – تقيّ الدين ابن تيمية، **مناظرة ابن تيمية لطائفة الرّفاعية**، (تحقيق: عبد الرحمان دميشقة)، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، 1409هـ/ 1989م، ص 21، 22، 23، 34.

(3) – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص ص38، 40. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 223.

أحدٌ من الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه، ومن اشتغل بالمنطق " والفلسفة " نُفي من البلد." كما كان " المَلِك المعظَّم" عيسى بن العادل يقول: "اعتقادي في الأصول ما سطَّره الطحاوي."[(1)]

وكان بعض كبار الأمراء خلال عصر الأيوبيين ينتصرون للأشاعرة؛ ومنهم صارم الدين بزغش(ت 609هـ/1212م) " نائب القلعة بدمشق"، وهو الذي أخرج عبد الغني المَقدسي ظُلما من دمشق(595هـ/ 1198م) بعد قيام بعض الأشاعرة عليه؛ ومنهم محمد بن زكي الدين علي الدمشقي الشافعي(ت598هـ /1201م) المعروف بمُحيي الدين ابن الزكي، وضياء الدين عبد المَلِك بن زيد الدولعي(الدولعية قرية من نواحي الموصل) الشافعي نزيل دمشق(ت598هـ/1201م)، وهما أبرز القائمين على عبد الغني.[(2)]

واتَّبع معظم ملوك الأيوبيين في الجانب الفقهي المذهب الشافعي، وأشار إلى ذلك تاج الدين السُّبْكي حيث قال في ترجمة أحدهم: "... كان فقيها شافعيا على قاعدة سلاطين بني أيُّوب ...". كما قدَّم سلاطين المماليك البحرية الشافعية على غيرهم.[(3)]

2- مواقف السلاطين و الأمراء من الخلافات:

إذا نظرنا إلى مُجمَل تاريخ الأيُّوبيين و المماليك يتبيَّن لنا تقدّم الأشاعرة عند الحكام. وقد تصرّف السلاطين والأمراء مع المواقف المرتبطة بالمذاهب بكيفيات متباينة؛ منها إخراج صارم الدين بزغش لعبد الغني المَقدسي من دمشق؛ حيث تأثّر بتحريض بعض أعيان الأشاعرة الذين " أباحوا إراقة " دم عبد الغني فتدخَّل بعض الأمراء و أشاروا بإخراجه إلى مصر بدل قتله.[(4)]

ولمَّا ألَّف ابن تيمية العقيدة الحَمَوية، وقام عليه جماعة من دُعاة الأشاعرة في دمشق (سنة 698هـ/

[(1)] – سبق ذِكْر الفقيه أبي جعفر الطحاوي. و من مصنَّفاته " العقيدة السُّنية " المعروفة بالعقيدة الطحاوية. (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج4، ص 105. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 22 ، ص126. و **تاريخ الإسلام**، ج13، ص779. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 196، 197.

[(2)] – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 76، 77، 88، 117.

[(3)] – تاج الدين السُّبْكي، المصدر السابق، ج8، ص 134، 320.

[(4)] – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص 11، 31.

1298م) وقف الأمير جاغان[1] إلى جانبه. أمَّا السلطان بَيْبرس الجاشنكير[2] فإنّه وقف ضد ابن تيمية وكان من المتسبّبين في سجنه في القاهرة سنة 705هـ/ 1305م، وكان الجاشنكير حينها أميرا قبل أنْ يتولّى السلطنة. ونجد السلطان محمد بن قلاوون من المُوَقِّرين لابن تيمية رغم أنَّ سجن " الشيخ" كان خلال فترة حُكْمه الثانية (تقدَّمت الإشارة إليها) التي سيطر فيها الأمراء ومنهم الجاشنكير على الحُكم، ولم يَبْق للسلطان معهم إلاّ اسم السلطنة.[3]

وحرص الأمير جمال الدين الأفرم على تخليص ابن تيمية من المِحْنة، فأشار عليه بترك الذهاب إلى مصر لمَّا استُدعي إليها(705هـ/ 1305م)، وقال الأفرم: " أنا أكاتب السلطان...وأُصلح القضايا." وذكر ابن تيمية في حديثه على ما جرى بينه و بين الأشاعرة من نقاش في مُناظرة الواسِطية أنَّ الأفرم " لمَّا رأى مُمالأتهم وتعصُّبهم ... قال: أنت صنَّفت اعتقاد الإمام أحمد فتقول: هذا اعتقاد أحمد، يعني والرجُل يُصنِّف على مذهبه فلا يُعتَرَض عليه. فقلتُ (ابن تيمية): ... ما جمعتُ إلاّ عقيدة السّلَف الصالح جميعهم، ليس للإمام أحمد اختصاص بهذا...، وهذه عقيدة محمد صلّى الله عليه وسلّم."[4]

ونُشير إلى نصّ تاريخي للمقريزي[5] يعطينا نظرة عن مدى نفوذ فقهاء كلِّ مذهب عند سلاطين المماليك؛ حيث ذكر أنّ السلطان كان إذا جلس في دار العدل[6] " يجلس القضاة من المذاهب الأربعة

---

(1) – الأمير سيف الدين جاغان، أحد أبرز الأمراء في دمشق خلال أواخر (ق7هـ/ 13م)، توفي سنة 699هـ/ 1299م. (أنظر: صلاح الدين الصَّفَدي: المصر السابق، ج11، ص 31).

(2) – لفظ الجاشنكير أصله فارسي، وأُطلق على من يُشرف على مأكل ومشرب السلطان في دولة المماليك. و السلطان بَيْبرس الجاشنكير يُلقَّب بالملك المُظفّر، و حَكم من شوال سنة 708هـ/ 1308م إلى رمضان عام 709هـ/ 1309م. (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج8، ص 35. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 427).

(3) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه،ج7، ص 386،417،429،418. وصلاح الدين الصَّفَدي، المصدر نفسه،ج10،ص218

(4) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 418. و تقيّ الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج3، ص 110.

(5) – هو المُحدّث المؤرخ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي المصري الشافعي (ت845هـ/ 1441م). و المقريزي: نسبة إلى مَحلة في بعلبك. وله مُصنّفات منها "المواعظ والاعتبار بذِكْر الخِطَط والآثار. " (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر نفسه، ج9، ص 370، 371).

(6) – ذكر المقريزي أنّ السلطان كان يجلس في دار العدل في يومي الإثنين و الخميس للنظَر في المظالم. و موقعها كان في قلعة الجبل، وهذة الأخيرة في جبل المقطم المحاذي للقاهرة. (أنظر: تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص40، 41، 48، 49.)

عن يمينه وأكبرهم الشافعي، وهو الذي يَلي السلطان." ومنذ أواسط (ق8هـ/ 14م) أصبح القضاة يجلسون "عن يمنة السلطان و يسرته، فيجلس الشافعي عن يمينه و يليه المالكي ...، ويجلس الحنفي عن يسرة السلطان و يليه الحنبلي."[(1)]

وكان موقف النُّصَيْرية والدُّروز معادٍ لدولة المماليك؛ ومن الأحداث التي تدلُّ على ذلك استغلالهم هزيمة الجيش المملوكي أمام التتار[(2)] لمهاجمته أثناء رجوعه من حِمْص إلى دمشق؛ قال الذهبي: "... بدَّعوا في الجيش عُقَيْب الكَسْرة وأسروا وقتلوا وسلبوا وما أبقوا مُمكِنا...". وكان ردُّ فِعْل عامل دمشق جمال الدين الأفرم خلال السنة نفسها، حيث توجَّه لمحاربتهم؛ قال ابن كثير: "... وفي يوم الجمعة العشرين من شوال ركب نائب السلطنة جمال الدين آقوش الأفرم في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان[(3)] وخرج الشيخ تقيّ الدين ابن تيمية ومعه خلقٌ من المطوّعة... لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد دينهم وعقائدهم وكُفْرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لمَّا كَسَرهم التتر...". و لمَّا وصل إليهم الأفرم "جاء رؤساؤهم إلى... ابن تيمية فاستتابهم و بيَّن لكثير منهم الصواب...".[(4)]

وظهر في عام 717هـ/ 1317م رجل من بين النُّصَيْرية يُحرِّض على عصيان السلطان محمد بن قلاوون، وكان يقول " أنا محمد المصطفى، ومرَّة قال: أنا علي، وتارة قال: أنا محمد بن الحسن" العسكري، وصرَّح بكُفر المسلمين، و أنَّ دين النُّصَيْرية هو الحقُّ، قال ابن كثير: "... واحتوى هذا الرجلُ على عقول كثير من كِبار النُّصَيْرية الضُّلال...، وحملوا على مدينة جَبَلة[(5)] فدخلوها وقتلوا خلقًا من أهلها وخرجوا منها يقولون: لا إله إلاّ علي...". وقال الذهبي: "... خرَّبوا المساجد، وكانوا يُحضِرون المسلم إلى

---

(1) – تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص 53، 54.

(2) – قصد التتار (تتار العراق وأذربيجان) عام 699هـ/ 1299م الشام بقيادة ملكهم غازان (ت703هـ/ 1303م) بن أرغون بن أَبَغا بن هولاكو، وكان غازان قد أسلم سنة 694هـ/ 1294م. ووقعت معركة سنة 699هـ/ 1299م في شرقي حِمْص بين الجيش المملوكي وجيش التتار هُزِم فيها المماليك.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**،ج15، ص 703، 704. و **ذيول العِبَر**، ج4، ص 9).

(3) – تقع في النواحي الغربية لمدينة حَماة. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 112).

(4) – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 394.

(5) – جَبَلة مدينة ساحلية (ساحل الشام) في النواحي الغربية لحَماة. (أنظر: حسين مؤنس: المرجع نفسه، ص112).

طاغيتهم و يقولون: اسجد لإلهك ...". وقد تمكّن جيش المماليك من قتل النُّصَيْري خلال السنة نفسها[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ ملك التتار خربندا[2] قد تبنّى عام709هـ/1309م عقيدة الإثني عشرية، وقرَّب شيوخهم خاصّة ابن المطهّر الحِلّي، و أدّى هذا التغير إلى حدوث فِتَن كبار بين أهل السُّنة والشيعة[3].

ج- لمحة عن مظاهر النشاط المذهبي في الحياة الاجتماعية:

ترتبط مظاهر النشاط المذهبي في الحياة الاجتماعية بمظاهره في الحياة العلمية و السياسية.

1- لمحة عامَّة عن القضاء في العصر الأيّوبي:

أسند الأيّوبيون القضاء في مصر والشام إلى فقهاء من الشافعية؛ ففي سنة 612هـ/ 1215م – مثلا- كان على قضاء دمشق زكي الدين الطاهر بن مُحيي الدين ابن الزكي الدمشقي(ت617هـ/ 1220م)، ثم عُزِل خلال السنة المذكورة و وُلِّي جمال الدين عبد الصَّمَد بن محمد بن أبي الفضل المعروف بابن الحرستاني[4] حتى توفي عام 614هـ/ 1217م، ثم أُعيد إلى المنصب زكي الدين الطاهر حتى سنة 616هـ/ 1219م، حيث تركه بعد وقوع خلاف بينه و بين المَلِك " المُعظَّم" عيسى بن العادل، فوُلّي جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري حتى توفي سنة 623هـ/ 1226م. وفي عام 629هـ/ 1231م أسند المَلِك الأشرف موسى قضاء دمشق إلى عماد الدين عبد الكريم بن جمال الدين بن الحرستاني (ت 662هـ/ 1263م)، ثم عُزل عام 631هـ/ 1233م و وُليّ فقيه شافعي آخر. و في حلب ومصر أُسند القضاء أيضا إلى الشافعية.[5]

كما أُسنِدت خطابة المساجد الكبرى للشافعية؛ و منها الجامع الأُمَوي (في دمشق) الذي يُعدُّ من أكبر

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **ذيول العِبَر**، ج4، ص 46. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 460.

[2] – ذكرنا سابقا أخاه غازان و أشرنا إلى إسلامه، و امتدَّ حُكْم خربندا من عام 703هـ/ 1303م حتى عام 716هـ/ 1316م، حيث توفي خلال السنة الأخيرة. و شملت دولته العراق و أذربيجان و خُراسان و أقاليم أخرى. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 454).

[3] – المصدر نفسه، ج7، ص 454. وشمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج4، ص 14، 21.

[4] – حرستا قرية كبيرة قريبة من دمشق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 241).

[5] – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 122، 131، 165، 192،182، 200، 204.

المساجد؛ وقد شُيِّد في عهد الخليفة الأُمَوي الوليد بن عبد المَلِك بن مروان بن الحَكَم(ت96هـ/ 715م).[(1)]

2- تعدّد القضاة و تعدّد الأئمة في الصلوات الخمس:

بعدما كان الإشراف على القضاء في مصر خلال بداية العصر المملوكي لقاضٍ واحد شافعي يَسْتَنيب عنه قُضاة آخرين من فقهاء الشافعية، أسند المَلِك الظاهر بَيْبرس سنة 663هـ/ 1264م القضاء إلى أربعة قضاة؛ قاضٍ من كلِّ مذهب. وحدث هذا التغيير بعد " كثرة توقف" القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن خَلَف بن بدر المصري الشافعي المعروف بابن بنت الأعزّ (ت665هـ/ 1266م) في تنفيذ الأحكام التي " تُخالف مذهب الشافعي وتوافق غيره من المذاهب"؛ فاقترح أحد الأمراء أن يُولّى قاضٍ من كلِّ مذهب فتمَّ ذلك، و فوَّض السلطان لكلِّ قاضٍ منهم " أنْ يستنيب بالأعمال...". وفي سنة 664هـ/ 1265م طُبِّق تعدّد القضاة في دمشق أيضا.[(2)]

أمَّا تعدد الأئمّة في الصلوات الخمس؛ فقد وُجِد في الجامع الأُمَوي خلال العصر المملوكي أربعة أئمّة من المذاهب الأربعة؛ فنجد " المقصورة العظمى التي يؤمُّ فيها إمام الشافعية...، وعن يسار المقصورة " مِحراب المالكية، "وعن يمين المقصورة مِحراب الحنفية، وفيه يؤمُّ إمامهم، ويَليه مِحراب الحنابلة...". وذكر ابن كثير عدَّة أخبار تدلُّ على التعدّد المذكور؛ منها – على سبيل المثال – قوله في حوادث عام 702هـ/ 1302م: "... وفي ذي الحجَّة باشر الشيخ أبو الوليد بن الحاج ... إمامة مِحراب المالكية بجامع دمشق...". و أبو الوليد المشار إليه هو عبد الله بن محمد بن أحمد الأندلسي نزيل دمشق، قدم من بلاد المغرب عام 684هـ/ 1285م، وكانت وفاته في دمشق عام 743هـ/ 1342[(3)].

[(1)] – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 131، 199، 204. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 85، 86.

[(2)] – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 286. و جمال الدين ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج7، (تحقيق: محمد شمس الدين)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1413هـ/ 1992م، ص 1099، 110.

[(3)] – محمد ابن بطوطة، **تُحفَة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ط1، المطبعة الخيرية، د م، 1322هـ/ 1903م، ص 64. و عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 408، 499. و شهاب الدين ابن حجر، المصدر السابق، ج2، ص 286.

3- مِحَن العلماء:

تعرَّض بعض العلماء لمِحَن شديدة كان سببها الرئيسي الخلافات في العقيدة واستغلال بعض الأعلام مكانتهم عند الحُكام لإلحاق الأذى بمن يخالفهم. ومن أبرز المِحَن مِحنة عبد الغني المَقدسي التي ذكرناها سابقًا، ومِحَن تقي الدين ابن تيمية، ومنها التي كانت عام 705هـ/ 1305م حيث سُجِن في القاهرة. ومن أسبابها ما ذكره النويري[1] حيث قال: " السبب المُحرِّك لهذه الواقعة... اطّلعتُ عليه من ابتدائه، وهو أنّ بعض الطلبة ... سكن بالمدرسة الناصرية ... بالقاهرة، وكنتُ بها، فاتّفق اجتماعي أنا و... محمد بن عدلان الشافعي" فحضر الطالب " ومعه فُتيا وقد أجاب عليها الشيخ " ابن تيمية، "وجعل يذكر الشيخ تقيّ الدين و بَسْط عبارته وعِلمه... فتناولها... ابن عدلان منه وقرأها "، فشرع في التحريض ضدَّه. (كانت الفتوى مُخالفة للعقيدة الأشعرية، وابن عدلان أشعري). وقال النُّويري: "...هذا السبب المُوجب لطلبه ... نقلته عن مشاهدة واطِّلاع."[2]

وكان نَصْر المَنْبجي من أبرز القائمين على ابن تيمية بعدما بلغه أنّه يُحَذِّر من أهل الوحدة، خاصَّة مُحيي الدين ابن عربي، وأنّه يُصنِّف في الردّ عليه والتحذير من عقيدته.[3] و أشار ابن كثير إلى أحد أسباب المِحْنة؛ فقال عن حوادث رجب من سنة 704هـ/ 1304م: "... وفي هذا الشهر بعينه راح الشيخ" ابن تيمية إلى مسجد من مساجد دمشق، و " أمر أصحابه و معهم حجّارون بقطع صخرة كانت هناك تُزار ويُنذَر لها، و أراح المسلمين منهاومن الشِّرك بها...، وبهذا وأمثاله حسدوه و أبرزوا له العداوة، وكذلك بكلامه في ابن عربي... مع أنَّه لم ينقطع في بحثٍ لا بمصر ولا بالشام، و إنّما أخذوه وحبسوه بالجاه".[4]

---

(1) – الفقيه المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم النُّوَيري (نسبة إلى نُوَيرة، وهي " ناحية بمصر"). له مُصنّفات توفي سنة 733هـ/ 1332م. (أنظر: صلاح الدين الصَّفَدي، المصدر السابق، ج7، ص 110، 111. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 312).

(2) – محمد عزيز و علي العمران، المرجع السابق، ص 107، 108، 118، 119، 121.

(3) – المرجع نفسه، ص 175، 176.

(4) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 414.

ولمَّا توجَّه ابن تيمية من دمشق إلى القاهرة " ازدحم الناس لرؤيته و وداعه حتى انتشروا من باب داره" إلى الجسورة (موضع قريب من دمشق)، و وصل القاهرة يوم الثاني والعشرين من رمضان سنة 705هـ/ 1305م، ثم عُقد له مجلس بعد أيام،فأراد أن يُناظر الأشاعرة القائمين عليه فمُنِع من ذلك؛ قال ابن كثير: "... و أراد أن يتكلّم على عادته، فلم يُمَكَّن من البحث والكلام ...، وحُبِس في برج أيامًا، ثم نُقل منه ليلة العيد إلى الحبس المعروف بالجُبِّ." و قد حُفِر هذا الجُبُّ في قلعة الجبل؛ قال المقريزي في وصفه: "... كان بالقلعة جُبٌّ يُحبَس فيه الأمراء، وكان مهولا مظلمًا ... كريه الرائحة، يُقاسي المسجون فيه ما هو كالموت أو أشدَّ منه، عمَّره الملك المنصور قلاوون سنة إحدى وثمانين وستمائة."[(1)] وكان نقل ابن تيمية إلى الجُبِّ بعدما بلغ زين الدين ابن مخلوف الأشعري (قاضي المالكية في مصر) أنَّ "جماعة من الأمراء يتردّدون إليه" (يزورونه)؛ فحثَّ ابن مخلوف الأمير بَيْبرس الجاشنكير على "التضييق عليه". وقد وضَّح عبد الرحمان ابن رَجَب سبب مَنْع ابن تيمية من المُناظرة في هذا المجلس فقال: "... ثم إنَّ المصريين دبَّروا الحيلة في أمر الشيخ، و رأوا أنَّه لا يُمكن البحث معه، و لكن يُعقَد له مجلس و يُدَّعى عليه..."[(2)]

وقدم حُسام الدين مُهَنّا بن عيسى[(3)] إلى القاهرة في ربيع الأوّل من سنة 707هـ/ 1307م واستأذن في إخراج ابن تيمية من السِّجن، فأُخرج و بقي في القاهرة يُعلِّم الناس ويفتيهم، لكنّ ذلك لم يستمر مدة طويلة حيث قام عليه الصوفية (شوال 707هـ/ 1307م)، وعلى رأسهم ابن عطاء الله الإسكندري؛ بسبب تحذير ابن تيمية من عقيدة وحدة الوجود، ونهيه عن الاستغاثة بالنبي صلّى الله عليه وسلّم، فسُجِن مرَّة أخرى قال ابن كثير: "... واستمرّ الشيخ في الحبس يُستفتى ويقصده الناس ويزورونه وتأتيه الفتاوى المُشْكلة ... من الأمراء و أعيان الناس، فيكتب عليها بما يُحَيِّر العقول من الكتاب والسُّنة."[(4)]

---

(1) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 418. و تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص 63.

(2) – أحمد صبحي، **العقائد الدينية في مصرالمملوكية**، ط1، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة – مصر،1422هـ/2000م، ص216.

(3) – الأمير حسام الدين مُهَنّا بن عيسى بن مُهَنّا التدمري (ت735هـ/ 1334م)، أمير العرب في نواحي تدمر من بلاد الشام. كان مطيعا للسلطان محمد بن قلاوون. (أنظر: شهاب الدين ابن حجر، المصدر السابق، ج4، ص 268، 269).

(4) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص425، 426.

و خلال سنة 709هـ/ 1309م قرَّر الجاشنكير (وكان حينها سلطانا) و نَصْر المَنْبِجي نَقْل ابن تيمية إلى الإسكندرية؛ قال ابن كثير مُوضِّحا سبب ذلك: "... فأرادوا أن يُسيِّروه إلى الإسكندرية كهيئة المنفي لعلَّ أحدا من أهلها يتجاسر عليه فيقتله ...، فما زاد الناس ذلك إلاّ محبَّة فيه"، فأقام بها في " بُرج متَّسع ... يدخل عليه من شاء، ويتردَّد إليه الأكابر والأعيان والفقهاء يقرؤون عليه ويستفيدون منه...".[1]

وتمكَّن محمد بن قلاوون سنة 709هـ/ 1309م من استعادة السلطنة و قتل الجاشنكير، وأحضر ابن تيمية من الإسكندرية إلى القاهرة في السنة نفسها فتلقّاه في مجلسٍ حافلٍ بقلعة الجبل؛ قال ابن كثير: "... ثم إنَّ الشيخ ... نزل إلى القاهرة، وعاد إلى بثِّ العِلم ونَشْره، و أقبلت الخَلْق عليه، و رحلوا إليه يشتغلون عليه...". وفي سنة 712هـ/ 1312م قصد التتار الشام فخرج الجيش من مصر لقتالهم، وخرج معه ابن تيمية "بنِية الغَزاة "، فلمَّا علم برجوع التتار فارق الجيش، وأقام ببيت المقدس أيّامًا ثم ارتحل إلى دمشق[2].

ولازم بعد استقراره في دمشق التدريس والتصنيف والإفتاء حتى سنة 720هـ/ 1320م، حيث سُجِن في قلعة دمشق بعد اختلافه مع القضاة في إحدى مسائل الطلاق، ثم أمر السلطان محمد بن قلاوون بإخراجه من السجن سنة 721هـ/ 1321م. وفي عام 726هـ/ 1326م سُجِن مرَّة أخرى في القلعة المذكورة، نظرًا لشدَّة قيام خصومه عليه بسبب مسألة شدِّ الرحال إلى زيارة قبور الأنبياء، و" وجوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء" بل النهي عن " شدِّ الرَّحْل لمُجرَّد الزيارة ". لكنَّ بعض خصومه أشاعوا أنَّه ينهى عن " الزيارة الخالية عن شدِّ رَحْلٍ".[3]

وصنَّف القاضي المالكي في مصر تقي الدين الأخنائي[4] (ت750هـ/1349م) كتابا للردِّ على ابن تيمية في المسألة الآنف ذِكرها، فألَّف ابن تيمية كذلك في الردِّ عليه؛ قال ابن كثير: "...فردَّ عليه الشيخ

---

[1] – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 7، ص 429.

[2] – المصدر نفسه، ج7، ص 432، 433، 444، 445.

[3] – المصدر نفسه، ج7، ص 445، 472، 473، 496، 497.

[4] – نسبة إلى أخنا وهي بلدة في شمال مصر. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 124).

تقيّ الدين واستجهله و أعلمه أنَّه قليل البضاعة في العِلم، فطلع الأخنائي إلى السلطان وشكاه، فرَسَم... عند ذلك بإخراج ما عنده"(في السجن) "من الكُتب والأوراق والدواة والقلم." وذلك لمنعه من التأليف، وذكر ابن كثير أنَّ هذه الكُتب كانت " نحو ستين مُجلَّدا، وأربع عشرة ربطة كراريس، فنظر القضاة والفقهاء فيها وتفرّقوها بينهم." و بقي ابن تيمية في السجن حتى توفي في ذي القعدة من عام728ه/1327م.[1]

وأصابت المِحَن علماء آخرين ومنهم أبو الحَجّاج المزّي الشافعي؛ فقد سُجِن عام 705ه/ 1305م في دمشق بعدما قرأ في الجامع الأُمَوي " فصلا " يتضمن الردَّ على المُتكلِّمين. كما سُجِن الفقيه ابن النجيح[2] في مصر لمّا سُجِن فيها ابن تيمية، حيث كان من "خواصِّ أصحابه". وتعرَّض شهاب الدين ابن مُرّي البعلبكي لمِحْنة في مصر عام 725ه/ 1325م بعدما نهى عن الاستغاثة بالنبي صلّى الله عليه و سلّم فسجنه القاضي المالكي تقي الدين الأخنائي، ثم ضربه "بحضرته ضربًا مُبرحًا حتى أدماه...". ولمّا سُجن ابن تيمية عام 726ه/ 1326م لم يسلم كثير من تلاميذه و منهم ابن القيِّم الذي ضُرِب وسُجِن. وضُرِب كذلك المؤرّخان ابن كثير وابن شاكر الكُتُبي[3] الدمشقي وغيرهما[4]. ونستنتج ممَّا تقدّم أنَّ الاستعانة بالحُكام لإلحاق مِحَن بالعلماء (سببها الرئيسي الخلاف العَقَدي) تُعَدّ انعكاسا خطيرا للحياة المذهبية.

4- نماذج من الأُسَر العلمية المذهبية:

وُجِدت عدَّة أُسَر علمية مذهبية في المشرق الإسلامي خلال (ق7-8ه/13-14م) خاصّة في بلاد الشام؛ منها أسرة ابن قُدامة، وهي أسرة حنبلية كبيرة موطنها بلدة الصالحية في ظاهر دمشق، ومن أعلامها أبو عمر المَقدسي وشقيقه المُوفَّق ابن قُدامة، وشرف الدين عبد الله بن أبي عمر الصالحي (ت

(1) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 505، 506، 507.

(2) – الفقيه شرف الدين محمد بن سعد الله بن عبد الأحد بن سعد الله الحراني ثم الدمشقي، يُعرف بابن النجيح. توفي عام 723ه/ 1323م في الحِجاز بعدما خرج للحج. (أنظر: المصدر نفسه، ج7، ص 484).

(3) – هو صلاح الدين محمد بن شاكر بن عبد الرحمان الكُتُبي الدمشقي (ت764ه/ 1362م)، " تعانى التجارة في الكتب"، فعُرف بالكُتُبي. له كتاب " فوات الوفيات " في التراجم وغيره. (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج8، ص 336، 337).

(4) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 496. و محمد عزيز و علي العمران، المرجع السابق، ص 130، 131.

643هـ/1245م) خطيب مسجد الصالحية. ومنهم أيضا "الحافظ" سيف الدين أحمد بن عيسى بن المُوفَّق ابن قُدامة الصالحي(ت643هـ/ 1245م) وشمس الدين عبدالرحمان بن أبي عمر الصالحي. ومن فقهاء هذه الأسرة كذلك تقيّ الدين سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن أبي عمر الصالحي(ت715هـ/ 1315م)، وعِماد الدين أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد الصالحي(ت752هـ/ 1351م)، وابنه " الحافظ " محمد بن أحمد بن عبد الهادي المتقدّم ذِكره.[1]

ومن أبرز الأُسر العلمية أسرة ابن أبي جرادة الحنفية، وهي أسرة حلبية، و يرجع نسبها إلى أبي جرادة عامر بن ربيعة بن خُويلد المتوفّى خلال(ق1هـ/7م). و من فقهائها أحمد بن هِبة الله بن محمد بن هِبة الله الحلبي (ت613هـ/1216م)، وابن أخيه تاج الدين يحيى بن محمد بن هِبة الله بن الحلبي(ت656هـ /1258م). و منهم أيضا كمال الدين ابن العديم(سبق ذِكْره)، وابنه مجد الدين عبد الرحمان، ولي قضاء الحنفية بدمشق وكانت وفاته فيها عام677هـ/1278م. وقد ولي القضاء فقهاء آخرون من هذه الأسرة.[2]

5- سبُّ الشيعة للصحابة:

قد عُرِف الشيعة الغُلاة بسبِّهم للصحابة؛ قال ابن تيمية: "... الرّافِضة... أعظم ذوي الأهواء جهلاً وظُلْمًا، يُعادون خِيار أولياء الله تعالى بعد النبيّين، من السابقين الأوّلين من المُهاجرين والأنصار...". وذكر أنَّ " الرّافِضة شرّ من الخوارج؛ لأنّهم يُكَفِّرون الصحابة وجماهير المسلمين، ويُكفِّرون أيضا من يُثبِت لله تعالى صفاته التي أثبتها لنفسه سبحانه." وقال الذهبي: "... يُكَفّرون الصحابة و يَبرؤون منهم جهلاً وعدوانًا، ويتعدَّون إلى الصدِّيق قاتلهم الله."[3]

وذكر ابن تيمية من "حماقاتهم" أنهم يهجُرون اسم أبي بكر وعمر وعثمان" ومن تسمّى بذلك، "حتى إنَّهم

[1] – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص108، 510، 524. وعماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 7، ص338، 377. و شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج8، ص 293، 371.

[2] – صلاح الدين الصَّفدي، المصدر السابق، ج22، ص 259. و عبد القادر القُرَشي، المصدر السابق، ج1، ص 347. و ج2، ص 480، 598. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 300.

[3] – تقيّ الدين ابن تيمية، **منهاج السُنّة النبوية**، ج1، ص20. و خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص25.

يكرهون معاملته." وقال: " من حماقاتهم تمثيلهم لمن يبغضونه بالجماد أو حيوان، ثم يفعلون بذلك الجماد أو الحيوان ما يرونه عقوبة لمن يبغضونه؛ مِثل اتّخاذهم نعجة " يسمونها "عائشة ويُعذّبونها... ومِثل تسمية بعضهم لحمارين من حُمُر الرحا أحدهم بأبي بكر والآخر بعمر، ثمّ يعاقبون الحمارين جعلاً منهم تلك العقوبة عقوبة لأبي بكر وعمر. وتارة يكتبون أسماءهم على أسفل أرجلهم... و منهم من يُسمِّي كلابه باسم أبي بكر وعمر"وهذا كلّه "من فعل أحمق الناس وأجهلهم".[1]وما تقدَّم يُبَيِّن عُمق الانحرافات الشيعية.

وقد تصدى أهل السُّنة لهم باستخدام عدّة وسائل؛ منها "إصدار أحكام شرعية" عن حُكْم الذين يقترفون هذه الجرائم الشنيعة. ونقلت المصادر التاريخية عدّة أخبار عن مقتل بعض من يسبُّ الصحابة؛ فمِن ذلك ما ذكره ابن كثير في حوادث عام755هـ/ 1354م؛ إذْ ذكر أنَّ رجلاً من أهل الحلَّة دخل الجامع الأُمَوي وجعل يسبُّ أبا بكر الصدِّيق، فأمر أحد القضاة بسجنه ثم قُتل بعد أيّام.[2]

– خلاصة الفصل:

لقد وُجِدت عدّة طوائف عَقَدية في المشرق الإسلامي خلال (ق7–8هـ/ 13–14م)؛ ومن أسباب ذلك الاختلاف في مسألة الصفات وفي الإمامة، حيث ظهرت المذاهب والفِرَق خلال فترات سابقة واستمرّ وجودها خلال القرنين المذكورين. و اعتمدت المذاهب على أصول؛ فأبرز أصول أهل الحديث الاعتماد على القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وتقديم النَّقل على العقل و إثبات صفات الله تعالى الواردة في الكتاب والسُّنة دون تشبيه لها بصفات المخلوقين، بالإضافة إلى موالاة الصحابة و الاعتقاد أنّ الإيمان قولٌ وعملٌ. أمَّا مذهب الأشاعرة والماتُريدية فيختلف عن منهج أهل الحديث في عدَّة جوانب كمسألة الصفات، و يوافقه في جوانب أخرى كمُوالاة الصحابة.

وتعدّدت طوائف الشيعة، فأبرزها طائفة الإثني عشرية، كما نجد الزيدية في اليمن و النُّصَيرية والدُّروز

[1] – تقيّ الدين ابن تيمية، **مِنهاج السُّنة النبوية**، ج1، ص 41، 49، 50.

[2] – خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص 17، 38، 39. وعِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 608.

في بعض مناطق الشام. و وُجد التصوّف في كافّة أمصار المشرق الإسلامي، و انتشرت بين بعض الصوفية عقيدة وحدة الوجود التي تُمثّل ذِرْوة الانحراف العَقَدي.

أمَّا عن المذاهب الفقهية في المشرق الإسلامي فقد استمرّ خلال القرنين(7–8هـ/ 13–14م) وجود أربعة مذاهب، حيث انتشر المذهب الحنفي على نطاق واسع خاصة في خُراسان وما وراء النهر. كما كان المذهب الشافعي واسع الانتشار لا سيّما في مصر والشام. في حين كان المذهبان المالكي والحنبلي أقلّ انتشارا. وصُنِّفت في كلِّ مذهبٍ كتب كثيرة خلال القرنين المذكورين و قبلهما.

وتعدّدت مظاهر النشاط المذهبي، فمنها وجود المدارس المذهبية (خاصّة في دمشق و القاهرة و حلب و بغداد)، وتصنيف كُتُب كثيرة في العقيدة و الفقه، و مواقف السلاطين من الخلافات والمذاهب. ومنها كذلك تعدّد الأئمة في الصلوات الخمس و وجود المُناظرات و تعرّض بعض العلماء لمِحن شديدة ترجع أساسا إلى الخلافات العَقَدية.

– الفصل الثاني: أثر النزعة المذهبية على كتب التاريخ العام خلال (ق7هـ/13م)

اهتمَّ كثيرٌ من المؤرِّخين المسلمين بتصنيف كتب تاريخ عامّة، لم يتقيّدوا فيها بإطار زماني أو مكاني ضيِّق، فمنهم من بدأ بسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم، ومنهم من تطرَّق لأخبار العصور السابقة أيضا. و ركَّز بعضهم على شرح الأحداث التاريخية بتفصيل، في حين ركّز آخرون على التوسُّع في التراجم[1]. وقد صُنِّفت خلال (ق7-8/ 13-14م) عدَّة كتب في التاريخ العام، ونوضِّح تأثُّرها بالنّزعة المذهبية فيما يلي:

-أوَّلا- كتاب "الكامل في التاريخ":

يُعدُّ كتاب "الكامل في التاريخ" من أشهر ما صُنِّف على نسَق التَّأريخ الحَوْلي[2]، ومُصنِّفه هو المؤرِّخ الشهير عزُّ الدين علي بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الجَزْري[3] المعروف بابن الأثير المتوفّى في الموصل عام630هـ/ 1232م. وقد طبّق في كتابه منهج الكتابة على حسب السنين؛ ففي عرضه لأخبار كلِّ سنة يجعل عناوين للأحداث البارزة، ثم يذكر باقي الأحداث تحت عنوان "ذِكْر عدَّة حوادث"، ثم يترجم بإيجاز لعدد قليل من وفيات تلك السنة.[4] ونُشير إلى أنَّ ابن الأثير كان شافعيا أشعريَّ العقيدة[5].

وسنوضح في هذا المبحث مظاهر النّزعة المذهبية في "الكامل" من خلال عرض المُصنِّف للحوادث

---

(1) – عبد العزيز سالم، **مناهج البحث في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية- مصر، 1387هـ/1967م، ص103، 104.

(2) – التأْريخ الحَوْلي: التأريخ للأحداث سنة بعد سنة، فكانت مختلف الحوادث تُجمع في كلِّ سنةٍ، وتربط فيما بينها بكلمة " و فيها " فإذا انتهت حوادث السنة الواحدة انتقل المؤرِّخ إلى حوادث السنة التالية، فيستخدم الجملة الآتية: " ثم دخلت سنة كذا " أو " ثم جاء في سنة كذا." و عيب هذا المنهج التاريخي أنَّه يُمزِّق سياق الحادثة التاريخية الطويلة التي تتواصل وتمتدُّ إلى عدد من السنين، فلا يذكر المؤرِّخ الذي يتَّبع المنهج الحَوْلي منها إلاّ ما يخصُّ حوادث السنة التي يجمع كلَّ أحداثها. وقد انتقد ابن الأثير هذا المنهج وأدخل عليه تعديلا في كتابه " الكامل"؛ فقال: "... و رأيتهم أيضا يذكرون الحادثة الواحدة في سنين... فتأتي الحادثة مقطعة... فجمعتُ أنا الحادثة في موضع واحد، وذكرتُ كلَّ شيء منها في أي شهر أو سنة كانت، فأتت متناسقة متتابعة...".(أنظر: المرجع نفسه، ص82، 83).

(3) – نسبة إلى جزيرة ابن عمر، وهي بلدة من نواحي الموصل. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 138.)

(4) – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج8، ص299. و عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، ص83، 103.

(5) – عزُّ الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، (تحقيق: محمد الدقاق)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1407هـ/ 1986م، ص 365.

والتراجم.

-أ- مظاهر النّزعة المذهبيـة من خـلال عرض المُصنِّف لحوادث و تراجم القرون الأربعة الهجرية الأولى:

تـطرَّق ابـن الأثيـر لمعطيـات كثيرة متعلّقـة بالمذاهب، وعـلَّق عليهـا فـي مواضـع ، وفـي أخرى لـم يعلِّق؛ ففي عرضـه حوادث عام 42هـ/ 662 م ذكر أخبـار عن الخوارج، ثم أشار إلى أنَّهم فرحوا بمقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وعلَّق على ذلك فقال:"... و حمدوا الله على قَتْلـه، رضـي الله عنـه ولا رضي عنهم."[(1)]، وفي ذلك ذمٌّ مستحَقٌّ لهم. ونجد للمُصنِّف موقف آخر كهذا في ذِكْره مقتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضـي الله عنهما(سنة61هـ/ 681م) حيث قال: "... وقُتل الحسين، وقتلـه سِنان بن أَنَس... لعنـه الله."[(2)] وتطـرَّق فـي حـوادث عـام 99هـ/ 718م إلـى نهـي الخليفـة الأُمَـوي عمـر بـن عبـد العزيز[(3)] عن سبٍّ عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنـه)، وتضمَّن كلام ابن الأثير عن ذلك ثناءً على عمر و تحذيرًا من النّاصِبة.[(4)] و ذكر في حوادث سنة 127هـ/ 745م المعركة التي وقعت قرب مدينة القيروان في إفريقية بين الخوارج وجيش عامل الأُمَويين حَنْظلة بن صَفْوان الكَلْبي[(5)]، فأشار إلى جانبٍ من سيرة الخوارج السيِّئة حيث قال: "... وقام العلماء في أهل القيروان يحُثّونهم على الجهاد وقتال الخوارج ويذَكِّرونهم ما يفعلونـه بالنّساء من السَّبْي وبالأبناء من الاستِرقاق و بالرجال من القتل...ثم إنّ الله تعالى هزم الخـوارج...، و كان اللّيثُ بن سَعْد يقول: ما غـزوة إلى الآن أشدّ بعد غـزوة بدر من غـزوة " أهل

(1) – عزُّ الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص283.

(2) – المصدر نفسه، ج3، ص443.

(3) – هو " الإمام العادل" الخليفة الشهير عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحَكَم، الخليفة الأُمَوي الثامن، توفي عام 101هـ/ 719م، و امتدَّت خلافته لسنتين و خمسة أشهر. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**،ج1، ص91.)

(4) – النّاصِبة أو النواصِب هم الذين يبغضون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب و أولاده، قال ابن تيمية: "...النواصِب الذين يُؤذون أهل البيت بقولٍ أو عملٍ." (أنظر: تقيّ الدّين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج3، ص102. و **منهاج السنة**، ج4، ص554.)

(5) – هو الأمير حَنْظلة بن صَفْوان الكَلْبي، كان" من أشراف الشاميين... توفي في عشر الثلاثين و المائة." والكَلبي: نسبة إلى قبيلة كَلْب بن وبرة من العرب اليمانية، و تُعدُّ من أبرز قبائل العرب في الشام . (أنظر: صلاح الدين الصَّفَدي، المصدر السابق، ج13، ص123، و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج10، ص451.)

القيروان.[1]

وذكر ابن الأثير في حوادث عام 236هـ/ 850م أنَّ المُتوكّل[2] "أمر بهدم قبر الحسين بن علي عليه السلام، وهدم ما حوله من المنازل والدُّور"، وأمر أنْ يُنادى في الناس بتلك الناحية (كَرْبلاء): " من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه...، فهرب الناس وتركوا زيارته...". ثم قال المُصنِّف: "...وكان المُتوكِّل شديد البغض لعلي بن أبي طالب عليه السلام و لأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنه يتولّى عليّا وأهله بأخذ المال والدّم...". ثم ذكر سخرية أحد جلساء المُتوكِّل من عليٍّ رضي الله عنه، وقال: "... و إنّما كان يُنادمه و يجالسه جماعة قد اشتهروا بالنَّصْب والبغض لعليٍّ ...وكانوا يخوِّفونه من العَلَويين ويُشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم، ثم حسَّنوا إليه الوقيعة في أسلافهم الذين يعتقد الناس عُلوَّ منزلتهم في الدّين...".[3] فاستنكر المُصنِّف بغض المُتوكِّل لعليٍّ (رضي الله عنه) وأهل بيته لكنَّ قوله: "... وكان يقصد من يبلغه عنه أنَّه يتولّى عليًّا وأهله بأخذ المال والدّم..." فيه مبالغة؛ لأنَّ جميع المسلمين يتولون عليًّا إلاَّ النّاصِبة و الخوارج.

وذكر في حوادث عام 284هـ/ 897م أنَّ الخليفة العباسي المُعتضِد بالله[4] "عزم ...على لَعْن مُعاوية بن أبي سفيان[5] على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب" في ذلك يقرأ على الناس؛ قال ابن الأثير: " ...استدلَّ فيه بأحاديث كثيرة على وجوب لعنه عن النبي صلّى الله عليه وسلّم لا تصحُّ." فصرَّح المُصنِّف بأنَّ هذه الأحاديث موضوعة.[6] و لا شكَّ في أنَّها من وضع رُواة الشيعة، ومنها: " إذا رأيتم مُعاوية على منبري

---

[1] – عزُّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص 315، 318.

[2] – الخليفة العباسي المُتوكِّل على الله جعفر بن المُعتصم بالله بن هارون الرشيد. كانت خلافته بين عامي (232– 247هـ) (846– 861م) . (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 353.)

[3] – عزُّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج6، ص 108، 109.

[4] – الخليفة العباسي أحمد المُعتضِد بالله بن طلحة المُوفَّق بن جعفر المُتوكِّل، توفي عام 289هـ/ 902م، و كانت خلافته بين عامي (279 – 289هـ) (892– 902م). (أنظر: شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص415.)

[5] – الخليفة الأُمَوي الأوّل مُعاوية بن أبي سفيان بن حرب، توفي عام 60 هـ/ 680 م.(أنظر: شمس الدّين الذهبي ، المصدر نفسه، ج1، ص47.)

[6] – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج6، ص391.

فاقتلوه." و " أنَّ مُعاوية في تابوت من نارٍ في أسفل دركٍ منها...".[1]

وتطرَّق في عرضه حوادث عام 296هـ/ 909م إلى ظهور عُبَيْد الله المَهدي[2] في بلاد المغرب فنقل أخبار نشأة دولته عن أحد مؤرِّخي إفريقية، وقال في بداية ذلك: " ...فقد أحسن فيما ذكر"، و استثنى قوله بعدم صحَّة نَسَب عُبَيْد الله، فممّا نقله ابن الأثير ذمُّ الباطنية وكَشْف حالهم بعبارات كثيرة منها: " ... فلمَّا يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة، أخذوا في وَضْع الأحاديث الكاذبة، و تشكيك ضَعَفة العقول في دينهم... فألقوا إلى من وثقوا به أنَّ لكلِّ شيء من العبادات باطنًا، و أنَّ الله تعالى لم يُوجب على أوليائه ومن عرف من الأئمة صلاةً و لا زكاةً و لا غير ذلك، ولا حرَّم عليهم شيئا، و أباحوا لهم نِكاح الأمّهات والأخوات...، وكانوا يُظهِرون التشيُّع لآل النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم ليستروا أمرهم و يستميلوا العامَّة " وتفرَّقوا في الأمصار " وأظهروا الزُّهد... يُغْرون الناس بذلك."[3]

ولمَّا ذكر ابن الأثير وفاة الطبَري[4](عام 310هـ/922م) أشار إلى أنَّه دُفن في داره ليلا؛ لأنَّ بعض عوامٍّ ببغداد من الحنابلة وغيرهم اجتمعوا ومنعوا من دفنه نهارا، واتّهموه بأنه من الشيعة الغُلاة، قال المُصنِّف: "... و إنّما بعض الحنابلة تعصّبوا عليه و وقعوا فيه فتبعهم غيرهم، ولذلك سببٌ؛ وهو أنَّ الطبَري جمع كتابًا ذكر فيه اختلاف الفقهاء... ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك فقال: لم يكن فقيها و إنّما كان مُحَدِّثا، فاشتدَّ ذلك على الحنابلة."[5]

---

[1] – محمد بن جرير الطبــري، **تاريخ الرُسُل و الملوك**، ج10، (تحقيق: محمد إبراهيم)، ط1، دار المعارف، القاهرة – مصر، 1390هـ/ 1969م، ص58.

[2] – اختُلف في نَسَب عُبَيد الله المهدي كما هو معروف؛ فابن الأثير و بعض المؤرِّخين يُرجعون نسَبه إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، في حين ينفي صحَّة نسَبه كثيرٌ من المؤرِّخين، و منهم الذهبي. وكانت وفاة عُبَيد الله عام 322هـ/ 934م في مدينة المهدية بإفريقية. (أنظر: عزّ الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج6، ص446، و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص16.)

[3] – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج6، ص 448.)

[4] – المؤرِّخ الشهير محمد بن جرير بن يزيد بن كثير الطبري، توفي في بغداد عام310هـ/ 922م. له مصنَّفات منها التاريخ المشهور. و"الطبـري" نسبة إلى طبرستان، وهي بلاد في جنوب بحر الخزر (بحر قزوين). (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص193. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص145.)

[5] عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج7، ص8، 9.

ونستنتج من خلال عرض المُصنِّف للحادثة استنكاره منع دفن الطبَري، وذلك إنصافٌ منه، لكنَّه سكت عن قوله أنَّ أحمد بن حنبل " لم يكن فقيهًا"، رغم أنَّ أحمد يُعدُّ من كبار فقهاء الأُمَّة، ويدلُّ على ذلك الفقه المنقول عنه، والذي جُمِع في عدَّة كتب منها كتاب " جامع الروايات عن أحمد"، وقد ذكرناه سابقا. كما أنَّ أقوال كبار العلماء تُفنِّد ادِّعاء الطبَري؛ فمنها قول الشافعي: " خرجتُ من بغداد وما خلَّفتُ بها أفقه ولا أَزْهَد ولا أَوْرع من أحمد بن حنبل." وقال:" أحمد إمامٌ في ثمان خصالٍ: إمامٌ في الحديث، إمامٌ في الفقه...". وقال عبد الرزاق الصنعاني: " ما رأيت أفقه و لا أَوْرع من أحمد بن حنبل." و قال الذهبي: " كان أحمد عظيم الشأن، رأسا في الحديث وفي الفقه...".[1]

وقال ابن الأثير في حوادث عام 321هـ/ 933م: " ... وفيها أمر علي بن يلبق[2] ...بلعن مُعاوية بن أبي سفيان ...على المنابر ببغداد، فاضطربت العامَّة، فأراد علي بن يلبق أنْ يقبض على البَرْبَهاري رئيس الحنابلة، وكان يُثير الفِتن هو وأصحابه، فعلم بذلك فهرب...".[3] و البَرْبَهاري قد سبق ذِكْره ونلاحظ أنَّ المصنِّف اتّهمه بإثارة الفِتَن، ولم يصح ذلك عنه؛ و إنَّما ورد في عدَّة مصادر إنكاره على من يخالف منهج أهل الحديث، قال ابن الجَوْزي: " ... وكان شديدا على أهل البِدَع." وقال الذهبي: "...الفقيه العابد شيخ الحنابلة بالعراق، كان شديدا على المُبتدعة." كما قال: "...الفقيه القُدوة ... كان له صيت عظيم... وكان المخالفون يُغَلِّظون قلب الدولة عليه." وقال ابن كثير: "... العالم الزاهد الفقيه... كان شديدا على أهل البِدَع...".[4]

---

(1) – محمد بن عبد الهادي، المصدر السابق، ص 130، 131، 193. و شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج11، ص 203.

(2) – كان علي بن يلبق حاجب الخليفة العباسي محمد القاهر بالله بن المُعتضِد، وقد قتله الخليفة عام 321هـ/ 933م . أما محمد القاهر فقد ولي الخلافة سنة 320هـ/ 932م، وخُلِع سنة 322هـ/ 934م.(أنظر: عماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص219، 223.)

(3) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص92.

(4) – عبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج14، (تحقيق: محمد عطا ومصطفى عطا)، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت– لبنان، 1412هـ/ 1992م، ص14. و شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 572، و **العِبَر**، ج2، ص33، و عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص245.

وتطرّق ابن الأثير في ذِكْره حوادث عام 322هـ/ 934م إلى مقتل الشلمغاني فقال: "... وفي هذه السنة قُتِل أبو جعفر محمد بن علي الشلمغاني، المعروف" بابن أبي العزاقر، " وشلمغان التي يُنسَب إليها قرية بنواحي واسِط، وسبب ذلك أنَّه قد أحدث مذهبا غاليًا في التشيّع والتناسخ..." و " ... وظهر عنه ببغداد أنَّه يدَّعي لنفسه الربوبية " ، وتبعه أشخاص " كانوا يعتقدون ذلك فيه." وأُحضِر إلى دار الخلافة ومعه بعضهم، فلمَّا أمر أحدهم بصفعه " ارتعدت يده، فقبَّل لحية الشلمغاني و رأسه ثم قال: إلهي وسيِّدي و رازقي...". ثم قال المُصنِّف: "... وفي آخر الأيام أفتى الفقهاء بإباحة دَمِه فصُلِب... وكان من مذهبه أنَّه إله الآلهة... وكان يقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى يحلُّ في كلِّ شيء على قدر ما يحتمل"، وأنَّ الله قد حلَّ في علي بن أبي طالب، " و أنَّ من احتاج الناس إليه فهو إله." ويقول الرجل من أتباعه: " أنا ربٌّ لفلان، وفلان ربٌّ لفلان... حتّى يقع الانتهاء إلى " ابن أبي العزاقر " فيقول: أنا ربُّ الأرباب... وكانوا يُسمُّون موسى ومحمدا صلّى الله عليه وسلّم الخائنين، لأنَّهم يدَّعُون أنَّ هارون أرسل موسى، وعليًّا أرسل محمدا فخاناهما...". وقد ذمَّ ابن الأثير الشلمغاني وأتباعه، وعلَّق على زندقتهم بقوله: " تعالى الله عمَّا يقول الظالمون عُلوًّا كبيرا، وما أشبه هذه المقالة بمقالة النُّصَيْرية...".[1]

وقال ابن الأثير في حوادث عام 323هـ/ 935م: "... وفيها عَظُم أمر الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يَكبسون من دور القُوّاد والعامّة. و إنْ وجدوا نبيذا أراقوه و إنْ وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء، واعترضوا في البيع والشراء، ومشي الرجال مع النساء والصبيان، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو؟ فإنْ أخبرهم و إلاّ ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة، وشهدوا عليه بالفاحشة، فأرهجوا بغداد، فركب " صاحب الشرطة ونادى في الحنابلة " لا يجتمع منهم اثنان، و لا يُناظرون في مذهبهم...، فلم يُفِد فيهم و زاد شرُّهم و فتنتهم، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد، و إذا مرَّ بهم شافعي المذهب أغروا به العميان، فيضربونه بعصيِّهم حتى يكاد يموت"، فأُصدِر توقيع (مرسوم) من

---

(1) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص103، 104، 105.

الراضـي[1] " يُنكِر عليهم فعلهم، و يوبِّخهم باعتقاد التشبيه وغيره؛ فمنـه أنّكم تزعمون أنَّ صـورة وجوهكم القبيحـة ...على مِثال ربِّ العالمين ... ثم طعنكم على خِيار الأئمَّة، ونسبتكم شيعة آل محمد إلى الكُفر والضّلال..." وتدَّعون لأحمد بن حنبل " معجزات الأنبياء و كرامات الأولياء."[2]

وقد ذكر ابن الأثير التوقيع و " سكت عن الاتّهامات الموجهة ضدَّ الحنابلة " بسبب " خلفيَّته المذهبية الأشعرية"، وهذه الاتّهامات الباطلة أخطرها اتّهامهم " باعتقاد التشبيه و التجسيم في ذات الله تعالى" وأنّهم يُشبِّهون الله عزَّ وجلَّ " بمخلوقاته، وهذا طعنٌ فيهم... وتنفيرٌ منهم و ازدراءٌ بهم". و لا وجود لهذه الاتّهامات " في مؤلَّفات الحنابلة ...؛ فهم لا يعتقدون التشبيه ...، و إنَّما يُثبتون من الصفات ما أثبته الشرع لله تعالى من صفات"، ومُؤلَّفاتهم تدلُّ على ذلك؛ قال البَرْبَهاري في " شرح السُّنة": "... ولا يُتَكلَّم في الربِّ إلاّ بما وصف به نفسه عزَّ وجلَّ في القرآن، وما بيَّن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابه وهو جلَّ ثناؤه واحد " ليس كمِثْله شيء وهو السميع البصير" ...". وقال ابن تيمية: : " قال الإمام أحمد: لا يوصَف الله إلاّ بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله " ونعلم " أنَّ ما وصف الله به من ذلك، فهو ليس فيه لغز ... بل معناه يُعرَف من حيث يُعرَف مقصود المُتكلِّم بكلامه ... وهو سبحانه ... ليس كمِثْله شيء، لا في نفسه المُقدَّسة المذكورة بأسمائه وصفاته، و في أفعاله، فكما نتيقّن أنّ الله سبحانه له ذات حقيقية، ...فكذلك له صفات حقيقية، وهو ليس كمِثْله شيء لا في ذاته ولا في صفاته...".[3]

و نصُّ التوقيع الذي ذكره ابن الأثير يختلف عن نصِّ التوقيع الوارد في تاريخ ابن مسكويه[4]، وهو النصُّ الأصلي، و لا " يوجد فيه المقطع الذي اتّهم الحنابلة باعتقاد التشبيه..."، وكان ابن مسكويه قريبا

[1] – الخليفة العباسي الراضي بالله محمد بن المقتدر بالله بن المُعتضِد، خلافته بين عامي (322– 329هـ) (934–941م). (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 34).

[2] – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص 113، 114.

[3] – خالد كبير علال، **مواقف المؤرخ ابن الأثير من الحنابلة**، ص 8، 9، 11، 18. و أبو الحسين بن أبي يعلى الفراء، المصدر السابق، ج3، ص37، 39. و تقيّ الدين ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، ج5، ص 20.

[4] – هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب (ت 421هـ/ 1030م)، صنَّف في التاريخ كتاب " تجارب الأُمَم" ، توقف فيه عند سنة 369هـ/ 879 م. (أنظر: صلاح الدّين الصَّفَدي، المصدر السابق، ج8، ص 73، 74.)

زمنيا من سنة إصدار التّوقيع، وهي سنة 323هـ/ 935م، حيث كانت وفاته عام 421هـ/ 1030م و نقَل التّوقيع كلّه، في حين توفي ابن الأثير سنة 630هـ/ 1232م، وقد تعرَّض التّوقيع للتغيير قبل عصره. و لم يُعلِّق المُصنِّف على ما نقل من اتّهامٍ للحنابلة أنّهم يَدَّعون لأحمد بن حنبل " معجزات الأنبياء"، فلا وجود لذلك في مُصنَّفاتهم و أخبارهم و سِيَر أعلامهم وما كتبوه من تراجم لأحمد، مثل الترجمة التي في " طبقات الحنابلة " لأبي الحسين بن أبي يعلى الفرّاء.(1)

ولفظ " الأئمّة " الوارد في عبارة: "... ثم طعنكم على خِيار الأئمة." يُشير إلى الأئمّة الإثني عشر الذين يعتقد الإثنا عشرية أنَّ الإمامة فيهم بالنصِّ؛ حيث نجد بعد العبارة المذكورة: "... ونسبتكم شيعة آل محمد صلّى الله عليه وسلّم إلى الكُفر و الضلال...، و إنكاركم زيارة قبور الأئمّة...". ولا شكَّ في أنّ الحنابلة لم يطعنوا في الأئمّة الإثني عشر، بل نقدوا انحرافات الشيعة الإثني عشرية، ومصنَّفاتهم تدلُّ على ذلك، مثل " شرح السُّنة " للبَرْبَهاري؛ فقد أشار في موضع منه إلى جانب من عقيدة الشيعة، وذكر بعض الأئمّة دون طعن فيهم، وقال في موضع آخر: "... ونعرف لبني هاشم حقَّهم لقرابتهم من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم." كما لم يطعن عبد الرحمان ابن الجَوْزي في الأئمّة لمَّا ذكرهم في تاريخه (المُنتظَم)؛ فقال – مثلا– في ترجمة محمد الباقِر: "... كان عالما زاهدا عابدا."(2)

أمَّا باقي المعطيات التي أوردها ابن الأثير من قوله: ... وفيها عَظُم أمر الحنابلة" حتّى "... فيضربونه بعِصيِّهم حتى يكاد يموت." فتختلف عمَّا ورد في مصادر أخرى؛ قال ابن الجَوْزي في حوادث سنة 323هـ/ 935م: "... وفي يوم السبت لعشر خلون من جمادى الآخرة ركب" صاحب الشرطة " فنادى ببغداد في الجانبين في أصحاب أبي محمد البَرْبَهاري ألاّ يجتمع منهم نفسان في موضع، وحُبِس

(1) – خالد كبير علال، **مواقف المؤرخ ابن الأثير من الحنابلة**، ص 8، 9 ، 10، و أحمد ابن مسكويه، **تجارب الأمم و تعاقب الهمم**، ج5، (تحقيق: أبو القاسم إمامي)، ط2، مطبعة سروش، طهران– إيران، 1422هـ/ 2000م، ص 414، 415. و أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج1، ص ص 8– 44.

(2) – أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر نفسه، ج 3، ص54، 72، 73. و عبد الرحمان ابن الجَوزي، المصدر السابق، ج7، ص 161. و ج8، ص 111.

منهم جماعة و استتر البَرْبَهاري." و ذكر أبو الحسين بن أبي يعلى في ترجمة البَرْبَهاري أنَّ خصوم هذا الأخير حرَّضوا عليه الراضي حتى أمر صاحب الشرطة بالنّداء " ببغداد أن لا يجتمع من أصحاب البَرْبَهاري نفسان." [(1)]

وتطرَّق ابن الأثير في ذِكْره حوادث عام 334هـ/ 945م إلى تسلُّط مُعزّ الدولة البُوَيهي[(2)] على الخليفة العباسي المُطيع لله[(3)]، ثم علَّق على ذلك فقال: "... و ازداد أمر الخلافة إدبارا، ولم يبق لهم من الأمر شيء البَتّة...، بحيث أنَّ الخليفة لم يبق له وزير... وصارت الوزارة لمُعزِّ الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان من أعظم الأسباب في ذلك " أنَّ البُويهيين " يتشيَّعون ويُغالون في التشيّع، و يعتقدون أنَّ العباسيين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مُستحِقّيها، فلم يكن عندهم باعث ديني يحثُّهم على الطّاعة....".[(4)] فصرّح المُصنِّف بأنّ البُويهيين " يُغالون في التشيّع "، وذلك إنصافٌ منه؛ لأنَّ أعمالهم تدلُّ على ذلك، وقد قال ابن كثير عنهم: " ... فيهم تشيُّع شديد"، وذكر أنَّ مُعزّ الدولة قد "...أظهر الرّفْض." وذكر الذهبي في حوادث عام 352هـ/ 963م أنَّ مُعزّ الدولة ألزم " أهل بغداد بالنّوْح و المأتم على الحسين بن علي رضي الله عنه...".[(5)]

وقال المُصنِّف في حوادث عام 363هـ/ 974م: "... ووقعت فِتنة عظيمة بين السُّنة و الشيعة " في بغداد " وحمل أهل سوق الطعام – وهم من السُّنة– امرأة على جمل وسمّوها عائشة، وسمّى بعضهم نفسه طلحة، و بعضهم الزبير، وقاتلوا " الشيعة " وجعلوا يقولون: نقاتل أصحاب علي بن أبي طالب، وأمثال

---

(1) – أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج3، ص 78، 79. وعبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المُنتظم**، ج13، ص 349.

(2) – هو أبو الحسن أحمد بن بُويه الملقّب بمعزّ الدولة (توفي في بغداد عام 356هـ/ 967م). و البُويهيون يُنسبون إلى أبي شجاع بُويه بن فناخسرو (توفي خلال النّصف الأوّل من القرن 4 هـ/ 10م)، و كان ابتداء دولتهم عام 321هـ/ 933م في بلاد الجبل و استولوا على بغداد عام 334هـ/ 945م، فلم يبق للخلفاء معهم " أمر و لا نهي و لا وزير...". (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6 ، ص 219، 220، 255، 256.)

(3) – الخليفة العباسي المُطيع لله الفضل بن المقتدر بن المُعتضد، خلافته بين عامي (334 – 363هـ)(945–974م). (أنظر: فاروق فوزي، **الخلافة العباسية**، ج2، ط1، دار الشروق، رام الله – فلسطين، 1420هـ/ 1998م، ص 274.)

(4) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص207، 208.

(5) – عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6 ، ص 256، 308. و شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج 2، ص89.

هذا من الشرّ...".[1] فأنكر المُصنِّف هذا العمل الشنيع الذي صدر من بعض عوامّ أهل السُّنة، وكان لمؤرِّخين آخرين موقف مماثل؛ ومنهم ابن كثير حيث قال: "... و وقعت فتنة كبيرة ببغداد بين أهل السُّنة والرّافضة، وكِلا الفريقين قليلُ عقلٍ بعيدٌ عن السداد؛ وذلك أنَّ جماعة من أهل السُّنة أركبوا امرأة وسمَّوها عائشة... وقالوا: نقاتل أصحاب علي بن أبي طالب."[2]

وقد لاحظنا أنَّ ابن الأثير أشار في عدَّة مواضع إلى عقائد بعض الأعلام الذين ذكر وفياتهم؛ فمِن ذلك قوله في وفيات عام 128هـ/ 746م: " وفيها توفي جابر بن يزيد[3] ...، وكان من غُلاة الشيعة يقول بالرَّجعة." أي رجعة علي بن أبي طالب إلى الدنيا. وقال في وفيات عام 209هـ/ 824م: " ...وفيها توفي أبو عُبَيدة معمر بن المُثنّى " البَصْري النحوي " وقيل: سنة ستة عشر، وكان يميل إلى مقالة الخوارج...". كما قال في وفيات سنة 213هـ/ 828هـ: "... وفيها...عبد الله بن موسى[4] ...الفقيه وكان شيعيا...". وقال في وفيات سنة 246هـ/ 860م: " ...وفيها توفي دعبل بن علي الخُزاعي[5] وكان مولده سنة ثمان و أربعين ومائة، وكان يتشيَّع...". ولمَّا تحدَّث المُصنِّف عن مقتل زكرويه القرمطي[6](294هـ/ 907م) جعل العنوان الآتي: " ذِكْر قتل زكرويه لعنه الله "، وقال: "...ووصل عسكر الخليفة إلى عدوِّ الله زكرويه فضربه بعض الجُنْد وهو مولٍّ بالسيف على رأسه و أخذه أسيرا...".[7] فذمَّه المُصنِّف لأنَّ القرامطة من

---

(1) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص 340.

(2) – عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 322.

(3) – المُحدِّث جابر بن يزيد الكوفي، حدَّث عن بعض كبار التابعين، توفي عام 128هـ/ 746م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج3، ص 385.)

(4) – عُبَيد الله بن موسى بن باذام الكوفي " الحافظ المقرئ الشيعي"، توفي عام 213هـ/ 828م. (أنظر: المصدر نفسه، ج5، ص 389.)

(5) – الشاعر المشهور دعبل بن علي الخُزاعي الشيعي. و الخُزاعي: نسبة إلى قبيلة خُزاعة. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 352. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج5، ص106.)

(6) – ظهرت حركة القرامطة عام 278هـ/ 891 م، و لفظ " القرامطة " قيل أنَّه نسبة إلى رجل من دُعاتهم يقال له: حمدان بن قرمط وقيل غير ذلك. قال ابن الجَوْزي في حوادث السنة المذكورة: "... و فيها وردت الأخبار بحركة قوم يعرفون بالقرامطة، وهم الباطنية... تبعوا طريق المُلحدين وجحدوا الشرائع." (أنظر: عبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المُنتظم**، ج12، ص 287.)

(7) – عزُّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج5، ص23، 474، 490، و ج6، ص135، 433، 434.

الباطنية، وكانت لهم أعمال شنيعة؛ مثل مهاجمتهم الحُجَّاج في مكَّة عام 317هـ/ 929م، " فسفكوا ... دماء الحجيج في وسط " المسجد الحرام وفي " رحاب مكَّة و شعابها...". قال ابن الجَوْزي: "...أنّ مقصودهم الإلحاد و تعطيل الشرائع، وهم يستدرجون الخَلْق إلى مذاهبهم بما يقدرون عليه."[1]

وذكر ابن الأثير في وفيات عام 355هـ/ 966م أبا بكر محمد بن عمر بن محمد المعروف بابن الجعابي "الحافظ البغدادي" فقال: "... كان يتشيَّع." و ذكر أنَّ أبا محمد عُبَيد الله بن أحمد بن معروف البغدادي المتوفّى في بغداد عام 381هـ/ 991م " كان معتزليا." كما ذكر أنَّ أبا جعفر محمد بن أحمد بن العباس بن أحمد النقاش البغدادي (ت 379هـ/ 989م) "كان من مُتَكلِّمي الأشعرية." وقال في وفيات سنة 385هـ/ 995م: "... و فيها توفي " الشاعر" محمد بن عبد الله بن سكرة الهاشمي" البغدادي " وكان مُنحرفا عن علي بن أبي طالب عليه السلام...". ولاحظنا أنَّ ابن الأثير ذكر هذا التنبيه في عدَّة مواضع. كما لاحظنا أنَّه لم يُشر في مواضع كثيرة إلى مذاهب المترجَم لهم، سواء في الجانب العَقَدي أو الفقهي.[2]

وتجدر الإشارة إلى أنَّ المُصنِّف قد ذكر معطيات كثيرة متعلِّقة بالمذاهب ولم يُعلِّق عليها؛ فمنها ما أورده في حديثه عن " الاختلاف في أوَّل من أسلم "، حيث قال: "... رُوي عن عليٍّ عليه السلام أنَّه قال: أنا عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصدِّيق الأكبر، لا يقولها بعدي إلاّ كاذب مُفتَر، صلّيت مع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قبل الناس بسبع سنين."[3] وهذا الكلام لم يصح عن علي رضي الله عنه،[4] وقد وضع رواة من الشيعة روايات كثيرة ونسبوها إليه. وقال المُصنِّف في حوادث عام 34هـ/ 654 م في حديثه عن " ابتداء قتل" الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه: " في هذه السنة تكاتب نفرٌ من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وغيرهم بعضهم إلى بعض أن أقدموا فإنَّ الجهاد عندنا، وعَظُم الناس على

---

(1) – عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية،** ج6، ص119، 207. وعبد الرحمان ابن الجَوزي، **المُنتظم،** ج12، ص 293.

(2) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص296، 457، 442، 475.

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص 582.

(4) – محمد الرملي ، **أحاديث السنن الأربعة الموضوعة بحكم العلامة الألباني،** ط1، دار ابن عفان، القاهرة – مصر، 1422هـ/ 2001م، ص39.

عثمان ونالوا منه... فاجتمع الناس فكلَّموا عليّ بن أبي طالب، فدخل على عثمان فقال له: ... و إنَّ شرّ الناس عند الله إمامٌ جائرٌ ضلَّ وأضلَّ، فأمات سُنَّة معلومة، و أحيا بِدْعة متروكة...، و إنِّي أحذِّرك الله و سطواته...".[1] ولا رَيْب في عدم صحَّة الأخبار الواردة في هذا النصِّ، بما في ذلك الكلام المنسوب إلى عليٍّ (رضي الله عنه)؛ قال ابن كثير:"... وتكاتب أهل مصر و أهل الكوفة و أهل البصرة و تراسلوا و زُوِّرت كُتُبٌ على لسان الصحابة الذين بالمدينة " تتضمّن الحثّ على قتال عثمان. و ذكر الذهبي أنَّ الواقِدي[2] الذي روى هذه الأخبار "... قد انعقد الإجماع... على أنَّه ليس بحُجَّة." وقال أنَّه " ضعيف"[3].

وذكر ابن الأثير في حديثه عن " مسير من سار إلى حَصْر عثمان" سنة 35هـ/ 655م أنَّ عثمان خطب الناس في المدينة فقال " له عمرو بن العاص[4]: " اتّق الله يا عثمان فإنّك ركبت أمورا و ركبناها معك، فتُب إلى الله ... وخرج عمرو...إلى منزله بفلسطين وكان يقول: والله إنّي كنت لألقى الراعي فأُحرِّضه على عثمان...". وذكر ابن الأثير أنَّ عليّ بن أبي طالب لم يكن – في ما قيل– عند حَصْر عثمان في المدينة، فقدم " والناس مجتمعون عند طلحة "، فأخبره عثمان أنَّ طلحة يريد "أن ينتزع" الخلافة منه، فذهب عليّ إلى دار طلحة " وهو في خلوة من الناس فقال له: يا طلحة ما هذا الأمر الذي وقعت فيه؟ "، وانصرف حتى أتى بيت المال، فأعطى الناس " فانصرفوا من عند طلحة حتى بقي وحده، وسُرَّ بذلك عثمان. و جاء طلحة فدخل على عثمان وقال له: يا أمير المؤمنين أردتُ أمرا فحال الله بيني و بينه فقال عثمان: والله ما جئت تائبا ولكنّ جئت مغلوبا، الله حسيبك يا طلحة." كما ذكر ابن الأثير في حديثه عن " مقتل عثمان" (35هـ/ 655م) رواية فيها أنَّ طلحة مرَّ على الذين حاصروا عثمان " فقال: أين ابن

---

(1) – عزُّ الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص 43، 44.

(2) – هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقِد المَدَني الواقِدي " صاحب ...المغازي"، وُلد عام 129هـ/ 747م، و توفي في بغداد عام 207هـ/ 822 م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج9، ص 454.)

(3) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص 292، و شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج9، ص 469، و **تاريخ الإسلام**، ج5، ص 182.

(4) – الصحابي الشهير عمرو بن العاص بن وائل القُرَشي، توفي في مصر عام 43هـ/ 663م. (أنظر: عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 506).

عُديس[1]، فقام إليه فناجاه، ثم رجع ابن عُديس فقال لأصحابه: لا تتركوا أحدا يدخل على عثمان، ولا يخرج من عنده "، فقال عثمان لرجلٍ عنده " هذا ما أمر به طلحة، اللهمّ اكفني طلحة[2]...". و لم يُعلِّق المُصنِّف على هذه الأخبار، ومن الجليّ أنّها غير صحيحة؛ وقد بيَّن المُحقِّقون أنَّ الروايات التي اتّهمت الصحابة بالتحريض ضدَّ عثمان " والمشاركة في قتله هي روايات غير صحيحة." و أكَّد على براءة الصحابة – ومنهم طلحة– ممَّا نُسِب إليهم ابن كثير وغيره.[3]

ولم يُعلِّق المُصنِّف على معطيات أخرى متعلّقة بالمذاهب، منها ما ذكره في حوادث عام 241هـ/ 855م، حيث قال: " ... و قيل فيها: إنّه أُنهي إلى المُتوكِّل " أنَّ أحد أعيان بغداد " يشتم أبا بكر وعمر وعائشة...فكتب " إلى عامله " أنْ يضربه بالسياط، فإذا مات رمى به في دجلة، ففعل ذلك وأُلقي في دجلة." ومنها ما ذكره في حديثه عن دخول عُبَيد الله المَهدي إلى رقادة[4] عام 297هـ/ 910م حيث قال: " ... وجلس بعد الجمعة رجلٌ... ومعه الدُّعاة ... وأحضروا الناس بالعنف والشدة، ودعوهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه، ومن أبى حُبِس... وقُتل كثيرٌ مِمّن لم يوافقهم على قولهم." ومنها كذلك ما ذكره عن الفتنة التي حدثت عام 317هـ/ 929م في بغداد بين الحنابلة " وبين غيرهم من العامّة "، بعدما اختلفوا في تفسير آية، قال المُصنِّف: "... فوقعت الفتنة و اقتتلوا فقُتل بينهم قتلى كثيرة."[5]

ونُشير إلى معطيات أخرى متعلّقة بالمذاهب لم يُعلِّق ابن الأثير عليها؛ منها ما أورده في ذِكر وفاة

---

[1] – هو أبو محمد عبد الرحمان بن عُديس بن عُبيد البَلَوي (ت 36هـ/ 656م)، و "البَلَوي": نسبة إلى "بَلِي"، وهي قبيلة عربية. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج2، ص 298. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج2، ص 300).

[2] – عزّ الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج3، ص46، 54، 55، 57، 58، 64.

[3] – خالد كبير علال، **بحوث حول الخلافة و الفتنة الكبرى**، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 1430هـ/ 2009م، ص 126، 127. وعِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص292، 316، 317، 365.

[4] – رقادة: بلدة كانت في إفريقية و خربت خلال (ق4هـ/ 10م) " ولم يبق منها شيء غير بساتينها". (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 55، 56.)

[5] – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج6، ص 124، 461، و ج7، ص57.

المُعزّ مَعَدّ بن إسماعيل[1] (سنة 365هـ/975م) حيث قال: "...وكان سبب موته أنّ ملك الروم... أرسل إليه رسولا...، فقال له المُعزُّ: أَتَذْكر إذْ أتيتني رسولا وأنا بالمهدية، فقلت لك: لتدخلنَّ عليَّ وأنا بمصر مالكا لها؟ قال : نعم، قال: وأنا أقول لك لتدخلنَّ عليَّ بغداد و أنا خليفة، فقال له الرسول: ... بعثني إليك المَلِك ذلك العام " فوصلت " إلى قصرك فرأيت نورا عظيما غطّى بصري، ثم دخلت عليك فرأيتك على سريرك فظننتك خالقا ... ثم جئت إليك الآن فما رأيت من ذلك شيئا...، فقلت: إنَّ ذلك كان أمرا مُقبِلا وأنّه الآن بضدِّ ما كان عليه، فأطرق المُعزُّ" ومرض " لشدَّة ما وجد، واتّصل مرضه حتى مات."[2] فعبارة " فرأيت عليك نورا ... فظننتك خالقا." تدلُّ على أنَّ هذا الخبر باطلٌ؛ ولذلك لم يذكره الذهبي لمَّا تطرَّق لوفاة المُعزِّ، كما لم يذكره ابن كثير.[3]

وقد وصف ابن الأثير سيرة المُعزِّ بأنّها حسنة، وأنَّه " ستر ما يدعون إليه[4] إلاّ عن الخاصَّة، ثم أظهره وأمر الدُّعاة بإظهاره ...".[5] و الحقيقة أنَّ أعمال المُعزِّ تدلُّ على أنَّ سيرته لم تكن كما ذكر المُصنِّف؛ فقد قال الذهبي بعدما ذكر دخول المُعزِّ إلى مصر: "... ظهر هذا الوقت الرّفْض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحِجاز والغرب...". وقال: "... و هو أوَّل من تمَلَّك ديار مصر من بني عُبَيْد الرافِضة...". كما قال في حوادث عام 364هـ/ 974 م: "... وفي هذه السنين و بعدها كان الرّفْض يغلي و يفور بمصر والشام والمغرب ...لا سِيّما بالعُبَيدية الباطنية قاتلهم الله." وقال ابن الجَوْزي:

---

[1] – هو مَعَدّ بن المنصور إسماعيل بن القائم بن عُبَيد الله المهدي، " و هو أوَّل من تملّك مصر" من ذرِّية عُبَيد الله، فدخل جيشه إليها عام 358هـ/ 969م، ثم انتقل المُعزُّ من إفريقية إلى مصر عام 361هـ/ 972م. (أنظر: عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 330، 331.)

[2] – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج7، ص360.

[3] – شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج15، ص ص 159، 166. و **تاريخ الإسلام**، ج8، ص ص 247- 249. و عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص330، 331.

[4] – أي : عقيدة الباطنية الإسماعيلية. (أنظر: سليمان السلومي، المرجع السابق، ص 278).

[5] – عزّ الدين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج7، ص 361.

"...وكان بطاشا، أحضر يوما أبا بكر النابلسي [1] الزاهد ... فقال له: بلغنا أنّك قلت: إذا كان مع الرجل المسلم عشرة أسهم وجب أنْ يرمي في الروم سهما واحدا وفينا تسعة." فقال النابلسي: " قلت: إذا كان معه عشرة وجب أنْ يرميكم بتسعة، و يرمي العاشر فيكم أيضا؛ فإنّكم غيَّرتم المِلَّة ..."، فأمر المُعزُّ " أنْ يُشهر، فشُهر في اليوم الأوَّل، وضُرِب بالسياط في اليوم الثاني، وأُخرج في اليوم الثالث فسُلِخ، سلخه رجلٌ يهوديٌّ، وكان يقرأ القرآن ولا يتأوَّه." فبلغ اليهودي في سلخه – رحمه الله– إلى تلقاء قلبه ثم طعنه فقتله.[2] وقال ابن كثير بعدما ذكر استيلاء أحد أمراء المُعزِّ على دمشق عام 358هـ/ 969م: " ... وكُتِبت لعنة " أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب " رضي الله عنهما ... على أبواب الجوامع... فإنّا لله و إنّا إليه راجعون."[3]

-ب- مظاهر النّزعة المذهبية من خلال عرض المُصنِّف لحوادث وتراجم (ق 5-6-7هـ/ 11-12-13م):

تطرَّق المُصنِّف لمَّا عرض حوادث عام 420هـ/ 1039م إلى فتنة وقعت بين أهل السُّنة والشيعة في بغداد فقال: "... وفيها قُطِعت الجمعة من جامع براثا[4]، وسببها أنَّه كان يخطب فيه إنسان فيقول في خطبته " أنّ الخليفة علي بن أبي طالب " مُكلِّم الجُمجمة ومُحييها البشري الإلهي مُكلِّم الفتية أصحاب الكهف إلى غير ذلك من الغلوِّ المُبتدَع، فأقام الخليفة[5] خطيبا فرجمه العامّة ، فانقطعت الصلاة

(1) – هو " الزاهد العابد " أبو بكر محمد النابلسي، وقد وصف ابن كثير كذلك الكيفية الفظيعة التي عُذّب بها وقُتل عام 364هـ/ 974م، و قال: " ... و إليه يُنسب بنو الشهيد من أهل نابلس إلى اليوم." (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 331. و خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص35).

(2) – شمس الدّين الذهبي، **السِّير**، ج15، ص 164. و **تاريخ الإسلام**، ج8، ص 185، 247. و عبد الرحمان ابن الجَوزي، **المُنتظم**، ج14، ص 245، 246.

(3) – عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص313.

(4) – براثا مَحلّة في بغداد فيها جامع للشيعة، فُرغ من بنائه عام 329هـ/ 941 م. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 362.)

(5) – الخليفة العباسي القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، خلافته بين عامي (381- 422هـ) (991-1031م). (أنظر: فاروق فوزي، المرجع السابق، ص 274.)

فيه."[1] و كان الخطيب الأوّل شيعيا والثاني سُنّيا. ونلاحظ أنَّ ابن الأثير قد وصف قول الخطيب الشيعي بـ " الغُلوّ المُبتدَع " نظرا لِما تضمَّنه من انحرافٍ عَقَدي. وقال في حوادث عام 429هـ/ 1038م: "... وفيها أنكر العلماء على أبي يعلى بن الفرّاء الحنبلي ما ضمَّنه كتابه[2] من صفات الله سبحانه وتعالى المشعرة بأنّه يعتقد التجسيم...تعالى الله عمَّا يقول الظّالمون عُلوًّا كبيرا." كما قال في حوادث عام 458هـ/ 1066م: "... وفي شهر رمضان منها توفي أبو يعلى ... وهو مُصنِّف كتاب الصفات ... وترتيب أبوابه يدلُّ على التجسيم المَحْض..."[3]. وقد تقدّم ذِكْر أبي يعلى الفرّاء، ونلاحظ أنَّ المُصنِّف " اتّهمه باعتقاد التشبيه[4] في صفات الله تعالى بناء على ما دوَّنه في كتابه "إبطال التأويلات"". والحقيقة أنَّ أبا يعلى " لم يكن يعتقد التشبيه و لا التجسيم، وله مُصنَّفات في الردِّ على " من يعتقد ذلك، لكنَّ كتابه " إبطال التأويلات " اشتمل على أحاديث ضعيفة وموضوعة " توهم التشبيه وبعضها صريح في ذلك"، لأنَّه " كان ضعيفا في عِلم الحديث لا يُميِّز بين صحيح الأحاديث من سقيمها." قال الذهبي: " ... لم يكن للقاضي أبي يعلى خِبرة بعِلَل الحديث ولا برجاله؛ فاحتجَّ بأحاديث كثيرة واهية ... لعدم بصره بالأسانيد والرجال." وقد أكَّد أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء على براءة أبيه من التشبيه فقال: "... قال الوالد... في أخبار الصفات: المذهب في ذلك قبول هذه الأحاديث على ما جاءت به ...مع الاعتقاد بأنّ الله سبحانه بخلاف كلّ شيء سواه ... ولا يوصف بصفات المخلوقين." وقال: " اعتقد الوالد ...ومن قبله من سَلَفه من الأئمّة أنَّ إثبات صفات الباريء سبحانه إنّما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وكيفية "، وأنَّ الله سبحانه " لا شبيه

---

(1) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص185.

(2) – كتاب: " إبطال التأويلات لأخبار الصفات." (أنظر: أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج3، ص 384.)

(3) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج8، ص 228، 378.

(4) – أهل الحديث يُعرِّفون التشبيه بأنّه " إثبات الصفات لله وادّعاء مماثلتها لصفة المخلوق"، فينكرون على المشبِّهة الذين يجعلون صفات الله كصفات خلقه . أمّا الأشاعرة فيعتبرون التشبيه بأنّه " إثبات الصفات الخبرية التي وردت في الكتاب والسنة كالاستواء على العرش و النزول، و لا يعدّون الصفات السبع التي أثبتوها تشبيها...، و لا شك أنّ المفهوم الصحيح لمعنى التشبيه هو ما ذهب إليه أهل الحديث ...؛ لأنّ مفهومهم مأخوذ من قوله تعالى : " ليس كمِثله شيء و هو السميع البصير." " (أنظر: فيصل الجاسم، المرجع السابق، ص 411. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 154، 155.)

له في ذاته ولا في صفاته." أمّا قول ابن الأثير: " وفيها أنكر العلماء " فيه " تعميم لا يصحُّ؛ لأنَّ الذين أنكروا " هم أعيان الأشاعرة لا كافَّة علماء بغداد.[1]

و لمّا ذكر ابن الأثير مقتل الوزير عميد المُلْك[2] (عام 456هـ/ 1064م) قال: "... وكان شديد التعصُّب على الشافعية ... بلغ من تعصُّبه أنّه خاطب السلطان في لَعْن الرافضة على منابر خُراسان فأذن في ذلك، فأمر بلعنهم وأضاف إليهم الأشعرية، فأنف من ذلك أئمَّة خُراسان، منهم الإمام أبو القاسم القُشَيري[3] والإمام أبو المعالي الجُويني وغيرهما ففارقوا خُراسان."[4] ويُفهَم من هذا النصّ أنَّ كافَّة الشافعية كانوا أشاعرة، لكنَّهم لم يكونوا كذلك؛ فمنهم من كان على عقيدة أهل الحديث، ومنهم من كان أشعريا، سواء خلال (ق5هـ/ 11م) الذي وقع خلاله الحدث أو بعده؛ فخلال هذا القرن نجد " إمام الشافعية في زمانه " أبا حامد الإسفراييني من أهل الحديث، وكان يُحذِّر في بغداد من أهل الكلام.[5]

وقول المُصنِّف أنَّ أئمَّة خُراسان قد فارقوها بسبب ما أمر به الوزير تعميم لكلِّ أئمّة خُراسان، في حين أنَّ الذين ارتحلوا عنها هم بعض أعيان الأشاعرة كأبي المعالي الجُويني وعبد الكريم القُشَيري. وقد رجعا إلى خُراسان، وكانت وفاتهما في نَيْسابور.[6]

وقال ابن الأثير في حوادث عام 466هـ/ 1073م تحت عنوان " ذِكْر عدة حوادث": " ... وفيها في

---

(1)– خالد كبير علال، **مواقف المؤرخ ابن الأثير من الحنابلة**، ص11، 12، 13. و أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج3، ص 361، 370، 388، 390، 392.

(2) – الوزير عميد المُلك أبو نَصْر محمد بن منصور بن محمد الكندري، نسبة إلى قرية كندر الواقعة في نواحي نَيْسابور، وهو وزير السلطان السُّلجوقي طُغرلبك بن ميكائيل بن سُلجوق (ت 455هـ/ 1063م)، ثم ابن أخيه السلطان ألب أرسلان بن جغـري (ت 465 هـ/ 1072م). و قد تغيّر هذا الأخير على عميد المُلك فقتله عام 456هـ/ 1064م. و كان ظهور السلاجقة خلال النِّصف الأوَّل من (ق5هـ/ 11م)، و دخلوا بغداد عام 447هـ/ 1055م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي ، **السِّيَر** ج18، ص 113، 114. و فاروق فوزي، المرجع السابق، ج2، ص 165، 280.)

(3) – هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد المَلِك بن طلحة القُشَيْري المتوفّى في نَيْسابور عام 465هـ/ 1072م. و "القُشَيْري": نسبة إلى قبيلة بني قُشير. (أنظر: عماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 503. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج10، ص 153.)

(4) – عزّ الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 365.

(5) – عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص401. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 12، 13.

(6) – عِماد الدّين ابن كثير، **طبقات الشافعيين**، ص 421، 422، و **البداية و النهاية**، ج6، ص503، 521.

ربيع الأوّل توفي القاضي أبو الحسين بن أبي جعفر السمناني[1]، وكان هو وأبوه[2] من المُغالين في مذهب الأشعري، ولأبيه فيه تصانيف كثيرة...".[3] ونلاحظ أنَّ المصنِّف رغم كونه أشعريا إلاَّ أنَّه اعتبرهما من " المُغالين في مذهب الأشعري"، وهذا إنصافٌ منه. ونُشير إلى أنَّ ابن حَزْم[4] قد نقد أبا جعفر السمناني نقدا مطوّلا.[5]

وأشار ابن الأثير لمَّا ذكر حوادث سنة 470هـ/ 1077م إلى وفاة عبد الرحمان بن محمد بن إسحاق الأصْبهاني الحنبلي المعروف بعبد الرحمان ابن مَنْده، فقال: "... له تصانيف كثيرة ...، وله طائفة يُنسبون إليه في الاعتقاد من أهل أصبهان يُقال لهم العبد رحمانية."[6] وكان ابن مَنْده من أهل الحديث وقد قال ابن رَجَب عنه: " ... و بأصْبهان طائفة من أهل البِدَع ينسبون إلى ابن مَنده هذا أقوالا في الأصول و الفروع هو منها بريء."[7]

وقال ابن الأثير لمَّا أشار إلى تولِّي أبي المعالي عزيزي بن عبد المَلِك بن منصور الجِيلي (ت494هـ/ 1101م) قضاء باب الأزج[8] عام 486هـ/ 1093م: "... وكان أبو المعالي شافعيا أشعريا مُغاليا، وله مع أهل باب الأزج أقاصيص و حكايات عجيبة."[9] وقد نبَّه المُصنِّف – رغم أنَّه أشعريٌ –

---

(1) – هو أبو الحسين أحمد بن محمد بن أحمد السمناني، نسبة إلى سمنان، وهي بلدة في العراق، كانت وفاته في بغداد عام 466هـ/ 1073م. و قد ولي نيابة القضاء في بعض نواحي العراق. (أنظر: عبد القادر القُرَشي، المصدر السابق، ج1، ص 254، 255. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 252.)

(2) – هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن محمد السمناني، ولي القضاء في الموصل و توفي فيها عام 444هـ/ 1052م. (أنظر: عبد القادر القُرَشي، المصدر نفسه، ج3، ص57.)

(3) – عزّ الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 404، 405.

(4) – الفقيه الشهير أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حَزْم بن غالب القُرطبي الأندلسي "الحافظ"، له مُصنَّفات مشهورة، منها "الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل"، توفي عام 456هـ/ 1064م. (أنظر: عماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 487).

(5) – علي ابن حَزْم الأندلسي، **الفِصَل**، ج5، (تحقيق: محمد نصر و عبد الرحمان عميرة)، ط2، دار الجيل، بيروت– لبنان، 1416هـ/ 1996م، ص ص 77 – 80.

(6) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج8، ص 415.

(7) – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج1، ص62.

(8) – باب الأزَج: مَحلَّة في بغداد. (أنظر: خالد كبير علال، **التعصّب المذهبي**، ص 62.)

(9) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج8، ص 507، 432.

إلى غُلوِّ القاضي المذكور، و ورد في مصادر أخرى ما يدلُّ على تحامل هذا الأخير على أهل الحديث قال ابن كثير: " ...وكان بينه وبين أهل باب الأزَج من الحنابلة شنآن كبير؛ سمع رجلا ينادي على حمارٍ له ضائع فقال: يدخل باب الأزَج ويأخذ بيد من شاء. وقال يوما " لرجل من أعيان بغداد: " لو حلف إنسانٌ أنَّه لا يرى إنسانا فرأى أهل باب الأزَج لم يَحنث." فقال له الرجل: " من عاشر قوما أربعين يومًا فهو منهم." وقال ابن الجَوْزي: "... وكانت فيه حِدَّة وبذاءة لسان"، ثم ذكر إيذاءه لأهل باب الأزَج.[1]

وأشار ابن الأثير في ذِكْر وفاة عبد السلام بن محمد بن يوسف بن بندار المعروف بأبي يوسف القزويني (توفي في بغداد عام 488هـ/ 1095م) إلى أنَّه كان مُغاليا في الاعتزال". وقال في حديثه عن وفاة الفقيه أبي إسحاق الشيرازي الشافعي عام 476هـ/ 1083م: "... وكان رحمه الله واحد عصره علما و زُهدا وعبادة وسخاء...". فقدَّمه المُصنِّف على سائر أهل عصره في العلم والزُّهد والعبادة والسخاء، وفي ذلك مُبالغة ظاهرة، مع العلم أنّ عصره قد عرف وجود علماء كبار منهم ابن عبد البَر المالكي، و أحمد بن علي بن ثابت البغدادي الشافعي "الحافظ " المعروف بالخطيب البغدادي (توفي في بغداد عام 463هـ/ 1070م).[2]

وقال المُصنِّف في حوادث عام 497هـ/ 1103م: "... وفيها جمع بزغش[3] كثيرا من عساكر خُراسان و أتاه كثير من المتطوّعة، وسار إلى قتال الإسماعيلية[4] فقصد " إحدى قلاعهم " وأكثر فيهم القتل والنّهب والسَّبْي، و فعل بهم الأفعال العظيمة ...، ثم إنَّ بزغش بعد عوده من هذه الغزاة توفي، وكانت

---

(1) – عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 550، 551. و عبد الرحمان ابن الجَوزي، **المُنتظم**، ج17، ص 69، 70.

(2) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج 8، ص 507، 432. و شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 314، 315، 328.

(3) – أحد أمراء السلطان السُّلجوقي سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، سلطان خُراسان وما وراء النهر خلال الفترة (522–552هـ/ 1128–1157م). (أنظر: صلاح الدّين الصَّفَدي، المصدر السابق، ج15، ص 286، 287.)

(4) – استولى الإسماعيلية على عدّة قلاع في بلاد فارس، منها قلعة ألموت (في شمال بلاد فارس)، وكان استيلاؤهم عليها عام 483هـ/ 1090م. و يُعرَف هؤلاء بالحشاشين، ظهروا خلال النّصف الثاني من (ق5هـ/ 11م) واستمرّ وجودهم خلال (ق6–7هـ/ 12– 13م). (أنظر: فاروق فوزي: المرجع السابق، ج2، ص 189، 190).

خاتمة أمره الجهاد رحمه الله."[1] فاعتبر المُصنِّف محاربة الإسماعيلية جهادًا؛ لأنّهم من الباطنية، ولِمَا عُرفوا به من اغتيالات و أعمالٍ شنيعة، وكان زعيمهم الحسن بن الصباح (ت 518هـ/ 1124م) الذي تمركز في قلعة أَلَموت عام 483هـ/ 1090م، قال الذهبي لمَّا ذكر وفاته: " ... وكان داهية ماكرا زِنديقا من شياطين الإنس."[2]

و تطرَّق ابن الأثير في حوادث عام 499هـ/ 1126م تحت عنوان: " ذِكْر مُلك الإسماعيلية قلعة بانياس"[3]: " في هذه السنة عَظُم أمر الإسماعيلية بالشام و قويت شوكتهم وملكوا بانياس في ذي القعدة منها. وسبب ذلك " أنَّ أحد دُعاتهم قدم من العراق إلى الشام " و صار داعي الإسماعيلية فيه، وكان يتردّد ويدعو أوباش الناس ... إلى مذهبه، فاستجاب له منهم من لا عقل له، فكثر جَمْعه ... من كلِّ من يريد الشرَّ و الفساد...، فلولا أنَّ عامَّة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السُّنة، وأنّهم يُشدّدون "على الإسماعيلي " فيما ذهب إليه لَمَلك البلد، فطلب من طغتكين[4] حصنًا يأوي إليه هو ومن اتّبعه "، فسُلِّمت إليه قلعة بانياس، " فلمَّا سار إليها اجتمع إليه أصحابه من كلِّ ناحية، فعظُم حينئذ خَطْبه، وجلت المِحنة بظهوره، واشتدَّ الحال على الفقهاء و العلماء وأهل الدّين ... إلاّ أنّهم لا يقدرون على أن ينطقوا بحرف واحد خوفا من ... شرِّ الإسماعيلية...، فلم يُقدِم أحدٌ على إنكار هذه الحال، فانتظروا بهم الدوائر."[5] فقد اعتبر المُصنِّف هذا الحدث مِحنة، وذمَّ الإسماعيلي و أتباعه لانحرافهم وأعمالهم الشنيعة مثل الاغتيالات. وقد قال الذهبي في حوادث السنة المذكورة: " ... وفيها كَثُرت الإسماعيلية بالشام، وكان الناس و الكبار يخافونهم "، وسلَّم طغتكين " إلى رئيسهم ... بانياس، وتألّم الناس لذلك ...، فصار إليها

---

(1) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 75، 76.

(2) – شمس الدّين الذهبي ، **العِبَر**، ج2، ص 410. و فاروق فوزي، المرجع السابق، ج2، ص 189.

(3) – بانياس: بلدة من النواحي الغربية لحَمَاة. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 142.)

(4) – الأمير أبو منصور ظهير الدّين طغتكين، كان من أمراء السلاجِقة، ثم تملّك دمشق، و" له مواقف مشهورة مع الفِرنج " ، توفي عام 522هـ/ 1128م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج2، ص 416.)

(5) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج9، ص 235، 236.

تجمع إليه أوباش استغواهم ... فعظُمت بهم البَلية وتألَّم العلماء ...، وأحجموا عن الكلام فيهم ...لأنَّهم قتلوا جماعة من الأعيان، وصاروا بحيث لا يُنكر عليهم ملِك و لا وزير، فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله ...".[1]

وذكر ابن الأثير أنَّ أبا الفتوح أحمد بن محمد بن محمد الغزالي الطُّوسي الشافعي (وهو أخو أبي حامد الغزالي) قد توفي عام 520هـ/ 1126م، ثم قال: " ... وقد ذمَّه أبو الفَرَج بن الجَوْزي بأشياء كثيرة منها روايته في وَعْظه الأحاديث التي ليست له بصحيحة ... نسأل الله أن يُعيذَنا من الوقيعة في الناس. ثم يا ليت شِعْري أَمَا كان للغزالي حسنة تُذكر مع ما ذكر من المساوئ التي نسبها إليه لئلاّ يُنسَب إلى الهوى والغرض."[2] فأنكر المُصنِّف على المؤرّخ ابن الجَوْزي الحنبلي موقفه هذا و أرجعه إلى العامل المذهبي بقوله: لئلاّ يُنسَب إلى الهوى والغرض." وكان ابن الجَوْزي قد قال: " ...له نكت لطيفة، إلا أنَّ الغالب على كلامه التخليط و رواية الأحاديث الموضوعة والحكايات الفارغة والمعاني الفاسدة. وقد عُلِّق عليه كثيرٌ من ذلك، و ... رأينا من كلامه الذي عُلِّق عنه وعليه خطّه و إقراره بأنّه كلامه، فمن ذلك أنّه قال: قال موسى ربِّ أَرِني أنظر إليك، فقيل له: لن تراني. فقال: هذا شأنك تصطفي آدم ثم تُسوِّد وجهه وتخرجه من الجنّة، و تدعوني إلى الطّور ثم تشمت بي الأعداء، هذا عملك بالأخيار، كيف تصنع بالأعداء." ثم ذكر ابن الجَوْزي بعض ما قيل عنه، مثل زعمه " أنَّه يرى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عيانًا في يقظته لا في نومه."[3] و ورد في مصادر أخرى ما يدلُّ على أنّ ابن الجَوزي لم يتحامل على أبي الفتوح؛ فقد قال الفقيه أبو عمرو ابن الصلاح الشافعي: "... رأيتُ من وَعْظه أربع مُجلّدات، فإذا هي مشتملة على جَسارات[4] متأخِّري الصوفية وعَسفهم...". و ذكر الذهبي أنّه " شيخ مشهور فصيحٌ مُفوَّه ...ولكنَّه كان رقيق الديانة مُتكلِّما في عقيدته. "[5]

---

(1) – شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 169، 170.

(2) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 240.

(3) – عبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المنتظم**، ج17، ص 238، 239.

(4) – الجَسارة: جَسَر فلان على الشيء بمعنى أنّه أقدم عليه. (أنظر: مجمع اللغة العربية، المرجع السابق، ص 105.)

(5) – شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج11، ص 312. و**العِبَر**، ج2، ص 413.

وعرض ابن الأثير في حوادث عام 553هـ/ 1158م وقائع فتنة جَرَت في خُراسان بين " الفقيه المؤيد بن الحسين الموفقي [1] رئيس الشافعية "، و بين أصحاب أبي القاسم زيد بن الحسن العَلَوي[2] بسبب مقتل أحد أتباع العَلَوي على يد رجلٍ من أصحاب المؤيد، فنشب القتال في نَيْسابور، و " أُحرقت المدارس و الأسواق والمساجد و كَثُر القتل في الشافعية، فالتجأ " المؤيد إلى إحدى القلاع " وبطلت دروس الشافعية بنَيْسابور. " ثم عاد (المؤيد) ومعه أحد أمراء خُراسان فحاصروا نيسابور. قال المُصنِّف: " ... واشتدّ الخطب ... وسُفِكت الدّماء ... وبالغ الشافعية ومن معهم من الانتقام، فخرّبوا " مدرسة " لأصحاب أبي حنيفة وخرَّبوا غيرها ... وهذه الفتنة استأصلت نيسابور. "[3] ونلاحظ من خلال ذكر المصنّف لهذه الأحداث أنَّه كان مُنصِفًا؛ حيث ذكر ما ارتكبه كلّ من الشافعية وأتباع العَلوي.

ولمَّا تحدَّث ابن الأثير عن وفاة الفقيه عبد الكريم بن محمد بن منصور بن سَعْد المعروف بعبد الكريم السمعاني المَرْوزي الشافعي (توفي في مَرْو عام 563هـ/ 1167م)، ذكر أنَّ المؤرِّخ ابن الجَوْزي الحنبلي تكلّم فيه، ثم قال: " ... و إنَّما ذنبه عند ابن الجَوْزي أنّه شافعي، له أُسوة بغيره؛ فإنّ ابن الجَوْزي لم يُبْق على أحدٍ إلاّ مكسري الحنابلة." وذكر في موضع آخر أنَّ ابن الجَوزي " كان كثير الوقيعة في الناس لا سِيّما في العلماء المُخالفين لمذهبه و الموافقين له...". وعبارة " إلاّ مكسري الحنابلة " تتضمّن التحامل من المُصنِّف على الحنابلة، و يرجع ذلك إلى كونه أشعريا، في حين أنَّ معظم الحنابلة من أهل الحديث. وقد سبق و أن ذكرنا دور هذا العامل لمّا تطرّقنا إلى ما ذكره في حوادث عام 323هـ/ 935م.[4]

كما أنّ كلام ابن الأثير عن ابن الجَوْزي مبالغ فيه؛ فرغم أنّ هذا الأخير " قد انتقد كثيرا " من الذين

---

[1] – قُتل عام 556هـ/ 1161م في بلدة شارستان القريبة من نَيسابور، و كان قد سار مع أحد أمراء خُراسان لحصارها. (أنظر: عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 452.)

[2] – هو ذخر الدّين أبو القاسم زيد بن الحسن العلوي، كان " نقيب العلويين بنَيسابور "، و لم أقف على سنة وفاته. (أنظر: المصدر نفسه، ج9، ص 423.)

[3] –المصدر نفسه، ج 9، ص 423، 424.

[4] – المصدر نفسه، ج 10، ص 9، 276. و ج7، ص 113، 114.

ذكرهم في مُصنّفاته، " لكنَّه من جهة أخرى كان كثير الثناء على الأعيان و أهل العلم من الحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية، وهم كثيرون جدّا "، مثل الفقيه المُفسّر إسماعيل بن أحمد بن عبد الله النيسابوري الشافعي (ت431هـ/ 1039م)، والفقيه عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد البغدادي الشافعي المعروف بأبي نَصْر بن الدباغ (ت 477هـ/ 1084م). " وكما أنَّ ابن الجَوْزي انتقد" علماء من غير الحنابلة " فهو أيضا انتقد علماء من الحنابلة "؛ مثل ردِّه على المُحدِّث عبد المُغيث بن زُهير البغدادي الحنبلي (ت583هـ/ 1087م) بعدما اختلفا في إحدى المسائل.[1]

وتطرَّق ابن الأثير في ذكره حوادث عام 595هـ/ 1198م إلى مسير خُوارزم شاه[2] إلى بلاد الجبل و محاربته الإسماعيلية، فذكر أنَّه " اشتغل بقتال الملاحدة، فافتتح " إحدى قلاعهم وانتقل إلى حصار قلعة ألَموت، ثم عاد إلى خُوارزم " فوثب الملاحدة على وزيره[3]" فقتلوه.[4] و ذمَّ المُصنِّف الإسماعيلية فسمّاهم "الملاحدة "، حيث تُطلق عليهم المصادر التاريخية عدّة تسميات.[5]

وذكر ابن الأثير في حوادث عام 596هـ/ 1199م فتنة وقعت في مدينة مَرْو فقال: " في هذه السنة في جمادى الآخرة وثب الملاحدة الإسماعيلية على نِظام المُلك مسعود بن علي ..." فقتلوه، وكان " حسن السيرة شافعي المذهب، بنى للشافعية بمَرْو جامعا مُشرفا على جامع الحنفية، فتعصَّب شيخ الإسلام، وهو مُقدّم الحنابلة بها... وجمع الأوباش فأحرقه، فأنفذ خُوارزم شاه فأحضر شيخ الإسلام وجماعة ممّن سعى في ذلك فأغرمهم مالا كثيرا."[6]

(1) – خالد كبير علال، **مواقف المؤرّخ ابن الأثير من الحنابلة**، ص 15، 16. و عبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المنتظم**، ج16، ص 236، 237. و عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج2، ص348، 349.

(2) – السلطان علاء الدّين خُوارزم شاه تكش بن خُوارزم شاه أرسن بن أتسز، سلطان بلاد ما وراء النّهر و خُراسان والري. توفي عام 596هـ/ 1199م. (أنظر: عماد الدّين ابن كثير ، **البداية و النهاية**، ج7، ص 78.)

(3) – هو نِظام المُلك مسعود بن علي. قُتل عام 596هـ/ 1199م.(أنظر: عز الدين ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص 267.)

(4) – المصدر نفسه، ج10، ص 263.

(5) – سليمان السلومي ، المرجع السابق، ص 390. و شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 1091.

(6) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج10، ص 267.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ مصادر أخرى ذكرت أنَّ إحراق المسجد كان على يد بعض الحنفية، ذكر ذلك الذهبي وتاج الدين السُّبْكي، بالإضافة إلى أنّ " الخبر الذي رواه ابن الأثير... شاهد على وجود خلل فيه" حيث نصَّ على أنّ المسجد الذي بُني للشافعية " كان مُشرفا على جامع الحنفية "، وذلك يدلُّ على وقوع الفتنة بين الشافعية والحنفية، وأنّ ابن الأثير قد " وهم فيما رواه."[1]

ولمَّا ذكر وفاة فخر الدين الرازي الشافعي الأشعري قال: "... كان إمام الدنيا في عصره."[2] فقدّمه بذلك على سائر علماء عصره، وفي ذلك مبالغة؛ فقد ذكر الذهبي أنَّ الرازي " بَدَت منه في تواليفه بلايا وعظائم و سحر و انحرافات عن السُّنة." وذكر ابن خَلِّكان من تصانيفه " السرّ المكتوم"، ويُعرف بـ " السرّ المكتوم في مخاطبة الشمس والنجوم." و ذكر ابن كثير أنّ " الشيخ تقي الدّين ابن الصَّلاَح " لم يكن " مُقبلا عليه، و ربّما غضَّ من شأنه."[3]

و تجدر الإشارة إلى أنَّ ابن الأثير لم يُعلِّق في مواضع كثيرة على ما ذكره من معطيات متعلّقة بالحياة المذهبية؛ فمِنْ ذلك قوله في حوادث عام 407هـ/ 1016م: " في هذه السنة في المُحرَّم قُتلت الشيعة بجميع بلاد إفريقية، وكان سبب ذلك أنَّ المُعزّ بن باديس[4] ركب ومشى في القيروان و الناس يُسلِّمون عليه ...، فاجتاز بجماعة فسأل عنهم فقيل: هؤلاء رافضة يَسبّون أبا بكر وعمر. قال: رضي الله عن أبي بكر وعمر. فانصرفت العامّة من فورها إلى درب " تجتمع فيه الشيعة " فقتلوا منهم ... وانبسطت أيدي العامّة في الشيعة ... فقُتل " منهم " خلقٌ كثيرٌ و أُحرقوا بالنار و نُهِبت ديارهم ...، و أكثر الشعراء في ذِكر هذه الحادثة، فمِنْ فرح مسرور ومن باك حزين." وقال في حوادث عام 408هـ/ 1017م: " ...

---

(1) – خالد كبير علال، **مواقف المؤرخ ابن الأثير من الحنابلة**، ص 17، 18. وشمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 1091. و تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج7، ص 296.

(2) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص 350.

(3) – شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج21، ص 501. و شمس الدين ابن خلِّكان، المصدر السابق، ج4، ص 249. و عِماد الدّين ابن كثير، **طبقات الشافعيين**، ص 717.

(4) – المعزُّ بن باديس بن المنصور بن بُلكين بن زيري بن مناد صاحب إفريقية، توفي عام 454هـ/ 1062م. قال الذهبي: "... خلع طاعة العُبَيدية و خطب للقائم بأمر الله العباسي." (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج18، ص 140.)

وفيها كانت ببغداد فتنة بين أهل الكرخ[1] من الشيعة، وبين غيرهم من أهل السُّنة اشتدَّت، و فيها استتاب القادر بالله المُعتزلة و الشيعة وغيرهما من أرباب المقالات المُخالفة لِمَا يعتقده من مذاهبهم، ونهى عن المُناظرة في شيء منها، ومن فعل ذلك نُكِّل به و عوقب."[2] وذكر في حوادث سنة 441هـ/ 1049م وقوع فتنة عظيمة في بغداد بين أهل السُّنة والشيعة، فقُتِل " فيها و جُرِح كثير من الناس، ولم ينفصل الشرُّ بينهم " حتى خرج الجُنْد " و ضربوا خيامهم عندهم، فكفُّوا حينئذ، ثم شرع أهل الكرخ في بناء سور على الكرخ، فلما رآهم السنية " شرعوا في بناء سور على إحدى محالِّهم، و جَرَت " فِتنٌ كثيرةٌ و بطلت الأسواق و زاد الشرُّ."[3]

كما ذكر المُصنِّف حدوث فِتنة عام 447هـ/ 1055م في بغداد بين الفقهاء الشافعية و الحنابلة بسبب الاختلاف في مسائل فقهية، ولم يُعلِّق على ذلك. وقال في حوادث 469هـ/ 1076م: " في هذه السنة ورد بغداد " أبو نَصْر ابن القُشَيْري[4] فدرَّس فيها " وجرى له مع الحنابلة فِتَن؛ لأنّه تكلَّم على مذهب الأشعري و نصره وكثر أتباعه و المتعصِّبون له ...، وجَرَت بين الطائفتين أمورٌ عظيمةٌ." و ذكر أنَّ سنة 582هـ/ 1086م شهدت حدوث فتنة في أصبهان " بين الشافعية والحنفية "، فوقع " من الحروب و القتل والإحراق و النّهْب ما يجِلُّ عن الوصف.[5] و تطرَّق المُصنِّف لأخبار أخرى كثيرة متعلِّقة بالمذاهب ولم يعلِّق عليها.[6]

-استنتاج:

نستنتج ممَّا تقدَّم في هذا المبحث أنَّ تعامل ابن الأثير مع المعطيات المتعلِّقة بالحياة المذهبية يُمكن

---

(1) – الكَرْخ: محلّة في بغداد أهلها شيعة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج4، ص 448.)

(2) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج8، ص 114، 121.

(3) – المصدر نفسه، ج8، ص 292.

(4) – هو أبو نَصْر عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن القُشَيري النَّيْسابوري الأشعري. توفي عام 514هـ/ 1120م، أحد أبرز دُعاة الأشاعرة. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 575.)

(5) – عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر نفسه، ج8، ص325، 413. و ج10، ص 141.

(6) – أنظر مثلا: ج8، ص 73، 310، 335، 343. و ج9، ص 218، 252، 461، 478. و ج10، ص 368.

تقسيمه إلى ثلاث حالات؛ الأولى: ذِكْره للأخبار المُتعلِّقة بالمذاهب و الفِرَق دون أن يُعلِّق عليها أو يُبْدي موقفه منها، و هذا في مواضع كثيرة. أمَّا الثانية: فهي التعليق بإنصافٍ في مواضع كثيرة، مِثْل الإشارة إلى الغُلوِّ في التشيّع و إلى جرائم الباطنية، وذلك تأثُّر إيجابي بالنّزعة المذهبية. وأمّا الثالثة: فهي التعليق بغير إنصافٍ في مواضع قليلة مقارنة بحجم كتاب " الكامل "، و تتمثَّل الحالة الأخيرة أساسا في بعض ما كتبه المُصنِّف عن الحنابلة متأثِّرا في ذلك بالجانب العَقَدي؛ حيث كان أشعريا. و يمكننا القول أنَّ " الكامل" لم يتأثَّر تأثُّرا قويا بالنزعة المذهبية.

ثانيا- كتاب "مِرآة الزّمان في تاريخ الأعيان":

صنَّف هذا الكتاب المؤرِّخ الفقيه الواعظ شمس الدين أبو المُظفَّر يوسف بن قزغلي بن عبد الله بن فيروز التركي البغدادي نزيل دمشق، وهو سِبْط عبد الرحمان ابن الجَوْزي[1]، و لذا يُعرَف بسِبْط ابن الجَوْزي. وُلِد سنة 580هـ/ 1184م (وقيل بعدها) في بغداد و نشأ فيها، ثم ارتحل عام 600هـ/ 1203م إلى الشام. وحجَّ عام 604هـ/ 1207م و رجع إلى بغداد، لكنَّه سافر مرَّة أخرى إلى الشام سنة 607هـ/ 1210م. و كانت وفاته في دمشق عام 654هـ/ 1256م[2]، وكان السِّبْط حنفيا في الجانب الفقهي وماتُريديا في الجانب العَقَدي.[3]

وانتهج في كتابه طريقة التاريخ الحَوْلي؛ وذلك باعتماد السنين و ترتيب الأحداث و الوفيات على أساسها."[4] وقد ركَّز بصفة جليّة على تاريخ العراق و الشام و مصر و الحِجاز[5]، وانتهى في تاريخه إلى

---

[1] - والدة أبي المُظفّر هي رابعة بنت الفقيه المؤرِّخ عبد الرحمان ابن الجَوْزي. (أنظر: عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 239.)

[2] - سِبْط ابن الجَوزي، **مرآة الزمان**، (الحقبة: 345-447هـ)، (تحقيق: جنان الهموندي)، الدار الوطنية للنشر، بغداد – العراق، 1411هـ/ 1990م، ص ص 24- 30.

[3] - شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 315.

[4] - لم نتمكن من الحصول على الأجزاء الأولى من " مرآة الزمان " التي تضمّنت تاريخ القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

[5] - سِبْط ابن الجَوزي، المصدر نفسه، ص 71، 83.

حوادث و وفيات عام 654هـ/ 1256م.

-أ- مواقف المُصنِّف من الشيعة:

تطرَّق السِّبْط في عرضه حوادث عدَّة سنوات لأخبار الباطنية و أعمالهم دون أنْ يُعلِّق عليها؛ ومن الأمثلة الدالَّة على ذلك قوله في حوادث عام 483هـ/ 1090م: " ... و فيها ظهر بالبصرة رجلٌ مُنَجِّمٌ فادَّعى أنَّه المَهْدي، وكان من القرامِطة، فاحتال حتى أحرق البصرة، فأتت النار على مُعظمها ... فآل أمره إلى أن حُمِل إلى بغداد و أُشهِر على جَمَل، وصُلِب في السنة الآتية. " وقال ضمن ترجمة الوزير السلجوقي نِظام المُلك[1]: " ... ونِظام المُلك أوَّل من قتلته الباطنية." و أشار إلى مقتل بعض الأمراء في العراق و الشام و الجزيرة الفُراتية خلال سنوات 495هـ/ 1102م و 508هـ/ 1114م و 519هـ/ 1125م و 589هـ/ 1193م على يد الباطنية الحشاشين دون أنْ يُعلِّق على ذلك.[2]

كما ذكر أنَّ الفقيه أبا العلاء صاعد بن محمد بن عبد الرحمان البُخاري الحنفي قد " قتلته الباطنية يوم عيد الفطر بجامع أصبهان " سنة 502هـ/ 1108م. وأشار في عرضه حوادث عام 495هـ/ 1102م إلى نشاط بعض دُعاة الباطنية الإسماعيلية في بلاد الشام. وذكر استيلاء هؤلاء على حصن أفامية (في شمال حَمَاة) عام 499هـ/ 1105م، ومحاولتهم الاستيلاء على حصن آخر سنة 507هـ/ 1113م. وشرح المُصنِّف حادثة مقتل عدد من الإسماعيلية في حلب (سنة 507هـ/ 1113م) خلال عهد أميرها السلجوقي ألب أرسلان بن رضوان[3]، ولم يُعلِّق على الأحداث المُتقدَّم ذِكرها، كما لم يُعلِّق على أخبار أخرى؛ حيث قال – مثلا- ضمن عرضه حوادث عام 534هـ/ 1139م: " ... وفيها ملكت الإسماعيلية

[1] – قُتل نِظام المُلْك عام 485هـ/ 1092م على يد الإسماعيلية الحشاشين، و هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطُّوسي، وَزَر للسلطان السلجوقي ألب أرسلان، ثم لابنه ملكشاه. (أنظر: عماد الدّين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج6، ص 532.)

[2] – سِبْط ابن الجَوْزي، **مرآة الزمان** (الحقبة: 481- 517هـ)، (تحقيق: مسفر الغامدي)، مركز إحياء التراث، مكة، 1407هـ/ 1987م، ص 137، 174، 391، 603.

[3] – هو ألب أرسلان بن رضوان بن تتش بن ألب أرسلان السلجوقي "صاحب حلب "، قتله غلمانه عام 508هـ/ 1114م . (أنظر: عماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص 566.)

حصن مصياف[1] بحيلة دُبِّرت لهم فيه." وتطرَّق لقتل الإسماعيلية في دمشق عام 523هـ/ 1129م خلال عهد تاج المُلوك بوري[2]، فممَّا قال: " و ثار عوامُّ دمشق على الإسماعيلية فقتلوهم شرَّ قتلة ... وصلبوا منهم جماعة على سور دمشق، فكان عدة من قُتل منهم عشرة آلافٍ على ما قيل." كما ذكر السِّبْط مع حوادث سنة 588هـ/ 1192م أخبار سِنان[3] مُقدَّم إسماعيلية الشام، و ذكر ضمن ترجمة العاضِد[4] من حكم من أجداده فقال: " أوّلهم عُبَيد الله المُلقَّب بالمَهدي ... و الثاني ابنه أبو القاسم محمد ... و يُلقّب بالقائم...".[4]

و يمكن القول أنَّ المُصنِّف لا يُعلِّق – في الغالب– على أعمال الباطنية خلاف ما نجده عند الذهبي و ابن كثير؛ إذْ قال الذهبي – على سبيل المثال– بشأن قتل إسماعيلية دمشق (سنة 523هـ/ 1129م): "...وكان يومًا مشهودًا أعزَّ الله فيه الإسلام و أهله." وعلَّق في ترجمة العاضِد بقوله: "... و أزال الله تلك الدولة المخذولة، وكانوا أربعة عشر مُتخلِّفا لا مُستخلَفا." وقال ابن كثير: "... و كانوا من أَعْتى الخلفاء و أَجْبَرِهم و أَظْلَمهم، و أَنْجس الملوك سيرة و أخبثهم سريرة؛ ظهرت في دولتهم البِدَع و المنكرات و كَثُر أهل الفساد ... و كثر بأرض الشام النُّصَيْرية و الدُّرْزية و الحشيشية...".[5]

غير أنّنا نجد أخبار قليلة في " المرآة " تكلَّم عنها المُصنِّف بما يتضمّن ذمَّ الباطنية؛ كقوله عن إسماعيلية بلاد فارس من أتباع الحسن ابن الصباح (حوادث 494هـ/ 1101م): " ... وكان جماعة منهم

---

(1) – يقع في النواحي الغربية لحَماة، و هو قريب من الساحل. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 263).

(2) – هو بوري تاج الملوك " صاحب دمشق و ابن صاحبها طغتكين "، اغتيل على يد الباطنية عام 526هـ/ 1132م، أمّا أبوه طغتكين فقد توفي عام 522هـ/ 1128م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 428.)

(3) – هو سِنان بن سليمان البصري الإسماعيلي الباطني، أصله من البصرة، أرسله إسماعيلية بلاد فارس إلى الشام، فصار داعي الإسماعيلية فيه، توفي بحصن الكهف عام 589هـ/ 1193م. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 99.)

(4) – هو عبد الله بن يوسف بن عبد المجيد بن محمد المُستنصر بن الظاهر بن الحاكم " العُبيدي المصري "، آخر ملوك " الباطنية " في مصر، توفي عام 567هـ/ 1171م.(أنظر: عماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 407، 647.)

(4) – سِبْط ابن الجَوْزي، المصدر السابق (الحقبة: 481–517هـ)، ص 510، 393، 459، 574. و الحقبة: (495– 654هـ)، د ن، ص 80، 107، 182، 269.

(5) – شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 345، و ج 12، ص368. و عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص 587، 649.

في عسكر بركياروق[1] فاستغووا خلقا منهم فوافقوهم، فاستشعر أصحاب السلطان منهم، و لبسوا السلاح ثم قتلوا منهم نحو مائة رجل، وكان بالصيمر، وهو بلد من أعمال المشان[2] رجلٌ منهم ... يتزهَّد و يَدَّعي الكرامات." ثم شرح السِّبْط بعض الحِيَل التي استخدمها هذا الباطني ليوهم الناس أنّه صاحب كرامات. كما قال المُصنِّف ضمن حوادث سنة 507هـ/ 1113م: "... و فيها توفي رضوان[3]بن تاج الدولة تُتُش صاحب حلب، و يُلقّب بفخر المُلْك، وكان مُلكه لحلب في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ... وكان رضوان غير محمود السيرة، وهو أوَّل من بنى بحلب دار الدعوة." (أي للإسماعيلية).

و نقل في مواضع قليلة ذمّ غيره للإسماعيلية؛ إذْ أورد ضمن حوادث عام 500هـ/ 1106م قول ابن القلانسي[4]: "... وفي سنة خمسمائة وردت الأخبار مُتواترة باهتمام السلطان ... محمد بن ملكشاه[5] بمحاصرة قلعة الباطنية " بأصبهان " وهدمها و أراح العالم من الشرِّ المتّصل بها، و أنشأ كتاب الفتح ... ومن جملة ما كتب فيه: و فتحنا قلعة شاه دز التي شمخ بها الباطل...، وكانت قذًى في عيون الممالك وسبيلا إلى التورّط بالمسلمين في المهاوي و المَهالك ...، فكَم من دماءٍ سُفِكت وحُرُم انتُهِكت ... ، فقُطع دابر القوم الذين ظلموا، و الحمد لله ربِّ العالمين...". وكان استيلاء الإسماعيلية على هذه القلعة السلجوقية قبل عام 498هـ/ 1104م.[6]

ونقل أيضا في عرضه حوادث عام 520هـ/ 1126م قول ابن القلانسي: " في هذه السنة استفحل

---

[1] – السلطان السُّلجوقي ركن الدّين بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سُلجوق، توفي عام 498هـ/ 1104م. (أنظر: شهاب الدّين ابن العماد، المصدر السابق، ج5، ص 419.)

[2] – المشان: بلدة قريبة من البصرة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 131).

[3] – هو رضوان بن تتش بن السلطان ألب أرسلان السُّلجوقي، ولي سلطنة حلب بعد وفاة أبيه عام 488هـ/ 1095م حتى وفاته عام 507هـ/1113م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 87.)

[4] – المؤرّخ أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي الدمشقي، صاحب " تاريخ دمشق"، ابتدأ فيه من سنة 448هـ/ 1056م حتّى سنة 555هـ/ 1160م، توفي خلال السنة الأخيرة. (أنظر: شهاب الدّين ابن العِماد، المصدر السابق، ج6، ص 290.)

[5] – السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان، انفرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه بركياروق عام 498هـ/ 1104م، و توفي محمد بأصبهان عام 511هـ/ 1117م. (أنظر: المصدر نفسه، ج6، ص 49، 50.)

[6] – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 481- 517هـ)، ص 470، 471.

أمر بهرام[1] داعي الباطنية، وعَظُم خَطْبه في حلب والشام ...، وهو على غاية من الاستتار و الاختفاء ... بحيث أنَّه كان يطوف في البلاد و المعاقل ولا يعرف أحدٌ شخصه، حتّى صار في دمشق وتبعه خلقٌ كثيرٌ من الجُهَّال وسُفَهاء العوامّ ...". ونقل في حديثه عن قتل الإسماعيلية للراشِد[2] قول العِماد الأصبهاني[3]: "... ففتكت به الملاحدة لعنهم الله." كما ذكر (السِّبْط) في ترجمة الحاكم صاحب مصر أنّه رأى " في بعض التواريخ بمصر " أنّ " رجلا يُعرَف بالدُّرْزي قدم مصر، وكان من الباطنية القائلين بالتناسخ، فاجتمع بالحاكم و ساعده على ادِّعاء الربوبية ...، فنفق على الحاكم و فوّض الأمور إليه " ثم ثار الناس على الدُّرزي فخرج إلى وادي التيم بالشام، واستمال أهله " إلى الحاكم وأعطاهم المال وقرّر في نفوسهم التناسخ و أباح لهم شرب الخمر والزنا .... و أقام عندهم يُبيح لهم المحظورات...".[4]

و أورد سِبْط ابن الجَوْزي عدّة أخبار مُتعلِّقة بالشيعة الإثني عشرية دون أن يُعلِّق عليها، كقوله في حوادث عام 351هـ/ 962م: " ... وفيها كتبت العامَّة على حيطان المساجد ببغداد لعنة مُعاوية بن أبي سفيان، ولعنة من غَصَب فاطمة عليها السلام حقَّها."[5] وذكر أنّهم كتبوا لعنة صحابة آخرين، وقال: " ثم إنّ الذي كُتِب على المساجد مُحي أوَّل الليل، فأراد مُعزُّ الدولة " البُويهي إعادته فأُشِير عليه " أنْ يكتب

---

(1) – هو أحد دُعاة الباطنية الإسماعيلية، ظهر في بلاد الشام عام 520هـ/ 1126م، و مَلَك عدَّة حصون منها القدموس. كان مقتله عام 522هـ/ 1128م بعدما جرى قتال بين أتباعه و بين أهل وادي التيم. (أنظر: حمزة ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، ج1، (تحقيق: سهيل زكار)، ط1، دار حسان للطباعة، دمشق – سوريا، 1403هـ/ 1983م، ص 352، 353. و شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 418.)

(2) – الخليفة العباسي الراشِد بالله الفَضْل بن المُستظهر بالله، ولي الخلافة عام 529هـ/ 1134م، و خُلع عام 530هـ/ 1135م، و قُتل عام 532هـ/ 1137م بأصبهان. (أنظر: فاروق فوزي، المرجع السابق، ج 2، ص 275.)

(3) – هو الكاتب أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد الأصبهاني، قدم دمشق وكان من أبرز المُقَدَّمين عند السلطان صلاح الدين الأيوبي، توفي عام 597هـ/ 1200م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 120.)

(4) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 495- 654هـ)، ص 72، 101. و (الحقبة: 345-447هـ)، ص 313، 314.

(5) – يقصدون أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) و قضية فَدك؛ فلمّا توفي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و بُويع أبو بكر بالخلافة " أرسلت إليه فاطمة ... تسأله ميراثها من رسول الله عليه الصلاة و السلام ممّا أفاء الله على نبيِّه من فَدك "، – وهي قرية بالحِجاز وقيل بخَيبر– " فأجابها أبو بكر بأنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: " لا نورث، ما تركنا فهو صدقة ..."، فلمّا " ذكر هذا الصديق لفاطمة رضي الله عنها " تراجعت عن ذلك و رضيت. والإثناعشرية يوظفون قضية فَدك للطعن في أبي بكر الصديق بجهلهم و ظلمهم. (أنظر: إحسان إلهي، **الشيعة و أهل البيت**، إدارة ترجمان السنة، لاهور – باكستان، د ت ، ص 84، 85.)

مكانه: لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومن الأوّلين و الآخرين، وصرّحوا بلعنة مُعاوية لا غير."[1] ولم يُنكِر المصنِّف هذه الجرائم الشيعية التي كثُرت في بغداد خلال عهد مُعزّ الدولة الشيعي. و نلاحظ أنَّ قوله: " كتبت العامّة " ليس فيه تحديد صحيح للطرف الذي كتب اللعن؛ إذْ أنَّه يشمل عوامّ الشيعة – وهم الذين كتبوا– و عوامّ أهل السُّنة أيضا.

و نقل المُصنِّف في ترجمة أبي عبد الله الصوري[2] قول الخطيب البغدادي: " ... وكان من أحرص الناس على طلب الحديث ...، ومضى إلى الكوفة...، وكان يُظهِر السُّنة هناك و يترحّم على الصحابة فثار عليه أهل الكوفة ليقتلوه...". ولم يُعلِّق السِّبْط على ذلك، و لا على معظم ما ذكره من الفتن التي نشبت بين أهل السُّنة و الشيعة في بغداد خلال (ق5–6هـ/ 11–12م)؛ فقال – على سبيل المثال – عن فتنة عام 363هـ/ 974م: "... وفيها ازداد تبسُّط العامّة وصاروا حزبين وكثُرت الفتن ...". وقال عن فتنة عام 422هـ/ 1031م: " ... وعادت الفتن إلى حالها. " كما قال عن فتنة عام 482هـ/ 1089م: "... وفي صفر كانت فتنة عظيمة ببغداد بين السُّنة والشيعة... وقُتل بينهم خلقٌ كثيرٌ،...وقُتل من الفريقين نحو مائتين، وسبَّ أهل الكَرخ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و أزواجه رضوان الله عليهم و تعدّوا إلى سبِّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم."[3]

و إذا قارنا مضمون كلام المُصنِّف عن هذه الفتن مع ما كتبه ابن كثير و الذهبي بشأنها وجدنا فرقًا جليّا؛ فقد علّق – مثلا– ابن كثير على سبِّ الشيعة للنبيِّ صلّى الله عليه و سلّم و زوجاته (رضي الله عنهنّ) والصحابة في فتنة عام 482هـ/ 1089م بقوله: " ... و إنّما حكيت هذا ليعلم الواقف عليه ما في طوايا الروافِض من الخبث و البغض لدين الإسلام و أهله، و العداوة الباطنة الكامنة في قلوبهم لله

---

[1] – سِبْط ابن الجوزي، المصدر السابق (الحقبة : 345 – 447هـ)، ص 120.

[2] – المُحدِّث " الحافظ البارع " أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله بن رحيم الشامي الصوري، نسبة إلى مدينة صور ، و هي من أبرز مدن الساحل الشامي. تُوفي في بغداد عام 441هـ/ 1049م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **السِّير**، ج17، ص 627.)

[3] – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر نفسه (الحقبة: 345– 447 هـ)، ص 404، 183، 352. و (الحقبة: 481–517هـ)، ص 126.

ولرسوله وشريعته."[1]

و تجدر الإشارة إلى بعض ما قاله الذهبي بشأن السِّبْط؛ إذْ قال: " ... وكان يترَفّض، رأيتُ له مُصنَّفا في ذلك فيه دواهٍ." وقال كذلك: " ... ثم إنّه ترَفّض، وله مؤلَّف في ذلك نسأل الله العافية." ولم يُسمّ الذهبي الكتاب؛ و لعلّه " تذكِرة خواصِّ الأُمّة بذِكْر خصائص الأئمّة."[2]

ويظهر أثر تشيّع السِّبْط في بعض ما أورده في كتابه؛ إذْ ذكر – مثلا– أنّ واعظا قدم بغداد، و" ذكر حديث " رُدّت الشمس" [3] لعليّ عليه السلام." ولم يُبيّن المُصنِّف عدم صحَّة هذا الحديث[4]، في حين بيَّن كثير من العلماء أنّه مكذوب؛ ومنهم محمد بن حاتم البُخاري[5] حيث قال: " ... وهذا ممَّا كسبت أيدي الروافِض؛ ولو رُدّت الشمس بعدما غربت لرآها المؤمن و الكافر، ونقلوا إلينا أنّ في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا رُدَّت الشمس بعدما غربت. ثم يُقال للروافِض: أَيَجوز أن تُرَدّ الشمس لأبي الحسن حين فاتته صلاة العصر، ولا تُردُّ لرسول الله و لجميع المهاجرين و الأنصار –وعليٌّ فيهم – حين فاتتهم صلاة الظهر والعصر والمغرب يوم الخندق؟...". وقال ابن كثير:"...والأئمّة في كلِّ عصر ينكرون صحّة هذا الحديث و يردّونه و يُبالغون في التشنيع على رواته، ... وممّن صرَّح بأنّه موضوع شيخنا أبو الحجَّاج المزِّي والعلاَّمة... ابن تيمية."[6] و ذكر السِّبْط في موضع آخر من كتابه[7] حديث:" اللهمّ أَدِر الحقَّ معه

---

[1] – عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 527.

[2] – شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج21، ص 464. و **ميزان الاعتدال**، ج7، ص304. و إسماعيل باشا، **هدية العارفين**، ج2، وكالة المعارف الجليلة، إسطنبول – تركيا، 1371هـ/ 1951م، ص554، 555.

[3] – حديث موضوع، و مَتنه: " نام النبي صلّى الله عليه وسلّم و رأسه في حجر علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ولم يكن صلى العصر حتّى غربت الشمس، فلمّا قام النبي صلّى الله عليه وسلم دعا له فرُدت عليه الشمس حتى صلّى، ثم غابت ثانية." (أنظر: عبد الرحمان ابن الجَوزي، **الموضوعات**، ج1، (تحقيق: عبد الرّحمان عثمان)، ط1، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، 1386هـ/ 1966م، ص357.)

[4] – سِبْط ابن الجَوْزي، المصدر السابق (الحقبة: 495– 654 هـ)، ص91.

[5] – هو الفقيه المحدِّث أبو بكر محمد بن حاتم بن زنجويه البُخاري المتوفى عام 359هـ/ 970م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج8، ص 139.)

[6] – عماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج3، ص 546، 551.

[7] – سبط ابن الجَوزي، المصدر نفسه (الحقبة: 495– 654 هـ)، ص 223.

حيث دار."[1] على سبيل الاستدلال به، هو حديث لا يصحّ.[2]

ونرى أنّ تشيُّع السِّبْط لم يؤثّر بصفة جلية على " المرآة "(من خلال دراستنا للأجزاء الأخيرة منه)؛ فقد نقل في ترجمة جدّه عبد الرحمان ابن الجَوزي أنّه سُئِل : " لِمَ لَمْ ينص النبيّ صلّى الله عليه وسلّم على خلافة أبي بكر؟ فأجاب بأنّه قد جَرَت أشياء تجري مجرى النصّ، منها قوله عليه السلام: " مُرُوا أبا بكر فليُصلّ بالناس."[3] و " اقتدوا بالذَيْن من بعدي."[4] و " هلُمّوا أكتب كتابا لأبي بكر لئلاّ يَختَلف عليه المسلمون."[5] هذه أحاديث تجري مجرى النصوص ...غير أنّ الرافِضة في إخفائها كاللصوص." كما نقل إنكار جدِّه لكلام الإثني عشرية في أبي بكر الصديق و عائشة رضي الله عنهما. و نقل في ترجمة الشاعر أبي الحسن مهيار بن مرزويه الفارسي البغدادي (ت428هـ/ 1037م) أنَّ أحد علماء بغداد أنكر عليه سبّه الصحابة في شعره. وقال المُصنِّف ضمن ترجمة المُوفَّق ابن قُدامة المَقدسي: " ...و صنّف المُصنَّفات الحسان، منها كتاب " الزّهد" ... ومنها " فضائل الصحابة".[6]

و قد صرَّح سِبْط ابن الجَوْزي في مواضع من كتابه بذمِّ الناصِبة؛ فذكر في ترجمة أبي منصور ابن

---

(1) – وهو حديث " ضعيف جدّا"، ومتنه: " رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته و حملني إلى دار الهجرة، و أعتق بلالا من ماله، رحم الله عمر يقول الحقّ و إن كان مُرا، تركه الحقّ وما له صديق، رحم الله عثمان تستحيه الملائكة، رحم الله عليّا، اللهمّ أَدِر الحقّ معه حيث دار." (أنظر: ناصر الدّين الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة**، ج5، ط1، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية، 1417هـ – 1996، ص 112.)

(2) – المرجع نفسه، ج5، ص112.

(3) – عن " عائشة رضي الله عنها ... قالت: لمّا مرض رسول الله صلّى الله عليه و سلّم مرضه الذي مات فيه ، فحضرت الصلاة فأُذّن، فقال: " مُروا أبا بكر فليُصلّ بالناس ...". (أنظر: محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج1، ص 221.)

(4) – أخرجه الإمام أحمد و غيره: " اقتدوا بالذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر." (أنظر: أحمد بن حنبل، **المسند**، ج38، (حققه: شعيب الأرنؤوط و آخـرون)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1421هـ/ 2001م، ص 280.)

(5) – عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلّى الله عليه و سلّم في مرضه: " ادعي لي أباك و أخاك حتّى أكتب كتابا؛ فإنّي أخاف أن يتمنّى مُتمنّ و يقول قائل: أنا أولى، و يأبى الله و المؤمنون إلاّ أبا بكر." (أنظر: أحمد بن حنبل ، المصدر السابق، ج42، ص 50. و ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج2، ص 304.)

(6) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 495– 654 هـ)، ص322، 323، 413. و (الحقبة: 345– 447 هـ)، ص 376.

شجاع[1] أنَّه كان " مُنحرِفا عن " علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ونقل كلاما لأبي منصور يدلُّ على ذلك، ثم قال المُصنِّف: " قبَّحه الله ...". كما صرَّح بذمّ قتلة الحسين بن علي (رضي الله عنهما) حيث قال: " ...لا ذنب لأهل الشام في قصّة الحسين...؛ فإنّه ما شهد قتله منهم أحد، و إنّما قتله أهل العراق أهل الشّقاق و النّفاق."[2]

–ب– مواقف المُصنِّف من أهل الكلام:

لقد تطرَّق المُصنِّف إلى الفِتن المذهبية التي جَرَت خلال (ق5–6هـ/ 11–12م) بين الأشاعرة وأهل الحديث، ولم يُعلِّق على كثير منها؛ فذكر – مثلا– ضمن حوادث عام 497هـ/1103م إخراج الواعظ أبي المؤيد عيسى بن القاسم بن عبد الله الغَزْنوي الأشعري (ت 498هـ/ 1104م) من بغداد بسبب الفتن. وذكر أنّ إلكيا الهراسي[3] قدم بغداد و " ذكر مذهب الأشعري " فثارت الفتن. و ذكر ما كان يجري في القاهرة بين الشهاب الطُّوسي[4] الأشعري، و زين الدّين ابن نُجَيَّة الحنبلي من السِّباب.[5]

و رغم أنَّ السِّبْط من الماتُريدية إلاّ أنّه استنكر تحامل البكري[6] الأشعري على أهل الحديث فقال: " ... وقدم البكري بغداد ...، وكان ممّن لا خَلاق له فأخذ يسبُّ الحنابلة فأخذه الله تعالى." كما نقل كلام

---

[1] – هو أبو منصور بن أبي بكر بن شجاع بن نقطة البغدادي المتوفّى عام 597هـ/ 1200م، كان " يُنشد في الأسواق." و هو غير المُحدِّث " الحافظ" معين الدّين بن محمد بن عبد الغني بن أبي بكر البغدادي الحنبلي المعروف بابن نقطة (ت 629 هـ/ 1231م). (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 1129. و **العِبر**، ج3، ص 205).

[2] – سِبْط ابن الجَوْزي، المصدر السابق (الحقبة: 495 –654 هـ)، ص 330، 331، 321.

[3] – هو أبو الحسن إلكيا بن محمد بن علي الشافعي الأشعري المتوفّى في بغداد عام 504هـ/ 1110م. (أنظر: شهاب الدّين ابن العماد، المصدر السابق، ج6، ص 14.)

[4] – هو الواعظ أبو الفتح محمد بن محمود بن محمد الطُّوسي الشافعي الأشعري نزيل مصر. (ت 596هـ/ 1199م). (أنظر: المصدر نفسه، ج6، ص 534.)

[5] – هو زين الدّين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن نجا بن غنائم الدمشقي الفقيه الحنبلي نزيل مصر. (ت599هـ/ 1202م). (أنظر: شهاب الدّين ابن العِماد، المصدر نفسه، ج6، ص 554. و سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 481– 517 هـ)، ص 422، 543. و (الحقبة: 495– 654هـ)، ص 307.)

[6] – هو أبو بكر عتيق المغربي الواعظ الأشعري المعروف بالبكري، قدم بغداد عام 475هـ/ 1082م، قال الذهبي: " كان من غُلاة الأشاعرة." وقال ابن الجَوْزي: " كان ... فيه حِدّة و طيش." (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج10، ص 395. و عبد الرّحمان ابن الجَوْزي، **المُنتظم**، ج16، ص 224.)

جدِّه ابن الجَوْزي في استنكار تحامل القاضي عزيزي بن عبد المَلِك الأشعري على أهل الحديث. و أشار أيضا إلى تحامل الواعظ محمد بن البروي[1] الأشعري على أهل الحديث في بغداد، وذكر أنّه قال: " لو كان لي أمر لوضعت عليهم الجِزْية." (أي أنَّه اعتبرهم – بجهله– كُفّارا). وذكر المُصنِّف في ترجمة نجم الدّين الخبوشاني الأشعري حادثة نبش قبر المُقرئ ابن الكيزاني[2]، و وصف الخبوشاني بأنّه "كان طائشا" و " كثير الفتن".[3]

و نرى أنَّ تأثير انتماء السِّبْط للماتُريدية لم يكن واضحا (من خلال ما درسنا من كتابه)؛ فقد ذكر في ترجمة أبي الخطاب الكلوذاني أنَّه نَظَم قصيدة في العقيدة، ثم ذكرها المُصنِّف، وهي على منهج أهل الحديث، و قال عن الكلوذاني: " كان فاضلا وَرِعا صدوقا ثِقة." و نقل ذمّ ابن خُزَيمة لمَن " لم يقر بأنّ الله على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته. " و قال المُصنِّف ضمن عرضه حوادث عام 521هـ/ 1127م: " ... و فيها ثارت الفِتن ببغداد، و سببه أبو الفتوح الإسفراييني[4]، فإنّه كان يعِظ و يذكر مذهب الأشعري ... وكان يركب وعليه السلاح، ويُسقِط حُرمة المصحف عند العامّة ...، وكان يقول: هذا الذي نتلوه ليس كلام الله إنّما هو عبارة عنه، و وجدوا عند أصحابه مُصحفا و بين كلِّ سطرين شِعر....".[5]

كما نقل السِّبْط ضمن حوادث عام 561هـ/ 1166م بعض كلام جدِّه في التحذير من الواعظ محمد

---

(1) – هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد البروي الطُّوسي الشافعي الأشعري، قدم بغداد عام 566هـ/ 1170م، و توفي فيها عام 567هـ/ 1171م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 381.)

(2) – ابن الكيزاني هو المقرئ الواعظ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت المصري الكيزاني الشافعي، كان من أهل الحديث، توفي عام 562هـ/ 1166م، و دُفن على مقربة من قبر الشافعي في مدينة مصر، فجاء الخبوشاني " و جعل ينبش قبره و يرمي عظامه و عظام الموتى الذين حوله." و كان الخبوشاني " رجلا طائشا متهوّرا معروفا بكثرة الفتن." (أنظر : شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج 12، ص 842. و خالد كبير علال، **التعصّب المذهبي**، ص26).

(3) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 481 – 517هـ)، ص 718، 373، 374. و (الحقبة: 495 – 654هـ)، ص 183، 265، 266.

(4) – هو محمد بن الفضل بن محمد الإسفراييني الشافعي الأشعري، قدم بغداد عام 515هـ/ 1121م، فقامت الفتن بين أصحابه وبين أهل الحديث توفي عام 538هـ/ 1143م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج2، ص 454. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص25.)

(5) – سِبْط ابن الجَوْزي، المصدر السابق (الحقبة: 481 –517هـ) ، ص ص 639 – 642. و (الحقبة: 495 – 654)، ص 77.

ابن المشاط الأشعري[1]، و أنّه كان يُنكِر أنَّ القرآن كلام الله تعالى. و سرد في ترجمة جدِّه كثيرا ممّا نُقِل عنه من الأقوال ومنها ما يتضمّن التحذير من الأشاعرة. و أثنى المُصنِّف على أبي الحسن الهكاري[2] الذي كان مُتمسِّكا بعقيدة أهل الحديث، ونقل قول جدِّه عنه: " ... وكان صالحا من أهل السُّنة. " و أثنى كذلك على الزاهد أبي عمر ابن قُدامة المَقدسي فقال: " ... و كان على مذهب السَّلَف الصالح حسن العقيدة...". و وصف العِماد إبراهيم بن عبد الواحد الصالحي بـ " الزاهد العابد الوَرِع ، و أنّه كان " داعية إلى السُّنة". و ذكر في ترجمة المُوفَّق ابن قُدامة أنّه " كان صحيح الاعتقاد ... حسن الأخلاق." و الأعلام الثلاثة المذكورون من أهل الحديث.[3]

وقد تطرَّق المُصنِّف أثناء عرضه حوادث عام 556هـ/ 1161م إلى قدوم أبي الخير القزويني الأشعري[4] إلى بغداد، وقال أنّه " جلس بالنظامية وذكر مذهب الشافعي "، فوقع خلاف بينه وبين أهل الحديث، وقصد المُصنِّف هنا بالمذهب الشافعي العقيدة الأشعرية؛ بسبب الانتشار الواسع لها بين الفقهاء الشافعية منذ (ق6هـ/ 12م)، و وَرَد في مصادر أخرى أنَّ القزويني لمَّا دخل بغداد في هذه السنة درَّس الاعتقاد الأشعري.[5]وهذا الدّمج بين المصطلحات أمر سلبي؛ إذْ يجب التفريق بين المذهب الشافعي وبين العقيدة الأشعرية، وقد كان الإمام الشافعي على عقيدة أهل الحديث وتواتر عنه التحذير من علم الكلام.[6]

---

(1) – هو محمد بن سعد بن محمد ابن المشاط الشافعي الأشعري، و هو من أهل الري، و دخل بغداد عام 555هـ/ 1160م، و كانت وفاته سنة 561هـ/ 1166م. (أنظر: تاج الدين السُّبْكي، المصدر السابق، ج6، ص 104. وعبد الرحمان ابن الجوزي، **المنتظم**، ج18، ص 141.)

(2) – هو الزاهد أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الأُمَوي القُرَشي الهكاري. و الهكارية: جبال من نواحي الموصل. توفي عام 486هـ/ 1093م. (أنظر: شمس الدين الذهبي ، **تاريخ الإسلام**، ج 10، ص565.)

(3) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق(الحقبة: 495 – 654 هـ)، ص163،359،318، 386،413، 414. و(الحقبة: 481-517هـ)، ص 208.

(4) – هو الواعظ أبو الخير أحمد بن إسماعيل بن يوسف القـزويني الشافعي الأشعري المتوفى عام 590هـ/ 1194. و القزويني: نسبة إلى مدينة قزوين الواقعة جنوب طبرستان (النواحي الجنوبية لبحر الخزر أو بحر قزوين.) (أنظر: شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج 12، ص 903. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 230.)

(5) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر نفسه (الحقبة: 495 – 654هـ)، ص 145. وعبد الرحمان ابن الجوزي، **المنتظم**،ج18، ص148.

(6) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج5، ص 153، 155، 161، 162، 163.

و تجدر الإشارة إلى أنَّ الذهبي قد تعقّب كلام السِّبْط بشأن مِحْنة " الحافظ " عبد الغني المَقْدسي التي ألحقها به الأشاعرة في دمشق عام 595هـ/ 1198م؛ فذكر بعض ما كتبه السِّبْط عنها نقلا عن أحد أشاعرة دمشق، خاصَّة قوله: " ... و في ذي القعدة ... كان ما اشتهر من أمر الحافظ عبد الغني و إصراره على ما ظهر من اعتقاده، و إجماع الفقهاء على الفُتيا بتكفيره..."، ثم قال الذهبي:"... قد بلوتُ على أبي المُظفَّر المُجازفة و قلّة الورع فيما يُؤرّخه والله الموعد، ... ولو أجمعت الفقهاء على تكفيره كما زعم لما وسعهم إبقاؤه حيا؛ فقد كان على مقالته بدمشق أخوه الشيخ العِماد " (إبراهيم بن عبد الواحد) " والشيخ مُوفّق الدّين " ابن قُدامة " وأخوه الشيخ أبو عمر و شمس الدين البخاري[1] وسائر الحنابلة، وكان بالبلد أيضا خلقٌ من العلماء لا يكفِّرونه...، وبكلِّ حال فالحافظ عبد الغني من أهل العلم و التألُّه والصدع بالحقِّ. " كما قال الذهبي أيضا: "... قوله: و إجماع الفقهاء على الفُتيا كلامٌ ناقصٌ وهو كذبٌ صريحٌ و إنّما أفتى بذلك بعض الشافعية الذين تعصَّبوا عليه، و أمّا الشيخ مُوفق الدين " و تاج الدين " أبو اليُمن الكِنْدي ... فكانا معه، ولكن نعوذ بالله من الظلم ...". وقال عن عبد الغني: " ... وكان أمّارا بالمعروف داعية إلى السُّنة، فقامت عليه الأشعرية وأفتوا بقتله."[2] و يبدو أنّ الذهبي قد بنى تعليقه على أساس أنّ المصدر الأوَّل لِمَا ذكر هو " المرآة "، في حين أنَّ السِّبْط قد نقل عن غيره دون تعليق.

و نفى الذهبي ما ورد في " المرآة " من اتّهام للفقيه ابن قُتيبة [3]بالميل إلى التشبيه، حيث قال: " هذا لم يصح ...". وقال أيضا: " والذي قيل عنه من التشبيه لم يصح..."، ثم نقل من كلام ابن قُتيبة ما ينفي

---

(1) – هو المُحدِّث الفقيه شمس الدين أحمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمان الدمشقي الحنبلي، عُرف بالبُخاري لأنّه ارتحل إلى بُخارى في طلب الحديث، و أقام بها مدّة. توفي في دمشق عام 623 هـ/ 1226م. (أنظر: عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج 3، ص 354، 355.)

(2) – شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج13، ص 296. و **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 1213، و **العِبَر**،ج 3، ص 110.

(3) – الفقيه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدينوري ثم البغدادي. و الدينوري: نسبة إلى الدينور: وهي مدينة من أعمال بلاد الجبل، وهذه الأخيرة إقليم ممّا يلي العراق إلى الشرق، من مدنه همذان و الري. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص 545. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص220.)

عنه ما اتُّهِم به، و ذكر الذهبي أنَّه قرأ كلاما لابن قُتَيبة ليس فيه ما يُخالف عقيدة أهل الحديث.[1]

وقول الذهبي : " قد بلوتُ على أبي المُظفَّر المُجازفة وقلَّة الورع فيما يؤرِّخه." له ما يُبرِّره من الأخبار الغريبة التي أوردها السِّبْط في كتابه؛ فمنها قوله في ترجمة المُستنجِد بالله[2]: " مرض في ربيع الآخر أياما فاحمرَّ الأفق وما زالت الحُمرة على الحيطان و شعاعها متَّصل بالسماء حتى مات." ومنها قوله في ترجمة مُظفَّر الدين كوكبوري[3]: "... كان ... يُنفق في كلِّ سنة على المولد ثلاث مئة ألف دينار ... قال من حضر المولد مرة: عددتُ على السِّماط ... خمسة آلاف رأس شوي و عشرة آلاف دجاجة، و مئة ألف زبدية، و ثلاثين ألف صحن حلواء. " و نجد في " المرآة " أخبار أخرى غريبة كالتي تقدَّم ذكرها.[4]

-ج- مواقف المُصنِّف من الصوفية:

لقد أورد السِّبْط في "المرآة " كثيرا من الأخبار المكذوبة التي وضعها بعض الصوفية دون أن يُعلِّق عليها؛ فقد نقل – مثلا- عن غيره أنَّ أبا جعفر الخلدي[5] قال:" رأيت في منامي قائلا يقول: اذهب فاحفر موضع كذا ... فحفرته و إذا بصندوق فيه دفاتر، ... ففتحتها فقرأتها فإذا فيها أسامي ستة آلاف شيخ من أولياء وأرباب الحقائق " – أي الصوفية – " من لدُن آدم إلى وقتنا هذا ونعوتهم، و كلُّهم يدعو إلى مذهب الحقائق، وفي تلك الكتب عجائب فدفنتها...". و ذكر السِّبْط ضمن ترجمة أحد الصوفية أنّ ابن عساكر[6]

---

(1) – شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج13، ص 296، 299. و **تاريخ الإسلام**، ج6، ص565.

(2) – الخليفة العباسي المُستنجد بالله يوسف بن المُقتفي لأمر الله بن المُستظهر بالله . خلافته بين عامي (555- 565هـ)(1160-1169م). (أنظر: فاروق فوزي، المرجع السابق، ج2، ص 275.)

(3) – هو أبو سعيد مُظفّر الدّين كوكبوري بن أبي الحسن زين الدين علي بن بكتكين بن محمد، ملك إربل بين عامي (586 – 630هـ) (1190 – 1232م). و إربل: مدينة من أعمال الموصل. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 930. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص138).

(4) – سِبْط ابن الجَوْزي، المصدر السابق (الحقبة: 495 – 654هـ) ، ص ص117، 451، 360، 485. و شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج13، ص 933، 934.)

(5) – هو أبو محمود جعفر بن محمد بن نصير بن قاسم البغدادي الصوفي المتوفّى في بغداد عام 348هـ/ 959م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، المصدر نفسه، ج7، ص 862)

(6) – المُحدِّث المؤرّخ الشهير أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي الشافعي مُصنّف " تاريخ مدينة دمشق "، توفي عام 571هـ/ 1175م. (أنظر: شمس الدّين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 60.)

قال عنه: "... جاز ... ببيعة النصارى في الشام، فقال له أصحابه: نريد أن ندخل في هذه البيعة، فنهاهم فألحُّوا عليه فقال: ادخلوا، فدخلوا ثم خرجوا، فقال لهم: " أيّ شيء " استفدتم من دخولكم؟ فقالوا: لا شيء فقام و دخل إليها، فرأى في الحائط صورة عيسى عليه السلام، فرفع عصاه عليه وقال: أأَنت قلتَ للناس اتّخِذوني وأمي إلهين من دون الله، فرفعت الصورة رأسها و قالت بلسان فصيح: لا لا لا، و خرجوا من البيعة و صاروا كلّهم صوفية ...". كما قال المُصنِّف في ترجمة صوفي آخر: " حكى ابن خميس[1] عنه" أنّه " قال: كنتُ راكبا على جمل، فغاصت رِجل الجمل في الرمل، فقلتُ: جلَّ الله، فقال الجمل: جلَّ الله."[2] فعدم إنكار السِّبْط لهذه الأخبار المُلفقة يدلُّ على تأثّره بالتصوف.

و نجد في " المرآة " أمثلة أخرى من هذه القصص التي اعتُبرت كرامات في تراجم كثير من الصوفية فمنها ما نقله السِّبْط عن ابن خميس أنَّ أحد الصوفية قال: " دخلت البادية على نيّة الحاجّ ...، وقد قمت أربعين يوما لم آكل الخبز ولم أشرب الماء فعطشت، فلمّا وصلنا إلى زبالة[3] ...، و إذا بظبي على رأس البئر و قد ارتفع الماء على رأسها وهو يشرب، فدنوت من البئر لأشرب فولّى الظبي، و نزل الماء أسفل البئر، فقلت: يا سيدي ما لي محلّ هذا الظبي، فسمعت هاتفا يقول من ورائي: هذا الظبي جاء بغير حبل و ركوة "– أي إناء – " وأنت جئتنا بحبل وركوة، ولكن التفت، و إذا بالماء في رأس البئر فشربت." و نقل في ترجمة أحد زُهّاد بغداد أنّه قال: " ضقت إضاقة شديدة في رمضان، فعزمت على المُضيِّ إلى رجلٍ من أقاربي أطلب منه شيئا، فنزل طائر فجلس على منكبي وقال: أنا المَلَك الفلاني، لا تمضي إليه، نحن نأتيك به. قال: فلمّا طلع الفجر إذا بقريبي قد جاء و معه دنانير فوضعها في يدي. " وهذا الكلام قد يكون موضوعا على لسان الزاهد. و في " المرآة " معطيات أخرى كثيرة مثل التي تقدّم ذِكْرها[4] وعدم إنكار

---

(1) – هو أبو عبد الله الحسين بن نصر بن محمد بن حسين بن محمد بن خميس الموصلي الشافعي، له عدَّة مُصنّفات منها " مناقب الأبرار " المتضمن تراجم للصوفية. توفي عام 552هـ/ 1157م. (أنظر : شمس الدّين الذهبي، **السِّيَر**، ج20، ص291، 292.)

(2) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق، (الحقبة: 345 – 447هـ)، ص 110، 126، 127، 205.

(3) – قرية في طريق حجاج العراق إلى مكة. (أنظر : ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص129).

(4) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق،(الحقبة: 345–447هـ)، ص 115، 214، 215. و (الحقبة: 481–517هـ)، ص398، 405.

المُصنِّف لها يُعدُّ أمرا سلبيا.

وقد ترجم ضمن وفيات عام 631هـ/ 1233م لعبد الله الأرمني[1] فقال: " ... كان الشيخ عبد الله ...صاحبي ... أقمت بالقدس مدَّة سنين، وكان يحضر مجالسي دائما...، و اتّفق أنَّه سافر إلى مصر فأقام بها مدّة ...، و سبب سفره أنّه كان بالقدس رجل شرير يبغض الفقراء[2] " – أي الصوفية– " و يتتبّع عثراتهم، يُقال له ابن عروة، فاتّفق أنَّ الفقراء عملوا سماعا[3] في الحَرَم ...، فأنكر عليهم بن عروة وجَرَت فِتنة عظيمة، فشكى بن عروة الشيخ عبد الله إلى " المَلِك المُعظّم عيسى بن العادل " وقال: هؤلاء قوم قد هتكوا حُرمة الحَرَم ويتعبّدون بالرقص ... وبلغ الشيخ عبد الله كلامه فخرج بأهله وعياله إلى مصر." ونلاحظ أنَّ المُصنِّف قد وصف الذي أنكر السماع بأنّه " شرير"؛ وهذا ممَّا يدلُّ على تأثّره بالتصوف. كما يدلّ على ذلك ما ذكره في ترجمة الزاهد عبد الله اليونيني[4] حيث قال: " ...كنت قد اجتمعت به في الشام في سنة ستمائة...، وكان له تلميذ اسمه توبة...، وسافرت إلى العراق في سنة أربع وستمائة و حججت فلمَّا كان يوم عرفة صعدت جبل عرفات، و إذا بالشيخ عبد الله قاعد على الجبل مستقبل الكعبة... فسلَّمت عليه ... و قعدت عنده إلى قريب الغياب، ثم قلت له: ما تقوم تروح إلى المُزدلفة؟ فقال: اسبقني أنت فلي رفاق، فنزلت من الجبل و أتيت المُزدلفة، و وقفت بها و جئت إلى مِنى فدخلت " المسجد

---

(1) – هو الزاهد عبد الله بن يونس الأرمني (ت 631هـ/ 1233م) نزيل سفح جبل قاسيون بدمشق، استقرّ في القدس، ثم انتقل إلى مصر، ثم سافر إلى دمشق فأقام بسفح قاسيون، ذكر الذهبي أنّه من أرمينية الروم (أي أرمينية الصغرى التي تلي بلاد الشام إلى جهة الشمال الغربي)، و قيل أنه من قونية. (أنظر : شمس الدّين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص47. و سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 495– 654هـ)، ص 457. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 220.)

(2) – كثُر إطلاق لفظ " الفقراء " على الصوفية في مصادر القرنين (7–8هـ/ 13– 14م). (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 241.)

(3) – السماع: الرقص الصوفي و الغناء الصوفي، وقد صنّف العلماء في التحذير منه، ومنهم ابن القيّم و عبد الرحمان ابن الجَوزي. (أنظر: شمس الدّين ابن القيّم، **إغاثة اللهفان**، ج1، (تحقيق: محمد حامد الفقي)، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية، د ت ، 224، 225. و طارق عبد الحليم، المرجع السابق، ص 89.)

(4) – هو الزاهد الشهير عبد الله بن عثمان بن جعفر بن محمد اليونيني (ت 617 هـ/ 1220م)، و اليونيني: نسبة إلى قرية يونين القريبة من بعلبك. قال ابن كثير: كان من الصالحين ... المشهورين بالعبادة ... والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر " يُلقَّب " أسد الشام." (أنظر: عِماد الدّين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 146)

" فإذا بالشيخ توبة خارج ... فسلَّم عليَّ فقلت له: أين نزل الشيخ ؟ ظنّا منِّي أنّه قد حجّ معه، فقال: أيّما شيخ؟ فقلت: عبد الله. قال: خلّفته ببعلبك، ففطنت فقلت: مبارك، ففهم فلزم بيدي و بكى وقال: بالله حدّثني" ما " معنى هذا ؟ فقلت: رأيته البارحة على عرفات و حدَّثته الحديث." (1)

لكنّ السِّبْط نقل في مواضع من كتابه بعض كلام جدِّه ابن الجَوْزي في نقد المتصوّفة؛ إذْ نقل – مثلا– قسما من نقده لأبي حامد الغزالي كقوله: "... و أقام ببيت المقدس ودمشق ... وأخذ في تصنيف كتاب "الإحياء " في القدس ثم تمَّمه بدمشق، إلاّ أنّه وضعه على مذهب الصوفية، وترك فيه قانون الفقه...، وقد جمعت أغلاط الكتاب وسمَّيته " إعلام الأَحْياء بأغلاط الإحياء" ...، و ذكر في كتاب " الإحياء" من الأحاديث الموضوعة و ما لا يصحّ غير قليل، فليته عرض تلك الأحاديث على من يعرف...".(2)

– استنتاج:

نستنتج من خلال دراستنا للأجزاء الأخيرة من "مرآة الزمان" أنّ تشيّع السِّبْط لم يُؤثِّر بصفة جليّة على كتابه، كما لاحظنا أنّه لم يُعلِّق – في الغالب– على أعمال الباطنية، لكنّه تكلَّم في بعض المواضع بما يتضمن ذمَّهم. و يمكن القول أنّ انتماء السِّبط إلى الماتُريدية لم يكن له تأثير واضح على مُصنَّفه، غير أنّ حركة التصوف قد أثَّرت على السِّبْط من خلال نقله كثيرا من الأخبار المكذوبة من طرف بعض الصوفية دون إنكارها.

(1) – سِبْط ابن الجَوزي، المصدر السابق (الحقبة: 495– 654هـ)، ص 457، 403.

(2) – المصدر نفسه (الحقبة: 481– 517هـ)، ص ص 549، 551.

ثالثا– كتاب " الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية":

مُصنِّف هذا الكتاب هو المُؤرِّخ الشيعي أبو جعفر محمد بن علي بن محمد ابن طباطبا العَلَوي القُرَشي المعروف بابن الطِّقْطَقي[1] كان أبوه نقيب الأشراف[2] العَلَوية بالحلّة، فخلفه في ذلك سنة 672هـ/ 1273م. وقد استقرَّ في الموصل مدّة طويلة ، وصنَّف فيها كتابه المذكور، وكانت وفاته عام 709هـ/ 1309م.[3] و" الفخري" كتاب مُختصَر جدّا (مقارنة بالمُصنَّفات التاريخية الأخرى) قسَّمه المُصنِّف إلى قسمين، حيث قال: " ... و بنيته على فصلين: فالفصل الأوَّل تكلَّمتُ فيه الأمور السلطانية والسياسات الملكية .... والفصل الثاني تكلَّمت على دولة دولة من مشاهير الدول ...، ابتدأت فيه بدولة الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ثم بالدولة التي تسلّمت " الخلافة " منها، وهي الدولة الأُمَوية ثم بالدولة التي تسلّمت المُلْك منها و هي الدولة العباسية، ثم بالدول التي وقعت في أثناء الدول الكبار كدولة بني بُوَيه... على وجه الإيجاز."[4]

وذكر ابن الطِّقْطقي في مقدِّمة كتابه أنّه سيلتزم فيه أمرين إذْ قال: " ...أحدهما ألاّ أميل فيه إلا مع الحقِّ...، و أن أعزل سلطان الهوى، و أخرج من حُكم المنشأ والمربى " (يعني كونه شيعيا) " وثانيهما أن أُعبِّر عن المعاني بعبارات واضحة."[5]

و تضمّن " الفخري" مواقف كثيرة للمصنِّف تدلُّ على التزامه بما شرطه على نفسه من عدم تأثير تشيّعه على كتابه، كما يتضمن مواقف أخرى ظهر فيها أثر النّزعة الشيعية؛ فأمّا المواقف الأولى فمنها:

---

(1) – الطقْطقة: " صوت قوائم الخيل على الأرض الصلبة." و تعني كذلك صوت الحجر إذا وقع على حجر. (أنظر: جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق، ص 2684). و لم أقف على سبب إطلاق هذا اللقب على والد المُصنّف أو أحد أجداده.

(2) – نقابة الأشراف: وظيفة موضوعها الاهتمام بشؤون العلويين " في الفحص عن أنساهم ... و الأخذ على يد المُتعدي منهم و نحو ذلك." و جرت العادة أنّ الذي يتولّى هذه الوظيفة يكون من أعيان العلويين. (أنظر: أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى** ، ج4، (تحقيق: محمد حسين)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1407هـ/ 1987م، ص38. و ج11، ص161.)

(3) – خير الدّين الزركلي، **الأعلام**، ج6، ط15، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، 1424هـ/ 2002م، ص 283.

(4) – محمد ابن الطِّقطقي، **الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية**، (تحقيق: محمود الكتبي)، ط1، المطبعة الرحمانية، مصر، 1339هـ/ 1920م، ص7.

(5) – المصدر نفسه، ص8.

تَرَضّي ابن الطَّقْطقي على أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان (رضي الله عنهم) كقوله: "... فأمَّا خلافة الأربعة الأُوَل، وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفّان رضي الله عنهم، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، فإنَّها كانت أشبه بالرُّتب الدينية من الرُّتب الدنيوية..." وقوله: " ... روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال"، ثم ذكر كلاما لعمر فيما يُصلِح الرعية. وقال في سياق ذِكْره بداية الخلافة الراشدة: "... أمّا الدولة الأولى وهي دولة الأربعة، فإنّ ابتداءها كان منذ قبض رسول الله صلوات الله عليه وسلامه، وبُويع أبو بكر... رضي الله عنه، و اعلم أنّها دولة لم تكن من طرز دُوَل الدنيا، وهي بالأمور النبوية والأحوال النبوية أشبه...، فأمَّا زيّها فهو زيّ الخشونة في العيش و التقلُّل في المطعم والملبس ....، وكان طعامهم من أدنى أطعمة فقرائهم...، وأمّا فتوحها وحروبها فإنّ خيلها بلغت إفريقية وأقاصي خُراسان...". كما صرّح بالترضّي على أبي بكر وعمر وعثمان في سياق حديثه عن الحرب بين المسلمين و الفُرس خلال خلافة عمر، وصرّح بذلك أيضا أثناء عرضه حوادث أخرى جَرَت خلال عهد عمر. و ترضّى على أبي بكر لمّا ذكر وفاته، و على عمر وعثمان لمَّا أشار إلى مقتلهما رضي الله عنهما.(1)

و ترضَّى المُصنِّف على صحابة آخرين في مواضع متفرِّقة من كتابه؛ منهم خالد بن الوليد و أبو عُبَيدة بن الجراح و طلحة والزبير، كما ترضَّى على أمّ المؤمنين عائشة ضمن حديثه عن وقعة الجَمَل.(2) وقال أنّ " نساء النبي صلّى الله عليه وسلّم هنّ أُمهات المؤمنين كذلك قال الله تعالى و رسوله صلوات الله عليه." وصرّح بالترضّي على صحابة شهدوا صِفِّين مع أهل الشام (مُعاوية و عمرو بن العاص) كقوله: "...وممّا يزين الملك اصطناع العوارف إلى أشراف رعيته، ...وما زال أفاضل الملوك يلحظون هذا المعنى فيفضلون دائما على أشراف رعيتهم أنواع الإفضال، ...وكان مُعاوية رضي الله عنه أشدّ الملوك لهجا بهذا

(1) – محمد ابن الطَّقطقي، المصدر السابق، ص 17، 18، 38، 50، 51، 54، 58، 68.

(2) – الوقعة الشهيرة التي جرت أثناء الفتنة الكبرى (سنة 36/ 656م) على مقربة من البصرة بين جيش الخليفة علي بن أبي طالب وجيش طلحة والزبير، و حضرت أمّ المؤمنين عائشة الوقعة على جمل.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج2، ص270).

المعنى...". وقوله في ذِكْر وقعة صِفِّين: " لمّا انصرف أمير المؤمنين عليه السلام من وقعة الجمل أرسل إلى مُعاوية رضي الله عنه يُعرّفه اجتماع الناس على بيعته،... و يأمره بالدخول فيما دخل فيه المهاجرون و الأنصار...، فحين ورد الرسول إلى مُعاوية رضي الله عنه طاوله، ثم استشار بعمرو بن العاص رضي الله عنه، وكان أحد الدُّهاة ...". و ذكر ضمن سيرة مُعاوية أنّه كان " لبيبًا عالمًا حليمًا ملكا قويّا جيِّد السياسة ...عاقلاً حكيمًا فصيحًا بليغًا، يحلم في موضع الحِلم، ويشتدّ في موضع الشدة، إلاّ أن الحِلم كان أغلب عليه، وكان كريما باذلا للمال مُحبّا للرياسة." و نقل المُصنِّف بعض الأخبار التي وردت في حِلمه وقال عنه أيضا: "... واعلم أنّ مُعاوية كان .... سائس أُمم ... ابتكر في الدولة أشياء لم يسبقه أحدٌ إليها." كما قال: "... وكانت وفاة مُعاوية رضي الله عنه سنة ستين من الهجرة، ولمَّا أدركته الوفاة أوصى إلى ابنه يزيد وصية تدلُّ على عقله ولُبِّه وخبرته بالأمور...".[(1)]

وأشار إلى فضائل بعض الخلفاء الأُمَويين والعباسيين كقوله عن عمر بن عبد العزيز: "... كان من خِيار الخلفاء عالمًا عابدًا زاهدًا تقيًّا وَرِعا، سار سيرة مرضية ومضى حميدًا." و ذكر أنّ عبد المَلِك بن مروان كان " لبيبًا عاقلاً عالمًا "، وأنّ هشام بن عبد المَلِك كان " غزير العقل عفيفا." وقال عن أبي جعفر المنصور: " كان ... من عظماء الملوك و حزمائهم و عُقلائهم و علمائهم وذوي الآراء الصائبة منهم." و وصف الخلافة العباسية بقوله: "...إلاّ أنّها كانت دولة كثيرة المحاسن، جمَّة المكارم ...، شعائر الدين فيها مُعَظَّمة، و الخيرات فيها دارَّة، و الدنيا عامرة...". وأثنى على الخليفة القادر بالله و ابنه الخليفة القائم بأمر الله، وعلى السلطان الأيُّوبي صلاح الدين.[(2)]

ولمَّا تطرَّق المُصنِّف لخروج محمد النفس الزكية[(3)] على المنصور، التزم في ذلك – عموما– بالحياد

---

(1) – محمد ابن الطِّقْطقي، المصدر السابق، ص 53، 59، 62، 63، 46، 49، 74، 76، 80.

(2) – المصدر نفسه، ص 92، 93، 87، 112، 206، 210، 22.

(3) – هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، المعروف بمحمد النفس الزكية، خرج على المنصور في المدينة عام 145هـ/ 762م، وهذا مشهور، و قُتل خلال السنة نفسها. (أنظر: عزّ الدّين ابن الأثير، المصدر السابق، ج5، ص 147).

ونلمس هذا أيضا في ذِكْرِه خروج محمد[(1)] بن جعفر الصادق على المأمون[(2)].

و أمّا المواقف التي ظهر فيها أثر النّزعة الشيعية؛ فمنها قوله تحت عنوان: " مقتل عثمان بن عفان وسببه ": " أنَّ ناسا من المسلمين نقموا عليه تجاوزه لطريقة صاحبيه أبي بكر و عمر ... من التقلُّل و الكفِّ عن أموال المسلمين." و المُصنِّف بهذا يتّهم عثمان بعدم الكفِّ عن أموال المسلمين، كما اتَّهمه بـ " التبذير".[(3)] وهي اتّهامات باطلة فنَّدها المُحقِّقون و أكَّدوا أنّ الخليفة " كان يُعطي أقاربه من ماله ولا يستحلُّ أموال المسلمين لنفسه و لا لأحد من الناس"، و أنّ " الثائرين عليه هم طائفة قليلة من الحُساد ... و المنحرفين فكريا."[(4)]

وقال ابن الطَّقْطقي أيضا ضمن شرحه " مقتل عثمان" : " ... فجاء أهل مصر وناسٌ من كلِّ صَقْعٍ و عزموا على قتله، ... فركب عليٌّ عليه السلام و ردَّ الناس عنه، وضمن لهم عنه حسن السيرة."[(5)] وفي كلام المُصنِّف هنا اتِّهام ضمني لعثمان بأنّ سيرته لم تكن حسنة، وكلُّ ذلك غير صحيح، مع العِلم أنَّ ابن الطَّقْطقي ذكر الخبر بغير إسناد. كما أنَّ قوله: " ... وناسٌ من كل صَقْع." لا يصحُّ؛ لأنَّ الذين ساروا لقتل عثمان هم جماعة من أهل مصر، و مثلهم من أهل الكوفة والبَصْرة، أمَّا الأمصار الأخرى فلم يخرج أهلها على الخليفة، وحتى الأمصار المذكورة فإنَّ الخارجين كانوا قِلّة من أهلها.[(6)]

واتّهم المُصنِّف الصحابي طلحة بن عُبَيد الله أنَّه " كان من أكبر المساعدين على عثمان "، و اتَّهم كذلك أمّ المؤمنين عائشة بالتحريض ضدّ الخليفة. وقال ضمن حديثه عن وقعة الجمل: " لمَّا قُتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، اجتمع الناس وقصدوا منزل أمير المؤمنين علي ...، فبايعه الناس، فسار فيهم

---

(1) – هو محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، كان خروجه في مكة عام 200هـ/ 815م، ثم طلب الأمان من عمال المأمون على الحِجاز فأمّنوه. و كانت وفاته عام 203هـ/ 818م. (أنظر: المصدر نفسه، ج5، ص 423).

(2) – محمد ابن الطَّقطقي، المصدر السابق، ص118، 119، 162.

(3) – المصدر نفسه، ص69.

(4) – خالد كبير علال، **الثورة على سيِّدنا عثمان**، ط1، دار البلاغ، الجزائر، 1424هـ/ 2003م، ص 48، 52.

(5) – محمد ابن الطَّقطقي، المصدر نفسه، ص 70.

(6) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص 292، 293.

بسيرة الحقِّ...، وكان لا يعطي ولديه الحسن والحسين أكثر من حقِّهما...، فلمّا سار فيهم هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله، وكرهوا مكانه، فخرج الزبير و طلحة رضي الله عنهما بعدما بايعاه إلى مكة ... ونسبوا عليّا عليه السلام إلى أنّه ألَّب الناس على عثمان، وجرَّأهم على قتله ..."[1]

ولم يصح من هذه الاتّهامات شيء؛ فالروايات التي تضمَّنت اتّهام الصحابة بالتأليب على عثمان " أسانيدها ضعيفة "؛ منها التي أوردها اليعقوبي[2] في تاريخه ، حيث زعم أنَّ طلحة و الزبير و عائشة قد حرصوا على التحريض ضدّ عثمان، و " خبره هذا مردودٌ لأنَّه رواه بلا إسناد "، كما أنّ اليعقوبي كان شيعيا. و كانت عائشة (رضي الله عنها) تُقْسِم أنّها ما حرَّضت ضدّ الخليفة؛ فممّا نُقل عنها قولها: " لا والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم " (أي قَتَلَة عثمان) " في أمر عثمان إلى يومي هذا." وسُئِلت عن قَتَلته فقالت: " قُتِل مظلوما لعن الله من قتله." [3] أمَّا عن سبب مسير طلحة و الزبير إلى مكة ثم البصرة فهو السعي للاقتصاص من قَتَلة عثمان[4]؛ قال الذهبي في حوادث عام 36هـ/ 656م: "... و سار طلحة والزبير و عائشة نحو البصرة طالبين بدم عثمان..."، وذكر أنَّهم رأوا " أنْ يقوموا في الطلب بدمه، و الأخذ بثأره من قتلته." وقال ابن حَزْم الأندلسي: "... فصحَّ أنّهم إنّما نهضوا إلى البصرة لسدِّ الفَتْق الحادث في الإسلام من قتل أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ظلما...، وبرهان ذلك أنّهم اجتمعوا ولم يقتتلوا " – أي قُبَيل وقعة الجمل– " فلمّا كان الليل عرف قتلة عثمان أنّ ...التدبير عليهم، فبيَّتوا عسكر طلحة و الزبير، و بذلوا السيف فيهم، فدفع القوم عن أنفسهم فردعوا حتى خالطوا

---

[1] – محمد ابن الطَّقطقي، المصدر السابق، ص 59، 60.

[2] – هو المؤرِّخ الجغرافي أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت بعد 292هـ/ 905م)، و هو من أهل بغداد كانت له رحلات كثيرة، و صنّف عدّة تصانيف منها " تاريخ اليعقوبي "، انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله أحمد بن المتوكّل المتوفّى عام 272هـ/ 892م. (أنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 95. و فاروق فوزي، المرجع السابق، ص 273).

[3] – خالد كبير علال، **بحوث حول الخلافة و الفتنة الكبرى**، ص 100، 112، 113، 115.

[4] – كان علي بن أبي طالب " يودّ لو تمكّن " من قَتَلة عثمان ليقتصّ منهم، لكنّه لم يتمكّن من ذلك لقوتهم و سيطرتهم على المدينة غداة استشهاد عثمان. (أنظر: عِماد الدّين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص 350. و خالد كبير علال، **بحوث حول الخلافة**، ص 175.)

عسكر علي، فدفع أهله عن أنفسهم، وكلّ طائفة تظن و لا تشكّ أنّ الأخرى بدأتها بالقتال." ولم يثبت ما ذكره ابن الطَّقطقي من أنّ طلحة و الزبير نسبا إلى عليّ التحريض ضدّ عثمان.[(1)]

وقد استعظم المُصنِّف قتل الخليفة الراشد علي بن أبي طالب و ابنه الحسين (رضي الله عنهما) وحُقَّ له ذلك، لكنَّه لم يستعظم قتل الخليفتين عمر و عثمان و قتل طلحة والزبير (رضي الله عنهم)، كما أنّه صرّح بلعن قاتل عليٍّ عدّة مرات كقوله: "... فضربه ابن مُلجم لعنه الله بالسيف...". وصرّح بلعن قتلة الحسين فقال: "... فلعن الله كلّ من باشرها وأمر بها و رضي بشيء منها، و لا تَقَبَّل منه صرفا ولا عدلا...". لكنّ موقفه لم يكن مماثلا مع قاتل عمر إذْ قال: "... فطعنه و هو في الصلاة، فبقي ثلاثة أيّام ومات." و قال عن قتلة عثمان: "... فدخلوا عليه الدار و خبطوه بالسيوف، وهو صائم و المصحف في حجره، وهو يقرأ فوقع المصحف بين يديه و سال الدم عليه."[(2)] وهذا الموقف يختلف مع موقف مؤرّخين آخرين صرّحوا بذمّ سائر القَتَلة المذكورين؛ حيث قال الذهبي – مثلا- في ترجمة ابن مُلجم: " ... و حُكْمُه حُكْم قاتل عثمان وقاتل الزبير و قاتل طلحة ... وقاتل الحسين؛ فكلٌّ هؤلاء نبرأ منهم و نبغضهم في الله...".[(3)]

وذكر ابن الطَّقْطقي تحت عنوان : "مقتل أمير المؤمنين عليه السلام" أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قد أعلم عليّ بن أبي طالب أنَّ قاتله هو ابن مُلجم[(4)]، و هذا لم يثبت ولكن رُوي عن عليٍّ رضي الله عنه أنّه قال: " قال لي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "من أشقى الأوّلين"؟ قلت: عاقِر الناقة. قال:" صدقت فمن أشقى الآخرين" ؟ قلت: لا علم لي يا رسول الله. قال: " الذي يضربك على هذه. و أشار بيده على

---

(1) – خالد كبير علال، **بحوث حول الخلافة**، ص 176، 178. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص27. و **تاريخ الإسلام**، ج2، ص 270. و علي ابن حزم الأندلسي، المصدر السابق، ج 4 ، ص 239. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص ص 350- 355

(2) – محمد ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص 68، 69، 70، 71، 82.

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2 ، ص 374.

(4) – محمد ابن الطقطقي، المصدر نفسه، ص 71.

يافوخه." (مقدم الرأس).[1]

ومن مظاهر تأثير النّزعة الشيعية على المُصنِّف قوله عن الخلافة الأُمَوية: " ... وكانت دولة بني أُمَية ...ملعونة مذمومة ... مستهترة بالمعاصي والقبائح." كما أنّنا نلمس في حديثه عن سقوط الخلافة العباسية (656هـ/ 1258م) ابتهاجه بدخول هولاكو و جيوشه إلى بغداد؛ و ممّا يدلُّ على ذلك اعتباره استيلاء التتار على بغداد فتحًا؛ إذْ قال: "... فإنّ السلطان هولاكو لمّا فتح بغداد...". و "... فلمّا فُتحت بغداد ...". و قال: "... وما قويت دولة من الدوَل على إزالة مملكتهم " – يعني العباسيين – " و محو أثرهم سوى هذه الدولة القاهرة نشر الله إحسانها وأعلى شأنها." (يعني الدولة المغولية). فهذه أمثلة من كلام المُصنِّف تُبيّن أثر نزعته الشيعية على موقفه من الخليفة العباسي السُّني المُستعصِم بالله وأهل بغداد الذين نزل بهم من القتل و السَّبْي و هَتْك الأعراض و النهب على يد التتار ما هو معروف.[2]

كما نفى ابن الطَّقْطقي خيانة الوزير الشيعي ابن العَلْقمي للمُستعصم بالله، وأكَّد أنّه لم يتآمر مع التتار حيث قال: "... ونَسَبه الناس إلى أنّه خامر، و ليس ذلك بصحيح؛ و من أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة " – أي دولة التتار– " فإنّ السلطان هولاكو لمَّا فتح بغداد وقتل الخليفة سلَّم البلد إلى الوزير، وأحسن إليه وحكَّمه، فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه." و زعم أنّ ابن العَلْقمي كان يُشير على الخليفة " بالتيقظ و الاحتياط و الاستعداد."[3]

وهذا الكلام يُعدُّ مُكابرة و إنكارا لحقائق تاريخية ثابتة، ومظهرا من مظاهر نزعة المُصنِّف الشيعية فالشواهد الدالّة على تآمر ابن العَلْقمي كثيرة؛ فإنّه لو كان من الناصحين للخليفة " لعدّه المغول من أعدائهم...، ولقتلوه كما قتلوا الخليفة و رجال دولته المخلصين له." كما أنَّ توليتهم له على بغداد عند

[1] – ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج3، ص78. و عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص440.

[2] – محمد ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص 100، 101، 243. و خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص 152. وعماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 246، 247.

[3] – محمد ابن الطقطقي، المصدر نفسه، ص 242، 245.

مغادرتهم دليل قويّ على تعاونه معهم. وكان ابن العَلْقمي قد أرسل عام 655هـ/ 1257م رسالة إلى أحد أصحابه ليخبره بأحداث الفِتنة التي جرت في بغداد بين أهل السُّنة والشيعة " توعّد فيها السنيين بأنّه سيأتيهم بجنود لا قِبَل لهم بها." قال الذهبي: " ... و كان وزير العراق مؤيد الدين ابن العَلْقمي رافضيا جَلْدا ... داهية، والفِتن في استعار بين السُّنة و الرافِضة حتى تجالدوا بالسيوف، وقُتل جماعة من الرافِضة ... فحنق الوزير ونوى الشر." و قال: "... و أمّا ابن العَلْقمي فكاتب التتار و أطمعهم في البلاد ... وطلب أن يكون نائبهم، فوعدوه بذلك وتأهّبوا لقصد بغداد...، فخرج " الوزير " و توثّق لنفسه من التتر...". كما قال: " ابن العَلْقمي الوزير المُبير...، كان ذا حِقد وغِلٍّ على أهل السُّنة، قرّر مع التتار أمورا انعكست عليه...".[(1)]

وذكر ابن كثير أنّ ابن العَلْقمي حرص على تقليل جيش الخلافة و أنّه " دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يُؤَرَّخ أبشع منه منذ بُنِيت بغداد، ... ولهذا كان أوّل من برز إلى التتار هو فخرج في أهله وأصحابه...، فاجتمع بالسلطان هولاكو...، وقد أشار هؤلاء الملأ من الرافِضة...، على هولاكو ألاّ يُصالح الخليفة...". أمّا ابن الفوطي[(2)] – وهو معاصرٌ لسقوط بغداد– فذكر أنّ ابن العَلْقمي خرج إلى خدمة " هولاكو في جماعة من مماليكه و أتباعه، و كانوا ينهون الناس عن الرمي بالنشاب ويقولون: سوف يقع الصلح إن شاء الله فلا تحاربوا، هذا و عساكر المغول يُبالغون في الرمي."[(3)]

و نشير إلى أنّ ابن الطِّقطقي يعتبر المشاهد[(4)] من الأماكن المباركة، و هذا من أثر نزعته الشيعية وقد حرص بعض العلماء على التحذير من اتّخاذ المشاهد، ومنهم تقي الدين ابن تيمية حيث قال: " وقد

---

(1) – خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص 151، 152. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 671، 672. و**العِبَر**، ج3، ص 284.

(2) – هو المؤرخ كمال الدين عبد الرزاق بن أحمد بن محمد بن أحمد الشيباني البغدادي المعروف بابن الفوطي، له مُصنّفات منها " الحوادث الجامعة و التجارب النافعة "، توفي عام 723هـ/ 1323م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **ذيول العِبر**، ج4، ص 66).

(3) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 245. و خالد كبير علال، المرجع نفسه، ص 153.

(4) – المشاهد: الأبنية التي شُيِّدت على قبور بعض الأعلام، أو حول هذه القبور، مثل مشهد موسى الكاظِم ومشهد محمد الجواد في بغداد. (أنظر: محمد ابن الطقطقي، المصدر السابق، ص 115.)

عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يأمر بما ذكروه من أمر المشاهد، ولا شرع لأمته مناسك عند قبور الأنبياء و الصالحين..."، ثم ذكر الحديث: " ألا و إنّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم و صالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك."[(1)]

-استنتاج:

نستنتج ممّا تقدَّم أنّ " الفخري" يتضمن مواقف للمُصنِّف تدلُّ على عدم تأثّره بالنزعة الشيعية، كما يتضمن مواقف أخرى ظهر فيها أثر هذه النزعة (خاصّة من خلال كلام المُصنِّف عن أحداث الفتنة الكبرى). ولما كان موضوع الكتاب هو " الأمور السلطانية و السياسات الملكية" و الأخبار البارزة لبعض الدول، فإنّ ابن الطِّقْطقي لم يتطرّق إلى معطيات المذاهب و الفِرَق إلاّ في مواضع قليلة.

رابعا – كتاب " مُختصَر أخبار الخلفاء" و كتاب " الجامع المُختصَر" لابن الساعي البغدادي:

صنَّف الكتابين المذكورين الفقيه المُحدِّث المؤرِّخ تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب بن عثمان بن عبد الله بن عبيد الله البغدادي الشافعي المعروف بابن الساعي. وُلِد حوالي عام 600هـ/ 1203م ببغداد ونشأ فيها، و كان خازن كُتُب المدرسة المُسْتنصِرية. له عدَّة مُصنَّفات منها " مُختصَر أخبار الخلفاء" وهو كتاب مُختصَر تطرَّق فيه لتاريخ الخلافة العباسية على وجه الإيجاز، و ركّز على سِيَر الخلفاء. وتوفي ابن الساعي عام 674هـ/ 1275م.[(2)] و قد كان فيه تأثُّر بالفِكْر الشيعي؛ قال الذهبي: "... وهو أخباري جبل على رفْضٍ متوسّط فيه." و ذكر أنّه صنَّف كتابا " يدلّ على تشيّعه."[(3)]، و نوضح تأثره

---

(1) – تقيّ الدين ابن تيمية، **مِنهاج السُّنة**، ج1، ص 475، 476. و مُحيي الدين النواوي، **صحيح مسلم بشرح النواوي**، ج3، مكتبة الإيمان، القاهرة – مصر، د ت، ص 12.

(2) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 278. و السِّيَر (الجزء المفقود)، ص 308، 309. و تاج الدين ابن الساعي، **مختصَر أخبار الخلفاء**، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة – مصر، د ت ، ص 3، 4.

(3) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر** (الجزء المفقود)، ص 308، 309.

بالنّزعة المذهبية فيما يلي:

-أ- مواقف المُصنِّف من الشيعة:

لقد ظهر تأثُّر المُصنِّف بالتشيّع في بعض مواقفه ضمن كتابه " مُختصَر أخبار الخلفاء"؛ فمنها قوله عن الخليفة الواثق: " ... وكان على مذهب أبيه و عمّه " – أي المُعتصم والمأمون– " في القول بخَلْق القرآن و امتحان الناس به ، ...غير أنّه كان يُبالغ في إكرام العلويين...، وبمحبة آل علي و إكرامهم هو من الناجين إن شاء الله تعالى." فالعبارة الأخيرة دالّة على تأثُّره بعقيدة الشيعة. وقال عن رِفاعة العَلَوي[1]: "... وُلد بمكة عام ثمانين ومائتين، ونشأ على الطاعة والتقوى، و لبس الخِرقة الطاهرة الكاظمية[2] عن أبيه. وأبوه يروي سند الخِرقة عن آبائه إلى الإمام الحسين عليه السلام، و هو عن أبيه أسد الله علي أمير المؤمنين عن ابن عمّه سيّد المخلوقين صلّى الله عليه وسلّم." [3] فنلاحظ أنّه جعل سَنَد الخِرْقة متّصلا إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، وهذا من أثر التشيّع و التصوف، وما ذكره غير صحيح، وقد حرص العلماء على إنكاره، ومنهم ابن الجَوْزي؛ فممّا قال عن الصوفية: "... وجعلوا لها إسنادا متّصلا كلّه كذب و مُحال...". وقال تقي الدين ابن تيمية: "... وقد عُقل بالنقل المتواتر أنّ الصحابة لم يكونوا يُلبِسون" من يأتيهم " خِرقة ... و لا التابعون، ولكن هذا فعله بعض مشايخ المشرق من المتأخرين ...".[4]

كما نلمس في كلام ابن الساعي عن موسى الكاظِم إقراره لانحراف من انحرافات الشيعة وهو توسلهم به، حيث قال: "... و لكثرة عبادته يسمى بالعبد الصالح، و يُعرف في العراق بباب الحوائج إلى الله لنجح المتوسّلين إلى الله تعالى به." وأقرّ في سِياق ذِكْره إسناد الخليفة العباسي المأمون ولاية العهد لعلي

---

(1) – هو رِفاعة بن المهدي بن محمد بن الحسين بن الحسين بن أحمد بن موسى العلوي، وُلِد بمكة عام 280هـ/ 893م، ارتحل إلى الأندلس و كانت وفاته بإشبيلية عام 331هـ/ 942 م. (أنظر: تاج الدين ابن الساعي، المصدر السابق، ص 78.)

(2) – لعلّها تُنسب إلى موسى الكاظِم ، و سيرة الكاظِم تدلّ على أنّ نسبة لبس الخِرقة إليه لا تصح. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج6، ص ص 270– 274 . و تقيّ الدين ابن تيمية، **منهاج السُنة**، ج8، ص47.)

(3) – تاج الدين ابن الساعي، المصدر نفسه، ص 60، 77، 78.

(4) – عبد الرحمان ابن الجَوزي، **تلبيس إبليس**، ط1، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1421هـ/ 2007م، ص 171. و تقي الدين ابن تيمية، **منهاج السُنة**، ج8، ص 47.

الرضا[1] خبرا موضوعا في مناقب الرضا، حيث قال: " ...جعله الخليفة المأمون وليَّ عهده...، وكان في حاشية المأمون أناس كرهوا ذلك... و قالوا: إذا جاء ليدخل على الخليفة فأعرضوا عنه و لا ترفعوا له الستر...، فبينما هم قعود، إذْ جاءهم الرضا عليه السلام...، فلم يملكوا أنفسهم أنْ سلَّموا عليه و رفعوا له السّتر، فلمّا دخل ...لاموا أنفسهم و قالوا: النوبة الآتية إذا جاء لا نرفع له "، فلمّا جاء " لم يبتدروا إلى رفع السّتر، فأرسل الله تعالى ريحا شديدة دخلت في السّتر و رفعته أكثر ما كانوا يرفعونه، فدخل عليه السلام وسكنت الريح ...، فلمّا خرج عادت الريح فرفعت له السّتر حتى خرج، فلمَّا ذهب أقبل بعضهم على بعض و قالوا: ...أَلَم تروا أنّكم لما أعرضتم عن رفع السّتر أرسل الله الريح و سخّرها له كما سخّرها لسُليمان عليه السلام...".[2]

لكنَّ تأثُّر المصنِّف بالتشيّع لم يَحل دون ترضّيه عن الصحابة، حيث قال في مقدّمة الكتاب: " لمّا قضى الله بانقضاء دولة الخلفاء الأربعة الراشدين أئمّة الدين الهُداة المرضيين...". وصرّح في مواضع أخرى بالترضّي على أبي بكر وعمر ومُعاوية. و يتضمن كلامه عن استيلاء التتار على بغداد نوعا من الذمّ للإثني عشرية إذْ قال: "...استولت التتار على بغداد و قتلوا الخليفة...، وسببه أنّ وزير الخليفة مؤيد الدين بن العَلْقمي كان رافِضيا، وكان من أهل الكَرخ، وكان أهل الكرخ كلّهم روافِض، فَجَرت فتنة بين السنية والشيعة على العادة " – أي فتنة عام 655هـ/ 1257م– " فأمر الخليفة العسكر فنهبوا الكرخ ... فعظُم ذلك على ابن العَلْقمي وكاتب التتار و أطمعهم في البلاد...".[3]

وقد ذمّ ابن الساعي القرامطة لمّا أشار إلى بعض أعمالهم، خاصّة مهاجمة أبي طاهر القرمطي[4]

---

[1] – عهِد المأمون عام 201 هـ/ 816 م إلى علي الرضا بن موسى الكاظِم العَلوي بالخلافة من بعده، و كان المأمون في خُراسان فخرج عليه أهل بغداد وبايعوا إبراهيم بن المهدي بن أبي جعفر المنصور. و بعد وفاة علي الرضا عام 203هـ/ 818م بايع البغداديون للمأمون من جديد. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 262.)

[2] – تاج الدين ابن الساعي، المصدر السابق، ص 29، 41، 42.

[3] – المصدر نفسه، ص 2، 87، 126.

[4] – هو أبو طاهر سليمان بن الحسن (ت332هـ/943م). تزَعّم القرامطة في البحرين بعدما توفي والده أبو سعيد الحسن بن بهرام عام 301هـ/ 913م.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 440. وعماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج6، ص252.)

للحجّاج في مكة (سنة 317هـ/ 929م) حيث قال: "... فوافاهم ...عدو الله أبو طاهر القرمطي، فقتل الحجيج في المسجد الحرام قتلا ذريعا و طرح القتلى في بئر زمزم...". و وصف هذه الأعمال بـ " الإلحاد و الظلم ببيت الله الحرام."[1]

و أنصف الخليفة المتوكِّل؛ فنوَّه برفعه محنة خلق القرآن من جهة، و استاء ممّا نُقِل عنه من النَّصْب من جهة أخرى فقال: "... و كان جامعا لجميع الأخلاق الحسنة، و خالف أهل بيته في القول بخَلْق القرآن و رجع عن ذلك، و ردَّ الناس إلى السُّنة، ولم يكن فيه ما يُعاب إلاّ بغضه لعلي بن أبي طالب عليه السلام و ذريته...".[2]

-ب- مواقف المُصنِّف من الصوفية:

يدلُّ كلام ابن الساعي في عدَّة مواضع من كتابه على تأثُّره بالتصوف؛ ومن أبرز الأمثلة على ذلك نقله و إقراره لخبر من الأخبار المكذوبة المنتشرة بين الصوفية؛ حيث ذكر أنّ أحمد الرِّفاعي الصوفي حجَّ عام 555هـ/ 1160م، ثمّ سار " بقافلة عظيمة من أتباعه و مُحبِّيه و رفقائه و غيرهم إلى المدينة المنورة ...، فلمّا أشرفت القافلة على المدينة، وكانت أزيد من تسعين ألفا... ترجَّل " الرِّفاعي " عن مطيّته ومشى حافيا حتّى وصل حَرَم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و وقف تُجاه قبره الطيِّب..." و سَلّم على النبي عليه الصلاة والسلام فأجابه " بقوله: وعليك السلام..." فبكى الرِّفاعي " ثم قام يرتعد وأنشد " شعرا " فمدّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يده الزكية من القبر الشريف فقبَّلها والناس ينظرون...".[3] ولم يكتف ابن الساعي بنقل و إقرار هذا الادّعاء الذي اعتبره " كرامة "، بل زعم أنّه " من عجائب ما وقع من أسرار الله تعالى"، وأنّ خبره قد " استفاض ... و تواتر وسارت به الركبان "، وأنّ " هذه القصة بلغت مبلغ القطع".[4]

[1] – تاج الدين ابن الساعي، المصدر السابق، ص 77، 87.

[2] – المصدر نفسه، ص 61.

[3] – المصدر نفسه، ص 96، 97.

[4] – المصدر نفسه، ص96، 97، 99.

ونُشير إلى أنَّ القصة المذكورة تُعدُّ من أبرز الأكاذيب المنتشرة بين الصوفية الرِّفاعية.[1]

وأقرّ المُصنِّف كلاما آخر من مزاعم الصوفية ضمن حديثه عن علي الرِّفاعي[2] (والد أحمد الرِّفاعي) إذْ ذكر أنّه لمَّا توفي (في بغداد) عام 519هـ/ 1125م شيَّد أحد الأمراء على قبره مشهدا و حدث أنْ " سقط طفل لامرأة " في نهر دجلة قرب قبر علي الرِّفاعي " فاستمدّت منه " – أي استغاثت به– " فخرج من جهة المشهد رجل حسن السَّمْت، ومدّ يده إلى الشاطئ و أخرج الطفل و أعطاه لأمّه." و زعم المُصنِّف أنّ ذلك من " الكرامات " التي حصلت للرِّفاعي.[3]

ونذكر من مظاهر تأثُّر ابن الساعي بالتصوف وصفه لرواق البناء المُشيَّد على قبر أحمد الرِّفاعي[4] بـ" الرواق المبارك"، و قوله أنَّ الرِّفاعي قد " انتهت إليه رياسة وقته علمًا و عملاً." [5] فقدَّمه في العلم على المُحدّثين والفقهاء، وقدّمه في العمل على سائر أهل عصره، دون أن يقدّم أدلّة على ما ذكر. و بالغ المُصنِّف في وصف كثرة أتباع الرِّفاعي؛ فذكر أنّه " لم يكن في بلاد المسلمين في مشارق الأرض و مغاربها مكان يخلو من مُريديه و متّبعيه...". و ذكر أنّ " الدُّعاء عند قبره مستجاب "، وهذا من ادِّعاءات الصوفية. كما ذكر أنّ " عدد من صلّى عليه و حضر مشهد جنازته " قد بلغ " تسعمائة ألف من الرجال غير الصبيان ... وستمائة ألف من النساء". وقال: "... يُقال: أنَّ المُصَلّين عليه أوَّل صفوفهم بأمّ عُبَيدة " – أي القرية التي تُوفي فيها – " و آخرها بقرية قرناثا[6]، و بينهما مسافة خمس ساعات."[7]

فنلاحظ أنَّ هذه المُبالغات نابعة من التأثُّر بالتصوف.

---

[1] – عبد الرحمان عبد الخالق، **الفكر الصوفي**، ط3، مكتبة ابن تيمية، الكويت، 1406هـ/ 1986م، ص 366.

[2] – هو أبو الحسن علي بن أحمد بن يحيى بن حازم بن علي بن رِفاعة الرِّفاعي، قدم من بلاد المغرب و سكن البطائح، و كانت وفاته عام 519هـ/ 1125م في بغداد. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج21، ص 78. و تاج الدين ابن الساعي، المصدر السابق، ص 112.)

[3] – تاج الدين ابن الساعي، المصدر نفسه، ص 112.

[4] – قبره في قرية أمّ عُبيدة بالبطائح (في نواحي واسِط). (أنظر: المصدر نفسه، ص 112.)

[5] – المصدر نفسه، ص 114.

[6] – قرية من نواحي واسِط قريبة من قرية أمّ عُبيدة.(أنظر: المصدر نفسه، ص 112، 117.)

[7] – المصدر نفسه، ص 116، 117.

كما أقرَّ ابن الساعي ادّعاء من أبرز مزاعم الصوفية الرِّفاعية في سياق حديثه عن سقوط الخلافة العباسية؛ إذْ ذكر أنّ شيخين من شيوخ الرِّفاعية قدما مع رفاق لهم على هولاكو، وعرضا عليه الإسلام فقال هولاكو: " أريد حُجّة ظاهرة ... قالا: افعل ما بدا لك، فأمر أنْ تُؤجَّج لهما نار عظيمة، فأُجِّجت نارٌ لم يُبصَر مثلها بتلك الديار، وأمر أنْ يُذاب لهما النحاس...، ففعل ذلك كلّه وهما ينظران، و كان أمام هولاكو ولد له من أولاده دون العشرة فاختطفه " أحدهما و صاح بالصوفية الحاضرين فأمرهم " بدخول النار فدخلوها جميعا ... و وَلد هولاكو معهم، فصار في غيظ عظيم وهمٍّ وكَرْب، فأمضى ساعات قليلة حتى انكشفت النار ... وخرج " الصوفي المذكور " ومعه وَلد هولاكو بيده تفاحة خضراء، فقام له هولاكو وسأله عن حاله، فقال: كنتُ في بستان جميل، و اقتطفتُ من أشجاره هذه التفاحة، و شربوا أيضا النحاس المُذاب " فلم يضرّهم " بإذن الله تعالى، فأسلم هولاكو ...".[(1)] و يتبيّن لنا بهذا أنّ تأثُّر المُصنِّف بالصوفية أثّر سلبا على كتابه فنقل و أقرّ أكاذيب كهذه. مع الإشارة إلى أنّ الذهبي نفى أن يكون هولاكو قد أسلم كما نفى ذلك ابن كثير، حيث قال لمّا ذكر وفاته: "... كان لعنه الله لا يتقيّد بدين من الأديان ...، وتملّك البلاد شيئا فشيئا حتى أباده الله في هذه السنة " – أي سنة 674هـ/ 1274م– " لا رحمه الله."[(2)]

لكنَّ موقف ابن الساعي من الصوفية يتضمّن عنصرا إيجابيا هو تحذيره من القائلين بوحدة الوجود فوصفهم بأصحاب " العقائد الزائغة و المُنتحَلات الفاسدة "؛ كما وصفهم بـ " أهل البِدعة. "[(3)]

أمّا كتاب " الجامع المُختصَر في عنوان التواريخ و عيون السِّيَر " فهو تاريخ مُرتّب حسب السنين وصل فيه المُصنِّف إلى حوادث عام 656هـ/ 1258م، وقد حصلنا على جزء واحد منه فحسب، ويتضمّن حوادث و وفيات الفترة الممتدة بين عامي (595– 606هـ) (1198– 1209م). فمن مظاهر تأثّر المُصنِّف بالتشيّع و التصوف من خلال عرضه حوادث و وفيات الفترة المذكورة، وصفه بعض المشاهد

[(1)] – تاج الدين ابن الساعي، المصدر السابق، ص 128، 129.

[(2)] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 105. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص289.

[(3)] – تاج الدين ابن الساعي، المصدر نفسه، ص 116، 121.

و مواضع الدفن بأنّها " مُقدّسة "، كقوله في ترجمة أحد المتوفين عام 598هـ/ 1201م: "... و كان يتشيّع و يُنشِد في المواسم بالمشاهد المُقدّسة..." (أي مشاهد بعض الأئمة الإثني عشر). وقوله في ترجمة أحد غلمان الخليفة العباسي الناصر: "... لمّا توفيت مولاته والدة الإمام الناصر ... جُعل في خدمة تربتها المُقدّسة." (أي الموضع الذي دُفنت فيه).[1]

لكنَّ المُصنِّف قد نبّه على بعض انحرافات أبي السعادات البغدادي[2] الشيعي؛ حيث قال: " ... كان غاليا في التشيّع، بلغني أنّه كان يقف كل جمعة في داره خلف بابه ... و بيده سيف مشهور و الناس في الجامع " ينتظر " خروج صاحب الزمان محمد بن الحسن ليخاصم معه...". وقال في ترجمة شيعي آخر: " كان ... غاليا في التشيّع."[3]

-استنتاج:

نستنتج أنَّ تأثُّر ابن الساعي بالتشيّع و التصوف قد أثّر سلبا على كتابه، خاصّة من خلال نقله و إقراره لبعض المزاعم الصوفية الموضوعة، لكنّه من ناحية أخرى صرّح بالثناء على الخلفاء الراشدين الأربعة، و صرّح باستنكار انحرافات الاتحادية و الباطنية، و بيَّن تآمر ابن العلْقمي على الخلافة العباسية.

[1] – تاج الدين ابن الساعي، **الجامع المُختصَر**، ج9، (تحقيق: مصطفى جواد)، المطبعة السريانية، بغداد – العراق، 1353هـ/ 1934م، ص 85، 182.

[2] – شيخ من أعيان تجار بغداد تُوفي عام 601هـ/ 1204م. (أنظر: تاج الدين ابن الساعي، المصدر نفسه، ص 162.)

[3] – المصدر نفسه، ص 162، 186.

خلاصة الفصل:

لم يكن تأثُّر كتب التاريخ العام (ق7هـ/ 13م) بالنزعة المذهبية على قدر واحد؛ فتعامل ابن الأثير مع المعطيات المتعلّقة بالمذاهب والفِرَق كان على ثلاث حالات؛ الأولى ذِكْره لهذه المعطيات دون أنْ يُعلّق عليها أو يُبدي موقفه منها، والثانية التعليق بإنصافٍ، خاصّة الإشارة إلى انحرافات الباطنية، والثالثة التعليق بغير إنصافٍ في مواضع قليلة مقارنة بحجم "الكامل"، وتتعلّق هذه الحالة أساسا ببعض ما كتبه عن الحنابلة من أهل الحديث.

ويُمكن أنْ نقول من خلال دراستنا للأجزاء الأخيرة من "مرآة الزمان" أنَّ تشيُّع سِبْط ابن الجَوْزي لم يؤثّر بصفة جليّة على هذه الأجزاء. ولم يُعلّق – في الغالب– على أعمال الباطنية، غير أنَّ كلامه في بعض المواضع يتضمّن ذمّهم، و انتماؤه إلى الماتُريدية لم يكن له تأثير قويٌّ على كتابه، وهذا عنصر إيجابي.

وتضمّن كتاب "الفخري" لابن الطِّقْطقي مواقف تدلُّ على عدم تأثّر مُصنِّفه بالنزعة الشيعية، ومواقف أخرى برز فيها أثر هذه النزعة، ولم يتطرّق لمعطيات المذاهب والفِرَق إلاّ في مواضع قليلة.

و تأثّر ابن الساعي بالتشيع والتصوف انعكس سلبا على كتابه، خاصّة من خلال نقله و إقراره لبعض المزاعم الصوفية، لكنّه من ناحية أخرى صرّح باستنكار انحرافات الاتحادية والباطنية.

<u>الفصل الثالث</u>: أثر النزعة المذهبية على كتب التاريخ العام خلال (ق8هـ/ 14م)

يتضمن هذا الفصل دراسة أبرز كتب التاريخ العام المصنفة خلال (ق8هـ / 14م).

<u>أوّلا – كتاب " تاريخ الإسلام":</u>

يُعدُّ كتاب "تاريخ الإسلام و وفيات المشاهير والأعلام" من أشهر كتب التاريخ، صنَّفه "مؤرِّخ الإسلام" شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عثمان الذهبي الدمشقي الشافعي. وُلد في دمشق عام 673هـ/ 1274م ونشأ فيها، وعُرِف بالذهبي نسبة إلى " صَنْعة الذهب " التي اشتغل فيها أبوه. وطلب الذهبي العلم – خاصّة الحديث– في دمشق، و ارتحل إلى كثير من مدن الشام، ثم إلى الدِّيار المصرية عام 695هـ/ 1295م و الحِجاز عام 698هـ/ 1298م، حيث حجَّ خلال السنة المذكورة. وفي عام 703هـ/ 1303م ولي الخطابة بمسجد كفر بطنا، وهي قرية قريبة من دمشق، وظلَّ مُقيما بها إلى سنة 718هـ/ 1318م وفيها ألّف " تاريخ الإسلام "، وله مصنَّفات أخرى منها " العِبَر في خَبر من غَبَر"، " المُعجم المختصّ بالمُحدِّثين"، " سِيَر أعلام النُّبلاء"، " طبقات الحُفّاظ "، " ميزان الاعتدال في نقد الرجال"، " العلوُّ للعليّ الغفَّار"، كتاب " الأربعين في صفات ربِّ العالمين."، " معرفة القُرّاء الكبار على الطبقات و الأعصار" " المُغني في الضعفاء و بعض الثقات." [1]

و تطرّق الذهبي في " تاريخ الإسلام" للحوادث و التراجم ابتداء من السنة الأولى للهجرة حتى سنة 700هـ/ 1300م، و وضع خطة عامّة للكتاب، قسّمه بموجبها إلى وحدات زمنية أمدها عشر سنوات أطلق عليها لفظ " الطبقة ". و بدأ في حديثه عن كلِّ طبقة بذِكْر حوادث كلِّ سنة من سنواتها، ثم ينتقل إلى التراجم حيث كان تركيزه عليها جليّا.[2] و نشير إلى أنَّ الذهبي كان متمسِّكا بعقيدة أهل الحديث ومصنفاته دالّة على ذلك[3]. و نبرز مظاهر تأثّر كتابه بالنزعة المذهبية كما يلي:

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام** (مقدمة المُحقّق)، ص 21، 22، 34، 42.

(2) – المصدر نفسه (مقدمة المحقّق)، ص 71، 82. وعبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 90، 91. والملحق الثامن ص 408.

(3) – المصدر نفسه، ج1 (مقدمة المحقّق)، ص 37.

-أ- مواقف المصنِّف من الشيعة و الخوارج:

تضمّن " تاريخ الإسلام " معطيات كثيرة تُبيِّن مواقف الذهبي من الشيعة و الخوارج، و نوضّح ذلك في العناصر التالية:

-1- مواقف المُصنِّف من الشيعة و الخوارج من خلال عرضه حوادث و تراجم القرنين الأوّل و الثاني الهجريين (ق7/ 8 م):

لقد نَقَد الذهبي عدَّة روايات تخصّ بعض أعلام القرن الأوّل الهجري (ق7م) وفي أسانيدها رُواة من الشيعة؛ فقال في ترجمة الحَكَم بن أبي العاص الأُمَوي [1]: " ... وقد رُويت أحاديث مُنكَرة في لعنه لا يجوز الاحتجاج بها..."، وذكر حديثا (مع إسناده) فيه أنّ الحَكَم استأذن على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال عليه الصلاة و السلام: " ائذنوا له لعنه الله و كلَّ من خرج من صُلبه إلاّ المؤمنين." قال الذهبي: " إسناده فيه من يُجهل." أي أنَّ الحديث لا يصحّ. وذكر حديثا آخر لفظه: " كان الحَكَم يجلس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و ينقل حديثه إلى قُرَيش، فلعنه رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ومن يخرج من صُلبه إلى يوم القيامة." ثم قال الذهبي: " تفرَّد به سليمان بن قرم[2] وهو ضعيف." وكان سليمان شيعيا.[3] ونشير هنا إلى شدّة بُغض الشيعة للأُمَويين، وهذا مشهورٌ.[4]

و حرص المُصنِّف في ترجمته لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) على التطرُّق لمناقبه؛ فذكر أنَّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: "من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه." ثم قال الذهبي: " هذا حديثٌ صحيحٌ." ونقل

---

(1) – هو الحَكَم بن أبي العاص بن أُمَية بن عبد شمس بن عبد مناف الأُمَوي القُرَشي، أسلم يوم فتح مكة (عام 8 هـ/ 629 م) و كانت وفاته عام 31هـ/ 652 م. و هو والد الخليفة الأُموي الرابع مروان بن الحَكَم (ت 65 هـ/ 685م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2 ، ص 198، 199، 706.)

(2) – هو أبو داود سليمان بن قرم بن مُعاذ الكوفي، توفي خلال النّصف الثاني من (ق 2هـ/ 8 م)، و ترجم له الذهبي في " تاريخ الإسلام" مع الطبقة السابعة عشرة (161– 170هـ). (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج4، ص 400).

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 2، ص 199، 200. و **ميزان الاعتدال**، ج 3، ص 310.)

(4) – محمد بن عمر، **ضوابط الجرح و التعديل عند الحافظ الذهبي**، ط1، إصدارات الحكمة، د م، 1421هـ/ 2000م.، ص 272.

كذلك روايات أخرى، لكنَّه بيَّن أنَّ بعضها لا يصحّ؛ فذكر أنّ جُمَيع بن عُمَير الكوفي [1] قال أنّ عائشة رضي الله عنها سُئِلت: " أيُّ الناس كان أحبَّ إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلّم؟ قالت : فاطمة. فقيل: من الرِّجال؟ فقالت: زوجها... "، (أي عليّ رضي الله عنه)، ثم قال المُصنِّف: " جُمَيع كذّبه غير واحدٍ." وكان جُمَيع شيعيا من أهل الكوفة. و ذكر الذهبي في موضع آخر أنَّ رجلا قال للحسن بن علي بن أبي طالب: " إنّ الشيعة يزعمون أنّ عليًّا مبعوث قبل يوم القيامة، فقال: كذبوا و الله ...؛ لو علمنا أنّه مبعوث ما زوّجنا نساءه ولا قسّمنا ميراثه." [2] فنلاحظ أنَّ منهج المُصنِّف وسط بين الشيعة و الناصِبة المُبغِضين لأمير المؤمنين علي.

ولمَّا تطرَّق لترجمة الحسن بن علي بن أبي طالب فصَّل في ذِكْر مناقبه، ثم أشار إلى وجود روايات تتضمن اتهام الخليفة الأُمَوي الأوّل مُعاوية بن أبي سفيان ببذل مال لإحدى زوجات الحسن على أن تدسّ له السُّم، و لكنّ الذهبي علّق على ذلك بقوله: " هذا شيء لا يصحّ فمن الذي اطَّلع عليه ؟ ".[3]

و بيَّن في تطرُّقه لوفاة أبي طالب[4] بُطلان ادِّعاء الشيعة أنّه أسلم قُبَيل وفاته، و ذكر حديثا فيه أنّ النبي صلّى الله عليه و سلّم قال لعمِّه أبي طالب في مرضه: " أي عم، قل لا إله إلاّ الله أستحلُّ لك بها الشفاعة يوم القيامة، فقال: يا بن أخي لولا أن تكون سُبّة عليك وعلى أهل بيتك من بعدي، يرون أنِّي قلتها جَزَعا لما نزل بي من الموت لقلتها، لا أقولها إلاّ لأسُرّك بها. فلمّا ثقُل أبو طالب رُؤي يُحرِّك شفتيه فأصغى إليه العباس[5] ليسمع قوله، فرجع العباس عنه فقال: يا رسول الله قد و الله قال الكلمة التي سألته

---

(1) – جُمَيع بن عُمير التيمي الكوفي، من قبيلة تيم الله بن ثعلبة، سمع من عبد الله بن عمر بن الخطاب، و كانت وفاته خلال النِّصف الثاني من القرن الهجري الأوّل (ق7م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **ميزان الاعتدال**، ج2، ص 153.)

(2) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2 ، ص 355، 358، 361، 373. و **ميزان الاعتدال**، ج 2، ص 153.

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 402، 403.

(4) – أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم، عمّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، توفي في السنة الثالثة قبل الهجرة. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 614.)

(5) – توفي العباس بن عبد المطلب عمّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم سنة 32هـ/ 653 م عن ستّ و ثمانين سنة. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 24).

فقال النبيّ صلَّى الله عليه وسلّم: لم أسمع." ثم ذكر الذهبي أنّ هذا الحديث " إسناده ضعيف لأنّ فيه مجهولا. " و قال: " ... و أيضا فكان العباس ذلك الوقت على جاهليته ...، و قد تقدَّم أنّه بعد إسلامه قال: يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنّه كان يحوطك و يغضب لك. فلو كان العباس عنده عِلْم من إسلام أخيه أبي طالب لما قال هذا...، و لكنّ الرافضة قومٌ بُهْت." [1]

كما حرص الذهبي على إبطال اعتقاد الشيعة أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم قد أوصى بالخلافة لعليّ (رضي الله عنه)، ونقل عدّة نصوص؛ منها ماروا‌ه عبد الله بن عمر بن الخطاب أنّ بعض الصحابة قالوا لأبيه عمر(رضي الله عنه): " استخلِف، فقال: ...إنْ أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ منّي " – يعني أبا بكر– " و إنْ أترككم فقد ترككم من هو خيرٌ منّي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. " ثم أشار الذهبي إلى وضْع الشيعة للأحاديث لإثبات معتقدهم في الإمامة و قال: "... وعند الرافِضة أباطيل في أنّ عليًّا عُهِد إليه." [2]

ولَئِن كان المُصنِّف قد بيَّن عدم صحّة عدّة روايات تخصّ بعض أعلام الأُمَويين؛ فإنّه ذكر في باب إخبار النبيّ صلّى الله عليه و سلّم " بالكوائن بعده " أنّ النبي (عليه الصلاة و السلام) قال: " إذا بلغ بنو أبي العاص[3] أربعين رجلاً اتَّخَذوا دين الله دَغَلاً و عباد الله خَوَلاً[4] و مال الله دُولا. " ثم ذكر الذهبي أنّ هذا الحديث " غريب[5] و رواته ثِقات ." [6]

---

(1) – " قومٌ بُهْت أي أهل باطل و افتراء و كذب." (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج1، ص 614. و مجد الدين الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، (حقّقه: محمد العرقوسي و آخرون)، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1426هـ/ 2005م، ص 148.

(2) – شمس الدين الذهبي ، **تاريخ الإسلام**، ج1، ص 834، 836.

(3) – هو أبو العاص بن أُميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف، و هو جدّ مروان بن الحَكَم. (أنظر: المصدر نفسه، ج 2، ص 706).

(4) – الخَوَل: العبيد و الإماء وغيرهم من الحاشية.(أنظر: مجد الدين الفيروزآبادي، المصدر نفسه، ص 996.)

(5) – الحديث الغريب "هو ما ينفرد بروايته راوٍ واحد ". (أنظر: محمود الطحان، **تيسير مصطلح الحديث**، مركز الهدى للدراسات، الإسكندرية – مصر، 1415هـ/ 1994م، ص 27.)

(6) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج1، ص 723. و ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج2، ص 368، 370.

و نبَّه في مواضع كثيرةٍ على تشيُّع بعض الأعلام الذين ترجم لهم، ولم يكن موقفه منهم واحد نظرا لتباين طبيعة تشيُّع كلٍّ منهم؛ فقال بشأن قيس بن عَبّاد[1] : " ... وكان كثير العبادة والغزو، ولكنّه شيعي وقد رحل إلى المدينة وصلّى مع عمر "(الخليفة الراشد). و نقل في ترجمة الشاعر كُثَيِّر بن عبد الرحمان بن الأسود الخُزاعي المَدَني (ت107هـ/ 725م) ما يدلّ على أنّه " كان شيعيا يقول بتناسخ الأرواح " ويُؤمن بالرَّجعة، " يعني رَجعة عليٍّ رضي الله عنه إلى الدنيا. " و قال في ترجمة بيان بن سمعان التميمي (ت119هـ/ 737م) " ... لعنه الله، ظهر بالعراق وقال بإلهية عليٍّ رضي الله عنه، و أنَّ فيه جزءا من الإلهية ...".[2]

و حرص الذهبي في ترجمته لمحمد الباقِر بن علي بن الحسين وأخيه زيد على الثناء عليهما، كما نبَّه إلى بعض الانحرافات العَقَدية للشيعة؛ فقال في ترجمة الباقِر: " ... وكان أحد من جَمَع العلم والفقه والشرف و الديانة و الثّقة و السُّؤدد، و كان يصلح للخلافة، و هو أحد الإثني عشر الذين تعتقد الرافِضة عِصْمتهم، ولا عِصمة إلاّ لنبيّ، لأنّ النبي إذا أخطأ لا يُقَرُ على الزلة، بل يُعاتَب بالوحي على هفوة إن ندر وقوعها منه...". ثم ذكر أنَّ الباقِر سُئِل عن أبي بكر و عمر فقال: " و الله إنّي لأتولاّهما و أستغفر لهما، وما أدركتُ أحدا من أهل بيتي إلاّ وهو يتولاّهما...". ثم قال الذهبي بشأن من يسبّهما: "... عثّرهم الله ينالون من الشيخين، ويحملون هذا القول من الباقِر ...على التقية. " وقال في ترجمة زيد: " ... وكان أحد العلماء الصلحاء..."، و أكد أنّه كان يتولّى أبا بكر و عمر و يتبرّأ ممّن يتبرّأ منهما.[3]

و لمّا ترجم المُصنِّف للمُغيرة بن سعيد الكوفي الشيعي (ت 119هـ/ 737م) قال: " لعنه الله "، وأشار إلى بعض انحرافاته؛ منها قوله أنَّ علي بن أبي طالب كان يُحيي الموتى، و منها ادّعاؤه النُّبُوّة و الكذب

---

[1] – هو أبو عبد الله قيس بن عَبّاد البصري، ترجم له الذهبي في " تاريخ الإسلام " ضمن الطبقة التاسعة (81/ 90هـ). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج2، ص 991.)

[2] – المصدر نفسه، ج 2، ص 991، و ج 3، ص144، 214.

[3] – المصدر نفسه، ج 3، ص 308، 309، 415، 416.

على الخليفة عليّ. و قال في ترجمة عبد المَلِك بن أعين[1]: "... وهو صادقٌ في الحديث، لكنَّه من غُلاة الرافِضة...". و نقل في ترجمة عمرو بن جابر[2] – وكان شيعيا– أنَّه كان يقول " أنّ عليًّا في السحاب. " كما نقل في ترجمة حمران بن أَعْيَن الكوفي[3] قول بعض المُحَدِّثين فيه: " كان شيعيا جَلْدا. "[4]

ونجد في " تاريخ الإسلام " نماذج كثيرة من تنبيه المُصنِّف على عقائد المترجَم لهم؛ منها قوله بشأن العلاء بن السائب[5] : "... وهو شيعيٌّ جَلْدٌ. " وقوله عن يزيد بن أبي زياد الكوفي (ت 136هـ/ 753م): " ... وكان مُحدِّثا مكثرا شيعيا ...، قيل: "... كان صدوقا في نفسه سيِّئ الحِفظ. " و ذكر أنّ يونس بن خَبّاب الكوفي[6] – وهو من رواة الشيعة– " كان رافضيا جَلْدًا." كما ذكر أنّ الإمام أحمد قال عن المُحدِّث علي بن بذيمة الجَزْري (ت136هـ/ 753م): " صالح الحديث، رأسٌ في التشيّع. " وقال الذهبي في ترجمة المُحدِّث سَعْد بن طريف التميمي الكوفي[7]: "... وهو شيعي ضعيف الحديث." وقال في ترجمة محمد بن السائب بن بِشْر الكَلْبي الكوفي (ت 146هـ/ 763م): " ...الأخباري العلاّمة، صاحب التفسير ...، وقد اتُهِم بالأخوين: الكذب والرَّفْض، و هو آية في التفسير ، واسع العلم على ضعفه. " ثم وصفه بـ " التالِف " ، أي أنّه ليس بثِقة، وذكر بعض ما نُقِل من انحرافاته، منها قوله أنّ جبريل " كان ... يوحي إلى النبيّ صلّى الله عليه و سلّم فقام لحاجة، و جلس عليّ فأوحى جبريل إلى عليّ. " [8]

---

[1] – عبد المَلِك بن أَعْيَن الشيباني الكوفي، ترجم له الذهبي ضمن الطبقة الثالثة عشرة (121– 130هـ). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج3، ص 456.)

[2] – عمرو بن جابر المصري، ذكره الذهبي ضمن الطبقة الثالثة عشرة. (121– 130هـ).(أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 469).

[3] – ترجم له الذهبي في الطبقة الرابعة عشرة (131– 140هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 635).

[4] – المصدر نفسه، ج3، ص 317، 318، 456، 470، 635.

[5] – العلاء بن أبي العباس السائب المكي الشاعر، ترجم له الذهبي في الطبقة الرابعة عشرة (131– 140هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 705).

[6] – ترجم له الذهبي في الطبقة الرابعة عشرة (131– 140هـ)، و كان يتكلّم في الخليفة الراشد عثمان. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 759).

[7] – ذكره الذهبي ضمن الطبقة الخامسة عشرة (141 – 150هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 872.)

[8] – المصدر نفسه، ج3، ص705، 753، 759، 707، 872، 960، 961.

و وصف الذهبي المُحدِّث أبا عبد الله عمرو بن شَمِر الكوفي (ت157هـ/774م) بـ" العابد الرافِضي"، و أشار إلى أنّ البُخاري قال عنه: " مُنكَر الحديث "، و أنّ ابن حبّان[1] قال: " رافِضي يشتم الصحابة." كما قال الذهبي في ترجمة الراوي لوط بن يحيى الكوفي المعروف بأبي مخنف (ت157هـ/ 774م): "... الرافِضي الأخباري"، و أشار إلى أنّه كان يروي عن " طوائف من المجهولين ". وذكر كلام بعض علماء الحديث كابن حبّان في الراوي أبي الجارود زياد بن المُنذر الكوفي[2]، حيث قال(الذهبي): "... وقال ابن حبّان: كان رافِضيا يضع الحديث في المثالب." (أي للطعن في الصحابة.)[3]

وقد تحرّى الذهبي الإنصاف في تراجمه لأعلام الشيعة، و يدلّ كلامه في النماذج المتقدمة على ذلك كقوله: " قيل ... كان صدوقا في نفسه." وقوله: "... واسع العلم على ضعفه." كما يدلّ عليه نقله اختلاف علماء الحديث في بعض الرواة الشيعة؛ فقال في ترجمة جعفر بن زياد الأحمر الكوفي (ت167هـ/ 783م): " ... قيل: كان من صالِحي الشيعة...، و قال ابن حبّان: في النفس منه." و قال أبو داود السجستاني: " صدوق"، و قيل أنّه " مائل عن الطريق." وذكر المُصنِّف أنّ سليمان بن قرم " كوفي صالح الحديث." ثم قال : " وهو شيعي مُفْرِط ضعَّفه ابن معين...، وقال أحمد بن حنبل: لا أرى به بأسا، لكنّه يُفرِط في التشيُّع." كما نقل الذهبي اختلاف العلماء في الراوي عبد الجبار بن العباس الكوفي (ت بعد 160هـ/ 777م)، فأشار إلى قول أحمد بن حنبل: " أرجو أنّه لا بأس به، كان يتشيَّع." و قول ابن حبّان: " كان غاليا في التشيُّع." و قول ابن معين: " ليس به بأس." و نبّه في ترجمة المُحدِّث أبي عبد الرحمان فُضَيل بن مرزوق الكوفي (ت170هـ/ 786هـ) إلى أنّه " شيعي غير رافِضي." (أي لا يطعن في الصحابة)، وذكر أنّ المُحدِّث أبا سليمان جعفر بن سليمان البصري (ت178هـ/ 794م) كان "من عُبّاد

---

(1) – " الحافظ " الشهير محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن مُعاذ التميمي المتوفّى عام 354هـ/ 965 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج 2، ص 94).

(2) – ترجم له الذهبي في الطبقة السابعة عشرة. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 4، ص 370).

(3) – المصدر نفسه، ج 4 ، ص 170، 171، 189، 370.

الشيعة و صالِحيهم." ثم نقل خبرا يتضمن بغض جعفر لأبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، و علّق الذهبي على ذلك بقوله: " وفي صحّة هذه عنه نَظَرٌ، فإنّه لم يكن رافِضيا، حاشاه." ثم أشار إلى أنَّ ابن معين قد وثّقه، و أنّ بعض العلماء قالوا: " فيه ضَعْف." و قال الذهبي عن المُحَدِّث أبي زياد إسماعيل بن زكريا الكوفي (ت 173هـ/ 789م): " صدوق يتشيَّع، اختلف قول يحيى بن معين فيه، فمرّة قال: ضعيف، و مرّة وثّقه ...، و قال أحمد بن حنبل: ... ليس ينشرح الصدر له...".[1]

و نجد نماذج أخرى كثيرة تدلُّ على تحرِّي الذهبي للإنصاف في تراجمه لمُحَدِّثي الشيعة، ومراعاته لتباين طبيعة التشيع، أي الاختلاف في درجة الانحراف العَقَدي؛ فقال في ترجمة منصور بن أبي الأسود الكوفي[2] : " قال ابن معين: ليس به بأس، كان من الشيعة الكِبار." وقال في ترجمة أبي الحسن علي بن هاشم بن البريد الكوفي (ت 181هـ/ 797م): " كان شيعيا بغيضا." و قال: " وثّقه ابن معين ...، وقال ابن حبّان: روى المناكير عن المشاهير." و ذكر في ترجمة أبي عبد الله سَلَمة بن الفَضْل الرازي (ت196هـ/ 812 م) أنّ ابن معين قال: " كان يتشيَّع "، و أنّه قد وثّقه، و أنّ البُخاري قال: " عنده مناكير." كما ذكر في ترجمة أبي عبد الرحمان محمد بن فُضَيل بن غزوان الكوفي (ت 195هـ/ 811م) أنّ ابن معين قد وثّقه، وأشار الذهبي إلى أنّه كان يترضّى على أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، لكنّه نقل خبرا يتضمّن عدم ترضي ابن فُضَيل على عثمان (رضي الله عنه). وذكر في ترجمة أبي بكر يونس بن بُكير بن واصل الشيباني الكوفي (ت 199هـ/ 814 م) أنّ ابن معين قد وثّقه، و أنّ أبا داود السجستاني قال: " ليس بحُجَّة عندي"، ثم قال الذهبي: " و ممّا يُنقَم عليه التشيّع." [3]

كما نجد نماذج كثيرة نبّه فيها المُصنِّف إلى انحرافات كثير ممّن ترجم لهم من أعلام الشيعة، منها قوله في ترجمة المُحدِّث أبي مريم عبد الغفار بن القاسم الكوفي (ت بعد 161هـ/ 778م) : " قال ابن

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 4، ص 322، 400، 430، 479، 580، 594.

(2) – ترجم له الذهبي في الطبقة الثامنة عشرة (171– 180هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج 4، ص 750).

(3) – المصدر نفسه، ج 4، ص 750، 932، 1119، 1258، 1259.

معين: ... ليس بثقة ...، و قال أحمد بن حنبل: حدَّث ببلايا في عثمان " (أي الخليفة الراشد عثمان بن عفان). و ذكر الذهبي أنَّ الشاعر إسماعيل بن محمد بن يزيد البصري المعروف بالسيّد الحِمْيري (ت178هـ/ 794م): " كان ... شاعرا محسنا بديع القول، إلاّ أنّه رافضيٌّ جَلْد زائغٌ عن القصد، له مدائح جمّة في أهل البيت عليهم السلام...، وممّا رُوي و لم يصح عن جعفر " الصادق " أنّه قيل له: أنّ السيّد الحِمْيري يشرب المُسكِر، فقال: إن زلّت به قدَم فقد ثبتت له أخرى." فقد نبّه الذهبي على عدم صحّة هذه الرواية. وقال في ترجمة " شيطان الطاق " [(1)]: " ...أبو جعفر الكوفي ...المعتزلي الشيعي المُبتدِع و الرافضة تنتحِله و تُسمِّيه مؤمن الطاق." و نقل خبرا مضمونه أنّ " شيطان الطاق " قيل له: " ويحك ما اتقيت أن تقول في كتاب الإمامة أنّ الله لم يقل قطّ في القرآن: " ثاني اثنين إذ هما في الغار." [(2)] فضحك طويلا حتى" كأنّ سائله هو المُذنب. و علَّق الذهبي على ذلك بقوله: " إنْ صحَّت هذه الحكاية عنه دلّت على زندقته، قاتله الله." [(3)]

كما قال المُصنِّف في ترجمة المُحدِّث عمرو بن أبي المِقْدام ثابت بن هرمز الكوفي (ت 172هـ/ 788م): " و كان شيعيا مُتغاليا ...، و قال ابن معين: ليس بثقة، ... و قال " عبد الله بن المبارك: " لا تُحدِّثوا عنه فإنّه كان يسبُّ السلَف. " و نقل في ترجمة المُحدِّث مُعلّى بن هلال بن سُويد الكوفي (ت بعد 171هـ/ 787م) أنّ ابن حبّان قال عنه: " ... كان غاليا في التشيُّع، يشتم الصحابة "، و أنّ ابن معين قال: " معروف بوَضْع الحديث." [(4)]

و حرص الذهبي على توقير أعلام أهل البيت، و كشف كذِب الشيعة عليهم، ومن النماذج التي تدلُّ

---

(1) – هو محمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البَجَلي الكوفي، من قبيلة بَجيلة. " كان صيرفيا بالكوفة بطاق المحامل " (موضع في الكوفة) " اختلف هو و صيرفي في نقد درهم، فغلبه هذا وقال: أنا شيطان الطاق، فلزمته." و قيل: أنّ بعض أهل السُنة أطلقوا عليه هذا اللقب. وقد ترجم له الذهبي ضمن الطبقة الثامنة عشرة (171– 180هـ). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 4، ص 652، 653.)

(2) – سورة التوبة، (جزء من الآية 40).

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 4 ، ص 443، 638، 640، 652، 653.

(4) – المصدر نفسه، ج 4، ص 700، 747، 748.

على ذلك قوله في ترجمة جعفر الصادق: " مناقب جعفر كثيرة، وكان يصلح للخلافة لسُؤدده و فضله وعلمه وشرفه...، وقد كذبت عليه الرافِضة و نسبت إليه أشياء لم يسمع بها...". و ذكر أنَّه كان يترضّى عن الصحابة و يتبرَّأ ممّن يُعاديهم.(1)

وحرص المُصنِّف كذلك على التنبيه على انحرافات الخوارج، فقال في ترجمة الخليفة الراشد علي بن أبي طالب: "... فقاتل الخوارج الذين أوَّلوا القرآن برأيهم و جهلهم." و ذمَّ عبد الرحمان بن مُلجم " قاتِل عليٍّ رضي الله عنه "، فذكر أنّه " خارجيٌّ مُفتَرٍ "، و قال: " وهو عند الخوارج من أفضل الأمَّة " و" عند الروافِض أشقى الخلق في الآخرة، و هو عندنا أهل السُّنة ممّن نرجو له النار، ونُجَوِّز أنْ يتجاوز الله عنه ...، وحُكمه حُكم قاتل عثمان... وقاتل الحسين، فكلُّ هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونَكِل أمورهم إلى الله عزَّ وجلَّ. وقال عن صالح بن مُسَرّح التميمي الخارجي(2): "... وكان صالحا ناسِكا...، وله أصحاب يُقرِئهم ويفقِّههم و يقصّ عليهم، ولكنّه يَحطّ على الخليفتين عثمان وعلي كدأب الخوارج، ويتبرّأ منهما ...". كما ذمّ الخوارج بعدما ذكر انتصار حنظلة بن صَفْوان الكَلْبي عليهم في بلاد المغرب (عام 125هـ/ 743م) فقال: "... وهؤلاء الكلاب يستبيحون سَبْي نساء المسلمين و ذرِّيتهم و دماءهم و يُكفِّرون أهل القِبْلة...".(3)

و نستنتج ممَّا تقدَّم في هذا العنصر أنَّ الذهبي قد نبّه في مواضع كثيرة على الانحرافات العَقَدية عند الشيعة و الخوارج، و كان مُنصِفا في تراجمه لأعلامهم؛ إذْ لم يَفتر عليهم، و لم يجعلهم على قدر واحد من الانحراف، و نقل اختلاف أقوال علماء الحديث في بعض الرواة. و لاحظنا أنَّ الذهبي نقد بعض الأخبار و بيَّن بطلانها.

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 831، 833.

(2) – خرج عام 76هـ/ 695 م في الجزيرة الفُراتية و العراق، و قُتل في السنة نفسها، و ذلك خلال عهد الخليفة الأُمَوي الخامس عبد المَلِك بن مروان بن الحَكَم. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 5، ص 142).

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 2، ص 316، 373، 374، 768، 769. و ج 3، ص 357.

-2- مواقف المُصنِّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث و تراجم القرن الثالث الهجري (ق9 م):

لقد نبَّه المُصنِّف في مواضع كثيرة إلى تشيُّع كثير من الرواة، و نقل أقوال كثير من العلماء في ذمِّهم على سبيل الاستدلال بها؛ فذكر في ترجمة عمرو بن عبد الغفَّار الكوفي (ت 202هـ/ 817 م) أنّ علي ابن المديني قال عنه: "... كان رافِضيا. " و أشار الذهبي إلى أنَّ أبا المُنذر هشام بن محمد بن السائب الكَلْبي (ت204هـ/ 819 م) " مع فَرْط" ذكائه " لم يكن بثِقة، وفيه رَفْضٌ ". و ذكر أنّ المُحدِّث يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمان بن ميمون الكوفي (ت228هـ/ 843 م) " كان شيعيا له كلامٌ نحسٌ في مُعاوية " (الصحابي مُعاوية بن أبي سفيان). و قال في ترجمة المُحدِّث أبي الوليد عبد الله بن محمد[1] : "... كان كثير الحديث، إلاّ أنَّه يُجاهِر بالرَّفْض، و أنكر خلافة الصدِّيق رضي الله عنه...".[2]

كما قال في ترجمة الشاعر الشهير دعبل الخُزاعي: " الشاعر المشهور...، وكان خبيث اللسان رافِضيا هَجّاء." وذكر أنّ أبا يعقوب إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان الكوفي (ت بعد 270هـ/ 883 م) " كان من غُلاة الرافِضة... تُنسَب إليه الإسحاقية الذين يقولون: عليّ هو الله تعالى، فتعالى الله عمّا يقولون عُلوّا كبيرا "، ثم قال: " نقل الخطيب " (أي الخطيب البغدادي) " عن غير واحدٍ خُبث مذهب هذا الشقيّ." و قال المُصنِّف في ترجمة المُحدِّث عبد الرحمان بن يوسف بن سعيد بن خراش البغدادي (ت 283هـ/896 م): "... وقد اتُّهم بالرَّفْض "، ثم نقل عن غيره خبرا مضمونه تصنيف ابن خراش " جزئين" للطعن في أبي بكر الصدِّيق و عمر بن الخطاب. و قال في ترجمة إبراهيم بن محمد بن سعيد بن هلال الكوفي (ت283هـ/896 م): "سكن...أصبهان، ويُكنّى أبا إسحاق، بثَّ الرّفْض...". وتجدر الإشارة إلى أنّ توظيف لفظ "الرافِضة " و"الرافِضي" يعدُّ من مظاهر التعبير عن انحرافات غُلاة الشعية، و يشير

---

[1] – ترجم له الذهبي مع وفيات الفترة (231 – 240 هـ). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 5، ص858).
[2] – المصدر نفسه، ج 5، ص138، 211، 726، 727، 858.

إلى طعن هؤلاء في الصحابة.[1]

وقد ذمّ الذهبي عُبَيد الله المَهدي ومن تملَّك من ذرِّيته في بلاد المغرب ومصر فقال:"... جدّ بني عُبَيد خلفاء المصريين الروافِض الملاحدة، الذي زعم أنّه ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ..."، وقال في موضع آخر: "... والد خلفاء المصريين الباطنية. " فنلاحظ أنّه لا يُثبِت نسَبا عَلَويا لعُبَيد الله، كما وصفه و خلفاءه بـ " الملاحدة "؛ لأنّ مذهب الإسماعيلية – كما أوضحنا سابقا – ظاهره الغُلوّ في التشيُّع وباطنه الإلحاد. و قال في ترجمة أبي عبد الله الحسين بن حمد بن محمد الشيعي الداعي الإسماعيلي (ت 298هـ/ 910م): "... صاحب دعوة عُبَيد الله المَهدي " له " اعتقادٌ خبيثٌ "، ثم قال: " يا ما لَقِي العلماء و الصلحاء بالمغرب من هذا الشيعي قبَّحه الله و لا رحمه ..."، وذكر بعض من قتلهم من الفقهاء في إفريقية.[2]

و ذمّ الذهبي القرامطة – وهم من الباطنية –؛ فأشار إلى بداية ظهورهم في العراق (278هـ/ 891 م) وقال: " و... هؤلاء يرجعون إلى مذهب الملاحدة ...الذين جحدوا النُّبُوة وأباحوا المحظورات...لعنهم الله. " وقال: " ... وتحيّلوا على المسلمين بطُرق شتّى، و نَفَق قولهم على الجُهّال ... ويدخلون " على كلِّ طائفة " بما يوافقهم، و يُظهرون مع كلِّ فِرقة أنّهم منهم "، و يقولون أنَّ " الخمر حلال. " و قال في حوادث سنة 290هـ/ 903 م: "... وفيها قُتِل أبو القاسم يحيى بن زكرويه بن مهرويه القرمطي ...، و كان يُسَمِّي نفسه كذِبا و بُهتانا: علي بن أحمد بن محمد ابن عبد الله الحُسيني، وكان من دُعاة القرامطة. " كما قال: "... وفيها قُتِل الكلب يحيى بن زكرويه على حصار دمشق...، فنصّب أصحابه أخاه الحسين بن زكرويه و يُسمَّى بصاحب الشامة...، وأظهر شامة في وجهه و زعم أنَّها آيته...، و زعم بكذبه أنّه أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق...". وذكر المُصنِّف في حوادث عام 291هـ/ 904 م أنّ

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 5، ص 1132، 1133. و ج 6، ص 514، 515، 773، 774، 711.

[2] – المصدر نفسه، ج 6، ص 256، 935، 936، 937. و أنظر: الملحق الثاني ص 401.

" الحسين بن زكرويه ... قويت شوكته و عظُمت أذِيَّته، فصالحه أهل دمشق على أموال فانصرف عنها إلى حِمْص فملكها... وسار إلى ... حَماة، فقتل و سَبَى النساء، وجاء إلى بعلبك فقتل عامَّة أهلها...".[1]

كما ذمّ الذهبي زكرويه القرمطي، و ذكر أنّه اعترض قوافل حُجّاج خُراسان سنة 294هـ/ 907 م و " قتل الرجال و سَبَى الحريم "، ثم قال: " لعنه الله." و قال في ترجمة يحيى بن زكرويه: "... الزِّنْديق الخارجي." و قال في ترجمة الحسن بن زكرويه: "... رأس القرامطة و طاغيتهم...". فنلاحظ من خلال ما تقدَّم شدَّة ذمّ الذهبي للباطنية لأنَّهم " يرجعون إلى مذهب الملاحدة "، و بسبب ما اقترفوه من أعمال شنيعة مثل التي وقعت عام 294هـ/ 907 م.[2]

و نقل الذهبي في مواضع كثيرة أقوال متعددة للعلماء في بعض الرواة الشيعة، و ذلك ممّا يدلُّ على إنصافه، فقال في ترجمة المُحدِّث أبي الحسن علي بن الجَعْد بن عُبَيد الجوهري البغدادي (ت 236هـ/ 850 م): " قال ابن معين: ...هو ثِقة صدوق." و قال "عبد الله بن أحمد بن حنبل: ... نهاني أبي أنْ أذهب إليه، و كان يبلغه عنه أنّه يتناول الصحابة." و ذكر في ترجمة المُحدِّث عمرو بن حمّاد بن طلحة الكوفي (ت 222هـ/837 م) أنّ أبا حاتم[3] قال عنه: " صدوق "، و أنّ أبا داود السجستاني قال: " كان من الرافِضة." و ذكر الذهبي أنّ المُحدِّث إسماعيل بن موسى الفزاري الكوفي (ت 245هـ/ 859 م) " ثقة شيعي ... وقيل: أنّه كان يغلو و يسبُّ. " كما أشار (الذهبي) إلى أنّ عبد السلام بن صالح بن سليمان النَّيْسابوري المعروف بأبي الصّلت(ت236هـ/ 850 م) "كان موصوفا بالزُّهْد و التألّه...، وسُئل "ابن معين عنه " فقال: "ما أعرفه بالكذب...، وقال أبو حاتم: لم يكن عندي بصدوق...، وقال الدارقُطني:[4]

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 6، ص 472، 473، 666، 864.

(2) – المصدر نفسه، ج 6، ص 473، 867، 849، 883.

(3) – هو أبو حاتم محمد بن إدريس بن المُنذِر التميمي الرازي " حافِظ المشرق ...، كان بارع الحِفْظ واسع الرحلة، من أوعية العلم." توفي عام 277هـ/ 890 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 398، 399).

(4) – " هو الإمام الحافِظ " الشهير أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود البغدادي، من أهل مَحلّة دار القطن وهي مَحلة كبيرة ببغداد. توفي عام 385هـ/ 995 م.(أنظر: مقبل بن هادي، **تراجم رجال الدارقطني في سننه**، دار الاثار، صنعاء – اليمن، د ت، ص5، 8.)

" كان رافِضيا...".[1] و أشار المُصنِّف في ترجمة أحمد بن المُفضّل القُرَشي الكوفي (ت215هـ/830 م) إلى أنّه " كان صدوقا من رؤساء الشيعة." و أشار كذلك في ترجمة المُحدِّث خالد بن مخلد الكوفي (ت 213هـ/ 828 م) إلى قول ابن معين: " ما به بأسٌ"، و قول أبي داود السجستاني: "... صدوق لكنّه يتشيَّع. " كما قال المُصنِّف في ترجمة المُحدِّث عبد الرحمان بن صالح الكوفي نزيل بغداد (ت 235هـ/ 849 م): "... وكان أحد من عني بالأثر"، و ذكر قول ابن معين: "... ثِقة صدوق شيعي، لأن يَخِرّ من السماء أحبّ إليه من أنْ يكذب في نصف حرف "، ثم ذكر قول أبي داود: " كان رجل سوء، وضع كتاب مَثالب في الصحابة." [2]

و تطرّق الذهبي في ذِكْره حوادث سنة 211هـ/ 826 م إلى ما أمر به الخليفة العباسي المأمون " بأن يُنادى: برِئت الذِّمة ممّن ذكر مُعاوية بخَيْر أو فضّله على أحدٍ من الصحابة، و أنّ أفضل الخَلْق بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم علي بن أبي طالب رضي الله عنه." ثم علّق على ذلك بما يدلّ على الإنصاف فقال: " و كان المأمون يُبالغ في التشيّع، و لكن لم يتكلّم في " أبي بكر وعمر " بسوء، بل كان يترضّى عنهما و يعتقد إمامتهما." [3]

و تدلُّ تراجم الذهبي لأعلام أهل البيت أنّه كان مُوَقِّرا لهم، و ذلك يُفَنِّد ادِّعاء الشيعة أنّ أهل السُّنة يبغضون أهل البيت؛ فقد قال في ترجمة محمد الجواد: " كان من سروات[4] آل بيت النبي صلّى الله عليه وسلم...، و كان أحد الموصوفين بالسخاء؛ و لذلك لُقِّب بالجواد...، رحمه الله ...، و هو أحد الأئمَّة الإثني عشر الذين تدَّعي الشيعة فيهم العِصْمة." و قال عن الحسن العسكري بن علي الهادي: "...أحد أئمّة الشيعة الذين تدَّعي الشيعة عِصْمتهم.... ، توفي إلى رِضْوان الله بسامراء في ثمن ربيع الأوَّل سنة "

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 5، ص 632، 633، 644، 1089، 1090، 868، 869، 870.

(2) – المصدر نفسه، ج 5، ص261، 306، 863.

(3) – المصدر نفسه، ج 5، ص 243.

(4) – أي من خيارهم. (أنظر: علي بن الحسن الهنائي، **المُنجد في اللغة**، ج2، (تحقيق: أحمد مختار و ضاحي عبد الباقي)، ط2، دار عالم الكتب، القاهرة – مصر، 1409هـ/ 1988م، ص 255).

260هـ/ 874 م، " و أمّا ابنه محمد بن الحسن الذي يدعوه الرافِضة القائم الخَلَف الحُجّة، فوُلِد سنة " 258هـ/ 872 م " و عاش بعد أبيه سنتين ثم عُدم...، و هم يدَّعون بقاءه في السرداب من أربع مئة سنة و خمسين سنة...، وأنّه حيٌّ يعلم عِلم الأوّلين و الآخرين، و يعترفون أنّ أحدا لم يره أبدا، فنسأل الله أنْ يُثبِّت علينا عقولنا و إيماننا." فنلاحظ أنّ المُصنِّف يتعجَّب من هذا الإنحراف العَقَدي و يُحذِّر منه.[1]

ونجد في " تاريخ الإسلام " تعليقات قيِّمة أخرى للمُصنِّف على انحرافات الشيعة؛ فقد نقل قول المُحدِّث عبّاد بن يعقوب الكوفي الشيعي (ت250هـ/ 864 م): " من لم يتبرّأ في صلاته كلّ يوم من أعداء آل محمّد صلّى الله عليه و سلّم حَشَره الله معهم." ثمّ علّق على ذلك بقوله: "... فإنَّ آل محمد عليه السلام قد عادى بعضهم بعضا على المُلْك، كآل العبّاس وآل عليّ، و إنْ تبرّأت من آل العبّاس لأجل آل علي فقد تبرّأت من آل محمد، و إن تبرّأت من آل عليّ لأجل آل العباس فقد تبرّأت من آل محمد، و إنْ تبرّأت من الظالم منهما للآخر، فقد يكون الظالم عَلَويا ...، فكيف أَبْرَأ منه ؟ و إنْ قلت: ليس في آل عليٍّ ظالم، فهو دعوى العِصْمة فيهم، وقد ظلم بعضهم بعضا، فبالله اسكتوا حتى نسكت، و قولوا: " ربَّنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان." [2] و علَّق الذهبي على عقيدة الإثني عشرية في محمد بن الحسن العسكري بقوله: "... وهو مُنتظَر الرافِضة الذي يزعمون أنَّه المَهدي، ... وهو صاحب السرداب بسامراء و لهم أربع مئة و خمسون سنة و هم ينتظرون ظهوره، و يدّعون أنّه دخل سِردابا في البيت الذي لوالده... و في الجُملة جَهْل الرافِضة ما عليه مزيد، اللهمّ أَمِتنا على حُبِّ محمد و آل محمد صلّى الله عليه و سلّم. و الذي يعتقده الرافِضة في هذا المُنتظَر لو اعتقده المسلم في عليٍّ بل في النبي صلّى الله عليه وسلّم لمَا جاز له ذلك و لا أُقِرّ عليه...، فإنّهم يعتقدون " في المُنتظَر " و في آبائه أنّ كلّ واحد منهم يعلم علم الأوّلين و الآخرين وما كان وما يكون، ولا يقع منه خطأ قطّ، وأنّه معصوم من الخطأ و السهو، نسأل الله

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 5، ص 446، 447. و ج 6، ص 69.

(2) – سورة الحشر، (جزء من الآية: 10).

العفو و العافية، و نعوذ بالله من الاحتجاج بالكذب و ردِّ الصِّدق كما هو دأب الشيعة." و قال في موضع آخر يذمُّ من يسبّ الصحابة: " ...أمَّا من تعرّض لأحدٍ من الصحابة بسبٍّ فهو شيعي غال، ومن تعرّض لأبي بكر و عمر فهو رافضيٌ خبيثٌ... نعوذ بالله منه." وأشار في إحدى التراجم إلى قاعدة هامَّة في نَقْد الرواة فقال: "... و الكوفي لا يُسمَع قوله في الأُمَوي." لأنَّ كثيرا من الرواة الكوفيين كانوا شيعة أو متأثِّرين بالتشيُّع.[1]

و لاحظنا من خلال ما تقدَّم في هذا العنصر أنّ المُصنِّف حرص على التحذير من عقائد الشيعة و حرص على نقدها، وكان ذمُّه للباطنية أشدَّ من ذمِّه لغيرهم، و حرص على الإنصاف و التنبيه إلى عدم معاداة أهل السُّنة لآل النبيِّ صلّى الله عليه و سلَّم.

-3- مواقف المُصنِّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث و تراجم القرن الرابع الهجري (ق10م):

لقد كان الذهبي كغيره من علماء أهل السُّنة شديد الذمِّ للشيعة الإسماعيلية الباطنية، و منهم عُبَيد الله المَهدي ومن تملَّك من ذرِّيته في بلاد المغرب ومصر؛ فقال في ترجمته: "...أوَّل خلفاء الباطنية بني عُبَيد أصحاب مصر و المغرب، وهو دَعِيٌّ كذّابٌ ادّعى أنّه من ولد الحسين بن علي، والمحقّقون متّفِقون على أنّه ليس بحُسَيني...، و قد ذكرنا من أخباره...، فلا رحم الله فيه مغرز إبرة." و قال في ترجمة ابنه القائم محمد بن عُبَيد الله[2]: "... وكان القائم شرّا من أبيه ...زنديقا ملعونا "، ثم نقل عن غيره أنَّ القائم المذكور " أظهر سبَّ الأنبياءعليهم السلام، وكان مُناديه ينادي: العنوا الغار وما حوى...". و ذكر المُصنِّف أنّ " بني عُبَيد " في بعض الفترات" طَوَوا ما يرومونه من إظهار مذهبهم الخبيث " (أي عقائد الباطنية) " و قنعوا بإظهار الرَّفْض و التشيُّع." وقال في ترجمة الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله (ت 357هـ/

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 5، ص 1153، 1154، 169، 62. و ج 6، ص 398، 399، 400.

(2) – امتدّ عهده من عام 322هـ/ 934م حتى عام 334هـ/ 945 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج 3، ص 16، 49.)

968 م) – وهو من فقهاء إفريقية – : "... صنَّف تصنيفا في الإمامة و الردِّ على الرافِضة، فامتُحِن على يد أبي القاسم الرافِضي العُبَيدي المُلقَّب بالقائم، ضربه سبع مئة سوط و حبسه ...".[1] و قال في حوادث سنة 364هـ/974 م: "... وفي هذه السنين و بعدها كان الرَّفْض يغلي و يفور بمصر و الشام و المغرب ...لا سِيَّما بالعُبَيدية الباطنية قاتلهم الله." و قال في موضع آخر: " كانت مِحْنة هؤلاء عظيمة على المسلمين، ولمَّا استولوا على الشام هرب " كثير من الناس " من بيت المقدس". كما قال في حوادث سنة 363هـ/ 974 م: "... و أمّا مكة و المدينة فأُقيمت الخطبة ... بالبلدين لأبي تميم المُعزّ العُبَيدي... وكان الرَّفْض ظاهرا قائما " في " الحِجاز و مصر و الشام و المغرب...، و السُّنة ... مغمورة." [2]

ونقل الذهبي في ترجمة " النُّعمان بن محمد بن منصور...المغربي[3] " أنّه تحوَّل إلى " مذهب الشيعة لأجل الرِّياسة، و داخل بني عُبَيد." و قال في ترجمة محمد بن النُّعمان (ت389هـ/ 999 م) – وهو ابن القاضي المذكور –: " ... قاضي دِيار مصر و ابن قاضيها ...، كان على دين بني عُبَيد مُظهِرا للرَّفْض مُبطِنا لأمور نسأل الله العفو." [4]

كما ذمَّ القرامطة في مواضع كثيرة، فقال في حوادث سنة 317هـ/ 929 م عن حُجّاج العراق: " ... فوصلوا إلى مكة سالمين ...، فوافاهم عدوُّ الله أبو طاهر القرمطي، فقتل الحجيج في المسجد الحَرام قتلاً ذريعًا، و في فِجاج مكة وفي داخل البيت...، و عرّى البيت و قلع بابه، واقتلع الحجر الأسود، وطرح القتلى في بئر زمزم...، و امتلأت فِجاج مكة بالقتلى." و ذكر المُصنِّف في حوادث عام 357هـ/ 968 م أنّ القرامطة قدموا " من البرية و توَثَّبوا على دمشق فملكوها، و ساروا إلى الرملة[5] " فقاتلوا أهلها " أشدَّ

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 461، 635، 686. و ج 8، ص 112.

[2] – المصدر نفسه، ج8، ص 185، 218، 183.

[3] – يُعرَف بالقاضي النُّعمان، ولي القضاء خلال عهد المُعزّ بن المنصور بن القائم بن عُبَيد الله المَهدي، و كانت وفاته في مصر عام 363هـ/ 974 م. (أنظر: المصدر نفسه، ج 8، ص 221).

[4] – المصدر نفسه، ج 8، ص 221، 653.

[5] – الرملة: مدينة في فلسطين. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج 3، ص 69).

قتال واستباحوها بعد يومين، وسَبَوا من أعمال الرَّملة عشرة آلاف نسمة، وعزموا على قَصْد مصر ليملكوها فجاء العُبَيديون " من بلاد المغرب " فأخذوها، وقامت دولة الرَّفْض في الأقاليم: المغرب و مصر...".[1]

وتطرَّق في حوادث عام 332هـ/ 943م لهلاك أبي طاهر القرمطي وقال: "... و هو الذي قتل الحجيج و استباحهم مرّات ... و فَعَل العظائم و أرعب الخلائق...، و زعم بعض أصحابه أنّه إله، ومنهم من زعم أنّه المسيح "، ثم قال: "... و قد كان هذا الملعون بلاءً على الإسلام وأهله و طالت أيامه." و نقل بعد ذلك بعض أخباره، ومنها أنّه أحضر غلاما أعجميا وقال للقرامطة: "... هذا ربِّي و ربُّكم ...، وكلّنا عباده و الأمر إليه، وهو يملكنا كلّنا...". و علّق الذهبي على اتِّساع خطر القرامطة خلال القرن (4هـ/ 10م) تعليقا قيِّما إذْ قال: "... فلمّا ضعف أمر الأُمّة، و وَهَت أركان الدولة العباسية، وتغلَّبت القرامطة والمُبتدِعة على الأقاليم، قويت همَّة صاحب الأندلس الأمير عبد الرحمان بن محمد الأُمَوي[2]... و قال: أنا أَوْلى الناس بالخلافة، و تسمَّى بأمير المؤمنين، و كان خليقا بذلك فإنّه صاحب غزوٍ و جهادٍ ...".[3]

و لمَّا تعرَّض الذهبي لذِكْر بعض الشيعة القائلين يالتناسخ (تناسخ الأرواح) ذمّهم وذمّ من ذبّ عنهم فقال في حوادث سنة 341هـ/ 952 م: " فيها " اطُّلِع " على قومٍ من التناسخية فيهم شابٌّ يزعم أنّ روح عليٍّ رضي الله عنه انتقلت إليه، وفيهم امرأة تزعم أنَّ روح فاطمة عليها السلام انتقلت إليها ...، فضُربوا " لكنَّ معزّ الدولة البُويهي أمر بإطلاقهم لتشيّعه " و هذا من أفعاله الملعونة." كما ذمَّ ابن أبي العزاقر الشلمغاني المتقدم ذِكره، و ذكر أنّه " أحدث مذهبا في الرَّفْض ببغداد "، وأنّه كان " يدَّعي الربوبية." [4]

ونجد في تراجم القرن (4هـ/ 10م) نماذج كثيرة من تحذير المُصنِّف من عقائد " الرافِضة " وأعمالهم

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 220. و ج8 ، ص 25.

[2] – عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله الأُمَوي، المعروف بعبد الرحمان الناصر، هو " أوَّل من تلقّب بأمير المؤمنين من أمراء الأندلس." (ملوكها من بني أُميّة)، و عهده بين عامي (300 – 350هـ) (912– 961 م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج 2، ص 84، 85).

[3] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص ص 626 – 629.

[4] – المصدر نفسه، ج7، ص 755، 466.

فقال في ترجمة محمد بن يعقوب الكُليني: " ... من رؤوس الشيعة و فقهائهم المُصنِّفين في مذاهبهم الرَّذْلة." و قال في ترجمة المُحدِّث أبي بكر أحمد بن محمد بن السري بن يحيى الكوفي (ت 351هـ/ 962 م): "... وكان رافِضيا يروي في ثلْب الصحابة المناكير واتُّهِم بالوَضْع " (وضْع الأحاديث). كما قال في ترجمة أبي محمد الحسن بن محمد بن يحيى العَلَوي (ت358هـ/970م): " روى حديثا موضوعا" مَتْنه: " عليٌّ خير البشر، فمَن أبى فقد كفر"، وهذا ممّا اتُّهِم بوضعه المُحدِّث أبو محمد هذا، وكان نسّابة شيعيا." و أشار الذهبي في ترجمة المُحدِّث محمد بن عبد الله بن محمد الشيباني الكوفي نزيل بغداد (ت387هـ/ 997 م) أنّ الخطيب البغدادي ذكر أنّه كان يضع " الحديث للرافِضة "، ثم قال الذهبي: "... وكان حافِظا ...أخباريا مُصنِّفا، لكن لحِقَه الإدبار." [1]

و تدلُّ تراجم المُصنِّف لأعلام الشيعة على تحرِّيه الإنصاف؛ فقال في ترجمة المُحدِّث أحمد بن محمد بن سعيد بن عبد الرحمان الكوفي المعروف بابن عقدة (ت 332هـ/ 943 م): "... و كان حافظا كبيرا " و ذكر أنّه نقل قول سفيان الثوري: " لا يجتمع حبُّ عليٍّ و عثمان إلاّ في قلوب نُبَلاء الرِّجال." و علّق الذهبي بقوله: " ما يُملي ابن عقدة مثل هذه إلاّ و أمره في التشيُّع متوسِّط." و ذكر – من جهة أخرى– قول الدارقُطني عنه: " حافظٌ مُحَدِّث، و لم يكن في الدين بقويّ ..."، و قول أحد المُحَدِّثين: " كان ... يُملي مثالب الصحابة." و قال الذهبي: " و كلُّ أحدٍ يخضع لحفظ ابن عقدة و لكنَّه ضعيف." كما ذكر أنّ محمد بن المُفجع بن محمد بن عبد الله البصري النحوي (ت 320هـ/ 932 م) كان من " كبار النُّحاة ... وكان شاعرا مُفلقا و شيعيا متحرّقا." و أشار في ترجمة المُحدِّث محمد بن عمر بن محمد التميمي البغدادي المعروف بابن الجعابي (ت355هـ/ 966م) إلى أنّه كان " حافظ زمانه ...وتشيّعه مشهور." [2]

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 566. و ج8، ص 40، 125، 625.

[2] – المصدر نفسه، ج7، ص 655، 656، 657، 399. ج8، ص 84.

و لمّا تطرَّق المُصنِّف لترجمة سيف الدولة[1] ذكر شجاعته و كثرة محاربته للروم، وذكر من جهة أخرى أنّه كان شيعيا " مِفْضالا على الشيعة ..."، كما ذكر في ترجمة السلطان البُويهي عَضُد الدولة فناخسرو بن الحسن بن بُويه (ت372هـ/ 982 م) أنّه " أقام البيماريستان[2] العَضُدي ببغداد...، و هو بيمارستان عظيم ليس في الدنيا مثل ترتيبه." و أشار من ناحية أخرى الى تشيُّع السلطان المذكور.[3]

ونجد في عرض المُصنِّف للحوادث ذمّه لبعض أعمال الشيعة؛ فقال في حوادث عام 357هـ/ 968م: " عملت الرافِضة في يوم عاشوراء[4] بالنوح وتعليق المسوح...". و قال في حوادث عام 358هـ/ 969م: " أقامت الرافِضة الشعار الجاهلي يوم عاشوراء...". كما قال في حوادث عام 360هـ/ 971 م: " أقامت الرافِضة رَسْم يوم عاشوراء من النوح واللطم والبكاء ... وغلق الأسواق " (في بغداد). وقد أشرنا سابقا إلى أنّ لفظ " الرافِضة " يُعدُّ مظهرا من مظاهر الذمّ للشيعة الغُلاة. و قال المُصنِّف في حوادث سنة 393هـ/ 1003م: "... و في ربيع الآخر منها أمر نائب دمشق تمصولت الأسود الحاكمي[5] بمغربي، فطيف به على حمار و نودي عليه: هذا جزاء من يحبّ أبا بكر وعمر، ثم أمر به ... فضُرِبت عُنقه رضي الله عنه و لا رضي عن قاتله." [6]

وقد أنكر الذهبي ردّ فعلٍ قام به بعض أهل السُّنة في بغداد على أعمال الشيعة في يوم عاشوراء ويوم

---

[1] – الأمير سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي، صاحب حلب وأعمالها، ملك حلب سنة 333هـ/ 944 م، و كانت وفاته عام 356هـ/ 967 م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 309. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 8، ص 102).

[2] – البيمارستان أو المارستان هو " بيت المرضى"، فيتمّ العلاج فيه.(أنظر: تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج3، ص 545.)

[3] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 8، ص 104، 377.

[4] – استشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما يوم عاشوراء سنة 61 هـ/ 681 م بكربلاء خلال عهد الخليفة الأُمَوي يزيد بن مُعاوية كما هو معروف مشهور. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 47، 48.)

[5] – تمصولت الأسود بن بكار، ولي إمرة دمشق من قِبل الحاكم صاحب مصر " و كان رافِضيا ...، و أوّل ولايته سنة " 392هـ/ 1002م. (أنظر: أبو القاسم ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج11، (تحقيق: محب الدين العمروي)، ط1، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1415هـ/ 1995م، ص 59).

[6] – شمس الدين الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 8، ص 23، 25، 26، 686.

الغدير[1] (سنة389هـ/ 999 م) حيث قال: " كانت قد جرت عادة الشيعة في الكرخ ... بنَصْب القباب و إظهار الزينة يوم الغدير و الوقيد في ليلته، فأرادت السُّنة أن تعمل في مقابل هذا شيئا؛ فادعت أنّ اليوم الثامن من يوم الغدير كان اليوم الذي حصل فيه النبي صلّى الله عليه وسلّم و أبو بكر في الغار، فعملت فيه ماتعمل الشيعة في يوم الغدير، و جعلت بإزاء عاشوراء يوما بعده بثمانية أيام نسبة إلى مقتل مُصعَب بن الزبير[2] ....، فكان ابتداء ماعُمل في الغار يوم الجمعة لأربع بقين من ذي الحجّة، وأقامت السُّنة هذا الشعار القبيح زمانا طويلا، فلا قوَّة إلاّ بالله."[3] فإنكار المُصنِّف لهذه الأعمال يُعدُّ من مظاهر الإنصاف.

وعلّق على عدَّة أحداث متعلِّقة بالعقائد بكلام قيِّم؛ فمن ذلك قوله في حوادث سنة 396هـ/ 1006م: أنّ أمير الحجِّ " خطب بالحَرَمين للحاكم صاحب مصر ...، و أمر الناس بالقيام عند ذِكْره، و فُعِل مثل ذلك بمصر، وكان إذا ذُكر قاموا وسجدوا في السوق وفي مواضع الاجتماع، فإنَّا لله وإنّا إليه راجعون، فلقد كان هؤلاء العُبَيديون شرًّا على الإسلام من التتر." و قال في حوادث سنة: 339هـ/ 950م: "... وفيها رُدَّ الحجر الأسود[4] إلى موضعه "، و قال القرامطة " رددناه بأمر من أخذناه بأمره، و كذبوا فإنّ الله سبحانه وتعالى قال: " و إذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها."[5] فكذّبهم الله بقوله: " قل إنّ الله لا يأمر بالفحشاء."[6] و إنْ عنوا بالأمر القدَر، فليس ذلك حُجّة لهم، فإنّ الله قدّر عليهم الضلال والمُروق

---

(1) – تزعم الإثناعشرية أنّ النبي صلّى الله عليه و سلّم بيَّن أنّ الخليفة من بعده هو علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، و ذلك عند رجوعه صلّى الله عليه و سلّم من حَجّة الوداع و وصوله إلى غدير خُم (يوم 18 من ذي الحجّة سنة 10هـ)، و هو موضع بين مكة و المدينة. و حديث غدير خُم لا يصحّ منه عند طائفة من علماء أهل السنة إلاّ : " من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه." بينما يرى آخرون أنّ الحديث " لا يصحّ منه شيء البتة." (أنظر: ناصر القفاري، المرجع السابق، ص 689، 691).

(2) – مُصعب بن الزبير بن العوام القُرَشي، كان عاملا لأخيه عبد الله بن الزبير على العراق، و قُتل عام 71هـ/ 690 م في معركة ضد جيش عبد المَلِك بن مروان. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 5، ص 97).

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 8، ص 514.

(4) – أخذ القرامطة الحجر الأسود عام 317هـ/ 929 م إلى هَجَر وهي مدينة في البحرين. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6 ، ص 207. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 393).

(5) – سورة الاعراف ، (جزء من الآية 28).

(6) – سورة الاعراف ، (جزء من الآية 28).

من الدين، و قدَّر عليهم أن يُدخِلهم النار، فلا ينفعهم قولهم: أخذناه بأمر." [1]

و يمكن القول في نهاية هذا العنصر أنّ مظاهر النّزعة المذهبية متنوّعة؛ فمنها ذمّ الباطنية و ذمّ أعمال الشيعة، مِثل وضع الأحاديث و إقامة المأتم يوم عاشوراء، و لاحظنا أنَّ ذمَّه للباطنية كان أشدّ من ذمِّه لغيرهم. كما لاحظنا حرص المُصنِّف على الإنصاف وكثرة تعليقه على المعطيات المتعلّقة بالمذاهب بما يدلّ على الموضوعية و حُسن استخلاص العِبَر من التطورات التاريخية.

4- مواقف المُصنِّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث و تراجم القرن الخامس الهجري (ق10 م):

لقد تواصل ذمّ المصنِّف للإسماعيلية الباطنية في مواضع كثيرة من كتابه، منها نقله لبعض ما ورد في المحضر[2] الذي كُتِب ببغداد عام 402هـ/ 1011م في ذمِّ عُبَيد الله المهدي و أحفاده ملوك مصر و التأكيد أنّهم ليسوا بعلويين؛ فممّا نقل: " ...إنّ الناجم ...بمصر... الملقّب بالحاكم حكم الله عليه بالبوار و الخِزي و النكال...، ومن تقدَّم من سَلَفه الأرجاس ...أدعياء ...لا نسَب لهم في ولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه...، و أنّ هذا الناجم بمصر هو و سبيله كفّار فُسّاق... قد عطّلوا الحدود و أباحوا الفُرُوج و سفكوا الدماء وسبُّوا الأنبياء ولعنوا السلَف وادعوا الربوبية...".[3] ولم يُنكر الذهبي هذا الكلام لأنّ أخبار الباطنية – التي سبق ذِكْر بعضها – تُبَيِّن شدّة انحرافهم. وقال في ترجمة الحاكم المذكور هنا أنه كان " رديء الاعتقاد سفّاكا للدماء ...عجيب السيرة، يخترع في كلِّ وقت أمورا و أحكاما يحمل الرعية عليها فأمر بكَتْب سبّ الصحابة على أبواب المساجد و الشوارع...، وكان خبيث الاعتقاد...". وذكر في حوادث عام 411هـ/ 1020م أنّ الحاكم غضب على أهل مدينة مصر فأمر جُنده بإحراقها " وقتل أهلها فتوجهوا

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 8، ص 689، 690. و ج7، ص 640.

(2) – كُتِب هذا المحضر عام 402هـ/ 1011 م خلال عهد الخليفة العباسي القادر بالله ، و أُخذ فيه خطوط القضاة و الفقهاء و الأعيان، و قُرئ ببغداد. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج 2، ص 200).

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 9، ص 10، 11.

لذلك، فقاتل المصريون على أنفسهم ...، و استمرت الحرب بين العبيد و الرعية ثلاثة أيام، و هو يركب و يُشاهد النار و يسمع الصياح، فيسأل عن ذلك فيُقال له: العبيد يحرقون مصر " فيقول " لعنهم الله "، ثم قال الذهبي: " بل لعنة الله على الآمر " [1].

وذمّ المصنِّف أيضا " المُستنصِر[2]...العُبَيدي " فقال: " ... و حدث في أيام هذا المُتخلِّف بمصر الغلاء...، و في دولته كان الرَّفْض والسبّ " – أي سبّ الشيعة للصحابة – " فاشيا مجهورا، و السُّنة و الإسلام غريبا مستورا، فسبحان الحكيم الخبير الذي يفعل في مُلْكه ما يشاء." و قال في ترجمة الطبيب أفرائيم بن الزفان اليهودي المصري (ت بعد 471هـ/ 1078م): " خدم ملوك الباطنية بمصر و نال دُنيا عريضة. " وقال عن أحد المترجم لهم: "... وكان رديء الاعتقاد على دين بني عُبَيد، وأقلّ ذلك الرَّفْض." كما قال في موضع آخر أنَّ تأويل الباطنية هو " قَلْب الحقائق و لُبّ الإلحاد و الزندقة." و وصف الذهبي الباطنية الحشاشين بأنّهم " طائفة خبيثة يُظهِرون الزهد ...، فيضلُّ بهم كلّ سليم الباطن." كما وصفهم بـ " الكلاب الزنادقة." [3] و هذه النماذج المتقدمة تُبيِّن شدَّة ذمِّ المُصنِّف للباطنية بفعل شدَّة انحرافهم.

و نجد في كثير من تراجم القرن (5هـ/ 11م) ما يدلُّ على تحذيره من الشيعة و عقائدهم، كقوله في ترجمة محمد بن محمد بن النُّعمان ابن المعلم البغدادي المعروف بالمُفيد (ت413هـ/ 1022م): " كان رأس الرافضة و عالمهم، صنَّف كتبا في ضلالات الرافضة، وفي الطعن على السلَف، وهلَك به خلقٌ حتى أهلكه الله في رمضان و أراح المسلمين منه." و أشار الذهبي إلى أن الشاعر مهيار بن مرزويه البغدادي (ت 428هـ/ 1037م) " كان رافضيا " يتعرَّض " للصحابة في شعره." و ذكر أنَّ أبا جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت 460هـ/ 1068م) كان " شيخ الشيعة " وكان " رافضيا ... ينقص السلَف."

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 9، ص 198، 199، 175.

[2] – هو مَعَدّ المُستنصِر بن علي الظاهر بن الحاكم بن نزار العزيز صاحب مصر، عهده بين عامي (427 – 487 هـ) (1036 – 1094 م). (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 539).

[3] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 10، ص 588، 589، 459، 353. و ج 9، ص 325.

كما ذكر أنَّ مسلم بن قريش[1] " كان رافِضيا خبيثا أظهر ببلاده سبَّ السَّلَف ...". و ذكر أنَّ أبا علي الحسين بن علي الدمشقي المُقرئ (ت 491هـ/ 1098م) " كان رافِضيا " عمل على إخراج الخطيب البغدادي المُحَدِّث الشهير من دمشق؛ لأنّ الخطيب روى فضائل الصحابة في الجامع الأُمَوي. [2]

و تعليق المُصنِّف على الحوادث و التراجم يعكس تسنُّنه و إنصافه؛ قال في حوادث عام 402هـ/ 1011م: " ... وعُمل الغدير، و يوم الغدير معروف عند الشيعة، و يوم الغار لجَهَلة السُّنة في شهر ذي الحجّة بعد الغدير بثمانيةُ أيام، اتخذته العامّة عِنادا للرافِضة ...". وقال في حوادث سنة 483هـ/ 1090م: " ... وفيها عظُمت البلية ببغداد بين السنة و الشيعة، و قُتل بينهم بشر كثير، و ذلّت الرافِضة بإعانة الخليفة[3] و أعوانه عليهم، وأجابوا إلى إظهار السُّنة، وكتبوا على أبواب مساجدهم خير الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه و سلّم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي، فعظُم هذا على جَهَلتهم...، و جرت أمور قبيحة." و لمّا تحدّث المصنِّف عن مقتل البساسيري[4] قال في ختام ذلك: " ... فللّه الحمد " ، لأنّ البساسيري سعى لإلحاق العراق بمُلْك " المُستنصْر العُبَيدي. "[5]

وتجدر الإشارة إلى أنّ المُصنِّف رغم كونه سُنّيا فإنّه لم يكتف بذِكر المثالب في كثير من تراجم أعلام الشيعة؛ منها ترجمة الحسين بن موسى بن محمد بن موسى العلوي البغدادي (ت400هـ/1009م) حيث قال ضمنها: " ... من سادة الشيعة ومُعَمِّريهم ...، و كان فيه دين و خير وتعَبُّد على بِدعته." و قال عن الحسين بن عُبَيد الله بن إبراهيم البغدادي (ت 411هـ/ 1020م): "... من كبار شيوخ الشيعة...، كان ذا

---

[1] – هو أبو المكارم مسلم بن قريش بن بدران بن مقلد بن المسيب، يُلقّب شرف الدولة، خلَف أباه في حكم الموصل و نواحيها عام 453هـ/ 964 م و توفي سنة 478 هـ/ 1085 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 10، ص 435).

[2] – المصدر نفسه، ج 9 ، ص 227، 454. و ج 10، ص 122، 435، 704.

[3] – هو المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله، بويع بالخلافة سنة 467 هـ/ 1074م، و كانت وفاته عام 487 هـ/ 1191م. (أنظر: المصدر نفسه، ج 10، ص 578).

[4] – هو أبو الحارث أرسلان التركي البساسيري، يُنسب إلى بلدة بسا (بلدة في بلاد فارس)، و كان " مقدّما كبيرا عند الخليفة " العباسي القائم بأمر الله ثم خرج عليه و دعا إلى مُبايعة المُستنصِر صاحب مصر، لكنّ جيش السلطان السلجوقي طُغرلبك تمكّن من قتله عام 451 هـ/ 1059م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 479. و ياقوت الحَمَوي، ج1، ص 412).

[5] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج9، ص 12. و ج 10، ص 8، 471، 472.

زُهدٍ و وَرَعٍ و حِفظٍ." و نقل في ترجمة المُحَدِّث محمد بن حمزة بن محمد التميمي الدمشقي (ت 415هـ/ 1024 م) قول أحد علماء الحديث عنه: " كان ثِقة يذهب إلى التشيُّع." و ذكر أنَّ المُحدِّث الحسن بن محمد بن يحيى السامُرّي المُقرئ (ت408هـ/ 1017 م): " كان فقيها على مذهب الشافعي فاضلا، ولكن كان يتشيّع، قال " الخطيب البغدادي " مات بسامرّاء ... و كان يُرمى بالتشيّع." [1]

و وصف الذهبي فتنة وقعت في بغداد عام 482هـ/ 1089م بما يدلُّ على إنصافه إذْ قال: " في صفر" دخل " غوغاء[2] السُّنة الكرخ و قتلوا رجلا " شيعيا " و جرحوا آخر، فأغلق أهل الكرخ أسواقهم...". كما أنكر ما سمَّاه بعض عامّة أهل السُّنة في بغداد بـ " يوم الغار "، فقال في حوادث عام 422هـ/ 1031 م: " ... و في ثامن عشر ذي الحجّة عملت الشيعة يوم الغدير، و عمل بعدهم أهل السُّنة الذي يسمونه يوم الغار، وهذا هَذَيان...". و علّق تعليقا قيِّما على عدة معطيات متعلِّقة بالعقائد؛ فذكر أنّ الظاهر[3] " العُبَيدي صاحب مصر " وآباءه ادّعوا أنّهم " فاطميون ليربطوا عليهم بذلك الرافِضة." و أشار إلى أنّ المُحدِّث محمد عبدان بن أحمد بن عبد الله الكوفي (ت 431هـ/ 1039م) قد " ضيّع نفسه لسُكناه ببلد الرافِضة فلم ينتشر علمه." [4]

و قد لاحظنا ممّا تقدّم في هذا العنصر أنّ مواقف الذهبي من فِرَق الشيعة تعكس تسنُّنه و تدلُّ على إنصافه و حرصه على إنكار العقائد و الأعمال المخالفة للكتاب و السُّنة.

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 8، ص 814. و ج 9، 194، 263، 128.

(2) – الغوغاء: سفلة الناس. (أنظر: أحمد بن فارس اللغوي، **مُجمل اللغة**، ج 3، (تحقيق: زهير سلطان)، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1406هـ/ 1986م، ص 688).

(3) – علي الظاهر بن منصور الحاكم بن نزار، خلف أباه عام 411هـ/ 1020 م، وكانت وفاته سنة 427هـ/ 1036م. (شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 256، 257).

(4) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 9، ص 344، 427، 508. و ج 10، ص 470.

-5- مواقف المُصنِّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث و تراجم القرن السادس الهجري(ق12 م):

لقد بيَّن الذهبي شدَّة خطورة الإسماعيلية الباطنية على الإسلام و المسلمين في مواضع كثيرة من " تاريخ الإسلام " كقوله أنَّ الآمر[1] " صاحب مصر كان رافِضيا كآبائه ... ظالما جائرا مستهزئا..." وفي أيامه " أخذت الفرنج عكا سنة سبع وتسعين وأربع مئة، وأخذوا طرابلس الشام في سنة اثنتين و خمس مئة ... وذلك كلّه بتخلّف هذا المشؤوم الطلعة...، و جرى على الشام أمرٌ مهولٌ من ظهور الرَّفْض و السبِّ ومن استيلاء الفِرنج و السَّبْي و الأَسْر نسأل الله العفو و الأمن." و قال في ترجمة اسماعيل الظافر[2] : "... المصري العُبَيدي أحد الخلفاء المصريين الشيعة الخارجين عن الإمام." كما ذكر أنَّ طلائع بن رُزَيِّك المصري (ت556هـ/ 1161م) وزير العاضِد " له أشعار كثيرة ...تدلّ على ...سوء مذهبه ...، وصنّف كتابا ...يُقرِّر فيه قواعد الرَّفْض و يُعَظِّم بني عُبَيد. " و قال المُصنِّف في ترجمة العاضِد: "... العُبَيدي المصري الرافِضي الذي يزعم هو و بيته أنّهم فاطميون...، كان رافِضيا سبّابا...." وعلّق على زوال دولته بعد قدوم صلاح الدين الأيوبي إلى مصر[3] بقوله:"...وأزال تلك الدولة المخذولة، وكانوا " – أي ملوكها– " أربعة عشر مُتَخلِّفا لا مُستخلفا." و ذكر أنَّ أهل مصر كانوا " باغضين في دولة بني عُبَيد لسوء عقائدهم." كما أشار في ترجمة الشاعر نجم الدين عمارة بن علي اليمني نزيل مصر(ت 569هـ/1173م) إلى محاولته مع ثمانية من أعيان القاهرة " إعادة دولة بني عُبَيد "، واتِّفاقهم على استدعاء الفِرنجة إلى مصر، وعلَّق الذهبي على ذلك بقوله: "... وكان هؤلاء المخذولون قد همُّوا بإقامة ولد العاضِد ...، فأمر

---

(1) – هو أبو علي منصور بن المُستعلي بن المستنصر بن علي الظاهر بن الحاكم، "صاحب مصر"، توفي عام 524هـ/ 1130م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 423، 424).

(2) – هو إسماعيل الظافر بن عبد المجيد الحافظ بن محمد بن المُستنصِر بن علي الظاهر، صاحب مصر، عهده بين عامي (544- 549هـ) (1149- 1154 م). (أنظر: المصدر نفسه، ج 3، ص9، 10).

(3) – أرسل السلطان نور الدين زنكي سنة 564هـ/ 1168م جيشا إلى مصر تمكَّن من الدخول إلى القاهرة في ربيع الآخر، و كان صلاح الدين من أمرائه. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج 3، ص 42).

صلاح الدين بشنقهم... وكفى الله شرَّهم." [1]

و كان موقف الذهبي من الباطنية الحشاشين كموقفه من باقي الباطنية، فقال في ترجمة الحسن بن الصباح: " ... صاحب الألموت ...، وكان من دُهاة العالم و شجعانهم و شياطينهم. " وذكر أنَّ السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان قد حارب " الملاحدة " أي الإسماعيلية الحشاشين. و لفظ "الملاحدة " من أشدِّ ألفاظ الذمِّ. و قال في ترجمة الخليفة العباسي الراشد بالله: "... فدخل عليه الباطنية لعنهم الله فقتلوه. كما قال في ترجمة أحد الأمراء: " ... قتل من الباطنية لعنهم الله ألوفا كثيرة...". و قال في حوادث عام 552هـ/ 1157 م: "... و فيها خرجت الإسماعيلية " (في بلاد فارس) " على حُجَّاج خُراسان فاقتتلوا و ثَبَت الفريقان إلى أن قُتِل أمير الحاجِّ فذلّوا...، و قتلتهم الإسماعيلية قتلاً ذريعاً، وعظُم المُصاب فإنّا لله و إنّا إليه راجعون. " و ذكر في حوادث سنة 553هـ/ 1153 م أنّ الإسماعيلية نزلوا من قلاعهم وأغاروا على إحدى القبائل (كان ذلك في نواحي قهستان[2]) فلم يجدوا الرجال فسَبوا الذرِّية وحازوا المتاع، فلمَّا رجع رجال القبيلة تبعوا الإسماعيلية فأدركوهم؛ قال المُصنِّف: "...فأدركوا الإسماعيلية لعنهم الله وهم يقتسمون الغنيمة، فأحاطوا بهم و وضعوا فيهم السيف، وألقى الله الذلّ على الإسماعيلية."[3]

و نجد في عدَّة مواضع من " تاريخ الإسلام " ذمّا للإسماعيلية المتمركزين في بعض قلاع بلاد الشام إذْ قال ضمن عرضه حوادث عام 502هـ/ 1108 م: " و فيها ثار جماعة من الباطنية لعنهم الله في شيزر[4] على غفلة من أهلها فملكوها و أغلقوا الباب ...". وذكر أنَّ السلطان رضوان بن تُتش السُلجوقي قد عمل للباطنية " دار دعوة بحلب لقلَّة دينه "، و أنّه " كان ظالما فاتكا يُقرِّب الباطنية و يستعين بهم ... و كان غير محمود السِّيرة." و ذكر المُصنِّف في عرضه حوادث عام 523 هـ/ 1129م أحد دُعاة

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 422، 423، 960. و ج 12، ص 111، 112، 367، 368، 215، 235، 414.

[2] – قهستان: ناحية بين بلاد فارس و خُراسان. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 118).

[3] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج11، ص 289، 290، 181، 530، 784. و ج 12، ص11، 15.

[4] – شيزر: بلدة في الشام في الناحية الشمالية لحَماة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج 3، ص 383).

الإسماعيلية في بلاد الشام فقال: " ...عتى و تمرَّد على الله "، وقال: " لعنه الله"، ثم أشار إلى مقتل عدد كبير من الإسماعيلية في دمشق خلال السنة المذكورة، و علّق على ذلك قائلا: "... وكان يوما مشهودا أعزّ الله فيه الإسلام و أهله، وأُخذ جماعة أعيان " فعُوقِب أحدهم " عقوبة شفت القلوب"، و ذكر أنَّ قتل الباطنية كان " فتحا عظيما في الإسلام." [1]

و قد علَّق المُصنِّف في كثير من الحوادث و التراجم بما يُبيِّن حرصه على نقد الشيعة؛ فذكر أنَّ أبا الفضل أسعد بن أحمد بن أبي روح الطرابلسي (ت بعد 511هـ/ 1117م) كان " رأس الشيعة بالشام ...جلس ... بطرابلس لتدريس الرَّفْض و صنَّف التصانيف، و ذكر أنّه كان يُبيح المتعة[2]، ثم علَّق على ذلك قائلا: " هَلاّ قبلت رواية إمامك علي في النهي عن متعة النساء." ويُشير الذهبي هنا إلى حديثٍ رواه عليٌّ (رضي الله عنه)؛ فقد ثبت أنّه قال: " نهى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم عن المتعة عام خَيْبر ولحوم الحُمُر الإنسية." [3] و ذكر الذهبي أنّ أبا علي الحسن بن محمد بن الحسن الطُّوسي (ت بعد 531هـ/ 1136م) كان " شيخ الرافِضة وعالمهم." و نقل عن غيره في ترجمة الشاعر أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي المعروف بالرفاء (ت548هـ/ 1153م) أنّه كان " رافضيا خبيثا، خبيث الهجو و الفحش." وقال الذهبي في ترجمة الأمير يزدن التركي[4] : "... وكان شيعيا غاليا متعصِّبا فانتشر بسببه الرَّفْض، و تأذَّى أهل السُّنة." كما قال عن محمد بن علي بن شهراشوب المعروف برشيد الدين الشيعي نزيل حلب (ت588هـ/ 1192م): "... أحد شيوخ الشيعة لا بارك الله فيهم. " وذكر ضمن ترجمة إبراهيم بن سعيد بن يحيى ين محمد الحلبي(ت589هـ/ 1193م) أنّه " كان ...أديبا شاعرا... له نَظَرٌ في العلوم

---

(1) – شمس الدين الذهبي ، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص12، 18، 344، 345، 346.

(2) – يُبيح نِكاح المُتعة: أي النِّكاح إلى أجلٍ بثمَنٍ. و قد نهى رسول الله صلّى الله عليه و سلّم عن المُتعة في حجّة الوداع. (أنظر: ربيع بن محمد ، المرجع السابق، ص 234. و المُوفق ابن قُدامة، **الكافي في فقه الإمام أحمد**، ج 4، (تحقيق: عبد الله التركي)، ط1، دار هجر، د م، 1418هـ/ 1997م، ص 289).

(3) – محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج3، ص 461.

(4) – الأمير يزدن التركي المتوفّى عام 568هـ/ 1172م في بغداد، و كان من أبرز الأمراء في جيش الخلافة. (أنظر: عبد الرحمان ابن الجَوزي، **المُنتظم**، ج18، ص 201).

إلاّ أنّه كان من أَجْلاد الشيعة المعروفين." [1]

و نقل المُصنِّف في ترجمة المُحَدِّث أحمد بن طارق بن سِنان البغدادي (ت592هـ/ 1196م) قول الضياء المقدسي عنه: " ... كان شيعيا غاليا." ونقل أيضا عن غيره في ترجمة نِظام الدين محمد بن عبد الله بن عمر بن محمد نزيل بغداد المعروف بابن الظريف (ت 596هـ/1199م) أنّه " كان يُظهِر الرَّفْض" و يسخر من الصحابة في مجالسه، فتستحسن " الرافضة " ذلك. وذكر المصنِّف ضمن ترجمة محمد بن إدريس بن أحمد الحلّي الشيعي (ت597هـ/ 1200م) أنّه كان " عالم الرافِضة في عصره، و أنّ أحد أتباعه نَظَم قصيدة يُفضِّله فيها على الإمام محمد بن إدريس الشافعي، حيث تعجَّب الذهبي من ذلك. كما قال في عرضه حوادث عام 561هـ/ 1166م: " ظهر في أيام عاشوراء من الرَّفْض ببغداد أمرٌ عظيمٌ حتى سبّوا الصحابة...".[2]

-6- مواقف المُصنِّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث و تراجم القرن السابع الهجري (ق13م):

تطرَّق الذهبي في عدَّة مواضع لمعطيات متعلِّقة بالباطنية فذمَّهم و أشار إلى فساد عقائدهم؛ فقال في ترجمة المُحَدِّث محمد بن المأمون بن الرشيد الهندي (ت 603هـ/ 1206م): " سمع بنيسابور و هَراة وبغداد ... و سكن بأذربيجان فقصده الملاحدة " (الإسماعيلية) " لعنهم الله فقتلوه. " و قال في ترجمة الخليفة العباسي الناصر: " ... ولم تكن الخلافة لأحد أطول منه مدّة، إلاّ ما ذُكِر عن الخوارج العُبَيديين فإنّه بقي في الأمر بديار مصر المُستنصِر نحوا من ستين سنة. " و نلاحظ أنّ المُصنِّف قد وصف الإسماعيلية " العُبيديين " بالخوارج، و نجد ذلك في مواضع أخرى من " تاريخ الإسلام ". كما قال الذهبي

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 330، 331، 740، 923. و ج12، ص400، 860، 867.
[2] – المصدر نفسه، ج 12، ص 970، 1085، 1086، 1120، 213.

في ترجمة شمس الشموس[1] : "... رئيس الإسماعيلية ببلاد العَجَم ... و دينهم كُفر وزندقة والسلام." [2]

وحَرِص الذهبي على إيضاح كَيْد الوزير الشيعي ابن العَلْقمي؛ فذكر ضمن حوادث عام 648هـ/ 1250م أنَّ طائفة من الجُنْد ثارت في بغداد، و منعوا يوم الجمعة الخطيب من الخطبة، و استغاثوا بسبب قَطْع أرزاقهم، و كلُّ ذلك " من عمل الوزير ابن العَلْقمي ...، و كان حريصا على زوال دولة بني العباس ... و الرُّسل في السرِّ بينه و بين التتر، و المُستعصم بالله تائهٌ في لذّاته لا يَطّلع على الأمور...". وأشار المُصنِّف في عرضه حوادث السنة المذكورة إلى اختلال الأمن في طريق حُجَّاج العراق خلال أواخر العصر العباسي، ثم قال: "... و ذلك لضعف الخلافة و خُبث الوزير قاتله الله." و قال لمَّا تطرَّق لدخول التتار إلى بغداد (عام 656هـ/ 1258م): "... و كان وزير العراق مؤيد الدين ابن العَلْقمي رافضيا جَلْدا خبيثا داهية ... " وكان المُستعصم " خلِيّا من الرأي، فأُشير عليه بقطع أكثر الجُنْد، و أنَّ مُصانعة التتار و إكرامهم يحصل بها المقصود ففعل ذلك. و أمَّا ابن العَلْقمي فكاتب التتار و أطمعهم في البلاد، و أرسل إليهم غلامه...، و طلب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك "، ولمَّا حاصروا بغداد خرج إليهم " و توثَّق لنفسه " ثم قال الذهبي: "... و استمرّ القتل و السَّبْي في بغداد بضعة و ثلاثين يوما "، فكان القتلى " ثمان مئة ألف ...، و عزم ابن العَلْقمي على أنْ يُحَسِّن لهولاكو أنْ يُقيم ببغداد خليفة علويا، فلم يتهيأ له ذلك و اطرحته التتار، و بقي معهم على صورة بعض الغلمان، ثم مات كمَدًا، قولوا لا رحمه الله." [3]

و نجد في مضامين ما ترجم به المُصنِّف لأعلام الشيعة ما يُبَيِّن اهتمامه بالتعليق على انحرافاتهم فذكر أنَّ الواعظ اسفنديار بن المُوفَّق بن محمد بن يحيى الواسطي نزيل بغداد (ت 626هـ/ 1228م) " كان شيعيا غاليا "، ثم نقل عن ابن الجَوْزي أنّ اسفنديار كان يطعن في أبي بكر الصديق و عمر بن

---

[1] – هو خسرو شمس الشموس بن محمد بن الحسن بن الصباح " الباطني صاحب قلعة الألموت." (ت 655 هـ/ 1257 م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 14، ص 776).

[2] – المصدر نفسه، ج 13، ص 85، 686. و ج 14، ص 776.

[3] – المصدر نفسه، ج 14، ص 373، 671، 672، 673، 675.

الخطاب. و وصف الذهبي ابن العَلْقمي بـ " المشؤوم الطلعة "، و قال في موضع آخر: "... الوزير الكبير ... المُدْبِر المُبير... البغدادي الشيعي الرافِضي...، و كان في قلبه غِلٌّ على الإسلام و أهله؛ فأخذ يُكاتب التتار و يتّخذ عندهم يدا ليتمكّن من أغراضه الملعونة...، و ولي الوزارة للتتار على بغداد مشاركا لغيره، ثم مرض ولم تطل مدَّته و مات غمًّا و غُبنا." و قال في ترجمة الأديب عزّ الدين أحمد بن علي بن معقل الحِمْصي (ت 644هـ/ 1246م): "... رحل إلى العراق و أخذ الرَّفْض بالحلّة عن جماعة ... وكان ...غاليا في التشيّع ...، و من شعره ديوان مختصٌّ بمدح أهل البيت فيه التنقيص بالصحابة." و أشار في ترجمة الشاعر حمد بن محمد الجَزْري إلى أنّه كان " شيعيا غاليا... و له قصيدة ... فيها أنواع الرَّفْض." [(1)]

كما وصف الذهبي محمد بن أبي صالح عبد الله بن أبي أسامة الشيعي (توفي بقرية حراجل من جبال الجرد عام 674هـ/ 1275م.) بـ " الشيخ الضّال ... رأس الشيعة الغُلاة و قدوتهم." وذكر أنَّ الفقيه نجم الدين أحمد بن محسن بن ملّي البعلبكي الشافعي (ت 699هـ/ 1299م) قد أخذ " الفلسفة و الرَّفْض عن جماعة، " و كان " يتكلَّم في الصحابة نسأل الله السلامة. " وذكر أيضا أنَّ نجيب الدين أبا القاسم بن الحسين بن العود الحلّي نزيل حلب (ت 679هـ/1280 م) كان " رأس الرافِضة. " [(2)]

و لم يكتف الذهبي بذِكْر المَثالب في تراجم أعلام الشيعة؛ و هذا من مظاهر الإنصاف، و من بين التراجم التي تدلُّ على ما ذكرنا ترجمة أبي المكارم تاج الدين محمد بن نَصْر بن يحيى العَلَوي الشيعي عامل الخليفة المُستعصم على إربل (ت 656هـ/ 1258م)؛ إذْ قال الذهبي عنه: " ... كان من رجال العالم عقلاً و رأيًا و حَزْمًا وصرامةً، وكان سَمْحا جوادا ...". وقال في ترجمة الحسن بن زهرة بن الحسن بن زهرة العلَوي الحلبي (ت620هـ/ 1223م): "... رأس الشيعة و جاههم ... كان عارفا بالقراءات وفقه

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 793، 794. و ج 14، ص 404، 841، 842، 494، 706.

(2) – المصدر نفسه، ج 15، ص 281، 897، 381.

الشيعة و الحديث و الآداب ...، وكان وافر العقل حسن الخلق والخلق ... صاحب ديانة وتعبُّد...". ونفى المُصنِّف التشيُّع عن أعلام اتُّهموا بذلك؛ كقوله في ترجمة المُحدِّث نجم الدين الحسن بن سالم بن علي بن سلام الدمشقي (ت 642هـ/ 1244م): " ... و قد نُسِب إلى تشيُّع ولم يصح ذلك." [1]

و نستنتج من خلال ما تقدَّم عن مواقف المُصنِّف من الشيعة و الخوارج أنَّ تسنُّنه يتجلّى في عدَّة مظاهر؛ منها التحذير من انحرافات الشيعة و الخوارج و ذمّ كثير من أعلامهم، و نَقْد بعض الأخبار و إظهار عدم صحّتها. و منها التنبيه على الأحاديث التي وضعها بعض رُواة الشيعة و التأكيد على توقير أهل السُّنة لأهل بيت النبي صلّى الله عليه و سلَّم، بالإضافة إلى إثبات حِرص الباطنية على محاربة الإسلام و المسلمين، حيث كان ذمّه لهم أشدّ من ذمِّه لغيرهم. و رُغم الخلاف العَقَدي فإنّ الذهبي لم يتحامل على الشيعة و الخوارج؛ فلم يفتر على أعلامهم، و لم يصف عقائدهم بما لا تتضمنه، و بيّن أنَّ انحرافات الشيعة على درجات. كما نجد في " تاريخ الإسلام " تعليقات قيِّمة للمُصنِّف على المعطيات المتعلِّقة بالمذاهب، و مواضع استخلص فيها العِبَر من التطورات التاريخية، و أخرى بيَّن فيها كثيرا من الحقائق المرتبطة بالمذاهب.

– ب – مواقف المُصنِّف من أهل الكلام:

تتضح مواقف الذهبي من أهل الكلام من تعاليقه الكثيرة ضمن عرضه للحوادث و التراجم، ونُبرز ذلك كما يلي:

–1– مواقف المُصنِّف من الجَهمية و المُعتزلة:

نجد في " تاريخ الإسلام " تعليقات كثيرة للمُصنِّف تتضمن التحذير من الجَهمية والمُعتزلة، منها قوله: " إذا رأيت المُتكلِّم يقول: دَعْنا من الكتاب والسُّنة، وهات ما دلَّ عليه العقل فاعلم أنّه أبو جهل ..."، وقوله في ترجمة الجَهْم بن صَفْوان: "...المُتكلِّم الضال رأس الجَهْمية و أساس البِدعة...، وكان... يُنكر صفات

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 14، ص 846، 407، 408. و ج 13، ص 596، 597.

الربِّ عزَّ و جلَّ ... و يقول بخلق القرآن و يزعم أنَّ الله ليس على العرش بل في كلِّ مكان." ثم علّق الذهبي في آخر الترجمة بكلامٍ قيِّم إذ قال: "... فكان الناس في عافية وسلامة وفِطْرة حتى نَبَغ جَهْم فتكّلم في الباري تعالى و في صفاته بخلاف ما أتت به الرُّسل، و أُنزلت به الكتب نسأل الله السلامة في الدين." و قال في ترجمة واصل بن عطاء: "... و هو من رؤوس المُعتزلة بل مُعلّمهم الأوَّل ...، و الفاسق إذا لم يتب فهو عنده مُخَلَّد في النار نسأل الله العافية." و تطرَّق الذهبي في عرضه حوادث سنة 209هـ/824 م إلى تقريب الخليفة العباسي المأمون لأهل الكلام، ثم قال: "... و يأمرهم بالمُناظرة بحضرته...، و يُجالسه بِشْر بن غِياث المَريسي[1] و ثُمامة بن أَشرس[2] و هؤلاء الجنوس النحوس." و ذكر أنَّ المَريسي " كان رأس الجَهْمية ... و قد رماه بالكُفر غير واحد من الأئمة." [3]

وذكر الذهبي في ترجمة معمر بن عباد البصري المعتزلي (ت215هـ/ 830 م) بعض ما نُقل عنه من انحرافات، حيث أنكرها المُصنِّف و بيَّن بُطلانها. و قال في ترجمة ثُمامة بن أَشرس : "... و كان هو و بِشْر المَرِيسي آفة على السُّنة وأهلها." كما قال في ترجمة جعفر بن حرب البغدادي المعتزلي (ت 236هـ/ 850 م): "... من كبار مُصنِّفي المُعتزلة لا بارك الله فيهم." و نجد الذهبي في عدَّة مواضع من كتابه يستعيذ بالله تعالى من عقائد الجَهمية و المُعتزلة كقوله في ترجمة أحد الفقهاء: " ... يُحكى عنه القول بخلق القرآن أجارنا الله ." و قال عن فقيه آخر: "... و كان من كبار الجَهمية نسأل الله السِّتر." و قال في ترجمة الخليفة العباسي المُعتصم: " كان من أَهْيَب الخلفاء و أعظمهم، لولا ما شان سُؤدده بامتحان العلماء بخلق القرآن نسأل الله السلامة. " [4]

---

(1) – هو أبو عبد الرحمان بِشْر بن غِياث بن أبي كريمة المَريسي شيخ المعتزلة (ت 218هـ/ 833 م). يُنسب إلى درب المَريس (درب في بغداد). و مَريس أيضا : قرية في مصر. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 5، ص 657. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج 11، ص 263).

(2) – هو أبو مَعْن ثُمامة بن أَشْرس البصري المُتكلِّم، كان " من رؤوس المُعتزلة "، ترجم له الذهبي مع وفيات الفترة (211–220هـ) (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 5، ص 286).

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص 195، 389، 392، 749. و ج5، ص18، 283.

(4) – المصدر نفسه، ج5، ص 463، 286، 549، 651، 861، 693.

و صرَّح المُصنِّف بذمِّ الجَهْمية و المُعتزلة في مواضع كثيرة من " تاريخ الإسلام "؛ فقال عن النظَّام البصري[1] : " ... كان في هذا العصر من رؤوس البِدَع "، و قال: " ... أبو إسحاق النَظَّام ... ذو الضَّلال و الإجرام ..."، ثم ذكر بعض انحرافاته و علَّق بقوله: " القرآن و العقل الصحيح يُكذِّب هؤلاء التيوس الضُّلال قبَّحهم الله ...، و للنَظَّام مقالات خبيثة، و قد كفَّره غيرُ واحد. و قال في ترجمة محمد بن الهُذَيل بن عبد الله البصري المعروف بأبي الهُذَيل العلّاف (ت 235هـ/ 849 م): " كان من أجلاد القوم و رؤوسهم زَعَم بجهله أنَّ أهل الجنَّة تنقطع حركاتهم حتى لا يتكلَّمون كلمة، و ينقطع نعيم الجنَّة و أنكر الصفات المُقدَّسة. " و ذكر المُصنِّف بعض ما نقل عن هشام بن عمرو الفوطي الكوفي المعتزلي (ت بعد 221هـ/ 836 م) من انحرافات ثم علَّق بقوله: " هذا غاية ما عند هؤلاء المُعَثَّرين، عبارات و شقاشق يتقعّرون بها قديما و حديثا ...، فأبعد الله شرَّهم. " [2]

وكثرت تعليقات الذهبي على انحرافات الجَهمية والمعتزلة؛ فمن نماذج ذلك قوله في ترجمة أبي عيسى المردار[3]: "... انفرد بمسائل ملعونة " و " كفَّر كلَّ من خالفه، حتى قال له رجلٌ: فالجنَّة التي عرضها السماوات و الأرض لا يدخلها إلاّ أنت وثلاثة، فسكت. " وذكر المصنّف أن أبا عبد الله محمد بن شُجاع البغدادي الفقيه الحنفي المعروف بابن الثلجي (ت266هـ/ 879 م) " كان يَتجهَّم "، ثم أشار إلى قول ابن عَدي[4] فيه: " كان يضع أحاديث في التشبيه و ينسبها إلى أصحاب الحديث يَثْلبهم بذلك." و قال الذهبي في آخر ترجمة الشاعر عبد الله الناشئ بن محمد البغدادي المعتزلي (توفي في مصر عام 293هـ/

---

(1) – هو أبو إسحاق ضِرار بن عمرو البصري المُعتزلي، ترجم له الذهبي ضمن وفيات (221 – 230 هـ) (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج5، ص 736).

(2) – المصدر نفسه، ج 4، ص 866. و ج5، ص 736، 737، 720، 721.

(3) – كان أحد رؤوس المُعتزلة بالبصرة، توفي سنة 226 هـ/ 841 م. (أنظر: المصدر نفسه، ج5، ص 737).

(4) – هو " الحافظ " الشهير عبد الله بن عَدي بن عبد الله بن محمد الجرجاني، نسبة إلى بلدة جرجان الواقعة في النواحي الجنوبية الشرقية لبحر الخزر (بحر قزوين)، و اشتهر ابن عَدي بكتابه " الكامل في معرفة الضعفاء و المتروكين "، و كانت وفاته عام 365هـ/ 975 م. (أنظر: شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج 4، ص 344، 345. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 146).

/ 906م) : " ... و كان من كبار المُعتزلة لا رُعُوا . " كما قال في ترجمة أحد شيوخ [1] المُعتزلة: " ... و هو مُعتزلي جَلْدٌ مُتحرِّق." و تطرّق في حوادث عام 237هـ/851 م لمعاقبة قاضي مصر محمد بن أبي الليث [2] المُعتزلي من قِبَل الخليفة العباسي المُتوكِّل؛ فقال: " ... و فيها بعث المُتوكِّل إلى نائب مصر أن يحلق لحية قاضي القضاة بمصر أبي بكر محمد بن أبي الليث، و أن يضربه ... ففُعل ذلك به... و سُجن، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون، اللهمَّ لا تُجِره في مصيبته؛ فإنّه كان ظالما من رؤوس الجَهمية." [3] فنلاحظ أنّ المصنِّف كثيرا ما يُوظِّف مصطلح " الجَهمية " ليُعبِّر به عن المُعتزلة، و نجد هذا عند غيره من كبار علماء أهل السُّنة.

وقد أثنى على المُتوكِّل الذي لم يتَّبع سيرة المأمون و المُعتصم و الواثق في القول بخلق القرآن، وذكر أنّه " نشر السُّنة ...، و استقدم المُحدّثين إلى سامرّاء وأجزل عطاياهم وأكرمهم وأمرهم أن يُحدّثوا بأحاديث الصفات ...، وتوفّر دعاء الخلق للمُتوكِّل. " كما أثنى على المُحدِّث أحمد بن نَصْر الخُزاعي[4] الذي قتله الواثق ظلما عام 231هـ/ 846 م بعدما دعاه إلى القول بخلق القرآن فلم يستجب له و ثَبَت وصبر؛ قال الذهبي: " ... و فيها توفي أحمد بن نَصْر الخُزاعي شهيدا ... وكان... شيخا جليلا أمّارا بالمعروف قوّالا بالحقّ ...". و علَّق المُصنِّف على انتشار العقائد المنحرفة خلال النِّصف الثاني من (ق4هـ/ 10م) بقوله في حوادث عام 272هـ/ 885 م: " ... و في هذا الزمان كانت الأهواء و البِدَع فاشية بمِثل بغداد و مصر من الرَّفْض و الاعتزال و الضَّلال، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون ...".[5]

---

(1) – هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عَقيل الأبْيُوردي (ت 415 هـ/ 1024 م)، و أبْيُورد: مدينة في خُراسان. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج9، ص 253. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 222).

(2) – هو أبو بكر محمد بن أبي الليث الحارث بن عبد الله المُعتزلي، ولي قضاء مصر خلال عهد الخليفة العباسي المُعتصم ثم ابنه الواثق، و كانت وفاته في بغداد عام 250هـ/ 864 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 5، ص 1220).

(3) – المصدر نفسه، ج5، ص 737، 749. و ج 4، ص346. و ج 6، ص406، 967. و ج 9، ص253.

(4) – هو المُحدِّث أبو عبد الله أحمد بن نَصْر بن مالك بن الهيثم الخُزاعي البغدادي، ذكر ابن الجَوزي تفاصيل مقتله– رحمه الله – عام 231هـ/ 846 م. (أنظر: عبد الرحمان ابن الجَوزي، **المُنتظم**، ج11، ص 165).

(5) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج5، 743، 746، 766. و ج8، ص 347.

وحَرص الذهبي على نَقل بعض أقوال كبار العلماء في التحذير من مقالات الجَهْمية والمُعتزلة؛ فذكر أنَّ ربيعة بن عبد الرحمان المَدَني قِيل له: " الرحمان على العرش استوى[1] " كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول، والكَيْف غير معقول، و مِنَ الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق." وذكر قول الشافعي في أهل الكلام: " حُكمي في أصحاب الكلام أنْ يُطاف بهم في القبائل، ويُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة و أقبل على الكلام." كما نقل قول المُحدِّث إسحاق بن إبراهيم بن مخلد المَروزي المعروف بإسحاق بن راهويه (ت 238هـ/ 852 م): " ليس بين أهل العلم اختلاف أنّ القرآن كلام الله و ليس بمخلوق. " و نقل الذهبي كذلك قول أحمد بن حنبل: " لا يُفلح من تعاطى الكلام، ولا يخلو من أنْ يتجهَّم "، و قوله: " عليكم بالسُّنة ... و إيّاكم و الخوض و الجدال والمِراء، فإنّه لا يُفلح من أحبّ الكلام." ثم قال الذهبي: " ذمُّ الكلام و تعلّمه قد جاء من طرق كثيرة عن الإمام أحمد وغيره." [2]

ونَقَل بعض أقوال العلماء في ذمِّ الجَهمية؛ فمنها قول إبراهيم بن طهمان[3]: " الجَهمية كفّار. " وقول عبد الله بن المُبارك: "... لا نستطيع أن نحكي كلام الجَهمية. " و قول أبي زكريا يحيى بن يحيى بن بكر التميمي النيسابوري (ت 226هـ/ 841 م): " من قال القرآن مخلوق فهو كافر بالله." و نجد أمثلة أخرى كثيرة؛ منها قول علي ابن المديني: " من زعم أنَّ القرآن مخلوق فهو كافر...، و من زعم أنَّ الله لم يُكلِّم موسى على الحقيقة فهو كافر." و قول المُحدِّث " الحافظ" بِشْر بن المُفَضّل بن لاحق البصري (ت 186هـ/ 802 م) – بعدما ذُكِر عنده أحد الجَهمية– : " لا تذكروا ذاك الكافر." و قال الذهبي في ترجمة المُتكلِّم إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم المُعتزلي البصري (ت 218هـ/ 833 م): " ... وكان الإمام أحمد يقول: ضالٌّ مُضِلٌّ. " و في " تاريخ الإسلام " أمثلة أخرى مثل التي تقدم ذِكْرها.[4]

---

[1] – سورة طه (الآية: 5).

[2] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 651. و ج 5، ص 161، 787، 1024، 1030، 1031.

[3] – هو أبو سعيد إبراهيم بن طهمان بن شعبة ، وُلد بهَراة و استوطن نَيْسابور، و كانت وفاته عام 163هـ/ 780م. (أنظر: شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج2، ص 286. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 4، ص 300).

[4] – المصدر نفسه، ج 4، ص 301، 893، 816. و ج5، ص 731، 892، 264، 265، 840.

و نلاحظ من خلال ما تقدّم في هذا العنصر أنّ موقف الذهبي من الجَهمية و المُعتزلة تمثَّل في التحذير من عقائدهم و التعليق على انحرافاتهم و ذمّ بعض أعلامهم و نقل تحذير بعض العلماء منهم.

2- موقف المُصنِّف من الأشاعرة و الماتُريدية:

ذكرنا سابقا أنَّ الذهبي كان على عقيدة أهل الحديث، رغم انتشار العقيدة الأشعرية بين فقهاء الشافعية خلال (ق7-8هـ/ 13-14م) وتعليقاته في مواضع عديدة تدلّ على تمسّكه بمنهج أهل الحديث فمنها قوله في ترجمة الفقيه عمرو بن الحارث بن يعقوب الأنصاري المصري (ت148هـ/ 765م): " أحد الأئمة الأعلام ... علومه ...هي علوم الإسلام ذلك الوقت، ما كان القوم يخوضون في سوى ذلك، فخلَف من بعدهم خَلْفٌ عملوا ...الكلام و المنطق و خاضوا كما خاضت الحكماء."(أي الفلاسفة). و قال في ترجمة المُتكلِّم محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني الشافعي الأشعري (ت 406هـ/ 1015م): " كان مع دينه صاحب قَلَبة[1] و بِدْعة رحمه الله." و ذكر أنَّ أبا بكر عتيق المغربي كان "من غُلاة الأشاعرة ودُعاتهم." [2] و تجدر الإشارة إلى أنَّ البكري المذكور كان يفتري على أهل الحديث، فيتهمهم بالتشبيه ويُكفِّرهم و ينسب إليهم من الأقوال في العقيدة ما هم منه أبرياء.[3]

و ذكر الذهبي في ترجمة أبي الوفاء ابن عقيل[4] البغدادي الذي تأثَّر بالمذهب الأشعري (ثم رجع في آخر حياته إلى منهج أهل الحديث) أنّ تقي الدين ابن تيمية " و غيره من علماء السُّنة و الأَثَر" كانوا " يَحُطُّون على ابن عقيل. " كما أشار ضمن ترجمة الفقيه المؤرِّخ عبد الرحمان ابن الجَوْزي إلى

---

[1] – القَلَبة: الداء و التعب. و يُشير الذهبي هنا إلى أنّ ابن فورك كان من دُعاة الأشاعرة. (أنظر: مجد الدين الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص 127. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 9، ص 111).

[2] – المصدر نفسه، ج3، 937، 938. و ج9، ص111. و ج 10، ص395.

[3] – المصدر نفسه، ج 10، ص395. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 31. و عبد الرحمان ابن الجوزي، **المُنتظم**، ج16، ص 224، 225.

[4] – الفقيه أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الحنبلي " صاحب التصانيف "، توفي عام 511 هـ/ 1119م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج 2، ص 400).

تـأثّره[1] بالمـذهب الأشـعري فقـال: " و كلامـه فـي السُّـنة مُضـطرب، تـراه فـي وقـت سُنِّيا، و فـي وقـت ... مُحرِّفا للنصوص و الله يرحمه و يغفر له." و قال في ترجمة الفقيه شرف الدين علي بن المُفَضَّل بن علي بـن مُفرج الإسكندراني المـالكي الأشـعري (ت 611هـ/ 1214م): " ... وكـان إمامـا بارعـا فـي المـذهب مفتيا مُحدِّثا حافظا... حسن الأخلاق." ثم قال: " ليت نفسه قبلت منه و تمسَّكت بإمرار الصفات من غير تأويل. " فنلاحظ أنَّ تعليقات المُصنِّف تدلُّ على تمسُّكه بمنهج أهل الحديث و على إنصافه، و هذا من خلال مضامين التراجم.[2]

كمـا أشـار المُصـنِّف فـي ترجمـة المُـتكلِّم علـي بـن القاسـم بـن محمـد المغربـي الأشـعري نزيـل دمشـق (ت519هـ/ 1125م) إلى أنّه ألَّف كتابا في التحامل على أهل الحديث، وأبدى الذهبي استياءه من ذلك. و أشار في ترجمة الخطيب البغدادي إلى قول عبد العزيز الكتاني[3] أنَّ الخطيب كان أشعريا، ثم نفى الذهبي ذلك بقوله: " مذهب الخطيب في الصفات أنّها تُمَرُّ كما جاءت، صرّح بذلك في تصانيفه." وأقوال الخطيب تُؤيِّد كلام الذهبي؛ ومنها: " أمَّا الكلام في الصفات، فإنّ ما رُوي منها في السُّنَن الصِّحاح مذهب السَّلَف إثباتها و إجراؤها على ظواهرها " دون تشبيه لها بصفات المخلوقين.[4] و أثنى الذهبي على السلطان تُتش السلجوقي[5] الذي أنكر اعتقاد الأشاعرة أنّ القرآن ليس كلام الله حقيقة (قولهم بالكلام النفسي) في مُناظرة جرت بدمشق بين الفقيه شرف الإسلام أبي الفرَج الشيرازي و بين بعض الأشاعرة، ثم

[1] – إنّ تأثُّر ابن الجَوزي ببعض أفكار الأشاعرة لا يعني أنّه انتقل إلى مذهبهم؛ و ممّا يدلُّ على ذلك كلامه في التحذير منهم، كما أنه " انتقد موقف الأشاعرة في موقفهم من كلام الله تعالى." (أنظر: خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 61، 62.)

[2] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 205. و ج 12، ص 113. و ج 13، ص321، 322. و خالد كبير علال، المرجع نفسه، ص60.

[3] – هو المُحَدِّث أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي بن سليمان التميمي الدمشقي المتوفّى عام 466 هـ/ 1073م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 18، ص 248، 249).

[4] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 303. و ج 10، ص178. و **السِّير**، ج 18، ص 283، 284. و خالد كبير علال، المرجع نفسه، ص9.

[5] – السلطان أبو محمد تُتش بن ألب أرسلان أبي شجاع محمد بن داود بن ميكال بن سُلجوق، تملّك دمشق عام 472 هـ/ 1079م و قُتل عام 488 هـ/ 1095م بمدينة الري في فتنة مع ابن أخيه السلكان بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج 2، ص 356).

قال الذهبي: " ... فأيّد الله شرف الإسلام أبا الفرَج فجاهد في الله حقّ جهاده ...".[1]

و تطرّق في عرضه حوادث عام 521هـ/ 1127م إلى الفتنة التي وقعت في بغداد بين أبي الفتوح الإسفراييني الأشعري و أصحابه من جهة، و بين الحنابلة من أهل الحديث من جهة أخرى، حيث قال الذهبي بعدما أشار إلى تدريس أبي الفتوح ببغداد: " ... و كان يتكلَّم بما يُسقِط حُرمة المُصحف من قلوب العوام، فافتتن به خلقٌ، و زادت الفتن ببغداد ...، ومع هذا يقول " (أي الإسفراييني) " ليس هذا الذي نتلوه كلام الله، إنَّما هو عبارة و مَجاز ...، فمنعه " الخليفة " المُسترشد بالله من الجلوس و أمره أن يخرج من بغداد، وكان ابن صدقة [2] يميل إلى السُّنة فنصرهم." أي نَصَر أهل الحديث. و تعليق المُصنِّف على هذه الفتنة يدلُّ على تمسُّكه بمنهج أهل الحديث. كما يدلُّ عليه ثناؤه على المَلِك الأشرف الأيوبي الذي لم يستجب لتحريض عزِّ الدين ابن عبد السلام الأشعري ضد أهل الحديث من الحنابلة بعدما وقعت فتنة في دمشق بين الطرفين بسبب العقيدة، حيث عدَّ الذهبي ذلك من " حسنات الأشرف ".[3]

كما دافع عن الزاهد محمود بن أبي القاسم اسفنديار بن بدران بن أيان الإربلي (ت 665هـ/ 1266م) و كان على عقيدة أهل الحديث، فنفى الذهبي اتِّهام بعض الأشاعرة له بالتشبيه إذْ قال: " ... و كان بريئا من ذلك ... داعية الى السُّنة مُجانبا للبِدعة." و نفى ذلك أيضا عن الفقيه تقي الدين عبد الساتر بن عبد الحميد بن محمد الصالحي الحنبلي (ت 679هـ/1280م) حيث قال: "... و لم يصح عنه ما كان يُلطَخ به ...، و لا ينبغي أن يُسمَع فيه قول الخصوم، و بلغني أنَّ بعض المُتكلِّمين قال له: أنت تقول إنَّ الله على العرش استوى؟ فقال: لا والله ما قلته، لكنّ الله قاله، و الرسول صلّى الله عليه وسلم بلّغ، وأنا صدَّقتُ و أنت كَذَّبت، فأفحم الرجُل." و دافع الذهبي عن تقيِّ الدين ابن تيمية، و نفى اتِّهام الأشاعرة له بالتشبيه

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 303. و ج 10، ص 178، 593، 594.

[2] – الوزير جلال الدين أبو علي الحسن بن علي بن صدقة ، وزير الخليفة العباسي المُسترشد، كانت وفاته عام 522 هـ/ 1128م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج 2، ص 417).

[3] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 341. و ج 14، ص 199.

حيث قال عن الفتنة التي وقعت في دمشق عام 698هـ/ 1298م: "... و أخذوا فُتياه الحَمَوية ... وسَعَوا إلى القضاة و العلماء...، فنُودي في بعض دمشق بإبطال العقيدة الحَمَوية...، فانتصر له الأمير جاغان ... فطلب من سعى في ذلك .... و الذين سعوا في الشيخ ما أبقوا مُمكنا من القَذْف و السبِّ و رميه "بالتشبيه " و كان قد لحقهم حَسَدٌ للشيخ ...، و بعث جاغان " جماعة من أصحابه " فضربوا المنادي و جماعة كانوا معه من أذناب الفقهاء." [1] و نلاحظ هنا أنّ الجانب العَقَدي أكثر تأثيرا من الجانب الفقهي؛ فالذين قاموا على ابن تيمية كانوا أشاعرة شافعية، و الذهبي رغم أنَّه فقيه شافعي إلاّ أنّه بيَّن تحاملهم؛ و هذا يرجع إلى كونه على عقيدة أهل الحديث و إلى إنصافه و أمانته.

و ذكَر في ترجمة المُتكلِّم جمال الدين محمد بن الحسن بن محمد بن يوسف المغربي الأشعري نزيل حلب (ت 656هـ/ 1258م) أنّه " كان يتكلّم في الأصول على طريقة الأشعرية "، وأشار إلى اعتقاده أنّ القرآن الكريم ليس كلام الله حقيقة، ثم صرَّح الذهبي بمخالفته لجمال الدين المذكور. وقال في ترجمة الفقيه محمد بن موسى بن النُّعمان التلمساني الأشعري نزيل مصر (ت683هـ/ 1284م): " ... وكان فقيها مالكيا زاهدًا عابدًا ...، إلاّ أنّه كان مُتغاليا في أشعريته."[2]

ونقل في مواضع كثيرة من " تاريخ الإسلام " من كلام بعض العلماء في الحثِّ على التمسُّك بعقيدة أهل الحديث و التحذير من مقالات المُتكلّمين؛ منها قول أبي الحسين بن أبي يعلى الفرّاء: ... اعلم ... أنّ الذي درج عليه... السَّلَف التمسُّك بكتاب الله و اتِّباع سُنَّة محمّد صلَّى الله عليه وسلَّم، ثم ما رُوي عن الصحابة، ثم عن التابعين ...: الإيمان و التصديق بكلِّ ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله ... من غير تعطيل و لا تشبيه ...، وأصحاب الحديث ... مذهبهم حقٌ بين باطلين وهُدًى بين ضلالتين...". و نقل الذهبي كلاما للخطيب البغدادي في إثبات الصفات الإلهية دون تشبيه ، كما أشار إلى قول اليَسَع

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 121، 122، 373، 374، 699، 700.

(2) – المصدر نفسه، ج 14، ص 839، 840. و ج 15، ص 512.

بن عيسى بن حَزْم[1] : " ... سمَّى ابن تومرت[2] أتباع المُرابطين[3] مُجسِّمين، و ما كان أهل المغرب يدينون إلاّ بتنزيه الله تعالى عمّا لا يجب له، و صفته بما يجب له ... فكفَّرهم ابن تومرت." و الأمثلة الآنِف ذكرها نماذج قليلة من أمثلة كثيرة.[4]

و لاحظنا من خلال ما ذُكر في هذا العنصر أنّ المُصنّف أبدى في عدّة مواضع من كتابه مخالفته للعقيدة الأشعرية، و استنتجنا من خلال مضامين التراجم أنَّ تحذيره من الجَهمية و المُعتزلة أشدَّ من تحذيره من الأشاعرة.

-ج- مواقف المُصنِّف من الصوفية و الفلاسفة:

لقد حذَّر الذهبي ضمن تراجم كثيرة من انحرافات الصوفية؛ فمِن نماذج ذلك قوله أنَّ الصوفي إذا رأيته يقول : " دَعْنا من الكتاب والسُّنة والعقل وهات الذَّوق والوَجْد[5]، فاعلم أنّه شرٌّ من إبليس ..."، وقوله في ترجمة محمد بن علي بن الحسن بن بِشْر المعروف بالحكيم الترمِذي الصوفي(ت بعد281هـ/894م): "... و قال أيضا السُّلَمي[6]: ... و قيل أنّه هُجر بترِمذ في آخر عمره، و هو من سبب تصنيفه كتاب

---

(1) – هو الفقيه أبو يحيى اليَسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله المغربي، ارتحل إلى الإسكندرية ثمّ انتقل إلى القاهرة، له كتاب " المُغْرب في محاسن المَغرب ". و كانت وفاته عام 575هـ/ 1179م. (أنظر: شهاب الدين ابن حَجَر، **لسان الميزان**، ج8، (تحقيق: سلمان عبد الفتاح)، ط1، دار البشائر، بيروت – لبنان، 1423هـ/ 2002 م، ص516).

(2) – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودي، نسبة إلى مصمودة (قبيلة بربرية)، و هو صاحب الحركة المعروفة التي قامت في بلاد المغرب خلال النِّصف الأوّل من (ق6 هـ/ 12م)، توفي عام 524هـ/ 1130م. (شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 421).

(3) – تُعدُّ دولة المُرابطين من أبرز دول المسلمين خلال (ق5- 6هـ/ 11 – 12 م)، و المُرابطون من قبائل صنهاجة الصحراء. وكان تولِّي يوسف بن تاشفين (ت500هـ/ 1106م) إمرة المرابطين عام 463هـ/ 1070م من أبرز الأحداث في تاريخ نشأة هذه الدولة. (أنظر: حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والاندلس**، دار الرشاد، د م، د ت، ص 188.)

(4) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 10، ص 107، 185. و ج 11، ص 417.

(5) – قال ابن الجَوْزي: " ... و هذه الطائفة الصوفية إذا سمعت الغناء تواجدت و صفّقت و صاحت و مزَّقت الثياب، و قد لبّس عليهم إبليس في ذلك و بالغ." (أنظر: صابر طعيمة، المرجع السابق، ص310).

(6) – هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى المعروف بأبي عبد الرحمان السُّلمي الصوفي النيسابوري المتوقّى عام 412هـ/ 1021م. و السُّلمي: نسبة إلى سُلَيم؛ وهي قبيلة من العرب مشهورة. (أنظر: عبد القادر السندي، المرجع السابق، ص 590. وعبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج7، ص 111).

" ختم الولاية " [1]، و ليس فيه ما يوجب ذلك، و لكن لبُعد فهمهم عنه." و علَّق الذهبي على كلام السُّلَمي بقوله: " كذا قال السُّلَمي، و السُّلَمي له كتاب " حقائق التفسير " من هذا النمط أشياء تنافي الحقّ، فما أدري ما أقول، أسأل الله السلامة من تخبيطات الصوفية ..." [2]. و قال الذهبي في ترجمة الحلاَّج [3] الصوفي: "... قتلوه على الكُفر و الحُلول[4] و الانسلاخ من الدين نسأل الله العفو ...، و من نظر في مجموع أمره علِم أنّ الرجلَ كان كذَّابًا مُمَوِّها ... حُلوليا..."، و قال في موضع آخر: " ... و ظهر عنه بالأهواز و بغداد أنّه ادَّعى الإلهية... " كما ذكر أنَّ الخطيب البغدادي " قد هَتَك ... حال الحلاّج في تاريخه الكبير و شفى و أوضح أنّه كان ساحرا مُمَوِّها سيِّئ الاعتقاد." [5]

و قد صرَّح المُصنِّف بذمِّ علي بن محمد بن العباس البغدادي المعروف بأبي حيّان التوحيدي الصوفي (ت400هـ/ 1009م) فقال: " ... وكان سيِّئ الاعتقاد. " [6] كما قال: " كان عدوًّا لله خبيثا." ثم ذكر أنَّ أبا حيّان المذكور قال: " أُناسٌ مضوا تحت التوهُّم، و ظنُّوا أنَّ الحقَّ معهم، وكان الحق وراءهم. " و علّق الذهبي فقال: " مثلك يا مُعثَّر، بل أنت حامل لِوائهم". و خَتم ترجمة أبي عبد الرحمان السُّلَمي الصوفي بقوله: "... له كتاب سمَّاه " حقائق التفسير" ليته لم يُصنِّفه؛ فإنّه تحريفٌ و قَرْمَطة[7] فدونك الكتاب فسترى العجب. " و لذلك فقد وافق الذهبي الفقيه علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي

---

[1] – ادَّعى في كتابه المذكور أنَّ الأولياء يُختَمون كما أنّ الأنبياء عليهم السلام لهم نبيٌّ خاتَم. كما ادَّعى أنّ الأولياء معصومون و أنَّهم يعلمون الغَيب، و قد ردَّ عليه أهل العلم. (أنظر: عبد الرحمان عبد الخالق، المرجع السابق، ص 249، 256).

[2] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3، ص 195. و ج 6، ص 814، 816.

[3] – هو أبو مُغيث الحسين بن منصور بن محمد الصوفي الفارسي المعروف بالحلاَّج، قُتل في بغداد سنة 309هـ/ 921 م خلال عهد الخليفة المقتدر بالله. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج1، ص 454، 455.)

[4] – هو الاعتقاد أنّ " الله تعالى يحلُّ في بعض الأجساد الخاصة ... تعالى الله عمّا يقول الظالمون عُلوًّا كبيرا." (أنظر: غالب عواجي، المرجع السابق، ص 987، 989).

[5] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 7، 25، 143.

[6] – قال ابن الجَوزي: " زنادقة الإسلام ثلاثة " و ذكر منهم أبا حيّان الصوفي . و قال الذهبي: " ... صاحب زندقةٍ و انحلالٍ." كما قال: " الضالُّ المُلحِد ..."، و كان أبو حيَّان يقدح في الشريعة. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج8، ص 838، 839. و**السير**، ج17، ص 119. و **ميزان الاعتدال**، ج7، ص 359).

[7] – يقصد المُصنّف تأويلات الباطنية، و قد تقدَّمت الإشارة إليها. و وظّف لفظ " قَرْمَطة " لأنَّ القرامطة من الباطنية. (أنظر: عبد القادر السندي، المرجع السابق، ص 593. و غالب عواجي، المرجع السابق، ص 490).

النيسابوري (ت 468هـ/ 1075م) الذي قال: " صنَّف أبو عبد الرحمان السُّلَمي كتاب " حقائق التفسير " و لو قال أنَّ ذاك تفسيرٌ للقرآن لكَفَر به ." قال الذهبي بعدما ذكر كلام الواحدي: " صدق و الله. " [1]

ومن مظاهر تحذير المُصنِّف من انحرافات الصوفية قوله في آخر ترجمة أبي حامد الغزالي الصوفي: "... للغزالي غلَط كثير ... و دخولٌ في الفلسفة و شكوك، و من تأمّل كُتُبه العقلية رأى العجائب[2]، وكان مُزْجى البضاعة من الآثار على سعة علومه ...". كما نقل المُصنِّف بعض ما قيل عن أبي الفتوح الغزالي الصوفي كقول ابن الجَوزي: " ... الغالب على كلامه التخليط و رواية الموضوعات و الحكايات الفارغة والمعاني الفاسدة..."، و قول محمد بن طاهر المَقدسي[3]: "... كان يزعم أنّه رأى رسول الله صلّى الله عليه وسلم في اليقظة، و يذكر على المنبر أنَّه كلَّما أشكل عليه أمرٌ سأل رسول الله صلّى الله عليه وسلَّم فدلَّه على الصواب...".[4] وذكر الذهبي أنَّ أحمد بن قسي الصوفي[5] " كان سيِّئ الاعتقاد "[6] وأنّه صنَّف كتابا فيه " أوابد ومصائب." كما ذمّ الذهبي اليونسية[7] فقال: "... الطائفة اليونسية أُولي الزعارة[8]

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 8، ص 263، 264، 837، 838، 839. و ج9، ص211. و ج 10، ص264، 265.

(2) – قال الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن خلَف الطُرطوشي المالكي (طُرطوشة بلدة في الأندلس) المتوفّى عام 520هـ/ 1126م: " شحن الغزالي كتابه "الإحياء " بالكذب على رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، فلا أعلم كتابا على بسيط الأرض أكثر كذبا على رسول الله صلّى الله عليه و سلم منه ثم شبكه بمذاهب الفلاسفة ...". (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج11، ص 68. و صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج5، ص115).

(3) – هو المُحدِّث أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي المتوفّى في بغداد عام 507هـ/ 1113م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 390).

(4) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 71، 310، 311.

(5) – ترجم الذهبي لأحمد بن قسي الأندلسي ضمن طبقة (551 – 560هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 188).

(6) – قال المؤرِّخ عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي (ت 647هـ/ 1249م): "... و لابن قسي هذا أخبار قبيحة مضمونها الجراءة على الله سبحانه." (أنظر: عبد الواحد المراكشي، **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، (تحقيق: محمد العريان)، نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة – مصر، 1383هـ/ 1963م، ص 281).

(7) – طائفة صوفية تُنسب إلى يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني القُنيي ، والقُنية: قرية من نواحي مدينة ماردين في الجزيرة الفُراتية. وكانت وفاة يونس عام 619هـ/ 1222م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 591. و**العِبر**، ج3، ص 179).

(8) – الزعارة: تعني الشراسة. (أنظر: مجد الدين الفيروزآبادي، المصدر السابق، ص 400).

... و الشطح[1] أبعد الله شرَّهم. " و قال: "... و لهم أعمالٌ تدلّ على الاستهتار و الانحلال قالا و فعالا أستحي من الله و من الناس من التفوُّه بها، فنسأل الله المغفرة و التوفيق." [2]

و أشار في عرضه حوادث عام 655هـ/ 1257م إلى ظهور طائفة الحَيْدرية[3] في بلاد الشام حيث قال: "... و في رقابهم حِلَق كبار من حديد...، وهم يُصلّون و يصومون و لكنّهم قوم منحرفون. " وصرّح بذمِّ علي بن أبي الحسن الحريري الصوفي؛ حيث قال بعدما أشار إلى استهزائه بأوامر الشرع و نواهيه: "... و أما الحريري فكان مُتهتِّكا قد ألقى جلباب الحياء، و شَطَح حتى افتضح، و اشتهر مُروقه و اتّضح. وأبلغ ما يقوله في هؤلاء جُبناء العلماء أنَّ لكلامهم معاني وراء ما نفهمه نحن، مع اعترافهم بأنّ هذا الكلام من حيث الخطاب العربي كُفرٌ و إلحادٌ، لايُخالف في ذلك عاقلٌ منهم، إلاّ من عاند و كابَر؛ فخُذ ما قاله الحريري في جزء مجموع من كلامه يتداوله أصحابه بينهم، قال: إذا دخل مُريدي بلد الروم وتنَصَّر و أكل لحم الخنزير ... كان في شُغلي. " ثمّ نقل الذهبي بعض أقوال الحريري، منها قوله لأتباعه: " ... بايعوني على أن نموت يهود ونُحشَر إلى النار حتى لا يصاحبني أحدٌ لعِلّة. " وقوله: " لو ذبحتُ بيدي سبعين نبيّا ما اعتقدتُ أنّي مُخطئ." ثم علّق الذهبي فقال: " يعني: لو ذبحتهم لفعلتُ ما أراده الله منّي، إذْ لا يقع شيء في الكون إلاّ بإرادته سبحانه و تعالى." وقال رادّا عن الحريري: " و طرْد ذلك أنَّ الله أراد منّا أن نلعن قَتَلة الأنبياء و نبرأ منهم ونعتقد أنّهم أصحاب النار، وأن نلعن الزنادقة ونضرب أعناقهم، و إلاّ فلأيِّ شيء خُلقت جهنَّم ؟ و اشتدَّ غضب الله على من قتل نبيّا، فكيف بمن يقتل سبعين نبيا ؟ والله تعالى يُحبّ الأبرار و يبغض الفُجّار و يُخلِّدهم في النار مع كونه أراد إيجاد الكفر والإيمان، فهو يريد الشيء، فإنّه لا يكون إلاّ ما يُريد، ولكنّه لا يرضى لعباده الكفر و لا يُحبّه...". وقال الذهبي أيضا بعدما ذكر كلاما شنيعا

[1] – يُقصَد بالشطحات الصوفية ما صدر عنهم من " الكلمات الكُفرية ".(أنظر: غالب عواجي، المرجع السابق، ص 1023).

[2] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 12، ص 188. و ج 13، ص 592، 593.

[3] – طائفة صوفية تُنسب إلى رجل يُدعى حيدر (لم أقف على ترجمته)، و لمّا قدموا إلى دمشق عام 655 هـ/ 1257م بُنيت لهم زاوية في ظاهرها. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 241).

للحريري: " ... وله من هذا الهَذَيان[1] شيء كثير." كما قال عن أتباعه: " وسنّ أصحابه المحيى كلّ عام في ليلة سبعة و عشرين، وهي من ليالي القَدر، فيُحيون تلك الليلة بالدُّفوف ... والرقص إلى السَّحَر، اللهمّ لا تمكر بنا و توفَّنا على سُنَّة نبيّك." و قال المصنّف في آخر ترجمة علي بن عبد الله الشاذلي الصوفي – وهو من القائلين بوحدة الوجود –: " ... له شعرٌ و نثرٌ فيه متشابهات وعبارات يُتكلَّف له في الاعتذار عنها " [2].

وكان الذهبي حريصا على التحذير من عقيدة وحدة الوجود من خلال تعليقاته ضمن التراجم؛ فمنها قوله في ترجمة الشاعر ابن الفارض الصوفي: " ... و ديوان شعره مشهور ... شانه بالتصريح بالاتحاد الملعون ...، و ها أنا أذكر لك منه أبياتا لتشهد بصدق دعواي، فإنّه قال – تعالى الله عمَّا يقول –" ثم ذكر المُصنِّف أبياتا للصوفي المذكور. ونقل في ترجمة ابن عربي الصوفي بعض كلامه في وحدة الوجود كقوله (ابن عربي) أنّ الذين يعبدون الأصنام إذا تركوا عبادتها " جهِلوا من الحقّ على قدر ما تركوا من هؤلاء، فإنّ للحقّ في كلِّ معبودٍ وجها ... فما عُبد غيرُ الله في كلِّ معبود. " ثم قال الذهبي: " تعالى الله عمَّا يقول علوًّا كبيرا، أستغفر الله وحاكي الكُفر ليس بكافر. " وقال أنّ كلام ابن عربي هو " مَحْض الكُفر والزندقة. " و قال: " ... فلمّا كان على رأس السبع مئة جدَّد الله لهذه الأمّة دينها بهَتْكه وفضيحته ...". وبيَّن الذهبي انحراف الحسن بن عدي الصوفي[3] فقال: " ... و رأيت له كتابا في عشرة أبواب، أحد هذه الأبواب إثبات رُؤية الله تعالى في الدنيا عيانا، و أنَّ غير واحد من الأولياء رأى الله عيانا، و استدلَّ على ذلك، فنعوذ بالله من الخذلان ...، و له ديوان شعر فيه أشياء من الاتحاد." ثم ذكر الذهبي أبياتا و قال بعدها: " كَذَبَ وفَجَر قاتله الله أنَّى يُؤفَك." وقال:" لا يكمل للرّجُل إيمانه حتى يتبرّأ من الحُلولية والاتحادية

---

(1) – الهذيان: هذى فلان هذيانا أي: تكلّم بغير معقول لمرض أو غيره. (أنظر: مجمع اللغة العربية، المرجع السابق، ص 647).

(2) – شمس الدين الذهبي، ج 14، ص 668، 521، 522، 523، 525، 528، 830. و أحمد القُصَيّر، المرجع السابق، ص 193.

(3) – هو شمس الدين الحسن بن عدي بن أبي البركات بن صخر بن مسافر بن إسماعيل الصوفي (ت644 هـ/ 1246 م)، له شِعر كثير و أتباع يتغالون فيه، وكانوا بنواحي الموصل. (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج7، ص 396).

الذين يقولون أنّ الله سبحانه حلَّ في الصُّوَر أو اتَّحدت ذاته بذوات البَشر." [1]

و لمَّا ترجم لابن سبعين الصوفي حثَّ على الإنكار على الاتحادية إذْ قال: "... و له كلامٌ كثيرٌ ... على طريق الاتحاد و الزندقة نسأل الله السلامة، و قد ذكرنا محطّ هؤلاء الجنس في ترجمة ابن الفارض و ابن العربي و غيرهما، فيا حَسْرة على العباد، كيف لا يغضبون لله تعالى و لا يقومون في الذبِّ عن معبودهم تبارك اسمه و تقدّس في ذاته أن يمتزج بخلقه أو يحلّ فيهم، و تعالى الله أن يكون هو عين السماوات و الأرض وما بينهما ...". وقال: " فإنّ هؤلاء " – أي الاتحادية– " يقولون: ما ثمَّ غير وما في الكون سوى الله ... تعاليت يا إلهنا عن ذلك، بل وما أنت عين الكون، بل أنت غيره، و يفهم هذا كلَّ من هو مسلم." كما قال: " ومن طالع كتب هؤلاء علم علما ضروريا أنهم اتحادية مارِقَة من الدين." وذكر أنّ أحد الصوفية أخبره أنّه صحب جماعة من السبعينية (أتباع ابن سبعين) فكانوا يُهوِّنون له تَرْك الصلاة و غير ذلك، و علّق الذهبي قائلا: " اللهمّ احفظ علينا إيماننا و اجعلنا هُداة مهديين." و قال مبيِّنا وجوب التحذير من الاتحادية: " ... فإنني أخاف الله أن يُعذِّبني على سكوتي." [2]

و نجد تحذير الذهبي من عقيدة وحدة الوجود في تراجم أخرى مثل قوله في ترجمة ابن هود المُرْسي: " أحد الكبار في التصوف على طريقة أهل الوحدة أعاذنا الله من ذلك ...، اشتغل بالفلسفة ... و تُرهات الاتحادية " و " له أبيات مشهورة في الاتحاد ... يقول فيها: أنا ربٌّ أنا عبد ... أنا بعض أنا كلّ ...". وقال المُصنِّف بعدما ذكر الأبيات: " اللهمّ ثبّت قلوبنا على دينك." و أشار في ترجمة صدر الدين القُونوي الصوفي إلى مصاحبته لابن عربي و تصنيفه كتبا على طريقته، ثم قال الذهبي: " نسأل الله العافية ". وقال في ترجمة أبي الكرم المصري[3]: "... غَوي بكُتُب ابن العربي و كتب كثيرا منها نسأل الله السلامة."

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 14، ص 76، 77، 277، 278، 520، 521، 499، 500.

(2) – المصدر نفسه، ج 15، ص 168، 169، 170.

(3) – هو أبو الكرم أيوب بن بدر بن منصور بن بدران المصري ثم الدمشقي الصوفي، توفي عام 665 هـ/ 1266م. (أنظر: المصدر نفسه، ج 15، ص 111).

كما ذكر أنَّ الشاعر نجم الدين الدمشقي[1] قد " سلك في نَظْمه مسلك " الاتحادية، ثم قال عن هؤلاء: " ... أمَّا من عرف مذهب القوم وحقيقة ما يعتقدونه، فلا يرتاب في خروجهم من المِلَّة، أو هو منهم فنسأل الله العظيم أنْ يُثبِّت قلوبنا على دينه." و قال بعدما ذكر أبياتا للشاعر المذكور في وحدة الوجود: "... سبحان الله و تعالى عمّا يقولون علوًّا كبيرا، فينبغي للإنسان إذا حكى قول الكُفْر أنْ يُسبِّح الله ويقدِّسه و يمجِّده لينجيه من الكُفْر. و لقد اجتمعتُ بغير واحد ممَّن كان يقول بوحدة الوجود، ثم رجع و جدَّد إسلامه." و قال ضمن ترجمة العفيف التلمساني: "... وحاصل الأمر أنه كان من غُلاة الاتحادية القائلين بوحدة الوجود ... تعالى الله عمَّا يقولون عُلوًّا كبيرا." [2]

ويتبيَّن لنا من خلال ما تقدَّم أنّ الذهبي قد حرص على التحذير من انحرافات الصوفية خاصة القائلين بوحدة الوجود، وشمل نقده الصوفية الذين كانوا شافعية في الفروع وغيرهم، وهذا من مظاهر إنصافه. و لاحظنا وجود تعليقات قيِّمة للمُصنِّف ضمن التراجم من شأنها أن تجعل لكتابه منزلة علمية مرموقة.

ولم يجعل الذهبي الصوفية في منزلة واحدة نظرا لتباين طبيعة التصوف؛ فقد أثنى على بعض صوفية القرن الثالث الهجري (ق9 م) كسهل بن عبد الله التُّسْتَري[3]، حيث قال بعدما ذكر حرصه على الحديث: " هكذا كان مشايخ الصوفية في حرصهم على الحديث والسُّنة لا كمشايخ عصرنا الجَهَلة البَطَلة..."، ونقل بعض ما أُثر عنه من الكلام النافع. و أثنى على بِشْر الحافي[4] حيث وصفه بـ " الزاهد الكبير"، و أشار إلى وَرَعه، و نقل ثناء بعض العلماء عليه، كما نقل كثيرا من أخباره.[5]

---

(1) – هو نجم الدين محمد بن سوار بن إسرائيل بن خَضِر بن إسرائيل بن الحسن الشيباني الدمشقي الصوفي، توفي عام 677هـ/ 1278م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 15، ص347).

(2) – المصدر نفسه، ج 15، ص 904، 905، 111، 240، 347، 348، 349، 655.

(3) – هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التُسْتَري المتوفّى عام 283هـ/ 896 م. و تُستَر: مدينة في الأهواز. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 129. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج 2، ص 29).

(4) – هو بِشْر بن الحارث بن عبد الرحمان بن عطاء بن هلال المروزي نزيل بغداد. توفي عام 227هـ/ 842 م. و عُرف بالحافي لأنَّه كان لا يلبس نعلاً بل يمشي حافيا. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص 3، 4).

(5) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج6، ص 756، 757. و ج5، ص 540، 542.

و بيَّن عدم صحة بعض الأخبار التي وردت في تراجم الصوفية، ومن أمثلة ذلك ذكره في ترجمة أبي عُبَيد البسري[1] خبرا نقله أبو عبد الرحمان السُّلَمي الصوفي، مضمونه أنّ البسري " إذا كان أوّل شهر رمضان يدخل البيت و يقول لامرأته: طيِّني باب البيت ، و أَلق إليَّ كلِّ ليلة من الطاقة رغيفا ...، فلمّا كان يوم العيد رفست الباب و دخلت فوجدت ثلاثين رغيفا موضوعة ...، لا أكل و لا شرب ... بقي على صوم واحد إلى آخر الشهر." و علَّق الذهبي بقوله: " هذه حكاية بعيدة عن الصحة ... ذكرتها للفرجة لا للحُجَّة." كما أشار في ترجمة عبد القادر الجِيلي[2] إلى وجود كتاب قد صُنِّف في سيرته يتضمن " الصحيح و الواهي و المكذوب "، حيث كُتبت " فيه حكايات عن قوم لا صدق لهم، كما حكوا أنّ الشيخ مشى في الهواء من منبره ثلاث عشرة خطوة في المجلس، و منها أنَّ الشيخ وعظ فلم يتحرَّك أحد فقال: أنتم لا تتحركون و لا تطربون يا قناديل إطربي ... فتحرَّكت القناديل...". فإنكار الذهبي لهذه الأخبار يُعدّ أمرا إيجابيا.[3]

لكنَّ المُصنِّف قد نقل أخبار أخرى غير صحيحة اعتبرها واضعوها كرامات دون أن يُعلِّق عليها ومن أمثلة ذلك ما ذكره في ترجمة أبي الحسن ابن الصائغ[4]، حيث ذكر خبرا نقله أبو عبد الرحمان السُّلمي الصوفي، و مضمونه أنَّ رجلا رأى نسرا واقفا في الهواء لا يتحرَّك، فمشى الرجل فوجد أبا الحسن ابن الصائغ يُصَلِّي و النسر يُضلُّه. كما نقل الذهبي في ترجمة أبي الخير التيناتي[5] قصصا مكذوبة من

---

(1) – هو الزاهد أبو عُبيد محمد بن حسان الحوراني الصوفي. توفي عام 260 هـ/ 874 م.(شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 6، ص 237).

(2) – هو الزاهد أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله الجيلي الحنبلي ، وُلد بجيلان سنة 471 هـ/ 1078 م، و قدم بغداد شابّا، و كانت وفاته عام 561هـ/ 1166م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 635. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 12، ص 253).

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج6، ص237، 238. و ج12، ص 263).

(4) – هو الزاهد علي بن محمد بن سهل، يُعرف بأبي الحسن ابن الصائغ. توفي في مصر عام 331هـ/ 942 م.(أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج 4، ص 177).

(5) – التيناتي: نسبة إلى تينات من أعمال حلب. و قيل: إنّ اسم التيناتي حماد بن عبد الله، و كانت وفاته حوالي عام 349هـ/ 960م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج7، ص 917، 918).

بعض كتب الصوفية خاصَّة " الرسالة القُشَيرية " [1] و " طبقات الصوفية " [2]؛ فمنها أنَّ رجلاً قال عن زيارة قام بها للتيناتي: " ... فلمَّا ودَّعته خرج معي إلى باب المسجد فقال: إنِّي أعلم أنّك لا تحمل معك معلوما، و لكن إحمل معك هاتين التفاحتين... فأخذتهما و وضعتهما في جيبي وسرت فلم يُفتح لي بشيء ثلاثة أيام، فأخرجت واحدة و أكلتها، ثم أردت أنْ أخرج الثانية فإذا هما في جيبي، فكنتُ كلَّما أكلتُ واحدة وجدتهما بحالهما إلى أن وصلت إلى باب الموصل ...، فإذا فقير مكفوف في عباءة يقول: أشتهي تفاحة فناولته إيَّاهما، فلمّا عبرت وقع لي أنّ الشيخ إنّما بعثهما إليه ...". و نقل المُصنِّف ادِّعاء أبي عبد الرحمان السُّلمي الصوفي أنَّ السّباع كانت تأوي إلى التيناتي و تأنس به.[3] كما نقل في ترجمة أحمد بن عطاء الصوفي[4] خبرا مضمونه أنّ أحمد رأى وهو مسافر إلى مكة " الجمال و المحامل عليها " فقال: " سبحان الله من يحمل عنها ما هي فيه "، فكلَّمه جمل فقال: قل جلَّ الله، فقال: جلَّ الله. وهذه الأخبار المكذوبة من طرف بعض الصوفية والتي نقلها الذهبي عن غيره دون تعليق، نجد منها نماذج أخرى في " تاريخ الإسلام " لكنّها قليلة مقارنة بحجم الكتاب، و لعلَّ عدم تعليقه عليها في بعض المواضع يعود إلى اتِّساع الفترة الزمنية التي أرّخ لها و كثرة التراجم، مع الإشارة إلى أنّه قد بيَّن في مواضع أخرى عدم صحة مثل هذه الأخبار. و جدير بالذِّكر أنَّ كتابي " الرسالة القُشَيرية " للقُشَيري و " طبقات الصوفية " للسُّلَمي يُعدّان من أبرز مصادر المزاعم المُلفّقة التي تكثر في تراجم الصوفية.[5]

وصرح الذهبي بذمِّ الفلاسفة، و حذَّر في عدَّة تراجم من مُصنَّفاتهم، ومن أمثلة ذلك قوله في ترجمة

---

[1] –" الرسالة القُشَيرية" كتاب تراجم صنّفه أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد المَلِك بن طلحة القُشَيري الأشعري الشافعي المتوفّى في نَيسابور عام 465 هـ/ 1072 م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6 ، ص 503).

[2] – كتاب " طبقات الصوفية " صنَّفه أبو عبد الرحمان السُّلمي الصوفي المتقدم ذِكره. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 9، ص 208).

[3] – المصدر نفسه، ج7، ص647، 648، 918.

[4] – هو أبو عبد الله أحمد بن عطاء بن أحمد بن محمد بن عطاء نزيل صور المتوفى عام 399هـ/ 1008م. (أنظر: المصدر نفسه، ج8، ص 299).

[5] – المصدر نفسه، ج8، ص 604، 299. و ج7، ص 918، 919، 920. و ج11، ص 430.

الرِّيوندي[1]: "... المُلْحد صاحب الزندقة ...، صنَّف في الزندقة لعنه الله ... و قد سَرَد ابن الجَوْزي من زندقته أكثر من ثلاث ورقات صُنْت هذا الكتاب عنها." و نقل الذهبي من كلام ابن الجَوْزي في ذمّ الرِّيوندي كقوله: "... له ... من الهَذيان البارد الذي لا يتعلّق بشُبهة ...، و قد وضع كتابا لليهود والنصارى يحتجّ لهم في إبطال نُبوَّة نبيّنا صلَّى الله عليه و سلَّم." ونقل أيضا من كلام ابن عقيل وغيره في ذمّ الرِّيوندي. وترجم الذهبي ضمن وفيات عام 339هـ/ 950م للفارابي[2] الفيلسوف وقال عن تصانيفه: "... وله تصانيف مشهورة من ابتغى الهُدى فيها أضلَّه الله." [3] كما قال عن ابن العميد[4]: "... و كان مُتفلسفا متّهَما برأي الأوائل." و قال عن الشاعر محمد بن هانئ الأندلسي (ت362هـ/ 973 م): " ... حامل لواء الشعر بالأندلس ...، و كان مُنهمِكا في اللذات و المحرَّمات متَّهما بدين الفلاسفة ...".[5]

و نجد في " تاريخ الإسلام " أمثلة أخرى كالتي تقدَّم ذِكْرها، منها قول المُصنِّف في ترجمة أبي علي محمد بن الحسن بن الهيثم البصري نزيل مصر (ت430هـ/ 1038م): "... الفيلسوف صاحب المصنَّفات الكثيرة في علوم الأوائل لا رحمهم الله ...، و كان على اعتقاد الأوائل، صرّح بذلك نسأل الله العافية." و علَّق الذهبي على تصانيف شهاب الدين السُّهروردي[6] بقوله: " سائر كُتبه فلسفة و إلحاد، نسأل الله

---

(1) – هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرِّيوندي " المُلحد صاحب الزندقة "، توفي عام 298هـ/ 910م. و " الرِّيوندي" نسبة إلى رِيوند، و هي قرى في نواحي نيسابور. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج6، ص902. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج 6، ص 212).

(2) – هو أبو نَصر محمد بن محمد بن طرخان الفارابي التركي الفيلسوف المتوفّى في دمشق عام 339هـ/ 950م. و " الفارابي" نسبة إلى فاراب، و هي بلدة في بلاد ما وراء النهر. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 271. و عبد الكريم السمعاني، المصدر نفسه، ج9، ص 211).

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج6، ص 902، 903، 904. و ج7، ص 731.

(4) – هو محمد بن الحسين بن محمد المعروف بأبي الفضل ابن العميد الكاتب (ت 360هـ/ 971م) وزير السلطان البُويهي ركن الدولة الحسن بن بُويه. (أنظر: شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق، ج5، ص 103).

(5) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج8، ص 153، 209.

(6) – هو شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السُهروردي الفيلسوف. و السُهروردي: نسبة إلى سُهرورد، و هي بلدة من نواحي زنجان في جنوب غرب بحر الخزر (بحر قزوين). وقد قُتل السُهروردي عام 587هـ/ 1191م في حلب بعدما أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي ولده الملك الظاهر غازي بقتله. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر نفسه، ج7، ص 197. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 221. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص 95).

السلامة في الدين." كما أشار ضمن ترجمة نَصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطُّوسي الفيلسوف المعروف بنصير الدين الطُّوسي (ت 672هـ/ 1273م) إلى أنّه كان"على مذهب الأوائل" [1] (أي الفلاسفة) " في كثير من الأصول "، ثم قال: " نسأل الله الهدى و السداد." [2] و نقل قول ابن النجار [3] في أبي الرشيد البغدادي[4] الذي صنَّف في الفلسفة: "... و كان يُرمى بفساد العقيدة و إنكار البَعْث و يتهاون بالفرائض...". و نقل قول ابن الجَوْزي في صدقة بن الحسين بن الحسن بن بختيار البغدادي المعروف بأبي الفرَج ابن الحداد (ت573هـ/1177م): " ... ناظر و أفتى إلاّ أنّه كان يظهر في فلتات لسانه ما يدلُّ على سوء عقيدته ...، و كان يميل إلى مذهب الفلاسفة، و تارة يعترض على القَدَر ...".[5]

و نستنتج من خلال ما تقدَّم في العنصر السابق أنَّ موقف المُصنِّف من الصوفية قد تباين حسب معطيات هؤلاء، و قد حرص على التحذير من انحرافاتهم خاصَّة عقيدة وحدة الوجود. كما نقد بعض الأخبار المكذوبة التي اعتُبرت كرامات لبعض الأعلام، و لاحظنا أنّه كثيرا ما يختم النقد و التعليق بالدعاء. و لم يُميِّز الذهبي بين الصوفية الذين كانوا شافعية وبين غيرهم من الصوفية، وهذا ممّا يدلُّ على إنصافه. وقد حرص أيضا على التحذير من الفلاسفة و مصنَّفاتهم.

<u>- د- تأييد المُصنِّف لعقيدة و منهج أهل الحديث:</u>

لقد صرّح الذهبي في مواضع كثيرة من كتابه بما يدلُّ على تمسُّكه بعقيدة أهل الحديث، و من أقواله التي تدلُّ على هذا قوله عن أحاديث الصفات: "... بل تُمَرّ الأحاديث كما جاءت و لا يُعتَرَض عليها. "

---

(1) – قال عنه ابن القيّم: " ... نصير الشرك و الكُفر و الإلحاد ...اتَّخذ للملاحدة مدارس ...، و رام تغيير الصلاة و جعلها صلاتين ...". (أنظر: شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج7، ص 592).

(2) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 9، ص 488، 489. و ج 12، ص 846. و ج 15، ص 252.

(3) – هو المُحدِّث المؤرِّخ أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن البغدادي المعروف بابن النجار، له عدة مصنفات، منها " ذيل تاريخ بغداد "، توفي عام 643هـ/ 1245م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 216).

(4) – هو أبو الرشيد مُبشر بن أحمد بن علي البغدادي المتوفّى عام 589هـ/ 1193م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج12، ص 885).

(5) – المصدر نفسه، ج 12، ص 885، 523.

و قوله في ترجمة المُحدِّث أبي الحسين عاصم بن علي بن عاصم الواسِطي (ت221هـ/ 827 م): " ... وكان رحمه الله ممّن ذبَّ عن الإسلام في المِحنة ...". (مِحنة خلق القرآن). و قال الذهبي ضمن ترجمة الخليفة العباسي المتوكِّل: " ... و قد كان ... مُنهمِكا في اللذات و الشرب، فلعلَّه رُحِم بالسُّنة...". (رفع المتوكِّل محنة خلق القرآن). و أثنى على الحافظ الدارِمي[1]، و أشار إلى ما صنَّفه في الردِّ على الجَهمية و المُعتزلة، ثم قال: " ... و كان جذعا في أعين المُبتدعين."[2]

وذكر أنَّ المُحدِّث " الحافظ " أبا جعفر محمد بن العباس بن أيوب الأصبهاني المعروف بابن الأخرم (ت331هـ/ 942م) له " وصية حسنة "، و أشار إلى بعض ما تضمَّنته في تأييد عقيدة أهل الحديث. و ذكر أيضا أنَّ الفقيه الشهير أبا العباس أحمد بن عمر بن سُريج البغدادي الشافعي (ت306هـ/ 918م) " كان على مذهب السَّلَف في الصفات، يُؤمن بها و لا يؤولها و يُمِرّها كما جاءت. " و أثنى على الفقيه المُحدِّث ابن عبد البَر الأندلسي و وصفه بالصدق " و الديانة والتثبت و حسن الاعتقاد " وأنّه على منهج السلَف. كما بيَّن تحامل بعض أهل الكلام على الفقيه المُحدِّث الحسن بن أحمد بن عبد الله البغدادي المعروف بابن البنَّاء (ت 471هـ/ 1078م) حيث قال: " ... ما تكلَّم فيه إلاّ أهل الكلام؛ لكونه كان لهِجا بمخالفتهم، كثير الذمِّ لهم معنيا بأخبار الصفات. " و ذكر أنّه كان " ناصرا للسُّنة ".[3]

وأثنى الذهبي عل الواعظ المُقرئ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزاني المصري (ت 562هـ/ 1166م) فقال: " ... وكان زاهدا وَرِعا ... و له كلام في السُّنة. " ونفى عنه ما اتَّهمه به الأشاعرة من التشبيه حيث قال: "... هذا رجلٌ سُنِّي يلعن المُشبِّهة. " كما دافع عن المُحدِّث محمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله البغدادي الحنبلي (ت 535هـ/ 1140م) بقوله : "... و قد تكلَّم فيه

---

(1) – الفقيه المُحدِّث " الحافظ " الشهير أبو سعيد عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارِمي التميمي السجستاني. و الدارِمي: نسبة إلى بني دارِم من بني تميم. صنَّف الدارِمي في الردِّ على الجَهمية، و كانت وفاته عام 282هـ/ 895م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج13، ص 319، 320، 326.)

(2) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 4، ص 1081. و ج5، ص 590، 591، 1099. و ج6، ص 576.

(3) – المصدر نفسه، ج7، ص 42، 43، 100. و ج10، ص 202، 325.

ابن عساكر[1] بكلام فَجٍّ[2] وحش فقال: كان يُتّهَم بمذهب الأوائل، و يُذكَر عنه رقّة دين." [3]

و ذكر الذهبي أنَّ المُحدِّث أحمد بن سلامة بن أحمد بن سلمان الحراني الحنبلي (ت 646هـ/ 1248م) " من الراسخين في السُّنة "، و كان على عقيدة أهل الحديث. و قال في ترجمة شمس الدين بن أبي عمر الصالحي: "... شيخ الإسلام و بقيّة الأعلام ...كان متواضعا ... حَسَن الاعتقاد." وقال ضمن ثنائه على أبي محمد عبد الرحيم بن محمد ابن الزجاج البغدادي الحنبلي (ت 685هـ/ 1286م): " ... وكان مُحدِّثا عالما وَرِعا ... صليبا في السُّنة...". كما قال عن الفقيه شرف الدين المقدسي الشافعي[4] – وهو من أهل الحديث – : " ... كان متين الديانة حَسَن الاعتقاد ...". و ذكر أنَّ الفقيه شمس الدين محمد بن حمزة بن أحمد بن عمر الصالحي الحنبلي (ت 697هـ/ 1297م) كان " أمَّارا بالمعروف داعية إلى السُّنة و الأثَر ...".[5]

و نقل المُصنِّف في عدَّة تراجم بعض أقوال العلماء المتمسِّكين بعقيدة أهل الحديث، فذكر – على سبيل المثال – في ترجمة مالك بن أنس أنّ رجلا سأله: " يا أبا عبد الله " الرحمان على العرش استوى " كيف استواؤه؟ ... فقال: الرحمان على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يُقال له: كيف ...، و أنت رجل سوء صاحب بِدعة...". و ذكر أنَّ سفيان الثوري قال: " الإيمان قولٌ و عملٌ ... يزيد و ينقص." كما أشار في ترجمة يحيى بن معين إلى قوله: " القرآن كلام الله وليس بمخلوق، والإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص." وأشار إلى قول أحمد بن حنبل في التحذير من المُتكلِّمين: " من تعاطى الكلام لا يُفلح." وقوله:

---

[1] – هو المُحدِّث المؤرِّخ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي الشافعي الأشعري المتوفّى عام 571هـ/ 1175م في دمشق، و هو مُصنّف " تاريخ مدينة دمشق " . (أنظر: عماد الدين الن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 674).

[2] – يعني أنَّه كلام غير صحيح. و" الفَجّ " هو الطريق الواسع بين جبلين، و هو كذلك : " المضرب البعيد." و " الفجّ من كلّ شيء: ما لم ينضج." (أنظر: جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق، ص 3350).

[3] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 283، 842، 1213. و ج11، ص 639، 640.

[4] – هو الفقيه المُحدِّث أبو العباس أحمد بن أحمد بن نعمة بن أحمد المقدسي ثم الدمشقي المتوفّى في دمشق عام 694هـ/ 1294م وقد ولي الخطابة بها. (أنظـر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج15، ص 781).

[5] – المصدر نفسه، ج 14، ص 456، 541. و ج15، ص 469، 470، 545، 781، 863، 864.

" ما رأيت أحدا طلب الكلام و اشتهاه فأفلح ...". وقوله: " ما زال الكلام عند أهل الخير مذموما. " وذكر أنَّ المُحدِّث أبا خليفة الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب البصري (ت 305هـ/ 917م) كان يقول: " القرآن كلام الله غير مخلوق. " و نجد في " تاريخ الإسلام " أمثلة أخرى كثيرة كالتي تقدم ذكرها.[1]

و تُعدُّ تعليقات الذهبي في تراجم الصحابة من مظاهر التزامه بالمنهج السُّني؛ فذكر – على سبيل المثال – أنَّ علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) قال: " خيرُ هذه الأُمَّة بعد نبيِّها أبو بكر وعمر ... ". ثم قال الذهبي: " و هذا و الله مُتواتر عن علي رضي الله عنه، فقبّح الله الرافضة." و قال في ترجمة أحد الذين خرجوا على عثمان (رضي الله عنه): " ... وكان ممّن خرج على عثمان وسار إلى قتاله نسأل الله العافية." كما قال عن قاتل[2] الزبير بن العوام: " ... فندم المُعثَّر وأُسقِط في يده، وبقي كالبعير الأجرب كلٌّ يتجنّبه و يُهوِّل عليه ما صنع." [3]

وحرص المُصنِّف على الثناء على العلماء المتمسِّكين بمنهج أهل الحديث، ويتّضح هذا من مضامين تراجم كثيرة كتراجم الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وتراجم سفيان الثوري وسفيان بن عُيَينة وعبد الله بن المبارك وغيرهم من كبار العلماء. و نُشير هنا إلى بعض الأمثلة كقول المُصنِّف في ترجمة المُحدِّث أبي الصّلت زائدة بن قُدامة الكوفي " الحافظ " (ت 161هـ/ 778م): "... أحد الأعلام... وكان إماما ... صاحب سُنَّة و اتّباع." وقال عن المُحدِّث أبي الفضل صَدَقة بن الفضل المَروزي (ت 226هـ/ 841 م): " ... وكان إماما ثِقة صاحب سُنّة." و ذكر أنَّ " المُقرئ الزاهد " أحمد بن نَصْر بن زياد القُرَشي النيسابوري (ت 245هـ/ 859 م) " كان ثقة نبيلا مأمونا صاحب سُنّة. " كما قال في ترجمة المُحدِّث أبي العباس أحمد بن أصرم بن خُزَيمة البصري (ت285هـ/898م): " كان صاحب سُنّة شديدا على المُبتدعة." و أثنى على المُحدِّث يحيى بن عَمّار بن يحيى بن عَمّار المعروف بأبي زكريا الشيباني

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج4، ص 727. و ج5، ص 930، 967، 1030، 1031. و ج7، ص 930.
(2) – قاتل الزبير هو عُمير بن جُرموز، ذكره الذهبي ضمن الطبقة الثامنة (71 – 80هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 870).
(3) – المصدر نفسه، ج2، ص 144، 298، 870.

السجستاني (ت422هـ/ 1031م) بقوله: " كان شيخ تلك الديار دينًا وعلمًا وصيانةً وتسنّنًا "، ثم ذكر أنّه " كان متصلِّبا " على الجَهمية. و ذكر أنّ " الحافظ " أبا عبد الله الدقاق[1] كان " صالحا مُحدِّثا سُنِّيا ". و وصف المُوفَّق ابن قُدامة بـ " شيخ الإسلام ". كما نجد في " تاريخ الإسلام " نماذج أخرى كثيرة مثل السابق ذكرها.[2]

وقد فصَّل الذهبي في ذِكْر مِحْنة أحمد بن حنبل مع الخلفاء العباسيين القائلين بخَلْق القرآن (المأمون والمعتصم والواثق) ثم قال: " أنا أتعجّب من الحافظ أبي القاسم " – أي ابن عساكر – " كيف لم يَسُق المِحْنة ... في تاريخ دمشق مع فَرْط استقصائه، و مع صحَّة أسانيدها، و لعلَّ له نية في تركها." و بيَّن (الذهبي) تحامل أبي نُعيم الأصبهاني[3] على أبي عبد الله ابن مَنْده الحنبلي[4]، حيث كان أبو نُعيم يميل إلى المذهب الأشعري، وكان ابن مَنده على عقيدة أهل الحديث، قال الذهبي: " ... وكان أبو نُعيم كثير الحَطِّ على ابن مَنده لمكان المُعتقد و اختلافهما في المذهب "، ثم قال: " نسأل الله الستر وترْك الهوى و العصبية." و نشير هنا إلى أنَّ الذهبي قد بيَّن تحامل أبي نُعيم رغم أنّه على مذهبه الفقهي (الشافعي) وهذا ممّا يدلُّ على إنصافه، كما يدلُّ على دور تمسُّك المُصنِّف بعقيدة أهل الحديث في دفاعه عن كثير من العلماء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي.[5]

و قد أنكر موقف الناصِبة من الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)؛ فمن الأمثلة الدالة على ذلك قوله في ترجمة الراوي أبي الحسن عطية بن سَعْد بن جناده الكوفي (ت111هـ/729م): "... و يُروى

---

(1) – هو أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد بن محمد الأصبهاني " الحافظ الرحّال "، توفي عام 516هـ/ 1122م. (أنظر: شهاب الدين ابن العِماد، المصدر السابق، ج6، ص 86).

(2) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج4، ص 365. و ج5، ص 589، 1072. و ج6، ص670. و ج9، ص 384. و ج11، ص 265. و ج13، ص 601.

(3) – هو المُحدِّث أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني الشافعي الصوفي المتوفّى عام 430هـ/ 1038م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 6، ص 442).

(4) – هو المُحدِّث أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنده الأصبهاني الحنبلي المتوفّى عام 396هـ/ 1006م. (أنظر: المصدر نفسه، ج6، ص 382).

(5) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج5، ص1049. و ج8، ص 758.

أنَّ الحجّاج ضربه أربع مئة سوط على أن يلعن عليا فلم يفعل ...، رحمه الله ولا رحم الحجّاج. " وقال في ترجمة أدهم بن محرز الحِمْصي[1]: "... شهد صِفِّين مع مُعاوية، و كان ناصبيا سبَّابا. " (أي يسبُّ عليّا رضي الله عنه). ونقل في ترجمة أبي لبيد البصري[2] قول ابن معين: " نرى أنَّه كان يشتم عليّا رضي الله عنه" ثم قال الذهبي – وقد أنصف – : "ما يُلام الشيعي على بغض هذا الناصبي ... الذي ينال من عليٍّ و يروي مناقب يزيد. " (يزيد بن مُعاوية).[3] وقال عن ابن وداعة[4]: "... وكان من العلماء بدمشق، وفيه نَصْبٌ معروفٌ نسأل الله العفو." وذكر أنّ الشاعر أبا الحسن علي بن جَهْم بن بدر البغدادي (ت249هـ/ 863م) كان ناصِبيا يبغض عليّا رضي الله عنه، ثم قال الذهبي: " رضي الله " عن علي " ولا رضي عن باغضه ". و أشار في ترجمة المُحدِّث أبي إسحاق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني[5] (ت 259هـ/ 873 م) إلى قول الدارقطني: "... لكنّه كان فيه انحرافٌ عن علي. " ونقل الذهبي في إحدى التراجم كلاما يتضمن الطعن في عليّ (رضي الله عنه) ثم قال: " هذه حكاية باطلة لعلّها من وَضْع النواصِب قبَّحهم الله." [6]

وحرص الذهبي على توقير أهل البيت، ونُشير هنا إلى بعض ما يدلُّ على ذلك، كقوله في ترجمة فاطمة بنت رسول الله صلَّى الله عليه و سلّم: "... و هي سيِّدة نساء هذه الأمّة ...، ولها مناقب مشهورة." ونقل بعض ما ورد في مناقب الحسن بن علي بن أبي طالب و قال: "... و مناقب الحسن رضي الله عنه كثيرة، وكان سيِّدا حليما ذا سكينة و وقار...". كما قال في ترجمة الحسين بن علي بن أبي طالب: " ... السعيد الشهيد رضي الله عنه، استشهد بكربلاء وله ستّ و خمسون سنة." وقال لمّا تحدَّث عن استشهاده: "... فإنّا لله و إنّا إليه راجعون." و قال عن أحد قاتليه: " لا رحمه الله و لا رضي عنه "، و وصف قَتَلته

---

(1) – ترجم له الذهبي ضمن الطبقة التاسعة (81– 90هـ). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الاسلام**، ج2، ص 923).

(2) – هو أبو لبيد لمازة بن زبار البصري، ذكره الذهبي ضمن طبقة (101 – 110هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 146).

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص 281، 146. و ج2، ص 923.

(4) – هو أسد بن وداعة الدمشقي، ذكره الذهبي ضمن الطبقة الرابعة عشرة (131 – 140هـ). (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 613.

(5) – هذه النسبة إلى الجوزجان، وهي مدينة في خُراسان. (أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج3، ص 361).

(6) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 613. و ج5، ص 1185. و ج6، ص44. و ج7، ص 309.

بـ "الظلَمة ". و أثنى الذهبي على زيد بن علي بن الحسين فقال: " ... و كان أحد العلماء الصلحاء...". و أثنى كذلك على موسى الكاظِم فقال: "... وكان صالحا عالما عابدا متألِّها...".[1]

وكان موقف المُصنِّف من بني أُمية معتدلا، و يتّضح ذلك من خلال تعاليقه على بعض الحوادث فقال – بعدما ذكر يوم الحَرّة[2] – : "... ولمَّا فعل يزيد بأهل المدينة ما فعل، وقتل الحسين و إخوته وآله ... و ارتكب أشياء مُنكرة بغضه الناس ...، و لم يُبارك الله في عمره. وقال في ترجمة الفقيه عبد المُغيث بن زهير البغدادي (سبق ذِكره) : " ... و صَنَّف كتابا في فضائل يزيد أتى فيه بالعجائب، ولو لو يُصنِّفه لكان خيرا له، وعمله ردا على ابن الجَوزي، و وقع بينهما عداوة لأجل يزيد، نسأل الله أن يُثبِّت عقولنا فإنّ الرجُل لا يزال بعقله حتى ينتصب لعداوة يزيد أو ينتصر له، إذْ له أُسوة بالملوك الظَّلَمة." وقال في ترجمة الخليفة الأُمَوي الوليد بن عبد المَلِك: "... و بنو أُميَّة معروفون بتأخير الصلاة عن وقتها." كما قال في ترجمة عبد الله بن علي العباسي[3]: "... و طوى الممالك حتى نازل دمشق وحاصرها وتملَّكها ... بالسيف وعمل كما تعمل التتار، وأسرف في قتل بني أُمَيَّة، ولم يرقُب فيهم إلاًّ " – أي قرابة – " و لا ذِمّة و لا رعى فيهم رحمًا ...".[4]

– استنتاج:

لقد اشتمل كتاب " تاريخ الإسلام " على عدَّة مظاهر تأثّر إيجابي بالنّزعة المذهبية؛ منها مواقف المُصنِّف من الشيعة؛ حيث حرص على التنبيه على انحرافاتهم والتحذير منها، سواء كانت انحرافات

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 29، 399، 400، 627، 578، 614. و ج3، ص 415. و ج9، ص 985.

(2) – الحَرّة موضع بظاهر المدينة المنورة، جرت فيه الوقعة الشهيرة عام 63 هـ/ 683 م بين جيش من أهل الشام أرسله الخليفة الأُمَوي يزيد بن مُعاوية و بين أهل المدينة، و انتهت بانتصار أهل الشام. وقتل كثير من أهل المدينة صبرا بعدما دخلها أهل الشام. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 50. و **تاريخ الإسلام**، ج2، ص 591).

(3) – هو عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس العباسي الهاشمي، عمُّ السفاح و المنصور، و هو أمير الجيش العباسي في معركة الزاب في شمال العراق (سنة 132هـ/ 750م)، و كانت وفاته عام 147هـ/ 764م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج3، ص 908.)

(4) – المصدر نفسه، ج2، ص 591، 1183. و ج12، ص 761. و ج3، ص 908.

عَقَدية أو سلوكية. و كان ذمُّه للباطنية أشدَّ من ذمِّه للإثني عشرية. كما نجد التنبيه على بعض الأحاديث الموضوعة و التحذير من بعض الرواة، بالإضافة إلى وجود تعليقات قيِّمة للمُصنِّف في مواضع كثيرة من كتابه. و قد حرص على إيضاح عداء الباطنية للإسلام وأهله واستخلاص العِبَر من التطورات التاريخية و إيضاح كثير من الحقائق المتعلِّقة بطوائف الشيعة؛ كتأكيده أنَّ القرامطة "يرجعون إلى مذهب الملاحدة " و أنّ " بني عُبَيد " في بعض الفترات " طوَوا ما يرومونه من إظهار مذهبهم الخبيث " (عقائد الباطنية) " و قنعوا بإظهار الرَّفْض والتشيّع."

وتدلُّ تراجم الذهبي لأعلام الشيعة على مراعاته لطبيعة التشيّع (أي لاختلاف درجة الانحراف العَقَدي) و على إنصافه؛ فمِن مظاهر ذلك نقله اختلاف أقوال العلماء في بعض الرواة. و اشتملت تعاليقه في مواضع كثيرة على التعجُّب من انحرافات طوائف الشيعة والدعاء عليهم. و أنكر في حديثه عن فتن بغداد ردود الفعل غير الملائمة من بعض عامَّة أهل السُّنة على أعمال الشيعة، ممَّا يدلُّ على إنصافه و حرصه على إنكار ما يخالف الكتاب والسُّنة. وصرَّح بإنكار انحرافات الخوارج في عرضه لعدَّة حوادث و تراجم.

أمَّا موقف الذهبي من الجَهمية و المُعتزلة؛ فتمثَّل في التحذير من عقائدهم و التعليق على انحرافاتهم و ذمِّ بعض أعلامهم و نقل تحذير العلماء منهم، وأبدى في مواضع كثيرة مخالفته للعقيدة الأشعرية. وكان تحذيره من الجَهمية أشدَّ من تحذيره من الأشاعرة. و لاحظنا أنّ الجانب الفقهي لم يؤثِّر على الذهبي فرغم أنّه شافعي إلاّ أنّه صرّح بمخالفة الأشاعرة – و كثير منهم شافعية في الجانب الفقهي – وبيَّن تحامل بعضهم على أعلام من أهل الحديث من الحنابلة و غيرهم؛ وهذا راجعٌ إلى تمسُّكه بعقيدة أهل الحديث و إلى وَرَعه و إنصافه. كما نقد الذهبي بعض الأخبار و بيَّن عدم صحَّتها. و رغم مخالفته للمُتكلِّمين إلا أنَّه لم يكتف بذِكْر المثالب في تراجمهم، و الأمثلة على هذا كثيرة.

و تباين موقفه من الصوفية حسب معطيات هؤلاء، وحرص على التحذير من انحرافاتهم خاصّة عقيدة

وحدة الوجود. كما نقد بعض الأخبار المكذوبة التي اعتُبرت " كرامات " لبعض الأعلام، ولاحظنا أنّه كثيرا ما يختم النقد والتعليق بالدعاء كقوله: " اللهمَّ إحفظ علينا إيماننا...". وشمل نقده الصوفية الشافعية وغيرهم بلا تمييز، وذلك من مظاهر إنصافه. و في كثير من تراجم الصوفية نجد تعاليق قيِّمة للمُصنِّف تزيد من أهمية كتابه. و حثَّ على الإنكار على الاتحادية، كما حرص على التحذير من الفلاسفة و مُصنَّفاتهم.

و نجد في " تاريخ الإسلام " من كلام المُصنِّف ما يُؤكِّد تمسُّكه بمنهج أهل الحديث، كما حرص على الثناء على العلماء المُتمسِّكين بذلك، و نقد أخبار تتضمن القدح في بعضهم من قِبَل أهل الكلام وبيَّن بطلانها، و لم يتأثَّر في هذا بمذهبه الفقهي؛ حيث بيَّن تحامل بعض الشافعية الأشاعرة على غيرهم. و حرص على الثناء على الصحابة، و استنكار موقف الناصِبة من أهل البيت.

و نستنتج من خلال ما تقدَّم أنّ الذهبي مؤرِّخ مُحقِّق ناقد مُنْصف، مُتَثَبّت غزيرُ العقل واسع الأُفق أفاده علم الحديث في التأريخ في عدَّة جوانب.

ثانيا- كتاب " العِبَر في خبر من غَبَر " للذهبي:

يُعدُّ كتاب " العِبَر في خبر من غَبَر" من أبرز مؤلَّفات الذهبي، و هو مُختصَر جدًّا (مقارنة بـ " تاريخ الإسلام ")، و ابتدأ المُصنِّف فيه بالسنة الأولى للهجرة، و انتهى إلى سنة 700هـ/ 1300م، ثم ذيَّل عليه إلى غاية سنة 740هـ/ 1339م، و رتَّب الذهبي تاريخه على السنين؛ فيذكر أبرز حوادث السنة بإيجاز و أبرز وفياتها، ثم ينتقل إلى السنة التي تليها، حيث قال: "... وهذا تاريخ مختصر على السنوات أذكر فيه ما قدر لي من أشهر الحوادث و الوفيات...".[1] و نُبرز أثر النّزعة المذهبية على " العِبر" في العناصر التالية:

[1] – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 3، 5، 6.

-أ- مواقف المُصنِّف من الشيعة:

لقد تعدَّدت مظاهر إنكار الذهبي لعقائد الشيعة، و يتَّضح ذلك من خلال تعاليقه في حوادث و تراجم سنوات كثيرة؛ كقوله في حوادث عام 13هـ/ 634 م: " ... و توفي أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ... و ولي الخلافة عمر بنصٍّ من أبي بكر، فلم يختلف عليه إثنان، فوالله لو نصَّ لهم النبي صلَّى الله عليه و سلَّم على علي بن أبي طالب كما تفتري الرافِضة لمَا اختلف عليه إثنان أيضا." و أنكر اعتقاد بعض الشيعة أنَّ محمد بن علي بن أبي طالب (محمد ابن الحنفية) لم يمت، وأنّه " بجبل رضوى[1] مختفيا عنده عسل و ماء." كما أنكر اعتقاد الشاعر كُثَيِّر بن عبد الرحمان الخُزاعي رجعة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) إلى الدنيا. و أنكر معتقَد الإثني عشرية في الأئمّة الإثني عشر؛ فقال في ترجمة محمد الجواد: " أحد الإثني عشر إماما الذين يدَّعي الرافِضة فيهم العِصْمة." و قال عن علي الهادي: "... و كان إماما متعبِّدا...، وهو أحد الإثني عشر الذين يدَّعي الشيعة الغُلاة عِصْمتهم." وعلَّق على انتظار الإثني عشرية ظهور محمد بن الحسن العسكري بقوله: "... و ضلالُ الرافِضة ما عليه مزيد؛ فإنّهم يزعمون أنّه دخل السرداب الذي بسامرا فاختفى و إلى الآن ...".[2]

وعلَّق الذهبي في مواضع كثيرة من كتابه على الغُلوّ في التشيّع؛ حيث قال – مثلا– عن أحد الرواة: " ... وكان شيعيا جَلْدا." و قال عن آخر: " كان داعية إلى الرَّفْض." وذكر أنَّ المُحدِّث أبا الفضل محمد بن عبد الله الكوفي الشيباني (ت 387هـ/ 997 م) " كان يضع الحديث للرافِضة." كما ذكر أنّ الشاعر مهيار بن مرزويه " كان مجوسيا ...، فطلع رافضيا جَلْدا." وذكر أنّ الشاعر الأديب الحسين بن أحمد بن الحَجَّاج البغدادي (ت 592هـ/ 1196م): " ... و كان شيعيا جَلْدا." و أشار إلى بعض أعمال مجد الدين بن هبة الله بن علي البغدادي المتوفّى عام 583هـ/ 1187م (و هو أحد المُقرَّبين من الخليفة العباسي

(1) – جبل رضوى يقع في النواحي الغربية للمدينة. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج3، ص 51).
(2) – شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 13، 68، 101، 300، 364، 381.

الناصر)، حيث قال المُصنِّف: "... وكان رافضيا سبَّابا، تمكّن و أحيا شعار الإمامية وعمل كل قبيح. "[1]

و نجد للمُصنِّف تعليقات كثيرة على الحوادث المذهبية المتعلِّقة بالشيعة؛ حيث قال – مثلا – عند تطرّقه لمقتل ابن أبي العزاقر الشلمغاني (سنة 322هـ/ 934 م): "... و كان هذا الشقي قد أظهر الرَّفْض ثم قال بالتناسخ و الحُلول ... وضلّ به طائفة...". وأشار ضمن حوادث عام 351هـ/ 962م إلى انتشار سبِّ الشيعة للصحابة في بغداد في ظلِّ السيطرة البُويهية حيث قال: "... و أمّا بغداد فرفعت المنافقون رؤوسها، و قامت الدولة الرافِضية، وكتبوا على أبواب المساجد لعنة " أبي بكر الصدِّيق وعمر وعثمان ومُعاوية. ونجده كثيرا ما يتعجَّب من انحرافات الشيعة ويُحَذِّر منها؛ كقوله في حوادث عام 352هـ/ 963م: " فيها في يوم عاشوراء ألزم مُعزُّ الدولة " (البُويهي) " أهل بغداد بالنوح و المأتم على الحسين بن علي رضي الله عنه، و أمر بغلق الأسواق...، و خرجت نساء الرافِضة منشرات الشعور... يلطمن ويفتن الناس...، اللهمّ ثبِّت علينا عقولنا." و قوله في حوادث عام 389هـ/ 999م: " تمادت الرافِضة في هذه الأعصر في غيِّهم بعمل عاشوراء باللطم و العويل، و بنَصب القباب و الزينة و شعار الأعياد يوم الغدير ... فعمدت جاهلية السُّنة، وأحدثوا في مقابل يوم الغدير يوم الغار، وجعلوه بعد ثمانية أيام من يوم الغدير وهو السادس و العشرون من ذي الحجَّة، و زعموا أنَّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم و أبا بكر اختفيا حينئذ في الغار ..." و جعلوا " بإزاء عاشوراء و بعده بثمانية أيام يوم مصرع مُصعب بن الزبير ...، وبكوا عليه و نظروه بالحسين لكونه صبر و قاتل حتى قُتل ...، فنعوذ بالله من الهوى والفتن، ودامت السُّنة على هذا الشعار القبيح مدَّة عشر سنين." [2] فمِن مظاهر إنصاف الذهبي إنكاره لهذه الأعمال التي قام بها بعض عامّة أهل السُّنة في بغداد كردِّ فعلٍ على أعمال الشيعة الإثني عشرية.

و ذكر ضمن حوادث عام 356هـ/ 967م وفاة معزّ الدولة البُويهي فقال عنه: "... وكان من ملوك

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج1، ص 217، 359. و ج2، ص 181، 241، 260. و ج3، ص5، 87، 105.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 14، 86، 89، 176.

الجور و الرَّفْض، و لكنّه كان حازما سائسا مهيبا." و ذكر أنَّ دولته كانت " رافِضية " يُقام في ظِلّها " الشعار الجاهلي يوم عاشوراء و يوم الغدير." و قال ضمن حوادث عام 561هـ/ 1166م: "... فيها ظهر ببغداد الرَّفْض و السبّ وعَظُم الخَطْب." ولمّا أشار إلى وفاة ابن المعلم (سبق ذِكره) قال: "... عالم الشيعة و إمام الرافِضة... أراح الله منه...". وحرص المُصنِّف على شرح تعاون ابن العَلْقمي مع التتار حيث قال: "... كان قد كاتب التتار وحرّضهم على قَصْد بغداد ...، وظنّ المخذول أنّ الأمر تمّ و أنّه يُقيم خليفة عَلويا فأرسل أخاه ومملوكه إلى هولاكو وسهّل عليه أَخْذ بغداد، وطلب أن يكون نائبا لهم عليها فوعدوه بالأماني و ساروا." و قال: " ... الوزير المُبير...الرافِضي ...كان ذا حِقْد و غِلٍّ على أهل السُّنة ..." و قال لمَّا ذكر حصار هولاكو لبغداد: "... فخرج الخبيث و توثَّق لنفسه و رجع ...".[1]

و قد صرّح الذهبي في مواضع كثيرة من "العِبر" بذمّ الباطنية، حيث وصف القرامطة بـ " الفِرقة الملعونة "، و ذلك عند ذِكْره إغارتهم على بعض مدن الشام سنة 293هـ/ 906م و قتلهم و سَبْيِهم عددا كبيرا من أهلها. وذكر في موضع آخر أنّهم " زنادقة مارِقة من الدّين." وذمّ زكرويه القرمطي وأصحابه لمّا ذكر مهاجمتهم حُجّاج العراق عام 294هـ/ 907م وقتلهم حوالي عشرين ألف شخص، كما ذمّ أبا سعيد الجنابي القرمطي و وصفه بـ " المُلحد ". و قال في حوادث سنة 317هـ/ 929م: " ... فوافاهم " – أي الحُجّاج – " عدوُّ الله أبو طاهر القرمطي، فقتل الحُجَّاج قتلا ذريعا في المسجد " الحرام " و قلع باب الكعبة و اقتلع الحجر الأسود ..."، و أشار ضمن حوادث عام 323هـ/ 935م إلى مهاجمة أبي طاهر لإحدى قوافل الحُجّاج فقال: "... و فيها أخذ القرمطي أبو طاهر لعنه الله الركب العراقي ...، و قُتل خلقٌ من الوفد وسُبِيت الحريم ...".[2]

وكان المُصنِّف كثير الذمّ لعُبَيد الله المهدي وأحفاده؛ فمن أمثلة ذلك قوله: " عُبَيد الله الملقَّب بالمهدي

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 96، 225. و ج3، ص 35، 277، 278، 284.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص 399، 424، 425، 440، 474. و ج2، ص 19.

... المنتسب إلى الحسين بن علي ... بكذبه، و كان باطني الاعتقاد "، و ذكر أنّه كان " يُظهر الرَّفْض و يُبطن الزندقة." و أشار إلى وفاة القائم بن عُبَيد الله (334هـ/ 945م) بقوله: "... القائم ... بن عُبَيد الله المهدي الدعيّ الباطني صاحب المغرب ...". فالذهبي يُنكِر أن يكون عُبَيد الله عَلويا ويعتبره " دَعِيًّا." كما أشار في ترجمة الحاكم بن العزيز بن المُعزّ إلى أنَّه " كان متلوّن الاعتقاد ..."، و أنّه " أمر بشتم الصحابة و كَتبه على أبواب المساجد." ثم قال: " ويُقال أنّه أراد أن يدّعي الإلهية كفرعون وشرع في ذلك فخوّفه خواصُّ دولته من زوال دولته فانتهى، وكان المسلمون و الذِّمة في ويْلٍ وبلاءٍ شديد معه. " و كرّر الذهبي عبارة " العُبَيدي الرافِضي " في ترجمة كلٍّ من المُستنصِر مَعَدّ بن الظاهر و الآمر بن المُستعلي و العاضِد. و قال في موضع آخر عن ملوك هذه الدولة: "... و زالت دولة العُبَيديين أُولي الرَّفْض. " و ذكر أنّ معتقدهم "... دائرٌ بين الرَّفْض و الزندقة. " و أنَّ " جدَّهم دَعيٌّ في بني فاطمة بلا خِلاف." وقال بعدما ذكر دخول المُعزّ إلى مصر(362هـ/ 973م): " ... و قويت شوكة الرَّفْض شرقا و غربا و خفيت السُّنَن و أُظهِرت البِدَع، نسأل الله العافية. " (1)

ولمّا كانت فِرَق الباطنية أشدّ انحرافا من الإثني عشرية كان ذمّ المصنِّف لهم أشدّ، والأمثلة السابقة توضِّح ذلك، كما نجد أمثلة أخرى تؤكِّد حرصه على التحذير من عقائدهم، كقوله في ترجمة النُّعمان بن محمد القيرواني: "... الشيعي ظاهرا الزنديق باطنا، قاضي قُضاة الدولة العُبَيدية...، صنَّف كُتُبا كثيرة تدلّ على انسلاخه من الدين، يُبدِّل فيها معاني القرآن ويُحَرّفها...". واعتبر سِنان بن سلمان مُقدَّم إسماعيلية الشام " من شياطين الإنس "، و قد عُرف هذا الأخير بالانحلال و تدبير الاغتيالات. كما ذكر أنّ الحسن بن الصباح الإسماعيلي " صاحب الألموت ... كان داهية ماكرا زنديقا من شياطين الإنس." و قال بعدما ذكر اغتيال الحشاشين لأحد الفقهاء في أصبهان عام 502هـ/ 1108م: "... و عظُم الخَطْب بهؤلاء الملاعين، وخافهم كلُّ أمير وعالم لهجومهم على الناس." ووصف الذهبي قائد النُّصَيرية في حركتهم التي

(1) – شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 49، 220، 354، 423، 424، 113. و ج3، ص 51، 68.

ظهرت عام 717هـ/ 1317م في جَبَلة بـ " الطاغية " وأتباعه بـ " الجَهَلة "، وذكر أنّه " زعم أنّ الناس كَفَرة و أنّ دين النُّصَيرية هو الحق." كما ذكر أنّ أتباعه " رفعوا أصواتهم بقول: لا إله إلاّ علي"، وأنّهم " كانوا يُحضِرون المسلم إلى طاغيتهم ويقولون: اسجد لإلهك ...".[1]

– ب – مواقف المُصنِّف من أهل الكلام و الصوفية:

لقد كان موقف الذهبي من الجَهمية و المُعتزلة واضحا من خلال التحذير من عقائدهم في مواضع متفرّقة من كتابه، منها ما ذكره ضمن حوادث سنة 218هـ/ 833م حيث قال: "... و فيها امتحن المأمون العلماء بخَلق القرآن ... و بالغ في ذلك، وقام في هذه البِدعة قيام معتقد متعبِّد بها...، وعظُمت المصيبة بذلك ..."، وذكر أنّ المأمون كان " ذا رأي وعقل ... وشجاعة وكرم ...، وكان شيعيا جَهْميا ...". ونُشير هنا إلى أنّ المُصنِّف يُطلق مصطلح " الجَهمية " أحيانا على المُعتزلة (كان المأمون معتزليا)، ونجد هذا عند غيره من علماء أهل الحديث. كما نُشير إلى إنصافه، حيث ذكر شجاعة المأمون و كرمه.[2]

وقد علَّق في بعض تراجم المُتكلِّمين بعبارات موجزة تُبيِّن موقفه منهم، كقوله عن ابن أبي دُؤاد[3]: " ... كان ... رأسا في التجهُّم." و قوله في ترجمة الفقيه إسماعيل بن علي الرازي المعروف بأبي سَعْد السمان (ت445هـ/ 1053م): "... و كان رأسا في القراءات و الحديث والفقه، بصيرا بمذهب أبي حنيفة والشافعي، لكنّه من رؤوس المُعتزلة. " وقال في ترجمة مُعتزلي آخر: "... كان صاحب كُتب كثيرة و ذكاء مُفرط ... إلا أنّه كان داعية إلى الاعتزال." و قال أيضا في ترجمة أبي الفَضْل أحمد بن علي بن الفَضْل بن طاهر الدمشقي (ت494هـ/ 1101م): " ... روى عن... جماعة، لكنّه رافِضيٌ مُعتزليٌ ... ". ونقل تحذير أحمد بن حنبل و البُخاري من أحد دُعاة المُعتزلة، ونوّه برفع المُتوكِّل مِحنة خلق القرآن فقال: " ...

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 116، 410، 383. و ج3، ص 99. و ج4، ص 46.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص 293، 295.

(3) – هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دُؤاد فرج بن جرير بن مالك الإيادي المُعتزلي. والإيادي: نِسبة إلى قبيلة إياد العدنانية. ولي قضاء القضاة للمُعتصم ثم للواثق، و كانت وفاته عام 240هـ/ 854م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 24).

وهو الذي أحيا السُّنة و أمات التجَهُّم." [1]

وتدلُّ مضامين تراجم الذهبي لكثير من الأعلام على مخالفته لمقالة الأشاعرة ، مِثل قوله عن الفقيه أبي البيان نبا بن محمد بن محفوظ القُرَشي الدمشقي الشافعي (ت551هـ/ 1156م): "... و كان صالحا تقيّا ... مُلازما للسُّنة، و له تواليف ... و ردّ على المُتكلِّمين." و أشار إلى مِحنة عبد الغني المقدسي بقوله: "... و كان أمّارا بالمعروف داعية إلى السُّنة، فقامت عليه الأشعرية وأفتوا بقتله، فأُخرج من دمشق طريدا." و ذكر في ترجمة ابن تومرت أنّه كان " ينفي الصفات كالمُعتزلة "، وأشار إلى بثّه مقالة الأشاعرة بين بعض أهل المغرب، ثم قال مُعلِّقا على ذلك: "... و كان أهل المغرب " (قبل حركة ابن تومرت) " على طريقة السَّلَف يُنافرون الكلام وأهله." [2]

وأثنى المُصنِّف على كثير من العلماء الذين حرصوا على التحذير من الجَهمية والمُعتزلة والأشاعرة حيث قال في ترجمة عثمان بن سعيد الدارِمي: "... و كان جذعا في أعين المُبتدعة قيِّما بالسُّنة." وذكر أنّ الفقيه أبا جعفر عبد الخالق بن عيسى بن أحمد الهاشمي البغدادي المعروف بالشريف أبي جعفر (ت 470هـ/ 1077م) كان " ورِعا زاهدا ... رأسا في الفقه شديدا على المُبتدعة ...". ودافع عن عبد الرحمان ابن مَنْده فنفى عنه ما اتهمه به بعض الأشاعرة من التشبيه. و أثنى على أبي علي ابن البناء البغدادي فذكر أنّه " كان ناصرًا للسُّنة." كما أثنى على أبي حامد الإسفراييني الشافعي والحسن بن محمد البَربهاري الحنبلي و المُوفَّق ابن قُدامة وعلى فقهاء آخرين. و ذكر أنَّ أبا الحسين بن أبي يعلى الفراء كان " صلبا في السُّنة كثير الحَطِّ على الأشاعرة. " و وصف الذهبي الخليفة العباسي القادر بالله المعروف بتمسُّكه بمنهج أهل الحديث بأنّه " صاحب سُنّة "، و أشار في ترجمة علي بن يوسف بن تاشفين[3] إلى موقفه من

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج1، ص 339، 223، 353. و ج2، ص 287، 358، 369.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 343، 422، 423. و ج3، ص15، 110.

[3] – أمير المُرابطين علي بن يوسف بن تاشفين، ولي الأمر بعد وفاة أبيه عام 500هـ/ 1106م، و استمر حُكمه حتى وفاته عام 537هـ/ 1142م. (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 452).

المُتكلِّمين فقال: "... كان يرجع إلى عدلٍ و دينٍ و تعبُّدٍ و حُسن طويَّةٍ ... و ذمٍّ للكلام و أهله، و لمّا وصلت إليه كتب أبي حامد " – أي الغزالي – " أمر بإحراقها." [1]

و حرص المُصنِّف على التحذير من انحرافات الصوفية خاصة عقيدة وحدة الوجود، ويتّضح ذلك ممّا كتبه في ترجمة مُحيي الدين ابن عربي و العفيف التلمساني، حيث قال عن هذا الأخير: "... أحد زنادقة الصوفية." و قال عن ابن هود المُرْسي: "... الصوفي الاتحادي الضّال..."، و ذكر أنّ ابن سبعين كان " من القائلين بوحدة الوجود "، و قال: " له تصانيف و أتباع يَقدُمُهم يوم القيامة "، و قال عن أحد أتباعه: " ... الشيخ الضّال...هلك به جماعة." [2]

و حذَّر من مقالات الفلاسفة، و من أمثلة ذلك قوله عن مُصنَّفات أبي نَصْر الفارابي: "... من ابتغى الهدى فيها أضلَّه الله "، وقوله عن العزّ الضرير[3]: "... وله ...هيبة مع فساد عقيدته وتركه للصلاة ..." و ذكر أنّ ابن العميد الوزير البُويهي كان " فيلسوفا متَّهَما برأي الحكماء ...". (أي الفلاسفة)، ونَوّه بمَنع الخليفة العباسي المُعتضِد بيع كتب الفلاسفة (سنة 277هـ/890 م)، فذكر أنّ ذلك كان " من حسناته."[4]

– استنتاج:

تجلّى أثر التزام الذهبي بمنهج أهل الحديث في تحذيره من عقائد الباطنية والإثني عشرية و مقالات المُتكلِّمين و انحرافات الصوفية، و في ثنائه على الأعلام المتمسِّكين بمنهج أهل الحديث، و رغم أنَّ " العِبَر " كتاب مُختصَر إلاّ أنّه تضمَّن تعليقات قيِّمة للمُصنِّف.

[1] – شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج1، ص 403. و ج2، ص 328، 329، 33، 211، 429، 157، 452.

[2] – المصدر نفسه، ج3، ص 233، 373، 398، 320. و ج4، ص98.

[3] – الفيلسوف النحوي الحسن بن محمد بن أحمد بن نجا الإربلي نزيل دمشق، توفي فيها عام 660 هـ/ 1262م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 279).

[4] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج2، ص 58، 107، 400. و ج3، ص 298.

ثالثا- كتاب " البداية و النهاية " لابن كثير:

يُعدُّ الفقيه المؤرِّخ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر بن ضوء بن كثير الدمشقي الشافعي من أبرز علماء القرن الثامن الهجري (ق14م). وُلد في إحدى قرى بُصْرى في الشام عام 701هـ/ 1301م و انتقل مع أُسرته إلى دمشق عام 706هـ/ 1306م، و رحل في طلب العلم، و صنَّف تصانيف كثيرة منها " تفسير القرآن الكريم" و "الاجتهاد في طلب الجهاد" و كتاب "البداية والنهاية " الذي يُعتبر من أبرز المصنَّفات التاريخية. و قد ابتدأ فيه بذِكْر " خَلْق العرش" و خَلْق السماوات والأرض وما بينهما، ثم تطرّق لقصص الأنبياء (عليهم السلام) و أخبار العرب في الجاهلية، و انتقل بعد ذلك إلى السيرة النبوية ، وشرع في ذِكْر الحوادث حسب السنين ابتداء من السنة الأولى للهجرة، حيث انتهى في تاريخه إلى عام 768هـ/ 1366م. و نُشير إلى أنّ ابن كثير كان مُتمسِّكا بعقيدة أهل الحديث كما يدلُّ على ذلك كلامه في مواضع كثيرة من كتابه.[1]

-أ- مواقف ابن كثير من الشيعة و الخوارج:

-1- مواقف المُصنِّف من الشيعة و الخوارج من خلال عرضه حوادث و تراجم القرن الهجري الأوّل (ق7م):

لقد اشتمل كتاب " البداية والنهاية " على ردود كثيرة للمُصنِّف على مزاعم ومقالات الشيعة، مثل قول كثير منهم أنّ أبا طالب (عمُّ النبي صلّى الله عليه و سلم) مات مسلما؛ فبيَّن عدم صحة ذلك بعدة أدلَّة خاصة الحديث: " لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضحضاح[2] من نارٍ يبلغ كعبيه يغلي منه

---

[1] - خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 320. وعِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج1، ص 10. و ج7، ص 438، 672.

[2] - الضحضاح هو " الماء القليل يكون في الغدير أو غيره "، أو هو ما ارتفع " من الماء على وجه الأرض ما يبلغ الكعبين." (أنظر: جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق (ط. دار المعارف)، ج2، ص 525).

دماغه." [1] وقال ابن كثير بعدما ذكر عدة أدلَّة: "... كان يَصدُّ الناس عن أذيَّة رسول الله صلَّى الله عليه و سلَّم و أصحابه بكلِّ ما يقدر عليه من فعال ومقال ...، ومع هذا فلم يُقَدِّر الله له الإيمان، لِما له تعالى في ذلك من الحكمة العظيمة ...، و لولا ما نهانا عنه من الاستغفار للمشركين لاستغفرنا لأبي طالب. "
و نقل في ذِكْره " الآيات و الأحاديث المُنذِرة بوفاة رسول الله صلَّى الله عليه و سلّم " حديثا رواه البُخاري و مَتْنُه: "... قال ابن عباس: ... اشتدَّ برسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وجَعُه فقال: " ائتوني أكتب لكم كتابا لن تضلّوا بعده أبدا "، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبيٍّ تنازع، فقالوا: ما شأنه يهجر [2]؟ استفهِموه، فذهبوا يَرُدّون عنه، فقال: " دعوني فالذي أنا فيه خيرٌ ممَّا تدعوني إليه." فأوصاهم بثلاث قال: " أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، و أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أُجيزهم." و سكت عن الثالثة " أو " قالها فنسيتها." [3] ثم قال ابن كثير: " و هذا الحديث ممّا قد توهَّم به بعض الأغبياء من أهل البِدع من الشيعة و غيرهم، كلٌّ يدَّعي أنّه كان يُريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمزون إليه من مقالاتهم ...، وهذا الذي كان يريد عليه الصلاة و السلام أن يكتبه قد جاء في الأحاديث الصحيحة التصريح بكشف المُراد منه "
وذكر المُصنِّف الحديث الآتي: "... عن عائشة قالت: لمَّا ثقُل رسول الله صلَّى الله عليه و سلَّم قال لعبد الرحمان بن أبي بكر: " ائتني بكتف أو لوح حتى أكتب لأبي بكر كتابا لا يُخْتَلف عليه " فلمّا ذهب عبد الرحمان ليقوم قال: " أبى الله و المؤمنون أن يُختَلف عليك يا أبا بكر." [4]

وحرص ابن كثير على التفصيل في ذكر مناقب أبي بكر (رضي الله عنه)؛ وذلك من مظاهر التزامه بالمنهج السُّني، حيث ذكر – مثلا– أنّ النبي صلَّى الله عليه و سلَّم خطب " قبل أن يُقبَض عليه الصلاة و السلام بخمسة أيّام خطبة عظيمة بيَّن فيها فضْل أبي بكر الصدِّيق من بين سائر الصحابة ..."، وذكر

---

[1] – ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج1، ص 120.
[2] – يهجر: المُراد هنا: شدَّة الوجع. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج3، ص 315).
[3] – محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج2، ص 410.
[4] – ناصر الدين الألباني، المرجع نفسه، ج2، ص 304. و أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ج40، ص 235. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج3، ص 315، 316.

المُصنِّف الأحاديث الواردة في ذلك، ومنها الحديث الذي رُوي عن الصحابي أبي سعيد الخُدْري أنّه قال: " خطب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الناس فقال: " إنّ الله خيَّر عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله. " قال: فبكى أبو بكر ... فعجبنا به. فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " إنَّ أمَنّ الناس عليَّ في صُحبته و ماله أبو بكر، لو كنت متّخِذا خليلا غير ربي لاتّخذت أبا بكر، ولكن خُلّة الإسلام و مودّته، لا يبقى في المسجد بابٌ إلا سُدَّ إلاّ باب أبي بكر." [1] و ذكر المُصنِّف أنَّ في الأمر بسدِّ " الأبواب ... النافذة إلى المسجد " إلاّ باب أبي بكر " إشارة إلى الخلافة، أي ليَخرج " منه " إلى الصلاة بالمسلمين."[2] ونقل تحت عنوان " ذِكْر أمره عليه الصلاة والسلام أبا بكر الصديق ... أن يُصلّي بالصحابة " عدّة أحاديث، و منها الحديث الذي رُوي عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أنّه قال: " لمّا اشتدّ برسول الله صلّى الله عليه و سلَّم وجَعه قيل له في الصلاة، فقال: " مُرُوا أبا بكر فليُصلِّ بالناس " فقالت له عائشة: يا رسول الله إنّ أبا بكر رجلٌ رقيق، إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فقال: " مُرُوا أبا بكر فليُصلِّ بالناس." ...".[3]

كما حرص ابن كثير على إبطال عقائد الشيعة في الإمامة وغيرها، حيث أورد في سياق حديثه عن بيعة أبي بكر(رضي الله عنه) عدَّة أدلّة تُبيِّن أنّ النبي صلّى الله عليه و سلّم لم يوصِ بالخلافة إلى عليٍّ (رضي الله عنه)، مثل قول عليّ : " من زعم أنّ عندنا شيئا نقرؤه ليس في كتاب الله وهذه الصحيفة[4]... فقد كذب." فذكر المُصنِّف أنّ هذا فيه ردٌّ " على فِرقة الرافِضة في زعمهم أنّ رسول الله صلَّى الله عليه

(1) – أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ج17، ص 215، 216. و محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج3، ص 7، 8.
(2) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج3، ص 317، 318، 319.
(3) – محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر نفسه، ج1، ص 226. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج3، ص 322.
(4) – خطب عليٌّ رضي الله عنه بالكوفة على " منبرٍ من آجر وعليه سيف فيه صحيفة معلّقة فقال: " و الله ما عندنا كتاب يُقرأ إلا كتاب الله ، و ما في هذه الصحيفة، فنشرها ..." و فيها: " قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: المدينة حَرَم ما بين عير إلى ثور فمَن أحْدث فيها حدثا أو آوى مُحدِثا فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرف و لا عدل. ومن والى قوما بغير إذن مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرفٌ و لا عدلٌ. و ذِمّة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلما فعليه لعنة الله و الملائكة و الناس أجمعين، لا يُقبل منه يوم القيامة صرفٌ و لا عدلٌ." (أنظر: محمد بن اسماعيل البُخاري، المصدر نفسه، ج4، ص 242، 364. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج 3، ص 342).

وسلَّم أوصى إليه بالخلافة. " ثم قال: "... ولو كان الأمر كما زعموا لما ردَّ ذلك أحد من الصحابة، فإنّهم كانوا أطوع لله و لرسوله صلَّى الله عليه و سلَّم في حياته و بعد وفاته من أن يفتاتوا عليه، فيُقدِّموا غير من قدّمه، و يؤخِّروا من قدّمه بنصِّه ...، و من ظنّ بالصحابة ... ذلك فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطئ على معاندة الرسول صلَّى الله عليه و سلَّم...". و قال: " ... ثم لو كان مع علي بن أبي طالب رضي الله عليه نصٌّ، فلِمَ لا كان يحتجُّ به على الصحابة على إثبات إمارته عليهم و إمامته لهم؟ ... و إنّما يَحسُن هذا في أذهان الجَهَلة الطغام و المُفترين من الأنام، يُزَيِّنه لهم الشيطان بلا دليل و لا برهان بل بمجرَّد ... الهَذيان و الإفك و البُهتان، عياذا بالله ممّا هم فيه من التخليط و الخذلان ...، وملاذا بالله بالتمسُّك بالسُّنة و القرآن..." [1]

ولمّا تطرَّق المُصنِّف لذِكْر بداية خلافة علي رضي الله عنه (35هـ/ 655م) أشار إلى بعض مناقبه ثم قال: "... و الأحاديث الصحيحة الصريحة[2] دالّة على أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم لم يوصِ إليه ولا إلى غيره بالخلافة، بل لوّح بذِكْر الصدِّيق، وأشار إشارة مُفْهِمة ظاهرة جدا إليه...، وأمّا ما يفتريه كثير من جَهَلة الشيعة والقُصّاص الأغبياء من أنّه أوصى إليه بالخلافة فكذِبٌ وبُهْتٌ و افتراءٌ عظيم، يلزم منه خطأ كبير من جور الصحابة وتمالئهم بعده عليه السلام على ترك إنفاذ وصيته و إيصالها إلى من أوصى إليه...". و قال أيضا: "... و كلُّ مؤمن بالله و رسوله ... يعلم بطلان هذا الافتراء، لأنّ الصحابة كانوا خير الخَلق بعد الأنبياء ...". كما قال: "... و ما يقصُّه بعض القُصّاص من العوامّ وغيرهم في الأسواق و غيرها من الوصية لعليٍّ بآداب وأخلاق في المأكل والمشرب والملبس، مثل ما يقولون: ياعلي لا تعتمّ وأنت قاعد، يا علي لا تلبس سراويلك و أنت قائم... و نحو ذلك، كلّ ذلك من الهَذَيانات فلا أصل له بل هو اختلاقٌ وكذبٌ و زُور..."، وما " يذكره كثير من القُصّاص في مقاتلته الجن في بئر ذات

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج3، ص 342.

(2) – محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج1، ص 226. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج3، ص 321، 322.

العَلم[1] ... فلا أصل له، و هو من وضع الجَهَلة من الأخباريين فلا يُغتَرّ به." [2] فنلاحظ ممّا تقدّم حرص ابن كثير على إنكار ما يخالف الحق، و هذا ما أثرى تاريخه بفوائد متنوعة.

و أنكر اعتقاد كثير من الشيعة عن قبر عليّ (رضي الله عنه) في مشهد النجَف[3] حيث قال: "... و المقصود أنَّ عليّا رضي الله عنه لمَّا مات صلّى عليه ابنه الحسن ...، و دُفن بدار الإمارة بالكوفة ... خوفا عليه من الخوارج أن ينبشوا عن جثته، وهذا هو المشهور. ومن قال:أنّه حُمِل على راحلته فذهبت به فلا يُدرى أين ذهبت، فقد أخطأ وتكلّف ما لا عِلم له به، و لا يُسيغه عقل و لا شرع. وما يعتقده كثير من جَهَلة الروافِض من أنَّ قبره بمشهد النجَف ... فلا دليل على ذلك و لا أصل له...".[4]

وصرَّح ابن كثير في عدَّة مواضع من كتابه بذمٍّ قتلة الحسين بن علي (رضي الله عنه)، و أنكر الأكاذيب المتداولة بين كثير من الشيعة عن اليوم الذي استشهد فيه حيث قال: "... و لقد بالغ الشيعة في يوم عاشوراء، فوضعوا أحاديث كثيرة وكذبا فاحشا، من كون الشمس كسفت يومئذ حتى بدت النجوم، وما رُفع يومئذ حجرٌ إلاّ وُجِد تحته دمٌ، و أنّ أرجاء السماء احمرَّت، وأنّ الشمس كانت تطلع وشعاعها كأنّه دم ... و أنَّ الكواكب صار يضرب بعضها بعضا، وأمطرت السماء دما أحمرا...، وأنّ الأرض اظلمت ثلاثة أيام." و أبدى رأيه في ما يُروى من أخبار استشهاد الحسين بقوله: " و للشيعة والرافِضة في صفة مصرع الحسين رضي الله عنه كذبٌ كثيرٌ وأخبار طويلة، و فيما ذكرناه كفاية، و في بعض ما أوردناه نظرٌ... و أكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعيا، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنّه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنِّفين ممّن بعده

---

(1) – بئر قريب من الجحفة. و الجحفة: موضع بين مكة و المدينة. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص 345. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 60).

(2) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 345.

(3) – النجَف: موضع قريب من الكوفة في الناحية الجنوبية الغربية منها.(أنظر: محمد بن عبد الله الحميري، المصدر السابق، ج1، ص 575. و حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 146).

(4) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص446، 674.

و الله أعلم." [1] فقد نبَّه المُصنِّف هنا إلى ضرورة إخضاع الروايات المذكورة للتمحيص.

و ختم حديثه عن استشهاد الحسين بكلام قيِّم إذ قال: " ... فكلُّ مسلم ينبغي أن يحزنه الذي وقع من قتله رضي الله عنه، فإنّه من سادات المسلمين و علماء الصحابة و ابن بنت رسول الله صلَّى الله عليه و سلَّم التي هي أفضل بناته، وقد كان عابدا وشجاعا وسخيّا، ولكن لا يحسُن ما يفعله الشيعة من إظهار الجزَع ... الذي لعلّ أكثره تصنّع و رياء، وقد كان أبوه أفضل وهم لا يتَّخذون مقتله مأتما كيوم مقتل الحسين ...". و قال أيضا: " ... و قد أسرف الرافِضة في دولة بني بُويه في حدود الأربعمائة وما حولها فكانت " الطبول " تُضرب ببغداد و نحوها من البلاد في يوم عاشوراء ...، و يُظهر الناس الحزن و البكاء ... ثم تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ينحن ويلطمن وجوههن... حافيات في الأسواق، إلى غير ذلك من البِدع الشنيعة و الأهواء الفظيعة و الهتائك المخترعة...".[2]

و نلمس من خلال تعليقات ابن كثير حرصه الشديد على استنكار انحرافات الشيعة، مثل قوله في ترجمة محمد ابن الحنفية: " ... وقد ذهبت طائفة من الرافِضة إلى إمامته، و أنّه يُنتظر خروجه في آخر الزمان...، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم وبُهتانهم ...". ونقل إنكار الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (ت97هـ/ 716م) انحرافات الشيعة؛ فذكر أنّ شيعيا قال له: " أَلَم يقل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: " من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه." فقال: بلى، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال: أيها الناس اعلموا أنّ هذا وليّ أمركم، وهو القائم عليكم من بعدي، فاسمعوا له و أطيعوا. و الله لئن كان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم اختار عليّا لهذا الأمر ثم تركه عليٌّ لكان أوَّل من ترك أمر الله ورسوله." [3]

و نبّه المُصنِّف على بعض الأحاديث الموضوعة من قِبَل رواة شيعة؛ فذكر أنّهم أضافوا إلى الحديث

(1) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 4، ص 674، 675.
(2) – المصدر نفسه، ج4، ص675، 676.
(3) – المصدر نفسه، ج5، ص 165، 287.

الصحيح: " تقتل عمّارا الفئةُ الباغية." [1] عبارة: " لا أنالها الله شفاعتي يوم القيامة. " قال ابن كثير: " ... و ما يزيده بعض الرافِضة في هذا الحديث ... فليس له أصل يُعتمد عليه، بل هو من اختلاق الروافِض قبَّحهم الله. " وأشار إلى أنَّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قد آخى بين علي بن أبي طالب و سهل بن حُنَيف[2] (المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار)، ثم قال المُصنِّف: "... و ذكر أهل السِّير والمغازي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آخى بينه و بين نفسه، ولا يصحُّ، وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة لا يصحّ شيئ منها لضعف أسانيدها وركة[3] بعض مُتونها؛ فإنّ في بعضها: " أنت أخي و وارثي و خليفتي وخير من أُمِّر بعدي." و هذا حديث موضوع ...".[4]

و ذكر في باب " ذِكْر شيء من فضائل أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه " أنَّ كثيرا من الشيعة يزعمون أنَّ عبد الله بن عباس قال: " ما نزلت آية فيها: " يا أيها الذين آمنوا." إلاّ و عليّ بن أبي طالب رأسها." وأنّه قال: " نزل فيه ثلاثمائة آية." ثم قال المُصنِّف: " لا يصحُّ ذلك عنه ...، و إنَّما هذا من غُلوّ الرافِضة." كما أشار في الباب المذكور إلى أحاديث موضوعة أخرى منها: " النظَر إلى وجه عليّ عبادة." و " ذِكْر عليّ عبادة." و قال بعد ذلك: " لا يصحُّ شيء منها، فإنّه لا يخلو كلّ سند منها عن كذاب أو مجهول لا يُعرَف حاله...". و قال بعدما ذكر الحديث الموضوع[5] : "عليٌّ خير البشر فمن أبى فقد كفر":

---

[1] – عن أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه قال: " كنّا ننقل لَبِن المسجد لبِنة لبِنة، و كان عمّار ينقل لبِنتين لبِنتين، فمرّ به النبي صلّى الله عليه و سلّم و مسح عن رأسه الغبار و قال: ويح عمّار تقتله الفئة الباغية، عمّار يدعوهم إلى الله و يدعونه إلى النار." (أنظر: محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج2، ص 309. و ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج2، ص 327). و قد شهد الصحابي عمّار بن ياسر صِفين مع علي بن أبي طالب و قُتل في الوقعة. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4، ص 384.)

[2] – الصحابي أبو ثابت سهل بن حُنَيف الأنصاري، شهد غزوة بدر و غيرها، و كانت وفاته عام 38هـ/ 658م في الكوفة. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج 2، ص 325. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 434).

[3] – ركّ الشيء: أي رقّ و ضعُف. (أنظر: جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق، ج10، ص 432).

[4] – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج3، ص 683. و ج4، ص 344.

[5] – قال ابن الجَوزي: " هذا حديث لا يصحّ عن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم. (أنظر: عبد الرحمان ابن الجَوزي، **الموضوعات**، ج1، ص 348).

" ... قبّح الله من اختلقه و وضعه." [1]

و بيَّن عدم صحَّة أحاديث أخرى منها: " قُسِمت الحكمة عشرة أجزاء، أُعطي عليّ تسعة والناس جزءا واحدا." قال ابن كثير: " و سكت الحافظ ابن عساكر على هذا الحديث ولم يُنبِّه على أمره، وهو منكَر بل موضوع ... قبَّح الله واضعه ومن افتراه واختلقه." وقال لمّا ذكر الحديث الموضوع[2]: " أنا مدينة العِلم وعليٌّ بابها." : "... و ساقه ابن عساكر[3] بإسناد مظلم ..."، و أشار إلى قول ابن عدي: "... وهو موضوع." و أكَّد المُصنِّف عدم صحة " حديث الطير "[4] فقال بعدما ذكر أسانيده: "... فهذه طرق متعدِّدة ... كلّ منها فيه ضعف و مقال. و قال شيخنا أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في هذا الحديث بعدما أورد طرقا متعدِّدة ...: و يُروى من وجوه باطلة و مظلمة ...".[5]

وقد حرص ابن كثير على ذِكْر مناقب الصحابة خاصّة ما تعلّق بالخلفاء الراشدين، وهذا من مظاهر التزامه بالمنهج السُّني، حيث نقل أحاديث صحيحة وردت في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، و ذمّ قتَلة عثمان و وصفهم بـ " البُغاة الخارجين على الإمام " و بـ " الفَجَرة "، و قال عنهم: " ... و إنّما هؤلاء الجَهَلة البُغاة مُتعنِّتون خَونة ظَلَمة مُفتَرون، و لهذا صمَّموا ... على حَصْره و التضييق عليه حتى منعوه الميرة و الماء والخروج إلى المسجد. " وأكّد أنَّ قَتَلة عثمان زوّروا كتبا " على لسان الصحابة إلى الآفاق " للتحريض على قتله. و ذمَّ عبد الله بن سبأ اليهودي فقال في سياق حديثه عن وقعة الجمل: " ... قال ...

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 4 ، ص 478، 479.

(2) – قال تقي الدين ابن تيمية: " ... يُعدّ في الموضوعات ... و ذكره ابن الجَوزي " في كتابه " الموضوعات"، و بيّن " أنَّ سائر طرقه موضوعة، و الكذب يُعرف من نفس متنه." (أنظر: تقي الدين ابن تيمية، **منهاج السُّنة**، ج7، ص 515).

(3) – ذكره في " تاريخ دمشق." (أنظر: أبو القاسم ابن عساكر، المصدر السابق، ج42، ص 382، 383).

(4) – و متنه: " أن رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كان عنده طائر فقال: " اللهم ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطير فجاء أبو بكر فردّه، ثم جاء عمر فردّه، ثم جاء عثمان فردّه، ثم جاء عليّ فأذن له". و قد صنّف بعض العلماء في بيان عدم صحَّة هذا الحديث، و منهم ابن الجَوزي. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج 4، ص 471. و عبد الرحمان ابن الجَوزي، **العِلَل المتناهية في الأحاديث الواهية**، ج1، (تحقيق: إرشاد الأثري)، ط2، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد – باكستان، 1401هـ/ 1981م، ص 233، 234. و ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة**، ج14، ص177).

(5) – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 480، 481، 471، 472).

قبَّحه الله: " (مخاطبا قتلة عثمان) " يا قوم إنَّ عزَّكم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس فأنشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر." [1]

كما أكّد ابن كثير على إعظام الصحابة قتل عثمان و قال: " ... فإنْ قال قائل: كيف وقع قَتْل عثمان رضي الله عنه بالمدينة و فيها جماعة من كبار الصحابة ...؟ فجوابه من وجوه: أحدها: أنَّ كثيرا منهم بل أكثرهم أو كلّهم لم يكن يظن أنّه يبلغ الأمر إلى قتله ... " و " الثاني: أنّ الصحابة مانعوا دونه أشدّ المُمانعة، ولكن لمّا وقع التضييق الشديد عزم عثمان على الناس أن يكفُّوا أيديهم و يُغمِدوا أسلحتهم ففعلوا ..." و " الثالث: أنّ هؤلاء الخوارج ...اغتنموا غَيْبة كثير من أهل المدينة في أيّام الحج، و لم تقدم الجيوش من الآفاق للنُّصْرة " فـ " انتهزوا فرصتهم قبّحهم الله و صنعوا ما صنعوا من الأمر العظيم." [2]

و نقد المُصنِّف ما ذكره بعض المؤرّخين فيما يتعلّق بمبايعة علي بن أبي طالب وعبد الرحمان بن عوف لعثمان بالخلافة (سنة 24هـ/ 645 م) حيث قال: " و ما يذكره كثير من المؤرِّخين ... عن رجال لا يُعرفون من أنَّ عليّا قال لعبد الرحمان: خدعتني و إنك إنَّما ولَّيته لأنَّه صهرك و ليشاورك كلّ يوم في شأن ...إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبَت في الصِّحاح، فهي مردودة على قائليها...، والمظنون بالصحابة خلاف ما يتوهّم كثير من جَهَلة الرافِضة و أغبياء القُصّاص الذين لا تمييز عندهم بين صحيح الأخبار وضعيفها ومُستقيمها و سقيمها ... و الله الموفِّق للصواب..." [3]

وحرص المُصنِّف كغيره من علماء أهل السُّنة على نقل مناقب أهل البيت والثناء عليهم، حيث فصّل في ذِكْر فضائل علي (رضي الله عنه) و فضائل فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم والحسن و الحسين[4]، و ذكر – بعدما أشار إلى وقعة صِفّين – أنّ الخليفة عليّا وأصحابه كانوا " أدنى الطائفتين إلى الحقّ من أصحاب مُعاوية." وذمّ قَتَلة الحسين في عدّة مواضع من كتابه، و قال بعدما تطرّق لمقتل

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج3، ص 318، 322، 323. و ج4، ص 317، 320، 440، 304، 315، 357.

(2) – المصدر نفسه، ج 4، ص 316، 317.

(3) – المصدر نفسه، ج 4، ص267.

(4) - المصدر نفسه، ج3، ص 311، 314. و ج 4، ص 515، 516، 520.

بعضهم: " ... و لا شكّ أنّ قتل قَتَلته كان متحتما، و المبادرة إليه كان مَغنما، ولكن إنّما قدّره الله على يد المختار الكذاب[1]...، قال تعالى: " وكذلك نُولِّي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون[2]." " و وصف المُصنِّف عُبَيد الله بن زياد في ترجمته له بـ " الخبيث ". كما قال ضمن ترجمته ليزيد بن مُعاوية: "... فإنّه لم يُمهَل حتى قَصَمه الله الذي قَصَم الجبابرة قبله و بعده، إنّه كان عليما قديرا." [3]

و كان موقفه من بني أُميّة و أهل الشام الذين شهدوا صِفّين معتدلا؛ فقد ذكر في حديثه عن " خروج الخوارج" على عليّ أنّ النبي صلّى الله عليه و سلّم قال: " تمرُق مارقةٌ عند فُرقة من المسلمين تقتلهم أَوْلى الطائفتين بالحقّ."[4] ثم قال ابن كثير بعد ذلك: " فهذا الحديث من دلائل النُبُوّة؛ لأنّه قد وقع الأمر طِبْق ما أخبر الرسول صلّى الله عليه و سلّم، و فيه الحُكْم بإسلام الطائفتين، أهل الشام و أهل العراق، لا كما يزعمه فِرْقة الرافِضة أهل الجهل و الجور من تكفيرهم أهل الشام. و فيه أنّ أصحاب عليّ أدنى الطائفتين إلى الحقِّ، وهذا هو مذهب أهل السُنة و الجماعة أنّ عليّا هو المُصيب، و أنّ مُعاوية كان مجتهدا في قتاله له، وقد أخطأ، و هو مأجور إن شاء الله، و لكنّ عليّا هو الإمام المُصيب إن شاء الله تعالى ...".[5]

وقال المُصنِّف بشأن يزيد بن مُعاوية: " الناس في يزيد بن مُعاوية أقسام: فمنهم من يُحبّه ويتولاّه، وهم طائفة من أهل الشام من النواصِب. و أمّا الروافِض فيشغبون عليه، و يتَّهمه كثيرٌ منهم أو أكثرهم بالزندقة ولم يكن كذلك . وطائفة أخرى لا يُحبّونه ولا يسبّونه، لِما يعلمون من أنّه لم يكن زنديقا كما تقول الرافِضة ولِما وقع في زمانه من الحوادث الفظيعة والأمور المستنكَرة ...الشنيعة؛ فمِن أنكرها قتل الحسين بن علي

[1] – هو المختار بن أبي عُبَيد بن مسعود بن عمرو بن عُمير الثقفي صاحب الحركة الشهيرة التي قامت في الكوفة سنة 66 هـ/ 686م. كان " يدّعي أنّ الوحي يأتيه و أنّه يعلم الغيب، قُتل عام 67 هـ/ 686 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج3، ص 539).

[2] – سورة الأنعام (الآية: 129).

[3] – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 3، ص 683. و ج4، ص 662، 676. و ج5، ص 57، 68، 12.

[4] – مُحيي الدين النواوي، **صحيح مسلم بشرح النواوي**، ج4، ص 159. و أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ج17، ص 290. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج 4، ص 395.

[5] – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 396.

بكربلاء، و لكن لم يكن ذلك عن عِلم منه، و لعلّه لم يرض به و لم يسُؤه ..."، ثم قال: وكذلك من الأمور المنكَرة جدّا وقعة الحرّة وما كان من الأمور القبيحة بالمدينة النبوية." [1]

و أنكر على الناصِبة موقفهم من أهل البيت؛ فممّا يدلُّ على ذلك نقله عدة أحاديث في فضائل الحسن والحسين؛ منها الحديث الذي رُوي عن أبي هريرة أنّه قال: " قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم: من أحَبّهما فقد أحبّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني."[2] وذمّ المُصنِّف في عدّة مواضع من كتابه الناصِبة ويتّضح ذلك من كلامه بشأن شَمِر بن ذِي الجَوشن وخَولي بن يزيد الأصبحي والحجّاج بن يوسف؛ حيث قال عن هذا الأخير: " كان ناصِبيا جَلْدا ظالما غاشِما." وقال: "... و قد كان ناصِبيا يبغض عليّا ... في هوى بني أُميّة، و كان جبّارا عنيدا مِقداما على سَفْك الدماء بأدنى شُبهة، و قد رُوي عنه ألفاظ بشعة شنيعة ..."، و نقل ابن كثير بعضها، ثم ذكر أنّ الشيعة " رُبّما حرّفوا بعض الكَلِم و زادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات." [3] و هذا التنبيه من المُصنِّف ممّا يدلُّ على إنصافه.

و أنكر إظهار الناصِبة الفرح يوم عاشوراء بقوله: "... و قد عاكس الرافِضةَ و الشيعةَ يوم عاشوراء النواصِبُ من أهل الشام فكانوا[4] يوم عاشوراء يطبخون الحبوب و يغتسلون و يتطيَّبون و يلبسون أفخر ثيابهم و يتّخذون ذلك اليوم عيدا، يصنعون فيه أنواع الأطعمة ويُظهِرون السرور و الفرح، يريدون بذلك عِناد الروافِض ومعاكستهم." ثم ذكر أنّ كلّ مسلم ينبغي أنْ يحزنه قتل الحسين " رضي الله عنه، فإنّه من سادات المسلمين و علماء الصحابة و ابن بنت رسول الله صلَّى الله عليه و سلَّم...".[5]

ولمّا تطرّق لخرروج الخوارج على عليّ (37هـ/ 657 م) ذكر " ما ورد فيهم من الأحاديث " ثم قال

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج4 ، ص4.

(2) – أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ج13، ص 260. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 2، ص 629. و ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج6، ص 931. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، 677.

(3) – عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 661. و ج5، ص 57، 58، 59، 252، 254.

(4) – لم يذكر المُصنّف فترة وقوع ذلك. (أنظر: المصدر نفسه، ج4، ص 675).

(5) – المصدر نفسه، ج 4، ص 675.

مستنكرا أعمالهم: "... وما أحسن ما قال بعض السَّلَف في الخوارج: أنّهم المذكورون في قوله تعالى: " قُل هل نُنبِّئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعا."[(1)] و المقصود أنّ هؤلاء الجَهَلة الضُّلال، و الأشقياء في الأقوال والأفعال اجتمع رأيهم على الخروج من بين أظهر المسلمين ... فخرجوا من بين الآباء والأمهات ... وفارقوا سائر القرابات، يعتقدون بجهلهم وقلّة علمهم وعقلهم أنّ هذا الأمر يُرضي ربّ الأرض و السماوات، ولم يعلموا أنّه من أكبر الكبائر و الذنوب الموبقات...". وقال المُصنِّف إثْر ذِكْرِه انهزامهم في وقعة النهرَوان: "... و قُتل أمراؤهم قبّحهم الله تعالى." كما قال عن ابن مُلجم: "... قبّحه الله." [(2)]

-2- مواقف المُصنِّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث و تراجم الفترة (ق2-5هـ/ 8-11م):

لقد تنوَّعت مظاهر إنكار المصنِّف لمقالات الشيعة من خلال عرضه لعدة حوادث وتراجم؛ فقال عن محمد الباقر: "... وهو أحد من تدّعي فيه طائفة الشيعة أنّه أحد الأئمة الإثني عشر، ولم يكن الرجُل على طريقهم ولا على منوالهم، ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم، بل كان ممّن يُقدِّم أبا بكر وعمر، و ذلك عنده صحيح في الأثر...". و ذكر أنّ الشاعر المعروف بـ "السيِّد الحِمْيري" يُعدّ " من الشعراء المشهورين... و لكنّه كان رافِضيا خبيثا... يسبُّ الصحابة في شعره...". و أنكر تفضيل المأمون لعليّ على أبي بكر و عمر وعثمان، وأكد أنّه بذلك قد خالف " الصحابة كلّهم حتى عليّ بن أبي طالب " حيث صحّ الخبر عن " أمير المؤمنين علي ...أنه قال: خير الناس بعد النبيّ صلّى الله عليه و سلّم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان"، وقال ابن كثير: "... وقد أضاف المأمون إلى بِدعته هذه – التي أزرى فيها على المهاجرين والأنصار وخالفهم في ذلك – البِدعة الأخرى ... وهي القول بخَلْق القرآن...، و لكن كان فيه

---

(1) – سورة الكهف (الآيتان: 103، 104).

(2) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 4، ص 402، 405، 443.

شهامة عظيمة، و له همّة في القتال ... ومصابرة الروم."[1] فنلاحظ أنّ المُصنِّف قد أنصف المأمون؛ فلم يكتف بذِكر مثالبه.

و أشار ضمن عرضه حوادث سنة 241هـ/ 855 م إلى مقتل أحد أعيان شيعة بغداد خلال خلافة المتوكِّل؛ وذلك بسبب شتمه " أبا بكر وعمر وعثمان وحفصة "، ثم قال ابن كثير: " قبّحه الله ولعنه." كما نقل قول الدارقُطني أنّ المُحدِّث ابن عقدة الكوفي الشيعي " كان رجل سوء." وذمّ المُصنِّف الإثني عشرية عند إشارته إلى اعتقادهم في محمد بن الحسن العسكري فقال: " ...المُنتظر عند الفِرقة الضالة الجاهلية الكاذبة الخاطئة...". وذمّ كذلك مُعزّ الدولة البُويهي الشيعي في سياق تطرقه لكتابة " العامة من الروافِض ببغداد " لعنة أبي بكر وعمر وعثمان ومُعاوية على أبواب المساجد(سنة351هـ/ 962م) حيث قال: " قبّح الله معزّ الدولة وشيعته من الروافِض، وكذلك سيف الدولة بحلب كان فيه تشيّع و ميل إلى الروافِض، ولا جرم أنّ الله لا ينصر أمثال هؤلاء[2] ويُديل عليهم أعداءهم، لمتابعتهم أهواءهم ...وترك متابعتهم أنبياءهم وعلماءهم." [3]

وأنكر ابن كثير على الشيعة إقامتهم المأتم (في بغداد) يوم عاشوراء واحتفالهم بما يسمونه " يوم الغدير"؛ حيث قال ضمن عرضه أحداث سنة 352هـ/ 963م: " ...في عاشر المحرّم من هذه السنة أمر مُعزّ الدولة قبّحه الله أن تُغلق الأسواق ...، وأن تخرج النساء حاسرات عن وجوههن ناشرات شعورهن ... ينحن على الحسين.... وفي ثامن عشر ذي الحجة... أمر بإظهار الزينة...، وأن تُفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد...، وأن تشعل النيران بأبواب الأمراء... فرحا بعيد الغدير...، فكان وقتا عجيبا ...وبدعة ظاهرة...". وقال في حوادث عام 355هـ/ 966م: " ... في عاشر المحرّم عملت الروافِض ببغداد بدعتهم

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج5، ص 355، 551، 653.

(2) – كان المُصنّف قد ذكر قبل هذا استيلاء الروم على حلب سنة 351هـ/ 962م و انهزام سيف الدولة أمامهم. (أنظر: المصدر نفسه، ج 6، ص 286).

(3) – المصدر نفسه، ج6، ص 29، 253، 72، 287.

الشنعاء..."، كما قال ضمن حوادث 356هـ/967م: "... وعملت الروافِض في يوم عاشوراء عزاء الحسين على ما ابتدعوه من النوح." و قال أيضا في حوادث عام 361هـ/ 972 م: "...عملت الروافِض ... البِدعة التي تقرّرت من النوح على الحسين بن علي رضي الله عنه و قبّحهم." [1]

وأثنى المُصنِّف على عميد الجيوش[2]، فنوَّه بمنعه الشيعة من النياحة في عاشوراء، وامتعض من إذن فخر المُلْك[3] لهم بإقامة المأتم (سنة 403هـ/ 1012م) فقال: " في المحرّم ...أذن فخر المُلك للروافِض أنْ يعملوا البِدعة الشنعاء و الفضيحة الصلعاء، من الانتحاب والنوح والبكاء ... و دوران النساء حاسرات عن وجوههن و رؤوسهن، يلطمن خدودهن كفعل الجاهلية الجهلاء، فلا جزاه الله عن السُّنة خيرا، و سوّد الله و جهه يوم الجزاء، إنّه سميع الدعاء." [4]

ولئن كان ابن كثير قد حرص على ذمّ ما يفعله الشيعة في يوم عاشوراء، فإنّه قد صرّح بذمّ ما قام به بعض عوام أهل السُّنة ببغداد من النياحة على مُصعَب بن الزبير إذْ قال: " ... ولمّا كانت الشيعة يصنعون في يوم عاشوراء مأتما يُظهرون فيه الحزن على الحسين بن علي، قابلتهم طائفة أخرى من جَهَلة أهل السُّنة، فادَّعوا أنّ في اليوم الثامن عشر من المحرّم قُتل مُصعب بن الزبير، فعملوا له مأتما كما تعمل الشيعة للحسين...، وهذا من باب مقابلة البِدعة ببِدعة مثلها، ولا يرفع البِدعة إلاّ السُّنة الصحيحة وبالله التوفيق." وقال كذلك (حوادث 393هـ/ 1003م): " ... منع عميد الجيوش الشيعة من النوح على الحسين...، ومنع جَهَلة السُّنة ... من النياحة على مُصعب بن الزبير...، فامتنع الفريقان ولله الحمد

(1) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 6، ص 289، 297، 308، 318.

(2) – الأمير أبو علي الحسين بن أبي جعفر الملقّب بعميد الجيوش، استنابه السلطان بهاء الدولة أحمد بن عضُد الدولة البويهي (ت403هـ/ 1012م) على العراق سنة 393هـ/ 1003م. و كانت وفاته عام 401 هـ/ 1010م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج17، ص 231).

(3) – الأمير أبو غالب محمد بن علي بن خلف الملقب بفخر المُلك (ت 407هـ/ 1016م)، ولاّه بهاء الدولة العراق بعد وفاة عميد الجيوش عام 401هـ/ 1010م. (أنظر: المصدر نفسه، ج17، ص 282).

(4) – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص 389، 390.

و المِنَّة." [1] و نلمس من هذا الموقف قوّة حرص المُصنِّف على التحذير من الانحرافات.

ولقد أطلق ابن كثير مصطلح " الروافض" بكثرة على الشيعة الغُلاة، وذلك من مظاهر ذمّه لهم، مثل قوله ضمن حوادث سنة 408هـ/ 1017م: " فيها وقعت فتنة عظيمة بين السُّنة والروافض ببغداد." وقوله عن فتنة سنة 482هـ/ 1089م ببغداد: "... وفيها كانت فتن عظيمة بين الروافض والسُّنة ...، و سبَّ أهل الكرخ الصحابة وأزراج النبي صلّى الله عليه وسلّم، وارتفعوا إلى سبِّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فلعنة الله على أهل الكرخ الذين فعلوا ذلك، وإنما حكيت هذا ليعلم الواقف عليه ما في طوايا الروافض من الخبث والبغض لدين الإسلام وأهله، والعداوة الكامنة في قلوبهم لله ولرسوله وشريعته." وهذا المثال الأخير من الأمثلة الدالة على اهتمام المصنِّف بإنكار جرائم الشيعة، وقد تقدم من كلامه ما يؤكِّد ذلك. كما نجد أمثلة أخرى كقوله عن الشاعر مهيار الديلمي: "... سلك سبيل الرافِضة، فكان ينظم الشعر القوي ...في شيء من مذاهبهم في سبِّ الصحابة وغير ذلك." وقوله في ترجمة الشريف المرتضى[2] أن ابن الجَوْزي " سرد من كلامه شيئا قبيحا في تكفير عمر بن الخطاب وعثمان وعائشة وحفصة." ثم قال المُصنِّف: " أخزاه الله وأمثاله من الأرجاس الأنجاس أهل الرَّفْض والارتكاس، إن لم يكن قد تاب." ونقل عن ابن الجَوْزي خبرا يتضمن تراجع المرتضى عن تكفيره لعمر (رضي الله عنه)، وهذا إنصاف من ابن كثير.[3]

ومن مظاهر إنصافه أيضا إنكاره للانحرافات التي ارتكبها بعض عوامّ أهل السُّنة في بغداد كردٍّ فعل على إقامة الشيعة المأتم في عاشوراء، فقال عن أحداث عام 363هـ/ 974م:" فيها عُملت البِدعة الشنعاء على عادة الروافِض، و وقعت فتنة عظيمة ببغداد بين أهل السُّنة والرافِضة، وكِلا الفريقين قليل عقل بعيد عن السداد؛ وذلك أنّ جماعة من أهل السُّنة أركبوا إمرأة وسمّوها عائشة، وتسمّى بعضهم بطلحة وبعضهم

---

(1) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 6، ص 372، 378.

(2) – هو أبو طالب علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم العلوي البغدادي، الشاعر المعتزلي الشيعي. توفي عام 436هـ/ 1044م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج9، ص 557).

(3) – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج6، ص 404، 527، 438، 450.

بالزبير وقالوا: نقاتل أصحاب علي بن أبي طالب، فقُتل من الفريقين خلقٌ كثيرٌ...". وذكر أنَّ شيعة الكرخ بنوا عام 441هـ/ 1049م سورا على مَحلّة الكرخ، فبنى أهل السُّنة سورا على إحدى محالهم، ونقل كل طرف " الآجُر إلى مواضعه بالطبول والمزامير"، ثم قال: " و جرت بينهم مفاخرات في ذلك و سخف لا ينحصر و لا ينضبط، ثم وقعت بينهم فتن يطول أمرها، وأحرقوا دورا كثيرة جدّا، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون."[1]

ولقد ذمّ المصنِّف الباطنية بأشد ما ذمّ به الإثني عشرية، فنقل ذمّ ابن الجَوزي للقرامطة و وصفه لهم بـ " الزنادقة الملاحدة " الذين " يُظهِرون الرَّفْض ويُبطنون الكُفر المَحْض "، والذين " لهم مقامات في الكُفر والجهل والسخافة ... ما لا ينبغي لضعيف عقلٍ أو دينٍ ... تصوُّر سماعه ممّا فتح عليهم إبليس من الأبواب وأنواع الجهالات...". وقال ابن كثير لمّا أشار إلى وفاة أبي سعيد القرمطي: " ... قبّحه الله وهو رأس القرامطة." كما قال واصفا مهاجمة أبي طاهر القرمطي الحُجّاج في مكة سنة 317هـ/ 929م: "... فقتل الناس في رِحاب مكة و شعابها حتى في المسجد الحرام ...، ثم أمر القرمطي لعنه الله أن تُدفن القتلى في بئر زمزم، ودُفن كثير منهم في أماكنهم...، وقد ألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحادا لم يسبقه إليه أحد و لا يلحقه فيه، وسيجازيه على ذلك الذي لا يُعذِّب عذابه أحدٌ...، و إنّما حَمَل هؤلاء على هذا الصنيع أنّهم كانوا كفارا زنادقة...".[2]

ونجد نماذج أخرى من ذمّ ابن كثير للقرامطة، حيث قال في ترجمة أبي طاهر القرمطي: "...لعنه الله وهذا هو الذي قتل الحجيج حول الكعبة." وأشار إلى ظهور قرمطي مع أتباع له في حِمْص عام 354هـ/ 965م، ثم ذكر مقتله و قال: "...وتفرَّق أصحابه قبَّحهم الله." وقال لما ذكر وفاة إسحاق النَّخَعي[3]: " ...

[1] – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 6 ، ص 322، 455.

[2] – المصدر نفسه، ج6، ص 118، 119، 172، 207.

[3] – أبو يعقوب إسحاق بن محمد بن أحمد بن أبان الكوفي النخَعي المتوفّى عام 286هـ/ 988م. و النَّخَعي: نسبة إلى النخَع، وهي قبيلة من العرب. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج6، ص 514. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج12، ص 60).

و إليه تُنسَب الطائفة الإسحاقية من الشيعة، وقد ذكر الخطيب و ابن الجَوْزي أنّ هذا الرجُل كان يعتقد إلهية علي بن أبي طالب، وأنّه انتقل إلى الحسن ثم الحسين، وأنّه يظهر في كلِّ وقت، وقد اتبعه على هذا الكُفْر خلقٌ ... قبّحه الله و قبَّحهم." و ذمّ المُصنِّف ابن أبي العزاقر الشلمغاني وأتباعه.[1]

كما ذمّ الإسماعيلية – وهم من الباطنية – ومنهم " الحاكم بن العزيز بن المُعزّ ... صاحب مصر" فذكر أنّه " كان جبَّارا عنيدا و شيطانا مَرِيدا ...كثير التلوُّن في أقواله وأفعاله ...، وكان يروم أن يدّعي الألوهية كما ادّعاها فرعون في زمان موسى عليه السلام ...، و أمر الرعية إذا ذكره الخطيب على المنبر أن يقوم الناس ... صفوفا إعظاما لذِكْره...، كانت مدة مُلْكه... خمسا وعشرين سنة...، قال ابن الجَوزي: ... وعنّ له أنْ يدّعي الربوبية، فصار قوم من الجُهّال إذا رأوه يقولون: يا واحد يا أحد يا مُحيي يا مميت." وذمّ المصنِّف المُعز بن المنصور وشرح الكيفية البشعة التي قتل بها " الزاهد العابد " أبا بكر النابلسي. كما قال بعدما ذكر استيلاء عساكر المُعزّ على دمشق (سنة 360هـ/971م): "... وكُتبت لعنة الشيخين" أبي بكر وعمر" – رضي الله عنهما ولعن من لعنهما– على أبواب... المساجد، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون." وأشار إلى انعكاس من أخطر انعكاسات استيلائهم على بلاد الشام، فذكر أنّه لما حصل ذلك " استحوذ على سواحلها كلّها حتى بيت المقدس الفِرنج، ولم يبق للمسلمين سوى حلب و حِمْص و حَماة ودمشق و بعض أعمالها...". و ذمّ ابن كثير الدُّروز فوصفهم بـ " الفِرْقة الضّالة المُضلَّة الزنادقة ...".[2]

وحرص في غير موضع من كتابه على التأكيد أنّ عُبَيد الله المهدي ليس بعَلويٍّ، حيث قال – مثلا– في سياق حديثه عن استشهاد الحسين بن علي: "... و ادّعت الطائفة المُسمّون بالفاطميين... أنّ رأس الحسين وصل إلى الديار المصرية و دفنوه بها، وبنَوا عليه المشهد المشهور بمصر الذي يُقال له تاج الحسين بعد سنة خمسمائة، وقد نصّ غير واحد من أهل العلم أنه لا أصل لذلك، و إنما أرادوا أن يروجوا

---

(1) – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 252، 292، 136، 224، 271.

(2) – المصدر نفسه، ج6، ص407، 408، 331، 313، 287، 367.

بذلك بُطلان ما ادعوه من النسب الشريف، وهم في ذلك كَذَبة خونة ...". وذكر في موضع آخر أنّهم " أدعياء لم يكونوا من سلالة فاطمة كما زعموا، و إنّما كانوا كَذَبة فيما ادعوه، كما نصّ على ذلك غير واحد من الأئمّة...". وقال في ترجمة المنصور بن القائم بن عُبَيد الله: "...العُبَيدي الذي يزعم أنّه فاطمي."[1]

وكان موقف ابن كثير من الباطنية الحشاشين مماثلا لموقفه مع غيرهم من الباطنية، حيث قال في حوادث سنة 494هـ/ 1101م: " ... فيها عظُم الخطب بأصبهان ونواحيها بالباطنية ...، وكانوا قد استحوذوا على قلاع كثيرة، وأول قلعة ملكوها في سنة ثلاث وثمانين" (483هـ/ 1090م) " وكان الذي ملكها الحسن بن الصباح أحد دعاتهم، وكان قد دخل مصر وتعلم من الزنادقة الذين كانوا بها، ثم صار إلى تلك النواحي ببلاد أصبهان، فكان لا يدعو إلاّ غبيا لا يعرف يمينه من شِماله...، ويُظهِر له أشياء كثيرة من ... الحيل التي لا تروج إلاّ على الجُهّال، حتى التف عليه بشر كثير...".[2]

-3- مواقف المصنّف من الشيعة من خلال عرضه حوادث وتراجم الفترة (ق6-8هـ/ 12- 14م):

لقد تواصل ذمّ المصنّف لغُلاة الشيعة، ويتضح ذلك من خلال تعاليقه في كثير من التراجم والحوادث، كقوله في ترجمة الأمير يزدن التركي (سبق ذكره): " ...كان من أكابر أمراء بغداد المتحكمين في الدولة، ولكنّه كان رافضيا خبيثا متعصبا للروافض حتى أراح الله المسلمين منه." وقوله في سياق حديثه عن سقوط بغداد (656هـ/1258م) مُبيّنا تعاون ابن العَلْقمي والنصير الطوسي مع التتار: " ... ثم عاد " – أي الخليفة المستعصم – " إلى بغداد وفي صحبته نصير الدين الطوسي لعنة الله عليه والوزير ابن العَلْقمي ...، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة لعنة الله عليهم وغيرهم من المنافقين على هولاكو ...

[1] – عماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج4، ص677، 643. و ج6، ص273.

[2] – المصدر نفسه، ج6، ص 549، 550.

ألاّ يُصالح الخليفة .... وكان الوزير ابن العَلْقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في " تقليل جيش الخلافة " إلى أن لم يبق إلاّ عشرة آلاف، ثم كاتب التتار وأطمعهم في البلاد...، وذلك كلّه طمعا في أن يُزيل السُّنة بالكلية، وأن يُظهر البدعة الرافضية...". وقال ابن كثير أيضا: "... وكان رحيل هولاكو ...من بغداد في جمادى الأولى ....، وفوّض أمر بغداد... إلى ...مؤيد الدين ابن العَلْقمي، فلم يُمهله الله ....، فأخذه أخذ عزيز مقتدر في مستهل جمادى الآخرة...، وكان عنده فضيلة الإنشاء...، ولكنّه كان شيعيا جَلْدا خبيثا رافضيا... رديء الطوية على الإسلام وأهله...".[1]

واستنكر المصنّف اتباع سلطان التتار خَرْبندا بن أرغون عقيدة الإثني عشرية حيث قال ضمن حوادث سنة 709هـ/ 1309م: " ... وفيها أظهر ملك التتر خَرْبندا الرفض في بلاده ....، وظهر على الناس بتلك البلاد من أهل السُّنة أهلُ البدعة، فإنا لله و إنا إليه راجعون." وقال لمّا ذكر وفاة السلطان المذكور: "... تحول...إلى الرَّفْض... ولم يزل على هذا المذهب الفاسد إلى أن مات...، وقد جرت في أيامه فتن كبار ومصائب عظام، فأراح الله منه العباد والبلاد."[2]

وذكر أنّ ابن المطهر الحِلّي قد صنّف عدّة كتب منها كتاب " منهاج الاستقامة في إثبات الإمامة " حيث قال المصنّف: "... خبط فيه في المعقول والمنقول ولم يدر كيف يتوجه، إذ خرج عن الاستقامة، وقد انتُدب للرد عليه في ذلك الشيخ ... أبو العباس ابن تيمية في مجلدات، أتى فيها بما يُبهر العقول من الأشياء المليحة الحسنة...". وقال: " ولد ابن المطهر – الذي لم تطهر خلائقه ولم يتطهر من دنس الرفض – ... سنة ثمان وأربعين وستمائة...". وأشار إلى مقتل " رافضي" في دمشق عام 744هـ/ 1343م فقال: "... شُهد عليه بشهادات " منها " تكفير الشيخين رضي الله عنهما وقذفه أُمّي المؤمنين عائشة وحفصة رضي الله عنهما، و زعم أنّ جبريل غلط فأوحى إلى محمد و إنّما كان مرسلا إلى علي

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج6، ص 654. و ج7، ص 245، 246، 247، 255.

(2) – المصدر نفسه، ج7، ص 435، 454.

وغير ذلك من الأقوال الباطلة القبيحة، قبحه الله وقد فعل." وذكر ابن كثير أنّ رجلا " من الروافض من أهل الحِلّة " دخل الجامع الأُموي في دمشق (سنة756هـ/ 1355م) وقال: " لعن الله أبا بكر وعمر وعثمان ومُعاوية..."، ثم قال المصنّف: ...وقد ناظرتُ هذا الجاهل...، و إذا عنده شيء ممّا يقوله الرافضة الغُلاة، وقد تلقّى عن أصحاب ابن المطهر أشياء في الكُفر والزندقة قبحه الله و إياهم." وذكر كذلك في حوادث عام 766هـ/ 1364م أنّ رجلا وُجد في الجامع الأُموي يسبّ أبا بكر وعمر ويقول إنّ الصحابة " كانوا على الضلالة "، قال ابن كثير: " فأخذ إلى ظاهر البلد فضُربت عُنقه وأحرقته العامة قبحه الله...".[1]

وتعددت مظاهر ذمّه للباطنية؛ حيث قال في ترجمة العاضد: "...آخر خلفاء العُبَيديين ...، وكانوا من أنجس الملوك سيرة و أخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع والمنكرات، وكثُر أهل الفساد ...، وكثُر بأرض الشام النُصَيرية والدُّرْزية ... وتغلب الفِرنج على سواحل الشام بكماله حتى أخذوا القُدس ونابلس ... وصور... وبيروت...وبلاد شتى ...وقتلوا خلقا لا يعلمهم إلاّ الله...وسَبوا... من النساء والولدان ما لا يُحدّ ولا يوصف...". وقال أيضا: " ...وكان أول من ملك منهم المهدي ... دخل بلاد المغرب... و وازره جماعة من جَهَلَة العباد، وصارت له صَولة ودولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية...، وصار ملكا مطاعا... يُظهر الرفض وينطوي على الكُفر المَحض." كما قال عن العاضد: " ...كانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثا "، ثم قال: " ...وكان... كريما جوادا..."، وهذا إنصاف من المصنّف.[2]

وقد نبّه في أكثر من موضع على تعاون الباطنية مع التتار، فذكر – مثلا – أن أهل جبال الجرد وكسروان (من النُصَيرية) قد اغتنموا فرصة هزيمة جيش المماليك أمام التتار (عام699هـ/ 1299م) فهاجموه أثناء رجوعه إلى دمشق وقتلوا كثيرا من الجند وأخذوا أسلحتهم وخيولهم. وأشار إلى خروج نائب

[1] – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 497، 572، 573، 608، 662.

[2] – المصدر نفسه، ج6، ص647، 649، 650.

دمشق جمال الدين الأفرم إلى قتالهم فقال: " ركب نائب السلطنة ... في جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان، وخرج الشيخ تقي الدين ابن تيمية ومعه خلق كثير من المطوعة... لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد دينهم وعقائدهم وكفرهم وضلالهم، وما كانوا عاملوا به العساكر لما كسرهم التتر...، فلما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ تقي الدين ... فاستتابهم وبيّن لكثير منهم الصواب...". كما أشار إلى رجوع الأفرم وابن تيمية عام 705هـ/ 1305م وقال: "... فنصرهم الله عليهم ...، وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير...".[(1)]

وبين ابن كثير شدة انحراف النُصَيرية من خلال ذكره حركتهم في جَبَلَة عام 717هـ/ 1317م حيث قال: "...أقاموا بينهم رجلا سموه ...المهدي...، وصرّح بكُفر المسلمين... واحتوى... على عقول كثير من كبار النُصَيرية الضُلال...، وحملوا على مدينة جَبَلَة فدخلوها وقتلوا خلقا من أهلها، وخرجوا منها يقولون: لا إله إلاّ علي...، و أمر أصحابه بخراب المساجد واتخاذها خمارات، وكانوا يقولون لمن أسروه من المسلمين قل: لا إله إلاّ علي، واسجد لإلهك المهدي الذي يحيي ويميت حتى يحقن لك دمك ... فجردت إليهم العساكر فهزموهم...، وقُتل المهدي الذي أضلهم...".[(2)]

ب- مواقف المصنّف من أهل الكلام:

لقد أثّر تمسك ابن كثير بعقيدة أهل الحديث تأثيرا جليا على موقفه من أهل الكلام، ونوضح ذلك في العناصر الآتية:

1- مواقف المصنّف من الجَهمية والمعتزلة:

لقد تعددت مظاهر تحذير المصنّف من عقائد الجَهمية والمعتزلة، وتدلّ تعاليقه على ذلك؛ فقد قال – مثلا– عن الجَعد بن درهم: "... وأمّا الجعد لعنه الله، فإنّه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص394، 416.
(2) – المصدر نفسه، ج7، ص 460.

فتطلبه بنو أُمية فهرب منهم فسكن الكوفة، فلقيه بها الجَهم بن صفوان فتقلد هذا القول لعنهما الله."

واستنكر (المصنِّف) تبنّي المأمون مقالات المعتزلة فقال: "...أظهر المأمون في الناس بدعتين فظيعتين، إحداهما أطمّ من الأخرى، وهي القول بخلق القرآن، والأخرى تفضيل علي بن أبي طالب على الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد أخطأ في كل من هذين المذهبين خطأ كبيرا فاحشا، وأثِم إثما عظيما...". كما ذكر ضمن حوادث عام 231هـ/ 846م أنّ الخليفة العباسي الواثق أمر بامتحان أسرى المسلمين عند الروم، فمن أجاب إلى القول بخلق القرآن تم فداؤه و إلا تُرك في الأسر، ثم قال ابن كثير عن اعتقاد المعتزلة: "... وهذه بدعة ...شنعاء عمياء... لا مستند لها من كتاب ولا سُنّة ولا عقل صحيح، بل الكتاب والسُّنة والعقل الصحيح بخلافها...".[1]

وقد فصّل في ذِكر أخبار مِحنة خلق القرآن، وأنكر اضطهاد المأمون للعلماء و إجبارهم على القول بخلق القرآن، فممّا يدلّ على ذلك قوله: "...ووقعت ...محنة شنعاء وداهية دهياء، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم العزيز الحكيم." وذكر أنّ المأمون اتبع عقيدة المعتزلة لأنّه " اجتمع بجماعة منهم بِشْر بن غياث المَريسي، فأخذ عنهم هذا المذهب الباطل...". وقال عن المَريسي: "...ثم راج...المَريسي عند المأمون، وحظي عنده ونفق سوقه الكاسد، واستُجيد ذهنه البارد."[2]

وأثنى ابن كثير على العلماء الذين لم يُجيبوا المأمون إلى القول بخلق القرآن، ومنهم أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح[3]، كما أثنى على أحمد بن نصْر الخُزاعي الذي قتله الواثق في فترة المحنة، حيث قال: "... رحمه الله وأكرم مثواه ... كان من أهل العلم والديانة والعمل الصالح والاجتهاد في الخير، ومن أئمة

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج5، ص 382، 642. و ج6، ص 13.

(2) – المصدر نفسه، ج5، ص650، 652، 658، و أنظر: الملحق الثالث ص 402.

(3) – الفقيه محمد بن نوح بن ميمون بن عبد الحميد العِجلي. والعِجلي: نسبة إلى بني عجل، وهم من العرب العدنانية. قال ابن الجوزي: " كان أحد المشتهرين بالسُّنة والدين..."، توفي عام 218هـ/ 833م، وهو أحد من ثبت خلال محنة خلق القرآن.(أنظر: عبد الرحمان ابن الجوزي، **المنتظم**، ج11، ص39. و أحمد بن علي القلقشندي، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، (تحقيق: إبراهيم الأبياري)، ط2، دار الكتاب، بيـروت – لبنان، 1400هـ/ 1980م، ص 350. ومحمد نغش، **التعريف بكتاب محنة الإمام أحمد**، ط12، الجامعة الإسلامية بالمدينة، 1400هـ/ 1980م، ص 382).

المسلمين وأهل السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر...". وأشاد برفع المتوكل المحنة فقال: "... وكان من خيار الخلفاء، لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون، فإنّهم أساءوا لأهل السُنّة وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم...". وقال: "...وارتفع شأن السُنّة جدا في أيام المتوكل عفا الله عنه.وكان لا يولي أحدا إلاّ بعد مشورة الإمام أحمد بن حنبل...". كما قال أيضا: "...وكان المتوكل محبَّبا إلى رعيته قائما بالسُّنة فيها...، أظهر السُّنة بعد البدعة، وأخمد البدعة بعد انتشارها واشتهارها فرحمه الله."[1]

وصرّح بتضليل المعتزلة في أكثر من موضع، فقال – مثلا – في ترجمة الجاحظ: "...وكان ...رديء الاعتقاد يُنسب إلى البدعة...". وذكر أنّ علماء بغداد قد جُمِعوا في شعبان من سنة 420هـ/ 1029م في دار الخلافة وقُرئ عليهم " كتاب جمعه أمير المؤمنين القادر بالله... فيه الرد على أهل البدع من المعتزلة وغيرهم." كما ذكر أنّ هذا الكتاب قُرئ مرة أخرى عام 460هـ/ 1068م خلافة القائم بن القادر بالله، وأنّه يتضمن " مذهب أهل السنة والجماعة، والإنكار على أهل البدع." وأثنى على الخليفتين المذكورين الذين عُرفا بالتصدي للمتكلمين، حيث قال عن القادر بالله: "...كان... مُحبا لأهل العلم والدين والصلاح... وكان على طريقة السلف في الاعتقاد.... مُحبا للسّنة وأهلها، مبغضا للبدعة وأهلها." وقال عن القائم: "... كان من خيار بني العباس دينا واعتقادا...".[2]

-2- مواقف المصنّف من الأشاعـرة:

لقد دلّت تعاليق ابن كثير في عرضه لكثير من الحوادث والتراجم على مخالفته للأشاعرة؛ فمن الأمثلة الدالة على ذلك استنكاره تحامل الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين الأيوبي على أهل الحديث إذ عزم على إخراجهم من مصر (سنة 595هـ/ 1198م) بسبب تأثره ب " خلطائه" وقلّة علمه بالقرآن

---

[1] – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج5، ص 650. و ج6، ص 9، 12، 22، 56.

[2] – المصدر نفسه، ج6، ص 76، 423، 492، 428، 506.

والحديث. وأشار المصنّف في حديثه عن مِحن ابن تيمية – خاصة سجنه في الجُبّ وفي دمشق – إلى تحامل بعض أعيان الأشاعرة عليه حيث قال: "... وكان للشيخ تقي الدين من الفقهاء جماعة يحسدونه " لطاعة " الناس له ومحبتهم له... وقيامه في الحق وعلمه وعمله...". وقال: "...وأكثر ما نالوا منه الحبس مع أنّه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام، ولم يتوجه لهم عليه ما يُشين، و إنما أخذوه و حبسوه بالجاه." كما قال – مُبيّنا أنّ بعض خصوم ابن تيمية نسبوا إليه أقوالا هو منها بريء – : "... توفي ببلده دمشق " فاجتمع أهلها " لجنازته اجتماعا لو جمعهم سلطان قاهر... لما بلغوا هذه الكثرة التي انتهوا إليها هذا مع أنه مات بالقلعة محبوسا... وكثير من الفقهاء يذكرون عنه أشياء كثيرة ممّا ينفر منها أهل الأديان...".[1]

وذكر أنّ الأمير سيف الدين سلار(سبق ذكره) اقترح في ليلة عيد الفطر من عام 706هـ/ 1306م على بعض أعيان الأشاعرة (في القاهرة) إخراج ابن تيمية من الجُبّ وأنّهم اشترطوا " أن يلتزم بالرجوع عن بعض " عقيدة أهل الحديث، ثم قال ابن كثير: "... وأرسلوا إليه ليتكلموا معه في ذلك، فامتنع من الحضور وصمم... ولم يلتفت إليهم...، فطال عليهم المجلس فتفرقوا وانصرفوا غير مأجورين." كما ذكر أن الفقيه كمال الدين ابن الزملكاني الشافعي الأشعري قد طُلب عام 727هـ/ 1326م إلى مصر – وكان في حلب – ليُولى قضاء دمشق[2]، وأنه كان عازما على إيذاء ابن تيمية إن وُلي القضاء، قال المصنّف: "... وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متوليا أن يُؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية، فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومُراده، فتوفي " قبل دخوله القاهرة. فنلاحظ أنّ ابن كثير – وهو شافعي – قد استنكر مسعى ابن الزملكاني رغم أنّهما على مذهب فقهي واحد، وهذا يدلّ على إنصافه وعلى أنّ الجانب المؤثر في مواقفه هو جانب العقيدة؛ إذ أنّ كلا من ابن تيمية وابن كثير على منهج أهل الحديث. ولم يُهمل الإشارة إلى سعة علم ابن الزملكاني في الفقه، وهذا أيضا إنصاف منه حيث قال: "... ودرس بالشامية البرانية

(1) – عماد الدين ابن كثير، البداية و النهاية، ج7، ص 74، 417، 414، 508.

(2) – وذلك خلال عهد السلطان محمد بن قلاوون. (أنظر: شمس الدين الذهبي، ذيول العبر، ج4، ص 80).

والعذراوية والظاهرية ... فكان يُعطي كل واحدة منهن حقها، بحيث كان يكاد ينسخ بكل واحد من تلك الدروس ما قبله من حسنه وفصاحته، ولا يهوله تعداد الدروس...".(1)

و أشار ابن كثير في سياق عرضه حوادث عام 706هـ/ 1306م إلى مناظرة في مسألة الصفات جرت في القاهرة بين شرف الدين ابن تيمية وكل من القاضي زين الدين ابن مخلوف وشمس الدين ابن عدلان الأشعريين حيث قال: "... طلب أخوا الشيخ - شرف الدين وزين الدين – من الحبس إلى مجلس نائب السلطان سلار... وحضر ابن مخلوف...، وجرى بينهم كلام كثير، فظهر شرف الدين بالحجة على القاضي... بالنقل والدليل والمعرفة...، وحضر ابن عدلان وتكلم معه الشيخ شرف الدين وناظره وبحث معه، وظهر عليه أيضا."(2)

ج- مواقف المصنّف من الصوفية والفلاسفة:

لقد ذمّ ابن كثير القائلين بالحلول ووحدة الوجود أثناء عرضه لعدة حوادث وتراجم، منها ترجمة الحلاج، حيث قال: "... دخل على الحلاج باب الحُلول والاتحاد، فصار من أهل الانحلال والإلحاد... وصحّ أنّه دخل إلى الهند لتعلم السحر." وذكر بعض الحِيَل التي استخدمها لينقاد له الناس؛ فمنها أنّه أرسل رجلا إلى منطقة في نواحي أصبهان فأقام هناك يُظهِر الصلاح، ثم أظهر لأهلها أنه قد عمي فمكث مدة على ذلك ثم قال لهم: " إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول: سيرد على هذه البلدة رجل صالح يكون شفاؤك على يديه، وقدم الحلاّج إلى المنطقة، فلزم المسجد وأظهر الصلاح، فجاء الناس إلى الذي ادعى أنّه عمي فقالوا: " قدم رجل فهلُمّ إليه "، فرفع الحلاّج " يديه ودعا الله عزّ وجلّ والناس حضور ...ففتح الرجل عينيه... فضجّ الناس وعظّموا الحلاّج...".(3)

ولمّا ترجم ابن كثير لمحيي الدين ابن عربي أشار إلى بعض مصنّفاته وحذّر منها، كما أشار إلى كثير

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 422، 503.
(2) – المصدر نفسه، ج7، ص 423.
(3) – المصدر نفسه، ج6، ص 183، 185، 186.

من انحرافات ابن سبعين حيث قال: "... واشتغل بعلم الأوائل والفلسفة، فتولّد له من ذلك نوع من الإلحاد وصنّف فيه، وكان يعرف السيميا[1] فكان يُلبِّس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء...". وقال كذلك: "... وجاور في بعض الأوقات بغار حراء يرتجي فيما نقل عنه أن يأتيه فيه وحي كما أتى النبي صلى الله عليه وسلم، بناء على ما يعتقده من العقيدة الفاسدة من أنّ النبوة مكتسبة ... فما حصل له إلاّ الخزي ... وقد كان إذا رأى الطائفين حول البيت يقول عنهم: كأنهم الحمير حول المدار، وأنهم لو طافوا به لكان ذلك أفضل من طوافهم بالبيت...، وقد نُقلت عنه عظائم من الأقوال والأفعال."[2] فتحذير المصنّف من انحرافات هؤلاء الصوفية يُعدّ أمرا إيجابيا.

ويتضح حرص المصنّف على التحذير من "الاتحادية " مما ذكره عن مقتل عثمان الدوكالي[3] حيث قال: "... قامات عليه البيّنة بدعوى الإلهية – لعنه الله – وأشياء أُخر من التنقّص بالأنبياء، ومخالطته أرباب الريب من الباجربقية[4] وغيرهم من الاتحادية عليهم لعائن الله ...، فأُخذ المذكور فضُربت رقبته بدمشق ... ونودي عليه: هذا جزاء من يكون على مذهب الاتحادية."[5] وبيّن ابن كثير تحامل الآمُلّي[6]

---

[1] – السيميا: ضرْب من السحر، يقوم على إحداث مثالات خيالية لا وجود لها في الحس. (أنظر: **مجمع اللغة العربية**، المرجع السابق، ص 332).

[2] – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 205.

[3] – قُتل عام 741هـ/ 1340م في دمشق بعدما عُقد له مجلس حضره القضاة والأعيان وبعض العلماء، ومنهم الذهبي والمِزّي و ابن كثير، وشهد كلّ من الذهبي والمِزّي عليه بالزندقة، كما شهد بذلك زين الدين ابن تيمية. والدكالي: نسبة إلى دكالة: وهي مدينة في بلاد المغرب في النواحي الغربية لمراكش. (أنظر: المصدر نفسه، ج7، ص 553، 554. و محمد بن عبد الله الحِمْيَـري، المصدر السابق، ج1، ص619).

[4] – طائفة ضالة قال عنها ابن كثير: "...المشهور عنهم إنكار الصانع جلّ جلاله...". وتُنسب إلى شمس الدين محمد بن عبد الرحيم بن عمر الباجُربقي المتوفى في دمشق عام 724هـ/ 1324م. والباجُربقي: نسبة إلى باجُربق، وهي قرية في الجزيرة الفُراتية. وقد ذكر الذهبي أنّ الباجُربقي كان " يتنقص الأنبياء ويتفوّه بعظائم." (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 488. وشمس الدين الذهبي، **ذيول العبر**، ج4، ص 70. و ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 313).

[5] – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 553، 554.

[6] – هو كريم الدين أبو القاسم عبد الكريم بن حسن الآملي الصوفي المتوفى في مصر عام710هـ/ 1310م. وآمل: مدينة في إقليم طبرستان. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السير**، الجزء المفقود، ص 419. و ياقوت الحموي، المصدر نفسه، ج1، ص 57).

والبكري[1] الصوفي على تقي الدين ابن تيمية أثناء محنته في القاهرة، وقيامهما في التحريض ضدّه، وهذا يعكس تمسك المصنّف بمنهج أهل الحديث، ويدلّ كذلك على إنصافه.[2]

ويتجلىّ تحذيره من انحرافات الفلاسفة في بعض تعاليقه، كقوله في ترجمة الفارابي: "...وكان يقول بالمَعاد الروحاني لا الجُثماني ...، فعليه إن مات على ذلك لعنة ربّ العالمين." وقوله في ترجمة ابن سينا: "...وقد حصر الغزالي كلامه... ثم ردّ عليه ... في عشرين مجلسا له كفّره في ثلاث"، وذكر ابن كثير منها: "... قوله – أي ابن سينا – أنّ الله لا يعلم الجزئيات."[3]

<u>د- بعض مظاهر تأييد المصنّف لمنهج أهل الحديث:</u>

كلّ ما تقدم ذكره عن مواقف المصنّف من الشيعة والجَهمية والأشاعرة والصوفية يدلّ على تأييده منهج أهل الحديث في مسألة الصفات وغير ذلك، كما تدلّ عليه تعاليق أخرى مثل قوله في ترجمة المتنبي[4]: "... ادعى أنّه نبي...، وزعم أنّه أُنزل عليه قرآن " و" أراد بجهله...أن يقول ما يُشبه كلام ربّ الأرض والسماء الذي لا يُشبهه شيء من الأشياء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله... تعالى الله خالق الأشياء." وأثنى على الوزير ابن هُبيرة[5] – وهو من أهل الحديث – بقوله: "... كان على مذهب السلف في الاعتقاد ...، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة وأبعدهم عن الظلم...". كما قال في ترجمة محمد بن عبد الهادي: "... كان مستقيما على طريقة السلف واتّباع الكتاب والسنة." وأثني على أهل جيلان في

---

(1) – هو الفقيه نور الدين أبو الحسن علي بن يعقوب بن جبريل المصري الشافعي المتوفى عام 724هـ/ 1324م في القاهرة.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **السير**، الجزء المفقود، ص 503).

(2) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 430، 488.

(3) – المصدر نفسه، ج6، ص 271، 440.

(4) – الشاعر الشهير أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن الكوفي الكِنْدي المعروف بالمتنبي، وُلد عام 303هـ/ 915م، مدح بعض ملوك عصره ومنهم سيف الدولة الحمداني، قتله قطاع الطرق عام 354هـ/ 965م أثناء عودته من بلاد فارس إلى العراق. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السير**، ج16، ص 199، 201).

(5) – الوزير " العالم العادل " عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هُبيرة بن سعيد بن الحسن الشيباني الحنبلي، وزر للخليفة المقتفي لأمر الله سنة 544هـ/ 1149م، ثم لابنه المستنجد، وكانت وفاته عام 560هـ/ 1165م. (أنظر: المصدر نفسه، ج20، ص 426).

سياق حديثه عن سعي ملك التتار خَرْبندا للاستيلاء على بلادهم (عام707هـ/ 1307م) حيث قال: "... وهم أهل سُنّة وأكثرهم حنابلة لا يستطيع مبتدع أن يسكن بين أظهرهم."[(1)]

وحرص المصنّف على الترضي عن الصحابة و ذِكر مناقبهم وذمّ سابّيهم. كما حرص على إيضاح فضل أبي بكر وعمر " على سائر الصحابة "، وأكد أنّ فضلهما " لا يخفى إلا على غبيّ."[(2)]

وكان موقفه من بني أُمية وعمالهم معتدلا؛ فقد ذكر – مثلا – في سياق حديثه عن وقعة الحَرّة الحديث: " ليرعُفنّ على منبري جبّار من جبابرة بني أمية فيسيل رعافه."[(3)] ثم بيّن ضعف إسناده؛ حيث ذكر أنّ أحد رواته – وهو علي بن زيد بن جدعان – " في روايته غرابة ونكاره وفيه تشيّع." ومن ناحية أخرى ذكر أنّ عهد يزيد بن مُعاوية قد جرت خلاله حوادث فظيعة " من أنكرها قتل الحسين بن علي بكربلاء." وذمّ أمير العراق عُبَيد الله بن زياد فوصفه بـ "الخبيث "، وهو الذي أرسل الجيش لقتل الحسين ومن معه. وقال ضمن حديثه عن وقعة الحَرّة: "...ثم أباح مُسلم بن عُقبة[(4)] – الذي يقول فيه السلف: مُسرِف بن عُقبة – قبحه الله المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد لا جزاه الله خيرا، وقتل خلقا من أشرافها وقرّائها ...ووقع شرّ عظيم وفساد عريض...".[(5)]

ولم يتأثر ابن كثير في تراجمه لكبار العلماء بمذهبه الفقهي، ويتضح هذا من خلال تراجم كثيرة مثل ترجمة عبد السلام بن سعيد المالكي المعروف بسُحنون، وترجمة أبي جعفر الطحاوي الحنفي، حيث قال عنه: "... صاحب المصنفات المفيدة...، وهو أحد الثقات الأثبات والحفاظ الجهابذة...". وقال في ترجمة الموفق ابن قُدامة الحنبلي: "... أمام عالم بارع، لم يكن في عصره، بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه...".

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 294، 634. و ج7، ص 572، 424.

(2) – المصدر نفسه، ج4، ص 493، 494.

(3) – أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ج 16، ص444.

(4) – الأمير مسلم بن عقبة بن رباح بن أسعد المُري (من بني مُرة، وهم بطن من قبيلة غَطَفان)، وهو أمير الجيش الذي أرسله يزيد لقتال أهل المدينة عام 63هـ/ 683م، توفي سنة 64هـ/ 684م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج2، ص 711).

(5) – عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج4، ص 10، 4. و ج5، ص 68، 8.

فنلاحظ أنّه قدمه على الفقهاء المعاصرين له بما فيهم الشافعية، رغم أنّ المصنف شافعي. كما أثنى على ضياء الدين المقدسي وابن قَيّم الجَوْزية. وحرص على ذِكر تفاصيل مِحن ابن تيمية مع الثناء عليه، حيث قال – مثلا – في حوادث عام 704هـ/ 1304م: "... في رجب منها ... راح الشيخ تقي الدين ابن تيمية إلى مسجد " في دمشق " وأمر أصحابه ومعهم حجّارون بقطع صخرة كانت هناك... تُزار ويُنذَر لها فقطعها وأراح المسلمين منها، ومن الشرك بها...، وبهذا وبأمثاله حسدوه...، وكذلك بكلامه في ابن عربي و أتباعه...، ومع هذا لم تأخذه في الله لومة لائم...، وأكثر ما نالوا منه الحبس، مع أنّه لم ينقطع في بحث لا بمصر ولا بالشام...".[1]

-استنتاج:

لقد عكست مواقف ابن كثير من فِرق الشيعة التزامه بالمنهج السُّني، حيث حرص على إبطال مقالاتهم والتحذير منها والرد على مزاعمهم. وبيّن وضع بعض رواتهم عدة أحاديث و روايات، وتضمنت تعاليقه في هذا كلِّه فوائد كثير. وصرح في مواضع كثيرة بتبديع " الرافِضة " وذمهم واستنكار ما يفعلونه يوم عاشوراء، حيث كان ذمّه لهم شديدا. وعلق بكلام قيّم عند ذكره بعض الحوادث البارزة، مثل استشهاد الحسين و وقعة صِفّين.

ولقد كان ذمه للباطنية الإسماعيلية والقرامطة و النُصَيرية أشد بفعل شدة انحرافهم العقدي والفكري وما ارتكبوه من جرائم كبرى. وبيّن أنّ وجودهم في مصر والشام ساهم في استيلاء الفِرنجة على قسم كبير من بلاد الشام. وأكد أنّ عُبَيد الله المهدي ليس بعَلَوي، وشرح كثيرا من المِحن التي أصابت الأُمة بنشاط الباطنية.

واستنكر ابن كثير ما ارتكبه بعض عوامّ أهل السُّنة في بغداد خلال بعض السنوات كرد فعل على أعمال الشيعة، وهذا مما يدلّ على إنصافه وحرصه على التحذير من الانحرافات. كما أنّه لم يتحامل على

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 28، 220. و ج7، ص 152، 414.

أعلام الشيعة الذين ترجم لهم. وحرص على الدفاع عن الصحابة وذمّ من يشتمهم، وكشف بعض الأخبار الموضوعة المتضمنة الطعن فيهم، وذمّ من يذكرها من القُصّاص. كما حرص على توقير أهل البيت و إنكار انحرافات الناصِبة، بالإضافة إلى تحذيره من انحرافات الخوارج، والتزامه الاعتدال في موقفه من بني أُمية.

ومن أبرز المواقف التي تدلّ على تمسكه بمنهج أهل الحديث تحذيره من مقالات المتكلمين والثناء على من قاوم نشاطهم وردّ عليهم، ولاحظنا في هذا السياق أنّ الجانب العقدي أقوى تأثيرا من الجانب الفقهي، من خلال إيضاح المصنّف تحامل بعض الأشاعرة الشافعية على بعض أعلام أهل الحديث.

ونلمس من خلال مواقف المصنف عدم تأثره بمذهبه الفقهي (الشافعي)؛ إذ لم يُخف مناقب كبار علماء المذاهب الأخرى، بل إنّه قدّم الموفق ابن قُدامة الحنبلي على سائر علماء عصره. ومن ناحية أخرى لم يتأثر بالانتشار الواسع للمذهب الأشعري بين الفقهاء الشافعية خلال (ق7-8هـ/ 13 -14م) بل إنّ تمسكه بعقيدة أهل الحديث ظاهر من خلال مواقفه؛ مثل ثنائه على أهل جيلان (وهم من أهل الحديث) وغالبهم حنابلة.

وقد حذّر في مواقف متفرقة من الاتحادية والفلاسفة. وممّا تقدم ذِكْره يُمكن القول أنّ ابن كثير قد حرص على محاربة كافة العقائد التي تخالف الكتاب والسُّنة، وعلى التزام الإنصاف، و بهذا فإنّ كتابه يُعدّ من أهمّ مصادر التاريخ الإسلامي.

رابعا– كتاب " المختصر في أخبار البشر " :

مُصنّف هذا الكتاب هو المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن نور الدين علي بن تقي الدين محمود بن محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الأيوبي الحَمَوي المعروف بـ " الملك المؤيد"، وهو من الأسرة الأيوبية، ورث حكم حَماة عن آبائه، إذ كانت في أيديهم منذ زمان الدولة الأيوبية. وقد ولي الأمر في حَماة سنة 721هـ/ 1321م حتى وفاته عام 732هـ/ 1331م، وكان مطيعا للسلطان المملوكي محمد بن قلاوون. وصنّف المؤيد عدّة كتب، وكان شافعيا في الجانب الفقهي، أشعريا في جانب العقيدة.(1)

وتطرّق المصنّف في الفصل الأول من كتابه لـ " ذِكر الأنبياء على الترتيب "، ثم تطرّق في الفصول الثاني والثالث والرابع والخامس لذِكر تاريخ ملوك بعض الحضارات القديمة، وانتقل بعد ذلك إلى " التاريخ الإسلامي"، حيث تطرّق لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وتاريخ الخلافة الراشدة، ثم انتقل إلى أخبار خلفاء بني أُمية، حيث ذكر أبرز الحوادث التي وقعت خلال عهد كل منهم، ثم انتقل إلى أخبار الخلفاء العباسيين والسلاطين البُويهيين والسلاجقة والأيوبيين، مع إشارته إلى أبرز الحوادث الواقعة في بلاد المغرب والأندلس وخُراسان وما وراء النهر. ثم ذكر أخبار سلاطين المماليك خلال القرن السابع الهجري (ق13م) وأوائل (ق8هـ/ 14م). والتزم في تاريخه الاختصار، ولم يترجم لكثير من المشاهير. وقد توسع في النقل من " الكامل في التاريخ" لابن الأثير(2). ونُبرز مظاهر تأثر كتابه بالنّزعة المذهبية في العناصر التالية:

–أ–مواقف المصنّف من الشيعة و الناصبة:

لقد لاحظنا من خلال اطلاعنا على " المختصر" قلّة تعليق المصنف على عقائد وأعمال الشيعة كما أنّه نقل بعض ما وضعه رواة من الشيعة دون تعليق؛ فذكر – على سبيل المثال – حديثا

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 526. و أبو الفدا الأيوبي، **المختصر في أخبار البشر**، ج4، ط1، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة – مصر، د ت، ص 52.

(2) – أبو الفدا الأيوبي، المصدر نفسه، ج1، ص 8، 109. و ج3، ص 154.

موضوعا[1] فيه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي (رضي الله عنه): " إنّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا." ولم نجد هنا تعليقا للمصنّف، في حين أكد المحققون أنّ هذا الحديث لا يصحّ.[2] وذكر في سياق حديثه عن بيعة أبي بكر (رضي الله عنه) خبرا نقله ابن عبد ربّه[3] ومضمونه أنّ رجالا من بني هاشم وغيرهم امتنعوا من مبايعة أبي بكر، واجتمعوا في بيت علي بن أبي طالب، فأقبل عمر بن الخطاب " بشيء من نار على أن يُضرم الدار، فلقيته فاطمة رضي الله عنها وقالت: إلى أين يا ابن الخطاب؟ أجِئت لتحرق دارنا؟ قال: نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة." ولم يعلق أبو الفدا على هذا الخبر المكذوب؛ وممّا يدلّ على عدم صحته أنّ ابن عبد ربّه ذكره دون إسناد.[4]

وذكر المصنّف في حديثه عن بداية سعي جماعة من أهل الكوفة للخروج على عثمان أنّ نفرا من الصحابة قد حرّضوا على الخروج على الخليفة، كما ذكر أنّ عائشة (رضي الله عنها) كانت تحرض ضده.[5] وهذا كلّه لم يصح كما أوضحنا فيما تقدم.

ونجد نماذج قليلة نبّه فيها بإيجاز إلى انحرافات الشيعة؛ حيث قال في ترجمة الحسن العسكري: "... وهو أحد الأئمة الإثني عشر على مذهب الإمامية، وهو والد محمد المُنتظر من سِرداب سُرّ من رأى على زعمهم ...". وقال عن محمد بن عثمان السمان[6]: "... رئيس الإمامية، وكان يدّعي أنّه الباب إلى الإمام المُنتظر...". وذكر أنّ ابن العَلْقمي " كان رافضيا " وأنّه كاتب التتار " وأطمعهم في البلاد... وأرسل ...

---

[1] – ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**، ج10، ص 612.

[2] – عبد الرحمان ابن الجوزي، **الموضوعات**، ج1، ص 347.

[3] – هو أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربّه القُرطبي الأندلسي الأديب، توفي عام 328هـ/ 940م، وهو مُصنّف كتاب " العِقد الفريد" المتضمن كثيرا من المعارف والآداب. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العبر**، ج2، ص 29. وعماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج6، ص 238).

[4] – أبو الفدا الأيوبي، المصدر السابق، ج1، ص 117، 157. و ابن عبد ربه، **العِقد الفريد**، ج5، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1404هـ/ 1983م، ص13.

[5] – أبو الفدا الأيوبي، المصدر نفسه، ج1، ص 168.

[6] – هو شيخ الإمامية محمد بن عثمان المعروف بأبي جعفر السمان، توفي عام 305هـ/ 917م. (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 69).

أخاه يستدعيهم، فساروا قاصدين بغداد في جحفل عظيم ...، وخرج ...ابن العَلقمي إلى هولاكو فتوثق منه لنفسه...". كما ذكر المصنف أنّ ابن أبي العزاقر الشلمغاني قد "أحدث مذهبا مداره على" الحُلول " والتناسخ والتشيع ... وكان أصحابه يعتقدون فيه الإلهية ...، فمن مذهبه لعنه الله أنّ الله يحلّ في كلّ شيء على قدر ما يحتمله ذلك الشيء...".[1]

ولم يعلق أبو الفدا على معظم ما ذكره من أخبار متعلقة بالشيعة، والأمثلة على هذا كثيرة؛ فقد ذكر – مثلا – أنّ شيعة بغداد قد صرحوا بلعن الصحابة سنة 351هـ/ 962م، وأنّ مُعزّ الدولة البُويهي لم يُنكر ذلك بل حرّض عليه. وذكر أنّ هذا الأخير أمر في عاشر المحرّم من سنة 352هـ/ 963م أن يغلق الناس دكاكينهم (في بغداد)، وأن تخرج النساء " منشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما...". وشرح خروج البساسيري الشيعي على الخليفة العباسي القائم (سنة450هـ/ 1058م) و إقامته الخطبة ببغداد للمستنصر صاحب مصر. ولم يُعلّق المصنّف على أخبار أخرى متعلقة بالشيعة.[2] وهذا من الفروق بين كتابه وكتب الذهبي وابن كثير.

وقد صرح في سياق شرحه بعض الأحداث بذمّ الباطنية؛ فذكر أنّ الذين استجابوا لدعوة القرامطة " ليس لهم عقل ولا دين"، وقال لمّا أشار إلى أسر زكرويه (294هـ/ 907م): "...وأُسر...الملعون مجروحا، فبقي ستة أيام ومات". كما ذكر أنّ الحسن بن الصباح انتقل إلى جهة قلعة ألموت " فاستغوى" أهلها وملكها. وقال عن النُّصَيري الذي تزعم حركة النُّصَيرية في جبلة سنة717هـ/ 1317م: "...فاتبع هذا...الملعون من النُّصَيرية جماعة كثيرة...، وهجم مدينة جَبَلة في يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي الحجة، والناس في صلاة الجمعة...، وجرد إليه عسكر من طرابلس...، فتتبع وقتل لعنه الله".[3]

وفي مواضع أخرى لم يُعلّق على أعمال الباطنية التي ذكرها، مثل مهاجمة أبي طاهر القرمطي قافلة

---

(1) – أبو الفدا الأيوبي، المصدر السابق، ج2، ص 49، 69، 80، 81. و ج3، ص 193، 194.
(2) – المصدر نفسه، ج2، ص 104، 178.
(3) – المصدر نفسه، ج2، ص 55، 61، 214. و ج4، ص 83.

حجاج العراق (312هـ/ 924م)، ومهاجمته الحجاج في مكة (317هـ/ 929م) و" قتلهم في المسجد الحرام " ونهب أموالهم.[1]

وتجدر الإشارة إلى تنبيهه إلى انحراف الناصِبة؛ حيث ذمّ عبد الرحمان بن مُلجم، وذمّ الشاعر عِمران بن حِطان بن ظبيان البصري الخارجي (ت84هـ/ 703م) الذي رثى ابن مُلجم وعُرف ببغضه لعلي (رضي الله عنه). ونوّه المصنّف بإبطال عمر بن عبد العزيز عند توليه الخلافة (سنة99هـ/ 718م) ما كان يُذكر على المنابر من سبّ لعلي بن أبي طالب. كما قال عن قتلة الحسين: "...وانتقم الله للحسين بالمختار" (المختار الثقفي المعروف بالكذاب) " و إن لم تكن نية المختار جميلة." وأشار إلى مانُقل عن المتوكل من النَّصْب ثم قال: "... فغطى ذمّه لعلي على حسناته، و إلاّ فكان من أحسن الخلفاء سيرة".[2]

وأثنى على أعلام أهل البيت؛ فذكر – مثلا – بعض فضائل علي (رضي الله عنه)، وأشار إلى ضلال الخوارج الذين حاربوه. ونقل بعض فضائل الحسن والحسين. وكان أبو الفدا معتدلا في موقفه من بني أُمية فقال – على سبيل المثال – عن مُعاوية: "... كان حليما حازما." وقال عن سليمان بن عبد الملك: "... وكان حسن السيرة." ومن ناحية أخرى أشار إلى وُجد في زمان بني أُمية من سبّ للخليفة الراشد علي، ونوّه بمنع عمر بن عبد العزيز ذلك. كما أشار إلى ما جرى في المدينة من أمور شنيعة بعد وقعة الحَرّة (63هـ/ 683م).[3]

ب- مواقف المصنّف من أهل الكلام والفلاسفة:

لم يعلق أبو الفدا على معظم ما ذكره من أخبار متعلقة بالمعتزلة، ومنها إظهار المأمون القول بخلق القرآن (212 هـ/ 827م)، وامتحانه العلماء بذلك (218هـ/ 833م)، ومنها تعذيب المعتصم لأحمد بن حنبل لمّا امتنع عن القول بخلق القرآن، ومواصلة الواثق امتحان الناس و إلزامهم بمقالة المعتزلة. لكن

[1] – أبو الفدا الأيوبي، المصدر السابق، ج2، ص72، 74.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص180، 201، 195. و ج2، ص38.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص 178، 181، 183، 188، 200، 201، 192.

المُصنِّف أثنى على المتوكل لرفعه المحنة.[1]

ولقد تأثر المصنّف بالعقيدة الأشعرية، حيث تحامل على أهل الحديث في عدة مواضع من كتابه فنقل كلام ابن الأثير عن المنشور الذي أصدره الخليفة الراضي (سنة323هـ/ 955م) المتضمن افتراءات شنيعة على أهل الحديث كما أوضحنا من قبل، ثم علق أبو الفدا بما يدلّ على إثباته لتلك الافتراءات خاصة اتهامه لأهل الحديث بالتشبيه.[2] وذلك اتهام باطل؛ فأصول منهج أهل الحديث تدلّ على تمسكهم بتنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، فمفهوم التشبيه عندهم مأخوذ من قول الله عزّ وجلّ: " ليس كمثله شيء وهو السميع البصير."[3]

واتهم أبو الفدا تقي الدين ابن تيمية – عند إشارته إلى سجنه بالجُبّ – بالتجسيم[4]، فافترى عليه بذلك متأثرا بخلفيته المذهبية الأشعرية، وبما أذاعه بعض أعيان الأشاعرة عن ابن تيمية من أخبار غير صحيحة، فمصنّفات ابن تيمية الكثيرة تؤكد تمسكه بمنهج أهل الحديث وتُبَرِّؤه من التجسيم؛ فمن أقواله التي تدلّ على براءته مما اتهم به قوله: "... كنت سئلت من مدة طويلة بعيد سنة تسعين وستمائة عن الآيات والأحاديث الواردة في صفات الله...، فكتبت الجواب ... وذكرت فيه مذهب السلف والأئمة المبني على الكتاب والسُّنة، المطابق لفطرة الله التي فطر الناس عليها، و لِما يُعلَم بالأدلة العقلية...، وبنيت ما يجب من مخالفة الجَهمية... ومن قابلهم من المشبّهة...؛ إذ مذهب السلف والأئمة أن يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف...، ومن غير ...تمثيل...". وقال عن الجَهمية: "...وذلك أنّ النُّفاة كثيرا ما يصفون أهل الإثبات بالتشبيه والتجسيم." وقال أيضا: "...الناس متنازعون في إثبات الصفات لله: فأهل السُّنة يُثبتون الصفات لله...، وأمّا الجَهمية وغيرهم كالمعتزلة... فإنّهم ينفون

(1) – أبو الفدا الأيوبي، المصدر السابق، ج2، ص 29، 30، 33، 36، 38.
(2) – المصدر نفسه، ج2، ص 82.
(3) – خالد كبير علال، الأزمة العقيدية، ص 155.
(4) – أبو الفدا الأيوبي، المصدر نفسه، ج4، ص 52.

الصفات عن الله تعالى ويقولون: إنّ إثباتها تجسيم وتشبيه." كما قال عن أهل الحديث: "...يُثبتون لله ما أثبته من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات...، ومن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه...". وقال كذلك: "...وقد ذكرنا فيما تقدم أنّ نفي المماثلة بين الخالق والمخلوق ممّا علم بالشرع والعقل...". ثم ذكر أنّ السلف كانوا " يُنكرون على المُشبِّهة " وعلى الجَهمية.[1]

ولمّا تطرق أبو الفدا للفتنة التي وقعت في خُراسان بين فخر الدين الرازي وبين الكرامية (سنة 595هـ/ 1198م) التزم في ذلك الحياد، لكننا لاحظنا أنّه وظف مصطلح " شافعي" وقصد به الاعتقاد الأشعري[2]. وذلك بسبب الانتشار الواسع للعقيدة الأشعرية بين الفقهاء الشافعية خلال (ق7 -8هـ/ 13 -14م)، ولذلك نشير إلى ضرورة التدقيق في توظيف المصطلحات.

وأشار إلى انحرافات بعض الفلاسفة، حيث ذكر أنّ الغزالي " كفّر...ابن سينا ...وكفّر أبا نصْر الفارابي." وقال في ترجمة أبي العلاء المَعَرّي:"...ونُقلت عنه أشعار وأقوال عُلم بها فساد عقيدته...، وكان يُظهر الكُفر ويزعم أنّ لقوله باطنا وأنه مسلم في الباطن، فمن شعره المؤذن بفساد عقيدته:..."، ثم ذكر أبياتا للمَعَرّي في الاستهزاء بالإسلام وأهله. كما قال المصنف عن الفيلسوف عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر البغدادي(ت 611هـ/ 1214م): "...كان يتهم بمذهب الفلاسفة...". وذكر أنّ شهاب الدين السُّهروردي الفيلسوف قد قُتل في حلب (سنة 587هـ/1191م) بسبب " ما ظهر من سوء مذهبه."[3]

-استنتاج:

نستنتج ممّا تقدم ذِكره في هذا المبحث أنّ تعاليق أبي الفدا على ما ذكره من أخبار متعلقة بالشيعة كانت قليلة، وهذا ما نجده كذلك في " الكامل " لابن الأثير. وأشار أبو الفدا في مواضع قليلة إلى بعض

---

[1] - تقي الدين ابن تيمية، **بيان تلبيس الجَهمية**، ج1، ص 4، 5، 289. و ج3، ص 561. **ومنهاج السنة النبوية**، ج2، ص 111، 164.

[2] - أبو الفدا الأيوبي، المصدر السابق، ج3، ص 96، 97.

[3] - المصدر نفسه، ج 2، ص 161، 176، 177. و ج3، ص 81، 116.

انحرافات الشيعة.

وأثنى على كبار أعلام أهل البيت وأشار إلى انحراف الناصبة، وكان موقفه من بني أُمية معتدلا وهذه عناصر إيجابية. ولم يتعرض لذِكر الخلاف بين أهل الحديث والأشاعرة إلاّ في مواضع قليلة، حيث تحامل فيها على أهل الحديث. أمّا الأخبار المتعلقة بالمعتزلة فإنّه لم يُعلّق عليها في الغالب.

خامسا– كتاب " تتمة المختصر في أخبار البشر" لابن الوردي:

مؤلِّف هذا الكتاب هو الفقيه الأديب الشاعر المؤرخ زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المَعَرِّي، وُلد عام 691هـ/ 1292م، صنّف عدّة كتب في الفقه والنحو و نظم عدة قصائد، كما صنف كتاب " تتمة المختصر في أخبار البشر" اختصر به كتاب " المختصر في أخبار البشر"، وأضاف في مواضع كثيرة أخبار وتعاليق، حيث افتتح إضافاته بلفظ " قلت" واختتمها بعبارة " والله أعلم". ثم ذيّل على " المختصر" بتأريخه للفترة الممتدة بين عامي (709 – 749هـ) (1309– 1348م). وتوفي ابن الوردي سنة 749هـ/ 1348م، و كان شافعيا في الجانب الفقهي، أمّا في الجانب العقدي، فإن بعض تعاليقه تدل على ميله إلى المذهب الأشعري[1]. ونوضح مدى تأثر كتابه الموجز بالنّزعة المذهبية في العناصر الآتية:

–أ– مواقف المصنّف من الشيعة و الناصبة:

لقد اشتمل اختصار ابن الوردي لتاريخ أبي الفدا إضافات تدل على استنكاره لعقائد وأعمال الشيعة فقد أشار إلى تآمر ابن العَلْقمي مع التتار حيث قال: "... وجاء بجيوش سلبت عنه النعمة...، وسفكت دماء الشيعة والسنة، وخلدت عليه العار واللعنة." ثم هجاه فقال:

وأتى الخائن الخبيث بمغلٍ   طبق الأرض بغيهم تطبيقا

[1] – خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج5، ص67. و زين الدين ابن الوردي، **تتمّة المختصر**، ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1417هـ/ 1996م، ص3. و ج2، ص 309.

هكذا ينصر الجَهول أخاه ومن البر ما يكون عقوقا.

وقال أيضا: "...مات غمّا وغُبنا لا رحمه الله." وأشار إلى تبنّي ملك التتار خَرْبندا عقائد الإثني عشرية فقال: "...أقام سنة في أول ملكه سُنّيا ثم ترفّض إلى أن مات، وجرت فتن في بلاده بسبب ذلك...، وفرح المسلمون بموته...، فلقد كان أهل السُّنة به في غمّ شديد...". كما هجا المصنّف أحد دعاة الإثني عشرية فقال:

وقام لنصر مذهبه عظيما وحدد ظفره و أطال نابه.

تبارك من أراح الدين منه وخلّص منه أعراض الصحابة.

وأشار إلى مقتل رجل في دمشق عام 744هـ/ 1343م بسبب " سبّه الصحابة وقذفه عائشة رضي الله عنهم "، حيث ذمّه المصنّف.[(1)]

وصرّح بذمّ الباطنية عند ذكره بعض أعمالهم؛ حيث قال بعدما ذكر مهاجمة أبي طاهر القرمطي الحجاج في مكة وأخذه الحجر الأسود إلى هَجَر: "...فعليه لعنة الله." وأكد أنّ القرامطة صدر منهم " ما لم يصدر من الكفار"، ونقل ذمّ غيره لهم. كما قال إثر تطرّقه لفشل حركة النُّصَيرية في جَبَلة (717هـ/ 1317م): "...فكسرهم عسكر المسلمين وقتل مقدمهم وخلقا منهم، و مزّقهم الله كل مُمزَّق فللّه الحمد."[(2)]

وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن الوردي قد حذف في حديثه عن بيعة أبي بكر الصديق الخبر المكذوب الذي ذكره أبو الفدا، والمتضمن سعي عمر بن الخطاب لإحراق بيت فاطمة، وأنّ جماعة من الصحابة قد اجتمعوا فيه وامتنعوا من البيعة، فهذا الحذف يُعدّ عنصرا إيجابيا. بالإضافة إلى إعظامه قتل عثمان (رضي الله عنه)، وثنائه على الصحابة، مثل قوله: "...وأفضلهم العشرة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ... والمهاجرون أفضل من الأنصار على الإجمال، وأمّا على التفصيل فسُبّاق الأنصار أفضل من مُتأخري المهاجرين". وأشار في إضافاته إلى بعض فضائل أعلام أهل البيت، واستنكر موقف الناصبة منهم، حيث

---

(1) – زين الدين ابن الوردي، المصدر السابق، ج2، ص 190، 195، 256، 314، 327.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص 252، 233، 258.

ذمّ ابن مُلجم، ونقل أبياتا في هجائه. وتأسّف مما نقل عن المتوكل من النَّصْب ونظم أبياتا في ذلك.[1]

-ب- مواقف المصنّف من الصوفية وأهل الكلام:

تدلّ إضافات المصنّف على تاريخ أبي الفدا على تأثره بالصوفية؛ إذْ نقل عدة أخبار مكذوبة يعتبرها كثير من الصوفية كرامات لبعض الأعلام؛ حيث نقل – مثلا – في ترجمة عدي بن مسافر الهكاري أنّ خادما له قال: "...خدمته سبع سنين، وشهدت له خارقات إحداها أنّي صببت على يديه يوما ماء فقال لي: ما تريد؟ فقلت: أريد تلاوة القرآن فإنّي لا أحفظ منه سوى الفاتحة وسورة الإخلاص، وحفظه عليَّ عسير جدا، فضرب بيده على صدري فحفظت القرآن كلّه في وقتي. وقلت له يوما: يا سيدي أرني شيئا من المُغيَّبات، فأعطاني منديله وقال: ضعه على وجهك فوضعته، ثم قال لي: ارفعه فرفعته، فرأيت الملائكة الكاتبين ورأيت ما يسطرونه من أعمال الخلائق ...". ونقل أنّ هذا الخادم قال أيضا: "... ووصف لي يوما " أحد شيوخه " فأطنب في ذِكره فقلت: يا سيدي هل لك أن ترينيه؟ فأعطاني مرآة وأمرني أن أنظر فيها، فنظرت شخصي ثم توارى عني شخصي وظهر لي شخص أراه ولا يخفى عني من وجهه شيء، فقال لي الشيخ عدي: تأدّب فإنه الشيخ " الذي تريد " ودمت ساعة طويلة أنظر كذلك ثم توارى عني وظهر لي شخصي."[2] فإضافة المصنف لهذه الخرافات على ما أورده أبو الفدا في ترجمة الهكاري تدل على إقراره لها.

كما نقل بعض الأخبار التي لفقها بعض الصوفية ونسبوها إلى عبد القادر الجِيلي؛ فمنها أنّ رجلا حضر مجلسا للجِيلي فرفع الرجل "رأسه إلى الهواء فشخص ساعة ثم غشي عليه واحترقت طاقيته " فسئل " ما أغشاه ؟ فقال: لمّا نظرت إلى الهواء رأيت رجالا واقفين مطرقين منصتين إلى لكلامه، وقد ملأوا الأفق وفي لباسهم وثيابهم النار...". ومنها أنّ الجيلي " كان كثيرا ما يخطو في الهواء في مجلسه

---

(1) – أبو الفدا الأيوبي، المصدر السابق، ج1، ص 133، 134، 109، 164، 217.

(2) – المصدر نفسه، ج2، ص 65.

على رؤوس الناس خطوات ثم يرجع إلى الكرسي...". وذكر أنّ ابن الهيتي[1] أحد من يُسمّيهم بعض صوفية العراق بـ " البرَوة على معنى أنهم يُبرؤون الأكمه والأبرص..."، ونقل ما مضمونه أنّ ابن الهيتي كان يعلم الغيب، وقال المصنّف في آخر ذلك: " وكراماته كثيرة مشهورة."[2] أي أنّه يُقِرّ هذه الخرافات ويَعُدّها كرامات.

ونقل في ترجمة محمد البالِسي[3] كلاما وُضع على لسان هذا الأخير؛ حيث ذكر أنّ رجلا من أهل دمشق قال: " صحبت الشيخ أحمد المذكور من دمشق قاصدين ... بزاعا[4]، فلما كنا تحت جبل لبنان ... قلت للشيخ: يا سيدي يقولون إنّ في هذا الجبل أولياء لله تعالى؟ فقال: نعم، فقلت: يا سيدي لو أريتني منهم أحدا، و إذا رجل في الهواء أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول: السلام عليك يا شيخ محمد ...". وذكر ابن الوردي في ترجمة أحد شيوخ الصوفية أنّ زائرا قدم إليه فسلّم عليه فلم يرد الشيخ، فأنكر الزائر ذلك في نفسه، " فمد الشيخ ... أصبعه يسيرا فسالت عين " الزائر " على خده ...، ثم رأوه بعد سنين بمكة صحيح العينين "، فسُئل فقال: " كنت في سماع ببلدنا وفيه رجل من مُريدي " الشيخ " فوضع يده على عيني فرُدت صحيحة...". ونجد في " تاريخ ابن الوردي " نماذج أخرى من هذه الأباطيل.[5]

وممّا يدلّ على تأثره بالتصوف موقفه من علي بن أبي الحسن الحريري الصوفي، حيث ذكر أنّه قال: " لو دخل مريدي بلد الروم وتنصّر واكل لحم الخنزير وشرب الخمر كان في شُغلي، و ... لو ذبحت بيدي سبعين نبيا ما اعتقدت أنّي مخطئ." ومع هذا قال عنه ابن الوردي: " ...وهو إلى الآن بين قوم

---

(1) – هو أبو الحسن علي بن أبي نصْر ابن الهيتي الصوفي المتوفّى عام 564هـ/ 1168م. وهيت: بلدة في العراق من نواحي بغداد. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 325. وياقوت الحموي، المصدر السابق، ج5، ص 421).

(2) – زين الدين ابن الوردي، المصدر السابق، ج2، ص 69، 70، 72، 73.

(3) – هو الزاهد أبو عبد الله محمد بن عمر بن أبي بكر بن قوام البالِسي، ولد عام 665هـ/ 1266م ببالِس، وكانت وفاته في دمشق عام 718هـ/ 1318م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 466. وياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج1، ص 328).

(4) – بزاعا: بلدة من نواحي حلب. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج1، ص409).

(5) – زين الدين ابن الوردي، المصدر نفسه، ج2، ص 93، 259.

منكرين عليه، وقوم مائلين إليه، والتوقف هنا أسلم."[1]

لكنّ المصنّف بيّن انحراف مُعتقِدي وحدة الوجود؛ فقال في حوادث عام 744هـ/1343م: " .... وفيها مزّقنا كتاب " فُصوص الحِكَم " ...بحلب...، وهو من تصانيف ابن عربي تنبيها على تحريم قُنيته ومطالعته...قلت فيه: هذي فُصوص الحِكَم لم تكن بنفيسة في نفسها

أنا قد رأيت نقوشها فصوابها في عكسها.[2]

ورغم تأثره بالمذهب الأشعري فإنّه أثنى على كثير من أعلام أهل الحديث، وهذا إنصاف منه؛ فقد أثنى – مثلا- على الفقيه شمس الدين محمد بن مسلم الدمشقي (سبق ذكره) فوصفه بـ " الإمام الزاهد" وقال: "...ومناقبه كثيرة." وقال عن شرف الدين ابن تيمية: "...ومناقبه جمّة وعلومه كثيرة، بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأصول، حسن العبارة، قوي في دينه، مليح البحث صحيح الذهن، مستحضر لتراجم السَّلَف...، ملازم لأنواع الخير وتعليم العلم...زاهد شريف النفس..." وأثنى على تقي الدين ابن تيمية، و رثاه بقصيدة طويلة أشار فيها إلى المِحن التي تعرض لها، فمن أبيات هذه القصيدة:

" عثا في عرضه قوم سِلاط لهم في نثر جوهره التقاط

توفي وهو محبوس فريد وليس له إلى الدنيا انبساط

فتى في علمه أضحى فريدا وحل المشكلات به يُناط

هم حسدوه لما لم ينالوا مناقبه فقد مكروا وشاطوا

بنو تيمية كانوا فبانوا نجوم العلم أدركها انهباط."

ونقل المصنّف ثناء الذهبي على ابن تيمية، وأطال ترجمته خلاف معظم التراجم فإنّه اختصرها. كما وصف عبد الغني المقدسي بـ " الحافظ الكبير."[3]

---

[1] – زين الدين ابن الوردي، المصدر السابق، ج2، ص 174.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 325.

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص 255، 271، 272، 275، 276، 277، 288.

ولم يتأثر المصنّف بمذهبه الفقهي (الشافعي)؛ إذْ لم يتحامل على فقهاء المذاهب الأخرى. ولم يمتعض لما ذكر بداية تعدد القضاة (سنة 663هـ/ 1264م) بتعيين الملك الظاهر بَيْبرس قاضيا من كلّ مذهب بعدما كان القضاء بمصر في يد الشافعية منذ فترة طويلة.[1]

-استنتاج:

لقد استنكر المصنّف في مواضع كثيرة من كتابه عقائد وأعمال الشيعة واستغل موهبته الشعرية في هجاء بعض أعلامهم و إيضاح انحرافاتهم. و رغم كونه متأثرا بالمذهب الأشعري إلاّ أنّه أثنى على كثير من علماء أهل الحديث وهذا من مظاهر الإنصاف. كما لم يتحامل على الفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي. لكنّه تأثر بالتصوف فنقل كثيرا من الأكاذيب التي لفقها بعض الصوفية و زعموا أنّها كرامات.

سادسا- كتاب " ذيل مرآة الزمان":

مصنّف هذا الكتاب هو المحدث المؤرخ قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد اليونيني(ت 726هـ/ 1326م). ويونين: قرية من أعمال بعلبك. وُلد سنة 640هـ/ 1242م، وسمع الحديث في بعض مدن الشام وفي مصر، وألّف تاريخا ذيل به على " مرآة الزمان" ورتّبه حسب السنين، حيث يذكر حوادث السنة ووفياتها ثم ينتقل إلى سنة أخرى. وافتتح تاريخه بأحداث سنة 654هـ/ 1256م، ولم نتمكن من الحصول على كافة أجزاء الكتاب، فآخر سنة في الأجزاء التي اطلعنا عليها هي سنة 686هـ/ 1287م. ومذهب قُطب الدين في الفقه هو المذهب الحنبلي، أمّا في العقيدة فنرى من خلال ما اطلعنا عليه أنّه كان من أهل الحديث[2]. ونلخص أثر النّزعة المذهبية على كتابه فيما يلي:

---

(1) – زين الدين ابن الوردي، المصدر السابق، ج 2، ص 211.

(2) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 498. و قُطب الدين اليونيني، **ذيل مرآة الزمان**، ج4، ط2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر، 1413هـ/ 1992م، ص 333. و ج3، ص 189.

-أ- مواقف المصنّف من الشيعة:

يتجلّى تحذير المصنّف من عقائد وأعمال الشيعة في بعض ما أورده في كتابه مثل إيضاحه تآمر الوزير ابن العَلْقمي، حيث قال عن سنة 656هـ/ 1258م: "...وفيها استولى التتار على بغداد بمكيدة دبرت مع وزير الخليفة قبل ذلك، وآل الأمر إلى هلاك الخليفة وأرباب دولته، وقتل معظم أهل بغداد...". وذكر أنّ ابن العَلْقمي " كان رافضيا"، وأنّه أشار على المستعصم " بقطع أكثر الجُند "، ثم كاتب التتار وأطمعهم في البلاد، وطلب منهم أن يكون نائبا لهم على العراق فوعدوه بذلك. وذكر أنّه خرج إلى هولاكو لما حاصر بغداد " وتوثّق منه لنفسه "، ثم رجع إلى الخليفة و أوهمه أنّ الصلح سيتمّ مع التتار. وقال المصنف أيضا: "... وأمّا الوزير ابن العَلْقمي " فمات " بعد مدة يسيرة ولقاه الله ما فعله بالمسلمين، ورأى قبل موته في نفسه العِبر والهوان والذل الذي لا يُعَبر عنه...، فمات كمدا وندم حيث لا ينفعه الندم..."[1].

ونقل في سياق حديثه عن احتراق المسجد النبوي سنة 654هـ/ 1256م أبياتا لبعض الشعراء في هجاء غُلاة الشيعة. كما قال عن الشاعر عزّ الدين أبي العباس أحمد بن علي بن معقل بن أبي العلاء الحِمْصي (ت644هـ/ 1246م): "...كان شاعرا مقتدرا على النظم... غاليا في التشيع، وله ديوان يختص بمدح أهل البيت عليهم السلام، لكنّه قد حشاه بثَلْب الصحابة رضي الله عنهم والتعريض بهم والتصريح في بعض القصائد...". وقال – لما نقل إحدى هذه القصائد- : " ... دسّ فيها العظائم على عادته من ثَلْب الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين." وقال اليونيني في ترجمة شاعر آخر: "... وكان من المُغالين في مذهب الشيعة." وأثنى على عزّ الدين العلوي[2] الذي منع أحد غُلاة الشيعة في حلب من سبّ الصحابة.[3]

[1] – قُطب الدين اليونيني، المصدر السابق، ج1، ص ص 85، 91.

[2] – هو أبو الفتوح عز الدين أحمد بن محمد بن جعفر بن زيد بن جعفر بن زيد العلوي القرشي الحلبي المتوفى عام 653هـ/ 1255م، وكان أحد أعيان حلب. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 749).

[3] – قُطب الدين اليونيني، المصدر نفسه، ج1، ص 11. و ج3، ص11، 13، 219، 440.

ولم يجعل كلّ أعلام الشيعة الذين ترجم لهم في منزلة واحدة؛ حيث ذكر أنّ بعضهم لم يُعرف عنه سبّ الصحابة، وهذا إنصاف منه؛ فقد قال – مثلا – في ترجمة أبي عبد الله الحسين بن علي بن ماهد العلوي(توفي في بعلبك سنة 670هـ/ 1271م): "...كان من أعيان الأشراف...، وكان عنده تشيّع... ولكن لم يُسمع منه كلمة تُؤخذ عليه، وكان يُعَظم الصحابة رضوان الله عليهم ويترضى عنهم ويذمّ من يسلك غير ذلك...". وقال بشأن بدر الدين الآمِدي[1]: "...وكان ليّن الكلمة كثير الرفق ....، وكان عنده تشيّع، لكنّه لم يُسمع منه ما يُؤخذ عليه...". وأشار في ترجمة حسام الدين لُؤلؤ[2] إلى أنّه " كان شيعيا مُتغاليا في التشيع داعية إليه." وقال من ناحية أخرى: "...وكنت اسمعه إذا ذكر أحدا من الصحابة رضي الله عنهم يترضى عنه ويذكره بأجمل ذِكر...".[3]

ونظرا لكون الفترة (654 –686هـ)(1256–1287م) لم تشهد نشاطا بارزا من الباطنية، فإنّ المصنّف قد اكتفى بذِكر أخبارهم موجزة، ولم يتطرق لذِكر عقيدتهم.[4]

<u>–ب– مواقف المصنّف من الصوفية وأهل الكلام:</u>

يدلّ تاريخ قطب الدين اليونيني على تأثره بالتصوف؛ فقد نقل في بعض التراجم كثيرا من مزاعم الصوفية واعتبرها كرامات؛ حيث ذكر – على سبيل المثال– ضمن ترجمة عيسى اليونيني[5] أنّ رجلا من إحدى قرى الشام قال: "...كانت الدودة قد ركبت أشجار التفاح عندنا...فشكونا ذلك إلى الشيخ عيسى... وسألناه أن يكتب لنا حرزا، فأعطانا ورقة مطوية صورة حرز... علقناها على بعض الأشجار فزالت الدودة

---

(1) – هو أبو الفضل بدر الدين جعفر بن محمد بن علي الآمِدي، قدم دمشق خلال عهد السلطان محمد الكامل الأيوبي، ولي بعض الوظائف السلطانية، وكانت وفاته عام 675هـ/ 1276م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 289).

(2) – هو حسام الدين لُؤلؤ بن عبد الله، ولي بعض الوظائف السلطانية في دمشق وغيرها، توفي 678هـ/ 1279م في دمشق.(أنظر: المصدر نفسه، ج15، ص 365).

(3) – قُطب الدين اليونيني، المصدر السابق، ج 2، ص 478. و ج3، ص 191. و ج4، ص32.

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص 173. و ج2، ص 88، 114، 154.

(5) – هو عيسى بن محمد بن إلياس بن أحمد بن خليل اليونيني المتوفى عام 654هـ/ 1256م في قرية يونين. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج14، ص 760. و قطب الدين اليونيني، المصدر نفسه، ج1، ص24).

... وأخصبت أشجار التفاح... وحملت حملا مُفرطا. وبقينا على ذلك سنين " ثم فتحنا الحرز " فندمنا على فتحه... وأعدناه إلى مكانه، فجاءت الدودة و ركبت الأشجار...". ونقل في الترجمة نفسها ادعاءات أخرى. كما نجد ذلك في ترجمة أبي بكر بن قوّام البالِسي (سبق ذكره)، حيث نقل من كتاب صُنّف في سيرة البالِسي مزاعم كثيرة لُفِّقت ونُسبت إليه، منها أنّ البالِسي كانت أمّه ضريرة فاستأذن شيخه في المُضيّ إلى خدمتها، فقال له الشيخ: "... إنه سيحدث لك في هذه الليلة أمر عجيب فاثبت له." فلمّا سار إلى أمّه سمع " صوتا من جهة السماء " فرفع رأسه " فإذا نور كأنه سلسلة متداخل بعضه في بعض...". ومنها أنّ رجلا من بلاد الهند قصد زيارة البالِسي، فزُويت له الأرض، فقطع المسافة من الهند إلى الشام ببضع خطوات وأنّه لمّا أراد العودة إلى بلاده خرج البالِسي فوضع يده بين كتفي الزائر ودفعه فغاب ولم يره الحاضرون. ونقل المصنّف في هذه الترجمة ادعاءات أخرى عجيبة.[1]

ونقل كذلك ما يُماثلها في حديثه عن غانم بن علي المقدسي[2]؛ حيث نقل ما مضمونه أنّ المقدسي حجّ ثم سافر عائدا من الحجاز إلى الشام وهو مريض لا يستطيع الكلام ولا القيام ولا الطعام، فبينما هو " مطروح في البرية " جاءه رجل فسّلم عليه، ثم سار يُحدّثه بما هو فيه وبما يكون منه، والمقدسي لا يشكّ أنّه " سائر في الهواء "، ثم قال له الرجل: اجلس فجلس فناما، ولمّا استيقظ المقدسي وجد نفسه قريبا من الشام ومعافى من المرض. ونقل في ترجمة عبد الله بن غانم[3] مزاعم أخرى ملفّقة من طرف بعض الصوفية. و نجد في " ذيل المرآة " نماذج أخرى مثل التي تقدم ذكرها.[4]

وأثنى اليونيني في مواضع من كتابه على من يصدق بهذه الادعاءات ويعدها من الكرامات. كما أثنى

---

[1] – قُطب الدين اليونيني، المصدر السابق، ج1، ص 30، 31، 32، 396، 398.

[2] – هو أبو علي غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسي الصوفي المتوفّى في دمشق عام 632هـ/1234م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 82).

[3] – هو أبو محمد عبد الله بن غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر النابلسي الصوفي المتوفّى عام 672هـ/ 1273م في نابلس. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص 306).

[4] – قطب الدين اليونيني، المصدر نفسه، ج3، ص 58، 60، 61، 273، 274. و ج2، ص 66، 70.

على محيي الدين ابن عربي وابن سبعين وهما من القائلين بوحدة الوجود[1]، وقد تقدم ذِكْر بعض انحرافاتهما.[2]

ولم يتعرض فيما اطلعنا عليه من تاريخه إلى الخلاف بين الأشاعرة وأهل الحديث إلاّ بإشارات قليلة مثل نقله في إحدى التراجم كلاما يتضمن تبرئة أهل الحديث من اتهام المتكلمين لهم بالتشبيه. ولم يتحامل اليونيني – وهو حنبلي – على فقهاء المذاهب الأخرى، ويتضح ذلك من خلال مضامين التراجم.[3]

-استنتاج:

لقد أشار اليونيني في عدّة مواضع من تاريخه إلى غلوّ بعض الذين ترجم لهم من الشيعة، واستنكر سبّهم الصحابة، لكنّه نبه في تراجم شيعية أخرى إلى عدم سبّ أصحابها للصحابة، وهذا إنصاف منه. كما أنه لم يتحامل على الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي، وهذا أيضا من الإنصاف. لكنه تأثر بالتصوف؛ فنقل كثيرا من الأخبار الملفقة التي وضعها بعض الصوفية وزعموا أنها كرامات. كما أنّه أثنى على ابن عربي وابن سبعين وهما من الاتحادية، وهذا عنصر سلبي.

سابعا- كتاب " مرآة الجنان " لليافعي:

اليافعي هو عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن اسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي اليمني نزيل مكة. واليافعي: نسبة إلى يافع، قبيلة من قبائل اليمن. ولد عام 698هـ/ 1298م وتعلم في عدن. حج سنة 712هـ/ 1312م وعاد إلى اليمن، لكنه ارتحل إلى مكة سنة 718هـ/ 1318م فأقام فيها وكانت وفاته سنة 768هـ/ 1366م. وقد صنف اليافعي في التاريخ والعقيدة، وكان شافعيا أشعريا صوفيا.[4]

---

(1) – قُطب الدين اليونيني، المصدر السابق، ج2، ص 460. و ج3، ص 150.

(2) – أنظر: ص ص 27- 32.

(3) – المصدر نفسه، ج2، ص 58، 19، 324. و ج1، ص 92.

(4) – شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج8، ص 362، 363. و خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج4، ص 72.

ورتّب كتابه " مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان" حسب السنين، وأرّخ للفترة الممتدة من السنة الأولى للهجرة حتى سنة 750هـ/ 1349م، حيث نجده يذكر أبرز حوادث السنة باختصار، ثم يذكر بعض الوفيات ويوجز التراجم في الغالب.[1] ونوضّح تأثر كتابه بالنّزعة المذهبية في العناصر التالية:

-أ- مواقف المصنّف من الشيعة:

لقد نبّه المصنّف إلى بعض مظاهر الغلو الشيعي في مواضع من كتابه؛ فنقل – مثلا- في ترجمة محمد الجواد قول الذهبي: "...أحد الإثني عشر إماما الذين يدعي الرافضة فيهم العصمة...". ونقل قوله بشأن محمد بن الحسن العسكري: "...تلقّبه الرافضة بالحُجة وبالقائم... وبالمُنتظر ... وهم ينتظرون ظهوره في آخر الزمان من السرداب...، وضلال الرافضة ما عليه مزيد، فإنهم يزعمون أنّه دخل السرداب الذي بسُرّ من رأى فاختفى إلى الآن." ولاحظنا أنه ينقل أقوال الذهبي في التعليق على أعمال الشيعة دون أن يُشير إلى أنّ الكلام للذهبي، كما هو الحال في المثالين السابقين، وفي عرضه عدة حوادث كحوادث سنة 349هـ/ 960م، حيث ذكر وقوع فتنة "هائلة بين أهل السُّنة والرافضة، وقويت الرافضة " بمعزّ الدولة "وعُطّلت الصلوات في الجامع...". ونقل في حوادث سنة 358هـ/ 969م قول الذهبي في "العِبر": "... وجاءت المغاربة مع القائد جوهر المغربي وأقام الدعوة لبني عُبَيد الرافضة، مع أنّ الدعوة بالعراق في هذه المدة رافضية ..."(فترة السيطرة البويهية). كما نقل بعض كلامه عن فتنة 398هـ/ 1007م في بغداد بين أهل السُّنة والشيعة.[2]

ونقل المصنّف أيضا قول الذهبي عن ابن المُعلم: "...عالم الشيعة و إمام الرافضة "، وكذا وصفه (الذهبي) مسجد براثا (في بغداد) ب "مأوى الرافضة "، وقوله بخصوص فتنة 443هـ/1051م: "...أحكم

---

[1] – عفيف الدين اليافعي، **مرآة الجنان**، ج1، (تحقيق: خليل منصور)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1417هـ/ 1997م، ص3.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 60، 133، 257، 278، 238.

الرافضة سور الكرخ وكتبوا على الأبراج: محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر، واضطرمت نار الفتنة...، وتمّ على الرافضة خِزي عظيم...". ونقل اليافعي كذلك ما ورد في " العِبر"عن فتنة عام 483هـ/ 1090م(في بغداد)، وما ذكره الذهبي في ذمّ الوزير ابن العلقمي بالإضافة إلى ذمّه لأحد أمراء بغداد خلال عهد الخليفة الناصر، وقد عُرف هذا الأمير بسبّ الصحابة[1].

وقد صرّح اليافعي بتفضيل علي بن أبي طالب على عثمان، و أنكر على من يعتبر هذا التفضيل تأثرا بالتشيع[2]. لكن أقوال كبار العلماء مخالفة لما ذهب إليه، منها قول أحمد بن حنبل بعدما سُئل "عمن يُقدّم عليا على عثمان يُبَدّع؟ فقال: هذا أهل أن يُبَدّع، أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم قدّموا عثمان." [3]

ونقل المصنّف أقوال الذهبي في ذمّ الباطنية، منها قوله أنّهم " زنادقة مارقون من الدين." وقوله بشأن أبي سعيد القرمطي: "...وكان هذا الملحد قد تمكّن وهزم الجيوش...". وكذا وصفه مهاجمة أبي طاهر القرمطي الحُجّاج في مكة(317هـ/ 929م): "...فوافاهم ...عدوّ الله أبو طاهر القرمطي، فقتل الحاجّ قتلا ذريعا...واقتلع الحجر الأسود...". ونقل أيضا ذمّ الذهبي للإسماعيلية وذمّه للنُّصَيرية وقائدهم الذي حرضهم على محاربة دولة المماليك(سنة 717هـ/ 1317م)، كما نقل قوله في ترجمة عُبَيد الله المهدي: "...كان يُظهِر الرفض ويُبطن الزندقة." وقوله في ترجمة الحاكم بن العزيز: "...العُبَيدي صاحب مصر والشام...كان ...خبيث النفس متلون الاعتقاد... وأمر بشتم الصحابة، وكتبه على أبواب المساجد... ويقال أنه أراد أن يدعي الإلهية كفرعون وشرع في ذلك، فخوفه خواصّ دولته من زوال دولته فانتهى."[4]

وذمّ اليافعي في مواضع أخرى الباطنية بأسلوبه، حيث وصف –مثلا– القرامطة بـ " الفِرقة الطاغية"

---

[1] – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص 22، 27، 48، 102، 323. و ج4، ص 105، 106.

[2] – المصدر نفسه، ج4، ص 128.

[3] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج5، ص 1029.

[4] – عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج2، ص 143، 178، 203، 215. و ج3، ص20، 175. و ج4، ص 193.

وقال بعدما ذكر اقتحام أبي طاهر البصرة وقتله كثيرا من أهلها و إحراقه جامعها: "...قاتل الله تعالى كلّ شيطان رجيم."[1]

-ب- مواقف المصنّف من الصوفية:

قد تقدمت الإشارة إلى أنّ اليافعي كان صوفيا، وقد أثّر ذلك على تاريخه تأثيرا جليا يتضح من خلال العناصر الآتية:

-1- الإمعان في نقل القصص الموضوعة واعتبارها كرامات:

لقد أمعن المصنّف في نقل الأخبار المكذوبة التي لفّقها كثير من الصوفية وزعموا أنها كرامات لبعض الأعلام، والأمثلة في تاريخه على ما ذكرنا كثيرة جدا؛ فمنها أنّه ذكر في ترجمة الجُنَّيد[2] أنّ هذا الأخير " قعد يتكلم على الناس " في الجامع (ببغداد)، فقدم إليه غلام فسأله، فأطرق الجُنَّيد ساعة ثم قال: " أسلم فقد حان وقت إسلامك "، فأسلم الغلام وكان نصرانيا تظاهر عند قدومه أنّه مسلم. قال اليافعي بعدما ذكر هذا: "...فيه كرامتان: إحداهما اطّلاعه على كُفر الغلام. والثانية اطّلاعه على أنّه سيُسلم في الحال." وفي كلام اليافعي هنا ادعاء علم الجُنَيد الغيب. ونجد مثل هذا الزّعم الباطل ضمن ترجمته للوزير نِظام المُلك حيث قال: "...وكان كثير الأنعام على الصوفية، فسُئل عن سبب ذلك فقال: أتاني صوفي وأنا في خدمة بعض الأمراء فوعظني وقال: اخدم من تنفعك خدمته، ولا تشتغل بما يأكله الكلاب غدا، فلم أعلم معنى قوله، فشرب ذلك الأمير من الغد، وكانت له كلاب...، فخرج وحده... فلم تعرفه الكلاب فمزقته، فعلمت أنّ الرجل كُوشف بذلك."[3]

ونقل أكاذيب أخرى منها زعمه أنّ صوفيا من أهل اليمن (معاصر للمصنف) زار المدينة ومعه أحد

---

(1) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج2، ص 165، 197.

(2) – أبو القاسم الجُنيد بن محمد بن الجُنيد البغدادي الصوفي، وُلد عام 220هـ/ 835م، وكانت وفاته عام 298هـ/ 910م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج6، ص 924).

(3) – عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج2، ص 173. و ج3، ص 104.

أبنائه " فنبحهم كلب...فالتفت إليه " الولد " فتفل في وجهه فمات الكلب..."، قال اليافعي: "...فغضب عليه أبوه لإظهاره مثل هذه الكرامة العظيمة من غير ضرورة دعت إلى ذلك". وزعم أنّ " بعض الناس أودع امرأة وديعة، فماتت المرأة ولم يعلم أحد أين تركت الوديعة، " فجاء صاحب الوديعة فلم يجد من يُعلمه بها، فجاؤوا إلى " الصوفي المذكور " وذكروا له الحال، فقال: أروني قبرها، فذهبوا به إلى القبر فوقف عليه ساعة... ثم سأل: هل في بيتها شجرة ؟ قيل: نعم، قال: احفروا تحت الشجرة فالوديعة هناك." وقال المصنّف في ترجمة ابن عجيل[1]: "... نقتصر من ذكر كراماته الكثيرة على واحدة...، وهي أنّه جاءه بعض الناس يلتمس بركته، وفي يده سلعة، فقال له: يا سيدي هذه السلعة درت بها على الصالحين ليدعوا لي في ذهابها فلم تذهب...، فقال له: لا حول ولا قوّة إلاّ بالله، ثم قرأ عليها وقال: اربط عليها بخرقة، ولا تفتحها حتى تصل إلى بلادك...ففعل ما أُمر به، ثم سافر إلى أن بلغ بعض الطريق ...ففتح الخِرقة... ونظر إلى يده، فإذا السلعة التي كانت فيها قد ذهبت...". و زعم اليافعي أنّ ابن عجيل كان متصفا بـ " الاطلاع على الأسرار". ولم يكتف بذِكر و إقرار هذه الخرافات، بل إنّه وصف الذين ينكرونها بـ " المنكرين الأغبياء."[2]

وخطر تأثير التصوف على اليافعي يتجلى بشكل أوضح في الاستدلال بـ " المنامات " المكذوبة حيث ذكر -مثلا- أنّ أبا الحسن الشاذلي الصوفي قال: " رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام باهى بالغزالي موسى وعيسى ابن مريم وقال: أفي أمتيكما حَبْر كهذا ؟ قالا: لا." فنجد اليافعي يزعم في أكثر من موضع أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال هذا الكلام، كما ادعى اليافعي أنّ هذا المنام قد رُوي " بالإسناد الصحيح المتصل... المسلسل إلى سيد الخلق الرسول الكريم ...صلى الله عليه وسلم." وقال في موضع آخر بشأن الغزالي: "...الذي باهى به نبينا موسى وعيسى عليه وعليهما أفضل الصلاة

---

(1) – هو الفقيه أبو العباس أحمد بن موسى بن علي بن عمر اليمني الشافعي المعروف بابن عجيل. توفي عام 690هـ/ 1291م. (عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص 158).

(2) – المصدر نفسه، ج4، ص 159، 160، 161، 162.

والسلام."[1] وهذه المزاعم الصوفية تتضمن بلا شكّ الكذب على النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وزعم المصنّف أنّ أحد أعيان الشافعية المعاصرين له قد " رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في اليقظة." ونلاحظ هنا أنّ هذا الكلام لم ينقله اليافعي من كتب أخرى، ممّا يدلّ على أنّه ساهم بشكل مباشر في الترويج للادعاءات الصوفية.[2]

كما يدلّ على هذا الترويج ما ذكره من مزاعم في ترجمة شيخه نور الدين الصوفي[3]، حيث قال – على سبيل المثال – : "...أخبرني بعض الفقهاء...أنّه أذن له شيخنا المذكور في الخلوة...، وكان في بعض الأوقات يتصوّر له بعض الشياطين يوسوس عليه يراه بعينه ظاهرا، فشكا ذلك إلى الشيخ فقال له: إذا رأيت شيئا ما ذلك ناد باسمي، قال: فلمّا كان ذلك ليلة تصور الشيطان لي، قلت : يا سيدي الشيخ ... فما تمّ مقالتي إلاّ والشيخ واقف بباب الخلوة مع بعد منزلة ذلك المكان..." ثم زعم اليافعي أنّ شيخه طُوِي له في هذا المكان والزمان وأُطلِع على الغيب. وقال أيضا: "...خرجت في بعض الأيام إلى خارج البلد " – ولم يحدّده – " واخترت موضعا بعيدا عن الناس، فخلوت فيه تحت شجرة خُفية ....، فما شعرت إلا والشيخ معي، فسُررت بذلك ....، وحسبت أنّه يُطيل الجلوس عندي... فقام ....، فحصل في باطني عند ذلك تألّم واحتراق ....، فقلت له عند ذلك: ما كان لي بمجيئك حاجة. فقال: ولِمَ؟ قلت: لأنّي فرحت بمجيئك، ثم تألّمت بقيامك، فأتى إليّ و وضع أصبعه على قلبي وقال: هذا موضع الألم فسكن ذلك الألم...". وذكر المُصنف مزاعم أخرى مثل هذه. وادَّعى أنّه رأى من شيخه ما يُدهش " العقل " من " المُكاشفات"، أي الإخبار بأُمور غيبية – بزعمه –، وأنّ شيخه كان " صاحب تمكين في الاطلاع على القلوب..."، وتحامل على الذين يردون هذه الخرافات ولا يعتبرونها كرامات، وزعم أنّ موقفهم من " عمي

[1] – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص 250. و ج4، ص 81.

[2] – المصدر نفسه، ج4، ص 217.

[3] – هو أبو الحسن نور الدين علي بن عبد الله الصوفي اليمني المتوفى عام 748هـ/ 1347م. (أنظر: المصدر نفسه، ج4، ص 233).

البصائر."[1]

كما زعم أنّ كثيرا من شيوخ الصوفية لهم تصرّف في الكون فيُوَلّون ويَعزلون ويَصِلون ويَقطعون وهذا ممّا يدلّ على التأثير السلبي للتصوف على كتابه.[2]

ولاحظنا أنّ اليافعي ينقل هذه الادعاءات في تراجم اليمنيين أكثر ممّا ينقلها في تراجم غيرهم؛ فقد قال – على سبيل المثال – عن أحد شيوخ اليمن من المعاصرين له: "...كان ينزل في البرية فيتفجر انهارا فينتقل إليها الناس، ويغرسون فيها ويزرعون، فإذا أبهجت بالبساتين... انتقل إلى برية مُجدبة، فإذا سكنها صار هو وأصحابه يُسبحون الله تعالى ويذكرون، فانفجرت فيها بقدرة الله تعالى ...العيون، ثم كذلك إذا صارت كما تقدم يهرب منها...". وقال عن شيخ آخر معاصر له: "...كان في وقت في مسجد على ساحل " اليمن " وعنده شخص من تلامذته، فدخل عليه بعض الناس وقال له: هذا تلميذك ...؟ فسكت فقال لصاحبه: هذا شيخك ؟ قال: نعم. فقال: إن كان لك تلميذا ... فمُرْه فليمش على الماء، وليأتنا بحجر من الجبل الفلاني، وهو في موضع تصل إليه السفن في نصف يوم، فغضب " الشيخ " وقال لتلميذه: اذهب فامش على البحر مسرعا وآتنا بحجر من الجبل المذكور، فذهب المريد إلى البحر، ومشى عليه مسرعا كأنه يجري على الأرض، فلحقه المُنكِر جاريا على الساحل وسأله أن يرجع...". وذكر في حديثه عن شيخ آخر أنّ رجلا أراد أن يستهزئ به، فأرسل إليه قارورتين من خمر، فتحول الخمر إلى سمن ورأى ذلك الرجل " من انقلاب الخمر ما أدهش عقله." ونجد نماذج عجيبة مثل التي سبق ذكرها تؤكد عمق تأثر اليافعي بالتصوف.[3]

ولم يقتصر ذِكْره للمزاعم السابقة على تراجم بعض المعاصرين له، بل نقل بعضها عن غيره في كثير من تراجم القرون السابقة، مثل قوله في ترجمة عدي بن مسافر الهكاري: "... له كرامات كريمة

---

(1) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص 234، 236، 138، 239.

(2) – المصدر نفسه، ج4، ص 262.

(3) – المصدر نفسه، ج4، ص 263، 265، 266، 267.

وآيات عظيمة، منها أنّ بعض أصحابه كان مختليا بنفسه في بعض الصحاري، فقال له: يا سيدي أشتهي الانقطاع في هذا المكان، فلو كان عندي ماء اشرب منه، وما اقتات به، فقام الشيخ إلى صخرتين كانتا هنالك، فوكز إحداهما فانفجرت منها عين ماء حلو عَذب، و وكز الأخرى فنبتت فيها في الوقت شجرة رُمان، وقال لها: أيتها الشجرة أنبتي بإذن الله تعالى يوما رمانا حلوا ويوما رمانا حامضا، فقال صاحبه: ...فأقمت هناك سنين آكل من تلك الشجرة رمانا يوما حلوا ويوما حامضا...". فنلاحظ أنّ المصنّف يُقرّ بصحة هذه الأكاذيب العجيبة، ويُصرّ على اعتبارها كرامات. وفي تاريخه أمثلة أخرى كثيرة توضّح أثر التصوف على الكتابة التاريخية.[1]

2- أثر التصوف على أسلوب اليافعي:

أمعن المصنّف في توظيف المصطلحات والعبارات الصوفية ليوهم القارئ بأنّ شيوخ التصوف لهم خوارق وكرامات ومُكاشفات (الاطلاع على أمور غيبية) تميزهم عن غيرهم؛ فقد قال – مثلا- عن أحد شيوخ الصوفية: "... ذو المعارف والأسرار واللطائف و الأنوار...والأنفاس الصادقات والكرامات الخارقات ..."، وقال عن آخر: "... مطلع الأنوار ومنبع الأسرار ...أستاذ الشيوخ الأكابر ...". كما قال في ترجمة صوفي يمني: "... ذو... الأنفاس الصادقة والكرامات الخارقة، والفتح العظيم والفضل الجسيم، منبع الأسرار ومطلع الأنوار...". وقال عن أبي الحسن الشاذلي: "... معدن الأسرار... المشهور بعظيم الكرامات ...الذي نافت علومه على مائة علم وعشرة." ثم ذكر عبارات أخرى كثيرة مثل هذه. وقال عن إسماعيل الحَضْرمي[2]: "...بركة الزمن... صاحب الكرامات الباهرة والبركات الظاهرة والأنفاس الصالحة.

(1) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص 239، 268، 312، 318. و ج4، ص 134، 158، 159.

(2) – الفقيه قطب الدين إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن إسماعيل الحضرمي الشافعي (ت 676هـ/ 1277م). والحضرمي: نسبة إلى حضر موت، وهي ناحية من اليمن (شرق اليمن). (أنظر: تاج الدين السبكي، المصدر السابق، ج8، ص 130. وعبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج4، ص 159).

وزعم أنّ أبا مدين[1] " له التصرف النافذ في الوجود " و " الكرامات الخارقة "، وأنه يطّلع على " الأسرار المغيبات...". و وصف مشاهير الصوفية بـ " ينابيع الأسرار و مطالع الأنوار " وبـ " أكابر الصديقين المقربين." وفي "مرآة الجنان" أمثلة أخرى كثيرة جدا من هذه المصطلحات والعبارات[2]. وهي – بلا ريب– دعاوى مجردة و إنشاء لا أدلة معه، وهو نابع من تصوف اليافعي.

ولم يكتف بالحرص على توظيف العبارات السابقة، بل تعجّب من عدم توظيف الذهبي لها، واتّهمه بعدم الإنصاف[3]. أي أنّ اليافعي يصرّ على اعتبار المزاعم الصوفية كرامات وحقائق، وعلى شحن المصنفات التاريخية بالإنشاء والأوهام.

-3- مواقف المصنّف من انحرافات الصوفية:

يتضمن الكتاب محل الدراسة كثيرا من المواقف التي تدل على دفاع المصنّف عن شخصيات صوفية اشتهرت بالانحراف؛مثل دفاعه عن الحلاّج الذي كان يدعي "الربوبية ويقول بالحُلول."[4](تقدم ذكر ذلك) حيث زعم اليافعي أنه " شهيد "، ونقل بعض أقوال الصوفية في الدفاع عنه. وأثنى على عمر ابن الفارض وهو من أبرز القائلين بوحدة الوجود، ونقل في ترجمته خرافة ممّا يعتبره المصنف كرامات، حيث ذكر أنّ ابن الفارض دخل مدرسة في مصر " فوجد فيها شيخا ... يتوضأ ... بغير ترتيب، فقال له: يا شيخ أنت في هذا السن ...وما تعرف تتوضأ ؟ فقال له: أنت ما يُفتح عليك بمصر، فجاء إليه... وقال له: يا سيدي ففي أيّ مكان يُفتح عليّ؟ فقال: في مكة. فقال ...: وأين مكة منّي. فقال: هذه مكة، وأشار بيده نحوها وكشف له عنها، فأمره الشيخ بالذهاب إليها ... فوصل إليها الحال"، واستقر بها، وبعد مدّة سمع الشيخ المُقيم في مصر يقول له: " يا عمر تعال أحضر موتي، فجاء إليه..."، فطلب منه الشيخ أن يدفنه " في

---

(1) – هو أبو مدين شُعيب بن الحسين الأندلسي الصوفي نزيل تلمسان. توفي في تلمسان (حوالي 590هـ/ 1194م). (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 922).

(2) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص33، 63، 94، 107، 108، 109، 133. و ج3، ص 355.

(3) – المصدر نفسه، ج4، ص 109.

(4) – شمس الدين الذهبي، و **العبر**، ج1، ص 456.

القرافة، قال: – أي ابن الفارض – "... وقفنا ننظر ما يكون من أمره، فإذا الجو قد امتلأ بطيور خُضر فجاء طائر كبير فابتلعه ثم طار...". وأثنى اليافعي على أحد صوفية اليمن ونقل كلاما له يتضمن عدة انحرافات. كما أبدى شيئا من الامتعاض لما أشار إلى كلام الذهبي في ابن عربي القائل بوحدة الوجود.[1]

وصرح بالامتعاض من قول الذهبي عن العفيف التلمساني – وهو من الاتحادية – : "...أحد زنادقة الصوفية." فقال اليافعي: "... أما كان يكفيه إذا كان كما قال زنديقا أن يقول: أحد الزنادقة ...". واتهم الذهبي بالتحامل على الصوفية وطالب بعدم الإنكار عليهم، وادعى أنّ الذهبي قد حُرم " التوفيق".[2] وهذا ممّا يدلّ على شدة تأثر اليافعي بالتصوف؛ فقد أوضحنا سابقا أنّ مُعتقدي وحدة الوجود هم قسم من الصوفية، كما أن المصنفات التاريخية تؤكد أنّ التلمساني كان صوفيا. أما عن موضوعية الذهبي وتحرّيه الإنصاف فقد سبق إيضاح ذلك.[3]

ومن أبرز مظاهر تأثر اليافعي بالتصوف نقله لمضامين المنامات المكذوبة والاستدلال بها؛ حيث ذكر – مثلا – أن أحد شيوخ الأشاعرة رأى النبي عليه الصلاة والسلام في النوم فحدثه بحديث، فكان هذا الشيخ يزعم ويقول :"سمّاني رسول الله صلى الله عليه وسلم شيخا." وقال المصنف في ترجمة أبي حامد الغزالي(الصوفي):" أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتعزير من أنكر عليه." ويعني بذلك أن أحد شيوخ الصوفية ادعى أنه رأى مناما أمره فيه النبي عليه الصلاة والسلام بمعاقبة من يخالف الغزالي. كما زعم المصنف أنّ أبا الحسن الشاذلي رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فأثنى عليه النبي (عليه الصلاة والسلام).وادعى اليافعي في ترجمة العزّ بن عبد السلام(ت 660هـ/ 1262م)أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أرسل " إليه مع ... الشاذلي بالسلام".[4] فنلاحظ ما في هذه الادعاءات الصوفية من الكذب

---

(1) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج2، ص 190، 191. و ج4، ص 61، 62، 79، 96.

(2) – المصدر نفسه، ج4، ص 163.

(3) – لاحظ ص 148، 149، 160، 161 . ومحمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج2، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار صادر، بيروت – لبنان، 1395هـ/ 1974م، ص 72. و شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج7، ص 719، 720.

(4) – عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج3، ص86، 145، 146. و ج4 ، ص 108، 116

على النبي عليه الصلاة والسلام، وهي نابعة من افتقادهم للأدلة العلمية.

وصرح المصنّف في غير موضع من كتابه بإثبات ما يُدّعى لكثير من شيوخ التصوف من المكاشفات (الإخبار بأمور غيبية)، فند ذلك في ترجمة أبي الفتوح الغزالي وترجمة أبي الحسن الشاذلي وفي تراجم بعض صوفية اليمن وغيرهم.[1]

ولم يتقبّل المصنّف تحذير الذهبي من انحرافات الصوفية؛ حيث نقل – مثلا – قوله بشأن أبي الحسن الشاذلي: "...له عبارات في التصوف مشكلة ...يُتكلَّف له في الاعتذار عنها...". ثم علق اليافعي بكلام يتضمن ذم الذهبي والعلماء الذين حذروا من الانحراف الصوفي.[2] والعبارات التي أشار إليها الذهبي ذكر بعضها ابن عطاء الله الإسكندري – أحد أتباع الشاذلي – وفيها الإشارة إلى الحلول.[3] وعاد إلى ذمّ الذهبي في موضع آخر بسبب عدم ذكره للعبارات والمصطلحات الصوفية (سبق ذِكر بعضها) في ترجمة ابن عطاء الله الإسكندري(الصوفي)، وهذا يعني أن المصنّف لم يكتف بنقل وإقرار وتأييد المزاعم الصوفية بل طالب غيره من المؤرخين بذلك. واتهم الذهبي بعدم إنصاف اليونسية لمّا قال عنهم: "...أُولي الشطْح وقلة العقل وكثرة الجهل أبعد الله شرهم."[4] لكن الذهبي قد بيّن سبب تكلمه فيهم بقوله: "... ولهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قالا وفعالا أستحي من الله ومن الناس من التفوه بها، فنسأل الله المغفرة والتوفيق."[5] وامتعض اليافعي كذلك لما نقل قول الذهبي عن الرفاعية: "...تجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران ... واللعب بالحيات..."، وطالبه بأن يحمل " أحواهم على السداد"، كما طالبه في موضع آخر بـ " التفخيم في الوصف " في تراجم شيوخ الصوفية، و زعم أن مواقف

(1) – عفيف الدين اليافعي، ج3، ص 171، 355. و ج4، ص 111، 221.
(2) – المصدر نفسه، ج4، ص 109.
(3) – عبد القادر السندي، المرجع السابق، ج1، ص 366، 367.
(4) – عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج4، ص185، 186، 37، 38.
(5) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 593.

الذهبي من التصوف تعود إلى كونه " ليس له ... قوة اعتقاد قويم ..."[1]. فكلّ ما تقدم ذكره يوضح إصراره على إقناع غيره بعدم الإنكار على الصوفية، ويدلّ على تحامله على الذهبي الذي يُعدّ من أحرص المؤرخين على الإنصاف كما بينا سابقا.

وذكر اليافعي في ترجمة العزّ بن عبد السلام أنه كان " يحضر السماع ويرقص"، وزعم أنّ هذا الفعل " من أقوى الحجج على من ينكر ذلك ...من الفقهاء على أهل السماع ..."، وأبدى تأييده لهذا الانحراف الصوفي في مواضع أخرى من كتابه.[2]

-ج- موقف المصنّف من الخلاف بين الأشاعرة وأهل الحديث:

ذكرنا سابقا أنّ اليافعي نقل مضامين المنامات المكذوبة واستدل بها على في فيما يتعلق بالصوفية ونجد هذا كذلك فيما يتعلق بتأييده لاعتقاد الأشاعرة؛ حيث ادعى أنّ أبا الحسن الأشعري " رُئي في المنام" ما يدلّ على " أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم باتباعه واتباع أصحابه...". وادعى أنّ أحد أتباع أبي حامد الغزالي الأشعري رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم يُثني على الغزالي وعلى كتاب من كتبه التي صنفها في العقيدة. كما زعم اليافعي أنّ الذي يُنكر على الغزالي لا يموت " إلاّ وأثر السوط على جسمه ظاهر" و إن لم يُضرب؛ حيث زعم قبل ذلك أنّ أحد شيوخ الصوفية الأشاعرة رأى النبي صلى الله عليه وسلم في النوم " أمر...بتعزير من أنكر " على الغزالي. وقال المصنّف عن أحد الفقهاء: "... كان يُنكر على الغزالي فرأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المنام، و إذا بالغزالي قد اشتكى به إليه فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بجلده. قال...أبو الحسن الشاذلي: ولقد مات يوم مات وأثر السياط على جلده." وذكر(المُصنّف) كذلك أنّ هذا الفقيه نظر في كتاب " الإحياء" للغزالي ثم حذّر الناس منه فرأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام نظر في الكتاب المذكور" من أوله إلى آخره ثم قال : إنّ هذا

(1) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص 311، 312، 264. و ج4، ص109، 42، 43.
(2) – المصدر نفسه، ج4، ص 117، 162، 164.

حسن." وقال اليافعي بعدما ذكر ما تقدَّم: " ومعلوم أنّ كتاب الإحياء مشتمل على عقيدة الأشعرية وعلى مذهب الصوفية، وقد استحسن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذلك..."[1]. فمن خلال الأمثلة السابقة يتبيّن لنا أنّ فَرْط تعصب المُصنّف للأشاعرة والصوفية أدى به إلى الكذب على النبي عليه الصلاة والسلام وشَحْن " مرآة الجنان" بأكاذيب عجيبة.

وأورد اليافعي منامات أخرى مُلفّقة مثل قوله: "...جاءني كتاب من اليمن ...مشتمل على معارف وحِكَم..." ختمه صاحبه " بكلام مضمونه أنّه رأى النبي صلى الله عليه وسلم" (في المنام) " في...مسجد وهو معه، وفي ذلك المسجد حلقات كثيرة، فأخذ صلى الله عليه وسلم بيده ومشى به إلى حلقة، ذكر في كتابه أني أنا المتحدِّث فيها "– أي اليافعي– " ثم قال له: ...عليك بحلقة الفقيه فلان وأشار إليَّ...، ووجه الاستدلال بهذا على صحة العقيدة أنّ من أمر الشارع بمجالسته، فقد أرشد إلى الاقتداء به...، ومن ذلك أنّه كما سمّاني صلى الله عليه وسلم في هذا المنام فقيها، فقد سمّاني في منام " آخر " شيخا و إماما ومعلوم أن واحد من اللفظين متضمن لجواز ...الاقتداء...، ومن جُملة الاقتداء الاتباع في الأقوال والأفعال والعقائد..."[2]. فنلاحظ أنّ اليافعي يزعم أنّ الاقتداء به في العقيدة و السلوك قد أرشد إليه النبي عليه الصلاة والسلام، ويمكننا القول أنّ كذب المصنّف على رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعدّ من أبرز الآثار السلبية للنزعة المذهبية على الكتاب محل الدراسة، والذي نجد فيه مزاعم أخرى[3] مثل التي سبق ذكرها، ولكن نكتفي بما سبق.

وممّا يدلّ على تأثر المصنّف بأشعريته تحامله على أهل الحديث، حيث قال – مثلا– في ترجمة أبي الحسن الأشعري كلاما يتضمن ذمهم، ونجد له كلاما مماثلا في ترجمة أبي عبد الله بن علي الأشعري[4]

---

[1] – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج2، ص 225. و ج3، ص 143، 144، 145، 146، 251، 252، 253.

[2] – المصدر نفسه، ج3، ص 253، 254.

[3] – المصدر نفسه، ج3، ص 254، 255.

[4] – أبو عبد الله بن علي بن الحسين الطبري الشافعي الأشعري نزيل مكة. توفي في أصبهان عام498هـ/ 1104م.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج10، ص 802، 803).

حيث صرّح بالطعن فيهم، كما ذمهم ضمن ما ذكره في ترجمة أحد فقهاء اليمن. ووصفهم بـ "أُولي الزَّيْغ" ضمن ما ذكره في ترجمة أبي القاسم ابن عساكر الأشعري. وعاد كذلك إلى التحامل عليهم في تعاليقه ضمن ترجمة العزّ بن عبد السلام، وادعى أنهم " حادوا عن منهج الحق...". كما طعن فيهم لمَّا ترجم لابن جُملة الدمشقي (الأشعري) وفي مواضع أخرى متفرقة من كتابه.[1] ومن خلال أصول عقيدة أهل الحديث التي تقدم ذكرها[2] والتي تُبيّن تمسكهم بالكتاب و السُّنة يتّضح لنا تحامل المُصنِّف عليهم.

وقد ذكر أنّ عبد القادر الجيلاني قد أصبح في آخر عمره أشعريا، وذلك " لما بلغه...أنّ الفقيه تقي الدين بن دقيق العيد " تعجّب من مخالفته لكثير من شيوخ الصوفية في كونهم أشاعرة.[3] وهذا الخبر لا يصحّ لأن الجيلاني توفي عام 561هـ/ 1127م، في حين وُلد ابن دقيق سنة 625هـ/ 1228م وتوفي سنة 702هـ/ 1302م، فقد امتعض اليافعي من ألاّ يكون الجيلاني – وهو من مشاهير الصوفية– أشعري المعتقد.[4]

ولم يتقبّل المصنّف في أكثر من موضع إطلاق الذهبي مصطلح "أهل السُّنة "على أهل الحديث وادعى أنّ المخالفين للعقيدة الأشعرية لا يستحقون هذا الوصف– بزعمه الباطل–، كما اتهم الذهبي بالتحامل على شيوخ الأشاعرة، لكن تراجم الذهبي لهم تدلّ على إنصافه.[5] وذكر اليافعي عند إشارته إلى الخلاف بين تقي الدين ابن تيمية وجمال الدين ابن جُملة (الأشعري) كلاما يتضمن التحامل على ابن تيمية، كما ادعى في موضع آخر أنّ ابن تيمية كان ينهى عن زيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام.[6] وهذا افتراء عليه، قال ابن كثير: "... جوابه على هذه المسألة ليس فيه منع زيارة قبور الأنبياء، و إنّما فيه

---

[1] – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص 253، 254، 123، 247، 299. و ج4، ص 117، 224.
[2] – لاحظ ص 5، 6، 7.
[3] – عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج3، ص 272.
[4] – خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 63.
[5] – شمس الدين الذهبي، **العبر**، ج2، ص 23. و ج3، ص 347. و ج4، ص 82.
[6] – عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج3، ص 123، 360، 361. و ج4، ص 150، 151، 224، 209.

قولين في شدّ الرحال والسفر إلى مجرد زيارة القبور، و زيارة القبور من غير شدّ رَحْل إليها مسألة، وشدّ الرَّحْل لمجرد الزيارة مسألة أخرى، والشيخ لم يمنع الزيارة الخالية عن شدّ رَحْل، بل يستحبّها ويندب إليها وكتبه ومناسكه تشهد بذلك، ولم يتعرض إلى الزيارة على هذا الوجه ...، ولا هو جاهل بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " زوروا القبور فإنّها تُذكركم الآخرة." "[1]

وكان المصنّف في مواضع قليلة من كتابه محايدا عند إشارته إلى الخلاف بين الأشاعرة وأهل الحديث، مثل حديثه عن قيام الأشاعرة على ابن تيمية في دمشق سنة 705هـ/ 1305م.ونقل ثناء الذهبي في بعض التراجم على أعلام من أهل الحديث مثل عبد الغني المقدسي و محمد بن مُسَلَّم الصالحي[2].

-استنتاج:

لقد أثّر التصوف على اليافعي تأثيرا عميقا؛ حيث نقل عن غيره مزاعم كثيرة مكذوبة اعتبرها كرامات للصوفية، كما ذكر مزاعم أخرى تخص بعض الصوفية المعاصرين له، أي أنّه لم ينقلها من مصنّفات غيره. ولاحظنا أنّ حرصه على ذكرها كان أشد في تراجم اليمنيين، وقد أنكر على من يرد تلك الأكاذيب. وأقرّ ادعاءات صوفية في المُكاشفات و رُؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، بالإضافة إلى إمعانه في توظيف المصطلحات والعبارات الصوفية، وادعائه أنّ الذهبي لم يُنصف حين لم يُوظّف تلك المصطلحات، واتهمه بالتحامل على الصوفية وطالب بعدم الإنكار عليهم.

كما دافع المصنّف عن شخصيات صوفية اشتهرت بالانحراف مثل الحلاّج، ونقل في تراجم بعض الصوفية والأشاعرة مضامين المنامات الموضوعة، والتي تتضمن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم. وتحامل المصنف على أهل الحديث في مواضع متفرقة من كتابه متأثرا بالعقيدة الأشعرية. وكلّ هذه الملاحظات تُبين الأثر السلبي للنزعة المذهبية على كتابه.

---

(1) – عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 497.

(2) – عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص 180، 208. و ج3، ص 378.

لكنّه نبّه إلى بعض الانحرافات الشيعية، ونقل تحذير الذهبي من انحرافات القرامطة وباقي الباطنية. كما التزم الحياد في مواضع قليلة من كتابه عند إشارته إلى الخلاف بين الأشاعرة وأهل الحديث، واستنكر تسليم الملك محمد الكامل الأيوبي – وهم أشعري– بيت المقدس للفرنجة (سنة626هـ/ 1229م).

- خلاصة الفصل:

يتّضح أثر التزام الذهبي بمنهج أهل الحديث من خلال مظاهر كثيرة؛ منها تأييده لعقيدة أهل الحديث و حرصه على التنبيه على انحرافات فِرَق الشيعة والتحذير منها، وكذا انحرافات الخوارج و الناصبة، ونقد المتكلمين الفلاسفة والتحذير من الانحرافات الصوفية خاصة عقيدة وحدة الوجود. وتضمن كتابه تعليقات كثيرة قيّمة تتضمّن استخلاص العِبَر من الأحداث والتطورات التاريخية والحثّ على الإنصاف.

أمّا اليونيني فقد أشار إلى بعض انحرافات الشيعة، ولم يتحامل على الأعلام الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي، وهذا نجده كذلك عند الذهبي. لكنّ اليونبني تأثّر بما روّجه كثير من الصوفية من المزاعم التي يعدّونها كرامات. وأشار أبو الفدا في مواضع قليلة من تاريخه إلى بعض انحرافات الشيعة، ولم يُعلّق – في الغالب– على المعطيات المتعلقة بالمعتزلة و فِرق الشيعة.

ومظاهر النزعة المذهبية في كتاب ابن كثير مقاربة لما ذكرناه عن كتابي الذهبي؛ إذ حرص على تأييد منهج أهل الحديث والتحذير من انحرافات فِرَق الشيعة و التعليق على مقالات وأعمال الخوارج والمتكلمين والفلاسفة و الاتحادية. بالإضافة إلى إنصافه – وهو شافعي– لفقهاء المذاهب الأخرى. وتضمّن كتابه تعليقات قيّمة متعلّقة بتاريخ الفِرَق. أمّا اليافعي فإنّ تصوفه وخلفيته المذهبية الأشعرية قد أثرا تأثيرا قويا على كتابه، حيث نقل وأقرّ كثيرا من الادعاءات الصوفية واعتبرها كرامات، ونقل في تراجم بعض الصوفية و الأشاعرة مضامين المنامات الملفقة التي تتضمن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم، وتحامل على أهل الحديث. لكنّه نبّه إلى بعض الانحرافات الشيعية. وأمّا ابن الوردي فرغم أنه متأثر بالمذهب الأشعري إلاّ أنّه أثنى على كثير من علماء أهل الحديث.

الفصل الرابع: أثر النزعة المذهبية على كتب تاريخ الدول و المدن.

يتضمن هذا الفصل دراسة موجزة لأبرز ما صنف في تاريخ الدول و المدن خلال فترة الدراسة.

أوَّلا – "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية"و " الذيل على الروضتين" لأبي شامة:

آثر بعض المُصنِّفين الكتابة التاريخية على حسب الأسرات الحاكمة أو الدول والعهود، و منهم أبو شامة، وهو الفقيه المؤرِّخ شهاب الدين عبد الرحمان بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان " المَقْدسي الأصل الدمشقي الشافعي." وُلِد في دمشق عام 599هـ/ 1202م وطلب العلم فيها وفي مصر، وصنَّف عدة كُتب في الفقه و النحو والتاريخ. درّس في دمشق وكانت وفاته فيها عام 665هـ/ 1266م. وتدلُّ تعاليقه في كتابه على أنّه كان أشعريا.[(1)]

وقد أرَّخ في " الروضتين" لدولة نور الدين محمود و دولة صلاح الدين الأيوبي، حيث ابتدأ كتابه بعرض سيرة عماد الدين زنكي وسيرة نور الدين وأخبار بعض سلاطين السلاجِقة، ثم واصل عرض أخبار الدولتين المذكورتين مع الترجمة لأبرز الأعلام، ولم يتوقَّف عند سنة وفاة صلاح الدين (589هـ/ 1193م) بل عند سنة 597هـ/ 1200م. وأمّا "الذيل على الروضتين" فقد أرّخ فيه للفترة الممتدة بين عامي (590- 665هـ)(1194- 1266م). و ركّز على أخبار الشام ومصر والعراق، حيث يذكر باختصار أبرز حوادث و وفيات السنة، ثم ينتقل إلى السنة الموالية[(2)]. ونوضّح تأثُّر كتابه بالنزعة المذهبية في العناصر التالية:

-أ- مواقف المُصنِّف من الشيعة:

لقد صرَّح المُصنِّف في مواضع متفرِّقة بذمِّ الباطنية والتحذير منهم؛ حيث قال في سياق ذِكْره دخول جيش نور الدين زنكي إلى مصر(559هـ/ 1164م):"...ولمّا...مات العاضِد انقرضت تلك الدولة، وزالت

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 114، 115. و أبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين**، (تحقيق: عزة العطار)، ط2، دار الجيل، بيروت – لبنان، 1395هـ/ 1974م، ص 139.

(2) – أبو شامة المقدسي، المصدر نفسه، ص 365.

عن الإسلام بانقراضها الذِّلة، واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونُوّابه، وكلّهم من قِبَل نور الدين ...". و وصف دولة العاضِد وآبائه بـ " الدولة المُباينة للشريعة "، وقال عنهم: "...أظهروا للناس أنّهم شُرفاء فاطميون فملكوا البلاد و قهروا العباد...". كما قال عن جدِّهم عُبَيد الله: "...ترقّت به الحال إلى أن مَلَك وتسمّى بالمهدي...، وكان زِنديقا خبيثا عدوًّا للإسلام متظاهرا بالتشيُّع متستِّرا به، حريصا على إزالة المِلَّة الإسلامية، قتل من الفقهاء والمُحدِّثين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود، ليبقى العالم كالبهائم فيتمكّن من إفساد عقائدهم...، ونشأت ذرِّيته على ذلك مُنطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة و إلاّ أسرُّوه. والدعاة لهم مُنبثّون في البلاد يُضِلّون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أوَّل دولتهم إلى آخرها." و أوضح المُصنِّف بعض التطورات الخطيرة التي جرت خلال فترة حكمهم مصر فقال: "... وفي أيامهم كثرت الرافضة و استحكم أمرهم...، وأُفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثُغور الشام " (أي ظهور فِرقة الدُّروز) " وتمكَّن دُعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكّنوا من غيرهم. وأخذت الفِرنج أكثر البلاد بالشام...".[1]

وأشار أبو شامة أيضا إلى بعض ما صُنِّف في نَسَب عُبَيد الله المهدي، و وصفه ومن تملَّك من ذرِّيته بـ " بني عُبيد الأدعياء"، وذكر أنَّهم " يدَّعون من النَّسَب ما ليس لهم." و وصف دولتهم بـ " الدولة... الباطنية المُلْحدة." وذمّ جوهر الصقلي " الذي أخذ لهم الدّيار المصرية "، فوصفه بـ "عدوّ الله". ونقل عن غيره أنَّ عُبيد الله " كان يتّخذ الجُهال ويُسلّطهم على أهل الفضل، وكان يُرسل إلى الفقهاء والعلماء فيُذبحون على فُرُشهم...، وكان له دُعاة يُضِلّون الناس...". وقال المُصنِّف بعد ذلك: "... ولمّا هَلَك قام ابنه المُسمّى بالقائم مقامه، وزاد شرُّه على شرِّ أبيه...، وجاهر بشَتْم الأنبياء"، ثم ذكر أمره بسبِّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والصحابة، وقال (أبو شامة) بعد ذلك:"...اللهمّ صلّ على نبيِّك وأصحابه ...، والعن

---

[1] – أبو شامة المَقدسي، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية و الصلاحية**، ج1، (تحقيق: إبراهيم الزيبق)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1418هـ/ 1997م، ص 179. و ج 2 ، ص 213، 214، 215.

هؤلاء الكَفَرة الفَجَرة المُلحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قلعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم."[1]

وذكر أنَّ المُعزّ بن المنصور " بثّ دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك، وهو الشمس التي تطلع من مغربها...، واحتجب عن الناس أيّاما ثمّ ظهر وأَوْهم أنّ الله رفعه إليه، وأنّه كان غائبا في السماء وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلأت قلوب العامَّة والجُهّال منه." وقال المُصنِّف عن سيرة الحاكم ابن العزيز نِزار: "...وفي أيَّام المُلقَّب بالحاكم منهم أمر بكَتْب سبّ الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع...، وفي أيّامه طُوّف بدمشق رجلٌ مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يُحبّ أبا بكر وعمر، ثم ضُربت عُنقه. وكان يجري في أيّامهم من نحو هذا أشياء...، وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلاّ مِحْنة من الله تعالى...، فالحمد لله على ما يسّر من هُلْكهم...". وذكر أنّه ألّف كتابا في بيان أحوالهم، حيث قال: "...أفردتُ كتابا لذلك سمّيته " كَشْف ما كان عليه بنو عُبَيد من الكُفر والكذب والمكر والكَيد "؛ فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به.... وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى عليّ رضوان الله عليه، والتستر بالتشيُّع قد فعله جماعة القرامِطة.... وغيرهم من المفسدين في الأرض...، وكلّهم كَذَبة في ذلك، و إنّما غرضهم التقرّب إلى العوامّ و الجُهّال ... واستجلابهم إلى دعوتهم...". وذكر أبو شامة أنّه " لا بدّ من ذِكْر شيء " ممّا " فعلوه من المنكرات والكُفريات... تنفيرا لمن لعلّه يعتقد إمامتهم...، وليعذر من أزال دولتهم وأمات بِدعتهم..."، كما نقل أبياتا في هِجائهم.[2]

ويتّضح موقفه من الشيعة غير الباطنية من خلال عدَّة تعاليق؛ حيث أشاد بمنع نور الدين محمود الشيعة (في حلب) من سبِّ الصحابة (سنة 543هـ/ 1148م)، وشكّك في بعض ما كتبه المؤرِّخ الشيعي ابن أبي طَيء[3] عن أخبار وسيرة نور الدين. ونقل بعض كلام ابن الجَوْزي في الردّ على مزاعم الشيعة.

---

[1] – أبو شامة المَقدسي، **كتاب الروضتين،** ج 2 ، ص 216، 218، 219.

[2] – المصدر نفسه، ج2 ، ص 218، 219، 220، 221، 222، 223.

[3] – المؤرِّخ الشاعر يحيى بن أبي طَيء حميد بن ظافر بن علي بن الحسين الحلبي الشيعي، وُلِد في حلب عام 575هـ/ 1179م ونشأ فيها، صنَّف عدَّة كتب منها " معادن الذهب في تاريخ حلب" و " الحاوي في رجال الإمامية "، توفي عام 627هـ/ 1230م. (أنظر: شهاب الدين ابن حجر، **لسان الميزان،** ج 6، ط2، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، 1390– 1971م، ص263، 264).

كما نَظَم شعرا في هِجاء غُلاة الشيعة عند ذِكْره حريق المسجد النبوي (سنة654هـ/ 1256م) حيث قال:

"... ونَظَمتُ في حريق مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

لم يحترق حَرَم النبيِّ لحادثٍ يُخشى عليه ولا دهاه العارُ.

لكنّها أيدي الروافض لامست ذلك الجناب فطهّرته النارُ."

وأشار أبو شامة إلى تآمر الوزير ابن العَلْقمي مع التتار.[1]

-ب- مواقف المُصنِّف من أهل الكلام و الصوفية:

من خلال اطّلاعنا على الكتاب محلّ الدراسة وجدنا مواقف قليلة للمُصنِّف تدلّ على تأثّره في الكتابة التاريخية بخلفيته المذهبية الأشعرية، منها نقله و إقراره تحامل ابن الأثير على المُحدِّث يوسف بن آدم[2] باتّهامه له بالتشبيه، ومنها أنّه نقل و أقرّ تحامل العِزّ ابن تاج الأمناء[3] على عبد الغني المقدسي، حيث زعم العِزّ – وهو أشعري– في حديثه عن مِحنة عبد الغني (595هـ/ 1198م) أنّ علماء دمشق قد أجمعوا "على الفُتيا بكُفره " وعلى ذمّه.[4] وممّا يدلُّ على عدم صحَّة هذا الادّعاء قول الذهبي: "... لو أجمعت الفقهاء على تكفيره لَمَا وسعهم إبقاؤه حيًّا؛ فقد كان على مقالته بدمشق أخوه الشيخ العِماد و الشيخ موفَّق الدين " – أي ابن قُدامة – " وأخوه ...الشيخ أبو عمر... وسائر الحنابلة...، وكان بالبلد أيضا خلقٌ من العلماء لا يكفّرونه...". وهذا يُبيِّن أنّ الذين أفتوا بكُفره هم بعض شيوخ الأشاعرة.[5]

وتعجَّب المُصنِّف من تمسّك الموفَّق ابن قُدامة بعقيدة أهل الحديث وعدم اتّباعه مقالة الأشاعرة، وقد

---

(1) – أبو شامة المقدسي، **كتاب الروضتين**، ج1، ص202. و ج 2 ، 118. و **الذيل على الروضتين**، ص23، 194، 199.

(2) – المُحدِّث أبو يعقوب يوسف بن آدم بن محمد بن آدم الدمشقي الشافعي، قال عنه الذهبي: " المُحدِّث الصالح ... من مشايخ السُّنة." وُلد سنة 511هـ/ 1117م، و توفي في حرّان في حوالي عام 569هـ/ 1173م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج20، ص 590، 591).

(3) – هو الفقيه عزّ الدين أبو عبد الله محمد ابن تاج الأمناء أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الدمشقي الشافعي المتوفى عام 643 هـ/ 1245م. (أنظر: المصدر نفسه، ج 23 ، ص 216).

(4) – أبو شامة المَقدسي، **كتاب الروضتين**، ج1، ص 49، 50. و **الذيل على الروضتين**، ص 16.

(5) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج21، ص 464.

علّق الذهبي بعدما ذكر كلام أبي شامة بقوله: " وهو وأمثاله متعجِّب منكم...، وكذا كلُّ فِرقة تتعجَّب من الأخرى."[1] وقد نقل أبو شامة وأقرَّ تحامل العِماد الأصبهاني[2] على أهل الحديث بادّعائه أنّهم من " أهل التشبيه"، حيث كان العِماد أشعريا.[3]

و رغم أنَّ المُصنِّف أشعريٌّ إلاّ أنّه أثنى على بعض من ترجم لهم من أعلام أهل الحديث، ومنهم أبو عمر ابن قُدامة، فوصفه بـ " الزاهد العابد"، وتوسَّع في نقل ثناء سِبْط ابن الجَوْزي عليه، كما نقل أبياتا لأبي عمر في تأييد عقيدة أهل الحديث. وذكر بعض مناقب العِماد إبراهيم بن عبد الواحد المَقدسي، وبيَّن ما كان عليه من الزُّهد، ونقل قول السِّبْط عنه: "... كان... داعية إلى السُّنة...". وقال أبو شامة في ترجمة الموفَّق ابن قُدامة: "... كان إماما من أئمّة المسلمين وعَلَما من أعلام الدين في العلم والعمل صنَّف كُتبا حِسانا في الفقه وغيره..."، ونقل ثناء السِّبْط عليه. وقال في ترجمة عزّ الدين محمد بن عبد الغني المَقدسي: "... وكان حافظا ديِّنا زاهدا وَرِعا...".[4]

ولم يمتعض لمّا تحدَّث عن تعيين السلطان الظاهر بَيْبرس (سنة 663هـ/ 1264م) لثلاثة قُضاة حنفي ومالكي وحنبلي إلى جانب القاضي الشافعي، بل قال: "... وهذا شيء ما أظنُّه جرى في زمان سابق... والله يُسدِّد الجميع بفضله و رحمته...". وهذا الموقف يدلُّ على عدم تعصُّبه لمذهبه الفقهي.[5] كما يدلُّ على ذلك ثناؤه على كثير من الأعلام غير الشافعية، مثل عون الدين ابن هُبَيرة وشرف الدين الحسن بن عبد الله بن عبد الغني المَقدسي.[6]

---

[1] – أبو شامة المَقدسي، **الذيل على الروضتين**، ص 139. و شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج22، ص 172.

[2] – مُصنّف كتاب " الفتح القسي في الفتح القدسي" في سيرة السلطان صلاح الدين. و العِماد هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن عبد الله الأصبهاني الشافعي. قدم الشام و صار من المقربين عند صلاح الدين، توفي عام 597هـ/ 1200م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج21، ص 346، 347، 348).

[3] – أبو شامة المَقدسي، **كتاب الروضتين**، ج4، ص 238.

[4] – أبو شامة المَقدسي، **الذيل على الروضتين**، ص 71، 72، 73، 99، 104، 105، 139.

[5] – المصدر نفسه، ص 236، 237.

[6] – المصدر نفسه، ص 146، 211. و **كتاب الروضتين**، ج1، ص 440.

ونقل أبو شامة عن غيره في بعض التراجم أخبار ملفقة اعتبرها واضعوها كرامات لبعض الأعلام فقد قال – مثلا– في ترجمة ابن غليس[1] : "... وحُكي عنه كرامات جليلة، حكى عنه جماعات من المشايخ..."، ثم نقل بعض ما ذُكر بشأنه، فمن ذلك أنّ ابن غليس كان مسافرا مع قافلة، فتوقّفت هذه الأخيرة، فسأل "ما الخبر؟ فقيل: السبع على الطريق" فتقدم إليه " وهو مُقع على ذنبه "، فقال: " يا كلب الله أنت كلب وأنا عبد الله فاخضع... لمن سكن له ما في السماوات والأرض وهو السميع العليم. فذهب " الأسد. ونجد في تراجم أخرى عدَّة نماذج مثل المثال المتقدَّم ذِكره.[2]

لكنَّ المُصنِّف قد أشار إلى بعض انحرافات الحريرية – وهم من الصوفية–، حيث قال ضمن حوادث عام 645هـ/ 1247م: "... وفي رمضان ... توفي الشيخ علي المعروف بالحريري المُقيم بقرية بسر[3] وكان يتردّد إلى دمشق، وتبعه طائفة من الفقراء، وهم المعروفون بالحريرية...، وباطنهم شرٌّ من ظاهرهم إلاّ من رجع إلى الله منهم. وكان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة والتهاون بها، من إظهار شعار أهل الفسوق والعصيان شيء كثير، و انفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق...، و يجمع مجلسه الغناء الدائم و الرقص... وتَرْك الصلوات... وأفسد جمًّا غفيرًا... ثم أراح الله منه".[4]

-استنتاج:

نستنتج من خلال ما تقدّم ذِكره في هذا العنصر أنَّ المُصنِّف قد حرص على إيضاح انحرافات الباطنية، وكان شديد الذمِّ لهم، وهذا نجده كذلك في مصنَّفات الذهبي وابن كثير. كما لاحظنا عدم تعصّبه لمذهبه الفقهي، وهذا عنصر إيجابي. و لاحظنا ثناءه على عدَّة علماء من أهل الحديث رغم أنّه أشعريٌّ لكنَّه نقل وأقرّ تحامل بعض الأشاعرة على أعلامٍ من أهل الحديث، كما نقل بعض المزاعم التي ادّعى

[1] – هو أبو الحسن علي بن محمد بن غليس اليمني نزيل دمشق المتوفى فيها عام 598هـ/ 1201م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 1151).

[2] – أبو شامة المَقدسي، **الذيل على الروضتين**، ص 30، 126، 227.

[3] – بسر: قرية من أعمال حوران من نواحي دمشق. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 420).

[4] – أبو شامة المَقدسي، **الذيل على الروضتين**، ص 180.

واضعوها أنّها كرامات.

ثانيا- كتاب " مُفرِّج الكُروب في أخبار بني أيّوب" لابن واصل:

مُصنِّف هذا الكتاب هو الفقيه المؤرِّخ جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصِل التميمي الحَمَوي، وُلد بحَماة سنة 604هـ/ 1207م، درس الفقه واهتمّ بالتاريخ والهندسة والطب والأدب وصنَّف عدَّة كتب، و أقام في مصر مدَّة طويلة خلال عهد الملك الأيوبي نجم الدين أيّوب بن الكامل وشهد أثناء إقامته في مصر سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك. وقد اتّصل بالمَلِك الظاهر بَيْبرس فأرسله في سفارة عنه إلى أحد ملوك الفِرنجة، وكانت وفاته في حَماة عام 697هـ/ 1297م.[1]

و أرّخ ابن واصِل في " مُفرِّج الكُروب" للدولة الأيوبية منذ قيامها إلى سقوطها تقريبا في تفصيلٍ وافٍ فابتدأ ذلك بـ " ذِكْر نَسَب بني أيّوب" و ختمه بذِكر حوادث عام 645هـ/ 1247م. وكان المُصنِّف شافعيا في الجانب الفقهي، أمّا عقيدته في مسألة الصفات فلم نجد في كتابه وما اطّلعنا عليه من مصادر ترجمته ما يدلُّ على مذهبه.[2]

وقد ذمَّ في مواضع متفرِّقة من كتابه الباطنية، حيث وصف الإسماعيلية الحشاشين بـ " الملاحدة " وأطلق هذا المصطلح أيضا على إسماعيلية الشام في سياق حديثه عن محاولاتهم اغتيال صلاح الدين الأيوبي(سنة 570هـ/ 1174م)، كما وصفهم بهذا الوصف لمَّا ذكر محاولة أخرى لهم لاغتيال صلاح الدين سنة (571هـ/1175م). وأثنى على السلطان الظاهر بَيْبرس الذي حرص على محاربتهم فقال: "... وبقيت لهم حصون بالشام ففتحها ...المَلِك الظاهر... وطهّر البلاد منهم كما طهّرها من سائر الشِّرك."[3]

---

(1) – صلاح الدين الصفدي، **نكث الهميان في نكت العميان**، ج1، (تحقيق: مصطفا عطا)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1428هـ/ 2007م، ص 237. و جمال الدين ابن واصِل، **مُفرّج الكُروب في أخبار بني أيوب**، ج1، (تحقيق: جمال الدين الشيال)، المطبعة الأميرية، القاهرة – مصر، 1377 هـ/ 1957م، ص 4. و خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص 133).

(2) – جمال الدين ابن واصِل، المصدر نفسه، ج1، ص 3، 6. و صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج1، ص 237. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 864.

(3) – جمال الدين ابن واصِل، المصدر نفسه، ج1، ص61، 209. و ج 2 ، ص 24، 42.

وأشار عند ذِكره وفاة العاضِد إلى من حكم من أجداده في مصر وبلاد المغرب وقال: "... وأمّا مذاهبهم، فدعوتهم باطنية إسماعيلية، وعنهم انتشر دُعاة الملاحدة الباطنية في الآفاق...". وقال أيضا: "... و بالجُملة فمذاهب القوم رديئة مخالفة لكتاب الله وسُنَّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم وما كان عليه السَّلَف الصالح، واعتقادهم في الإلهيات يَنزِع إلى رأي المُتفلسِفة. و إنّما سُمُّوا باطنية لأنّهم يُنزِلون القرآن على معانٍ مُوافقةٍ لرأيهم، ويصرفونه عن ظاهره، ولهم في هذا الباب حديث كثير وخَبْط طويل...". وأبدى ابن واصِل استبشاره بزوال دولتهم و إقامة الخطبة في مصر للعباسيين من طرف صلاح الدين (سنة 567هـ/ 1171م). و ذكر أنّ الأيوبيين قد " طهّروا الديار المصرية من بِدَع الباطنية ". ونقل أبياتا في هجاء شاور[1] وزير العاضِد.[2]

وقال في سياق ذِكره وفاة العاضِد وإشارته إلى من تملَّك من أجداده: "... وقد تكلَّم الناس في أنسابهم فأكثروا وأطالوا، فمِن مُصحِّح ومُبطِل، والله أعلم بغيبه...، إلاّ أنّ الذي أعتقده وحقّقته من تواريخ كثيرة أنّ القوم أدعياء لا حظّ لهم في النسَب الهاشمي...، وممّا يشهد بذلك أنَّ القوم كانوا لا يوصلون نسَبهم، بل ينسبون نفسهم إلى عُبَيد الله المهدي، ثم يقولون: ابن الأئمّة المستورين، ولو كان نَسَبهم صحيحا لصرّحوا كما صرّح بنوا العباس بنسبهم، فهم لمَّا ملكوا " وزال عنهم الخوف " كان ينبغي أن يُصرِّحوا بأسماء أولئك ...إذْ قد زالت العِلّة المقتضية للكَتْم. ولقد حُكي أنّ رجلا رمى ورقة..." (في موضع بالقاهرة، يُخاطب أحد ملوكهم) " وهرب فلم يُعرف، وكان في الورقة:

إنْ كنتَ فيما تدّعي صادقا فاكشف لنا عن جدّك السابعِ.

و إن تُرِد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائعِ.

فإنّ أنساب بني هاشم يقلُّ فيها طمَع الطامعِ." ثم قال المُصنِّف: " ولقد صدق

---

[1] – هو أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار بن عشائر المصري، وزير العاضِد، قُتل عام 564هـ/ 1168م من قِبل صلاح الدين الأيوبي. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 317).

[2] – جمال الدين ابن واصِل، المصدر السابق، ج1، ص 1، 204، 206، 211، 216، 178.

كاتب هذه الورقة؛ فإنّا نجد الأشراف من بني هاشم يصلون أنسابهم ويُصرّحون بها، وهؤلاء يكتمونها فللكتمان عِلَّة لا محالة، وما أظنّ إلاّ أنّ غرضهم أنّهم متى صرَّحوا بالنَّسَب بان زَيْفهم عند النُقّاد...".[1]

وشرح محاولة "جماعة من شيعة " القاهرة تنظيم حركة تمرّد ضد صلاح الدين (سنة569هـ/ 1173م) لإعادة المُلْك لأسرة العاضِد، فذمَّ عملهم و بيَّن كَيْدهم فقال:"...واتَّفق رأيهم على استدعاء الفِرنج من صقلية والشام إلى مصر، وبذلوا لهم شيئا من المال والبلاد. وكان مقصودهم وما انطوت عليه نيّتهم الرَّدِية أنَّ الفِرنج إذا قصدوا البلاد وخرج إليهم صلاح الدين بنفسه ثاروا هم بالقاهرة..... و إن كان صلاح الدين يُقيم ويُرسل العساكر إليهم ثاروا به وأخذوه أخذا باليد لعدم الناصر له والمساعد...، فأرسلوا إلى الفِرنج.... وتقرّرت القواعد بينهم، ولم يبق إلاّ تمام أمرهم، فكان ما قدّره الله من فضيحتهم وانتهاك سرّ نيَّتهم.... ثم اتَّفق وصول رسول الفِرنج بالساحل إلى صلاح الدين بهدية و رسالة، وهو في الظاهر إليه وفي الباطن إلى أولئك الجماعة...، فوضع صلاح الدين على الرسول بعض من يثق إليه من النصارى فداخله فأخبره الرسول بالخبر على الحقيقة." ثم نقل ابن واصِل بعض ما ورد في رسالة أرسلها صلاح الدين إلى نور الدين محمود في ذمِّهم؛ منها: "... فقبضنا على طائفة مُفسدة...، قد اشتملت على الاعتقادات المارِقة، والسرائر المنافقة...، فمنهم من أقام رجلا من بني عمّ العاضِد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضِد...". ومنها: "... وفي أثناء هذه المدَّة كاتبوا سِنانا صاحب الحشيشية بأنَّ الدعوة واحدة والكلمة جامعة." ومنها أيضا وصفهم بـ" الغُواة الغُلاة الدُّعاة إلى النار...". وتضمّنت الرسالة كذلك ذمّ أحد دُعاة الباطنية انتسب إلى العاضِد واستقرَّ في الإسكندرية، حيث عُثر في بيته على كُتب تتضمن انحرافات الإسماعيلية.[2]

ونقل المُصنِّف بعض ما ورد في رسالة أرسلها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المُستضيء بن المُستنجِد، وتضمَّنت ذمّ الباطنية، وذكر دخول جيش نور الدين محمود إلى مصر(564هـ/ 1168م) وما

(1) – جمال الدين ابن واصِل، المصدر السابق، ج1، ص 204، 205، 206.

(2) – المصدر نفسه، ج1، ص 244، 245، 249، 250، 251.

نتج عن ذلك من إقامة الخطبة للعباسيين ومقتل شاور وزير العاضِد؛ فممّا ورد في هذه الرسالة: "... و وصلنا البلاد و بها أجنادٌ عددهم كثير...، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر... فأخرجناهم من القاهرة، حتى بقي القصر ومن به من خَدَم... قد تفرَّقت شيَعه، وتمزَّقت بِدعه... وخفتت ضلالته...". وفيها أيضا ذِكر تحريف الإسماعيلية " للشريعة بالتأويل".[1]

و لاحظنا من خلال اطِّلاعنا على "مُفرِّج الكُرُوب" أنّ مظاهر تأثّر ابن واصِل بالنزعة المذهبية قليلة ومن أسباب ذلك تركيزه على الجانبين السياسي والعسكري، فلم يترجم إلاّ لعدد قليل من الأعلام. وباستثناء تعاليقه على عقائد الباطنية لا نجد في تاريخه معطيات متعلِّقة بالمذاهب إلاّ في مواضع قليلة؛ مثل إشارته في ترجمة المَلِك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي إلى فتنة وقعت في دمشق بين الأشاعرة وأهل الحديث، حيث قال: "... وتعصَّب الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام على الحنابلة جدّا لميله إلى مذهب " الأشاعرة " وجرى بسبب ذلك خَطْبٌ طويلٌ، و أوجب فَرْط العصبية من الشيخ عزّ الدين أنْ كتب إلى المَلِك الأشرف أنّ باب السلامة[2] – لما حَصَر المَلِك الأفضل[3]... دمشق، والمَلِك العادل محصورٌ بدمشق – فتحه بعض الحنابلة...، وقَصَد عزُّ الدين بذلك إيذاء الحنابلة و إغراء المَلِك الأشرف بهم. ولم يكن هذا حسنا من عزِّ الدين، ولا أعجب المَلِك الأشرف، بل غاظه عليه، وكتب في جواب ورقته: يا عزَّ الدين الفتنة نائمة ...، ولمَّا ورد جواب المَلِك الأشرف بهذا أقصر عزُّ الدين والجماعة المتعصِّبون عن الشغب. و وقفت أنا على خط المَلِك الأشرف الذي أجاب به عزّ الدين."[4] فنلاحظ أنّ المُصنِّف قد بيّن تحامل ابن عبد السلام رغم أنّهما على مذهب فقهي واحد (الشافعي) وهذا إنصافٌ منه.

---

[1] – جمال الدين ابن واصِل، المصدر السابق، ج2، ص 26، 27.

[2] – لدمشق ثمانية أبواب منها باب السلامة. (أنظر: محمد بن عبد الله الحِمْيري، المصدر السابق، ج1، ص 240).

[3] – وقعت فتنة خلال عامي (595- 596هـ/ 1198- 1199م) بين المَلِك الأفضل بن صلاح الدين وعمِّه المَلك العادل، فقدم المَلك الأفضل من مصر و حاصر عمَّه في دمشق، و دخل جُند الأفضل من باب السلامة، لكنّهم أُخرجوا من دمشق وفشل الحصار. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 937).

[4] – جمال الدين ابن واصِل، المصدر نفسه، ج5، (تحقيق: حسنين ربيع و سعيد عاشور)، د ن، 1395هـ/ 1975م، ص 141، 142.

وأثنى المُصنِّف على الخليفة العباسي المُستنصِر بالله بن الظاهر بأمر الله فقال: "...كانت سيرته من أحسن السِّيَر في العدل والإحسان إلى الرعية...، وكان سالكا في ذلك كلِّه سيرة أبيه... الظاهر بأمر الله وكذلك سلك مسلكه في اعتقاد مذهب أهل السُّنة والجماعة، والكراهية لمذهب الروافِض...، وسلك ولده المُستعصِم بالله في اتِّباع أهل السُّنة مسلكه، لكن لم يسلك مذهبه في حُسن التدبير...". وأثنى أيضا على الظاهر بأمر الله بن الناصر، وذكر أنّه كان متمسِّكا بـ "مذهب أهل السُّنة ". وقال عن أبيه الناصر: "...كان أبوه في غاية الميل للروافِض." و نقل في سياق حديثه عن مبايعة المُستنصِر بالخلافة (سنة 623هـ/ 1226م) بيتين لأحد الشعراء تضمنا إساءة الأدب على الخليفة الراشد أبي بكر الصديق " وبَيعة المهاجرين والأنصار له "، ثم استنكر ابن واصِل ذلك، فممّا قال: "... إنّ بَيعة الصدِّيق لم تكن بيعة أفضل منها إلاّ البيعة لرسول الله صلَّى الله عليه و سلَّم...".[1]

-استنتاج:

يُمكن أن نقول من خلال دراستنا لهذا الكتاب أنّ مظاهر تأثّر المُصنِّف بالنزعة المذهبية قليلة، ومن أسباب ذلك تركيزه على التأريخ للتطورات السياسية والعسكرية، لكنَّ كتابه اشتمل على ذمِّ الباطنية في عدّة مواضع والإشارة إلى بعض انحرافاتهم، بالإضافة إلى إطلاق مصطلح " الرّافِضة " على الشيعة الغُلاة.

ثالثا- كتاب " ذيل تاريخ مدينة السلام " لابن الدَّبيثي:

ابن الدَّبيثي هو المُحدِّث الفقيه المؤرِّخ أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي سعيد بن يحيى بن علي بن الحجّاج بن محمد الواسِطي الشافعي. و "الدَّبيثي" نسبة إلى دَبيثا، وهي قرية من نواحي واسِط. وُلِد في واسِط عام 558هـ/ 1163م، وسمع الحديث فيها، وحجَّ عام 579هـ/ 1183م. وقد ارتحل في طلب الحديث إلى بغداد والموصل ومصر، وكان من أبرز مُحَدِّثي عصره؛ إذْ وصفه الذهبي بـ "الحافِظ الكبير"

---

[1] - جمال الدين ابن واصِل، المصدر السابق، ج5، ص 315، 316. و ج 4 ، ص 201، 191.

و" العالم الثِّقة الحافِظ ". وكانت وفاته في بغداد عام 637هـ/ 1239م.[(1)]

وتاريخ ابن الدَّبيثي هو ذيلٌ – أي تكملةٌ – على كتاب " ذيل تاريخ مدينة السلام" الذي صنَّفه أبو سَعْد السمعاني[(2)] وذيّل به على " تاريخ مدينة السلام" – أي بغداد– للمؤرِّخ الشهير الخطيب البغدادي.[(3)]

وقد التزم ابن الدَّبيثي بالترجمة لمن كان بمدينة السلام بغداد من الخلفاء و ولاة عهودعم والوزراء والقُضاة والفقهاء والشعراء والصوفية والأعيان، ومن قدمها من أهل العلم وسمع بها أو حدَّث بها أو بغيرها حيث قال في مقدِّمة كتابه: "... جعلناه تاليا لكتاب التاريخ الذي ألَّفه ... أبو سَعْد...السمعاني. وبدأنا من حيث انتهى إليه و وقف عنده إلى زماننا الذي نحن فيه...، و أوردنا عن كلِّ واحدٍ ممّن ذكرناه حديثا أو حكاية أو إنشادا ممَّا وقع إلينا عنه، سالكين في ذلك سبيل الاختصار...". فقد ترجم المُصنِّف لمعظم من توفي في بغداد أو قدم إليها من الأعلام خلال النِّصف الثاني من القرن (6هـ/ 12م) والعقود الأولى من القرن (7هـ/ 13م).[(4)]

وقد وصف ابن الدَّبيثي الباطنية الإسماعيلية بـ " الملاحدة "، حيث قال ضمن ترجمة الفقيه أبي عبد الله محمد بن المأمون بن الرشيد اللّهاوُري الشافعي (ت603هـ/ 1206م): "... من أهل لَهاوُر، أحد بلاد الهند، رحل من بلده في طلب العلم...، ورد العراق وأقام ببغداد... وكتب عن جماعة من أهلها... وسكن بأخرة بلدة من بلاد أذربيجان... فقصده قومٌ من الملاحدة وقتلوه بها." وقال عن الزاهد محمد الأواني[(5)]:

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 249. و **السِّيَر**، ج23، ص 68.

(2) – هو " الحافظ الكبير " المُحدِّث الفقيه المؤرخ أبو سَعْد عبد الكريم بن محمد بن منصور بن محمد بن عبد الجبَّار بن أحمد التميمي السمعاني المَرْوزي الشافعي. صنّف كتبا كثيرة في الحديث و التاريخ وغير ذلك. توفي في مَرْو عام 562هـ/ 1166م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 274، 275).

(3) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، **ذيل تاريخ مدينة السلام**، ج1، ط1، (تحقيق: بشار عواد)، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1427هـ/ 2006م، ص77.

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص 79، 151. و أنظر عن التصنيف في تاريخ المدن: الملحق الرابع ص 404.

(5) – هو الزاهد أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن قايد الأواني (ت584هـ/ 1183م)، و الأواني: نسبة إلى أوانا، وهي بلدة من نواحي بغداد. (أنظر: جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر السابق، ج 2، ص 182، 183. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج1، ص 174).

"... دخل على محمد بن قايد رجلٌ من الملاحِدة... فقتله فَتْكا وهو صائمٌ... سنة أربع وثمانين وخمس مئة...، وأُدرِك قاتله وقُتِل...". وذكر أنَّ المُقرئ المبارك بن أحمد بن سُكَينة البغدادي " كان يؤمُّ" بالخليفة العباسي المُسترشد بالله " وقُتل[1] معه لمّا قتله الملاحدة..."[2]. كما ذكر أنَّ المُحدِّث ابن المكشوط[3] قد انتقل من بغداد إلى غَزْنة و ولي بها الخطابة، ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى بغداد " فعرض له من الملاحدة بكِرمان[4] فقتلوه وأخذوا ما كان معه، وذلك في ... سنة أربع وتسعين وخمس مئة." ووصف الشاعر مزيد بن علي[5] بسوء المذهب. ولم يُبَيّن المُصنِّف سبب هذا الوصف، لكنّنا نتعرّف على السبب من خلال ما ذكره الذهبي عن الشاعر المذكور إذ قال: "... كان نُصَيْريا، سافر إلى سِنان " – أي مُقدَّم إسماعيلية الشام – " وصحبه و انحلَّ من الدين...".[6]

وفي مواضع أخرى اكتفى ابن الدَّبيثي بالإشارة إلى مقتل بعض الأعلام على يد الباطنية، ولم يوظِّف المصطلح السابق ذِكره؛ فقد قال في ترجمة الوزير محمد بن عبد الله ابن المسلمة[7]: "... عزم على الحجّ في سنة ثلاث وتسعين و خمس مئة... فلمّا توجَّه قتله قومٌ من الباطنية...". وذكر أنّ الوزير السميرمي[8]

---

(1) – خلال سنة 529هـ/ 1134م وقعت حرب بين الخليفة العباسي المُسترشد بالله و السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه (ت547 هـ/ 1152م) فهُزم الخليفة و أُسِر، و نقله السلطان معه إلى مدينة مراغة في أذربيجان، فاغتاله نفرٌ من الباطنية هناك. (أنظر: عزّ الدين ابن الأثير، **الكامل**، ج9، ص 283، 284. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج5، ص 93).

(2) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر السابق، ج2، ص 127، 128، 183. و ج3، ص 512.

(3) – هو المُحدِّث أبو الحسن علي بن المبارك بن أحمد بن هبة الله ابن المكشوط الهاشمي البغدادي (ت 594هـ/ 1198م). (أنظر: المصدر نفسه، ج4، ص 528).

(4) – كِرمان إقليم يلي الأهواز إلى الشرق. و الأهواز إقليم في النواحي الشرقية للبصرة. (أنظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 220. و الملحق الأول ص 400).

(5) – الشاعر أبو علي مزيد بن علي بن مزيد الطّائي المعروف بابن الخشكري المتوفّى عام 612 هـ/ 1215م، قدم بغداد و مدح الخليفة الناصر. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 354.)

(6) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر نفسه، ج4، ص 528، 529. و ج5، ص 67، 68. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 13، ص 354، 355.

(7) – الوزير أبو الفَرَج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المُظفّر بن أبي القاسم ابن المسلمة، وزير الخليفة العباسي المُستضيء، اغتيل من طرف الباطنية سنة 595هـ/ 1198م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج12، ص 529.)

(8) – الوزير أبو طالب علي بن أحمد السميرمي، وزير السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه السُّلجوقي. و سميرم المنسوب إليها قرية من قرى أصبهان. (أنظر: جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر نفسه، ج4، ص 384).

قد " عرض له قومٌ من الباطنية فقتلوه فَتْكا، و ذلك في... سنة ست عشرة وخمس مئة."[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ المُصنِّف قد ترجم لبعض أعيان الشيعة الإمامية، فاكتفى بالإشارة إلى اعتقادهم ولم نجد له تعاليق في هذا الشأن كما وجدناها في عدَّة مصنَّفات تقدَّمت دراستها خاصة كُتُب الذهبي وابن كثير. فمن الأمثلة الدالّة على ما ذكرنا قول ابن الدَّبيثي في ترجمة الشاعر ابن الغبريني[2]: "... من أهل واسِط، سكن بغداد... كان ينتحل مذهب الإمامية من الشيعة و يذبُّ عنهم. وقوله ضمن ترجمة عبد الله الدوريستي[3]: "... أحد فقهاء الشيعة الإمامية...، قدم بغداد في سنة ستين وخمس مئة، وأقام بها مدّة وحدَّث بها ... فسمع منه جماعة من المُنتمين إلى مذهبه...". ونقل عن غيره في ترجمة أحد رُواة الشيعة أنَّه " كان يروي كتب الشيعة الإمامية." وقال أيضا بشأن علي بن سعيد بن الحسن ابن العريف البغدادي (ت592هـ/ 1196م): "... يُقال: أنَّه كان حنبلي المذهب وصار شافعيا...، وقد سمع ...الحديث من جماعة...، وانتحل في آخر عمره مذهب الإمامية...".[4]

و لم نقف للمُصنِّف على تعليق يتضمّن التحذير من عقائد الشيعة غير الباطنية إلاّ قوله بشأن أبي عبد الله جعفر بن محمد بن أبي العزّ بن علي البغدادي (ت 602هـ/ 1205م): "... له معرفة بعلم الكلام و اطِّلاع على مذاهب الناس مع تشيّع فيه و غلوّ كان يغلب عليه، لم يُعن بالحديث وطلبه."[5]

و لاحظنا أنَّه لم يُشر في ترجمة الخليفة العباسي الناصر لدين الله إلى تشيُّعه، و وصفه بالعدل والإحسان إلى الرعية.في حين أشار غيره إلى تشيّع الخليفة المذكور، و إلى العناصر الإيجابية والعناصر السلبية في سيرته؛ حيث قال ابن كثير: "... وكان الناصر شيعيا." و قال ابن واصل: "... وكان الناصر

---

(1) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر السابق، ج1، ص 375. و ج4، ص 384.

(2) – الشاعر أبو علي الحسن بن علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي الواسطي نزيل بغداد. رحل إلى الشام و أقام بدمشق وكانت وفاته فيها عام 596 هـ/ 1199م. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 114، 115).

(3) – هو أبو محمد عبد الله بن جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر بن محمد الدوريستي الشيعي، يُنسب إلى قرية من قرى الري يُقال لها دوريست. قدم بغداد وأقام بها مدة ثم رحل عنها، وكانت وفاته بعد سنة 600 هـ/ 1203م. (أنظر: شهاب الدين ابن حجر، **لسان الميزان**، ج3، (المحقّق: دائرة المعارف النظامية – الهند)، ط2، مؤسسة الأعلمي، بيروت – لبنان، 1390هـ/ 1971، ص 269.)

(4) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر نفسه، ج3، ص 114، 144، 179. و ج4، ص 446، 447.

(5) -المصدر نفسه، ج3، ص 62، 63.

لدين الله يتشيَّع و يميل إلى مذهب الإمامية، وهو خلاف ما كان عليه آباؤه من القادر بالله إلى المُستضيء...، فإنّهم كانوا يذهبون مذهب السَّلَف...، فتقدَّم عند الناصر جماعة من جماعة من الشيعة." وذكر أنَّه كان يميل إلى "إلى الروافِض". وقال كذلك: "...كان شهما شجاعا ... حازما ...، وكان مع ذلك رديء السيرة في رعيته، مائلا إلى الظلم و العَسْف...، ومع هذا فكان له برٌّ ومعروف وصدقات...، وكان يفعل أفعالا متضادة." وقال ابن الأثير: "... كان قبيحة السيرة في رعيته ظالما...، وكان يفعل الشيء وضدّه؛ فمن ذلك أنّه...أطلق بعض المكوس التي جدّدها ببغداد خاصَّة، ثم أعادها...". ونقل ابن واصِل في "مُفرِّج الكُروب" والذهبي في " تاريخ الإسلام" أبياتا للناصر تدلُّ على تشيعه.[1]

وقد أبدى ابن الدَّبيثي في مواضع قليلة جدّا من تاريخه استنكاره لبعض أعمال الصوفية، مثل قوله في ترجمة الحويزي[2] بشأن السماع: "... وُلِد... ببغداد ونشأ" فيها "وانتقل في آخر أمره إلى واسِط فسكنها... وكان يُديم الصوم و يُكثِر العبادة، إلاَّ أنَّه كان مُستهترا بسماع الغناء على طريقة الصوفية...".[3]

ونقل في ترجمة محيي الدين ابن عربي الصوفي القائل بوحدة الوجود ادِّعاء لهذا الأخير في مؤلَّف له " ضمّنه منامات" زعم فيها أنَّه رأى النبي صلَّى الله عليه وسلم وسمع منه[4]. وهذا الادِّعاء الصوفي حرص كثير من الصوفية على استعماله، وقد تقدَّمت الأمثلة على ذلك[5].

ونشير إلى أنَّ ابن الدَّبيثي لم ينقل المزاعم الصوفية التي يعتبرها كثير من الصوفية كرامات (تقدَّمت أمثلة منها في دراستنا لبعض المصادر) و هذا عنصر إيجابي، فلم نقف في كتابه على نماذج من تلك

---

(1) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر السابق، ج2، ص 233، 234. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص 159. و جمال الدين ابن واصِل، المصدر السابق، ج4، ص 191، 163، 166، 168. و عزّ الدين ابن الأثير، **الكامل**، ج 10، ص 252، 253. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج13، ص 717.

(2) – هو أبو علي الحسن بن أحمد بن محمد بن محمد بن سليمان الحويزي. و الحويزة: بلدة في جنوب العراق، سمع الحويزي الحديث في بغداد و اهتمّ بالأدب. كانت وفاته في واسِط عام 573هـ/ 1177م. (أنظر: جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر نفسه، ج3، ص 78، 79.)

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص 78.

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص 530، 531.

(5) – لاحظ ص 262، 264.

المزاعم إلاَّ في ترجمتين.[(1)]

ولم يتعرّض إلى الخلاف بين الأشاعرة وأهل الحديث، ويتَّضح هذا من خلال عدَّة تراجم، فقد ترجم – مثلا– للشِّهاب الطُّوسي الأشعري، ولم يتطرَّق إلى ما كان يجري بينه وبين زين الدين ابن نُجَيّة من خلاف (في مصر). ولم يتطرَّق في ترجمة عبد الغني المَقدسي إلى المِحنة الشهيرة التي تعرَّض لها في دمشق على يد بعض الأشاعرة (سنة 595هـ/1198 م)، و إنّما قال: "... و خرج من دمشق قبل وفاته بقليل إلى مصر وسكنها إلى أن مات بها...". و لاحظنا أنَّ المُصنِّف لا يُشير إلى عقائد المترجم لهم في مسألة الصفات؛ فلم نقف في كتابه إلاّ على ثلاث تراجم أشار فيها إلى ذلك؛ حيث قال في ترجمة الأديب النحوي محمد بن مسعود بن محمد الهَرَوي (ت 608هـ/ 1211م): "...أديبٌ له معرفة بالنحو واللغة... ويذهب إلى مذهب الكرامية. قدم بغداد حاجًّا في سنة سبع أو ثمان وست مئة... فحجَّ وعاد إلى بلده...". وقال في ترجمة ابن الزيتوني[(2)]: "... وكان يذبُّ عن مذهب المعتزلة." وقال أيضا بشأن الأديب أبي الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي الخُوارزمي الحنفي: " كان بارعا في أنواع الأدب والشعر...، وكان رأسا في الاعتزال داعية إليه...، قدم علينا بغداد سنة إحدى وست مئة...، توفي " في خُوارزم " سنة عشر وست مئة...".[(3)]

ويمكن أن نقول من خلال اطّلاعنا على الكتاب محلّ الدراسة أنّ ابن الدَّبيثي – وهو شافعيٌّ– لم يتحامل على أعلام المذاهب الأخرى، وهذا عنصر إيجابي، والأمثلة الدالّة على ما ذكرنا كثيرة؛ منها ثناؤه على الفقيه أبي الفضل شجاع بن الحسن بن الفضل البغدادي الحنفي (توفي في بغداد سنة557هـ/ 1162م)، والفقيه محمد بن محمد بن الحسين البغدادي الحنفي المتوفّى في بغداد عام546هـ/ 1151م.

[(1)] – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر السابق، ج1، ص 530، 531. و ج4، ص 410، 411.

[(2)] – هو أبو جعفر عبد السيد بن علي بن محمد بن الطيب البغدادي، يُعرف بابن الزيتوني. كان مُتكلِّما داعية إلى الاعتزال، توفي في بغداد عام 542هـ/ 1147م. (أنظر: عبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المُنتظم**، ج18، ص 59).

[(3)] – جمال الدين ابن الدَّبيثي، ج 2 ، ص 84، 131. و ج 4 ، ص264، 275. و ج 5، ص80.

ومنها أيضا ثناؤه على الفقيه أبي الفَرَج عبد الرحمان بن شجاع بن الحسن البغدادي الحنفي (ت609هـ/ 1212م)، وثناؤه على الفقيهين عبد القادر الرُهاوي الحنبلي وعبد المُغيث بن زُهير البغدادي الحنبلي،حيث قال في ترجمة الأخير:"...عني بطلب الحديث...، وكان ثِقة صالحا صاحب سُنّة وطريقة حميدة..."[1].

- استنتاج:

نستنتج من دراستنا لـ " ذيل تاريخ مدينة السلام" قلَّة مظاهر تأثّر ابن الدَّبيثي بالنّزعة المذهبية ولاحظنا أنّه لم يتحامل على الفقهاء غير الشافعية، ولم ينقل المزاعم الصوفية إلاَّ في ترجمتين. و لاحظنا كذلك أنَّه وصف الباطنية في مواضع متفرِّقة بـ "الملاحدة "، وفي ذلك ذمٌّ لهم. وقد اكتفى في معظم تراجم الإمامية بالإشارة إلى عقيدتهم. كما لاحظنا أنّه لم يتعرّض للخلاف بين الأشاعرة و أهل الحديث.

رابعا– كتابا " بُغية الطَّلَب في تاريخ حلب " و " زُبدة الحَلَب من تاريخ حلب" لكمال الدين ابن العديم:

ابن العديم هو الفقيه المُحدِّث المؤرِّخ كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله الحلبي. وُلِد سنة 588هـ/ 1192م في حلب ونشأ فيها، وكانت أسرته من أبرز الأُسَر الحلبية. ارتحل إلى دمشق و القدس الحِجاز و العراق. وقد كانت له صلة بالمَلِك الظاهر غازي ابن صلاح الدين الأيوبي صاحب حلب. ولما توجّهت جيوش هولاكو إلى حلب (657هـ/ 1259م) سافر ابن العديم إلى مصر حيث كانت وفاته في القاهرة عام 660هـ/ 1262م.[2]

وكتاب " بُغية الطَّلَب في تاريخ حلب" مُصنَّف ضخم شرع فيه ابن العديم بالحديث عن شمالي بلاد الشام وذِكْر المدن والبلدات مع التطرّق للحوادث التاريخية البارزة التي شهدتها، ثم انتقل إلى الترجمة لأعلام شمال الشام ممّن وُلد هناك أو مرّ أو سكن، من أمراء وملوك وعلماء وأدباء وأعيان وصوفية...

---

(1) – جمال الدين ابن الدَّبيثي، المصدر السابق، ج3، ص 375. و ج 2 ، ص15. و ج 4، ص 28، 29، 259، 304.

(2) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 937. و كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب في تاريخ حلب**، ج1، (تحقيق: سهيل زكار)، دار الفكر، بيروت – لبنان، د ت، ص 9، 10.

و رتَّب الأعلام على حروف المُعجم. ولم يقتصر على أعلام فترات التاريخ الإسلامي، بل ترجم لبعض أعلام الفترات السابقة.[1]

أمَّا كتاب " زُبدة الحَلَب من تاريخ حلب" فقد صنَّفه بطلبٍ من المَلِك العزيز بن المَلِك الظاهر بن صلاح الدين (ملك حلب بين عامي613- 634هـ/ 1216- 1236م) و خصَّصه لتاريخ أمراء حلب وملوكها وقُضاتها، وانتزع مادَّته من " بُغْية الطَّلَب".[2]

ومذهب ابن العديم في الفقه هو المذهب الحنفي، أمّا في مسألة الصفات فلم نقف في كتابيه على ما يدلُّ بوضوح على مذهبه، لكنَّنا لمسنا من خلال تراجم قليلة جدّا نوعا من الميل إلى أهل الكلام من الأشاعرة و الماتُريدية[3]، ونوضّح مدى تأثّر مُصنَّفَيْه بالنزعة المذهبية فيما يلي:

-أ- مواقف المُصنِّف من الشيعة:

صرَّح ابن العديم في سياق ذِكره بعض الأخبار بذمِّ الباطنية؛ فقد وصف الإسماعيلية في إحدى التراجم بـ "الملاحدة ". وقال في إحدى التراجم بشأن الدُّروز: "... وأهل تلك الجبال " – أي التي يتمركز فيها الدُّروز– " أكثرهم... دُرْزية يستبيحون ذوات الأرحام، ولا يعتقدون تحريم الحرام." وقال عنهم كذلك في موضع آخر: "...اجتمع بجبل السماق قومٌ يُعرفون بالدُّرْزية... وجاهروا بمذهبهم، وخرَّبوا ما عندهم من المساجد، و دفعوا نُبُوَّة الأنبياء... و أحلُّوا نكاح المحارم، وتفاقم أمرهم، وتحصَّنوا في مغائر شاهقة... وانضوى إليهم خلقٌ من فلاّحي حلب، وطمعوا في الاستيلاء على حلب."(سنة 423هـ/ 1032م). وذكر أنّ الحسين بن زكرويه القُرْمطي " أفسد بالشام وعاث في بلادها وغلب على أطراف حِمْص...، وسار إلى حَمَاة ومَعرَّة النُّعمان وغيرهما من البلاد، فقتل أهلها والنساء والأطفال...". (سنة 290هـ/ 903م). كما

---

[1] – كمال الدين ابن العديم، المصدر السابق، ج1، ص 7.

[2] – كمال الدين ابن العديم، **زُبدة الحَلَب من تاريخ حلب**، ج1، ط1، (تحقيق: سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق – سوريا، 1418هـ/ 1997م، ص 21.

[3] – كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب**، ج10، ص 250، 252.

ذكر أنَّ القرامِطة قد حاصروا حلب (سنة 290هـ/ 903م) فخرج إليهم أهلها فنصر " الله الرعية من أهل حلب عليهم...". وقال عن أحد دُعاتهم: "...أظهر الزُّهْد و الورع وتسوَّق به على الناس مكيدة و خُبثا." وصرَّح المُصنِّف بلعن زكرويه القُرْمطي لمَّا ذكر إغارته على قافلة من الحُجّاج وقتله الرجال وسَبْيه النساء (سنة 293هـ/ 906م)، وصرّح أيضا بلعن الحسين بن زكرويه لمَّا أشار إلى ما قام به القرامطة من قَتْلٍ وسَبْي في الشام (سنة 290هـ/ 903م).[1]

ونقل المُصنِّف في عدَّة تراجم ذمَّ غيره للباطنية؛ فقد نقل في إحدى التراجم ذمّ أحد العلماء للإسماعيلية، ونقل في سياق حديثه عن اغتيالهم سُنقر البُرسقي[2] وصف عالم آخر لهم بـ "الملاحدة " ولعنه لهم. كما نقل وصف أحد أعيان حلب لهم بـ "المُلحدة " و" الملاحدة ". ونقل عند ذكره بعض ما ارتكبه القرامِطة من جرائم في الشام (سنة 290هـ/903م) وصف أحد الفقهاء لهم بـ " المارِقة "و" الفَسَقة". وفصَّل في موضع آخر في نقل أخبار ما ارتكبوه في بعلبك وحَماة ومدن أخرى خلال السنة المذكورة آنفا من قَتْلٍ وتنكيلٍ وانتهاكٍ للحُرُمات ونهبٍ. وأشار إلى بعض ما قيل في ذمّ زكرويه القُرْمطي ودُعاته.[3]

ولم يُعلِّق ابن العديم في مواضع كثيرة على ما ذكره من أخبار متعلِّقة بالباطنية؛ فمنها ما ذكره بشأن اغتيال الإسماعيلية لجناح الدولة[4] في حِمْص عام 495هـ/ 1102م، وما ذكره بشأن ازدياد عددهم في حلب خلال عهد السلطان السلجوقي رضوان حيث قال:"... وكان أمر الباطنية قد قوي بحلب... وتابعهم

---

[1] – كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب**، ج 4 ، ص 289، 290. و ج7، ص 223. و ج 2، ص188، 189، 196، 197. و **زُبدة الحَلَب**، ج1، ص 211، 212، 94.

[2] – هو سيف الدين أبو سعيد آقسُنقر المعروف بقسيم الدولة البُرسقي. ولي إمرة الموصل للسلاجقة. وفي عام 518هـ/ 1124م كاتبه الحلبيون لمّا حاصرهم الفِرنجة، فسار إليهم و ترحّل الفِرنجة عنها ومَلَكها البُرسقي. وفي عام 520هـ/ 1126م اغتاله نفر من الإسماعيلية. (أنظر، شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 313، 314.)

[3] – كمال الدين ابن العديم، **زُبدة الحَلَب**، ج4، ص 95، 96، 277. و ج8، ص 91، 92. و ج7، ص 232. و ج 2 ، ص 191، 192، 195.

[4] – هو حسين بن ملاعب المعروف بجناح الدولة "صاحب حِمْص"، كان مُقرّبا عند السلطان رضوان السلجوقي، ثم فارقه عام 490هـ/ 1097م و انتقل إلى حِمْص حيث اغتاله نفر من الإسماعيلية عام 495 هـ/ 1102.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **المصدر نفسه**، ج 10، ص 682).

خلقٌ كثيرٌ على مذهبهم طلبًا لجاههم، وصار كلّ من أراد أن يحمي نفسه من قَتْلٍ أو ضَيْمٍ التجأ إليهم ...". ومنها تطرُّقه لإخراجهم من حلب سنة 517هـ/ 1123م من قِبَل بلك بن بهرام[1]. كما نجد أمثلة أخرى تدلُّ على الملاحظة المتقدَّم ذِكرها.[2]

ونَقَد بعض ما أورده من مزاعم و عقائد الشيعة من غير الباطنية؛ فقد قال بشان وَقْف الزامر[3]: "... وعوامُّ حلب و رعاعها يقولون: أنّ وَقْف الزامر وُقِف على ولد الذي زمر بين يدي رأس الحسين عليه السلام ... وهذا لا أصل له ولا صحّة...". و ذكر أنّ شرف الدولة مسلم بن قريش كان مُغاليا في التشيُّع. كما ذكر أن أبا المجد بن فضلان[4] " كان شيعيا غاليا." [5]

ولم يُعلِّق على معظم ما ذكره من أخبار متعلّقة بالشيعة؛ فمنها ذِكره نقل سيف الدولة الحمداني الشيعي جماعة من الشيعة من حرَّان إلى حلب(سنة 351هـ/ 962م) ممَّا أدى إلى انتشار عقائد الإمامية فيها. ومنها شرحه لبعض أعمال البساسيري في بغداد (سنة450هـ/ 1058م)، خاصّة قطعه الخطبة للعباسيين و إقامته الخطبة للمُستنصِر صاحب مصر ونهبه دار الخلافة. ومنها كذلك إشارته إلى فتنة جَرَت في حلب عام 569هـ/ 1173م بين أهل السُّنة والشيعة. و إشارته في ترجمة أبي علي الحلبي[6] إلى بعض ما صنَّفه للشيعة من كُتب.[7]

ولمَّا ذكر المُصنِّف منطقة صِفّين تطرَّق لأخبار الوقعة الشهيرة التي جرت فيها خلال الفتنة الكبرى

---

[1] – الأمير بلك بن بهرام بن أُرتق، تملّك حلب عام 517هـ/ 1123م، و كانت وفاته عام 518هـ/ 1124م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 163).

[2] – كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب**، ج6، ص 198، 199. و **زُبدة الحَلَب**، ج1، ص 374، 413.

[3] – وَقْف الزامر: أرض في نواحي حلب موقوفة على أسرة حلبية.(أنظر: كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب**، ج1، ص 222، 225).

[4] – الشاعر أبو المجد بن فضلان البغدادي الشيعي، قدم حلب سنة 585هـ/ 1189م، و لم أقف على سنة وفاته.(أنظر: المصدر نفسه، ج 10، ص186، 187.)

[5] – المصدر نفسه، ج1، ص 225، 222. و ج5، ص 183، 184. و ج 10، ص 136، 137، 186، 187.

[6] – هو أبو علي الحسن بن أحمد بن علي بن المعلم الحلبي، أحد شيوخ الشيعة في حلب. توفي بعد سنة 453 هـ/ 1061م. (أنظر: المصدر نفسه، ج5، ص 153، 154).

[7] – المصدر نفسه، ج1، ص 10، 11. و ج 3، ص 199، 200. و ج4، 153، 154.

ولمَّح إلى ردِّ قول الإثني عشرية في تكفيرهم أهل الشام الذين شهدوا صِفّين؛ حيث خصَّص فصلا لبيان " أنَّ مُعاوية ومن كان معه بصِفّين لم يخرجوا عن الإيمان بقتال عليٍّ" رضي الله عنه. واستدلَّ بعدَّة أدلّة وفصَّل الكلام في هذا العنصر. و أكَّد من ناحية أخرى أنّه " لا خلاف بين أهل القِبْلة في أنّ عليًّا رضي الله عنه إمامٌ منذ ولي الخلافة "، و أنّه كان مُصيبا في محاربته أهل الشام، و أفرد ابن العديم لذلك فصلا طويلا، فممّا ذكر فيه مقتل الصحابي عمّار بن ياسر و الحديث الصحيح: " تقتله الفِئة الباغية "، فأشار المُصنِّف إلى أنّ هذا الحديث فيه دلاله على أنّ " الحقّ مع عليٍّ رضي الله عنه "، لأنّ قَتْل عمّار كان من قِبَل جيش الشام، حيث شهد صِفّين مع علي بن أبي طالب. كما أشار إلى عبارة أضافها بعض الرواة إلى الحديث السابق، ثم نقل كلاما للخطيب البغدادي في بيان عدم صحَّتها.[1]

ونقل ابن العديم كذلك ضمن حديثه عن وقعة صِفّين حديثا وضعه بعض رُواة الشيعة لثلْب بعض الصحابة، ثم أشار إلى عدم صحَّته. وأشار في أكثر من موضع إلى انحراف الخوارج.[2]

- ب- تأثُّر المُصنِّف بادِّعاءات الصوفية:

لقد نقل ابن العديم و أقرَّ عدَّة ادِّعاءات صوفية وُضعت باسم الكرامات وأصبحت ذات رواج خلال (ق7 – 8هـ/ 13-14م)؛ فقد نقل في ترجمة ربيع بن محمود المارديني[3] الصوفي(602هـ/ 1205م) عدَّة نماذج، إذْ ذكر أنّ المارديني قال: "...كنت بالمدينة على ساكنها السلام أعمل... وأسقي بالقربة، وما يحصل لي في النهار أعمل به جفنة للفقراء مدّة اثني عشرة سنة، ولمّا كان بعد ذلك جعلت أرى كلّ من ألقاه يكلّمني بكلام حِكمة من الطير والدواب والجماد والحيطان وغيرها...". و ذكر أنّ المارديني سافر إلى مكة مع رفاقٍ له فتاهوا في الليل عن الطريق؛ فقال لهم: " قِفوا فإنَّ الطريق قد اشتبه علينا"، ثم قال لهم:

---

[1] – كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب**، ج1، ص ص 100 – 109.

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص 100، 101، 105، 106.

[3] – هو أبو الفضل ربيع بن محمود بن هبة الله المارديني الحنفي. (و ماردين: بلدة في الجزيرة الفُراتية)، قدم إلى حلب عدَّة مرات و أُقيمت له زاوية فيها، و كانت وفاته عام 602هـ/ 1205م في بيت المقدس. (أنظر: المصدر نفسه، ج8، ص 34، 35، 44. وحسين مؤنس، المرجع السابق، ص 221).

"سيروا بنا"، فوصلوا مكة، فقالوا له: "...قلت لنا: بيتوا فقد تهنا، ثم بدا لك فسرت بنا... ولم نته عن الطريق؟ فقال: لمّا قلت لكم قِفوا اشتبه عليَّ الطريق، فقلت لكم ذلك، فبعد ساعة رفع الله البيت لي حتى علا على جميع الجبال، فوقع نظري عليه فقصدته...". كما ذكر ابن العديم أنَّ الصوفي المذكور جاءه – وهو في المسجد النبوي– رجلٌ فسأله عن مسألة فقهية فأجابه، و لمَّا انصرف الرجلُ قال الصوفي: "... من أنا حتى أفتي بمحضر من رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم...، فأخذني حياء عظيم وخجل، فنمت وأنا قاعد فرأيته صلّى الله عليه وسلّم وهو يقول لي: أفلحت دنيا وآخرة ولو لم تعرف إلاّ هذه المسألة لكفتك... فاستيقظت فسمعته يقول لي وأنا مستيقظ: أفلحت دنيا وآخرة...". و لا شكّ في أنّ إقرار المُصنِّف لهذه المزاعم – التي تتضمَّن الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلَّى الله عليه وسلّم– يدلّ على التأثّر بالتصوف. وقد تضمّنت ترجمة الماريدني ادِّعاءات أخرى[1]. مع الإشارة إلى أنّ الذهبي قد قال في ترجمة هذا الأخير: "...الربيع بن محمود الماريدني دجّالٌ مُفْتَر...".[2]

وفي " بُغية الطَّلَب" أمثلة أخرى مثل التي تقدَّم ذِكرها؛ منها ما نقله في ترجمة روزبهان[3]، وهو صوفي عُرف بالصياح؛ فكان بين فترة وأخرى يصيح صياحا عظيما، و ربّما عَرَض له ذلك في الصلاة فيصيح في الصلاة، فنقل المُصنِّف خبرا مضمونه ادِّعاء أحد رفاق روزبهان أن هذا الأخير يُكاشف (أي يطلع على مُغيبات)، وذكر استدلال رفيق آخر للصوفي المذكور بمنام مزعوم اعتبره كرامة. وممَّا يدلُّ على إقراره لهذه المزاعم قوله في بداية الترجمة: "... وكان له كرامات ظاهرة." رغم أنه نقل عن غيره أنّ روزبهان كان " يدخل في السماع " ويرقص هو وأصحابه.[4]

---

[1] – كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلب**، ج 8 ، ص 36، 37، 38، 39، 42.

[2] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج 3 ، ص 66.

[3] – هو روزبهان بن أبي بكر بن محمد بن أبي القاسم الصوفي. كان مقيما بالموصل، ثم خرج عنها إلى حلب، ثم سافر إلى دمشق وأقام بها مدّة، ثم خرج منها إلى مصر فأقام بها إلى أن مات سنة 578هـ/ 1182م. (أنظر: كمال الدين ابن العديم، المصدر نفسه، ج8، ص 129، 130).

[4] – المصدر نفسه، ج8، ص 129، 130، 131.

ومن الأمثلة الدالّة على هذا الإقرار قوله ضمن ترجمة زكري[1] الحلبي: "... كان عندنا بحلب، وكان كثير الصحبة لعَمّي و والدي...، وتظهر له كرامات كثيرة...، وكان يخبرنا بأمور أنّها تقع فتقع على ما أخبر به..."، رغم أنَّه قال في بداية الترجمة: "... و اتّخذ له كعاب[2]غزلان مصبغة، وجعلها في كيس وكان إذا أخبر بوقوع شيء يقول: أخبرتني الكُعَيبات..."! وفي مواضع متفرّقة أمثلة أخرى تُشير إلى بعضها كقول المُصنِّف عن أحد الأعلام: "... وقيل أنّه رُؤي وهو راكب الأسد." وقوله في ترجمة عَلَم آخر: "...أحد الأولياء المُكاشِفين." ونقل ادِّعاء بعض الصوفية أنّ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: " من أكل مع مغفور له غُفِر له "، مُستدلِّين بمنام مزعوم مثل المنامات التي تقدَّم ذِكرها.[3] مع التنبيه إلى أنَّ المحقِّقين قد أكّدوا أنّ هذا الحديث موضوع.[4]

ومن أعجب أكاذيب الصوفية التي نقلها و أقرَّها قول أحدهم: " رأيت النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام وقال: ... شابكني فشابكته، ثم قال: من شابكني دخل الجنَّة، ومن شابك من شابكني دخل الجنَّة ... إلى سبعة." وقد كان بعض الصوفية – ومنهم ابن عربي– يُرَوِّجون لهذه الخُرافة، و يُشابِك بعضهم بعضا إذا التقوا."[5] لكنَّ المُصنِّف أشار ضمن ترجمة الفقيه أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد الغَزْنوي المعروف بالتّاج الحنفي نزيل حلب (ت 593هـ/ 1197م) إلى استنكار هذا الأخير ما يقوم به كثير من الصوفية من السماع.[6]

و لاحظنا أنَّه لا يتعرّض للخلاف بين أهل الحديث والمُتكلِّمين إلا في تراجم قليلة؛ مثل قوله ضمن

(1) – لم أقف على ترجمته في مُصنّفات أخرى، توفي في حلب عام 609 هـ/ 1212م. (أنظر: كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلَب**، ج8، ص 199، 200).

(2) – الكعب: العظم الناتئ عند ملتقى الساق و القدم. (أنظر: مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة – مصر، 1425هـ/ 2004م، ص 790).

(3) – كمال الدين ابن العديم، المصدر نفسه، ج8، ص 129، 130، 131. و ج1، ص 186، 187. و ج6، ص 265، 266.

(4) – قال ابن كثير: "...هذا الحديث لا أصل له." وقال تقيّ الدين ابن تيمية: "... هذا ليس له إسناد عند أهل العلم ...". (أنظر: ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الضعيفة و الموضوعة**، ج1، ص 486).

(5) – كمال الدين ابن العديم، المصدر نفسه، ج3، ص 67، 68.

(6) – المصدر نفسه، ج3، ص 2، 3.

ترجمة أبي سَعْد السمان: " الحافظ الزاهد، رحل إلى البلاد و جال، وأكثر من الشيوخ في الترحال وكان في الحفظ والثِّقة على أجمل حال، وأفسد حُسن هذه الحال بانتِحاله مذهب الاعتزال...وكان إماما في الفقه".(1)

- استنتاج:

تضمَّن تاريخ ابن العديم بعض مظاهر استنكار عقائد و أعمال فِرَق الشيعة، وفي مواضع كثيرة لم يُعلِّق على المعطيات المذهبية المتعلّقة بهم. وقد تأثر المُصنِّف بالتصوف من خلال نقله و إقراره لكثير من الأخبار الملفقة التي راجت خلال (ق7-8هـ/ 13-14م) واعتُبرت كرامات. ونرى من خلال اطِّلاعنا على هذا المصدر أنَّ ابن العديم – وهو حنفي– لم يتحامل على فقهاء المذاهب الأخرى.

خامسا- كتاب " ذيل تاريخ بغداد" لابن النجّار:

ابن النجّار هو الفقيه المُحدِّث "الحافظ " المؤرِّخ محبّ الدين أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن البغدادي المعروف بابن النجّار.(2) وُلِد في بغداد عام 578هـ/ 1182م وطلب العلم فيها، و ارتحل إلى أصبهان و هَراة و نيسابور و مَرْو، و ارتحل أيضا إلى الشام ومصر. و صنَّف عدَّة كتب في الحديث والتاريخ وغير ذلك؛ منها " جنة الناظر في معرفة التابعين"، "مناقب الشافعي" " نَسَب المُحدِّثين إلى الآباء و البلدان". و منها كذلك " ذَيْل تاريخ بغداد"، و فيه ترجم لعدد كبير من الأعلام؛ قال الذهبي: "... وصنَّف التاريخ الذي ذيَّل به على تاريخ بغداد للخطيب ...". و نُشير إلى أنّ مذهب ابن النجّار في الفقه هو المذهب الشافعي، أمّا مذهبه في مسألة الصفات فلم يتبيّن لنا؛ إذ لم يُشِر إلى الخلاف بين أهل الحديث والمُتكلِّمين إلاّ في تراجم قليلة. وكانت وفاة ابن النجّار سنة 643هـ/ 1245م في بغداد.(3)

ونرى من خلال اطّلاعنا على الأجزاء التي وُفقنا في الاطِّلاع عليها من تاريخ ابن النجّار أنّ هذا

(1) – كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطَّلب**، ج4، ص ص 118، 121.

(2) – كان والده (ت 586هـ/ 1190م) مُقدّم النجّارين بدار الخلافة.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج23، ص134).

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 478، 479، 480. و **السِّيَر**، ج 23 ، ص 131، 132، 133.

الأخير لا يتعرَّض للمعطيات المتعلّقة بالفِرَق و المذاهب إلاّ في مواضع قليلة، منها وصفه الإسماعيلية بـ" الملاحدة "عند ذِكْره اغتيالهم الخليفة المُسترشد (سنة 529هـ/1134م) حيث قال: "... وكان الإمام المُسترشد ذا شهامة وهيبة وشجاعة...، و رزقه الله الشهادة على يد الملاحدة...". ومنها نقله وصف المُحدِّث " الحافظ" محمد بن ناصر البغدادي لهم بـ " الملاحدة "، ونقله قول أبي بكر اللُّفتواني[1] عن مقتل القاضي عُبَيد الله الخطيبي[2]: "... قُتِل قاضي القضاة...عُبَيد الله بن علي ... بهمذان... سنة اثنتين وخمسمائة قتله مُلحِد من المُلحِدين...".[3]

و أشار المُصنِّف في تراجم قليلة إلى تشيّع بعض الأعلام؛ كقوله عن أحدهم: "... وكان من شيوخ الشيعة." وقوله ضمن ترجمة علي بن أحمد البغدادي[4]: "...من أهل الكرخ... وكان شيعيا." وقوله في ترجمة عَلَم آخر: "... وكان يتشيّع." كما قال في ترجمة راو آخر: "...كان من شيوخ الشيعة." وقال بشأن علي بن محمد ابن المُعلم[5]: "... كان والده من شيوخ الشيعة و رؤسائهم، وله مُصنَّفات على مذهب الإمامية...". وذكر المُصنِّف أنّ الواعظ أبا الحسين علي بن نصر بن هارون الحلّي النحوي (ت615هـ/ 1218م) "كان يتشيّع". وأشار ضمن ترجمة أبي نَصْر العلوي[6] إلى قول أبي سَعْد السمعاني بشأنه: "...

---

[1] – الفقيه المُحدِّث " الحافظ " أبو بكر محمد بن أبي نَصْر شجاع بن أحمد بن علي اللُّفتواني الأصبهاني. و لُفتوان: إحدى قرى أصبهان. توفي سنة 533هـ/ 1138م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 602، 603. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج11، ص27).

[2] – القاضي أبو إسماعيل عُبيد الله بن أبي الحسن علي بن عُبَيد الله الخطيبي الحنفي، اغتاله نفرٌ من الإسماعيلية بهمذان سنة 502هـ/ 1108م. (أنظر: محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج2، (تحقيق: محمد عظيم الدين)، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، د ت، ص 87).

[3] – محبّ الدين ابن النجّار، **تتمة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج2، ط1، (تحقيق: مصطفى عبد القادر)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1417هـ/ 1996م، ص 144، 148. و **ذيل تاريخ بغداد**، ج2، ص 87).

[4] – المُحدِّث أبو القاسم علي بن أحمد بن طاهر بن حمد البغدادي. لم أقف على سنة وفاته، لكنّه من أعلام القرن السادس الهجري (ق12م). (أنظر: محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج3، ص66).

[5] – هو علي بن محمد بن محمد بن النُّعمان بن المُعلم البغدادي أحد شيوخ الشيعة، توفي عام 461هـ/ 1069م. تقدّم ذِكر والده المعروف بابن المعلم. (أنظر: محبّ الدين ابن النجّار، **تتمة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج19، ص 48).

[6] – هو أبو نصر علي بن أحمد العلوي الشيعي، من أهل المدائن. لم أقف على سنة وفاته، و هو من أعلام القرن السادس الهجري (ق12 م). (أنظر: محب الدين ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج3، ص 32، 33).

"...علي بن أحمد... أبو نَصْر...، وهو غال في التشيُّع."[1]

ونقل ابن النجَّار في تراجم قليلة بعض أقوال العلماء في التحذير من مقالة المُعتزلة؛ إذْ نقل كلاما لأبي الحسين بن خالويه[2] في هذا الشأن. ونقل في إحدى التراجم تحذير هارون بن معروف[3] ممَّن يزعم " أنَّ القرآن مخلوق". كما نقل تحذير علي بن موسى الكاظِم العلوي من المُعتزلة. وأشار إلى ذمِّ الفضل[4] بن عِكْرمة لهم.[5]

ومن الملاحظات البارزة على تاريخ ابن النجَّار عدم تعرّضه للخلاف بين الأشاعرة وأهل الحديث إلاّ بإشارات قليلة، مثل نقله و إقراره تحامل عتيق بن عبد الله البكري الأشعري على أهل الحديث في بغداد و وصفه لهم بـ " الشياطين" مستغلاّ مكانته عند الوزير السُّلجوقي نِظام المُلْك.[6] وكان البكري – كما ذكر ابن الجَوْزي– " ممّن لا خَلاق له " و " فيه حِدّة و طيش"، وذكر الذهبي أنه " كان من غُلاة الأشاعرة."[7] لكنَّ ابن النجَّار قد أثنى على كثير ممّن ذكرهم من علماء أهل الحديث؛ مثل ثنائه على عبد الغني المَقدسي بقوله: "... و كان كثير العبادة ورِعا متمسِّكا بالسُّنة على قانون السَّلَف"، و ثنائه على محمد بن ناصر البغدادي إذْ قال: " كان ثِقة ثَبْتا حسن الطريقة متديِّنا...".[8]

---

(1) – محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج2، ص28، 43. و ج3، ص 66، 129، 32، 33. و **تتمّة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج 19، ص 47، 158.

(2) – هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن حمدان بن خالويه الهمذاني النحوي نزيل حلب. له مُصنَّفات في اللغة و النّحو. توفي في حلب عام 370هـ/ 980 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج8، ص 321).

(3) – هو المُحدِّث أبو علي هارون بن معروف المَرْوزي نزيل بغداد، قال عنه الذهبي: "... و كان ... فاضلا صاحب سُنّة." توفي سنة 231هـ/ 846م. (أنظر: المصدر نفسه، ج5، ص954، 955).

(4) – هو المُحدِّث أبو العباس الفضل بن عِكرمة بن طارق السرخسي الأصل. نشأ ببغداد و قدم بلخ و حدَّث بها. توفي عام 254هـ/ 868م. (أنظر: محب الدين ابن النجّار، **تتمة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج 20 ، ص 168).

(5) – محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج1، ص351. و **تتمة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج19، ص 78، 138. و ج20، ص 168.

(6) – محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج2، ص 185.

(7) – عبد الرحمان ابن الجَوْزي، **المُنتظم**، ج16، ص224. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج10، ص 395.

(8) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج12، ص 1204. و **العِبر**، ج3، ص12. و محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج3، ص 347.

ونرى من خلال ما اطّلعنا عليه من هذا المصدر أنَّ المُصنِّف –وهو شافعيٌّ– لا يتحامل على فقهاء المذاهب الفقهية الأخرى، وهذا عنصر إيجابي؛ فممَّا يدلُّ على ذلك ثناؤه على محمد بن ناصر رغم أنّ هذا الأخير تحوَّل من المذهب الشافعي إلى المذهب الحنبلي، وثناؤه على ابن أبي الغنائم العلوي الحنفي[1]، وعبد المُغيث بن زُهير الحنبلي البغدادي وعبد المنعم بن علي الحراني[2] وعُبَيد الله بن أبي يعلى محمد بن الحسين الفراء البغدادي الفقيه الحنبلي (ت469هـ/ 1076م).[3]

و لاحظنا أنَّ ابن النجَّار لم ينقل فيما اطّلعنا عليه من تاريخه إلاّ نماذج قليلة من أكاذيب الصوفية التي يعتبرونها كرامات، منها أنّه ذكر ضمن ترجمة أبي نَصْر الكرَجي الصوفي[4] أنّ هذا الأخير قال: "حججت على الانفراد وقصدت المدينة ... قبل الحجِّ لزيارة النبي صلّى الله عليه وسلّم...، فدخلت وزُرت النبي صلّى الله عليه وسلّم وجلست عند الحجرة، فبينما أنا جالس إذ دخل الشيخ أبو بكر الدياربكري[5] و وقف بإزاء وجه النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال: السلام عليك يا رسول الله، فسمعت صوتا من الحجرة: وعليك السلام يا أبا بكر...". ونقل المُصنِّف في تراجم أخرى قليلة بعض خرافات الصوفية.[6]

<u>– استنتاج:</u>

نستنتج من خلال اطّلاعنا على بعض أجزاء هذا المصدر أنّ ابن النجّار لا يتعرّض للمعطيات

---

[1] – الفقيه الحنفي أبو الحسن علي بن مسعود بن الحسن بن محمد بن محمد العلوي البغدادي الحنفي المتوفى عام 600هـ/ 1203م.(أنظر: محبّ الدين ابن النجّار، **تتمة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج19، ص 106).

[2] – الفقيه أبو محمد عبد المنعم بن علي بن نَصر بن منصور الحراني الحنبلي نزيل بغداد، كانت وفاته فيها عام 601هـ/ 1204م. (أنظر: محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج1، ص 172، 173).

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص 2. و ج2، ص 117. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج3، ص12.

[4] – هو أبو نَصْر عبد الواحد بن عبد المَلِك بن محمد بن أبي سَعْد الكرجي الصوفي. و الكرجي: نسبة إلى مدينة الكرج الواقعة بين همذان و أصبهان. وكانت وفاته عام 569هـ/ 1173م. (أنظر: محبّ الدين ابن النجّار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج1، ص 253، 254. و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج4، ص 446).

[5] – لم أقف على ترجمته. و الدياربكري: نسبة إلى ديار بكر: وهي بلاد كبيرة واسعة في الجزيرة الفُراتية، من مدنها آمد.(أنظر: ياقوت الحَمَوي، المصدر نفسه، ج2، ص 494).

[6] – محبّ الدين ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج1، ص 254، 255، 256. و ج2، ص 210، 211. و ج3، ص 243. و**تتمة ذيل بغداد** (ضمن تاريخ بغداد و ذيوله)، ج19، ص 34. و ج20، ص 28.

المتعلّقة بالفِرَق والمذاهب إلاّ ضمن تراجم قليلة، و أنّه لا يعلّق على المعطيات المذهبية، وهذا من الفروق البارزة بين مصنَّفه ومصنَّفات الذهبي وابن كثير. و لاحظنا أنَّ ابن النجَّار لم يكن متحاملا على الفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي.

- خلاصة الفصل:

لقد حرص أبو شامة على إيضاح انحرافات الباطنية، وكان شديد الذمِّ لهم، و أثنى على عدّة أعلام من أهل الحديث، لكنَّه نقل و أقرَّ تحامل بعض الأشاعرة على أعلامٍ من أهل الحديث، ولم يكن متعصّبا لمذهبه الفقهي (الشافعي). و تقلّ مظاهر النزعة المذهبية في تاريخ ابن واصِل؛ ومن أسباب ذلك تركيزه على التأريخ للتطورات السياسية والعسكرية، لكنّ كتابه اشتمل على إشارات لانحرافات الباطنية. ولم يتطرّق إلى الخلاف بين أهل الحديث والمُتكلِّمين إلاّ ذِكره لإحدى الفتن التي جرت في دمشق بسبب الخلاف العَقَدي.

كما تقلّ مظاهر التأثر بالنزعة المذهبية في كتابَي ابن العديم، و يُمكننا القول – من خلال الاطّلاع على تاريخه– أنّه لم يتحامل على الأعلام الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي (الحنفي)، ولم يتعرّض إلى الخلاف بين أهل الحديث و أهل الكلام إلاّ بإشارات قليلة. و لاحظنا أنّ ابن الدَّبيثي لم يُعلّق على ما ذكره من معطيات المذاهب و الفِرَق إلاّ من خلال تلميحات في مواضع قليلة. ولم نقف في كتابه على نقلٍ للمزاعم الصوفية الموضوعة باسم الكرامات إلاّ في ترجمتين، كما أنّه أنصف الفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي (الشافعي). و تقلّ فيما اطّلعنا عليه من تاريخ ابن النجّار المعطيات المتعلّقة بالمذاهب و التعاليق عليها.

- أوّلا – كتاب " طبقات الشافعية الكبرى" للسُّبكي:

اهتمّ كثيرٌ من المُصنِّفين بالترجمة لأعلام مذهب واحد؛ فظهرت كتب الطبقات المرتبطة بالمذاهب وساهم ذلك في تنوُّع المصادر التاريخية وكثرتها.[1] ومُصنِّف هذا الكتاب هو القاضي تاج الدين أبو نَصْر عبد الوهّاب بن علي بن عبد الكافي السُّبْكي الشافعي، وقد تقدمّ ذِكْره. وُلد في القاهرة سنة 727هـ/ 1326م ونشأ فيها، و انتقل إلى دمشق سنة 739هـ/1338م مع والده، و ولي القضاء فيها عام 756هـ/ 1355م، و درّس في عدَّة مدارس. كانت وفاته في دمشق عام 771هـ/ 1369م.[2] و كان من أبرز الدُّعاة إلى العقيدة الأشعرية، ومن المُتأثِّرين بالصوفية؛ إذْ نجد علاقة قوية بين الاندماج في التصوف و اتّباع العقيدة الأشعرية.[3]

وقد ترجم في طبقاته لفقهاء الشافعية، و قسّم كتابه إلى مقدّمة وسبع طبقات حيث قال: "... و رتّبتهم سبع طبقات، كلّ مائة عام طبقة." فالطبقة الأولى و الثانية ترجم فيها للذين " جالسوا الشافعي" و للذين تُوُفوا قبل نهاية القرن الثالث الهجري (ق9م)، والثالثة ترجم فيها لوفيات القرن الرابع الهجري (ق10) أمّا الرابعة فخصّصها لوفيات (ق5هـ/ 11م)، و الخامسة لوفيات (ق6هـ/ 12م)، و السادسة لوفيات (ق7هـ/ 13م)، و في السابعة ترجم لقسم من أعلام (ق8هـ/ 14م)[4]. ونُبرز مظاهر تأثّر كتابه بالنزعة المذهبية كما يلي:

---

[1] - تمّت الإشارة إلى عدد كبير من المصادر التاريخية التي أُلّفت خلال (ق7- 8هـ/ 13- 14م) في كتاب " كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة. (أنظر: حاجي خليفة، **كشف الظنون**، ج1، (تحقيق: محمد شرف الدين)، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، 1360هـ/1941م، ص271، 272، 273. و أنظر: الملحق الخامس ص 405 و:
- Samee –Bhat, Towards Understanding the Muslim Historiography and Muslim Historians (Journal of Islamic Thought and Civilization) volume 4, 2014 p 67.

[2] - تقي الدين ابن قاضي شُهبة، **طبقات الشافعية**، ج3، (تحقيق: عبد العليم خان)، ط1، دار عالم الكتب، بيروت– لبنان، 1407هـ/ 1986م، ص 105، 106.

[3] - تاج الدين السُبكي، المصدر السابق، ج2، ص 19، 337 و ج1، ص 78. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 525.

[4] - المصدر نفسه، ج1، ص207، و ج 2 ، ص5، و ج9، ص6.

أ- مظاهر تأثّر السُّبكي بالتصوف:

لقد تعدّدت مظاهر تأثّر السُّبْكي بالتصوف، و نوجز توضيح ذلك في العناصر الآتية:

-1- إقرار المُصنِّف للادِّعاءات الصوفية:

لقد صرَّح المُصنِّف في أكثر من موضع من طبقاته بإقرار كثير من خرافات الصوفية التي لُفِّقت واعتُبِرت " كرامات "؛ فقد أكّد إمكانية إحياء بعض الصوفية للموتى، و ادّعى أنّ رجلاً من أهل الصعيد في مصر أُحضِرت عنده فراخ مشوية فقال لها: " طيري فطارت أحياء بإذن الله تعالى." و زعم أنّ "الشيخ الأهدل [1] كانت له هِرّة ، ضربها خادمه فماتت فرمى بها في خرابة، فسئل عنها الشيخ بعد ليلتين أو ثلاث، فقال الخادم: لا أدري، فقال الشيخ: أما تدري؟، ثم ناداها فجاءت إليه تجري." كما زعم أنّ أبا يوسف الدهماني[2] "مات له صاحب فجزع عليه أهله، فلمّا رأى ... شدّة جزعهم جاء إلى الميّت وقال له: قُم بإذن الله فقام وعاش بعد ذلك زمنا طويلا." [3]

و أقرّ السُّبْكي خرافات صوفية أخرى وهي: " انفلاق البحر وجفافه و المشي على الماء" و " كلام الموتى"، أي إمكانية تكليم الموتى لبعض الأحياء، و" انقلاب الأعيان"، أي تغيّر ماهية الأشياء؛ حيث قال: "... كما حُكي أنّ الشيخ عيسى الهتار[4] أرسل إليه شخص مستهزئا به إنائين ممتلئين خمرا، فصبَّ أحدهما في الآخر وقال: باسم الله كُلوا، فأكلوا فإذا هو سمن لم يُر مثل لونه و ريحه...". وادّعى المُصنِّف أنّ بعض الصوفية قد كلّمتهم " الجمادات والحيوانات"، وأنّ ذلك " لا شكّ فيه وفي كثرته." ثم ذكر أنّ أحد أعيان الصوفية قال:"...عقدت أنّي لا آكل إلاّ من حلال، فكنت أدور في البراري فرأيت شجرة تين فمددت

---

(1) – لم أقف على ترجمته، و هو من أهل اليمن.(أنظر: عفيف الدين اليافعي، المصدر السابق، ج4، ص 95.)

(2) - لم أقف على ترجمته، و الدهماني: نسبة إلى دهمان: بطن من قبيلة أشجع العدنانية.(أنظر: عزّ الدين ابن الأثير، **اللباب**، ج1، ص64، 519.)

(3) – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج2، ص 337، 338.

(4) - ذكره اليافعي في " مرآة الزمان" ، و لم ينقل نسَبه و لا سنة وفاته، و لكننا استنتجنا أنّه توفي خلال النصف الأوّل من (ق8هـ/ 14م). (أنظر: عفيف الدين اليافعي، المصدر نفسه، ج 4، ص 266.)

يدي لآكل منها، فنادتني الشجرة: إحفظ عليك عقدك و لا تأكل منّي فإنّي ليهودي...". كما ادّعى " انزواء الأرض لهم"؛ فذكر أنّ رجلا " كان في جامع طرسوس، فاشتاق إلى زيارة الحَرَم، فأدخل رأسه في جُبّته ثم أخرجه وهو في الحَرَم..."، وصرّح أنّ مُنْكِر الانزواء المذكور" مُباهِت".[1]

و لم يقف عند هذا الحدّ، بل زعم أنَّ بعضهم له "مقام التصريف" وقال: "... حُكي عن جماعة منهم الشيء الكثير، وذكر أنّ بعضهم كان يبيع المطر...". وذكر أنَّ منهم من له القدرة على " رؤية المكان البعيد من وراء الحُجُب"؛ كأن يُشاهد الكعبة وهو في بغداد، و أنّ منهم من يستطيع "الإخبار عن بعض المُغَيّبات" ، ومنهم من يُطلعه الله على ذخائر الأرض". ثم طالب غيره بعدم ردِّ هذه المزاعم فقال: "... ماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال... وليس للمُوفّق غير التسليم..."، وعدّ مُنكريها من الغافلين.[2] فمن خلال ما تقدّم يتبيّن لنا عُمق تأثُّر المُصنِّف بالتصوف.

وأقرّ ضمن تراجم بعض الأعلام أنَّهم يُكاشفون، وهذا من خلال ما نقله من ادّعاءات صوفية؛ مثل التي نقلها في ترجمة أبي العباس الملثّم[3] ومضمونها ادِّعاء المُصنِّف اطّلاع الملثّم على أمور غيبية. كما نجد ذلك في تراجم أخرى ضمن عبارات المدح لبعض الأعلام؛ كقوله عن أحدهم: "...أحد أولياء الله المُكاشفين بالأسرار."[4]

ونقل السُّبْكي عن غيره أكاذيب صوفية أخرى كثيرة معتبرا إيّاها كرامات؛ حيث ذكر – مثلا– أنّ أحد أتباع النخشبي[5] قال: "كنّا مع...النخشبي في طريق مكة...فقال له بعض أصحابه: أنا عطشان، فضرب

---

(1) - تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج 2 ، ص 339، 340.

(2) – المصدر نفسه، ج2، ص ص 341– 344.

(3) - هو أبو العباس أحمد بن محمد الملثّم الصوفي المتوفّى عام 672هـ/ 1273م بمدينة قوص في الصعيد.(أنظر: المصدر نفسه، ج8، ص35، 37).

(4) - المصدر نفسه، ج 8، ص 37، و ج 3، ص55، و ج 5، ص 260.

(5) - هو أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي الصوفي . و النخشبي: نسبة إلى نخشب: و هي بلدة من بلاد ما وراء النهر. و قدم النخشبي بغداد، وكانت وفاته عام 245هـ/ 859م. (أنظر: عبد الكريم القُشيري، **الرسالة القُشيرية**، ج1، (تحقيق: عبد الحليم محمود و محمود بن الشريف)، دار المعارف، القاهرة – مصر، د ت، ص 70.

برجله فإذا عين من ماء زُلال، فقال الفتى: أحبُّ أنْ أشربه في قدح، فضرب بيده الأرض فناوله قدحا من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت...". وأقرّ في أكثر من موضع أنّ بعض أعيان الصوفية يلتقون الخَضِر[1]. كما قال ضمن ترجمة ابن عجيل اليمني: "... ومن المشهور أنّ بعض فقهاء اليمن الصالحين من قرابة ابن العجيل هذا سمعه في قبره يقرأ سورة النور." وقال بشأن إسماعيل الحَضْرمي[2]: " ... وممّا حُكي من كراماته و استفاض، أنّه قال يوما لخادمه وهو في سفر تقول للشمس لتقف حتى نصل إلى المنزل، وكان في مكان بعيد، وقد قرب غروبها، فقال لها الخادم: قال لك الفقيه إسماعيل: قفي ، فوقفت حتى بلغ مكانه، ثم قال للخادم: ما تُطلِق ذلك المحبوس؟ فأمرها الخادم بالغروب فغربت وأظلم الليل في الحال." فنلاحظ أنّ قول المُصنِّف : "... واستفاض...". يدلُّ على رواج هذه الخرافات خلال عصره[3] وعلى إقراره لها. وقال كذلك ضمن ترجمة الحَضْرمي: " رُوي أنّه مرّ يوما على مقبرة ومعه جماعة فبكى... ثم ضحك... فسُئل عن ذلك فقال: رأيت أهل هذه المقبرة يُعَذّبون فبكيت...ثم سألت ربي أنْ يُشفّعني فيهم

---

(1) – قصّة النبي الخَضِر عليه السلام وردت في القرآن الكريم في سورة الكهف (من الآية 60 إلى الآية 82)، و وردت في السُنة في صحيح البُخاري و غيره؛ فعن ابن عباس قال: " سمعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: " بينما موسى في ملإ من بني إسرائيل جاءه رجل فقال: هل تعلم أحدا أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى الله عزّ وجل إلى موسى : بلى عبدنا خَضِر ، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل الله له الحوت آية ، و قيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، وكان يتبع أثر الحوت في البحر، فقال لموسى فتاهُ " أرأَيت إذْ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلاّ الشيطان أنْ أذكره." قال" ذلك ما كنّا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا" فوجدا خَضِرا فكان من شأنهما الذي قصّ الله في كتابه." و قد حرّف الصوفية معاني قصّة الخَضِر ؛ فادَّعوا أنّ هناك ظاهرا شرعيا وحقيقة صوفية تخالف الظاهر. ومنهم من ادّعى لُقيا الخَضِر والأخذ عنه، كما زعموا أنّ الخَضِر حيّ إلى أبد الدهر، و أنه يلتقي الصوفية و يُعَلّمهم. وقد أكّد العلماء " أنّ الخَضِر ميت، و أنه لم يُدرك" بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن الأدلة على ذلك أنه لو كان موجودا في زمان رسول الله صلّى الله عليه و سلّم لوجب عليه أنْ يؤمن به و يجاهد معه. كما أنّه ليس هناك دليل قطّ على أنّ الخَضِر حيّ ، بل على العكس، هناك أدلة من القرآن و السُّنة و المعقول على أنّ الخَضِر ليس حيا، قال الله تعالى: " و ما جعلنا لبشر من قبلك الخُلد أَفإن متّ فهم الخالدون." (سورة الأنبياء: الآية 34)، وقال النبي صلّى الله عليه وسلم: " أَرَأَيتكم ليلتكم هذه، فإنّ رأس مائة سنة لا يبقى ممّن هو على ظهر الأرض أحد." (أنظر: محمد شحاتة، **كشف شُبُهات الصوفية**، مكتبة دار العلوم، البحيرة – مصر، د ت ، ص 154، 160، 162. ومحمد بن إسماعيل البُخاري، **الجامع الصحيح**، ج1، ص45، 58).

(2) - الفقيه إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله الحَضْرمي اليمني الشافعي. وُلد سنة 601هـ/ 1204م ، وتوفي سنة 677هـ/ 1278م، شرح كتاب " المُهذب" في الفقه. (أنظر: مُوفق الدين الخَزرجي ، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، ج1، (تحقيق: محمد بن بسيوني)، دار الآداب، بيروت– لبنان، 1403هـ/ 1983م، ص176.

(3) - لاحظ عن أثر التصوف على المجتمع: عبد القادر السندي، **التصوف في ميزان البحث والتحقيق**، ص 215، 328 و:
–Eric Geoffroy, L'époque Mamlouke (égupte – syrie 1250–1517), Universitat Oberta de Catalunya, p30–31

فشفَّعني، فقالت صاحبة هذا القبر– و أشار إلى قبر بعيد العهد بالحفر– : و أنا معهم... فضحكتُ وقلتُ: و أنتِ معهم...".[1]

ومن أشنع المزاعم التي أثبتها السُّبكي قوله بشأن الشاطر الصوفي[2]: "...كان ... معروفا بقضاء الحوائج، إذا كان للإنسان حاجة جاء إليه فيشتريها منه، يقول له: كم تعطي؟ فيقول: كذا وكذا، فإذا اتَّفق معه قال: قُضِيَت في الوقت الفلاني، وغالبا تُقضى في الوقت الحاضر، ولم نحفظ أنَّه عيَّن وقتا فتقدَّمت عليه الحاجة ولا تأخَّرت...". فقد ساهم المُصنِّف في الترويج لهذه المزاعم من خلال ما تقدّم وأمثلة أخرى كثيرة؛ منها ادّعاؤه أنّ أحد فقهاء الشافعية " فَقَدَ في بعض الليالي ما يُسرجه... وقت التصنيف، فأضاءت له شجرة في بيته." وقوله: "...وممّا اتفق لبعض المتأخِّرين أنّه وجد فقيرا شيخا كبيرا يتوضأ بالقاهرة...من غير ترتيب، فقال له: يا شيخ تتوضأ بلا ترتيب؟ فقال له: ما توضأتُ إلاّ مُرتَّبا، ولكنْ أنت ما تُبصر و لو أبصرت لأبصرت هكذا؛ وأخذ بيده و أراه الكعبة، ثم مرّ به إلى مكة ، فوجد نفسه في مكة، وأقام بها سنين...". ومنها أنّه ذكر – نقلا عن غيره– أنّ أحد أعلام بغداد أدّى صلاة العشاء في بغداد، ثم خرج مع رفيق له فلم يشعر هذا الأخير إلاّ وهما بموضع يطوفان به مع جماعة، ثمّ لم يشعر إلاّ وقد دخلا بغداد قبل الفجر، فسأل صاحبه: " أين كنّا؟" فقال: "... ذلك البيت الحرام..."، ثم علَّق السُّبكي بما يدلّ على إثباته لِما نقل.[3]

وقد شحن ترجمة الزاهد أبي بكر بن قوّام البالسي بجملة من الأكاذيب التي لُفِّقت ونُسبت إليه؛ فذكر السُّبكي– مثلا– نقلا عن غيره أنّ البالسي " كان... يقف على حلب ويقول: والله إنّي لأعرف أهل اليمين" – أي أهل الجنَّة– " من أهل الشِّمال، ولو شِئتُ أنْ أسمّيهم لسمّيتهم، ولكن لم نُؤمر بذلك..."، و أنّه

[1]- تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج2، ص314، 244، 245، و ج8، ص 41، 130، 131.

[2] – أبو العباس الشاطر الصوفي الدمنهوري، توفي خلال النصف الثاني من القرن (8هـ/ 14م) أو خلال أواخر القرن (7هـ/ 13م). و دمنهور: بلدة في شمال مصر. (أنظر: شهاب الدين ابن حجر، **الدُّرر**، ج3، ص178، 179 و ياقوت الحَمَوي، المصدر السابق، ج2، ص472.

[3] – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج9، ص409، 410، و ج8، ص284، و ج 2 ، ص342، و ج5، ص263، 264.

صلّى العصر في المسجد الذي كان يُصلِّي فيه" – أي في بالس– فقال له بعض الحاضرين: ياسيّدي ما علامة الرجل المُتمكّن؟ – وكان في المسجد سارية– فقال: علامة الرجل المتمكِّن أن يُشير إلى هذه السارية فتشتعل نورا، فنظر الناس إلى السارية فإذا هي تشتعل نورا...". ونقل ما مضمونه أنّ البالسي قال لأحد جلسائه: " أين مراكش؟ فقال: يا سيِّدي في الغرب" قال " و بغداد؟ فقال: في الشرق، قال: وعزّة المعبود لقد أُعطيت في هذه الساعة حالا لو أردت أن أقول لبغداد: كوني مكان مراكش، ولمراكش: كوني مكان بغداد لكانتا." كما ذكر أنّ أحد رفاق البالسي قال: "...كنّا جلوسا مع الشيخ... ونحن ننظر إلى الفرات، إذْ لاح لنا على شاطئ الفُرات رجلٌ، فقال الشيخ: أَتَرون ذلك الرجل الذي على شاطئ الفُرات؟ فقلنا: نعم فقال: إنّه من أولياء الله تعالى، وهو من أصحابي، وقد قصد زيارتي من بلاد الهند، وقد صلّى العصر في منزله، وتوجّه إليَّ، وقد زُويت له الأرض ، فخطا من منزله خطوة إلى شاطئ الفُرات، وهو يمشي من الفُرات إلى هنا تأدُّبا معي ... فبات عند الشيخ... فلمّا أصبحنا... قال: السَّفَر. فخرج الشيخ وخرجنا... لوداعه، فلمّا صرنا في الصحراء... وضع الشيخ يده بين كتفيه و دفعه فغاب عنّا... فقال الشيخ: وعزّة المعبود في دفعتي له وضع رجله في باب داره بالهند..." (1)

ونقل المُصنِّف كذلك ما مضمونه أنّ أحد مُريدي (أتباع) البالسي عزم على زيارة القدس فاستأذن الشيخ في ذلك فقال: "...أنت شابٌّ وأخشى عليك"، فألحّ عليه فأذن له وقال: " سأجعل سِرّي عليك كالقفص الحديد..." فلمّا وصل إلى فلسطين خرج عليه أربعة من قطّاع الطرق،فلمّا قربوا منه بهتوا ونظروا إلى ورائه، فالتفت الشاب " فإذا شخصٌ واقفٌ وعليه ثياب بيض وهو مُلثّم"، فقال له: " امض في طريقك" ولمّا عاد إلى بالس أخبره البالسي بجميع ما وقع وقال: " لولا ذلك المُلثّم لأخذ قطّاع الطريق ثيابك"، قال المُريد: فعلمت بأنَّه" – أي المُلثّم– "كان الشيخ البالسي...". و ممّا يؤكد إثبات السُّبكي لهذه الخُرافات قوله بعد نقله لما تقدّم: "وهكذا ينبغي أنْ يكون الشيخ على المُريد، فإنّه قد قيل: الشيخ من جمعك في حضورك

(1) -تاج الدين السُّبكي ، المصدر السابق، ج8، ص ص402– 410، و ص ص 413– 418.

وحفِظك في مغيبك..."، وذمّه في موضع آخر من يردّها مُدّعيا أنّ الدليل على إثباتها هو كونها ذاعت بين الناس، حيث زعم أنّ مُنكرها " جاهلٌ مُعاندٌ... طُمِس قلبُهُ...". وتضمّنت ترجمة البالسي أمثلة أخرى كثيرة أعرضنا عن ذِكرها.[1]

كما شحن السُّبكي ترجمة والده تقي الدين السُّبكي بعدة مزاعم وقال قبل سَرْدها: "... و أمّا أحواله فكانت عجيبة جدّا ما عانده أحدٌ إلاّ و أُخذ سريعا..."، ونقل ضمن ما ذكر قول أحد معاصريه لتقيّ الدين السُّبكي: "... نحن نعرف أنّ لك مَدَدا من سيّدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم."[2] وفي ختام هذا العنصر يُمكن القول أنّ المزاعم الصوفية قد شغلت قسما كبيرا من طبقات السُّبكي؛ وذلك من الآثار السلبية للنزعة المذهبية.

-2- استدلال المُصنِّف بالمنامات المكذوبة:

لقد استدلّ المُصنِّف في مواضع من كتابه بالمنامات المكذوبة في سياق مدحه لبعض أعيان الصوفية الأشاعرة؛ وذلك لترهيب من ينقدهم؛ فقد ادّعى في ترجمة الغزالي أنّ الشاذلي الصوفي " رأى النبي صلّى الله عليه وسلّم في النوم وقد باهى عليه الصلاة والسلام موسى وعيسى عليهما السلام بالإمام الغزالي وقال: أَفي أُمّتَيْكما حَبْرٌ كهذا؟ قالا: لا." و ذكر السُّبكي أيضا أنّ أحد فقهاء بلاد المغرب طالع كتاب "الإحياء" للغزالي ثم حذّر الناس منه، وحثّ على جَمْع نُسَخه و إحراقها، فرأى " في المنام كأنّه دخل من باب الجامع ... فرأى في رُكن المسجد نورا، و إذا بالنبي صلّى الله عليه وسلّم وأبي بكر وعمر... جلوس والإمام أبو حامد الغزالي قائم وبيده "الإحياء" فقال: يا رسول الله هذا خصمي، ثم جثا على ركبتيه و زحف عليهما إلى أنْ وصل إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، فناوله..."الإحياء" وقال: يا رسول الله أنظر فيه... فنظر فيه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ورقة ورقة إلى آخره ثم قال: والله إنّ هذا شيء حسن." فنلاحظ

---

(1) – تاج الدين السُّبكي ، المصدر السابق، ج 8 ، ص ص 402– 410، و ص ص 413– 418، و ج2، ص 334.

(2) - المصدر نفسه، ج10، ص 210، 214.

أنّ هذه المنامات تتضمن الكذب على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، واستدلال المُصنِّف بها يدلّ على عمق تأثّره بالتصوف؛ حيث قال بعدما ذكر ما تقدّم: "وهذه حكاية صحيحة !" واستدلّ بمنام مزعوم آخر فقال: "... وكان في زمانا شخص يكره الغزالي ... فرأى النبي صلّى الله عليه وسلّم في المنام و أبا بكر وعمر رضي الله عنهم بجانبه، والغزالي جالس بين يديه، وهو يقول: يا رسول الله هذا يتكلم فيَّ، وأنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم قال: هاتوا السياط، وأمر به فضُرب لأجل الغزالي، وقام هذا الرجل من النوم، و أثر السياط على ظهره...". كما نقل من مُصنَّفٍ لابن عساكر مناما مكذوبا آخر فيه ادّعاء أحد دُعاة الأشاعرة أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم حثّه على الأخذ بكتاب " قواعد العقائد" للغزالي، والمتضمِّن بعض مقالات الأشاعرة.[1] وبهذا نستنتج أنّ الترويج للمنامات المزعومة المتضمِّنة الكذب على النبي صلّى الله عليه و سلّم يُعدّ من أبرز الآثار السلبية للنزعة المذهبية على الكتابة التاريخية.

-3- مواقف أخرى للسُّبكي من الصوفية:

تتضمّن "طبقات الشافعية" تعاليق كثيرة تُبيِّن عُمق تأثّر المُصنِّف بالصوفية؛ فقد ادّعى أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أشار إلى التصوف بقوله – عليه الصلاة والسلام–عن الإحسان: " أنْ تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك." وهذه محاولة من السُّبكي ليوهم القارئ أنّ التصوف له أصلٌ شرعيٌّ. و كلامه عن هذا الحديث يُخالف كلام كبار العلماء مثل ابن القيِّم وابن رَجَب.[2] كما حاول تبرير إقراره للمزاعم الصوفية التي يعدّها كرامات بـ " قصة النيل" التي نسب فيها خبرا غير صحيح إلى الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، حيث قال المُصنِّف: "... و ذلك أنّ النّيل كان في الجاهلية لا يجري حتى تُلقى فيه جارية... في كلِّ عام، فلمّا جاء الإسلام، و جاء وقت جريان النيل فلم يجر أتى أهل مصر إلى

[1] – تاج الدين السُّبكي ، المصدر السابق، ج6، ص 257، 259، 260، 218، 219، 230، 231، 237.

[2] –عبد الرحمان ابن رَجَب، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج1، (حققه: محمود بن شعبان و آخرون)، ط1، مكتبة الغرباء، المدينة المنورة، 1417هـ/ 1996م، ص214. و شمس الدين ابن القيِّم، **مدارج السالكين**، ج1، (تحقيق: محمد البغدادي)، دار الكتاب العربي بيروت– لبنان، 1416هـ/ 1996م، ص124.

عمرو بن العاص فأخبروه...أنّه لا يجري حتى تُلقى فيه جارية...، فقال لهم: إنّ هذا لا يكون، و إنّ الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا ثلاثة أشهر لا يجري قليلا و لا كثيرا ... فكتب عمرو بن العاص إلى عمر ...بذلك،فكتب إليه عمر:من عمر...إلى نيل مصر أمّا بعد، فإن كنتَ تجري من قِبَلك فلا تَجر، وإن كان الله...هو الذي يُجريك، فنسأل الله...أن يُجريك. فألقى عمرو البطاقة في النيل...- وقد تهيّأ أهل مصر للجلاء- فأصبحوا وقد أجراه الله ...". ثم أكد السُّبكي ادّعاءه صحة هذا الخبر فقال: " فانظر إلى عمر كيف يخاطب الماء و يُكاتبه..." ! مع العِلم أنّه لم ينقل سَنَد الخبر[1]، وقد نقله غيرهُ وفيه راوٍ مجهول[2].

وذكر في إحدى التراجم – نقلا عن غيره- أنّ الإمام الشافعي كان يوما جالسا بين أصحابه، فجاء شيخ "عليه جُبّة صوف" فسأل الشافعي فأجابه، ثم سأله ثانية "فتدبّر الشافعي ساعة " فقال الشيخ: " قد أجّلتك ثلاثة أيام..."، ثم جاء في اليوم الثالث فأجابه الشافعي عن سؤاله، فقال(الشيخ): "صدقتَ وقام وذهب." ثم علّق السُّبكي على ما تقدّم بقوله: " إنْ ثبتت هذه الحكاية، فيُمكن أنْ يكون هذا الشيخ الخَضِر عليه السلام...". وهذا يُبيّن شدّة تأثُّره بالصوفية. كما يتّضح ذلك من مواقف أخرى، منها إقراره لـ "السمَاع"، و إنكاره على من يُحذّر منه، وعدم تصريحه بالإنكار على القائلين بالحُلول، حيث نقل- مثلا- في إحدى التراجم أنّ فتى صوفيا زار أبا يزيد البسطامي (الصوفي) " فلما وقع بصر الفتى على أبي يزيد خرّ ميّتا... فقال أبو يزيد...: كان الحقّ يتجلّى له على قدر ما عنده، فلمّا رآني تجلّى له الحقّ على قدري فلم يُطق." ثم أشار المُصنِّف إلى بعض انحرافات ابن عربي دون ذِكر اسم هذا الأخير، ولكن قال: " وحاصل ما يقوله متأخّرو القوم...". ولم يصرّح بإنكار هذه الانحرافات التي تُعدّ أخطر مظاهر الانحراف الصوفي، و إنّما ذكر أنّه " معترف بالقُصور" عن فهم " كلام القوم." [3]

وذكر أنّ الدُّعاء عند قبور بعض أعيان الأشاعرة مستجاب، وهذا مجرد دعوى، حيث قال – مثلا-

(1) - تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج1، ص113، 117. و ج2، ص326.

(2) - عدم التصريح باسم الراوي.(أنظر: عبد الرحمان ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، ج1، (تحقيق: عبد المنعم عامر)، ط1، دار الذخائر، القاهرة – مصر، 1381هـ/ 1961م، ص203، 204.

(3) – تاج الدين السُّبكي ، المصدر نفسه، ج2، ص243، 245، 311 ،312، 313، و ج3، ص49.

بشأن يوسف الفندلاوي: "...المدفون ...بدمشق، وقبره ظاهرٌ معروفٌ باستجابة الدُّعاء عنده." ونقل ضمن ترجمة الغزالي كلاما كثيرا لهذا الأخير منه قوله: "... حتى إنّ هذا الشكل[1] ...إذا أُثبِتت رقومه على خزف لم يصبه الماء بشرط مخصوص، وأُعطي المرأة التي تعسر عليها الولادة ... سهُلت عليها الولادة وعُرف ذلك بالتجربة، وأنّه يؤثّر بخاصية تقصر عقول الأوَّلين والآخرين عن إدراك وجه مناسبته...". ولم يعلّق المُصنِّف على هذه الدعوى ولا أنكرها. ونقل ما يماثلها في ترجمة محمد بن هبة الله الحَمَوي[2] الذي رتّب أعدادا ثم زعم أنها لو كُتِبت على " خِرْقتين لم يصبهما ماء"، ثم تضعهما ذات الحمل " تحت قدميها تضع بإذن الله تعالى." ولم يُنكر السُّبكي هذه الخرافة أيضا، و إنّما قال: "...انتهى ما نقلته من خطِّه."[3]

واعتبر كتاب " قوت القلوب" لأبي طالب المكّي الصوفي[4] وكتاب "الرسالة القُشيرية" لعبد الكريم القُشَيري (الصوفي) من الكُتب " المُجمَع على" جلالتها[5]، رغم الانحرافات التي تضمَّنها الكتابان المذكوران وتحذير العلماء منهما؛ فالكتاب الأوّل ذكر فيه مُصنِّفه " عن بعض الصوفية أنَّ الله عزّ وجلّ يتجلّى في الدنيا لأوليائه." ونقل أحاديث موضوعة، وقد قال الخطيب البغدادي:"... و صنّف أبو طالب المكّي كتابا سمّاه " قوت القلوب" على لسان الصوفية، وذكر فيه أشياء منكرة...". وقال العتيقي:[6] "... وصنَّف كتابا سمَّاه " قوت القلوب" وذكر فيه أحاديث لا أصل لها...". أمَّا الكتاب الثاني فقد ذكر فيه مؤلِّفه " العجائب من الكلام في ...التجلّي" والمكاشفات وباقي مصطلحات الصوفية، و الترويج للقصص

---

(1) – مربّع مقسّم إلى تسعة مربعات صغيرة في كلّ منها حرف.(أنظر: تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج6، ص281).

(2) – هو أبو عبد الله تاج الدين محمد بن هبة الله بن مكي الحَموي الشافعي، وُلد بحَماة سنة 546هـ/ 1151م، ولي الخطابة و التدريس في القاهرة، و توفي فيها عام 599هـ/ 1202م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 1185).

(3) – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج4، ص 129، و ج8، ص 823، و ج6، ص 281، و ج7، ص25.

(4) – هو أبو طالب محمد بن علي بن عطية المكي الصوفي المتوفّى عام 386هـ/ 996م في بغداد.(أنظر: شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج8، ص599).

(5) – تاج الدين السّبكي، المصدر نفسه، ج6، ص 247.

(6) – هو المُحدِّث أبو الحسن أحمد بن محمد بن أحمد العتيقي (نسبة إلى أحد أجداده) البغدادي. وُلد سنة 367هـ/ 977م، و توفي سنة 441 هـ/ 1049م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج17، ص602.)

الملفّقة المماثلة للنماذج التي ذكرناها سابقا.[1]

وقد نقل في ترجمة ابن عطاء الله الإسكندري الصوفي كلاما لهذا الأخير صرّح فيه اعتقاده وحدة الوجود، ولم يُعلِّق المُصنِّف على هذا الاعتقاد الذي يُمثِّل ذِروة الانحراف الصوفي. ومن مظاهر تأثّره بالتصوف زعمه أنّ الصوفية هم " صَفْوة الخلق"، وهذا من جملة ادِّعاءاته.[2]

ب- تحامل السُّبكي على أهل الحديث:

لقد كان تأثّر السُّبكي بخلفيته العَقدية الأشعرية جليّا في طبقاته؛ ففي مواضع كثيرةٍ جدّا اتّهم أهل الحديث بالتجسيم و التشبيه في سياق الإشارة إلى الخلاف بينهم و بين الأشاعرة، و نجد هذا ضمن تراجم عديدة لأعلام من الأشاعرة وغيرهم، منها ترجمة أبي الحسن الأشعري وترجمة أبي المعالي الجُويني وتراجم كلّ من عزّ الدين ابن عبد السلام وشهاب الدين ابن جهبل، وضمن تراجم أخرى كثيرة.[3] و زعمه هذا لا أساس له من الصحة؛ فمنهج أهل الحديث مطابق " لفِطرةِ الله التي فَطَر الناس عليها"؛ فاعتقادهم في الصفات " أنْ يوصف الله بما وصف به نفسه " سبحانه " وبما وصفه به رسوله" عليه الصلاة والسلام بلا تشبيه ولا تعطيل " و إنما هو إثبات وتنزيه." وأقوال العلماء في ذلك كثيرة؛ منها قول الشافعي: "...ونُثبت هذه الصفات و ننفي عنها التشبيه كما نفاه عن نفسه فقال" تعالى: " ليس كمِثْله شيء وهو السميع البصير."" و قول أحمد بن حنبل: "...لا يوصف الله تعالى إلاّ بما وصف به نفسه بلا تشبيه...". وقول نُعيم بن حمَّاد: "... ليس ما وصف الله به نفسه و رسوله تشبيها." ومنها أيضا قول ابن تيمية: "...مذهب السَّلَف و الأئمة أنْ يوصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير تحريف ...ومن غير تمثيل...". وقول الذهبي: "هذه الصفات من الاستواء... و النزول، قد صحّت بها النصوص

[1] – إحسان إلهي، **التصوف: المنشأ و المصادر**، ط1، إدارة ترجمان السنة ، لاهور– باكستان، 1406هـ/ 1986م، ص 46، 47. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص366. و عبد الكريم القُشيري، **الرسالة القُشيرية**، ج2، ص535، 536.

[2] – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج 9، ص23، 24، و ج2، ص22.

[3] – المصدر نفسه، ج3، ص374، و ج5، ص 192، و ج8، ص223، و ج9، ص36.

ونقلها الخَلَف عن السَّلَف ولم يتعرَّضوا لها بردٍّ و لا تأويلٍ، بل أنكروا على من تأوَّلها مع " اتّفاقهم" على أنّها لا تشبه صفات المخلوقين، و أنّ الله ليس كمِثْله شيء...". وأقوال أعلام أهل الحديث التي تدلّ على براءتهم ممّا رماهم به السُّبكي كثيرة.[1]

و وصفهم في تراجم عديدة بـ "المُبتدعة " – بزعمه الباطل–، ونجد هذا ضمن عدة تراجم، مثل ترجمة العزّ ابن عبد السلام الأشعري، حيث تعرّض المُصنِّف إلى ما جرى بينه وبين أهل الحديث من خلافٍ في دمشق خلال عهد الملك الأشرف الأيّوبي. كما وصفهم السُّبكي بـ " الأراذل"، واعتبرهم من " رعاع الفِرَق"، و وصفهم بـ "أعداء الله " ضمن ترجمة أبي القاسم ابن عساكر الأشعري، وقال بشأنهم: "...عليهم لعائن الله" و "...الذين في قلوبهم زَيْغ." و"...لا يَعْبأ الله بهم." و"الذين لا يُؤبه إليهم." واتّهمهم بـ "الكذب" ظلما منه وبُهْتانا. ونجد مظاهر أخرى من تهجّمه عليهم[2]، ممّا يدل على تهوّره و شدّة بُغضه لهم.

و لمَّا ترجم لنجم الدين الخُبوشاني (الأشعري) أشار إلى نبشه قبر ابن الكيزاني و إخراجه عظامه (سبَق ذِكْر هذا)، وقد شرح السُّبكي ذلك بما يدلّ على استحسانه لهذه الجريمة ! و إنكاره على من حاول منع الخُبوشاني ممّا أقدم عليه من العمل الشنيع[3]. ونُشير هنا إلى ملاحظة هامّة مفادها أنّ كلاًّ من ابن الكيزاني و السُّبكي شافعيان، لكنّ الأوّل كان على عقيدة أهل الحديث، والثاني من دُعاة الأشاعرة، فتحامل عليه واتهمه بالتشبيه – بزعمه– و لم يُنكر فعل الخُبوشاني. فنستنتج من ذلك أنّ الجانب العقدي أقوى تأثيرا على " طبقات الشافعية الكبرى" من الجانب الفقهي.

وأشار السُّبكي في إحدى التراجم إلى تهديد محمد الكامل الأيّوبي لمن ينقد الأشاعرة، و امتدحه بسبب ذلك مُعبّرا عن ميله للاستغاثة بالسلاطين لمَنْع مخالفيه من النّقد، ثم ذكر بعد ذلك الآية: " و ردّ الله الذين

---

(1) – خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص7، 8، و تقيّ الدين ابن تيمية، **بيان تلبيس الجَهمية**، ج1، ص5، 6، و شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج10، ص 80.

(2)– تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج8، ص217، 218، و ج3، ص125، 367، 353، و ج5، ص182، 192، و ج2، ص16.

(3) – المصدر نفسه، ج7، ص 14.

كفروا بغَيْظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال." [1] فنلاحظ أنّه يشبه أهل الحديث بالكُفار، وهذا ممّا يُبيِّن إفراطه في التحامل عليهم. وتغافل – رغم فَرْط استِقْصائه– عن ذِكر تسليم محمد الكامل (وهو أشعري) بيت المقدس للفِرنجة دون قتال (سنة 626 هـ/ 1229م)، لكنّ اليافعي قد استنكر ذلك في ذِكْره حوادث السنة المذكورة. و زعم السُّبكي أنّ تقي الدين ابن تيمية قد أضلّ تلاميذه الذهبي و المزِّي و عَلَم الدين البِرْزالي فقال: "... و اعلم أنّ هذه الرفقة... أضرّ بهم أبو العباس ابن تيمية إضرارا بيِّنا، و حمّلهم من عظائم الأمور أمرا ليس هيِّنا...". و هؤلاء العلماء الثلاثة كانوا من كبار فقهاء الشافعية، لذلك تحسّر السُّبكي – وهو شافعي– لعدم اتّباعهم العقيدة الأشعرية، فادّعى أنّ ابن تيمية أضلّهم، لأنّ المُصنِّف يرى أنّ كلّ من لم يقتنع بمقالات الأشاعرة ضالّ – بزعمه–؛ و لهذا فقد توسَّع في التحامل على أعلام آخرين عُرفوا بنقد المُتكلِّمين خاصّة الأشاعرة.[2]

و ذكر السُّبكي ضمن ترجمة علاء الدين الباجي الأشعري[3] أنّه طلب المناظرة من ابن تيمية فامتنع وقد انفرد المُصنِّف بهذا الخبر، في حين ذكر ابن كثير أنّ ابن تيمية لما أُحضِر إلى القاهرة عام 705هـ/ 1305م مُنع من المناظرة، وكان الباجي حاضرا في المجلس الذي عُقد له، قال ابن كثير: "...عُقد للشيخ تقيّ الدين مجلس بالقلعة " – أي قلعة الجبل – "... و أراد أن يتكلَّم على عادته، فلم يُمَكَّن من البحث و الكلام...، و أُقيم مُرسما عليه، وحُبِس في برج أياما، ثم نُقل منه...إلى الحبس المعروف بالجُبِّ...".[4]

ومن العلماء الذين تحامل عليهم السُّبكي نذكر أبا الحسن الكَرَجي الشافعي[5] الذي يُعدّ من كبار

---

[1] – سورة الأحزاب: الآية 25.

[2] – تاج الدين السّبكي، المصدر السابق،ج7، ص15. وج8،ص238، 239. و ج1، ص 400. وج4،ص 272.وج5، ص 328.

[3] – الفقيه علاء الدين علي بن محمد بن خطاب الباجي الشافعي، وُلد سنة 631 هـ/ 1233م في مصر و توفي سنة 714هـ/ 1314م. (شمس الدين الذهبي، **السِّير**، الجزء المفقود، ص 442، 443).

[4] – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج10، ص 342. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 418. و تقي الدين ابن قاضي شهبة، المصدر السابق، ج2، ص 292.

[5] – الفقيه المُحدِّث الشاعر أبو الحسن محمد بن عبد المَلِك بن محمد بن عمر الكَرجي الشافعي المتوفّى عام 532هـ/ 1137م و هو أحد أبرز فقهاء عصره. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 578).

العلماء، وكان متمسِّكا بمنهج أهل الحديث؛ ولهذا لم يُثن عليه السُّبكي رغم أنَّه من أبرز فقهاء الشافعية خلاف ما نجده ضمن تراجم الأشاعرة. وقد أشار إلى قصيدة نَظَمها الكَرجي في تلخيص عقيدة أهل الحديث، ثم شكّك في صحة نسبتها إليه وقال: "... ولو أَمْكن إعدامها من الوجود كان أولى... قبّح الله قائلها كائنًا من كان، و إنْ يكن هو هذا الكرجي فنحن نبرأ إلى الله منه...". ومع كلِّ ما تقدَّم في هذا المبحث نجده يحثّ غيره على عدم التكلم في العلماء، و هو يتكلَّم في كلِّ من لم يقتنع بالعقيدة الأشعرية تارة يُخَصِّص ذِكْر عالم بعينه، و تارة يتحامل على أهل الحديث عموما كقوله: "...لا عالم فيهم على الحقيقة." و وَصْفه لهم بـ " أهل الأهواء" و بـ " أعداء الله" و" الجَهلة "، وادِّعائه أنّ كلّ من لم يكن أشعريا فليس من الفُضلاء.[1]

وقد حاول ضمن إحدى التراجم ضَبْط " قاعدة في المؤرّخين" فقال: ...إنّ أهل التاريخ ربّما وضعوا من أُناس و رفعوا أناسا، إمّا لتعصّب أو لجهل أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به...". وهذه حال السُّبكي؛ فإنَّه أمعن في التحامل على أهل الحديث، وتدلُّ على ذلك الأمثلة السالِف ذِكْرها، وأمثلة أخرى أعرضنا عن ذِكْرها. وأَمْعن في مدح شيوخ الأشاعرة، والأمثلة المُثبتة لهذا كثيرة جدًّا؛ مثل وصفه والده تقي الدين السُّبكي بـ " إمام الأئمّة وحَبْر الأمّة " و "خلاصة المجتهدين وتقيّ المِلّة"، وقوله في ترجمته: "...وكانت دعواته تخترق السَّبْع الطِّباق، وتفترق بركاتها فتملأ الآفاق، وتستَرِق خبر السماء، وكيف لا وقد رُفعت على يد وليِّ الله...". و قال: "...أقسم بالله إنَّه لفوق ما وصفته." و ادَّعى أنّ له كرامات باهرة، كما قال: " شيخ الوقت حالاً وعلماً..."، رغم أنه عاصر جمعا من كبار العلماء منهم الذهبي و المزِّي وابن تيمية و ابن القيِّم. ومن الأمثلة في هذا الصدد أيضا استدلاله بالمنامات الملفّقة، كما هو الحال في ترجمة الغزالي. ونقله وإقراره للادّعاءات الصوفية التي أشرنا إلى بعضها فيما تقدَّم، وزعمه أنها كرامات. ورغم أنّه حرص على نقل و إقرار هذه المزاعم إلاّ أنَّه قال: "...احترزنا...عن رواية ما لا ينضبط من الترهات التي

[1] – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج 6، ص 137، 145، 146. و ج 2، ص 17، 278. و ج 4 ، ص 273. و ج7، ص 217. و ج3، ص 373. و ج 5، ص 191.

لا يترتَّب عليها عند التأمّل و التحقيق شيء." [1]

ومن العجائب التي تضمنتها طبقاته ادِّعاؤه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد "بشّر" بظهور أبي الحسن الأشعري، واعتبر من يصدق بهذه الخرافة من ذوي " البصائر المُشرقة " ومن " المؤيَّدين بنور من الله ". وادّعى أنَّ الأشاعرة لم يُحدثوا مقالة جديدة، وفي هذا مُكابَرة ظاهرة. وبناء على ادّعائه المذكور زعم أنّ الأشاعرة بإمكانهم " أن يعدُّوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما... في جملتهم." [2] فيتبيّن لنا من هذا فَرْط تعصّبه وحرصه على إيهام القارئ أنّ المُتَكلِّمين من الأشاعرة لم يُحدثوا مقالة جديدة، ووصل به ذلك إلى اتّهام الصحابة بأنهم كانوا على اعتقاده في الصفات، و إلى الزعم أنّ "غالب علماء المسلمين وأئمتهم الذين حملوا لنا الشريعة النبوية " كانوا أشاعرة[3]. وهذه مُكابَرة عجيبة ودعوى مجردة؛ فعلماء الأمَّة من " القرن الأول إلى الثالث الهجري كانوا كلّهم على مذهب السَّلَف ... في الصفات، و لا يوجد فيهم أشعري لأنّ الأشعرية لم تكن ظهرت بعد؛ فهي قد ظهرت في القرن الرابع ولم تنتشر إلا في القرن الخامس الهجري وما بعده ...، وحتى" بعد انتشارها فإنّ عددا كبيرا من العلماء لم يكونوا أشاعرة ومنهم أبو عثمان الصابوني الشافعي وأبو نصر السّجزي الحنفي وأبو الحسن الكَرجي الشافعي وعبد الغني المَقدسي وضياء الدين المَقدسي و المُوفَّق ابن قُدامة و مجد الدين ابن تيمية و تقي الدين ابن تيمية و ابن القيِّم وعَلَم الدين البِرزالي و المزِّي و الذهبي و ابن كثير و ابن مُفلح.[4]

وعبَّر السُّبكي في مواضع كثيرة من كتابه على رفضه إطلاق مصطلح " أهل السُّنة " على أهل الحديث، وهذا يندرج ضمن سعيه لإلصاق التّهم بهم، مثل وصفه لهم بـ " المُبتدعة ". كما زعم ضمن إحدى التراجم أنّ الحنابلة " أكثر فضلاء متقدميهم أشاعرة...".[5] ودعواه هذه ليست إلا إنشاء لا أدّلة معه

---

(1) – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج 2، ص 22، 24. و ج 10، ص 57، 141، 142، 143، 194، 210.
(2) – المصدر نفسه، ج3، ص 362، 363، 365، 366.
(3) – المصدر نفسه، ج 2 ، ص 13.
(4) – خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص 119. و عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 647.
(5) – تاج الدين السُبكي، المصدر نفسه، ج6، ص 141. و ج 3، ص 352، 353، 377، 378. و ج 10، ص 36، 57.

بل الثابت المُتواتر أنّ فقهاء الحنابلة المُتقدّمين (ق3-4هـ/ 9- 10م) والمتأخِّرين(ق6هـ/12م وما بعده) كانوا أحرص الناس على نَقْد العقيدة الأشعرية، و يتّضح هذا من سِيَرهم مثل سيرة الحسن بن علي البَرْبَهاري و أحمد بن محمد الخلاّل و عبد الخالق بن عيسى البغدادي المعروف بالشريف أبي جعفر و ابن بطة العُكبري و ابن شاقلا[1] (ت369هـ/ 979 م) و ابن البناء و ابن ناصر البغدادي و يحيى بن عمّار السجستاني و مجد الدين ابن تيمية و تقيّ الدين ابن تيمية و ابن القيِّم [2].

ج- تحامل السُّبْكي على الذهبي:

لقد اتَّهم السُّبكي في أكثر من موضع من كتابه الذهبي بالتحامل على شيوخ الأشاعرة في " تاريخ الإسلام"، فقال – مثلا- : "...وهو إذا وقع بأشعري لا يُبقي ولا يَذَر." وقال:"...ومال فأفرط على الأشاعرة ...".[3] ولا أساس لهذا الاتهام من الصحة، وتراجم الذهبي في تاريخه وفي " السِّيَر" تُفنّد ادّعاء المُصنِّف كتراجم أبي الحسن الأشعري و أبي بكر الباقلاني و صفي الدين الهندي وكمال الدين ابن الزَّملكاني وغيرهم[4]. و" كان من منهج الذهبي نَقل آراء الموافقين و المخالفين في المترجَم ليقدّم صورة كاملة عنه " وهذا " طابع عامّ في كتابه "، بينما اقتصر السُّبكي على إيراد المدائح." كما لمّح هذا الأخير إلى أنّ الذهبي سيهلك يوم القيامة فقال: "... و الذي أعتقده أنّهم خصماؤه " – أي شيوخ الأشاعرة- " يوم القيامة...، فالله المسؤول أن يُخَفّف عنه، و أنْ يُلهمهم العفو عنه، وأن يُشفّعهم فيه...". و زعم أنّه سيأتي يوم القيامة تائها " في ظُلَم التجسيم."[5] فيتبيَّن لنا ممّا تقدم إفراط السُّبكي في شَحْن كتابه بالدعاوى الغريبة

---

(1) – الفقيه المُحدِّث أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البغدادي الحنبلي. وُلد عام 325هـ/ 937م و توفي عام 369هـ/ 979م. (أنظر: أبو الحسين بن أبي يعلى الفراء، المصدر السابق، ج3، ص 327، 328).

(2) – المصدر نفسه، ج3، ص 23، 36، 37، 439، 256، 257، 230، 450، 458. و خالد كبير علال، **الأزمة العقيدية**، ص 66.

(3) – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج2، ص 13، 14، 22.

(4) – خالد كبير علال، **التعصّب المذهبي**، ص 118. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 494، 495. و ج1، (مقدمة المُحقق)، ص 207. و **السِّير**، الجزء المفقود، ص 444، 535، 536.

(5) – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج2، ص14. و ج3، ص 353.

مع اتّهامه الباطل للذهبي بالتجسيم، وذلك يندرج في سياق اتّهامه لأهل الحديث عامّة كما ذكرنا سابقا.

و اتّهمه بنقل " أمور ... يعرف بأنّها كذب " وأنّه " يحبُّ وضعها في كُتبه لتنتشر ...بغضا للمتحدَّث فيه...، مع قلّة معرفته بمدلولات الألفاظ ..."، و زعم أنّه متبِع لهوى نفسه وأنّ تاريخه "مشحون بالتعصّب المُفرط "، ثم حثّ على عدم الاهتمام بالنظر في مُصنَّفات الذهبي.[1] وكلّ هذا دعاوى مجردة نابعة من تأسُّف السُّبكي من تمسّك الذهبي بعقيدة أهل الحديث، وسبق أن بيّنا موضوعية الذهبي و إنصافه وسعة أفقه وغزارة عقله، وقد كثُر ثناء العلماء عليه مثل الحسيني[2] إذ قال: "...الشيخ الإمام ...شيخ المُحدِّثين قدوة الحُفّاظ... مُحدِّث الشام و مؤرخه..." و" كان أحد الأذكياء المعدودين و الحُفّاظ المُبرزين". وقال ابن كثير: "...الحافظ الكبير مؤرِّخ الإسلام وشيخ المُحدِّثين ...، وقد ختم به شيوخ الحديث و حُفّاظه." كما "عُرف الذهبي بزُهده و ورعه و ديانته المتينة." [3]

و ادّعى السُّبْكي أنَّ الذهبي "وصل من التعصُّب المُفرط إلى حدٍّ يُسخَر منه "، وأنّه إذا "مدّ القلم" لترجمة من يُخالف عقيدته في مسألة الصفات " غضب غضبا مفرطا ثم قرطم[4] الكلام ومزَّقه، وفعل من التعصُّب ما لا يخفى على ذي بصيرة..."، وأنّه يحكي " خرافات" لمدح بعض الأعلام، و أنَّه " متعصِّب جَلْد".[5] وفي الواقع فإنّ ما ذُكِر ينطبق على السُّبكي لا على الذهبي؛ فممّا يدلّ على هذا ما شحن به السُّبكي طبقاته من المزاعم الصوفية التي أشرنا إلى بعضها سابقا. وقد وصل به التعصُّب إلى كتابة تعاليق على هامش بعض التراجم في "تاريخ الإسلام" يتحامل فيها على الذهبي؛ حيث كتب – مثلا– على

---

(1) – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج2، ص 14، 15، 22.

(2) – المُحدِّث الفقيه شمس الدين محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحُسيني العَلوي المتوفّى في دمشق عام 765هـ/ 1363م، له مصنَّفات في الحديث قال عنه ابن كثير: " المُحدِّث المُحصِّل، المؤلف لأشياء مهمّة في الحديث". (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 660).

(3) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج1، (مقدمة المُحقق)، ص 64، 66.

(4) – قرطم الشيء: قطعه من آخره. و قرطم في الكتابة: لم يتمها. (أنظر: أحمد مختار و آخرون، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ج3، ط1، دار عالم الكتب، د م، 1429هـ/ 2008 م، ص 1800، 1801).

(5) – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج2، ص 13، 14. و ج5، ص 182. و ج7، ص 16.

هامش ترجمة سلامة الصياد[1]: " يا مسلم استحي من الله، كم تُجازف...، هل ارتفع للحنابلة قطّ رأس." قال السخاوي[2] مُعلّقا على ما كتب السُّبكي: " هذا من أعجب العُجاب، وأصحب للتعصب، بل أبلغ في خطأ الخطاب."[3]

ولمّا كان للأشاعرة نفوذ لدى الحكام خلال عصر المماليك أشار السُّبكي إلى أنّ الذهبي كان حذرا في نقده لهم وأشار إلى تخوّفه من قيامهم عليه ومن استخدامهم القوة ضدّه، حيث استحسن المُصنِّف هذا لحرصه على مَنْع مُخالفيه من النقد فقال: "... لو أظهرت ذلك لتناولتك سيوف الله." وأشار في ترجمة الخُبوشاني (الأشعري) إلى استنكار الذهبي نَبْش هذا الأخير لقبر ابن الكيزاني، حيث امتعض السُّبكي من استنكار الذهبي للجريمة المذكورة !. كما أشار ضمن ترجمة أبي المعالي الجُويني إلى قول الذهبي عند ذِكرْه وفاة الجُويني: "... وكان له نحو من أربعمائة تلميذ فكسروا محابرهم وأقلامهم وأقاموا على ذلك حَوْلا. وهذا من فعل الجاهلية والأعاجم...". فادّعى السُّبكي أنَّ هذا التعليق تحامل ! . واعترض على تحذير الذهبي من أبي حيان التوحيدي الفيلسوف[4]، رغم أنّ هذا الأخير قد عُرف بـ "القَدْح في الشريعة " و بـ "ما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح." ولذلك قال ابن الجَوْزي: " زنادقة الإسلام ثلاثة " وذكر منهم التوحيدي.[5]

واتّهم السُّبكي الذهبي بالتحامل على الحنفية والشافعية والمالكية، " وهذا افتراء على الرجل؛ لأنّ الذهبي

---

(1) – هو سلامة الصياد المنبجي الزاهد، ترجم له الذهبي " تاريخ الإسلام" ضمن طبقة (571– 580هـ) (1175– 1184م). قدم من منبِج إلى الموصل فأقام بها مدّة، ثم رجع إلى منبِج واستقرّ فيها إلى أنْ مات. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 653، 654.)

(2) – الفقيه المؤرّخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمان بن محمد السخاوي المصري. و سخا: بلدة في مصر. وُلد في القاهرة عام 841هـ/ 1427م. و توفي في المدينة عام 902هـ/ 1497م. له مُصنفات كثيرة منها " الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ." (أنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص 194).

(3) – شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ**، (تحقيق: روزنثال. تر: صالح أحمد)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د ت، ص 101.

(4) – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج3، ص 353. و ج7، ص 16. و ج5، ص 187، 188.

(5) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج8، ص 837، 838.

... نفسه كان" شافعيا، ومصنّفاته " التاريخية مملوءة بمدح الحنفية والمالكية والشافعية "، لكنّ مُراد السُّبكي هو الأشاعرة، وقصد في أكثر موضع من طبقاته بمصطلح "الشافعية " الأشاعرة، وهذا الدمج بين المصطلحات من الآثار السلبية للحياة المذهبية على الكتابة التاريخية، فلم يكن كلّ فقهاء الشافعية أشاعرة إذْ نجد – مثلا– الذهبي والمزِّي وعَلَم الدين البِرزالي على منهج أهل الحديث.[1]

<u>د– تفسير السُّبكي لبعض الأحداث التاريخية:</u>

تضمَّنت تعاليق السُّبكي في بعض التراجم تفاسير عجيبة لأحداث تاريخية؛ فقد زعم أنّ سقوط دولة المُرابطين كان بسبب إقدام أميرهم علي بن يوسف بن تاشفين(ت 537هـ/ 1142م) على إحراق كُتُب الغزالي، وادَّعى أنّ ذلك "يُعدّ من كرامات الغزالي." وقال في سياق إشارته إلى تعيين الظاهر بَيْبَرس (سنة 663هـ/ 1264م) قاضيا من كلِّ مذهب إلى جانب القاضي الشافعي: "... و حُكي أنّ الظاهر رأى الشافعي في النوم – لمّا ضمَّ إلى مذهبه بقيَّة المذاهب– وهو يقول: تُهين مذهبي؟ البلاد لي أو لك؟ أنا قد عزلتك وعزلتُ ذرِّيتك إلى يوم الدين، فلم يمكث إلاّ يسيرا ومات، ولم يمكث ولده السعيد إلاّ يسيرا و زالت دولته، و ذرِّيته إلى الآن فقراء. وجاء بعده قلاوون، وكان دونه تمكُّنا ومعرفة، ومع ذلك مكث الأمر فيه وفي ذرِّيته إلى هذا الوقت...". ولمَّا لم يجد المُصنِّف ما يُثبت صحة ما ذكر قال: " ولله تعالى أسرارٌ لا يُدرِكها إلاّ خواصُّ عباده..."[2]. وبهذا نستنتج أنَّ وجود مثل هذه التفاسير غير الصحيحة للأحداث التاريخية يُعدّ من أبرز مظاهر تأثّر طبقات السُّبْكي بالنزعة المذهبية، فاستيلاء قلاوون على السلطنة (سنة 678هـ/ 1279م) و إطاحته بالمَلِك السعيد بن الظاهر بَيْبَرس يعود إلى نفوذه وحِنكته؛ إذْ كان من كبار أمراء الظاهر بَيْبَرس، فلم يتمكَّن المَلِك السعيد الذي ولي السلطنة (676هـ/ 1277م) وهو شابٌّ دون العشرين من مقاومة نفوذه؛ قال الذهبي: "...وبقيت الآراء مختلفة...والسلطان شابٌّ غِرٌّ بالأمور...".

---

[1] – خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص 119. و تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج7، ص 16. و ج2، ص 15. و ج10، ص 400.

[2] – تاج الدين السُّبكي، المصدر نفسه، ج6، ص219. و ج8، ص 320، 321.

مع التنبيه إلى أنّ بَيْبَرس لم تكن وفاته بعد تعدد القُضاة بمدّة يسيرة كما ذكر السُّبكي؛ فتعيين القُضاة كان سنة 663هـ/ 1264م و وفاة السلطان كانت سنة 676هـ/ 1277م.[1]

وأبدى المُصنِّف امتعاضه من إشراك غير الشافعية في القضاء فقال: "... وقد حُكي أنّه " – أي الظاهر بَيْبَرس– " رُئي في النوم فقيل: ما فعل الله بك؟ قال: عذبني عذابا شديدا بجعل القُضاة أربعة...". وقال: "...فكان الرأي السديد لمن رأى قواعد البلاد مستمرة على شيء غير باطل أنْ يُجري الناس على ما يعهدون...". لكنَّ موقفه لم يكن مماثلا لمّا أشار إلى تحوّل قضاء مصر من المالكية إلى الشافعية . أمّا ابن كثير – وهو شافعي أيضا– فلم يتبرم من تعدد القضاة حيث قال: "... و استقرّت الأحوال على هذا المنوال ولله الحمد."[2]

و زعم السُّبكي أنّ مقتل و عَزْل بعض نوّاب دمشق يُمثِّل كرامات لوالده القاضي تقي الدين السُّبكي حيث قال: "...ومنها أمره مع أرغون شاه[3] نائب الشام...، وقد جَرَت له معه فصول...، وقال له مرّة: يا قاضي كم نائبا رأيته في هذه المدينة؟ قال: كذا وكذا نائبا، فقال: ما يُروِّحك إلاَّ أنا. فقال الشيخ...: سوف تُبصر. فبعد أيام يسيرة ذُبِح أرغون شاه صبرا." وقال: "...ومنها حاله مع إيتمش[4]... كرهه... وكلّمه كلاما وحشا، فراح الشيخ ذلك اليوم إلى قبر ... وعاد، فما مضت عشرة أيّام إلاَّ وجاء الخبر بعزله من نيابة دمشق." وذكر أنّ والده قال عن النائب أرغون الكاملي[5]: " كم ينغّص حالنا الله يقابله " فعُزِل "بعد شهر أو أقلّ من نيابة الشام ونُقل إلى حلب، ولم يهنأ عيشه بها بل عُزِل قريبا، ونقل إلى مصر، ولم يهنأ

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 208. وعِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 286، 316.

(2) – تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج8، ص321. و ج1، ص327. وعماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص288.

(3) – الأمير سيف الدين أرغون شاه الناصري، أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون. ولي نيابة دمشق سنة 749هـ/ 1348م. وقتل سنة 750هـ/ 1349م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 590).

(4) – الأمير سيف الدين إيتمش الناصري، أحد مماليك السلطان محمد بن قلاوون. ولي نيابة دمشق بين عامي (750– 752هـ) (1349– 1351م). (أنظر: المصدر نفسه، ج7، ص 593، 600).

(5) – الأمير سيف الدين أرغون الكاملي. أحد مماليك السلطان الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون. ولي نيابة دمشق سنة 753هـ/ 1352م، و كانت وفاته عام 758هـ/ 1357م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج7، ص 600، 613).

بها...بل...أُمسك و أُودِع سجن الإسكندرية." وقال عن سبب وفاة الأمير الأخير: "... لمّا مرض الشيخ وصار يقول: في خاطري ثلاث ... ولاية عبد الوهاب "– أي المُصنِّف– " القضاء، و وفاتي بمصر بعد ذلك، وأخذ يتكلَّم لي في القضاء، قيل له: إنّ أرغون الكاملي قد استقرّ بمصر أميرا كبيرا، ولا بدَّ أن يُشاوَر على قضاء الشام، و إنْ استُشير فهو لا يُشير بابنك لبغضه فيك. فقال: لا يصل الخبر إلاّ و أرغون ليس في مصر، ولا يُفلح و يموت، فكان كذلك."[1] وما تقدَّم يندرج ضمن دعاوى السُّبكي، فعَزْل وقَتْل النواب كان أمرا مألوفا خلال عصر المماليك لعدَّة أسباب منها تخوّف السلاطين من عصيان بعضهم، وتنافس كثير من كبار الأمراء على نيابة الشام.[2]

ولعلَّ المُطَّلع على مظاهر تأثّر السُّبْكي بالنّزعة المذهبية يتعجّب من قول هذا الأخير في الفخر بكتابه: " ومن نظر كتابي هذا علم كيف كان البدر يغيب وأنا شاهد، ويتيقّن أنّه وظيفة رجلٍ ناقدٍ...، فلقد اشتمل على... جانب عظيم من المباحث القواطع والقواعد التي كلّ شامخ الأنف لديها خاضع.... نعم والله إنّه لكتاب إذا قال أصغت الأسماع لما تلفَّظ به، و إذا صال زحزح كلّ مشكل من المشكلات ومشتبه... كتاب أصيلٌ، بأجناس المحافل كفيلٌ...". وقوله: "... إنّ هذا المجموع شمس عوارف المعارف، وقمر لطائف الظرائف، ونجم سماء العلم...". و زعم أنَّ المُنْصِف إذا تأمّل كتابه "جَبُن عن معارضته "، كما زعم أنّ المحروم هو "من لم يَغْترف من بحر دُرِّه، ولم يعترف برفيع قدره." و وصف كتابه بـ " العَقْد الآخذ بعقول أولي الألباب." وقال أيضا: "... فإنَّا لم نضع الكتاب إلاّ حاويا، مُغْنيا ناظره عن الالتفات إلى غيره من التواريخ...".[3]

-استنتاج:

نستنتج ممَّا تقدَّم في هذا المبحث أنّ كتاب " طبقات الشافعية الكبرى " قد تأثَّر تأثُّرا عميقا بخلفية

---

[1] – تاج الدين السبكي، المصدر السابق، ج 10، ص 213، 214، 217، 218.

[2] – عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 648.

[3] – تاج الدين السبكي، المصدر نفسه، ج1، ص 209، 211، 212، 214، 314، 321.

المُصنِّف المذهبية الأشعرية وبالتصوف؛ حيث صرَّح السُّبكي في مواضع كثيرة من كتابه بإقرار كثير من خرافات الصوفية، و زعم أنَّ بعض الصوفية لهم " مقام التصريف" و ادَّعى اطِّلاع بعضهم على أمور غيبية وساهم في الترويج للمزاعم الصوفية. كما استدلّ بالمنامات المكذوبة لترهيب غيره من نقد الأشاعرة والصوفية، و أشار إلى بعض أقوال الاتحادية دون التصريح الواضح بالتحذير منها.

وقد أفرط المُصنِّف في التحامل على أهل الحديث، فاتهمهم بالتشبيه والتجسيم و وصفهم بأوصاف شنيعة، وأتى بدعاوى لا أدلَّة معها. و زعم أنَّ الذهبي مُتعصِّب وغير مُنصِف، وأنّه يحكي الخرافات فناقض بذلك ما تدلّ عليه مُصنَّفات الذهبي من إنصافٍ وموضوعية وسعة أفق وغزارة عقل.

و وصل أثر العقيدة بالمُصنِّف إلى أنْ ادَّعى أنّ النبي صلّى الله عليه و سلّم قد " بشّر" بظهور أبي الحسن الأشعري، و أنّ الأشاعرة بإمكانهم أنْ " يعدُّوا أبا بكر و عمر رضي الله عنهما... في جملتهم" و إلى تفسير بعض الأحداث التاريخية بتفاسير عجيبة. و مع كلِّ ما تقدَّم نجده يُحذِّر من المؤرخين المُتعصِّبين وهو حامل رايتهم.

ثانيا- كتاب " الجواهر المُضيّة في طبقات الحنفية " للقُرَشي:

مُصنِّف هذا الكتاب هو الفقيه المؤرّخ عبد القادر بن محمد بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القُرَشي المصري. وُلد عام 696هـ/ 1296م، اهتمّ بالفقه والحديث ودرّس وأفتى سنين وصنَّف عدَّة كتب متعلِّقة بالمذهب الحنفي، إذْ كان عبد القادر حنفيا في الجانب الفقهي و ماتريديا في مسألة الصفات. وقد ترجم في " الجواهر" لفقهاء الحنفية، والتزم ترتيب أسماء المترجمين على حروف المعجم. ومعظم تراجم الكتاب مُختصرة جدا، ومنها تراجم كثير من المشاهير وهذا عكس ما نجده في طبقات السُّبكي.[1]

ومن أبرز ما تميَّز به هذا الكتاب قلّة التعاليق المتعلقة بالمذاهب؛ فممّا يُبيّن ذلك إشارة المصنّف في

---

[1] – عبد القادر القُرَشي، المصدر السابق، ج1، ص (مقدمة المحقق)، ص 74. وشمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 319. و جمال الدين ابن تغري بردي، **المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي**، ج7، (تحقيق: محمد أمين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة – مصر، د ت، ص 326).

تراجم عديدة إلى اتّباع كثير ممّن ترجم لهم لمذهب المعتزلة دون تعليق على ذلك، كقوله بشأن الفقيه أبي بكر محمد بن عبد الله بن الحسين النيسابوري الحنفي (ت 484هـ/ 1091م): "... كان فقيها مناظرا... يذهب إلى الاعتزال." و إشارته ضمن ترجمة يوسف بن إسماعيل اللمغاني[1] إلى تمسّكه بالقول بخَلْق القرآن. وقوله في ترجمة الفقيه أبي عبد الله الحسين بن علي البصري الحنفي (ت 369هـ/ 979م): "... رأس المعتزلة "، وقال عن الفقيه النحوي الحسن بن محمد بن علي بن رجاء البغدادي الحنفي المعروف بابن الدهان (ت 447هـ/ 1055م): "... قرأ الكلام على مذهب المعتزلة." وقال أيضا في ترجمة فقيه آخر: "... وكان يذهب إلى مذهب الاعتزال." وأشار ضمن إحدى التراجم إلى امتحان المأمون والمُعتصم لبعض العلماء (مِحنة خَلْق القرآن)، كما أشار إلى بعض مقالات أحد شيوخ المعتزلة، و إلى عزل القاضي المعتزلي ابن أبي الليث عن قضاء مصر(سنة 235هـ/ 849م).[2]

ونجد ضمن تراجم أخرى بعض التلميحات العامّة إلى مخالفته للمعتزلة، مثل قوله بشأن أبي الحسن السيرافي[3]: "... و رُمي بالاعتزال." وقوله عن الفقيه عزّ الدين يوسف بن إسحاق بن إبراهيم بن محسن الجَعبري الحنفي نزيل القاهرة (ت735هـ/ 1334م): "... و حدَّث و أفتى ودرّس...، وكان يُرمى بالاعتزال." وقوله عن فقيه آخر: "... شيخٌ معروفٌ من أهل العلم، إلاّ أنّه كان يُنسب إلى الاعتزال" و إشارته إلى إنكار الإمام الشافعي على المُتكلِّم بِشْر بن غِياث المَريسي المعتزلي. ونقل المُصنِّف بعض الأقوال الموجزة لعدد من الفقهاء الذين حذّروا من المعتزلة؛ مثل الفقيه المُحدِّث بكّار بن الحسن بن عثمان بن زياد التميمي الأصبهاني (ت 238هـ/ 852م). كما نقل ضمن إحدى التراجم تحذير الإمام أبي حنيفة

---

(1) – الفقيه يوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمان بن عبد السلام اللمغاني المعتزلي الحنفي. و اللمغاني: نسبة إلى لمغان، و هي مواضع من نواحي غَـزْنة. وُلد 518هـ/ 1124م. و توفي سنة 606هـ/ 1209م في بغداد. (أنظر: عبد القادر القُرشي، المصدر السابق، ج3، ص 620، 621. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج 11، ص 31).

(2) – المصدر نفسه، ج3، ص 184، 621. و ج4، ص 63، 300. و ج2، ص85، 424. و ج1، ص 454.

(3) – الفقيه أبو الحسن أحمد بن زبهراد بن مهران الفارسي السيرافي. و السيرافي: نسبة إلى سيراف، و هي مدينة من بلاد فارس (جنوبها). وُلد سنة 253هـ/ 867م، وكانت وفاته في مصر سنة 344هـ/ 955م. (أنظر: المصدر نفسه، ج1، ص 169).

النُّعمان من مقالات الجَهمية.[1]

و أشار إلى اتّباع بعض الأعلام العقيدة الأشعرية دون تعليق على ذلك؛ فنجد هذا ضمن ترجمة الفقيه أبي مسلم عبد الرحمان بن عمر بن عبد الرحمان بن ثابت السمناني الحنفي (ت 497هـ/ 1103م)، وفي ترجمة القاضي أبي جعفر السمناني حيث قال عنه: "... مُتكلِّم على مذهب الأشعري، ولي القضاء بالموصل...". وقال بشأن فقيه آخر: "... كان يتكلَّم في الأصول على طريقة الأشعرية." واكتفى المُصنِّف بالإشارة إلى ما كان يجري بين أبي المعالي الجُويني (الأشعري) و أبي الحسن الصندلي[2] المعتزلي من خلافات ومناظرات.[3]

ومن الملاحظات البارزة التي وقفنا عليها من خلال دراسة هذا الكتاب هي عدم تطرّق المُصنِّف لذِكر مقالات الماتُريدية في تراجمه لمشاهير دعاتهم، وهذا من أبرز الفروق بين طبقاته وطبقات السُّبكي. كما أننا لا نجد في "الجواهر المُضية " ما وجدناه في كتاب السُّبكي من الشتائم المتعددة لأعلام أهل الحديث. فمن تراجم دعاة الماتُردية الدالّة على ما ذكرنا ترجمة أبي اليُسر البَزدوي، حيث ذكر فيها أبرز تلاميذه وأشار إلى كثرة تصانيفه. وترجمة أبي المُعين ميمون بن محمد النَّسَفي، وذكر فيها بعض مصنّفاته، وكذا ترجمة نجم الدين عمر بن محمد النَّسَفي التي ذكر فيها شيوخ هذا الأخير وتلاميذه وتصانيفه.[4]

وفي مواضع قليلة نجد بعض ما يدلّ على تأييد المُصنِّف لمقالات الماتُريدية؛ مثل إشادته بكتاب "التأويلات" لأبي منصور الماتُريدي، والذي تأثَّر في كتابه هذا بالمعتزلة، ونقل المصنِّف زعم منكوبرس[5]

---

(1) – عبد القادر القُرَشي، المصدر السابق، ج1، ص 169، 86، 457 . و ج3، ص 21، 619.

(2) – الفقيه أبو الحسن علي بن الحسن بن علي الصندلي النيسابوري الحنفي المعتزلي المتوفّى عام 484هـ/ 1091م. (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 554.)

(3) – المصدر نفسه، ج2، ص 387، 554، 555. و ج3، ص 57، 131.

(4) – المصدر نفسه، ج4، ص 98، 99. و ج3، ص 526. و ج2، ص 657، 658.

(5) – الفقيه الحنفي جمال الدين أبو شجاع منكوبرس بن عبد الله المُستنصري، كان من مماليك الخليفة العباسي المُستنصر بالله ثم أعتقه، توفي في بغداد سنة 652هـ/ 1254م. (أنظر: المصدر نفسه، ج4، ص 106).

الحنفي أنّ شيوخ الماتُريدية قد شملتهم " الكرامات الظاهرة ببركة " عقيدتهم.[1]

ويمكن القول أنّه من الفروق الجلية بين طبقات السُّبكي وطبقات القُرَشي اختصار هذا الأخير لمعظم التراجم بما في ذلك ترجمة أبي منصور الماتُريدي، وعدم لجوئه إلى عبارات التفخيم والإمعان في المدح عكس ما نجده عند السُّبكي، و رغم أنّ القُرَشي ماتُريدي إلاّ أنّه نقل كلاما لأبي بكر الخُوارزمي[2] فيه نوع تحذير من علم الكلام، ونقل قول أحمد بن عمران الليموسكي[3]: "...الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص."[4]

ولا نجد في "طبقات الحنفية " معطيات متعلقة بفِرَق الشيعة إلاّ ضمن تراجم قليلة؛ فقد قال ضمن ترجمة أبي المحاسن التنوخي[5]: " كان معتزليا شيعيا." ونقل إشارة الذهبي إلى تشيُّع سِبْط ابن الجَوْزي. وذكر –نقلا عن غيره– أنّ الفقيه أبا سَعْد يحيى بن طاهر بن الحسين الرازي الحنفي (ت بعد537هـ/ 1142م) كان "يميل إلى الاعتزال و التشيّع." كما نقل وصف أحد الفقهاء للإسماعيلية الحشاشين بـ "الملحدين"، وذلك في سياق ذِكْره اغتيالهم الفقيه عُبَيد الله الخطيبي[6] سنة 502هـ/ 1108م. وذكر في سياق إشارته إلى خلفاء وملوك بعض الدول في آخر كتابه (خارج موضوع طبقات الحنفية) أنّ نَسَب عُبَيد الله المهدي الإسماعيلي "مطعون فيه"، وأنّه " كان يزعم أنّه من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق. ونوّه المُصنِّف بما بذله الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعد الله الحنفي البغدادي (نزيل دمشق المتوفّى

---

(1) – عبد القادر القُرَشي، المصدر السابق، ج3، ص 360. و ج4، ص 105، 106. و شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 259.

(2) – الفقيه المُحدِّث أبو بكر محمد بن موسى بن محمد الخُوارزمي الحنفي، شيخ الحنفية في بغداد، توفي فيها عام403هـ/ 1012م. (أنظر: عِماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص396).

(3) – الفقيه المُحدِّث أبو جعفر أحمد بن عمران الليموسكي الحنفي المتوفّى عام 331هـ/ 942م. و الليموسكي: نسبة إلى ليموسك: وهي قرية من قرى أستراباذ. و هذه الأخيرة بلدة من نواحي جرجان. (أنظر: عبد القادر القُرَشي، ج1، ص 224، 225. و جلال الدين السيوطي، **لبُّ الألباب في تحرير الأنساب**، ج1، دار صادر، بيروت – لبنان، د ت، ص 12، 231).

(4) – عبد القادر القُرشي، المصدر نفسه، ج3، ص 360، 374، 375. و ج1، ص 225.

(5) – الفقيه أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي النحوي المعتزلي الحنفي، أصله من المَعَرّة، صنّف " تاريخ النُّحاة ". توفي عام 442هـ/ 1050م. (أنظر: ياقوت الحَمَوي، **معجم الأدباء**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1414هـ/ 1993م، ص 2710.

(6) – الفقيه أبو إسماعيل عُبيد الله بن علي بن عبيد الله الخطيبي الحنفي، قاضي أصبهان. قتله الإسماعيلية بهمذان سنة 502هـ/ 1108م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 37).

في مصر عام 584هـ/ 1188م) من مساع خلال عهد السلطان نور الدين محمود " في التحريض على قَصْد الديار المصرية و استِنقاذها ممّن كانت " في يده (أي العاضِد).[1]

ومن الملاحظات الرئيسية التي وقفنا عليها من خلال دراسة هذا الكتاب عدم وجود المزاعم الصوفية (الموضوعة باسم الكرامات) التي تعجّ بها طبقات السُّبْكي؛ فلم نقف في "طبقات الحنفية " على نماذج منها إلاَّ في ثلاث تراجم، وتقلّ في الكتاب المعطيات المتعلّقة بالصوفية عموما. إلاّ أنّنا لاحظنا أنّ المُصنِّف قد ترجم لإسماعيل بن سودكين النوري، وذكر أنّه من أصحاب محيي الدين ابن عربي دون أن يُشير إلى أنَّهما من القائلين بوحدة الوجود. كما لم يُشر ضمن ترجمة الفيلسوف ابن سينا إلى أيٍّ من انحرافاته التي اشتهر بها كقوله بـ "عدم المعاد الجثماني و أنّ الله لا يعلم الجزئيات."[2]

و رغم أنَّ المُصنِّف قد ترجم لأعلام مذهبه (الحنفي) إلاّ أنّه لم يُغفل الإشارة إلى ضعف بعض الرواة منهم؛ فقد أشار إلى تضعيف ابن معين للفقيه أبي الهيثم عبد الرحمان بن مسهر الكوفي الحنفي (ت190هـ/ 806م)، وذكر – نقلا عن الذهبي– أنَّ المُحدِّث الفقيه علي بن يزيد الصدائي[3] قد ضعَّفه بعض العلماء. كما أشار إلى تضعيف ابن معين لفقيه حنفي آخر. وذكر المُصنِّف أنَّ الفقيه أبا المُظفَّر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني التميمي المَروزي(ت 489هـ/ 1096م) قد انتقل من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي، ولم يتحامل عليه المُصنِّف عند ذكره ما تقدَّم، بل وصفه بـ " الفقيه الإمام المشهور"، وهذا موقف إيجابي. ونقل كذلك قول عبد الكريم السمعاني عن أحد فقهاء الحنفية: "... وكان شديد التعصُّب في مذهبه، متحاملا على أصحاب الشافعي." كما قال المُصنِّف ضمن ترجمة الفقيه أبي

---

(1) – عبد القادر القُرشي، المصدر السابق، ج3، ص 495، 634، 591. و ج2، ص499، 333، 334. و ج4، ص 553.

(2) – المصدر نفسه، ج2، ص 700، 701، 63، 64. و ج3، ص 345. و ج1، ص 409. و محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، ج3، ط1، (تحقيق: إحسان عباس)، دار صادر، بيروت – لبنان، 1395هـ/ 1974م، ص 437. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 543. و عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج 6، ص 440.

(3) – الفقيه المُحدِّث علي بن يزيد بن سليم الكوفي الحنفي، ترجم له الذهبي ضمن وفيات الطبقة (201– 210هـ) (816 – 825م). والصدائي: نسبة إلى صداء: وهي قبيلة يمانية. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج5، ص 130. وعبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج8، ص 39).

عبد الله البلاساغوني[1]: "... وذكره الذهبي... و ذكر عنه أنه كان يقول: لو كان لي أمرٌ لأخذت الجِزية من الشافعية، وبدّعه بهذا." وعدم تعليقه على كلام الذهبي يدلُّ على إقراره بتحامل البلاساغوني على الشافعية و هذا إنصافٌ منه. لكنّ المُصنِّف " له مقالة خطيرة ضد الصحيحين"، حيث ذكر أنَّ في " صحيح البخاري" و "صحيح مسلم" كثير من الأحاديث المنقطعة[2]، وهذا ما ردّه العلماء.[3]

-استنتاج:

نستنتج من خلال ما تقدَّم في هذا المبحث قلّة مظاهر تأثُّر " الجواهر المُضيَّة " بالنزعة المذهبية حيث لاحظنا قلّة تعاليق المُصنِّف المتعلقة بالعقائد وكذا بالجانب الفقهي. ولم نجد في كتابه الادعاءات الصوفية (الملفقة باسم الكرامات) إلاّ في نحو ثلاث تراجم، وهذا عنصر إيجابي. كما أنّه نقل بعض مظاهر النقد لأعلام حنفية. وتميزت معظم تراجم كتابه بالاختصار.

ثالثا- كتاب " الدّيباج المُذَهّب في معرفة أعيان علماء المذهب " لابن فرحون:

مُصنِّف "الديباج المذَهَّب" هو الفقيه برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن علي بن محمد بن القاسم بن محمد بن فرحون اليعمري[4] المدَني المالكي الأشعري. وُلد بعد الثلاثين وسبعمائة بالمدينة ونشأ فيها وسمع بها من بعض المُحدِّثين، واهتمَّ بالفقه واللغة، فصار من أبرز فقهاء المالكية خلال عصره. وقد ارتحل إلى مصر والقدس والشام سنة 792هـ/ 1390م. وولي قضاء المالكية في المدينة من سنة 793هـ

---

(1) – الفقيه أبو عبد الله محمد بن موسى بن عبد الله التركي البلاساغوني الحنفي نزيل دمشق، توفي سنة 506هـ/ 1112م. و البلاساغوني: نسبة إلى بلاساغون: مدينة في بلاد ما وراء النهر.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 82. وعبد القادر القُرشي، ج3، ص 375).

(2) – الحديث المنقطع: " ما لم يتّصل إسناده ": يعني أنَّ كلّ إسناد انقطع من أيّ مكان كان؛ سواء كان الانقطاع من أوّل الإسناد أو من آخره أو من وسطه. " و المنقطع ضعيفٌ بإجماع العلماء، لفقده شرطا من شروط القبول و هو اتّصال السند...". (أنظر: محمود الطحان، المرجع السابق، ج1، ص 94، 95).

(3) – عبد القادر القُرشي، المصدر نفسه، ج2، ص 405، 406، 622. و ج3، ص 574، 206، 375، 376. و ج4، ص90، 566. و ج1، ص 296. و شمس الدين الأفغاني، المرجع السابق، ج1، ص 319.

(4) – اليعمري: نسبة إلى قبيلة يعمر، وهي بطن من كنانة من العرب العدنانية.(أنظر: عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج12، ص 415).

/ 1390م إلى أنْ توفي سنة 799هـ/ 1396م.[1] وخلَّف ابن فرحون كتبا في الفقه، منها " تبصرة الحُكام في أصول الأقضية ". و صنَّف " الديباج المذَهَّب في معرفة أعيان علماء المَذْهب" ترجم فيه لفقهاء المالكية، ولم يذكر من لم يشتهر منهم، حيث قال: "... وقد ذكرتُ في هذا المجموع الوجيز مشاهير الرواة وأعيان الناقلين للمذهب والمُؤلِّفين فيه...، وأضربت عن ذكر غير المشاهير إيثارا للاختصار...، وذكرت جماعة من المتأخِّرين... قصد التعريف بحالهم لكونهم تصدَّوا للتأليف...، وكذا ذكرت بعض الرواة الحُفّاظ المتأخّرين لكونهم من مشايخ أهل زماننا...". وقال: "...اشتمل هذا التأليف على أزيد من ستمائة وثلاثين اسما من الأعيان والمشاهير من الفقهاء والحُفّاظ للحديث وأكابر الرواة وغيرهم من المُؤلِّفين ممَّن لم يبلغ درجة من قصدنا ذِكرهم، لكن ذكرناهم للتعريف بحالهم و زمانهم، وأضربنا عن ذكر كثير من العلماء ممَّن لم يشتهر شهرة هؤلاء، ولم يكن له تآليف و لا تخرَّج به أحد من المشاهير...". والتراجم التي اختصرها المُصنِّف أكثر من التراجم التي أطالها، حيث أشار إلى أنّ كتابه مُختصَر.[2]

وتضمَّنت بعض التراجم تعليقات من المُصنِّف بشأن أعمال الباطنية الإسماعيلية في بلاد المغرب حيث ذكر أنَّ الفقيه محمد بن سعدون [3] ألَّف " تآليف في ذمِّ بني عُبيد الله وأفعالهم القبيحة بالقيروان وغيرها." وقال عن الفقيه الشهير محمد بن القاسم المصري المالكي: "... وكان واسع الرواية كثير الحديث مليح التأليف...، وافق موته دخول[4] بني عُبيد الروافِض، وكان شديد الذمِّ لهم، وكان...يقول: اللهمّ أمتني قبل دخولهم مصر، فكان ذلك...". كما ذكر ضمن ترجمة الفقيه أبي سعيد خلف بن أبي القاسم الأزْدي القيرواني المعروف بالبراذعي (ت بعد 430هـ/ 1038م) أنّه " لم تحصل رياسة بالقيروان وكان مبغضا

---

[1] – شمس الدين السخاوي، **التُّحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، ج1، (تحقيق: أسعد الحسيني)، ط1، د ن، 1399هـ/ 1979م، ص131، 132. و برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 9، 10 (مقدمة المُحقق)، و ص 354، 364.

[2] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 11، 43، 173.

[3] – الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال القيرواني المالكي، تعلَّم بالقيروان و ارتحل إلى المشرق و عاد إلى بلاد المغرب، و كانت وفاته بأغمات بالمغرب الأقصى سنة 486هـ/ 1093م. (أنظر، عياض بن موسى، **ترتيب المدارك**، ج8، ط1، (تحقيق: سعيد أعراب)، مطبعة فضالة، المحمدية – المغرب، 1404هـ/ 1983م، ص 113).

[4] – دخول جوهر الصقلي إلى الديار المصرية سنة 358هـ/ 969م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **العِبر**، ج2، ص 102).

عند أصحابه لصحبته " ملوك "بني عُبيد". و وظّف المُصنِّف المصطلح الأخير في مواضع أخرى، حيث قال بشأن الفقيه أبي محمد عبد الله بن إسحاق القيرواني المالكي المعروف بابن التبان (ت 371هـ/ 981م): "... وكان من أشدِّ الناس عداوة لبني عُبيد، كريم الأخلاق...". و ذكر أنَّ الفقيه محمد بن الوليد الطُّرطوشي[(1)]: "...امتُحن في دولة العُبيديين بالإخراج من الإسكندرية...". وذكر أيضا (نقلا عن غيره) أنّ الفقيه محمد النعالي[(2)] كان "مُباينا لبني عُبيد." كما ذكر أنّ الفقيه محمد بن نظيف البزاز القيرواني (ت 355هـ/ 966م) قد خرج من إفريقية إلى المشرق " لما ظهر فيها سبّ السَّلَف." (أي سبّ الصحابة من طرف الإسماعيلية).[(3)]

و تضمّنت ترجمة الفقيه إبراهيم بن أحمد القيرواني[(4)] نوعا من التنويه بتحذيره من الإسماعيلية، وأشاد المُصنِّف بما بذله عبد الله ابن فرحون[(5)] من جهود لعزل قُضاة الشيعة في المدينة (سنة 746هـ/ 1345م) حيث قال (المُصنِّف): "... و بهِمَّته و سياسته أزال الله تعالى أحكام الطائفة الإمامية من المدينة فعُزلت قُضاتهم وانكسرت شوكتهم، وذلك أنّه لما باشر الأحكام... في سنة ستّ وأربعين وسبعمائة سعى في عزل قُضاتهم، فنودي في شوارع المدينة بتبطيل أحكامهم والإعراض عن أحكامهم...".[(6)]

ونجد في بعض المواضع من هذا الكتاب نقل و إقرار بعض الادّعاءات الصوفية؛ فقد ذكر المُصنِّف في ترجمة أحد الأعلام كلاما نسبه بعض الصوفية إليه أنّه " يجتمع بالخَضِر عليه السلام"، و أنَّه دخل

---

(1) – الفقيه أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان الـفِهْري الطُّرطوشي الأندلسي. و طُرطوشة: مدينة في شمال الأندلس. صنَّف الطُّرطوشي عدَّة كُتب، و كانت وفاته في الإسكندرية سنة 525هـ/ 1131م. (شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج19، ص 490، 496. و برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 372).

(2) – الفقيه أبو بكر محمد بن سليمان، و قيل: محمد بن إسماعيل النعالي المصري. و النعالي: نسبة إلى عمل النعال. توفي سنة 380هـ/ 990 م. (أنظر: برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 354).

(3) – المصدر نفسه، ص 369، 345، 346، 182، 224، 372، 354، 407.

(4) – الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد القيرواني المالكي، وُلد سنة 270هـ/ 883م، و توفي سنة 356هـ/ 907م. (أنظر: المصدر نفسه، ص 141، 142).

(5) – عمُّ المُصنِّف و هو: الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي القاسم فرحون اليعمري المالكي. وُلد في المدينة ونشأ فيها ودرس الفقه و التفسير و اللغة ، و صنَّف عدَّة كتب، و كانت وفاته سنة 769هـ/ 1367م. (أنظر: المصدر نفسه، ص234، 235).

(6) – المصدر نفسه، ص 141، 142، 236.

عليه في بيته فكلَّمه. ولم يُعلِّق ابن فرحون على ما نقل. كما نقل ضمن ترجمة أخرى مناما مزعوما دون أن يُعلِّق على ذلك، حيث قال: "... وقال تميم بن معين البادسي[1]: "... رأيتُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في المنام، فقلت: يا رسول الله أكتب لي براءة من النار، فقال لي: امض إلى الفقيه سند[2] يكتب لك براءة. فقلت له: ما يفعل، فقال: قل له: بأمَارة "– أي علامة– " كذا وكذا. فانتبهت فمضيت إلى الفقيه سند، فقلت له: أكتب لي براءة من النار...، فقلتُ له الأمَارة ...، فكتب لي رقعة." ونشير إلى أننا لم نقف على أمثلة أخرى كالمنام الملفق المزعوم السابق، بخلاف ما نجده في بعض المُصنَّفات من حرص على نقل ما تقدَّم. كما لم ينقل المُصنِّف المزاعم التي وُضعت باسم الكرامات ونُسِبت إلى بعض الأعلام إلاَّ في تراجم قليلة جدا؛ كقوله في إحدى التراجم: "... و من عجائبه أنّه بنى مسجدا عظيما فيه نحو عشرين سارية عظاما، فقالوا له: من يرفع هذه السواري؟ فقال: الذي خلقها. فأصبحت السواري مرفوعة...".[3]

ولم يركِّز ابن فرحون على التطرُّق إلى الخلاف بين المُتكلِّمين وأهل الحديث، لكنَّ تعاليقه الموجزة في بعض المواضع تدلّ على أنّه أشعري، وتتضمن بعض التلميح للطعن في أهل الحديث.[4]

أمَّا في الجانب الفقهي فقد نقل المُصنِّف و أقرَّ في مقدمة كتابه فصلاً من كلام القاضي عياض[5] تحدَّث فيه هذا الأخير عن وجوب تقليد "مذهب مالك رحمه الله." وقد علَّق الذهبي بعدما أشار إلى ما ذكر القاضي عياض: "... ثم وجَّه القاضي دعواه و حسَّنها و نمَّقها، ولكن ما يعجز كلٌّ واحد من حنفي وشافعي وحنبلي...عن ادِّعاء مثل ذلك لمتبوعه، بل ذلك لسان حاله و إن لم يَفُه به." وقال: "...ولكن هذا

[1] – لم أقف له على ترجمة، و قد ذكر ابن فرحون أنَّه من الفقهاء. (أنظر: برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 207.)

[2] – الفقيه أبو علي سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن الحسن الأزدي المالكي المتوفّى في الإسكندرية عام 541هـ/ 1146م. (أنظر: المصدر نفسه، ص 207).

[3] – المصدر نفسه، ص 281، 207، 270.

[4] – المصدر نفسه، ص 434، 364، 98، 293، 363.

[5] – الفقيه أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو السبتي المالكي، وُلد سنة 476هـ/ 1083م، ارتحل إلى الأندلس و المشرق، ولي القضاء في سبتة، و كانت وفاته في مراكش سنة 544هـ/ 1149م. صنَّف " ترتيب المدارك " في طبقات المالكية. (أنظر: أبو القاسم ابن بشكوال، **الصِّلة في تاريخ أئمة الأندلس**، ج1، (تحقيق: العطار الحسيني)، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، 1374هـ/ 1955م، ص 429، 430.)

الإمام" – أي الإمام مالك– " الذي هو النجم الهادي قد أَنْصَف، وقال قولاً فصلاً؛ حيث يقول: كلٌّ يُؤخَذ من قوله و يُترَك إلاّ صاحب هذا القبر صلَّى الله عليه وسلّم، ولا رَيْب أنَّ كلّ من أَنِس من نفسه فقها وسعة علم و حُسن قَصْد، فلا يسعه الالتزام بمذهب واحد في كلِّ أقواله، لأنّه قد تبرهن له مذهب الغير في مسائل، و لاح له الدليل وقامت عليه الحُجَّة، فلا يُقلِّد إمامه، بل يعمل بما تبرهن، ويُقلِّد الإمام الآخر بالبرهان لا بالتشهي...".[1]

كما نقل و أقرّ – في سياق حديثه عن " ترجيح مذهب مالك"– ادِّعاء القاضي عِياض أنَّ الإمام الشافعي قد ضعَّفه في الحديث " أهل الصَّنْعة " – أي علماء الحديث–، وهذا غير صحيح فتوثيق الشافعي ثابت؛ قال الذهبي: "... و وثَّقه أحمد و غيره." وترجم ابن حبّان للشافعي ضمن كتاب " الثقات" وقال النسائي: " كان الشافعي عندنا ثِقة مأمونا."[2]

ونقل المُصنِّف أيضا و أقرَّ زعم القاضي عِياض أنّ الإمام أحمد و إن كان " من العارفين بعلم الحديث" و لكن لا تُسلّم له " الإمامة في الفقه ولا جودة النظر في مأخذه." وليس في هذا إنصاف؛ إذْ أنّ الإمام أحمد " كان فقيها مُحدِّثا...مجتهدا في استنباط الأحكام الشرعية." وقد جمع بعض الأعلام اختياراته الفقهية و فتاويه في مجلَّدات كثيرة منها "مسائل أحمد" لأبي داود السجستاني، و"مسائل أحمد بن حنبل" لأبي يعقوب الكوسج[3] و"الجامع الكبير لفقه أحمد بن حنبل" لأبي بكر الخلاّل في نحو ثلاثين مجلدا. وذكر أبو الحسين بن أبي يعلى الفرّاء أن الإمام الشافعي قال: " أحمد إمام في ثمان خصال: إمام في

---

[1] – برهان الدين ابن فرحون، ص 44، 48. و شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج8، ص93، 94.

[2] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 54. و محمد بن حبّان، **الثقات**، ج9، ط1، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد – الهند، 1393هـ/ 1973م، ص50. و شمس الدين الذهبي، **تذكِرة الحُفّاظ**، ج1، ص 362. و أبو الحجاج المِزِّي، **تهذيب الكمال**، ج24، ص 380.

[3] – الفقيه المُحدِّث أبو يعقوب الكوسج: و هو إسحاق بن بهرام المروزي. وُلد بمرو ، ارتحل في طلب العلم إلى العراق و الحِجاز والشام، وكانت وفاته في نَيْسابور عام 251هـ/ 865م. (أنظر: محمد بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج1، ص 303، 309. و شمس الدين الذهبي، **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب السِّتة**، ج1، (تحقيق: محمد الخطيب)، ط1، دار القبلة، جدة – السعودية، 1413هـ/ 1992م، ص 239.)

الحديث، إمامٌ في الفقه...". ثم قال أبو الحسين: "... وأمَّا الخصلة الثانية، وهي قوله: "إمام في الفقه" فالصدق فيه لائح و الحقُّ واضح، إذْ كان أصل الفقه كتاب الله و سُنَّة رسوله و أقوال صحابته، وبعد هذه الثلاثة القياس، ثم قد سُلِّم له الثلاث، فالقياس تابع...".كما قال الذهبي: "...وكان إماما في الحديث، إماما في الفقه ودقائقه، إماما في السُّنة..." وقال: "... والله لقد بلغ في الفقه خاصّة رتبة الليث" – أي الليث بن سَعْد– " ومالك والشافعي...".[1]

وقد أشار المُصنِّف ضمن ترجمة ابن الأغبس[2] إلى أنَّه "ربما أفتى بمذهب مالك، وربما يعتني بمذهب الشافعي"، ولم يتحامل عليه المُصنِّف بل قال: "...كان يميل إلى النظر والحُجّة...، عالم فَهِم...، واعتنى بكُتُب الشافعي وكان يميل إليه." والأمر نفسه نجده ضمن ما ذكره بشأن الفقيه قاسم بن محمد القُرطبي[3]. وذكر أيضا – نقلا عن غيره– أنَّ الفقيه أبا الطاهر محمد بن أحمد بن عبد الله بن نَصْر البغدادي (توفي في مصر سنة 367هـ/ 977م) " كان يذهب إلى قول مالك بن أنس و ربَّما اختار...".[4]

-استنتاج:

لاحظنا من خلال ما تقدَّم في هذا العنصر قلّة التعاليق المرتبطة بالمذاهب، وعدم توسّع المُصنِّف في نقل المزاعم التي وضعت باسم الكرامات(رغم أنّه نقل بعضها)، وهذا عكس ما نجده في طبقات السُّبكي. ومن الفروق بين الكتابين حِرص السُّبكي على استخدام عبارات الإطراء والتوسّع في ذلك، وهذا ما جعل كتابه يعج بالإنشاء الذي لا طائل من ورائه. ولاحظنا أنّ ابن فرحون لم يركِّز على التطرق إلى الخلاف

---

[1] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر السابق، ص 54. و خالد كبيرعلال، **مواقف المؤرِّخ ابن الأثير من الحنابلة**، ص 5. و عبد الرحمان ابن الجَوزي، **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**، ص 662. و محمد بن أبي يعلى الفرّاء، المصدر السابق، ج1، ص 10، 14. و شمس الدين الذهبي، **العِبَر**، ج1، ص 342. و**السِّير**، ج11، ص 321.

[2] – الفقيه أبو عمر أحمد بن بشير بن محمد بن إسماعيل القُرطبي، يُعرف بابن الأغبس، توفي سنة 328هـ/ 940م. (أنظر: برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 90، 91).

[3] – الفقيه أبو محمد قاسم بن محمد بن قاسم بن يسار القُرطبي. ارتحل إلى المشرق وعاد إلى الأندلس، وله كتاب في الفقه، توفي سنة 276هـ/ 889م أو بعدها بقليل. (أنظر: شهاب الدين المقري، **نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج2، (تحقيق: إحسان عباس)، دار صادر، بيروت – لبنان، 1418هـ/ 1997م، ص50، 51.)

[4] – برهان الدين ابن فرحون، المصدر نفسه، ص 91، 320، 404، 405.

بين المُتكلِّمين وأهل الحديث، مع أنّ تعاليقه الموجزة في مواضع قليلة تتضمن بعض التلميح للطعن في أهل الحديث.

رابعا- كتاب " الذيل على طبقات الحنابلة " لابن رَجَب:

يُعدُّ ابن رَجَب أحد أبرز علماء القرن الثامن الهجري (ق14م)، وهو الفقيه المُحدِّث أبو الفَرَج زين الدين عبد الرحمان بن أحمد بن رَجَب بن الحسن البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي. وُلد في بغداد سنة 736هـ/ 1335م، ونشأ نشأة علمية. رحل مع والده في طلب العلم إلى دمشق سنة 744هـ/ 1343م، ثم زارا بيت المقدس وانتقلا إلى مصر ثم عادا إلى بغداد، و ارتحلا بعدها إلى الحِجاز سنة 749هـ/ 1348م واستقر به المقام في دمشق، و أخذ عن عدد من علمائها. وفي سنة 771هـ/ 1369م تصدَّر للتدريس في حلقة الحنابلة بالجامع الأُمَوي، ثم تولّى التدريس في المدرسة الشريفية سنة 788هـ/ 1386م، وبقي يُدرِّس فيها حتى عام 791هـ/ 1389م، وكانت وفاته عام 795هـ/ 1392م في دمشق.(1)

وصنَّف ابن رَجَب عدَّة كُتُب في الفقه والحديث، كما صنَّف كتاب "الذيل على طبقات الحنابلة " ذيَّل به على "طبقات الحنابلة " لأبي الحسين بن أبي يعلى الفرّاء. وقد جمع أبو الحسين أعلام الحنابلة حتى وفيات سنة 513هـ/ 1119م. ولم يبتدأ ابن رَجَب من حيث انتهى ابن أبي يعلى، بل أعاد الطبقة الأخيرة من "طبقات الحنابلة ". وأنهى ابن رَجَب طبقاته عند وفيات سنة 751هـ/ 1350م، ولم يذكر من وفيات السنة المذكورة إلاّ ترجمة شيخه ابن قيِّم الجَوْزية، ولم يستوف ذِكْر كافَّة فقهاء وأعيان الحنابلة، إذْ لم يترجم لكثير منهم. و رغم أنَّ المُصنِّف قد عاش إلى سنة 795هـ/ 1392م إلاّ أنه لم يذكر تراجم الفترة (751- 795هـ)(1350- 1392م)، و لو فعل لكان أتمَّ و أَوْفى.(2)

وقد حاول ابن رَجَب استيفاء المعلومات عن المترجَم من ذِكْر اسمه ونَسَبه ومولده ووفاته وذِكْر شيوخه

(1) - عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج1 (مقدّمة المُحقِّق)، ص 11، 15، 32.
(2) - المصدر نفسه، ج1، (مقدمة المُحقِّق)، ص59، 60، 86.

وتلاميذه و رحلاته في طلب العلم، ثم أشهر مؤلَّفاته وما قيل بشأنه، وما أُثِر عنه من رواية، وما رُوي عنه من أشعار و أخبار، وما تفرَّد به من مسائل فقهية. ونوجز إيضاح أثر النزعة المذهبية على كتابه في العناصر الآتية:

-أ- مواقف المُصنِّف من أهل الكلام:

يظهر تمسُّك المُصنِّف بعقيدة أهل الحديث من خلال تحذيره من أهل الكلام؛ فقد ذكر كلام بعض العلماء في المعتزلة، ونجد هذا ضمن ترجمة ابن أبي عمامة البقال[(1)] و يحيى بن مَنْده، حيث أشار إلى تحذيرهما منهم. ونقل في موضع آخر تحذير الإمام أحمد من مقالاتهم. كما تضمَّنت بعض تعاليق المُصنِّف إشارات إلى انحرافات المعتزلة.[(2)]

و تضمَّنت تراجم كثيرة ما يدلُّ على مخالفته للأشاعرة؛ فمِن ذلك استنكاره قيام بعض أعيان الأشاعرة في أصبهان على عبد الغني المَقدسي، وكان عبد الغني قد دخلها في رحلته لطلب العلم (بعد سنة570هـ/ 1174م). ونقل كلام الضِّياء المَقدسي في شرح المِحنة التي تعرّض لها عبد الغني على يد بعض أشاعرة دمشق (595هـ/ 1198م)، حيث قال الضِّياء: "... ثم إنَّهم جمعوا كبراءهم ومَضَوا... إلى الوالي وقالوا: نشتهي أن يحضر الحافظ عبد الغني...، فاتَّفق أنّهم أرسلوا إلى الحافظ.... فأخذوه... وكان أجهلهم يُغري به...، و كان الوالي لا يفهم شيئا فاستأذنوه في رفع منبره " – أي المنبر الذي يُدرّس عليه في الجامع الأُمَوي– " وكسروا منبر الحافظ ومنعوه من الجلوس." ثم ذكر إخراجه من دمشق.[(3)]

وبيَّن في سياق ذِكره مِحنة عبد الغني عدم صحة ما أورده سِبْط ابن الجَوْزي في "المرآة " نقلا عن العزّ ابن تاج الأمناء (الأشعري) من أنّ الفقهاء قد أجمعوا "على الفتوى بكُفره "؛ فقال المُصنِّف: "...فأمَّا قولهم:

---

(1) – الفقيه الواعظ أبو سَعْد المعمر بن علي بن المعمر بن أبي عمامة البغدادي الحنبلي . وُلد سنة 429هـ/ 1038م. و توفي سنة 506هـ/ 1112م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص83، 84).

(2) – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج1، ص 249، 296، 301، 322، 385.

(3) – المصدر نفسه، ج3، ص 29، 30، 31، 32.

" أَجْمَع الفقهاء على الفتوى بكُفره..." فيالله العجب، كيف يقع الإجماع و أحفظ أهل وقته للسُّنة وأعلمهم بها هو المخالف" – أي عبد الغني– " وما أحسن ما قال أبو بكر[1] قاضي القضاء الشامي الشافعي لمَّا عُقِد له مجلس ببغداد وناظره الغزالي واحتجّ عليه بأنّ الإجماع مُنعقد على خلاف ما عملت به، فقال الشامي: إنْ كنتُ أنا الشيخ في هذا الوقت أخالفكم على ما تقولون فبمن ينعقد الإجماع ؟....". ثم قال ابن رَجَب: "... هذا مع مخالفة فقيه الإسلام في وقته " – يعني المُوفَّق ابن قُدامة– " ومعه خلقٌ من أئمَّة الفقهاء والمناظرين والمُحدِّثين هذا في الشام خاصّة، دع المُخالفين لهؤلاء... في سائر بلاد المسلمين...". و ردّ بعد ذلك اتهامات الأشاعرة لعبد الغني. ونقل كلاما للذهبي في بيان عدم صحة ما ورد في " المرآة " بشأن هذه المِحنة. كما ذكر – نقلا عن الضياء– استمرار تحامل بعض أعيان الأشاعرة على عبد الغني بعد خروجه من دمشق و ارتحاله إلى مصر، فأشار إلى تحريضهم المَلِك العزيز عثمان و المَلِك سيف الدين العادل ضدّه، وبذل " بعضم... في قتل الحافظ خمسة آلاف دينار." و أبدى ابن رَجَب حرصه على إيضاح ما وقع في حقّ عبد الغني " من التحامل عليه و التعصُّب."[2]

وأشار ضمن ترجمة الشريف أبي جعفر إلى تحامل أبي نَصْر ابن القُشَيري على أهل الحديث؛ حيث دخل هذا الأخير بغداد(496هـ/ 1102م) و"جلس في النظامية وأخذ" يذمُّهم "وينسبهم إلى التجسيم" بزعمه الباطل. وذكر المُصنِّف أنَّ جماعة من أتباع ابن القُشَيري اتّفقوا "على الهجوم على الشريف أبي جعفر في مسجده والإيقاع به." ونجد ضمن عدَّة تراجم بعض مظاهر التحذير من المتكلِّمين الأشاعرة وغيرهم، إذْ قال المُصنِّف–مثلا– في إحداها:"...ولقد صدق القائل: ما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح"، وأشار إلى ما تُنتجه " شُبَه المُتكلِّمين" من الحَيْرة و الشكِّ، و نقل كلاما للذهبي في التنويه بتحذير ابن تيمية من أهل الكلام[3].

---

(1) – الفقيه أبو بكر محمد بن المُظفَّر بن بكران الشامي الحَمَوي الشافعي، وُلد سنة 400هـ/ 1009م. ارتحل من الشام إلى بغداد و استقرَّ فيها، و كانت وفاته عام 488هـ/ 1095م (شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج19، ص85).

(2) – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج3، ص ص 33 – 37.

(3) – المصدر نفسه، ج1، ص39. و ج2، ص 310. و ج 4، ص 497.

ونجد في طبقاته من أقوال العلماء التي تتضمَّن التحذير من مقالات المُتكلِّمين عدّة أمثلة؛ فقد نقل كلاما لأبي الحسين ابن أبي يعلى الفرّاء في ذلك، ونقل مثله من كلام الشريف أبي جعفر ومحمد بن عبد الواحد الدقاق وعبد الرحمان بن مَنْده ويحيى بن مَنْده وابن القواس البغدادي[1]، ومن كلام الوزير الفقيه عَوْن الدين ابن هُبَيرة و المُوفَّق ابن قُدامة وضياء الدين المَقدسي و شمس الدين الذهبي. كما أثنى على مصنَّفات ابن تيمية في الردِّ على أهل الكلام فقال: "... وأمّا تصانيفه... فهي أشهر من أنْ تُذكر وأعرف من أن تُنكَر، سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد و الأمصار...". ثم ذكر أبرزها. وأشار إلى ما صنَّفه ابن القيِّم في هذا الشأن. وأثنى كذلك على مصنَّف ألّفه أبو منصور بن الوليد[2] يُنكِر فيه على أحد فقهاء بغداد " تأويله لبعض الصفات". و نقل " رسالة " كتبها إسحاق العَلثي[3] تتضمَّن التحذير من تأويلات المُتكلِّمين.[4]

وأشار المُصنِّف إلى مِحنة تعرَّض لها[5] الفقيه عبد اللطيف بن علي بن النفيس البغدادي في بغداد؛ إذْ سعى به بعض الأشاعرة " لقرائته شيئا من أحاديث الصفات" فحُبس " وأُسقِطت عدالته "، حيث استنكر ابن رَجَب ذلك. وبيَّن بطلان ما رُمي به الفقيه عبد الساتر بن عبد الحميد المَقدسي من " التجسيم" من قِبَل بعض مُناظريه من الأشاعرة. ونقل في هذا السياق قول الذهبي: "... و رأيتُ له مُصنَّفا في الصفات، فلم أر به بأسا...". و نجد في عدَّة تراجم أمثلة أخرى تدلُّ على تمسُّك المصنِّف بمنهج أهل الحديث.[6]

---

(1) – الفقيه الواعظ أبو الوفاء طاهر بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن القواس البغدادي الحنبلي المتوفّى في بغداد عام 476هـ/ 1083م. (أنظر: برهان الدين ابن مُفلح، المصدر السابق، ج1، ص 457، 458.)

(2) – الفقيه المُحدِّث "الحافظ" أبو منصور عبد الله بن محمد بن أبي محمد بن الوليد البغدادي الحنبلي المتوفّى في بغداد عام 643هـ/ 1245م، درَّس علم الحديث بالمُستنصرية. (أنظر: عبد الرحمان ابن رجب، المصدر السابق، ج3، ص 509).

(3) – الفقيه الزاهد أبو محمد إسحاق بن أحمد بن غانم العلثي الحنبلي. و العلثي: نسبة إلى العلث: قرية من قرى بغداد. توفي سنة 634هـ/ 1236م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 131).

(4) – عبد الرحمان ابن رجب، المصدر نفسه، ج1، ص 32، 42، 55، 56، 59، 88. و ج2، ص154. و ج3، ص 14، 30، 31، 251، 448، 449. و ج4، ص 506، 521. و ج5، ص 175.

(5) – لم أقف على سنة وقوع ذلك، و قد توفي عبد اللطيف سنة 649هـ/ 1251م. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 547).

(6) – المصدر نفسه، ج3، ص 549. و ج4، ص156.

- ب- تأييد المُصنِّف لمنهج أهل الحديث:

تعدَّدت مظاهر تأييد المُصنِّف لعقيدة أهل الحديث؛ فمنها نقله بعض ما ورد عن العلماء في ذلك حيث نقل – مثلا- كلاما للإمام أحمد في إثبات صفة الكلام لله تعالى و الإنكار على المُتكلِّمين، ونقل من كلام علماء آخرين في عدَّة تراجم. كما نقل قصيدة لأبي الخطاب البغدادي[1] في الحثِّ على التمسّك بمنهج أهل الحديث، ونقل مثلها من نَظْم أبي عمر ابن قُدامَة المَقدسي وغيره.[2]

وقد حرص في تراجم عديدة على التنويه بتمسُّك المترجَم له بعقيدة أهل الحديث؛ حيث قال – مثلا- بشأن عبد الواحد بن محمد الشيرازي: "...وكان إماما... شديدا في السُّنة زاهدا...". وقال في ترجمة جابر بن ياسين[3]: "كان... ثِقَة من أهل السُّنة." وذكر أنّ عبد الوهاب بن حمزة[4] " كان مَرْضِيَّ الطريقة جميل السيرة، من أهل السُّنة." وأثنى على أبي الحسين بن أبي يعلى وذكر مصنَّفاته العَقَدية، كما أثنى على الوزير ابن هُبَيرة وعلى الفقيه أبي العباس أحمد بن الحسين بن أحمد البغدادي الحنبلي (ت588هـ/ 1192م)، وقال ضمن ترجمة المُوفَّق ابن قُدامة: "... وتصانيفه في أصول الدين في غاية الحُسْن...يأمر بالإقرار...لِما جاء في الكتاب والسُّنة من الصفات من غير...تمثيلٍ...ولا...تعطيلٍ." ثم ذكر مصنَّفاته.[5]

وذكر ابن رَجَب كذلك أنّ أبا صالح الجِيلي[6] " كان ... سُنّيا متمسِّكا بالحديث عارفا به..."، وأنّ عبد

---

[1] – المُقرئ أبو الخطاب أحمد بن علي بن عبد الله البغدادي الحنبلي المتوفّى في بغداد عام 476هـ/ 1083م. (أنظر: عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج1، ص 104، 105).

[2] – المصدر نفسه، ج1، ص 107، 302. و ج3، ص 121. و ج4، ص 383.

[3] – المُحدِّث أبو الحسن جابر بن ياسين بن الحسن بن محمد بن أحمد العطار البغدادي الحنبلي المتوفّى عام 464هـ/ 1071م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج10، ص 204، 205).

[4] – الفقيه أبو سَعْد عبد الوهاب بن حمزة بن عمر البغدادي الحنبلي. وُلد سنة 457هـ/ 1065م، و توفي سنة 515هـ/ 1121م. (أنظر: المصدر نفسه، ج11، ص 240. و عبد الرحمان ابن رجب، المصدر نفسه، ج1، ص 376).

[5] – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر نفسه، ج1، ص157، 204، 376، 392. و ج2، ص 122، 396. ج3، ص 291.

[6] – الفقيه المُحدِّث الواعظ القاضي عِماد الدين أبو صالح نَصْر بن عبد الرزاق بن عبد القادر الجِيلي البغدادي الحنبلي، وُلد سنة 564هـ/ 1168م، ولي القضاء سنة 622هـ/ 1225م خلال عهد الخليفة العباسي الظاهر ثم عزله المُستنصِر، توفي سنة 633هـ/ 1235م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السّير**، ج22، ص397، 398).

الساتر المَقْدسي قد "عني بالسُّنة و جمع فيها." وذكر أنّ الفقيه الواعظ أبا منصور علي بن محمد بن علي الأنباري الحنبلي (توفي في بغداد عام 507هـ/ 1113م) " كان مُظهِرا للسُّنة في مجالسه." وأثنى على ابن شيخ الحزاميين وقال عنه: "...أقبل على مطالعة كُتُب الحديث والسُّنة والآثار... واعتنى بأمر السُّنة أصولا و فروعا." كما قال ضمن ترجمة المُحدِّث الحافظ سَعْد الدين مسعود الحارثي: "وكان سُنِّيا ...متمسِّكا بالحديث." و اشتمل ما ذكره في ترجمة ابن تيمية على ثناء كثير. وقال عن شيخه ابن القيِّم: "...كان ذا عبادة وتهجُّد...، سمعت عليه قصيدته النونية الطويلة في السُّنة...".[1]

ونقل المُصنِّف في مواضع كثيرة من طبقاته تنويه العلماء بتمسُّك كثير ممَّن ترجم لهم بمنهج أهل الحديث؛ حيث نقل – مثلا– قصيدة لجعفر السراج[2] في الإشادة بثبات الإمام أحمد في مِحنة خَلْق القرآن وذكر أنّ عبد القادر الرُّهاوي قال عن الحسن بن أحمد الهمذاني[3]: "...وكانت السُّنة شعاره ودثاره اعتقادا وفعلا...". ونقل ثناء على كلّ من الوزير ابن هُبَيرة والفقيه عبد المُغيث بن زُهير البغدادي، وأشار إلى قول المُوفَّق ابن قُدامة بشأن أبي العباس العراقي[4]: "... كان إماما في السُّنة داعيا إليها...". كما ذكر – نقلا عن غيره– أنَّ طغدي بن ختلع[5] كان " قيِّما بأصول السُّنة...".[6]

وقد أطال المُصنِّف تراجم كلٍّ من عبد الغني المَقدسي والمُوفَّق ابن قُدامة، ونقل ثناء الضياء المَقدسي والذهبي عليهما. وأطال كذلك ترجمة تقي الدين ابن تيمية، وساق من ثناء العلماء عليه عبارات كثيرة منها

---

(1) – عبد الرحمان ابن رَجب، المصدر السابق، ج3، ص 415. و ج4، ص 156، 381، 382، 389، 506. و ج5، ص 173.

(2) – الفقيه المُحدِّث الأديب أبو محمد جعفر بن أحمد بن الحسن بن أحمد السراج البغدادي الحنبلي. وُلد سنة 417هـ/ 1026م و توفي سنة 500هـ/ 1106م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج19، ص 228، 229).

(3) – الفقيه المُحدِّث " الحافظ " أبو العلاء الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد الهمذاني الحنبلي، شيخ مدينة همذان، توفي سنة 569هـ/ 1173م. (أنظر: شهاب الدين الدلجي، **الفلاكة و المفلوكون**، مطبعة الشعب، القاهرة – مصر، د ت، ص 99).

(4) – الفقيه المُقرئ أبو العباس أحمد بن الحسين العراقي الحنبلي نزيل دمشق المتوفّى عام 588هـ/ 1192م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **معرفة القُرَّاء الكبار**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1418هـ/ 1997م، ص 305، 306).

(5) – الفقيه المُحدِّث طغدي بن ختلع البغدادي الحنبلي نزيل دمشق. وُلد سنة 534هـ/ 1139م، وكانت وفاته في دمشق سنة 589هـ/ 1193م. (أنظر: عبد الرحمان ابن رَجب، المصدر نفسه، ج2، ص 402).

(6) – المصدر نفسه، ج1، ص 237، 257. و ج2، ص 276، 348، 396، 403.

قول الذهبي: "...ولقد نَصَر السُّنة المَحْضة... واحتجّ لها ببراهين و مقدّمات وأمور لم يُسبَق إليها." ونجد مثل هذا التنويه ضمن تراجم أخرى كترجمة أحمد بن سلامة الحراني[(1)] و ابن الحبيشي الصيرفي[(2)] و عبد الرحيم العَلْثي[(3)]، وترجمة الفقيه أبي عبد الله شمس الدين محمد بن عمر بن عبد المحمود الحراني نزيل دمشق (ت 718هـ/ 1318م)، و المُحدِّث أحمد بن عبد الله بن أحمد بن أبي بكر الصالحي المعروف بأبي العباس ابن المحب (ت730هـ/ 1329م) وضمن تراجم أخرى.[(4)]

ج- مواقف المُصنِّف من الشيعة و الصوفية:

لم يعرض للمُصنِّف ذِكر كثير من الأخبار المُتعلِّقة بالشيعة بحكم موضوع كتابه، لكنّنا نجد تعاليق موجزة متفرِّقة ضمن بعض التراجم؛ حيث أشار إلى اغتيال الباطنية الإسماعيلية لمحمد ابن قائد الأواني[(5)] و وصف قاتليه بـ "الملاحدة ". وذكر أنّ ابن الفوطي المؤرِّخ قد أسره التتار وهو صغير في وقعة بغداد فخلّصه " النصير الطُّوسي الفيلسوف"، ثم وصف هذا الأخير بـ " وزير الملاحدة "، إذْ كان آخر وزير للإسماعيلية الحشاشين في أَلَموت. وذكر أيضا أن الوزير ابن هُبَيرة " كاتب...السلطان نور الدين محمود بن زنكي يستحثّه على انتزاع مصر من العُبَيديين...."، و أنّ سَعْي الوزير ساهم في " انتزاع مصر من بني عُبيد." أي أنّ المُصنِّف لا يُقِرُّ بعلوية هؤلاء.[(6)]

و عرض للمُصنِّف في إحدى التراجم ذِكْر الوزير محمد بن علي البغدادي الشيعي المعروف بابن

---

(1) – المُحدِّث الفقيه أبو العباس أحمد بن سلامة بن أحمد الحرّاني الحنبلي، حدّث بدمشق وحرّان. توفي سنة 646هـ/ 1248م بحرّان. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 541. و عبد الرحمان ابن رَجب، المصدر السابق، ج3، ص 538).

(2) – المُحدِّث الفقيه جمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي منصور بن أبي الفتح بن رافع الحراني الحنبلي نزيل دمشق. وُلد سنة 583هـ/ 1187م، و كانت وفاته سنة 678 هـ/ 1279م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 368).

(3) – المُحدِّث الفقيه الزاهد عفيف الدين عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن فارس العلثي الحنبلي، أبو محمد ابن الزجاج، وُلد سنة 612هـ/ 1215م، و توفي سنة 685هـ/ 1286م. (أنظر: المصدر نفسه، ج15، ص 545).

(4) – عبد الرحمان ابن رجب، المصدر نفسه، ج3، ص37، 40، 538. و ج4، ص497،506، 201،151، 431. و ج5، ص 69.

(5) – الزاهد أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن قائد الأواني الحنبلي. و الأواني: نسبة إلى بلدة أوانا الواقعة في نواحي بغداد. اغتيل سنة 584هـ/ 1188م. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 403، 404).

(6) – المصدر نفسه، ج3، ص 404. و ج4، ص 449. و ج2، ص 129، 131.

القصاب[1] فذكر أنّه كان " رافِضيا خبيثا." وأشار إلى مقتل الفقيه ابن جَبلة الحرّاني على يد مسلم بن قريش "صاحب الموصل" (سنة 476هـ/ 1083م)، حيث ذكر أنّ هذا الأخير " كان رافِضيا". ومن المواقف التي تُبيِّن تحذير ابن رَجَب من عقائد الشيعة قوله بشأن سليمان بن عبد القوي الطوفي – بعدما أشار إلى كثرة مصنَّفاته – :"...وكان مع ذلك كلّه شيعيا منحرفا في الاعتقاد عن السُّنة...، و وُجد له في الرَّفْض قصائد، وهو يلوح في كثير من تصانيفه...، وقد كان ...أقام بالمدينة النبوية مدّة يصحب شيخ الرافضة السكاكيني المعتزلي، ويجتمعان على ضلالتهما، وقد هَتكه الله..."، ثم ذكر – نقلا عن غيره– أنّ الطوفي " اشتهر عنه الرَّفْض والوقوع في أبي بكر وابنته عائشة رضي الله عنهما، وفي غيرهما من جملة الصحابة...، وظهر له في هذا المعنى أشعار بخطّه...". وقال المُصنِّف في آخر ترجمة الطوفي: "... في آخر عمره لما جاور بالمدينة كان يجتمع هو والسكاكيني شيخ الرافِضة و يصحبه، ونَظَم في ذلك ما يتضمَّن السبّ لأبي بكر الصديق...". و بيَّن المُصنِّف في ترجمة جمال الدين الأنباري[2] عدوان " بعض الرافِضة عليه" (في بغداد) خلال عهد التتار، حيث " ظفروا به وعاقبوه مدَّة " ثم قتلوه.[3]

ولم ينقل ابن رَجَب كثيرا من الأخبار التي وُضعت باسم الكرامات، ومع ذلك فقد نقل نماذج منها في تراجم قليلة، لكنَّه نقد كتابا صنّفه أبو الحسن الشطنوفي[4] في سيرة عبد القادر الجِيلي فقال: "...قد جمع المُقرئ... الشطنوفي... في أخبار الشيخ عبد القادر ومناقبه ثلاث مجلَّدات، وكتب فيها الطمّ والرم[5]...

---

[1] – الوزير أبو الفضل محمد بن علي بن أحمد بن المبارك البغدادي المعروف بابن القصاب. ولي الوزارة سنة 590هـ/ 1194م للخليفة العباسي الناصر. وكانت وفاته عام 592هـ/ 1196م.(أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 986، 987).

[2] – الفقيه جمال الدين عمر بن إدريس الأنباري الحنبلي، كان أحد أبرز شيوخ الحنابلة في بغداد. قتله أحد ولاة التتار على بغداد سنة 766هـ/ 1364م. (أنظر: عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج5، ص 163، 164).

[3] – المصدر نفسه، ج2، ص 439. و ج1، ص 96. و ج4، ص 409، 413، 414، 415. و ج5، ص 163.

[4] – المُقرئ أبو الحسن علي بن يوسف بن جرير من معضاد اللخمي الشطنوفي المصري الشافعي المتوفّى عام 713هـ/ 1313م. و الشطنوفي: نسبة إلى شطنوف، بلدة في شمال مصر. (أنظر: المصدر نفسه، ج2، ص 194).

[5] – الطمّ: ما حمله الماء. و الرمّ: ما حمله الريح. أو ما مرّ على وجه الأرض من فتات الحشيش. و قيل غير هذا. والمُراد من كلام ابن رجب: جاء بالأخبار الكثيرة غير المُحققة.(أنظر: جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، ج12، ط3، دار صادر، بيروت – لبنان، 1414هـ/ 1993م، ص 254).

وقد رأيت بعض هذا الكتاب، و لا يطيب على قلبي أنْ اعتمد على شيء ممّا فيه، فأنقل منه إلاّ ما كان مشهورا معروفا من غير هذا الكتاب؛ وذلك لكثرة ما فيه من الرواية عن المجهولين...". وأشاد بتصدي ابن شيخ الحزاميين للاتحادية و وصف هؤلاء بـ " المُبتدعة ". كما أشار إلى أنّ الزاهد إسحاق العَلْثي قد " أرسل... رسالة طويلة " إلى بعض صوفية بغداد " تتضمن إنكار الرقص والسَّمَاع ...".[1]

ونشير في آخر هذا المبحث أنَّ المُصنِّف نقل كلاما قيِّما للوزير ابن هُبَيرة في استنكار " اختصاص المساجد ببعض أرباب المذاهب "، وهذا تنبيه مفيد.[2]

- استنتاج:

تضمّنت طبقات ابن رَجب عدَّة مظاهر تحذير من مقالات المُتكلِّمين، كما تضمّنت تأييد منهج أهل الحديث، و إشارات قليلة إلى ذمِّ الباطنية وبعض أعلام الشيعة. ونقل المُصنِّف في تراجم قليلة بعض الأخبار الموضوعة باسم الكرامات. ولم يلجأ في تراجم المشاهير إلى أسلوب الإطراء على النحو الذي نجده في طبقات السُّبكي.

- خلاصة الفصل:

لقد تأثّر السُّبكي بالتصوف وبخلفيته المذهبية الأشعرية تأثّرا عميقا؛ حيث نقل و أقرَّ كثيرا من المزاعم الصوفية و اعتبرها كرامات، و ادَّعى اطِّلاع بعض شيوخ الصوفية على أمور غيبية، واهتمّ بنقل المنامات الملفقة واعتبرها أدلة يحتجّ بها على مخالفيه. كما أفرط في التحامل على أهل الحديث فوصفهم بأوصاف شنيعة. ونظرا لشدة حرصه على نشر العقيدة الأشعرية زعم أنّ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم بشَّر بظهور أبي الحسن الأشعري، و أنّ الأشاعرة بإمكانهم أن يعدوا أبا بكر وعمر في جملتهم.

أمَّا طبقات ابن فرحون فإنَّ مظاهر النزعة المذهبية فيها قليلة، ولم يتوسع مُصنِّفها في نقل الادعاءات

---

(1) – عبد الرحمان ابن رَجَب، المصدر السابق، ج2، ص 194، 195. و ج4، ص 382. و ج3، ص 446.

(2) – المصدر نفسه، ج2، ص 165.

الموضوعة باسم الكرامات رغم أنَّه نقل بعضها. ولم يركِّز على التعرُّض للخلاف بين أهل الحديث والمُتكلِّمين.

وقلَّة مظاهر التأثر بالنزعة المذهبية نجدها كذلك في طبقات عبد القادر القُرَشي، فتعاليقه المتعلّقة بالعقائد قليلة، وكذا المتعلقة بالجانب الفقهي. ولم ينقل المزاعم الصوفية إلا في نحو ثلاث مواضع واختصر معظم التراجم. وتضمنت طبقات ابن رجب مظاهر تحذير من مقالات المُتكلِّمين، ومظاهر تأييد لمنهج أهل الحديث.

– الفصل السادس: أثر النزعة المذهبية على كتب التراجم.

تُعتبَر كُتُب التراجم جزءا من المؤلّفات التاريخية، وقد اعتنى المؤرِّخون المسلمون بالترجمة للأعلام عناية شديدة، حيث ازداد الاهتمام بالتراجم تدريجيا لصِلَتها الوثيقة بعِلم الحديث و معرفة أحوال الرواة. ومن أبرز المؤرِّخين المُهتمّين بها الخطيب البغدادي والذهبي[(1)].

أوّلا– كتاب " سِيَر أعلام النبلاء" للذهبي:

يُعدُّ هذا المصدر من أعظم كتب التراجم التي وصلت إلينا، ترجم فيه الذهبي " للأعلام النبلاء من بداية الإسلام" إلى سنة 746هـ/ 1345م. و اشتملت تراجمه على الأعلام المختارة من جميع أمصار البلاد الإسلامية؛ إذْ ترجم للصحابة و الخلفاء و الملوك و الأمراء و الوزراء والقضاة و المُحدِّثين والفقهاء والقُرّاء والأدباء واللغويين والشعراء والصوفية والمُتكلِّمين والفلاسفة. و بدأ كتابه بسِيَر الصحابة، وأحال على تاريخه " تاريخ الإسلام" لتُؤخذ منه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلّم و سِيَر الخلفاء الراشدين وتُضمّ إلى السِّير.[(2)]

و المنهج العامّ الذي اتّبعه الذهبي في القدر الأكبر من التراجم هو أنّه يذكر اسم المترجَم ونَسَبه...، ثم يذكر أحوال نشأته و دراسته والمجال الذي اختصّ به، والشيوخ الذين روى عنهم وطلبة العلم الذين أخذوا عنه، وآثاره العلمية والأدبية...، ثم يذكر أقوال العلماء بشأنه و سنة وفاته. وأحيانا يذكر حديثا أو أكثر في سَنَده صاحب الترجمة. وتتضمَّن كثير من التراجم غير ما ذكرنا؛ فقد اعتنى المُصنِّف – مثلا– بإيراد أعمال الخلفاء والملوك في تراجمهم، وأورد نماذج من شعر الشعراء ومختارات من نَثْر الأدباء[(3)]. ونوضّح

---

(1) – محمد ترحيني، **المؤرخون والتاريخ عند العرب**،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، د ت، ص167، 168. وعبد الرحمان العزاوي، **التاريخ والمؤرخون في العراق**، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد،1413هـ/ 1993م، ص 206. والملحق السابع ص 407.

(2) – شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج1، (مقدمة المحقق)، ص 143، 144. و الجزء المفقود، ص 596).

(3) – المصدر نفسه، ج1، (مقدمة المحقق)، ص 144.

أثر النزعة المذهبية على كتابه باختصار في العناصر الآتية:

-أ- مواقف المصنّف من فِرَق الشيعة:

تعدّدت مظاهر نقد الذهبي لفِرَق الشيعة وتحذيره منهم، ونوضّح ذلك في العناصر التالية:

-1- مواقف المُصنِّف من الباطنية:

إنّ شِدّة انحراف الإسماعيلية قد جعلت الذهبي يُصرِّح بذمّهم في تراجم كثيرة؛ كقوله في ترجمة عُبَيد الله المهدي: "...أوّل من قام من الخلفاء... العُبَيدية الباطنية الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرَّفْض... وبثُّوا الدُّعاة..يستغوون ...الجَهَلة...، وادّعى هذا المُدْبِر أنّه فاطمي...، والمُحقِّقون على أنّه دَعيٌّ...". ثم بيَّن بعض جرائمه؛ ومنها قتله لكثير من العلماء والعُبّاد في إفريقية " ليردّهم عن الترضّي عن الصحابة." ووصف القائم بن عُبَيد الله بـ " فاسد العقيدة ". وذكر أنّه كان " شيطانا مَريدا يتزندق"، وأنّه أظهر " الكُفر الصراح الذي لا حيلة فيه." و نظرا لحِرص الذهبي على الإنصاف فقد بيَّن أنّ سياسة المنصور بن القائم بن عُبَيد الله لم تكن مثل سيرة أبيه وجدّه.[1]

وتُعدّ ترجمة الحاكم بن العزيز نموذجا لاهتمام المُصنِّف بالتحذير من الباطنية؛ فقد تتبَّع سيرته وبيّن مظاهر انحرافاته؛ فممّا قال في ذلك: "...صاحب مصر... الرافضي... بل الإسماعيلي الزنديق المُدّعي الربوبية...، كان شيطانا مَريدا جبّارًا عنيدًا... سفّاكا للدِّماء خبيث النِّحْلة ...، يخترع كلَّ وقت أحكاما يُلْزم الرعية بها...، أمر بسبِّ الصحابة رضي الله عنهم.... وقيل: ...إنّه أراد ادِّعاء الإلهية وشرع في ذلك فكلَّمه الكُبراء وخوّفوه من وثوب الناس فتوقف...". وذكر أشياء أخرى من سيرته وقال: "... وثمّ اليوم طائفة من طغام الإسماعيلية الذين يحلفون بغيبة الحاكم ما يعتقدون إلا أنّه باقٍ وأنّه سيظهر، نعوذ بالله من الجهل".[2]

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج15، ص 141، 142، 145، 152، 154.

[2] – المصدر نفسه، ج15، ص 173، 174، 182، 183.

وتتضمَّن تراجم عديدة مظاهر ذمٍّ للإسماعيلية؛ فقد قال في إحداها: "... فيا ما لَقي الإسلام وأهله من عُبَيد الله المهدي الزنديق." وهذا بعدما ذكر قتل هذا الأخير للفقيه ابن خيرون[1]. وقال المُصنِّف ضمن ترجمة المستنصر بن الظاهر علي بن الحاكم: "...صاحب مصر... كان سبُّ الصحابة فاشيا في أيّامه والسُّنة غريبة مكتومة...". وقال بشأن الآمر بن المستعلي:"...العُبَيدي المصري الرافضي الظلوم...، وكان جيّد العقل والمعرفة، لكنّه خبيث المُعتقد...". كما قال في ترجمة العاضِد: "...وكان ...سبّابا" – أي سبّابا للصحابة– "خبيثا متخلّفا." وذكر أنّه وُجد إسماعيلي في القيروان خلال عهد القائم بن عُبيد الله يسبُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم والصحابة " في الطُّرق ...فمن أنكر ضُربت عُنقه." وقال المُصنِّف بعد ذلك: "... أمّا العُبيدية الباطنية فأعداء الله ورسوله." و ذكر أيضا أنّ المنصور بن القائم أحضر أحد فقهاء برقة إلى إفريقية لامتناعه عن الإفتاء بما أُمِر به " فعُلّق في الشمس إلى أن مات، وكان يستغيث من العطش فلم يُسق." ثم قال الذهبي معلّقا: " فلعنة الله على الظالمين." وقد فصّل في ذِكْر استشهاد الزاهد أبي بكر النابلسي ووصفه بـ " الشهيد الإمام القُدوة." وكان النابلسي قد أُحضر إلى القاهرة (363هـ/ 974م) فأمر المُعزّ بن المنصور يهوديا بسلخه، وعلّق المُصنِّف بعد ذِكره ذلك بقوله: " لا يوصَف ما قلَب هؤلاء العُبَيدية الدين ظهرا لبطنٍ... وسَبُّوا الصحابة."[2]

ونجد تعليقات عديدة مبثوثة في ثنايا التراجم حول انعكاسات نشاط الإسماعيلية؛ فقد قال في سياق إشارته إلى استيلاء جُنْد المُعزّ بن المنصور على مصر(358هـ/ 969م): "...هؤلاء عسكر المُعزّ العُبيدي الإسماعيلية، تملّكوا مصر في هذا الوقت...، فأماتوا السُّنة وأظهروا الرَّفْض...، ونَسبُهم إلى عليّ رضي الله عنه غير صحيح." وقال في موضع آخر: "... مَلَك عُبَيد الله المُلقّب بالمهدي غالب المغرب

---

[1] – الفقيه أبو جعفر محمد بن خيرون القُرطبي الأندلسي (ت306هـ/ 918م)، رحل إلى العراق و رجع إلى بلاد المغرب فاستقرّ في القيروان. (أنظر: محمد بن فتوح الحميدي، **جذوة المقتبس في ذِكر ولاة الأندلس**، ج1، الدار المصرية للتأليف، القاهرة – مصر، 1386هـ/ 1966م، ص 54. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج7، ص 109).

[2] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج14، ص217. و ج15، ص 186، 196، 197، 199، 208، 373، 374. و ج 16، ص 179.

أظهر الرفْض وأبطن الزندقة، وقام بعده ابنه ثم ابن ابنه ثم تملّك المُعزّ و أولاده مصر... دهرًا طويلاً فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله." كما قال: "... وتمَلّك بنو عُبيد مصر والشام...، وغَلَت البلاد بالرَّفْض...، فلا حول ولا قوَّة إلا بالله." وقال كذلك: "... ظهر هذا الوقت" (أي القرن 4هـ/ 10م) " الرّفْض وأبدى صفحته وشمخ بأنفه في مصر والشام والحِجاز... بالدولة العُبَيدية...". وذكر أنّ " أمر الإسلام" قد ضاع بدولة "بني عُبَيد الرافضة." وقال عن فترة (ق4هـ/ 10م): "...غَلَت الشام... بالرّفْض، بل ومصر والمغرب بالدولة العُبَيدية وشمخت الغُلاة بأنفها... نسأل الله السلامة في الدين." كما علّق على منع الدولة المذكورة المُحدِّث إبراهيم الحبّال[1] من التحديث بقوله: " قبّح الله دولة أماتت السُّنة و رواية الآثار النبوية، وأَحْيَت الرّفْض والضَّلال وبثّت دعاتها في النواحي تُغْوي الناس، ويدعونهم إلى نِحْلة الإسماعيلية، فَبِهم ضلّت جَبَلية الشام" – أي الدُّروز– " وتعثّروا، فنحمد الله على السلامة في الدّين."[2]

ويُعدُّ الذهبي من أبرز المؤرِّخين النافين صحّة نَسَب عُبَيد الله المهدي إلى علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، ونجد ذلك ضمن تراجم كثيرة؛ حيث قال – مثلا– في ترجمة عُبَيد الله: "...ادّعى هذا المُدْبر أنّه فاطمي من ذُرّية جعفر الصادق." وقال بشأن الظاهر بن الحاكم: "...العُبَيدي المصري، ولا أستحلّ أن أقول العلوي الفاطمي، لِما وَقَر في نفسي من أنّه دَعيّ." وقال عن العاضِد: "... خاتم الدولة العُبَيدية... المُدَّعي هو وأجداده أنّهم فاطميون." ونجد ما يقارب هذا في مواضع أخرى من "السِّير".[3]

ونظرا لشِدّة انحراف الإسماعيلية فقد اعتبر المُصنِّف ما هم عليه دينا خاصّا بهم؛ فقال في ترجمة أحد الأعلام: "...وكان على دين العُبَيدية." وقال في ترجمة آخر: "...ليس على دين العُبَيدية." كما قال ضمن ترجمة عَلَم آخر:"...لكنّه على نِحْلة بني عُبَيد التي ظاهرها الرفْض وباطنها الانحلال." وقال عن القاضي

---

(1) – المُحدّث " الحافظ" أبو إسحاق إبراهيم بن سعيد بن عبد الله المصري الحبّال. وُلد سنة 391هـ/ 1001م، وكانت وفاته سنة 482هـ/ 1089م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج18، ص 495، 501).

(2) – المصدر نفسه، ج 13، ص 470، 471. و ج 15، ص 117، 164. و ج 16، ص 181، 232. و ج17، ص 507. و ج18، ص 497.

(3) – المصدر نفسه، ج15، ص 141، 184، 207.

النُّعمان بن محمد: "... قاضي العُبَيدية... صنَّف كثيرا في ...نِحْلة الباطنية...، كان مالكيا فارتدّ إلى مذهب الباطنية...، ونَبَذَ الدين وراءه...، وانسلخ من الإسلام فسُحْقا له وبُعْدا." وذمّ دُعاة الإسماعيلية فوصف أبا عبد الله الشيعي بـ " الداعي الخبيث"، وذكر أنّه كان من " دُهاة الرجال الخبيرين بالجَدل والحِيَل و إغواء بني آدم." و وصف كتابا صنّفه يعقوب بن كِلس (وزير العزيز بن المُعزّ) بـ " التصنيف الذميم." وأبدى سُروره بزوال مُلْك العاضِد على يد صلاح الدين الأيوبي (567هـ/ 1171م) فقال: "... واستأصل شأفة بني عُبَيد ومَحق دولة الرّفْض، وكانوا أربعة عشر مُتَخلِّفا لا خليفة...".[1]

وكانت تعليقات الذهبي على نشاط باقي فِرَق الباطنية مُقاربة لما تقدّم في هذا المبحث؛ فذكر أنّ أبا سعيد الجنّابي القرمطي وأتباعه قد " نهبوا وفعلوا القبائح وتزندقوا...". وذكر أنّ زكرويه القرمطي قد استغوى بعض عرب البادية في العراق و " أخاف السُّبُل وقطع الطرق." (سنة289هـ/ 902م). وأشار المُصنِّف إلى بعض جرائم أبي طاهر القرمطي فقال: "...عدوّ الله ...أبو طاهر سليمان بن حسن... الزنديق الذي سار إلى مكة في سبع مئة فارس" (سنة 317هـ/ 929م) " فاستباح الحجيج كلّهم في الحرَم و اقتلع الحجر الأسود و ردم زمزم بالقتلى... فللّه الأمر." و وصف إسماعيلية الشام في أكثر من موضع بـ " الملاحدة "، وقال عن داعيتهم بهرام: "...استفحل البلاء بداعي الإسماعيلية بهرام بالشام وكان يطوف المدائن والقلاع متخفّيا...، و ينقاد له الجُهّال...". كما ذمَّ سِنان بن سلمان وأتباعه، ووصف الحسن بن الصباح زعيم الحشاشين بأنه " أحد شياطين الإنس." و أشار إلى الاغتيالات التي اشتهرت بها هذه الفِرقة الباطنية.[2]

ووصف الذهبي اعتقاد النُّصَيرية بالزندقة، وقال بشأن حركتهم في جَبَلة سنة 717هـ/ 1317م: "خرج جَبَلي دجّال والتفّ عليه نُصَيرية جَبَلة...، وصرّح بأنّ دين النُّصيرية حقٌّ وما عداه باطلٌ، وبدّعوا وفعلوا

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 18، ص 320. و ج 20، ص 282. و ج 16، ص 468، 145، 150، 443. و ج 14، ص 58. و ج15، ص 212.

[2] – المصدر نفسه، ج 13، ص 470، 480. و ج 15، ص 320. و ج19، ص 408، 520. و ج21، ص 185.

العظائم. وأمر بخراب المساجد، ثم ركب إليهم العسكر وقتل هذا الشقيَّ في جماعة وتمزّقوا...".[1]

-2- مواقف المُصنِّف من بقيّة الشيعة:

لقد تضمّنت "السِّير" تعليقات عديدة تدلُّ على اهتمام الذهبي بالتحذير من انحرافات غُلاة الشيعة؛ فقد قال – مثلا- بعدما ذكر سيرة الصحابة العشرة المبشرين بالجنّة: "... فهذا ما تيسّر من سيرة العشرة، وهم أفضل قُريش، وأفضل السابقين المهاجرين... وسادة هذه الأُمَّة في الدنيا والآخرة، فأبعد الله الرافضة ما أغواهم وأشدَّ هواهم، كيف اعترفوا بفضل واحد منهم" (علي رضي الله عنه) "وبخسوا التسعة حقّهم، وافتروا عليهم بأنهم كتموا النص في عليّ أنّه الخليفة، فوالله ما جرى من ذلك شيء، وأنّهم زوّروا الأمر عنه بزعمهم وخالفوا نبيّهم، وبادروا إلى بيعة " أبي بكر" لا لرغبةٍ في أمواله ولا لرهبةٍ من عشيرته و رجاله ويحك! أيَفعل هذا من له مسكة عقلٍ؟ ولو جاز هذا على واحد لما جاز على جماعة، ولو جاز وقوعه من جماعة لاستحال وقوعه – والحالة هذه- من ألوفٍ من سادة المهاجرين والأنصار...، لكن لا حيلة في بُرء الرفْض فإنّه داءٌ مُزمن، والهدى نور يقذفه الله في قلب من يشاء، فلا قوة إلاّ بالله."[2]

ونجد نماذج أخرى كثيرة في معنى ما تقدّم مثل قول المُصنِّف: "إذا كان مِثل كبراء السابقين الأولين قد تكلّم فيهم الروافض...فمَن الذي يسلم من ألسنة الناس". وقوله في سياق إشارته إلى الفتنة الكبرى:"...فأمّا ما تنقله الرافضة...في كتبهم من ذلك فلا نُعرِّج عليه ولا كرامة، فأكثره باطلٌ وكذِبٌ وافتراءٌ فدأب الروافض رواية الأباطيل أو ردّ ما في الصِّحاح... ومتى إفاقة من به سكران؟...وبكلّ حال فالجُهال والضُّلال قد تكلّموا في خِيار الصحابة." و ذكر في ترجمة عائشة رضي الله عنها أنّ النبي صلى الله عليه وسلم سأله أحد الصحابة: " أيُّ الناس أَحَبّ إليك يا رسول الله؟ فقال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها."[3] ثم قال المصنِّف: " وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض، وما كان عليه السلام ليحبّ إلاّ طيِّبا...".

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، الجزء المفقود، ص 456، 458.
(2) – المصدر نفسه، ج1، ص 140، 141.
(3) – محمد بن إسماعيل البُخاري، المصدر السابق، ج3، ص 9.

وقال في موضع آخر: "...إيّاك يا رافضي أن تُلوِّح بقذف أمّ المؤمنين... فتجب لك النار."[(1)]

واشتملت "السِّير" على تعليقات قيِّمة تَنِمُّ عن سعة أفق المُصنِّف وتعمُّقه في الاطّلاع على تاريخ الفِرَق والتأمّل في تطوراته؛ فقد علّق – مثلا– على اعتقاد الإثني عشرية في محمد بن الحسن العسكري بقوله: "...تَدّعي الإمامية عصمتهم، – ولا عصمة إلا لنبي– ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنّه الخَلَف الحُجّة وأنّه صاحب الزمان، وأنّه صاحب السِّرداب بسامراء، وأنَّه حيّ لا يموت حتى يخرج...، وهم في انتظاره من أربع مئة سنة. ومن أحالك على غائب لم يُنصفك، فكيف بمن أحال على مستحيل؟ ! والإنصاف عزيز، فنعوذ بالله من الجهل والهوى." وقال أيضا: "... ويزعمون أنَّ محمدا دخل سِردابا في بيت أبيه " (سنة 265هـ/ 878 م) " فلم يخرج إلى الساعة منه... نعوذ بالله من زوال العَقل. فلو فرضنا وقوع ذلك في سالف الدهر فمن الذي رآه؟ ومن الذي نعتمد عليه في إخباره بحياته؟ ومَن الذي نصّ لنا على عِصمته...؟ هذا هوَسٌ بيِّنٌ، إن سلّطناه على العقول ضلَّت...، بل جوَّزت كلَّ باطلٍ، أعاذنا الله و إيّاكم من الاحتجاج بالمُحال والكذب، أو ردّ الحقّ الصحيح كما هو ديدن الإمامية."[(2)]

وبيَّن أنّ طبيعة التشيّع خلال النصف الأوّل من (ق1هـ/ 7م) تختلف عن طبيعته خلال الفترات اللاحقة، حيث قال ضمن ترجمة أحد أعلام الشيعة: "... وكان الناس في الصدر الأوّل بعد وقعة صِفّين على أقسام: أهل سُنَّة...وهم مُحبّون للصحابة، كافّون عن الخوض فيما شَجَر بينهم...، ثمّ شيعة...ينالون ممَّن حارب عليّا ويقولون: إنّهم مسلمون بُغاة ظَلَمة. ثم نواصب: وهم الذين حاربوا عليًّا يوم صِفّين.... فما علمتُ في ذلك الزمان شيعيا كفّر مُعاوية وحزبه، ولا ناصبا كفَّر عليّا وحزبه، بل دخلوا في سبٍّ وبُغضٍ. ثم صار اليوم شيعة زماننا يُكفّرون الصحابة، ويبرؤون منهم جهلا وعدوانا، ويتعدّون إلى الصِدّيق قاتلهم الله. وأمّا نواصب وقتنا فقليل، وما علمتُ فيهم من يُكفّر عليا...". وقال كذلك: "...فعثّر

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج8، ص 448. و ج10، ص 93، 94. و ج2، ص 142. و ج1، ص 188.
(2) – المصدر نفسه، ج 13، ص 120، 121، 122.

الله شيعة زماننا ما أغرقهم في الجهل والكذب، فينالون من الشيخين...". (أي: يسبّون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما).[1]

ولم يكتفِ الذهبي بنقد عقائد الشيعة، بل نجده يوجّه لهم أحيانا الوعظ؛ فقد قال: " رضي " الله "عن جميع الصحابة، فترض عنهم يا شيعي تُفلح، و لا تدخل بينهم فالله حَكَمٌ عدلٌ، يفعل فيهم سابق علمه ورحمته وسِعت كلَّ شيء...، فنسأل الله أن يعفو عنّا، وأن يُثبّتنا بالقول الثابت آمين." واعتنى بإيضاح عنصر له أهمية كبيرة في الحياة المذهبية؛ وهو أثر المجتمع في اعتقاد الفرد؛ إذْ كانت الكوفة أبرز مواطن الشيعة، أمّا دمشق فقد وُجِد فيها خلال العصر الأُمَوي النَّصْب بصفة معتبرة، ولذا قال المُصنِّف: "...وخلف مُعاوية خلقٌ كثير يحبّونه و يتغالون فيه...، إمّا قد مَلَكهم بالكرم...، و إمّا قد وُلدوا في الشام على حُبّه وتربّى أولادهم على ذلك...، نشؤوا على النَّصْب، نعوذ بالله من الهوى. كما قد نشأ جيش عليّ رضي الله عنه ورعيّته – إلاّ الخوارج منهم– على حُبّه...، وبُغض من بغى عليه و التبري منهم، وغلا خلقٌ منهم في التشيع. فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم لا يكاد يشاهد فيه إلا غاليا في الحبِّ مُفرطا في البُغض، ومن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟ فنحمد الله على العافية... تبصَّرنا فعذرنا واستغفرنا وأحببنا باقتصاد، وترحَّمنا على البُغاة " (أي أهل الشام الذين شهدوا صِفّين) " بتأويلٍ سائغٍ في الجملة... وقلنا كما علَّمنا الله " ربّنا اغفر لنا و لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلاً للذين آمنوا"[2]...".[3] فهذا التعليق ممّا يُبيِّن أنّ المصنِّف غزير العقل حريص على الإنصاف.

ويُعدُّ سبّ غُلاة الشيعة للصحابة من أبرز ما استنكره الذهبي ونوّه بمواقف كثير من الأعلام المنكرِين لهذا الانحراف الشيعي، حيث قال – مثلا– في ترجمة جعفر الصادق: "... وكان يغضب من الرافضة ويمقتهم إذا علم أنّهم يتعرضون" لأبي بكر "هذا لا رَيْب فيه، ولكنّ الرافضة قومٌ جَهَلة، قد هوى بهم الهوى

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج5، ص 374. و ج4، ص 402.
[2] – سورة الحشر، (الآية: 10).
[3] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 279، 127، 128.

في الهاوية فبُعدا لهم." ونقل بعض كلام جعفر في الترضّي على أبي بكر خاصّة قوله: "برِئ الله ممّن تبرّأ من أبي بكر وعمر." وعلّق الذهبي قائلا: "هذا القول مُتواتر عن جعفر الصادق، وأشهد بالله إنّه لبارٌّ في قوله غير منافق لأحد، فقبّح الله الرافضة." وذكر أنّ المُحدِّث ابن أبي دارم الكوفي[1] " كان موصوفا بالحِفظ والمعرفة، إلاّ أنّه يترفَّض، قد ألّف في الحطِّ على بعض الصحابة، وهو ... ليس بثقة في النَّقل." ثم نقل كلاما للكوفي المذكور في أبي بكر وعمر وقال إثر ذلك: " شيخٌ ضالٌّ مُعَثّر." كما قال ضمن ترجمة الشريف المرتضى: " وفي تواليفه سبُّ أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنعوذ بالله من علم لا ينفع." وقال عن ابن الصاحب: "...أظهر الرَّفْض ... وسبّ الصحابة وعزم على قلب الدولة فقصمه الله." وذكر ضمن سيرة أبي بكر الصديق أنَّ علي بن أبي طالب قال: " خير هذه الأمّة بعد نبيِّها أبو بكر وعمر." ثم قال المُصنِّف: "هذا والله العظيم قاله عليّ، وهو مُتواتر[2] عنه لأنَّه قاله على منبر الكوفة فلعن الله الرافضة ما أجهلهم. وقال ضمن إحدى التراجم في ذمّ من طعن في أبي بكر وعمر(رضي الله عنهما): "... من تعرّض لهما بشيء من تنقّص فإنّه رافضي غال، فإن سبّ فهو من شِرار الرافضة، فإن كفّر فقد باء بالكُفر واستحقّ الخِزي."[3]

ومن مظاهر نقد الذهبي للشيعة إشاراته إلى غُلوّ الإثني عشرية في الأئمة الإثني عشر؛ فقد قال عن محمد الباقر: "... وهو أحد الأئمة الإثني عشر الذين تُبجِّلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم جميع الدين، فلا عِصمة إلاّ للملائكة والنبيين، وكلّ أحد يُصيب ويخطئ، ويُؤخذ من قوله ويُترك سوى النبي صلّى الله عليه وسلّم فإنّه معصوم مؤيّد بالوحي." وقال بشأن علي الرِّضا: "...كان... كبير الشأن أهلا للخلافة، ولكن كذبت عليه... الرافضة، وأطروه بما لا يجوز، وادعوا فيه العِصمة...". وقال أيضا

---

[1] – المُحدّث أبو بكر أحمد بن محمد بن السري بن يحيى التميمي الكوفي الشيعي المعروف بابن أبي دارم، توفي سنة 352هـ/ 963م. (أنظر: جلال الدين السيوطي، **طبقات الحُفاظ**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1403هـ/ 1982م، ص 363).

[2] – أحمد بن حنبل، **المسند**، ج 2، ص 224.

[3] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 6، ص 255، 269، 260. و ج15، ص 577، 578. و ج17، ص 590. و ج21، ص 164، 165. و ج 14، ص 511. و (سير الخلفاء الراشدين) ، ص 15.

عن الحسن العسكري: "...أحد الإثني عشر الذين تدّعي الرافضة عِصمتهم."[1]

ويُعدُّ لفظ "الرافضة " أو "الرافضي" من مظاهر تعبير المُصنِّف عن الغلوّ الشيعي، ونجد ذلك بكثرة في السِّيَر؛ فقد ذكر – مثلا– أنّ المُغيرة بن سعيد الكوفي " كان رافضيا خبيثا... فضّل عليّا على الأنبياء...". وذكر أنّ الشاعر المعروف بالسيِّد الحِمْيري كان "من فُحول الشعراء لكنّه رافضي جَلْد." وأشار إلى أنّ ابن بابويه[2] له تصانيف منتشرة " بين الرافضة "، كما وصف ابن المُعلّم البغدادي الشيعي بـ "عالم الرافضة ". وقال في ترجمة المسبحي[3]: "... كان رافضيا ... رديء الاعتقاد." و وصف ابن أبي روح الطرابلسي بـ " رأس الرّفْض بالشام." وقال عن عَلَم آخر: " كان غاليا في الرَّفْض." ونجد في ترجمة شيعي آخر: " رأس الشيعة وعالم الرافضة." كما قال المُصنِّف بشأن ابن العَلْقمي: "... الوزير الكبير المُدْبر ... الرافضي... أفشى الرّفْض." و في "السِّير" نماذج أخرى مثل وصف المُصنِّف لابن العود الحِلّي بـ " شيخ الرافضة."[4]

وتعدّدت مظاهر تحذيره من مقالات ونشاط الشيعة؛ فقد صرّح – على سبيل المثال– ضمن تراجم بعض الأعلام أنّهم من أهل الابتداع، كما هو الحال ضمن ترجمة أبي جعفر الطوسي[5] وتراجم أخرى. وأشار إلى أوضاع البلاد الإسلامية خلال القرن الرابع الهجري (ق10م) بقوله: "...فنحمد الله على العافية فقد جرى على الإسلام...بلاءٌ شديدٌ بالدولة العُبَيدية بالمغرب، و بالدولة البُويهية بالمشرق...، فالأمر لله

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج4، ص 402. و ج9، ص 392. و ج12، ص 265.

[2] – المُحدِّث أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القُمّي (نزيل بغداد) الشيعي المتوفى عام 381هـ/ 991م. (أنظر: أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المصدر السابق، ج4، ص 150، 151).

[3] – الأمير الأديب عزّ الدين محمد بن عُبَيد الله بن أحمد الحرّاني. كان من أمراء مصر خلال عهد الحاكم، له عدّة مصنَّفات منها " تاريخ مصر". توفي عام 420هـ/ 1029م. و المسبحي: نسبة إلى أحد أجداده. (أنظر: شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج5، ص 101، 102. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج17، ص 361، 362).

[4] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج5، ص 426. و ج8، ص 44. و ج 16، ص 303. و ج17، ص 344، 362. و ج 19، ص 499. و ج 20، ص 296. و ج21، ص 332. و ج23، ص 361، 362. و الجزء المفقود، ص 331.

[5] – شيخ الشيعة أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي. وُلد سنة 385هـ/ 995 م، استقرّ في بغداد وصنّف فيها عدّة كتب توفي سنة 460 هـ/ 1068 م. (أنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج6، ص 84).

تعالى." وقال أيضا: "... ضاع أمر الإسلام بدولة بني بُويه و بني عُبَيد الرافضة، وتركوا الجهاد وهاجت نصارى الروم، و أخذوا المدائن وقتلوا وسبوا." (يعني: خلال الحروب الصليبية.)[1]

ويتجلّى حِرْص الذهبي على الإنصاف من خلال عدم اكتفائه بذِكْر المثالب. ومن الأمثلة الدالة على هذا أنّه ذكر – نقلا عن غيره– أنّ عُبَيد الله بن موسى الكوفي[2] حدّث بأحاديث موضوعة للطعن في بعض الصحابة، لكنّ المصنِّف ذكر من ناحية أخرى أن عُبَيد الله كان يُقدِّم أبا بكر و عمر على باقي الصحابة، ووصفه بـ " الحافظ العابد" وقال عنه: " كان صاحب عبادة " أخذ " التشيع المشؤوم ...عن أهل بلده المؤسَّس على البدعة." ونلاحظ هنا الإشارة إلى رسوخ التشيّع في الكوفة وتأثيره على كثير من مُحدِّثيها. ووصف الذهبي المُحدِّث ابن خراش البغدادي بـ " الحافظ الناقد البارع "، وذكر من جهة أخرى – نقلا عن غيره– أنّ ابن خراش ألّف جزئين للطعن في أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما)، ثم قال في آخر الترجمة: " هذا مُعَثَّر مخذول، كان علمه وبالا وسعيه ضلالا، نعوذ بالله من الشقاء." ونوَّه المُصنِّف بكتاب صنّفه ثابت بن أسلم الشيعي[3] في ذمّ الإسماعيلية ، حيث قال: "... له مصنَّف في كشف عوار الإسماعيلية وبدء دعوتهم" فحُمل " إلى مصر فصلبه المستنصر " (المستنصر بن الظاهر بن الحاكم) " فلا رضي الله عمّن قتله..."، و " رحم الله هذا المبتدع الذي ذبَّ عن المِلّة، والأمر لله."[4]

ونشير في آخر هذا العنصر إلى أنّ تعاليق الذهبي في تراجم الشيعة غير الغُلاة تختلف بصفة جلية عن تعاليقه المتعلّقة بالغُلاة، فإن كان صاحب الترجمة ليس فيه غُلوّ يقول بشأنه: فيه "تشيّع قليل." أو نحو هذا. كما نشير إلى ملاحظة تُبيِّن حرص الذهبي على الإنصاف؛ إذ نجده يُثمِّن إقرار بعض علماء

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 18، ص 334. و ج 16، ص 252، 232.

(2) – المُحدِّث المقرئ أبو محمد عُبيد الله بن موسى الكوفي، وُلد بعد سنة 120هـ/ 738م، وتوفي سنة 213هـ/ 828م. (أنظر: شمس الدين ابن الجزري، **غاية النهاية في طبقات القراء**، ج1، ط1، مكتبة ابن تيمية، د م، 1351هـ/ 1932م، ص 494.

(3) – هو أبو الحسن ثابت بن أسلم بن عبد الوهاب الحلبي النحوي الشيعي، قُتل في مصر في حدود الستين و أربعمائة. (أنظر: جلال الدين السيوطي، **بُغية الوعاة**، ج1، ص 480).

(4) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج9، ص 555، 556. و ج13، ص 508، 509، 510. و ج18، ص 176.

الكوفة بتقديم عثمان على عليّ (رضي الله عنهما) رغم رسوخ التشيّع في مدينتهم.[1]

<u>-ب- مواقف المُصنِّف من أهل الكلام:</u>

لقد كان تحذير الذهبي من علم الكلام جليّا من خلال تعاليقه المبثوثة في ثنايا التراجم؛ فمنها قوله: "... و إذا رأيت المتكلِّم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث... وهات العقل فاعلم أنه أبو جهل...". وقوله: "... كان أئمة السلَف لا يرون الدخول في الكلام ولا الجدال، بل يستفرغون وُسعهم في الكتاب والسُّنة والتفقه فيهما، ويتّبعون ولا يتنطّعون."[2] ومنها كذلك قوله مُثنيا على الفقيه ابن أبي زيد القيرواني: "... كان رحمه الله على طريقة السلَف في الأصول، لا يدري الكلام...". وقوله في ترجمة "حافظ المغرب" ابن عبد البَر: "... وكان في أصول الديانة على مذهب السلَف، لم يدخل في علم الكلام، بل قفا آثار مشايخه رحمهم الله."[3]

ونقل الذهبي بعض ما ورد عن بعض مشاهير العلماء في التحذير من علم الكلام؛ إذ نقل قول الشافعي: "ما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح " و" لو عَلِم الناس ما في الكلام والأهواء لفرّوا منه كما يفرّون من الأسد." وتوسّع في نقل أقوال الشافعي في هذا الشأن لا سيما قوله: " حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر يُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنة وأقبل على الكلام." ثم نقل قولا آخر في هذا المعنى وقال بعده: "هذا مُتواتر عن الإمام." وذكر أنّ " الحافظ " الدارقُطني صحّ أنّه قال: " ما شيء أبغض إليّ من علم الكلام." و علّق الذهبي بقوله: " لم يدخل الرجل أبدا في علم الكلام والجدال و لا خاض في ذلك...". ونقل كذلك وصف يحيى بن عمار لعلم الكلام بـ "علم ...هلاك الدين."[4]

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 5 ، ص207. و ج 8، ص202.

(2) – تنطّع في الأمر :غالى وتكلّف فيه. وتنطّع في كلامه: أي تعمّق.(أنظر : مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج2، ص 930).

(3) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج4، ص 472. و ج17، ص 12. و ج 18، ص 161.

(4) – المصدر نفسه، ج 10، ص 18، 29. و ج 16، ص 457. و ج17، ص 482.

وقد تكرّر تحذير المصنِّف من الجَهمية و المعتزلة في تراجم متفرِّقة، ولاحظنا أنّه يقصد أحيانا بلفظ " الجَهمية " أو " جَهمي" المعتزلة، ونجد هذا عند غيره من كبار العلماء؛ حيث قال عن إبراهيم بن إسماعيل البصري المعتزلي: " جَهمي ... يقول بخلق القرآن ويناظر." وذكر أنّ بِشْر المَريسي المعتزلي " نظر في الكلام فغلب عليه، و انسلخ من الورع والتقوى، وجرّد القول بخلق القرآن و دعا إليه حتى كان عين الجَهمية في عصره ...".[(1)]

و حِرْص الذهبي على التحذير من مقالات الجَهمية والمعتزلة يتّضح من مضامين تعليقات عديدة مثل قوله عن فترة حكم المأمون والمعتصم والواثق: "... ظهرت البِدعة وامتُحن أئمَّة الأثَر، و رفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة معهم، فاحتاج العلماء إلى مجادلتهم بالكتاب والسُّنة، ثم كثُر ذلك واحتجّ عليهم العلماء أيضا بالمعقول، فطال الجدال واشتدّ النزاع وتولّدت الشُّبَه نسأل الله العافية." و ذكر أنّ أحد دعاة المعتزلة صنّف عدّة كتب، ثم قال الذهبي بعد ذلك: "...لم نرها ولله الحمد." و أشار إلى ما لحِق العلماء من مِحَن على يد المأمون، وأكد أنّ هذا الأخير كان " بَأسا على الإسلام." كما قال ضمن ترجمته: "... دعا إلى القول بخلق القرآن وبالغ نسأل الله السلامة." وقال: "...صمَّم على امتحان العلماء في سنة " 218هـ/ 833م " وشدّد عليهم فأخذه الله." وقال كذلك: "...آل به الحال إلى أن حَمَل الأُمّة على القول بخلق القرآن وامتحن العلماء فلم يُمهَل، وهلك لعامه، وخلّى بعده شرّا وبلاء في الدين...".[(2)]

ونظرا لإدراك الذهبي خطورة الانحرافات العَقَدية فإنّه لجأ إلى الدعاء عند إشارته إلى عقائد المعتزلة كقوله: " نسأل الله السلامة في الدين." و" نسأل الله السلامة." و" نسأل الله العافية." و" أجارنا الله من البِدَع." ونحو هذا. وتشتمل " السِّير" على مظاهر تحذير أخرى من المعتزلة لم نُشر إليها؛ منها قول المصنِّف عن أحد دعاتهم: "... هو رأس البِدعة."[(3)]

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 9، ص 113. و ج 10، ص 200.

(2) – المصدر نفسه، ج8، ص 144. و ج 10، ص 203، 234، 273، 283. و ج11، ص236.

(3) – المصدر نفسه، ج 12، ص 478. و ج 10، 273، 554. و ج 15، ص 587.

وأبدى الذهبي مخالفته للأشاعرة في أكثر من موضع من كتابه؛ فقد أشار – مثلا– في إحدى التراجم إلى قولهم بالكلام النفسي ثم قال: "... نسأل الله الهدى و اتباع الحقّ، فالقرآن العظيم حروفه ومعانيه وألفاظه كلام ربِّ العالمين...". وقال في موضع آخر: "... و إنّما بعد الإيمان بها "(أي أحاديث الصفات) "هنا مقامان مذمومان: تأويلها وصرفها عن موضوع الخطاب، فما أوَّلها السلَف ولا حرَّفوا ألفاظها عن مواضعها، بل آمنوا بها، وأمَرّوها كما جاءت. المقام الثاني: ... تصوُّرها من جنس صفات البشر... فهذا جهلٌ وضلالٌ...". وقال ضمن ترجمة أبي حامد الغزالي: "...أدخله سيلان ذهنه في مضائق الكلام ومزالِّ الأقدام...". كما ذكر أنّ ابن تومرت (وهو أشعري) " كان لَهِجًا بعلم الكلام خائضا في مزالِّ الأقدام"، وأنه ألَّف كتابا في العقيدة و استباح دم من خالف هذا الكتاب، ثم قال المُصنِّف: "... نعوذ بالله من الغيِّ والهوى."[1]

-ج- مواقف المُصنِّف من الخوارج و الناصِبة:

تتضمن بعض التراجم في " السِّير" إشارات من المُصنِّف إلى انحرافات الخوارج؛ فذكر أنّهم ظهروا بعد وقعة صِفّين وكفّروا عثمان وعليّا (رضي الله عنهما)، وذكر في سيرة عليٍّ أنّه " قاتل الخوارج الذين أوّلوا القرآن برأيهم وجهلهم." ونقل المصنِّف حديثا من الأحاديث المتعلّقة بهم ليُبيِّن انحرافهم. كما قال بشأنهم: "...أوقعهم الغُلوّ في الدين إلى تكفير العُصاة بالذنوب، و إلى قتل النساء و الرجال...". و قال: "...تبرّأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليّا وكفّروا الفريقين." (جُند علي وجُند معاوية). و وصف عبد الرحمان بن مُلجم بأنّه "خارجي مُفترٍ"، وقال عنه أيضا: "... قاتل عليّ رضي الله عنه...، وهو عند الخوارج من أفضل الأُمّة...و... وعند الروافض أشقى الخلق في الآخرة. وهو عندنا أهل السُّنة ممّن نرجو له النار، ونُجَوِّز أن يتجاوز الله عنه، لا كما يقول الخوارج والروافض فيه، وحُكمه حُكم قاتل عثمان وقاتل الزبير وقاتل طلحة ... وقاتل الحسين، فكلّ هؤلاء نبرأ منهم ونبغضهم في الله، ونَكِل أمورهم إلى الله عزّ

(1) – شمس الدين الذهبي، **السّيَر**، ج 13، ص 101. و ج 10، ص 610، 611. و ج 19، ص 323، 540، 541.

و جلّ."[1]

ولئن كان الذهبي قد أنكر على الشيعة غُلوّهم فإنّه أنكر من ناحية أخرى على الناصِبة، وفي "السِّير" أمثلة عديدة تُثبت هذا؛ فقد ذكر– على سبيل المثال– أنَّ بعض أهل الشام قد نشؤوا خلال العصر الأُموي على النَّصْب، ثم قال: " نعوذ بالله من الهوى." وقال في ترجمة يزيد بن مُعاوية: "...كان... شجاعا ذا رأي وحزم...، وكان ناصِبيا فضّا غليظا...، افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين واختتمها بواقعة الحَرّة...". وذكر أنّ الحَجّاج بن يوسف " كان ظلوما جبّارا ناصِبيا خبيثا...". كما قال عن المتوكِّل: "... كان في المتوكِّل نَصْب نسأل الله العفو." وتعجَّب الذهبي في ترجمة كوفي ناصِبي فقال: "... وهو من عجائب الزمان كوفي ناصِبي، ويندر أن تجد كوفيا إلاّ وهو يتشيّع." وفي "السِّير" مظاهر إنكار أخرى على الناصِبة؛ حيث ذكر – مثلا– في سِيَر الخلفاء الراشدين أنّ عليّ بن أبي طالب قال: " إنّه لعهد النبي صلّى الله عليه وسلم إليّ أنَّه " لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق."[2]

ومن ملامح الإنصاف اعتدال موقف الذهبي من بني أُمَيّة، والأمثلة على هذا كثيرة؛ منها نقله مناقب مُعاوية و قوله في ترجمته: "... حَسْبُك بمن يُؤمِّره عُمر ثم عثمان على إقليم وهو ثغر" (الشام) " فيضبطه ويقوم به أتمّ قيام...، و إن كان غيره من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم خير منه بكثير وأفضل وأصلح، فهذا الرجل ساد ... بكمال عقله وسعة نفسه وقوة دهائه و رأيه، وله هنات وأمور...". و قال: "... و مُعاوية من خِيار الملوك الذين غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو ببريء من الهنات...". ونقل حديثا موضوعا في ثلْبه ثم بيَّن أنّه لا يصحّ، ومن ناحية أخرى بيّن عدم صحّة عدّة أحاديث وُضِعت في مناقبه ووصفها بـ " الأباطيل المختلقة."[3]

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج11، ص 236. و ج3، ص 128. و **سِيَر الخلفاء الراشدين**، ص 243، 283، 287، 288.

[2] – ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج 4، ص 298. و أحمد بن حنبل، المصدر السابق، ج 2، ص 316.
و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج 3، ص 128. و ج 4، ص 37، 38، 343. و ج 12، ص 18. و ج 5، ص 374.
و **سِيَر الخلفاء الراشدين**، ص 235، 236.

[3] – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج3، ص 132، 133، 128، 129، 159.

و أشار ضمن ترجمة مُعاوية إلى وقعة صِفّين ثم قال: "... قُتل بين الفريقين نحو من ستين ألفا. وقيل: سبعون ألفا. وقُتل عمّار" (الصحابي عمّار بن ياسر) "مع عليّ، وتبيَّن للناس قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تقتله الفئة الباغية."" وعلّق المصنِّف على موقف الحسين بن علي من استخلاف يزيد بن مُعاوية بقوله: " فلمّا أن فعل مُعاوية ما فعل بعد وفاة السيّد الحسن من العهد بالخلافة إلى ولده يزيد تألّم الحسين وحُقّ له...". وأثنى على عدّة أعلام من البيت الأُموي منهم عمر بن عبد العزيز و سليمان بن عبد المَلِك.[1]

د- مواقف المصنِّف من الصوفية:

لقد كان ذمّ الذهبي للقائلين بالحُلول ووحدة الوجود واضحا، ويتبيّن هذا من أمثلة كثيرة منها قوله: "... أعاذنا الله و إيّاكم من قول الاتحادية فإنّه زندقة." و وصفه الحلّاج بأنّه من " دُعاة الزندقة " وقوله بشأنه: "... مقالته نبرأ إلى الله منها فإنّها مَحْض الكُفر نسأل الله العفو والعافية، فإنّه يعتقد حُلول البارئ عزّ وجلّ في بعض الأشراف تعالى الله عن ذلك...". وقوله أيضا: "... قُتِل الحلاّج بسيف الشرع على الزندقة، وقد جمعتُ بلاياه في جزئين...". وقال الذهبي أيضا عن مضمون قصيدة نَظَمها ابن الفارض: "... فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده، فما في العالم زندقة ولا ضلال، اللهمّ ألهمنا التقوى وأعذنا من الهوى، فيا أئمَّة الدين ألا تغضبون لله؟ فلا حول ولا قوة إلاّ بالله." فنلاحظ أنّه يستنهض هِمَم العلماء للإنكار على الاتحادية الذين كان لهم وجود في مصر والشام خلال عصر المصنِّف.[2]

ونظرا لشدة انحراف الاتحادية فإنّنا نجد المصنِّف يفزع إلى الدعاء عند إشارته إلى اعتقادهم مثل قوله: "... نعوذ بالله من الضَّلال." و" أعاذنا الله و إيّاك من تُرهات الصوفية." وقوله: "نسأل الله العِصمة في الدين." و" نسأل الله العفو و السلامة." وقوله في ترجمة محيي الدين ابن عربي: "...من أردإ تواليفه كتاب

(1) – شمس الدين الذهبي، **السّيَر**، ج 3، ص 142، 291، 292. و ج 5 ، ص 120.
(2) – المصدر نفسه، ج 14، ص 72، 345، 351. و ج 16، ص 265. و ج 22، ص 368.

" الفُصوص" فإن كان لا كُفر فيه فما في الدنيا كُفر، نسأل الله العفو والنجاة فواغوثاه بالله !". وقال أيضا بعدما أشار إلى " زندقة " ابن سبعين وأتباعه: "...آمنت بالله ولا قوة إلاّ بالله." كما قال بشأن صدر الدين القُونَوي: "... شيخ الاتحادية... له تصانيف...على مذهبه نسأل الله السلامة، منها كتاب " النفحات""، ثم قال: " نفحات الأفاعي ولا تلك النفحات المُرْدية... فواغوثاه بالله...، اللهمّ فثبّت قلوبنا على دينك."[(1)]

واستنكار المُصنِّف لانحرافات الصوفية من الخصائص التي تُضفي مزيدا من الأهمية على كتابه. ونُشير هنا إلى بعض الأمثلة؛ حيث قال في إحدى التراجم: "متى رأيت الصوفي مُكِبًّا على الحديث فثِق به، ومتى رأيته نائيا عن الحديث فلا تفرح به، لا سيما إذا انضاف إلى جَهله بالحديث عكوف على تُرّهات الصوفية و رموز الباطنية نسأل الله السلامة...". وقال: " و إذا رأيت" الصوفي يقول " دعنا من النّقل ومن العقل وهات الذوق والوَجْد، فاعلم أنّه إبليس قد ظهر بصورة بشر...". وقال واصفا الصوفية اليونسية: "... أُولي الزعارة والشَّطْح ... و خفّة العقل." وتعجَّب الذهبي ممّا يذكره بعض الصوفية عن شيوخهم من " الخوارق المستحيلة "، ثم قال: "... فإيّاك و الخرافات ومخالفة السُّنة. وأشار إلى ما تضمَّنه كتاب "حقائق التفسير" لأبي عبد الرحمان السُّلمي من تأويلات الباطنية وقال إثر ذلك: "... نعوذ بالله من الضلال ومن الكلام بهوى، فإنّ الخير كلّ الخير في متابعة السُّنة والتمسّك بهَدْي الصحابة و التابعين..." و أشار إلى تحذير أحد العلماء من الكتاب المذكور، ثم أكد أنّه في ذلك " معذور مأجور."[(2)]

ومن مظاهر نقد الذهبي للصوفية تعليقه على بعض ما نقل من كلامهم، فقد نقل – مثلا– قول أبي حامد الغزالي: "... وذهبت الصوفية إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فيجلس" – أي الصوفي– " فارغ القلب مجموع الهمّ يقول: الله الله الله على الدوام، فليفرغ قلبه، و لا يشتغل بتلاوة و لا كتب حديث...، فإذا بلغ هذا الحدّ التزم الخلوة في بيت مُظلم وتدثّر بكسائه، فحينئذ سمع نداء الحقّ: "يا أيها المدثر" و" يا أيها

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج14، ص74، 314. وج7، ص 183. وج23، ص 48. والجزء المفقود، ص89، 298، 475.

(2) – المصدر نفسه، ج 12، ص 213. و ج4 ، ص 472. و ج 22، ص179. و ج 17، ص 252. و ج 18، ص 341. و الجزء المفقود، ص 347.

المزمل."" و علّق الذهبي بما يتضمن استنكاره هذه الخرافة، وقال في آخر كلامه: "... والتوفيق في الاعتصام بالكتاب و السُّنة و الإجماع."[1]

ولم يخل كلام الذهبي عن الصوفية من الوعظ؛ فقد نقدهم في إحدى التراجم وقال: "... ما تفوّه بعباراتهم صِدِّيق ولا صاحب و لا إمام من التابعين، فإن طالبتهم بدعاويهم مقتوك وقالوا: محجوب، و إن سلّمت لهم قيادك تخبّط ما معك من الإيمان...". ثم قال مُبيِّنا ما ينبغي أن يكون عليه المسلم: "...إنّما... السلوك... ما جاء عن أصحاب محمّد صلّى الله عليه وسلّم من الرضا عن الله، ولزوم تقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والتأدب بآداب الشريعة من التلاوة بترتيل وتدبّر، و القيام بخشية و خشوع، وصوم وقت و إفطار وقت، وبذْل المعروف وكثرة الإيثار وتعليم العوامّ، و التواضع للمؤمنين والتعزّز على الكافرين ومع هذا فالله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم." ونجد مثل هذا في مواضع أخرى.[2]

<u>-هـ- مواقف المصنِّف من الفلاسفة:</u>

اهتمّ الذهبي بالتحذير من الفلسفة التي أطلق عليها في مواضع عديدة مصطلح "علم الأوائل" أو "علوم الأوائل". وفي كتابه أمثلة كثيرة تُبيّن تحذيره منها مثل قوله: "...والعلم الذي يحرُم تعلّمه ونشره علم الأوائل و إلهيات الفلاسفة...، ونشْر الأحاديث الموضوعة...، فالعلوم الباطلة كثيرة...فلتُحذر، ومن ابتُلي بالنظر فيها للفرجة... فليُقلّل من ذلك، وليُطالعه وحده، وليستغفر الله تعالى، وليلتجئ إلى التوحيد والدعاء بالعافية في الدين...". وقال عن الفيلسوف يعقوب بن إسحاق الكِنْدي: "...كان رأسا في حكمة الأوائل... لا يُلحَق شأوه في ذلك العلم المتروك...". وقال أيضا ضمن ترجمة أحد الفلاسفة: "... بلغ الغاية في علوم الأوائل نسأل الله العافية." و علّق على تصانيف الفارابي بقوله: "... له تصانيف مشهورة، من ابتغى الهدى منها ضلّ و حار، منها تخرج ابن سينا، نسأل الله التوفيق." ووصف الذهبي أحد الفلاسفة بـ "المُعَثّر"، وذكر أنّ

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج19، ص 333، 334.

(2) – المصدر نفسه، ج 15، ص410. و ج 12، ص 89، 90.

المُعتضد الخليفة قَتل(عام286/899م) الفيلسوف أحمد بن الطيب السرخسي " لفلسفته وخُبث معتقده".[1]

و وصف المصنِّف الفيلسوف أبا حيّان التوحيدي بـ "الضال"، وأشار – نقلا عن غيره– إلى بعض ما كان عليه أبو حيّان من " القَدْح في الشريعة "، وما كان " يُلصقه بأعلام الصحابة من القبائح." ثم ذكر أنّه قال: " أُناس مضوا تحت التوهّم، وظنّوا أن الحقّ معهم، وكان الحقّ وراءهم." وعلّق الذهبي على ذلك فقال: " أنت حامل لِوائهم." و تطرّق في ترجمة أبي العلاء المَعَرّي الشاعر الفيلسوف إلى ذِكْر بعض انحرافاته، منها أبيات في الاستهزاء برُسل الله (عليهم السلام) و كُتُبه، و وردت هذه الأبيات في مصنَّف للمَعَرّي، وقد قال الذهبي بشأن هذا الأخير: "... و يظهر لي من حال هذا المخذول أنّه مُتحيِّر لم يجزم بنِحْلة، اللهمّ فاحفظ علينا إيماننا."[2]

و ركّز الذهبي على التحذير من " رسائل إخوان الصفا"[3]؛ فممّا قال في ذلك: "... كتاب رسائل إخوان الصفا، وهو داءٌ عُضالٌ وجَرَبٌ مُرْدٍ وسُمٌّ قتّالٌ...، فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شُبَه الأوائل، و إلاّ وقعتم في الحَيْرة، فمَن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية...، وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام". و لا شكّ في أنّ تعليقات الذهبي ضمن التراجم تدلّ على أنّه لا يكتفي بالنّقل، بل ينقد ويُحذِّر من الانحرافات، مثل قوله: "...لَأن يعيش المسلم أخرس أبكم خير له من أن يمتلئ باطنه كلاما وفلسفة. ووصفه "علم الأوائل " بعلم هلاك الدين، وقوله عن رفيع الدين الجِيلي: "...أمعن في عِلم الأوائل واظلمّ قلبه...". وقال ضمن ترجمة ابن مَلّي[4]: "... وكان يشرح في مذهب الأوائل، وبلغني عنه عظائم".

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 10، ص 604. و ج 12، ص 337. و ج 14، ص 20، 354. و ج 15، ص 417. و ج 13، ص 449.

[2] – المصدر نفسه، ج17، ص 119، 120، 121. و ج 18، ص 28، 29، 30، 36.

[3] – ظهرت خلال القرن الثالث الهجري (ق9م)، وهي إحدى و خمسون رسالة. و إخوان الصفا جماعة هدفها هدم الإسلام، تدّعي أنّ النُبوّة مكتسبة؛ فليس النبي عندهم أكثر من شخص فاضل تخلّق بمحاسن الأخلاق، وساس نفسه حتى لا تغلبه شهوة، ثم ساق الخلق بتلك الأخلاق. (أنظر: المصدر نفسه، ج19، ص 328، 334، 341، 495.)

[4] – الفيلسوف المتكلّم نجم الدين أحمد بن محسن بن علي بن الحسن البعلبكي الشافعي الشيعي. وُلد سنة 617هـ/ 1220م، و توفي سنة 699 هـ/ 1299 م. (أنظر: المصدر نفسه، الجزء المفقود، ص 159).

و ذكر عن أحد المهتمين بـ "علوم الأوائل" أنّه " لو جهل" هذا " العلم لسَعِد." ونجد في "السِّير" أمثلة أخرى مثل ما تقدّم ذِكره. ونقل الذهبي من كلام بعض المؤرِّخين في التحذير من الفلاسفة كما هو الحال في ترجمة الفيلسوف المتكلِّم عبد الكريم الشهرستاني.(1)

- و - تأييد المصنِّف لمنهج أهل الحديث:

لقد كانت مظاهر تمسّك الذهبي بمنهج أهل الحديث جليّة في كتابه؛ ومنها تأييده عقيدة أهل الحديث في الصفات الإلهية مثل قوله: "...فلمّا لم يتعرضوا" (أي علماء السلف) " لأخبار الصفات الإلهية بتأويل ...و أقرّوها على ما وردت عليه، عُلِم أنّ ذلك هو الحقّ الذي لا حيدة عنه." وقوله: "... ومعلوم عند أهل العلم...أنّ مذهب السلَف إمرار آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت من غير تأويل ولا تحريف، ولا تشبيه ... فإنّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات المقدّسة، وقد علِم المسلمون أنّ ذات الباري موجودة حقيقة، لا مِثل لها، وكذلك صفاته تعالى موجودة لا مِثل لها." وقال كذلك: "...فالحقّ أن يقول: " إنّ الله " سميع بصير، مُريد متكلِّم...، كلّ شيء هالك إلاّ وجهه، خلق آدم بيده، وكلّم موسى تكليما و اتّخذ إبراهيم خليلا، وأمثال ذلك، فنُمِرُّه على ما جاء، ونفهم منه دلالة الخطاب كما يليق به تعالى، ولا نقول: له تأويلٌ يُخالف ذلك...، والضّلال: أن ... تُمَثّل البارئ بخلقه، تعالى الله عن ذلك، بل صفاته كذاته، فلا... نظير له، ولا مِثل له، ولا شبيه له، و ليس كمِثله شيء لا في ذاته و لا في صفاته...".(2)

ونقل كثيرا من أقوال العلماء المشاهير في إثبات الصفات من غير تشبيه، و منهم الأوزاعي و الشافعي ومالك و أحمد بن حنبل و قُتيبة بن سعيد البغلاني(3) وابن خُزيمة النيسابوري وغيرهم. كما نقل عدّة أقوال تتضمن الردّ على القائلين بخلق القرآن و التحذير منهم، ونجد ذلك ضمن تراجم كثيرة، و نقل أيضا بعض

(1) - شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 19 ، ص 328، 329. و ج21، ص 36. و ج17، ص 482. و ج، 23، ص 109. و ج 20، ص 288. و الجزء المفقود، ص 160.

(2) - المصدر نفسه، ج 8، ص 162، 402. و ج 19، 449.

(3) - المُحدِّث الحافظ أبو رجاء قُتيبة بن سعيد بن جميل بن طرف البغلاني. و بغلان: قرية من نواحي بلخ. وُلد سنة 149هـ/ 766م و هو من كبار علماء عصره. توفي سنة 240هـ/ 854 م. (أنظر: المصدر نفسه، ج 11، ص 13).

كلام العلماء في أنّ الإيمان قول و عمل يزيد و ينقص.[1]

و نوَّه الذهبي بتمسّك كثير من الأعلام بمنهج أهل الحديث، و التراجم الدالّة على هذا كثيرة، ومنها على سبيل المثال تراجم كل من أبي داود السِّجستاني و يزيد بن هارون الواسطي و عثمان بن سعيد الدارِمي و محمد بن الحسن الآجُرِّي[2] و ابن عبد البَر الأندلسي و محمد بن إبراهيم الكيزاني و عبد الغني المقدسي و غيرهم كثير.[3]

وفصَّل في ذِكْر أخبار مِحنة الإمام أحمد بن حنبل (مِحنة خلق القرآن)؛ فبيَّن ثباته رغم ما تعرّض له من اضطهاد على يد المعتزلة. ووصف الذهبي أحمد بن نَصْر الخُزاعي الذي قتله الواثق (بسبب امتناعه عن القول بخلق القرآن) بـ: " الإمام الكبير الشهيد"، و ذكر أنّه قُتل مظلوما. وأشار في ترجمة تاج الدين الكِنْدي الحنفي إلى اتّهام القفطي[4] (وهو أشعري) له بأنه " لم يكن صحيح العقيدة." لكنّ الذهبي فنّد ذلك وذكر أنّه وقف على فتوى عقدية للكِنْدي " تدلُّ على خيرٍ وتقريرٍ جيِّد، لكنّها تُخالف طريقة " الأشاعرة، ثم قال: " أعاذنا الله من الهوى و النفس." وكان الكِنْدي على منهج أهل الحديث؛ قال المُوفَّق ابن قُدامة: "... كان على السُّنة "، و ذكر ابن كثير أنَّه " حسن الطريقة و السيرة، و حسن العقيدة و السريرة."[5]

و حرص الذهبي على الثناء على الصحابة و ذمِّ من يسبّهم من غُلاة الشيعة؛ فقد فصّل – مثلا– في

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج7، ص 121. و ج 10، ص 79. و ج 8، ص 100، 102. و ج 11، ص 20، 85، 162، 286. و ج 14، ص 373. و ج 17، ص 547.

[2] – الفقيه المُحدِّث أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله الآجُرّي الحنبلي المتوفى في مكة عام 360هـ/ 971 م. له عدّة مصنّفات. والآجُري: نسبة إلى عمل الآجُر و بيعه. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **المصدر نفسه**، ج 8 ، ص 153. و عبد الكريم السمعاني، المصدر السابق، ج1، ص 94).

[3] – المصدر نفسه، ج 13، ص 203، 322. و ج9، ص 362. و ج16، ص 134. و ج 18، ص 161. و ج 20، ص 454. و ج21، ص 443.

[4] – المؤرِّخ النحوي جمال الدين أبو الحسين علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني القفطي نزيل حلب. و القفطي: نسبة إلى قفط، وهي بلدة في صعيد مصر. توفي عام 646هـ/ 1248م. له عدّة مصنفات منها " إنباه الرواة على أنباه النحاة ". (أنظر: شمس الدين الذهبي: **تاريخ الإسلام**، ج 14، ص 553).

[5] – شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج11، ص 166، 248، 255. و ج10، ص 312. و ج 22، ص 38، 39. و عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 125.

ذِكر مناقب الخلفاء الراشدين، واعتنى بذِكر مناقب غيرهم من الصحابة وأكد أنّهم " كلّهم عدول"، وأنّ " أبا بكر وعمر أفضل الأمّة، ثم تتمّة العشرة المشهود لهم بالجنة." وذمّ قتلة عثمان (رضي الله عنه) فوصفهم بـ " رؤوس الشر." وتعليقات الذهبي التي تُبيّن توقيره للصحابة كثيرة، منها تعليقه على قول الشعبي: " أدركت خمس مئة أو أكثر من الصحابة يقولون: علي وعثمان وطلحة والزبير في الجنة " بقوله: " لأنهم من العشرة المشهود لهم بالجنة ومن البدريين...، ومن السابقين الأولين الذين أخبر الله تعالى أنّه رضي عنهم و رضوا عنه، و لأنّ الأربعة قُتلوا و رُزقوا الشهادة، فنحن مُحبّون لهم باغضون للأربعة الذين قتلوا الأربعة."[1]

وتدلّ تراجم الذهبي لأعلام أهل البيت على توقيره لهم؛ فمنهجه وسط بين موقف الناصِبة وموقف الإمامية، والأمثلة التي توضح ثناءه على أهل البيت كثيرة؛ حيث نقل – مثلا– مناقب علي (رضي الله عنه)، وأشار في أكثر من موضع إلى قول عليّ: "...إنّه لعهد النبي... إليَّ أنّه لا يُحبّني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلا منافق."[2] ثم قال الذهبي شارحا لذلك: " فمعناه أنّ حبّ عليّ من الإيمان، وبغضه من النفاق؛ فالإيمان ذو شُعَب، وكذلك النفاق يتشعّب، فلا يقول عاقل:إنّ مجرد حبِّه يصير الرجل به مؤمنا مطلقا و لا بمجرد بغضه يصير به المُوحِّد منافقا خالصا. فمن أحبَّه و أبغض أبا بكر كان في منزلة من أبغضه و أحبَّ أبا بكر، فبغضهما ضلالٌ و نفاقٌ، وحبّهما هدى و إيمان."[3]

وقد مزج المصنِّف ثناءه على أهل البيت بالإنكار على الإثني عشرية و الناصِبة كقوله: "... فمولانا الإمام علي: من الخلفاء الراشدين المشهود لهم بالجنة... نحبّه أشدّ الحبّ، ولا نَدّعي عصمته، ولا عصمته أبي بكر الصديق." وقوله مُثنيا على الحسين بن علي: " الحسين الشهيد الإمام الشريف... سِبْط

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، سِيَر الخلفاء الراشدين، ص 10، 78، 152. و ج2، ص 608. و ج1، ص 62. و ج 10، ص 93. و ج11، ص 236.

(2) – ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج4، ص 298.

(3) – شمس الدين الذهبي، **السِّير**، ج12، ص 509، 510. و سِيَر الخلفاء الراشدين، ص 234.

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"، ونقل أحاديث في فضله، و قال عن سِنان بن أنس النَّخعي و خَولي بن يزيد الأصبحي (و هما من أبرز قتلة الحسين): "...لا رضي الله عنهما." و نقل الذهبي بعض فضائل فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه و سلّم، وقال في ترجمتها: "... سيِّدة نساء العالمين في زمانها... بنت سيِّد الخَلْق رسول الله صلّى الله عليه و سلّم... مناقبها غزيرة. وكانت صابرة ديِّنة خيِّرة صيِّنة قانعة شاكرة لله ..."، ونقل أحاديث في فضلها.[1]

وأثنى على الأئمّة الذين تَدّعي الإثني عشرية عصمتهم؛ حيث قال: "... الحسن والحسين... سِبْطا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسيِّدا شباب أهل الجنّة، لو استُخلِفا لكانا أهلا لذلك." و قال: " و زين العابدين: كبير القدر، من سادة العلماء العاملين، يصلح للإمامة...، وكذلك ابنه... الباقر: سيِّد إمام فقيه يصلح للخلافة. و كذا ولده جعفر الصادق: كبير الشأن من أئمّة العِلْم، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور، وكان ولده موسى: كبير القدر جيّد العِلْم...، وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن، له عِلْم و بيان...، وابنه محمد الجواد: من سادة قومه...، وكذلك ولده المُلقّب بالهادي: شريف جليل...". فنلاحظ أنّه يربط الثناء على بعض أعلام أهل البيت بأهليّتهم للخلافة.[2]

وصرّح الذهبي أنّه فَرِح بانتقال الخلافة من بني أُميّة إلى بني العباس، و ذكر أنّ الناس كانوا " يودّون أنّ الأمر يؤول إليهم حُبًّا لآل رسول الله صلّى الله عليه و سلّم." لكنَّه استنكر ما جرى خلال الصراع بين الأُمَويين والعباسيين عشية سقوط الخلافة الأُمَوية؛ حيث قال: " فرحنا بمصير الأمر إليهم، ولكن والله ساءنا ما جرى، لِما جرى من سيول الدماء و السبي والنّهب، فإنّا لله و إنّا إليه راجعون، فالدولة الظالمة مع الأمن وحَقْن الدماء و لا دولة عادلة تُنتَهك دونها المحارم، وأنّى لها العدل؟ بل أتت دولة أعجمية جبّارة ما أشبه الليلة بالبارحة."[3]

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 13، ص 120. و ج 3، ص 280، 282، 299. و ج 2، ص 118، 119، 126.
(2) – المصدر نفسه، ج 13، ص 120، 121.
(3) – المصدر نفسه، ج 6 ، ص 58.

أمَّا تعليقات الذهبي المتعلّقة باختلاف علماء المذاهب الفقهية الأربعة، فإنها تتضمن من الإنصاف ما لا مزيد عليه؛ ومن أوضح الأدلة على هذا أنّه أشار في إحدى التراجم إلى المُفاضلة بين الإمامين أبي حنيفة و مالك ثم قال: " وعلى الإنصاف، لو قال قائل: بل هما سواء في عِلْم الكتاب، والأوّل أعلم بالقياس و الثاني أعلم بالسُّنة وعنده عِلمٌ جَمٌّ من أقوال كثير من الصحابة، كما أنَّ الأوَّل أعلم بأقاويل عليّ و ابن مسعود وطائفة ممّن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فرضي الله عن الإمامين فقد صرنا في وقت لا يقدر الشخص على النطق بالإنصاف، نسأل الله السلامة." و يشير الذهبي هنا إلى ردِّ فِعْل بعض الفقهاء المتعصبين لمذاهبهم، وما قد يُلحِقوه بالمُخالِف من مِحَن.[1]

وممّا يدلُّ على تحرّي الذهبي الإنصاف أنّه نقل – وهو شافعي – في مناقب الإمام الشافعي حديثا ثم بيّن أنّه لم يصح، و أنّ سنده فيه راوٍ متروك، وهذا بخلاف ما نجده في " طبقات الشافعية الكبرى" للسُّبكي من نقل لأحاديث لا تصحّ في ترجمة الشافعي.[2]

واستنكر المصنّف بشدّة قول من يزعم أنّ أحمد بن حنبل ليس بفقيه و لكنّه مُحدِّث؛ حيث قال: " أحسبهم يظنونه كان مُحدِّثا " فحسب " بل يتخيلونه من بابة[3] مُحدِّثي زماننا، و والله لقد بلغ في الفقه خاصّة رتبة الليث" بن سعد " ومالك والشافعي...، و لكنّ الجاهل لا يعلم رتبة نفسه فكيف يعلم رتبة غيره؟ ".[4]

و أشار في ترجمة أحد الفقهاء إلى أنّه صنّف كتابا في " الردّ على الشافعي"، ولم ينزعج الذهبي من ذلك. وذكر في ترجمة أبي حامد الغزالي (وهو شافعي) أنّ مصنَّفا له فيه "كلام فجّ في إمام"؛ قال الذهبي: "لا أرى نقله هنا". والإمام المقصود هو أبو حنيفة. ونقل كلاما للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي في

---

(1) – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 8، ص 112، 113.
(2) – المصدر نفسه، ج 10، ص 82.
(3) – البابة : الخصلة. و البابة أيضا: الوجه. (أنظر: جمال الدين ابن منظور، المصدر السابق، ج1، (ط. دار صادر)، ص 224).
(4) – شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج11، ص 321.

ابن حَزْم الظاهري، ثم استنكر تحامل ابن العربي فقال: " لم يُنصِف... شيخ أبيه في العلم، و لا تكلّم فيه بالقِسْط، و بالغ في الاستخفاف به...". و هذا التعليق من الذهبي سببه إفراط ابن العربي في التحامل على ابن حَزْم (لأنّه ظاهري)، خاصة وصفه له بـ " سخيف ". وفي " السِّير " أمثلة أخرى تؤكِّد حرص الذهبي على الإنصاف.[1]

-استنتاج:

لقد أثّر تمسُّك الذهبي بعقيدة أهل الحديث على كتابه من خلال مظاهر عديدة؛ منها ذمّه للباطنية وتحذيره من انحرافاتهم، و إيضاحه انعكاسات نشاطهم، وما ألحقوه بالأُمّة من مِحَن عظيمة. و أبدى في غير موضع تَعجّبه منها. و بيّن التغيرات التي عرفها التشيع عبر التاريخ، وأَثر المجتمع على مذهب الفرد. و أوضح انعكاسات نشأة الدّوَل الشيعية على تاريخ الأمّة. و وظّف مصطلح "الرافضة " بكثرة، لكنَّه لم يكتف بذِكْر المثالب في التراجم الشيعية، و هذا من مظاهر الإنصاف.

وحرص الذهبي على التحذير من عِلْم الكلام ومقالات الجَهمية و المعتزلة و الأشاعرة، و لاحظنا أنّه يلجأ إلى الدعاء عند إشارته إلى مقالات المتكلِّمين، كقوله: " نسأل الله العافية ". وشمل نقده الخوارج و الناصِبة، و ذلك ما يدلّ على تتبُّعه لكافّة مظاهر الانحراف العَقَدي.

واشتدّ تحذير الذهبي من الصوفية القائلين بالحُلول وبوحدة الوجود، و أكد أنّ ذلك " زندقة "، كما وجدنا مظاهر تحذير أخرى من الصوفية. بالإضافة إلى نقد المصنّف للفلاسفة وتحذيره الشديد من مصنَّفاتهم.

و كان تأييده لمنهج أهل الحديث جليًّا خاصة تأييده لعقيدة أهل الحديث في الصفات الإلهية وتوقيره للصحابة وأهل البيت و اعتدال موقفه من بني أُميّة. ولم ينخرط في مظاهر التعصب للمذاهب الفقهية والتراجم دالة على ذلك.

[1] – شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج 12، ص 500. و ج19، ص 344. و ج 18، ص 188، 189.

ثانيا- كتاب "الوافي بالوفيات" للصفَدي:

المصنِّف هو الفقيه المؤرِّخ الأديب الشاعر صلاح الدين أبو الوفاء خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي الشافعي الأشعري. وُلد في صَفَد سنة 696هـ/ 1296م، تعلّم في دمشق و وُلي عدّة وظائف سلطانية. له مصنَّفات عديدة في الأدب و التاريخ و غير ذلك، و أكثر من قول الشعر، و كانت وفاته في دمشق سنة 764هـ/ 1362م.[(1)]

و كتاب " الوافي بالوفيات" يُعدُّ من أبرز كتب التراجم، وهو مُصنَّف ضخم رتَّبه مؤلِّفه على حروف المعجم، اشتمل على أكثر من اثنتي عشرة ألف ترجمة، ترجم فيه المصنِّف للصحابة و التابعين و الخلفاء و الملوك و الأمراء و الوزراء و القضاة و الفقهاء و المُحدِّثين و القُرّاء والأدباء و الشعراء و الزهاد والصوفية و الفلاسفة و الأطباء و أصحاب النِّحَل. فـ " الوافي" كتاب عامّ في التراجم لا يختصّ بأعلام فترة محدَّدة من التاريخ الإسلامي، و لا أعلام مذهب أو عِلْم من العلوم. و افتتح الصفدي كتابه بمقدّمة تعرَّض فيها لعِلْم التاريخ و ذِكْر مختصر لسيرة النبي صلّى الله عليه وسلّم[(2)]. ونوضّح أثر النزعة المذهبية على " الوافي" في العناصر الآتية:

-أ- مواقف الصفدي من الباطنية:

تتضمن بعض التراجم في " الوافي" مظاهر استنكار من المصنِّف لعقائد وأعمال الباطنية؛ حيث ذكر – مثلا- في ترجمة عُبَيد الله المهدي أنّ "العُبَيديين يزعمون أنّ الله تعالى حلَّ في جسد آدم ونوح والأنبياء ثم حلّ في" أجساد " الأئمة... بعد علي بن أبي طالب..."؛ قال المصنِّف: "...وهذا كُفر صريح، تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّا كبيرا...، وكان المهدي زنديقا خبيثا عدوا للإسلام، قتل من الفقهاء و العلماء و المُحدِّثين جماعة كثيرة، ونشأت ذُرّيته على ذلك...، وقال القاضي عبد الجبار أنّ المهدي كان يتّخذ

---

(1) – تقي الدين المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج4 ، (تحقيق: محمد عطا)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1418هـ/ 1997م، ص 270. و صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج1، (مقدمة المحقّق)، ص 14، 15.

(2) – صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج1، (مقدّمة التحقيق)، ص 7، 9.

الجُهال و يُسلِّطهم على أهل الفضل...، و أكثر من الجور... وقتل الرجال. وكان له دُعاة يُضلّون الناس على قدر عقولهم؛ فيقولون للبعض هو المهدي... حُجّة الله على خلقه، و يقولون لآخرين: هو رسول الله ...، ويقولون لآخرين: هو الله الخالق الرازق.... و لمّا هلك قام ابنه القائم مكانه، و زاد شرّه على شرّ أبيه وجاهر بشتم الأنبياء، وكان يُنادى في الأسواق بالمهدية...: العنوا عائشة و بعلها، العنوا الغار وما حوى...". وقال المصنِّف بعدما أشار إلى هذه الزندقة: " اللهمّ صلّ على نبيِّك و أصحابه، و أزواجه الطاهرات، و العن الكَفَرة المُلحِدين، و ارحم من أزال دولتهم."[1]

و ذكر أنَّ الإسماعيلية لمّا تملّكوا في إفريقية سعوا إلى " تبديل الشريعة والسُّنن"، و نقل قول الذهبي عن داعية الإسماعيلية المعروف بهادي المستجيبين: "... داعية الحاكم صاحب مصر... ظهر أمره وبهر كُفره وسار في البوادي يدعو إلى عبادة الحاكم...، وسبّ الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وبصق على المصحف. ظفروا به وصلبوه و أحرقوه بمكة سنة عشر و أربعمائة." و لاحظنا أنّ المصنِّف ينقل أحيانا كلام الذهبي عن جرائم الإسماعيلية دون أن يشير إلى أنّ الكلام للذهبي، كما هو الحال في المثال الأخير. ونقل ما ورد في " تاريخ الإسلام" من ذمٍّ للقاضي النعمان المغربي و وصف لعقائد الإسماعيلية بالمذهب " الخبيث ".[2]

ويرى الصفدي عدم صحَّة نسب عُبَيد الله المهدي إلى عليّ (رضي الله عنه)، حيث قال ضمن ترجمة عُبَيد الله: "... وأكثر المحقِّقين يُنكرون دعواهم في هذا النسَب...، والمعروف أنّهم بنو عُبَيد...". و وظّف في عدّة مواضع لفظ " العُبَيدي" ونحوه كقوله: "...المستنصر العُبَيدي." و" العاضِد صاحب مصر... العُبَيدي." و"...انقضت دولة بني عُبَيد ملوك مصر." و"... دولة العُبَيديين." و رغم ما تقدّم فقد وظّف في مواضع أخرى لفظ " الفاطمي" أو "الفاطميين" في حديثه عن ملوك هذه الدولة؛ كقوله: "المهدي الفاطمي." و"العزيز بالله الفاطمي." و"...بعد انقراض دولة الفاطميين." و"الحافظ لدين الله... أحد ملوك الفاطميين."

---

[1] – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج19، ص 242، 243.

[2] – المصدر نفسه، ج 15، ص 159. و ج27، ص 95، 114. و ج 4، ص 6، 7.

بل نجد ضمن ترجمة واحدة قوله: " الظاهر بن الحاكم الفاطمي." ثم قوله: " الظاهر...ابن الحاكم العُبيدي."[1]

واشتمل " الوافي" على بعض مظاهر الذمّ للإسماعيلية الحشّاشين و القرامطة، ونجد هذا في إشارته إلى نشاط الحسن بن الصباح، و قوله عن سِنان بن سلمان مُقدَّم إسماعيلية الشام: "...أحلّ لقومه وطء المُحرّمات من أمهاتهم و أخواتهم و بناتهم...، هلك بحصن الكهف سنة تسع وثمانين و خمسمائة. وكان ... ذا قدرة على الإغواء و خديعة القلوب و العقول... واستخدام ...الغَفَلة...". وذكر المُصنِّف كلاما في معنى ما تقدّم في ترجمة داعٍ آخر من دعاة الباطنية، ووصف هؤلاء بـ " الملاحدة " عند ترجمته لبعض الأعلام الذين تمّ اغتيالهم على يد الحشّاشين، كما وصف "صاحب الخال" مُقدَّم القرامطة بالطاغية.[2]

وأشار في إحدى التراجم إلى عقيدة النُّصَيرية ثم قال في آخر ذلك: "... والجواب عن جميع ما ذكروه يظهر بأول وهلة لمن له أدنى فهم و مسكة من عقل."[3] و يمكن القول أنّ الصفدي أقلّ تعليقا على انحرافات الباطنية من الذهبي.

<u>– ب– مواقف المصنِّف من بقيّة الشيعة:</u>

وظّف الصفدي مصطلح " الرافضة " ومصطلح " الروافض" في تراجم كثير من غُلاة الشيعة. وهذان المصطلحان يتضمّنان التعبير عن الغُلوّ. وفي " الوافي" مظاهر استنكار عديدة لانحرافات الشيعة، مثل قول المصنِّف: "...محمد بن الحسن العسكري...، هو الذي تزعم الشيعة أنّه المنتظر القائم المهدي، وهو صاحب السرداب عندهم...". و قوله في ترجمة محمد الباقر: "... سيِّد بني هاشم في وقته...، ويعتقد قوم من الرافضة يُعرفون بالباقرية أنّه لم يمت...، و زعموا أنّه المهدي المنتظر...". وأشار إلى غلوّ كثير من

[1] – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج 19، ص85، 241، 242. و ج 11، ص 321. و ج 12، ص 193. و ج17، ص 365، 367. و ج 20، ص 73. و ج 22، ص 148. و ج27، ص 185.
[2] – المصدر نفسه، ج 15، ص 282، 283. و ج14، ص 81. و ج 4، ص 111. و ج7، ص 79.
[3] – المصدر نفسه، ج27، ص 63، 64.

الأعلام الشيعة، مثل قوله عن أحدهم: "...وهو رافضي جَلْد...". و قوله عن آخر: "... رأس الشيعة الغُلاة." وقوله ضمن ترجمة أبي جعفر الطوسي: "...لزم الشيخ المُفيد فتحوّل رافضيا." كما قال بشأن ابن الصاحب (سبق ذِكْره): "...كان رافضيا... شديد التعصب...، ظهر بسببه سبّ الصحابة رضي الله عنهم على ألسنة الفَسَقة الرافضة...". ونجد في " الوافي" عبارات أخرى؛ فقد قال المصنِّف – مثلا– عن الأمير يزدن التركي: "...كان من أمراء الدولة ببغداد، وكان شيعيا غاليا." وقال ضمن ترجمة علم آخر: "...كان من غُلاة الرافضة." وقال عن شيعي آخر: "... كان مريض العقيدة." ولم نُشِر إلى عدّة أمثلة أخرى.[1]

ومن الانحرافات الشيعية التي استنكرها المصنِّف الطعن في الصحابة فقد قال عن انحرافات إبراهيم بن سيار(النظام المعتزلي): "... ومنها ميله إلى الرَّفْض، و وقوعه في أكابر الصحابة رضي الله عنهم. وقال: نصّ النبي صلّى الله عليه وسلّم على أنّ الإمام علي و عيّنه، و عرفت الصحابة ذلك، ولكن كتمه عمر لأجل أبي بكر...". ثم قال المصنِّف: " نعوذ بالله من هوى مُضلٍّ وعقل يؤدّي إلى التديّن بهذه العقائد الفاسدة." وقال عن الشاعر ابن نما الحِلّي[2]: "... كان غاليا في التشيع، مُبالغا في الرّفْض، خبيث العقيدة مُجاهرا بتكفير الصحابة رضي الله عنهم."[3]

ونقل كلام الذهبي في تراجم كثير من غُلاة الشيعة؛ مثل تراجم أبي الفضل ابن أبي روح الطرابلسي والوزير ابن العَلْقمي ونجم الدين ابن مَلّي البعلبكي و محمد بن الحشيشي[4] الموصلي الذي عُرف بسبِّ أبي بكر وعمر رضي الله عنها.[5]

---

(1) – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج 2، ص 249، 230، 258، 192، 193. و ج 4، ص 77، 92. و ج27، ص 179. و ج 28، ص 52. و ج7، ص 133.

(2) – الشاعر أبو الحسن علي بن علي بن نما بن حمدون الحِلّي الشيعي المتوفى عام 579هـ/ 1183م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 630).

(3) – صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج 6، ص 14، 15. و ج21، ص 223.

(4) – هو شمس الدين محمد بن الحشيشي الموصلي " الرافضي" المتوفى عام 710هـ/ 1310م. (أنظر: المصدر نفسه، ج3، ص 18، 19).

(5) – المصدر نفسه، ج9، ص 25، 26. و ج1، ص 151. و ج7، ص 199، 200. و ج3، ص 18، 19.

و لم يُعلِّق المصنِّف في عدّة تراجم على ما نقله من انحرافات شيعية؛ فلم يُعلِّق – مثلا– على اتهام الشريف الرضي لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ببغض علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). ولم يُعلّق على طعن اسفنديار بن الموفَّق البغدادي في أبي بكر وعمر. كما لم يُعلّق على أبيات نقلها في إحدى التراجم تتضمن الطعن في الصحابة. و يمكن القول أنّ الذهبي أكثر تعليقا على انحرافات الشيعة من الصفدي، وأشدّ ذمّا لهم. و نشير في آخر هذا العنصر إلى أنّ المصنِّف قد نبّه في تراجم بعض أعلام الشيعة إلى عدم سبّهم الصحابة، وهذا من الإنصاف.[1]

-ج- مواقف المصنّف من الخوارج و الناصِبة:

نقل الصفدي ضمن حديثه عن بعض أعلام الخوارج كلام الذهبي في التعليق على انحرافاتهم، كما هو الحال في ترجمة عبد الرحمان بن مُلجم. ونقل كلام ابن أبي الدم[2] عن الخوارج العجاردة خاصة وصفه لمقالاتهم بـ" المذاهب الباطلة "، و قوله: "...اختلفوا في بعض فروع بِدَعهم وضلالاتهم." وذكر الصفدي أنّ طائفة الخوارج الثعالبة[3] انقسمت إلى عدّة فِرَق متقاربة في " الضلالات". وقال في إشارته إلى بداية ظهور الخوارج: "... شقوا عصا الإسلام ونصبوا راية الخلاف وسفكوا الدماء...".[4]

وقد أشار ضمن تراجم بعض الناصِبة إلى ما كانوا عليه من النَّصْب، ولم يُعلِّق على ذلك في الغالب لكنَّه نقل عبارات عن غيره تتضمن الإنكار عليهم. و لاحظنا أنّ الذهبي و ابن كثير كانا أشدّ ذمّا لقَتَلة الحسين بن علي من الصفدي، و يتّضح ذلك من خلال ترجمة الحسين (رضي الله عنه) و تراجم بعض

---

(1) – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج 2، ص 277. و ج9، ص 30. و ج 22، ص 215، 216. و ج4، ص 69.

(2) – الفقيه شهاب الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن علي الحَمَوي الشافعي المعروف بابن أبي الدم. توفي سنة 642هـ/ 1244م. (أنظر: شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج7، ص 370).

(3) – فِرقة من الخوارج ظهرت خلال النِّصف الثاني من القرن الهجري الأول (ق 7م)، تنسب إلى خارجي يُعرف بثعلبة بن عامر، لم نقف على سنة وفاته. (أنظر: صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج11، ص 11. و خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج7، ص 341).

(4) – المصدر نفسه، ج 18، ص 172. و ج 19، ص 58. و ج11، ص 11. و ج21، ص 181).

قتلته. و نشير إلى أنّ المصنِّف قد أثنى في تراجم عديدة على أعلام أهل البيت. [1]

-د- مواقف المصنِّف من أهل الكلام:

لقد نقد الصفدي في تراجم للمعتزلة بعض مقالاتهم، ونجد هذا في تراجم كلٍّ من واصل بن عطاء و بِشْر بن المعتمر الكوفي[2] و ثُمامة بن أشرس النُمَيري و القاضي عبد الجبار بن أحمد، و في ترجمة أبي علي الجُبائي، وتراجم كلٍّ من أبي الهُذيل العلاّف و إبراهيم بن سيّار المعروف بالنَّظّام المعتزلي وهشام بن عمرو الفوطي. و أشار إلى أبيات نظمها الشاعر عزّ الدين ابن أبي الحديد[3] المعتزلي تتضمن نقد فخر الدين الرازي (الأشعري)، ثم نَظم الصفدي قصيدة في نقد المعتزلة وهجاء ابن أبي الحديد. واكتفى المصنِّف في بعض تراجم المعتزلة بالإشارة إلى اعتزال المترجم له؛ كقوله: "... كان معتزليا." أو "...كان يذهب إلى مذهب المعتزلة "، ونحو هذا.[4]

وأبدى الصفدي – وهو أشعري– ضمن تراجم كثيرة تأييده للعقيدة الأشعرية، كما هو الحال في تراجم بعض دعاة الأشاعرة، ومنهم أبو الفتح نصر الله الأشعري[5] و أبو نصْر عبد الرحيم بن عبد الكريم القُشَيري و فخر الدين الرازي ومحمد بن محمد البروي وعلي بن القاسم القسنطيني، ومنهم كذلك القاضي تقي الدين السُّبكي و جمال الدين ابن جُملة الدمشقي وصفي الدين الهندي نزيل دمشق. و وصف أهل الحديث في إحدى التراجم بما يتضمن اتهامهم بقلّة الفهم – بزعمه–، وهو مستند في ذلك إلى خلفيته

---

(1) – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج15، ص 67. و ج 6، ص 109. و ج12، ص 264.

(2) – هو أبو سهل بِشْر بن المعتمر الكوفي ثم البغدادي المعتزلي، أحد دعاة المعتزلة، توفي سنة 210هـ/ 825 م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، ج10، ص 203).

(3) – الشاعر عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن محمد بن الحسين المدائني المعتزلي الشيعي المتوفى في بغداد عام 655هـ/ 1257م. (أنظر: عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 243).

(4) – صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج27، ص 247. و ج11، ص 16. و ج18، ص 22، 46، 47. و ج 4، ص 55، 166. و ج 5، ص 107. و ج 26، ص 68.

(5) – أبو الفتح نصر الله بن محمد بن عبد القوي الشافعي الأشعري المتوفى في دمشق عام 542هـ/ 1147م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج11، ص 816).

العقدية الأشعرية.[1]

ونرى أنّ المصنِّف لم يتأثّر في كتابه تأثّرا قويا باعتقاده الأشعري، والأمثلة الدالّة على هذا كثيرة؛ منها أنه أشار إلى تحذير ابن حزْم من أبي جعفر السمناني الأشعري، ولم يُعلِّق على ذلك. ومنها ذِكْره لِما ألّفه ابن تيمية في الردّ على الأشاعرة مع عدم التعليق على ذلك؛ فذكر من مؤلفاته "الاعتراضات المصرية على الفُتيا الحَمَوية " و"بيان تلبيس الجَهمية " (ردٌّ على كتاب لفخر الدين الرازي) و " تحقيق كلام الله لموسى" و" جواب في الاستواء و إبطال تأويله بالاستيلاء." و أشار إلى نقد ابن تيمية لأبي حامد الغزالي والفخر الرازي. و لخّص مِحَن ابن تيمية و خلافه مع الأشاعرة في دمشق والقاهرة دون تحامل. كما أشار في عرضه لمؤلفات ابن القيِّم إلى القصيدة التي تُعرف بـ " الكافية الشافية "، والمتضمِّنة تأييد منهج أهل الحديث. و أشار ضمن ترجمة الشهاب الطوسي الأشعري إلى ما كان يجري بينه وبين ابن نُجَيّة الحنبلي "من السِّباب" نتيجة الخلاف العَقدي، ولم يُعلّق الصفدي على ذلك. وذكر من مؤلفات الموفق ابن قُدامة كتبا تتضمن نقد العقيدة الأشعرية خاصة كتاب " ذم التأويل". و أشار في ترجمة أبي الفرج الشيرازي الحنبلي إلى ما كان يتمّ بينه و بين الأشاعرة من مناظرات، ولم يُعلّق على ذلك، كما لم يُعلّق على أمر علي بن يوسف بن تاشفين بإحراق كتب أبي حامد الغزالي لما أُدخلت إلى بلاد المغرب. و تشتمل بعض التراجم على أمثلة أخرى.[2]

وممّا يدلّ على أنّ تأثير العقيدة الأشعرية عليه في كتابه لم يكن قويا ثناؤه على كثير من أعلام أهل الحديث، ومنهم من عُرف بالردّ على الأشاعرة؛ حيث أثنى – مثلا– على عبد الغني المقدسي و أبي عبد الله ابن منده الأصبهاني و شمس الدين محمد ابن أبي عمر الصالحي و ابن القيِّم و مجد الدين ابن تيمية وتقي الدين ابن تيمية و الموفق ابن قُدامة و القاضي محمد بن مُسَلَّم الصالحي وشرف الدين ابن تيمية

[1] – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج27، ص7. و ج 18، ص 200. و ج 4، ص 177. و ج 21، ص 257. و ج 29، ص35. و ج 3، ص 136، 137.

[2] – المصدر نفسه، ج2، ص 48، 196. وج7، ص13، 15، 16، 17. وج17، ص 23. وج19، ص 182. وج22، ص 213.

وغيرهم كثير.[1]

ونقل الصفدي عن غيره في تراجم قليلة مظاهر تحامل من بعض الأشاعرة على أهل الحديث أو أعلام منهم دون تعليق على ذلك؛ حيث ذكر – مثلا– أنّ زكي الدين ابن رواحة الأشعري واقف المدرسة الرواحية شرَط ألاّ يدخل مدرسته يهودي و لا نصراني و لا حنبلي، فنلاحظ أنّ بغض هذا الواقف للحنابلة حَمَله على اعتبارهم – بجهله– مثل اليهود و النصارى. و نقل الصفدي اتهام بعض الأشاعرة لأبي يعلى الفراء بالتشبيه وكان بريئا منه.[2] كما نقل تحامل ياقوت الحَمَوي (الأشعري) على المُحدِّث ابن ناصر البغدادي حيث وصفه " بالجهل وقلّة العقل"، وذلك بعدما أشار إلى مخالفته للأشاعرة في قولهم بالكلام النفسي، و إلى تحوّله عن الاعتقاد الأشعري إلى عقيدة أهل الحديث.[3]

-هـ- مواقف المصنِّف من الصوفية والفلاسفة:

لقد نبّه الصفدي في مواضع قليلة من كتابه على انحرافات القائلين بالحُلول و وحدة الوجدود؛ حيث قال عن الحلاّج: "... ومن نظر في مجموع أمره علم أنّ الرجل كان كذابا مُموِّها ...حُلوليا، له كلام يستحوذ به على نفوس جُهّال العوام حتى ادعوا فيه الربوبية." و قال بعدما ذكر أبياتا للشاعر نجم الدين ابن إسرائيل في وحدة الوجود: "...أكثر شعره المشؤوم مملوء من هذه المقاصد." و قال في ترجمة الحسن بن عدي الصوفي الذي له قصائد في وحدة الوجود: "... وله ديوان شعر فيه شيء من الإلحاد." كما قال ضمن ترجمة ابن سبعين: "...اجتمعت بجماعة من أصحاب أصحابه، و رأيتهم ينقلون عن أولئك أنّ ابن سبعين كان يعرف السيمياء...". لكنّ الصفدي حاول التماس العذر لابن عربي لما أشار إلى كتابه

---

[1] – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج19، ص 21. و ج3، ص 22. و ج2، ص 196، 134. و ج17، ص 23، 24. و ج7، ص 11، 14. و ج5، ص 20.

[2] – فممّا يدل على ذلك قوله عن أخبار الصفات: " المذهب في ذلك قبول هذه الأحاديث على ما جاءت به من غير عدول عنه إلى تأويل يخالف ظاهرها، مع الاعتقاد بأنّ الله سبحانه بخلاف كلّ شيء سواه، وكلّ ما يقع في الخواطر من تشبيه... فالله يتعالى عن ذلك، والله ليس كمثله شيء، لا يوصف بصفات المخلوقين". (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج10، ص 107، 108.)

[3] – صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج27، ص 191، 192. و ج3، ص 8. و ج5، ص 72، 73.

" فُصوص الحِكَم"[1]، وهو كتاب يُبيّن شدَّة انحراف الاتحادية ومنهم ابن عربي؛ فمِن ادعاءات هذا الأخير في الكتاب المذكور أنّ فرعون مات " طاهرا مُطهّرا ليس فيه شيء من الخبث"، وأنّه كان على صواب في ادعائه الربوبية، و أنّ عُبّاد الأصنام إذا تركوا عبادتها " جهلوا من الحقّ على قدر ما تركوا من " الأصنام إلى غير ذلك من الهذيانات.[2]

ونقل المصنِّف في عدّة تراجم بعض الادعاءات التي يعتبرها الصوفية كرامات دون إنكارها؛ فقد قال – على سبيل المثال – في ترجمة الحارث بن أسد المُحاسبي: "... ويُحكى عن المُحاسبي أنّه كان إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرّك على أصبعه عِرق، فكان يمتنع منه." و نقل في ترجمة أحد أعلام الصوفية قول أبي عبد الرحمان السُّلمي الصوفي: "... يُقال إنّه كان يرى الخَضِر ويسأله عن مسائل."[3]

وعلّق المصنِّف في تراجم قليلة بما يتضمن التحذير من علوم الأوائل؛ فقد قال عن الشاعر ابن هانئ الأندلسي: "... وكان مُنهمكا على اللذات متّهَما بمذهب الفلاسفة." وقال في ترجمة أحد الأعلام: "... رُمي بالتشيع و رأي الأوائل...". وقال في ترجمة عَلَم آخر: "... كان ... يُرمى بشيء من مذهب الفلاسفة". وأشار إلى ما كتبه أبو العلاء المَعَرّي في " الاستخفاف بالنُّبُوات". وقال بشأن ابن ناقيا[4]: "...كان مطعونا عليه في دينه و عقيدته." ونقل قول الذهبي فيه: " ...إلاّ أنّه كان مُعَثَّرا...، يطعن على الشريعة و يذهب إلى رأي الأوائل." و لم نجد للمصنِّف تعاليق في عدّة تراجم للفلاسفة.[5]

---

[1] – صلاح الدين الصفدي، المصدر السابق، ج 13، ص 47. و ج3، ص 121. و ج 12، ص 64. و ج 18، ص 38.

[2] – برهان الدين البقاعي، **تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي**، ج1، (تحقيق: عبد الرحمان الوكيل)، مكتبة الباز، مكة، د ت، ص 51، 128، 133.

[3] – صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج11، ص 198. و ج 10، ص 177.

[4] – الشاعر عبد الباقي بن محمد بن الحسين بن داود بن ناقيا البغدادي المتوفى عام 485 هـ/ 1092م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج10، ص 545).

[5] – صلاح الدين الصفدي، المصدر نفسه، ج1، ص 260. و ج21، ص 138. و ج 22، ص 152. و ج 18، ص 11. و ج1، ص 102، 404. و ج 12، ص 175.

-استنتاج:

تضمَّنت بعض التراجم في " الوافي" مظاهر استنكار من المصنِّف لانحرافات الشيعة و الخوارج و الناصِبة. و إذا قارنا كتابه بمصنَّفات الذهبي و ابن كثير وجدنا الصفدي أقلّ تعليقا على الانحرافات وأقلّ ذمّا لأصحابها. و نجد في " الوافي" بعض النقد للمعتزلة، ومظاهر من تأييد المصنِّف – وهو أشعري– للأشاعرة. ولم يكن تأثير العقيدة الأشعرية قويا على كتابه عكس ما وجدناه في "طبقات الشافعية الكبرى" للسُّبكي. و لاحظنا أنّ المصنِّف لم ينقل الرسائل التي أُلّفت في شرح العقيدة الأشعرية، و هذا نجده في كتاب السُّبكي. و نبّه الصفدي في مواضع قليلة على انحرافات القائلين بوحدة الوجود، وتضمَّنت بعض التراجم ما يدلُّ على تحذيره من علوم الأوائل، لكنّ الذهبي كان أشدّ تحذيرا من الاتحادية و الفلاسفة و أكثر تعليقا على عقائدهم.

ثالثا- كتاب " وفيات الأعيان " لابن خلِّكان:

ابن خلّكان هو الفقيه الأديب المؤرِّخ القاضي شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكرة بن خلِّكان البَرمكي الإربلي الشافعي. يتَّصل نسبه بالبَرامكة، ولد بإربل سنة 608هـ/ 1211م ونشأ فيها وتعلّم، سافر في طلب العلم إلى الموصل و حرّان، و ارتحل عام 626هـ/ 1229م إلى حلب ودرس الفقه و اللغة، و التقى بالمؤرِّخ ابن الأثير وجعل يتردد إليه حتى سافر ابن الأثير إلى دمشق سنة 628هـ/ 1230م. وفي سنة 632هـ/ 1234م انتقل ابن خلِّكان إلى دمشق فأخذ عن ابن الصلاح الذي كان يُدَرِّس بالرواحية، ولذلك يُعدّ ابن الصلاح من أبرز شيوخه. و رجع بعد ذلك إلى حلب، ثم سافر قاصدا مصر فدخلها سنة 636هـ/ 1238م واستقرّ فيها. و في عام 659هـ/ 1261م ولي قضاء الشام فانتقل إلى دمشق و باشر عمله حتى سنة 669هـ/ 1270م، حيث عُزل خلال السنة المذكورة، لكنّه وُلي

مرة أخرى في أواخر عام 676هـ/ 1277م، ثم عُزل سنة 680هـ/ 1281م. و درس بالمدرسة الأمينية إلى أن توفي سنة 681هـ/ 1282م.[1]

و كتاب " وفيات الأعيان" كتاب تراجم سمّاه المصنِّف " وفيات الأعيان وأَنْباء أَبْناء الزمان ممّا ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته العيان." و رتّبه على حروف المعجم، وعدد التراجم التي اشتملها أقلّ ممّا في "سِيَر أعلام النبلاء" و" الوافي بالوفيات"، حيث قال ابن خلِّكان في مقدمة كتابه: "... و لم أذكر في هذا المُختصَر أحدا من الصحابة رضوان الله عليهم و لا من التابعين إلاّ جماعة يسيرة...، وكذلك الخلفاء لم أذكر أحدا منهم اكتفاء بالمصنَّفات الكثيرة في هذا الباب.... و لم أقصر هذا المُختصَر على طائفة مخصوصة مثل العلماء أو الملوك أو الأمراء أو الوزراء أو الشعراء، بل كل من له شهرة بين الناس و يقع السؤال عنه ذكرته...". لكنَّ المصنِّف لم يترجم لعدد من العلماء المشاهير، نذكر منهم أبا الخطاب الكلوذاني و الموفق ابن قُدامة و عبد الغني المقدسي.[2]

ومن خلال اطلاعنا على " وفيات الأعيان" لاحظنا أنّ المصنّف لا يعلِّق – في الغالب – على عقائد و نشاط فِرَق الشيعة، ولا يشير إليها إلاّ في مواضع قليلة، ويتضح هذا من خلال تراجم ملوك الإسماعيلية مثل عُبَيد الله المهدي و القائم بن عُبَيد الله و المُعزّ بن المنصور و العزيز بن المُعزّ، وتراجم أمرائهم مثل جوهر الصقلي، و قضاتهم لا سيما القاضي النُّعمان. ولم يُشِر إلى اضطهاد الملوك المتقدَّم ذِكْرهم لأهل السُّنة لا سيما في أوائل دولتهم، وما عُرفوا به من انحراف عَقَدي، وذلك مشهور مستفيض. ونشير هنا إلى ملاحظة ذكرها ابن كثير في تاريخه عن ابن خلِّكان، حيث قال: "... والزنادقة يترك ذِكْر زندقتهم."[3]

ونجد في مواضع قليلة إشارات موجزة من المصنِّف لانحرافات الإسماعيلية؛ فقد أشار ضمن كلامه

---

[1] – شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج15، ص 444، 445. وعماد الدين ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، ص 330. وخير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 220. و شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، (مقدمة المحقق)، ص 5، 6.

[2] – شمس الدين ابن خلكان، المصدر نفسه، ج1، ص 19، 20، 21.

[3] – المصدر نفسه، ج 3، ص 119، 120. و ج 5، ص 19، 20، 416، 230، 375. و ج 2، ص 191، 192. و عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج 6، ص 166.

عن العاضِد إلى ما كانوا عليه "من انحلال العقيدة...، وكثرة الوقوع في الصحابة والاستهتار بذلك." وقال أيضا: "... و كان العاضِد شديد التشيع متغاليا في سبِّ الصحابة رضوان الله عليهم...". كما قال في ترجمة العزيز بن المُعزِّ: "... كانوا يَدّعون علم المغيبات، و أخبارهم في ذلك مشهورة." وقال عن الحاكم: "... وكانت سيرته من أعجب السِّيَر، يخترع كلَّ وقت أحكاما يحمل الناس على العمل بها...". ثم قال بعدما ذكر مقتله: "...مع أنّ جماعة من المُغالين في حبِّهم، السخيفي العقول يظنّون حياته، وأنّه لا بدّ أن" يظهر" و يحلفون بغيبة الحاكم، وتلك خيالات هذيانية...".[1]

و أشار في إحدى التراجم إلى اعتراض القرامطة بقيادة أبي طاهر القرمطي لقافلة حُجاج سنة 311هـ/ 923 م ثم قال: "... و القرامطة... لهم مذهبٌ مذمومٌ، وكانوا قد ظهروا... في خلافة المُعتضِد بالله وطالت أيامهم وعظمت شوكتهم وأخافوا السبيل...". ونقل وصف أحد العلماء للإسماعيلية الحشّاشين بـ "الملاحدة." [2]

و تطرَّق ابن خلّكان إلى ذِكْر الخلاف المعروف في نسب عُبَيد الله المهدي، ومال إلى عدم صحة نسبه إلى عليّ (رضي الله عنه) حيث قال: "... وأهل العلم بالأنساب من المحقِّقين يُنكرون دعواه في النسَب " العلوي، ولذلك فقد أكثر المصنِّف من استخدام مصطلح "العُبَيدي" ونحوه في حديثه عن أحفاد عُبَيد الله كقوله: " المُعزّ بن المنصور العُبَيدي". و" الظافر العُبَيدي صاحب مصر". و قوله: "... العاضِد ...آخر ملوك مصر من العُبَيديين." وقوله عن البساسيري: "خطب للمستنصر العُبَيدي صاحب مصر."[3]

أمّا فيما يتعلَّق بالشيعة غير الباطنية فإنّ المصنِّف لا يُعلِّق أيضا – في الغالب– على عقائدهم باستثناء بعض الإشارات القليلة؛ حيث قال بشأن اعتقادهم في محمد بن الحسن العسكري: "...المعروف بالإمام المُنتظر على زعمهم...". و قال: "... وهو الذي تزعم الشيعة أنَّه المنتظر و القائم والمهدي، وهو

---

[1] – شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق، ج3، ص 110، 111. و ج5، ص 374، 293، 298.

[2] – المصدر نفسه، ج 4، ص 335. و ج3، ص 199.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص 286، 192. و ج3، ص 117، 118، 109، 110.

صاحب السرداب عندهم، و أقاويلهم فيه كثيرة...". و قال في ترجمة الحسن العسكري: "...أحد الأئمة الإثني عشر على اعتقاد الإمامية." وذكر أنّ بعض الشيعة زعموا أنّ محمد بن الحنفية لم يمت وأنه مُقيم بجبل رضوى.[1]

وقد اتُّهم أحد المصنِّفين ابن خلِّكان بالتشيّع، و يبدو أنّ مضمون تراجم ملوك الإسماعيلية وبعض المقرّبين منهم من أسباب ذلك، كما هو الحال بالنسبة لترجمة عُبَيد الله المهدي وابنه القائم؛ حيث لم يذكر ما تضمنته سِيَرهما من البلايا التي تقدَّم الكلام عن بعضها وترحّم عليهما. غير أنّنا نُشير من ناحية أخرى إلى أن ابن خلِّكان قد تَرَضّى في حديثه عن وقعة الجمل على عائشة (رضي الله عنها) وعلى طلحة و الزبير(رضي الله عنهما)، و ذلك يُخالف موقف الإثني عشرية، بالإضافة إلى ترضّيه في عدّة مواضع عن الصحابة عموما.[2]

ونبّه في تراجم قليلة بعبارات موجزة إلى ما عُرِف به بعض الأعلام من النَّصْب، ولم يُشِر إلى ذلك في تراجم أخرى لبعض الناصِبة؛ كما هو الحال في ترجمة الحجّاج بن يوسف. ونشير إلى أنّ ابن خلِّكان قد نقل فتوى لإلكيا الهراسي في جواز ذمّ يزيد بن مُعاوية، ثم نقل فتوى أخرى لأحد الفقهاء مخالفة لفتوى الهراسي.[3]

ولم يُعلِّق المصنِّف على ما أشار إليه من معطيات متعلِّقة بالمعتزلة إلاّ تلميحات قليلة كقوله عن بِشْر المَريسي:"... إلاّ أنّه اشتغل بالكلام وجرّد القول بخلق القرآن، وحُكي عنه في ذلك أقوال شنيعة." وقوله في ترجمة أحد الأعلام: "كان يُتّهَم بالاعتزال." ونلمس في ترجمته للمتوكِّل نوعا من التنويه برفعه مِحنة خلق القرآن. وذكر المِحنة التي تعرّض لها أحمد بن حنبل و البويطي على يد المعتزلة ولم يُعلِّق على ذلك.[4]

---

[1] – شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق، ج 3، ص 236. و ج 4، ص 173، 176. و ج 2، ص 94.

[2] – المصدر نفسه، ج5، ص 20، 416. و ج 3، ص 118، 119، 16. و ج7، ص 55، 60، 195.

[3] – المصدر نفسه، ج 3، ص 365، 288. و ج 6، ص 127، 128. و ج 2، ص 53.

[4] – المصدر نفسه، ج 1، ص 277، 351، 964. و ج 3، ص 189. و ج7، ص 61، 62.

و رغم أنّ المصنِّف له ميل إلى المذهب الأشعري إلاّ أنّه لم يتحامل على أهل الحديث، وهذا عنصر إيجابي، ويتّضح هذا من تراجم علماء أهل الحديث كترجمة ابن ناصر البغدادي، وتراجم بعض دُعاة الأشاعرة و منهم إلكيا الهراسي وعزيزي بن عبد الملك ومحمد بن محمد البروي ونجم الدين الخبّوشاني.[1]

وقد ترجم للشاعر ابن الفارِض – وهو من رؤوس الاتحادية– ولم يذكر اعتقاده في وحدة الوجود رغم أنه أشار إلى ديوانه. وهذا بخلاف ما وجدناه في مصنَّفات الذهبي من حِرص على التحذير من الاتحادية فقد قال عن ديوان ابن الفارِض: "... شانه بالتصريح بالاتحاد الملعون...". وقال عن إحدى قصائده: "... فإن لم يكن في تلك القصيدة صريح الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده فما في العالم زندقة ولا ضلال، اللهمّ ألهمنا التقوى وأعذنا من الهوى، فيا أئمة الدين ألا تغضبون لله؟ فلا حول ولا قوّة إلاّ بالله."[2]

ونقل ابن خلّكان عن غيره بعض المزاعم الصوفية التي اعتُبرت كرامات لبعض الأعلام، ونكتفي بإيراد مثال واحد منها، حيث ذكر المصنِّف أنّه سمع بعض مشايخ الرِّفاعية يقولون: " ما سبب لطافة شِعر ابن المعلم[3] إلاّ أنّه كان إذا نظَم قصيدة حفظها الفقراء" – أي الصوفية – " المنسوبون إلى الشيخ أحمد بن الرِّفاعي...، و غنّوا بها في سماعاتهم و طابوا عليها، فعادت عليه بركة أنفاسهم، و رأيتهم يعتقدون ذلك اعتقادا لا شكّ فيه عندهم."[4]

ويلاحظ الدارس لـ " وفيات الأعيان" أنّ المصنِّف لا يشير إلى انحرافات الفلاسفة، ويتّضح هذا من خلال عدّة تراجم منها ترجمة ابن سينا، فلم يذكر ما عُرِف به هذا الأخير من مقالات، خاصة ادعاءه أنّ الله تعالى لا يعلم الجزئيات، ونفيه "المعاد الجثماني" (يقول بمعاد الأرواح فقط وينكر حشر الأجساد). ومن التراجم التي تدلّ على الملاحظة السابقة تراجم الفارابي وأبي حيان التوحيدي وأبي العلاء المَعَرّي؛ فقد

---

(1) – شمس الدين ابن خلّكان، المصدر السابق، ج 4، ص 225، 226. و ج 3، ص 260. و ج 4، ص 240.

(2) – المصدر نفسه، ج 3، ص 454، 455. و شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج14، ص 76. و**السِّيَر**، ج22، ص 368.

(3) – الشاعر أبو الغنائم محمد بن علي بن فارس بن علي الواسطي المعروف بابن المُعلِّم، وُلد سنة 551هـ/ 1156م، و توفي سنة 592هـ/ 1196م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج12، ص 985).

(4) – شمس الدين ابن خلّكان، المصدر نفسه، ج5، ص 5.

أشار إلى ديوان هذا الأخير و لم يذكر ما تضمّنه من الاستهزاء بالرُّسل عليهم السلام وبالإسلام. ولم يُنبّه المصنِّف على بلايا ابن الراوندي[1] الذي صنَّف كتابا في نفي وجود الله تعالى، و "صنّف كتابا في الرد على القرآن...، وكتابا في الردّ على الشريعة والاعتراض عليها..."؛ ولذلك عُرف ابن الراوندي بـ "المُلحد" وقد أطبق العلماء على ذمّه، ومنهم الذهبي حيث قال: "...الرِّيوندي المُلحد صاحب الزندقة...". وقال: "... المُلحد عدوّ الدين... صاحب التصانيف في الحطِّ على المِلّة...". وقال ابن كثير: "...ابن الراوندي ... أحد مشاهير الزنادقة المُلحدين...، أورد ابن الجَوْزي في منتظمه طرفا من كلامه و زندقته و طعنه على الآيات والشريعة، و ردّ عليه في ذلك. وهو أقلّ و أخسّ و أذلّ من أن يُلتفَت إليه و إلى جهله وكلامه وهذيانه ...". وقال أبو الوفاء ابن عقيل: " وقد صنَّف " كتاب " الدامغ يزعم أنه قد دمغ به القرآن" وكتاب " الزمرد يزري به على النُّبُوات...". وقال الذهبي أيضا: "...ألّف لليهود والنصارى يحتجّ لهم في إبطال نُبوّة سيِّد البشر" صلّى الله عليه و سلّم. وفصّل ابن الجوزي في ذِكْر جرائم ابن الرِّيوندي.[2]

ونشير إلى أنّ ابن كثير قد نقد ابن خلِّكان بشأن ترجمة ابن الرِّيوندي حيث قال: "... وقد ذكره القاضي ابن خلِّكان في الوفيات... و لم يُجرّحه بشيء...". وقال في موضع آخر: "... ولم يُجرِّحه بشيء أصلا بل مدحه...". [3]

ولم نقف على تنبيهٍ جليٍّ من المصنِّف على انحرافات الفلاسفة إلاّ ضمن ترجمة شهاب الدين السُّهروردي المقتول؛ فممّا قال عنه: "... وأكثر الناس على أنّه كان مُلحدا لا يعتقد شيئا، نسأل الله العفو

---

[1] - تقدم ذِكره، وهو فيلسوف مُجاهر بالإلحاد و الاستهزاء بكتاب الله تعالى، و قد ذمّه العلماء، و ردّ بعضهم على كلامه، و منهم ابن الجَوزي الذي ذكر في " المنتظم " بعض كلام هذا المُلحد الأفاك في الاستهزاء بالله عزّ و جلّ والاستهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج6، ص 902. و خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج1، ص 267).

[2] - شمس الدين ابن خلكان، المصدر السابق، ج 2، ص 160. و ج5، ص 113، 153. و ج1، ص 113، 94، 95. و عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج6، ص 165، 440، 470. و صلاح الدين الصفدي، الوافي، ج7، ص 66، 67. و شمس الدين الذهبي، المصدر نفسه، ج9، ص 724، 725. و **السِّيَر**، ج14، ص 59، 60. و عبد الرحمان ابن الجوزي، **المنتظم**، ج13، ص 108، 110).

[3] - عماد الدين ابن كثير، المصدر نفسه، ج 6، ص 52، 166.

و العافية و المُعافاة الدائمة في الدين و الدنيا و الآخرة."[1]

ونرى من خلال اطِّلاعنا على هذا الكتاب أنّ ابن خلِّكان – وهو فقيه شافعي – لم يتحامل على فقهاء المذاهب الفقهية الثلاثة الأخرى الذين ترجم لهم، وذلك عنصر إيجابي. إلاّ أنّه نقل من كتاب فقهي لأبي المعالي الجُويني الشافعي ما يتضمن الاستهزاء من كيفية الصلاة في المذهب الحنفي، ولم يُعلِّق المصنِّف على ذلك. وقد أشار إلى هذا الاستهزاء كلٌّ من السُّبكي في طبقاته و الصفدي في " الوافي"، فأمّا السُّبكي فإنّه لم يستنكره، و أمّا الصفدي فقد أبدى شيئا من الاستنكار.[2]

و يمكن القول في آخر هذا المبحث أنّ قلَّة التعاليق على المعطيات المتعلِّقة بالمذاهب والفِرَق سِمة بارزة في " وفيات الأعيان"، وهذا بخلاف ما نجده في مصنَّفات الذهبي و ابن كثير. و رغم ميل المصنِّف إلى المذهب الأشعري فإنّه لم يتحامل على علماء أهل الحديث الذين ترجم لهم أو ذكرهم ضمن التراجم عكس ما نجده في طبقات السُّبكي و تاريخ اليافِعي.

رابعا– كتابا " الوفيات" للبِرزالي و "الوفيات" لابن رافع:

البِرزالي هو المُحدِّث " الحافظ" الفقيه المؤرِّخ عَلَم الدين أبو محمد القاسم بن محمد بن يوسف بن زكي الدين محمد البِرزالي الدمشقي. و البِرزالي: نسبة إلى بني برزال (قبيلة في الأندلس). قدم جدُّه الأكبر " الحافظ زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن أبي يداس الإشبيلي من الأندلس إلى بلاد المشرق سنة 602هـ/1205م فتَجوّل بأقاليمها في طلب الحديث، ثم استقرّ في دمشق و سمع منه كثير من المُحدِّثين. وكانت وفاته عام 636هـ/1238م في حَماة. أما عَلَم الدين فإنَّه وُلد في دمشق عام 665هـ/ 1266م ونشأ فيها واهتمّ بالحديث، فارتحل في طلبه إلى حلب و حَماة و القدس ومصر والحجاز، ودرّس في بعض مدارس دمشق، و صنّف عدة كتب منها " الوفيات ". و في سنة 739هـ/ 1338م سافر للحج

---

[1] – شمس الدين ابن خلِّكان، المصدر السابق، ج6، ص 273.

[2] – المصدر نفسه، ج5، ص 180، 181. و تاج الدين السُّبكي، المصدر السابق، ج5، ص 316. و صلاح الدين الصفدي، **الوافي**، ج17، ص 28. و خالد كبير علال، **التعصب المذهبي**، ص 22، 23.

فتوفي في الحِجاز في موضع بين مكة و المدينة. و كان البِرزالي شافعيا على منهج أهل الحديث.(1)

و أَرَّخ لوفيات الفترة الممتدة من سنة 665هـ/ 1266م إلى سنة 738هـ/ 1337م لكنّ كتابه ضاع باستثناء جزء منه يشتمل على وفيات عشر سنوات (709-718هـ/ 1309- 1318م). و رتّب البِرزالي الوفيات على حسب السنين؛ حيث يذكر وفيات السنة ثم ينتقل إلى السنة الموالية. و رتّب وفيات كلِّ سنة حسب الأشهر؛ فيذكر وفيات المُحرّم، ثم ينتقل إلى وفيات صفر وهكذا.... كما يُشير إلى بعض الحوادث التي شهدتها السنة. و لم يكتف بالترجمة للمشاهير؛ ولذلك تفرّد بذِكْر عدد من التراجم دون غيره من المصنِّفين، وتضمن كتابه تفاصيل عن الحياة العلمية والاجتماعية.(2)

ونظرا لتوفر جزء واحد لدينا فإننا لم نقف على كافة مظاهر النزعة المذهبية في "الوفيات"، لكنّ الجزء المذكور تضمَّن تعاليق متعلِّقة بالشيعة؛ فقد أبدى البِرزالي تألّمه من تبني ملِك التتار خربندا عقائد الإثني عشرية (سنة 709هـ/ 1309م) حيث قال: "... في آخر ذي القعدة بلغنا أنَّ ملِك التتار خربندا أظهر الرّفْض في مملكته...، وحصل وهن عظيم لأهل السُّنة، فلا حول ولا قوة إلاّ بالله." وأظهر استبشاره بتولّي أبي سعيد بن خربندا المُلْك (سنة 716/ 1316م) بعد وفاة أبيه، حيث قال: "...وفرح المسلمون أهل السُّنة والجماعة بما يسَّره الله عزَّ وجلَّ عند موت خربندا... من إعزاز أهل السُّنة...". أشار المصنِّف إلى مهاجمة النُّصَيرية مدينة جَبَلة سنة 717هـ/ 1317م، وفصّل في ذِكْر جرائمهم، ومنها أنّهم " أنهم أسروا "جماعة من المسلمين بجَبَلة و أرادوا قتلهم وقالوا لهم: ... قولوا لا إله إلاّ علي، فمن قال حقن دمه وصان ماله...". ثم قال: "... و اضمحلّ أمرهم وتلاشى، وكفى الله الشرّ و دمّرهم و مزّقهم. و كان ذلك " – أي مهاجمتهم جَبَلة – " جُرأة عظيمة منهم وقلّة عقل."(3)

(1) – عَلَم الدين البِرزالي، **الوفيات**، (مقدّمة المحقّق)، ص 12، 13، 17. و شمس الدين الذهبي، **السِّيَر**، الجزء المفقود، ص 585. و محمد ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، ج 2، (تحقيق: عبد السلام الهراس)، ط1، 1415هـ/ 1995م، ص 140. و محمد ابن عذاري، **البيان المُغرب**، ج2، (تحقيق: كولان)، ط3، دار الثقافة، بيروت – لبنان، 1405هـ/ 1983م، ص 260.

(2) – علم الدين البِرزالي، المصدر نفسه، ص 7، 8.

(3) – المصدر نفسه، ص 73، 74، 389، 444.

وتدلُّ تراجم البِرزالي – وهو شافعي – لأعلام المذاهب الأخرى على إنصافه؛ حيث حرص على الترجمة لهم و أثنى على كثير منهم، ونجد هذا في تراجم عديدة منها تراجم كلٍّ من الفقيه حميد الدين محمود بن حجاج السمرقندي الحنفي المتوفى في دمشق عام 710هـ/ 1310م، و رشيد الدين الحنفي[1] ويحيى الزواوي المالكي[2]، و محمد بن عمر الحرّاني الحنبلي[3] و القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة الصالحي الحنبلي. كما أثنى على أعلام آخرين منهم بدر الدين الحرّاني[4] وشرف الدين ابن تيمية و عبد الأحد الحرّاني[5]، و القاضي محمد بن مُسَلَّم الحنبلي.[6]

و حرص البِرْزالي على ذِكْر أخبار شيخه تقي الدين ابن تيمية خاصة ما يتعلَّق منها بمحنته، وكرّر الدعاء له في أكثر من موضع، و أثنى عليه، حيث ذكر – مثلا – إخراجه إلى الإسكندرية في صفر سنة 709هـ/1309م وقال ضمن ذلك: "... وتضاعف الدُّعاء له...، وكان الموضع الذي هو فيه " – أي في الإسكندرية– " فسيحا متَّسعا بحمد الله تعالى." و ذكر عودته إلى دمشق سنة 712هـ/ 1312م و قال في آخر ذلك: "... و خرج خلقٌ كثيرٌ لتلقِّيه و سُرُّوا لمقدمه و سلامته و عافيته نفع الله به ومتَّع بطول بقائه. و وصفه في موضع آخر من كتابه بـ "...الشيخ الإمام شيخ الإسلام." كما قال: "...الفقيه الحافظ القدوة شيخ الإسلام...، طلب الحديث" و " اشتغل بالعلوم، و كان ذكيا كثير المحفوظ، فصار إماما في التفسير

---

[1] – الفقيه رشيد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عثمان بن محمد المقدسي الحنفي المعروف بابن المعلم المتوفى في القاهرة عام 714هـ/ 1314م. (أنظر: علم الدين البرزالي، المصدر السابق، ص 265).

[2] – الفقيه محيي الدين أبو زكريا يحيى بن يحيى بن موسى بن عمر الزواوي المالكي. وُلد في مصر عام 645هـ/ 1247م، و توفي في دمشق سنة 718هـ/ 1318م. (أنظر: المصدر نفسه، ص 480).

[3] – الفقيه محمد بن عمر بن محمود بن أبي بكر الحرّاني الحنبلي. كان إماما في مسجد بدمشق، ثم سافر إلى مصر سنة 711هـ/ 1311م فتوفي خلال هذه السنة أو بعدها. (أنظر: المصدر نفسه، ص 149).

[4] – الفقيه المُحدِّث بدر الدين أبو القاسم بن محمد بن خالد الحرّاني المتوفى في دمشق عام 717هـ/ 1317م. (أنظر: شمس الدين الذهبي، **معجم الشيوخ الكبير**، ج2، (تحقيق: محمد الحبيب)، ط1، مكتبة الصديق، الطائف – السعودية، 1408هـ/ 1988م، ص 426).

[5] – المُحدِّث الفقيه شرف الدين أبو البركات عبد الأحد بن أبي القاسم بن عبد الغني بن فخر الدين محمد بن محمد بن تيمية الحرّاني الحنبلي المتوفى في دمشق سنة 712هـ/ 1312م. (أنظر: عَلم الدين البِرزالي، المصدر نفسه، ص 181).

[6] – المصدر نفسه، ص 80، 336، 410، 429، 346.

وما يتعلّق به، عارفا بالفقه... و النحو و اللغة و غير ذلك من العلوم.... أمَّا الحديث فكان حافظا له مَتنا و إسنادا، مميِّزا بين صحيحه و سقيمه...، وله تصانيف كثيرة و تعاليق مفيدة في الأصول والفروع... وله فضائل كثيرة...".[1]

وقد ذيّل على وفيات البِرزالي المُحدِّث "الحافظ " المؤرِّخ ابن رافع، و هو تقيّ الدين أبو المعالي محمد بن رافع بن هجرس بن محمد بن شافع السَلاّمي المصري الشافعي، وُلد سنة 704هـ/ 1304م في مصر ونشأ فيها، و ارتحل إلى الشام عدّة مرات لطلب العلم، و أخذ عن الذهبي و البِرْزالي وأبي الحجّاج المِزّي. وقد استقرّ في دمشق سنة 739هـ/ 1338م و درَّس فيها. ويُعدُّ من أبرز مُحدِّثي القرن الثامن الهجري (ق14م). و كانت وفاته في دمشق سنة 774هـ/ 1372م.[2]

و ترجم ابن رافع لكثير من وفيات الفترة الممتدة بين عامي (737 – 774هـ) (1336–1372م) و رتَّب الوفيات حسب السنين، و اختصر معظم التراجم. و ركّز على وفيات بلاد الشام و مصر خاصّة أعلام دمشق، غير أنّه لم يترجم لابن القيِّم.[3]

ومن أبرز ما تميَّز به هذا الكتاب عدم تطرُّق المصنِّف للخلافات العَقَدية، و يتّضح ذلك من خلال عدد من تراجم أعلام أهل الحديث و أعلام الأشاعرة[4]. وكان ابن رافع مُنصِفا للفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي (الشافعي)؛ حيث حرص على الترجمة لهم و أثنى على كثير منهم.[5]

---

(1) – عَلَم الدين البِرزالي، المصدر السابق، ص 32، 191، 410. و عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية**، ج7، ص 507، 508.

(2) – شهاب الدين ابن العماد، المصدر السابق، ج8، ص 403، 404. و شمس الدين الذهبي، **المعجم المُختصّ بالمُحدِّثين**، (تحقيق: محمد الهيلة)، ط1، مكتبة الصديق، الطائف – السعودية، 1408 هـ – 1988م، ص 229، 230.

(3) – تقي الدين ابن رافع، **الوفيات**، ج1، (تحقيق: صالح مهدي و بشار عواد)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1402هـ – 1981م، ص 125، 127. و ج 2، ص 134.

(4) – المصدر نفسه، ج1، ص 226، 459، 368. و ج 2، ص 37، 364.

(5) – المصدر نفسه، ج1، ص 145، 260، 415، 432. و ج 2، ص 222، 329، 366.

- خلاصة الفصل:

لقد حرص الذهبي في " السِّير" و بقيّة مصنَّفاته على إيضاح انحرافات فِرَق الشيعة و إظهار التغيرات التي عرفها التشيُّع عبر التاريخ و بيان انعكاسات نشأة الدول الشيعية على تاريخ الأُمّة. كما نقد الخوارج و الناصِبة و المُتكلِّمين و الفلاسفة و الصوفية خاصّة القائلين بوحدة الوجود. مع حرصه على توقير الصحابة و أهل البيت و تأييد منهج أهل الحديث من خلال عدّة مظاهر. مع اجتنابه التعصب لمذهبه الفقهي(الشافعي).

ونجد في "الوافي" للصفدي مظاهر استنكار لانحرافات فِرَق الشيعة و الخوارج و الناصِبة. ونبّه في مواضع قليلة إلى انحرافات الاتحادية. و لم يكن تأثير العقيدة الأشعرية عليه في كتابه هذا قويا. و لاحظنا أنّ كتاب " وفيات الأعيان" لابن خلِّكان تقلّ فيه التعاليق على المعطيات المتعلِّقة بالفِرَق و المذاهب.

و رغم اطِّلاعنا على جزء واحد من " الوفيات" للبِرزالي إلاّ أننا وقفنا على مظاهر استنكار لعقائد النُصَيرية و الإثني عشرية. و يلاحظ على كتاب " الوفيات" لابن رافع عدم التعرُّض للخلاف بين أهل الحديث والمُتكلِّمين، و اجتناب المصنِّف نقل الادعاءات الصوفية.

- الخاتمة:

نشَأت المذاهب الفقهية والعَقَدية بصفة تدريجية حيث ترَسخ الانقسام المذهبي حتّى أصبح من أبرز ما يُميِّز واقع الأُمَّة خلال القرون الأخيرة من التاريخ الإسلامي. وقد أثَّرت المذاهب على الحياة العلمية والاجتماعية لا سيّما على الإنتاج العلمي ومنه الكتابة التاريخية.

و شهدت فترة القرنين السابع والثامن الهجريين (ق13/ 14م) غزارة في التدوين التاريخي، و تأثُّر المصادر التاريخية بالنزعة المذهبية؛ فنجد مصادر ذات تأثُّرٍ جَلِيّ، وأخرى تقلُّ فيها مظاهر التأثُّر، كما تنوَّعت هذه الأخيرة.

ولم تكن كافَّة آثار النزعة المذهبية على الكتابة التاريخية سلبية؛ بل نجد آثار إيجابية عديدة منها نَقْد الانحرافات العَقَدية و الفكرية والسلوكية وبيان بطلانها والتحذير منها، و إيضاح ما أفضى إليه نشاط الفِرَق المُنحرفة من مِحَنٍ وبلايا على الأُمَّة خلال فترات مُتفرِّقة، و وجود عدَّة مظاهر إنصافٍ، و إيضاح بعض المؤرِّخين عدم صحَّة بعض الأحاديث و الأخبار التي نقلوها.

أمَّا الآثار السلبية فمنها – على وجه الإجمال– التحامل المُسجَّل في بعض المصادر؛ وهو راجع أساسًا إلى العامل العَقَدي؛ إذْ كان تأثير الجانب العَقَدي أقوى من تأثير الجانب الفقهي. ومنها إمعان بعض المُصنِّفين في نقل و إقرار المزاعم الصوفية التي لُفِّقت و اعتُبِرت كرامات، ونقلهم للمنامات المُلفَّقة و اعتبارها أدلَّة يُحتَجُّ بها، وهذا من العجائب. ومنها أيضا وجود تفاسير باطلة لأحداث تاريخية في بعض المُصنَّفات، و الدمج بين الانتماء للمذاهب العَقَدية و الانتماء للمذاهب الفقهية، فكثيرا ما وُظِّف مُصطلح "الشافعية " و قُصِد به الأشاعرة؛ ومعلوم أنَّه ليس كلّ شافعي بأشعري. كما شُحِنت بعض الكُتُب بالإنشاء و العبارات المسجوعة التي لا تنطوي على فوائد علمية.

وقد يتبادر إلى الذِّهن أنَّ كافَّة كُتُب الطبقات و التراجم أشدَّ تأثُّرا بالنزعة المذهبية من كُتُب التاريخ العام؛ لكنَّنا نرى أنَّ هذا غير صحيح مطلقا؛ فنجد – مثلا– تأثُّر"مرآة الجنان" لليافعي أشدَّ بصفة جَلية من

تأثُّر "الجواهر المُضِية " لعبد القادر القُرَشي، و " وفيات الأعيان " لابن خَلِّكان.

و إذا عرَّجنا على المصادر التي درست على وجه التفصيل يُمكن القول أنَّ تأثُّر كتب التاريخ العام لم يكن على قدر واحد؛ فتعامل ابن الأثير في " الكامل" مع المعطيات المُتعلِّقة بالمذاهب والفِرَق كان على ثلاث حالات؛ الأولى ذِكْره للأخبار المتعلِّقة بالمذاهب دون أن يُعلِّق عليها أو يُبْدي موقفه منها وهذا في مواضع كثيرة. وأمَّا الثانية فهي التعليق بإنصافٍ في مواضع كثيرةٍ مثل الإشارة إلى انحرافات الباطنية. و أمَّا الثالثة فهي التعليق بغير إنصافٍ في مواضع قليلة مقارنة بحجم " الكامل". و تتعلَّق هذه الحالة ببعض ما كتبه عن الحنابلة من أهل الحديث. و يُمكن القول أنَّ تأثير النزعة المذهبية على كتابه لم يكن قويا.

ونرى من خلال دراستنا للأجزاء الأخيرة من "مِرآة الزمان" لسِبْط ابن الجَوْزي أنَّ تشيُّعه لم يُؤثِّر بصفة جَلِيَّة على هذه الأجزاء. و لاحظنا أنَّه لا يُعلِّق في الغالب على أعمال الباطنية، لكنَّ كلامه في بعض المواضع يتضمن ذمَّهم. وانتماؤه إلى الماتُريدية لم يكن له تأثير قويٌّ على كتابه؛ وهذا عنصر إيجابي. غير أنَّه نقل بعض الادعاءات الموضوعة باسم الكرامات دون إنكار لها.

وتضمَّن كتاب "الفخري" لابن الطِّقْطقي – وهو شيعي– مواقف تدلُّ على عدم تأثُّر مُصنِّفِه بالنزعة الشيعية، و مواقف أخرى برز فيها أثر هذه النزعة؛ لا سيّما من خلال كلامه عن أحداث الفتنة الكبرى و تبرِئته لابن العَلْقمي من الكَيد للمُستعصم و أهل بغداد، و إظهاره نوعًا من الابتهاج باستيلاء التتار على بغداد. و لمَّا كان موضوع " الفَخري" " السياسات الملكية " و الأخبار البارزة من تاريخ بعض الدول فإنّ مُصنِّفه لم يتطرَّق إلى معطيات المذاهب و الفِرَق إلا في مواضع قليلة.

وقد اتّضح أثر التزام الذهبي بمنهج أهل الحديث على كتابيه " تاريخ الإسلام" و "العِبَر" من خلال مظاهر كثيرة؛ منها حرصه على التنبيه على انحرافات فِرَق الشيعة والتحذير منها، وكان ذمُّه للباطنية أشدّ

من ذمِّه للإثني عشرية. كما نجد التنبيه على بعض الأحاديث الموضوعة من قِبَل رُواة شيعة و التحذير من الوضّاعين. بالإضافة إلى تعليقات قيِّمة للذهبي تتضمن استخلاص العِبَر من الأحداث و التطورات التاريخية و الحثّ على الإنصاف، وهذه التعليقات من أبرز ما يُميِّز المُصنِّف عن كثير من المؤرِّخين.

و تدلُّ تراجم الذهبي لأعلام الشيعة على مراعاته لطبيعة التشيّع؛ أي لاختلاف درجة الانحراف العَقَدي، كما تدلُّ على إنصافه؛ فمِن مظاهر ذلك نقْله اختلاف أقوال العلماء في بعض الرواة. واشتملت تعاليقه في مواضع كثيرة على التعجب من انحرافات طوائف الشيعة، والدعاء عليهم تارةً و توجيه الوعظ لهم تارةً أخرى. و أنكر في حديثه عن فِتَن بغداد ردود الفعل غير الملائمة من بعض عامَّة أهل السُّنة على أعمال الشيعة، وهذا من إنصافه و حرصه على استنكار كافّة الانحرافات. وقد صرَّح باستنكار انحرافات الخوارج في أكثر من موضع.

و حرصه على التحذير من مقالات الجَهمية و المعتزلة ظاهرٌ، كما أبدى في مواضع كثيرة مخالفته للعقيدة الأشعرية، لكنَّ حرصه على نقد الجَهمية أشدّ. و رغم أنَّه شافعيٌّ إلاَّ أنَّه صرَّح بمخالفته للأشاعرة – وكثيرٌ منهم شافعية–، و بيَّن تحامل بعضهم على أهل الحديث من الحنابلة وغيرهم، وهذا راجع إلى منهجه و ورعه و إنصافه. و رغم مخالفته للمُتكلِّمين إلاَّ أنَّه لم يكتف بذِكْر المثالب في تراجمهم والأمثلة على هذا كثيرة.

و تباين موقفه من الصوفية حسب معطيات هؤلاء، و حَرِص على التحذير من انحرافاتهم خاصَّة عقيدة وحدة الوجود، كما نقد بعض القصص المكذوبة التي اعتُبِرت كرامات لبعض الأعلام، وكثيرا ما يختم النَّقد بالدُّعاء، و ذلك نابعٌ من إدراكه خطورة الانحرافات العَقَدية. وشمل نقده الصوفية الشافعية وغيرهم بلا تمييز، وهذا من مظاهر الإنصاف.

ونجد في ثنايا كتابَيْه أمثلة كثيرة من أقواله التي تُؤكِّد تمسُّكه بمنهج أهل الحديث، وأثنى على الأعلام المُتمَسِّكين بذلك، ونقد أخبار تتضمَّن التحامل على بعضهم. و اهتمَّ باستنكار موقف الناصِبة من أهل

البيت.

و في الجملة فالذهبي مؤرِّخٌ مُحقِّقٌ ناقدٌ مُنصِفٌ مُتثبِّت غزيرُ العقل واسعُ الأفق، أفاده عِلم الحديث في الكتابة التاريخية من عِدَّة جوانب. وهو من أكثر مؤرِّخي الفترة (ق7- 8هـ/ 13- 14م) تعليقًا على المعطيات المُتعلِّقة بالمذاهب، و أحرصهم (إلى جانب ابن كثير) على التحذير من الانحرافات.

أمَّا كتاب " ذيل مرآة الزمان" فقد أشار مُصَنِّفه قطب الدين اليونيني في عدَّة مواضع منه إلى غُلوِّ بعض الذين ترجم لهم من الشيعة، واستنكر سبَّهم الصحابة، ونبَّه في تراجم شيعية أخرى إلى عدم سبِّ أصحابها للصحابة، وهذا إنصافٌ منه، كما أنَّه لم يتحامل على الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي، وهذا أيضا من الإنصاف، لكنَّه تأثَّر بما روَّجه كثيرٌ من الصوفية من قصص مُلفَّقة يعتبرونها كرامات.

وتأثُّر ابن الساعي بالتشيُّع و التصوف انعكس سلبا على كتابه، لا سيّما من خلال نقله و إقراره بعض المزاعم الصوفية، لكنَّه من ناحية أخرى أثنى على الخلفاء الراشدين، واستنكر انحرافات الاتحادية والباطنية.

و أشار أبو الفدا في مواضع قليلة من " المُختصَر في أخبار البشر" إلى بعض انحرافات الشيعة وأثنى على كبار أعلام أهل البيت، و أشار إلى انحراف الناصِبة، و هذه عناصر إيجابية. ولم يتطرَّق إلى الخلاف بين أهل الحديث و الأشاعرة إلاَّ في مواضع قليلة تحامل فيها على أهل الحديث. أمَّا الأخبار المتعلِّقة بالمعتزلة فإنَّه لم يُعلِّق عليها في الغالب. وكانت تعاليقه على المعطيات المرتبطة بفِرَق الشيعة قليلة، وهذا وجدناه أيضا في " الكامل" لعزِّ الدين ابن الأثير، بخلاف ما نجده في مصنَّفات الذهبي و ابن كثير.

ومظاهر النزعة المذهبية في "البداية والنهاية " لابن كثير مقاربةٌ لما ذكرناه عن "تاريخ الإسلام" و"العِبَر"؛ إذْ حرص ابن كثير على نقد مقالات فِرَق الشيعة والتحذير منها، وبيَّن وضع بعض رواتهم عدَّة

أحاديث و روايات، وتضمَّنت تعاليقه في هذا كلّه فوائد كثيرة. وعلَّق بكلام قَيِّم عند ذِكْره بعض الحوادث البارزة مثل وقعة صِفِّين و استشهاد الحسين(رضي الله عنه).

وكان ذمُّه للباطنية أشدَّ من ذمِّه للإثني عشرية بفِعل شدَّة انحرافهم وما ارتكبوه من جرائم كبرى. و استنكر ما ارتكبه بعض عوامّ أهل السُّنة في بغداد خلال بعض السنوات كردٍّ فِعْلٍ على أعمال الشيعة وهذا إنصافٌ منه و حِرْصٌ على معالجة الانحرافات.

ويُعدُّ الدفاع عن الصحابة من أبرز ما يُبيِّن تسنّن المُصنِّف، ونجد هذا في مصنَّفات الذهبي ومصنَّفات أخرى. كما حرص ابن كثير على توقير أهل البيت و التنبيه على انحراف الناصِبة، بالإضافة إلى تعليقه على عقيدة الخوارج و مقالات الفلاسفة والاتحادية واعتدال موقفه من بني أُمَيَّة.

و من المواقف الدالَّة على تمسُّكه بمنهج أهل الحديث تحذيره من مقالات المُتكلِّمين، و ثناؤه على العلماء الرادين عليهم. و لاحظنا في هذا السياق أنَّ الجانب العَقَدي أقوى تأثيرا من الجانب الفقهي؛ من خلال إيضاح ابن كثير تحامل بعض أشاعرة الشافعية على بعض أعلام أهل الحديث.

ونلمس من خلال التراجم عدم إغفال المُصنِّف- وهو شافعيٌّ- ذِكْر مناقب فقهاء المذاهب الثلاثة الأخرى. ومن ناحية أخرى فإنَّه لم يتأثر بالانتشار الواسع للمذهب الأشعري بين فقهاء الشافعية خلال (ق 7-8هـ/ 13-14م)، بل إنَّ تمسُّكه بمنهج أهل الحديث ظاهرٌ. و يُمكن القول أنَّ نَفَس ابن كثير في التعليق على المعطيات المتعلقة بالفِرَق مقارب لِمَا نجده في كُتب الذهبي.

وأمَّا كتاب "مرآة الجنان" لليافعي فإنّ مُصنِّفه تأثَّر تأثُّرا عميقا بالتصوف؛ حيث أمعن في نَقْل القصص المكذوبة التي اعتبرها كرامات لبعض الصوفية، و أَوْرَد قصصا مزعومة أخرى في تراجم بعض الأعلام المعاصرين له؛ أي أنَّه لم ينقلها من مصنَّفات غيره، فشغلت هذه الادعاءات العجيبة قسما كبيرا من تاريخه. و أقرَّ المزاعم الصوفية في المُكاشفات و رُؤية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في اليقظة بالإضافة إلى إمعانه في توظيف مصطلحات و عبارات الصوفية، و طالب بالكفِّ عن الإنكار عليهم.

كما دافع عن شخصيات صوفية اشتهرت بالانحراف مثل الحلاّج. ونقل في تراجم بعض الصوفية و الأشاعرة مضامين المنامات الموضوعة المُلَفَّقة التي تتضمَّن الكذب على النبي صلّى الله عليه وسلّم. وتحامل اليافعي في مواضع متفرِّقة من كتابه على أهل الحديث متأثِّرا بالعقيدة الأشعرية. وكافَّة الملاحظات السابقة تُبيِّن أثر النزعة المذهبية على كتابه.

لكنَّه نبَّه إلى بعض الانحرافات الشيعية، ونقل عن غيره بعض ما يوضِّح خطورة الباطنية. كما التزم الحياد في مواضع قليلة من كتابه عند إشارته إلى الخلاف بين أهل الأشاعرة و أهل الحديث.

ويقف الدارس لـ " تتمَّة المُختصَر" لابن الوردي على استنكار مُصنِّفه لانحرافات الشيعة، واستغلّ موهبته الشعرية في هِجاء بعض أعلامهم. و رغم كونه متأثِّرا بالمذهب الأشعري إلاّ أنَّه أثنى على كثير من علماء أهل الحديث فأنصَفَ، كما لم يتحامل على الفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي، وأشار إلى خطورة الاتحادية، لكنَّه نقل من قصص الصوفية في عدَّة مواضع من كتابه.

و تضمَّنت كُتب تاريخ الدول والمدن مظاهر لتأثير النزعة المذهبية؛ فقد حرص أبو شامة المقدسي على إيضاح بلايا الباطنية، وكان شديد الذمِّ لهم، وهذا نجده أيضا في مصنَّفات الذهبي وابن كثير. وأثنى أبو شامة على عدّة علماء من أهل الحديث، لكنَّه نقل و أقرّ تحامل بعض الأشاعرة على أعلامٍ من أهل الحديث.

أمَّا ابن واصِل فإنَّ مظاهر تأثُّره بالنزعة المذهبية قليلة، ومن أسباب ذلك تركيزه على التأريخ للتطورات السياسية والعسكرية، لكنَّ كتابه اشتمل على ذِكْر انحرافات الباطنية في عدّة مواضع، و إطلاق مصطلح "الرافضة " على الشيعة الغُلاة. ولم يتطرَّق إلى الخلاف بين أهل الحديث والمُتكلِّمين إلا ذِكْره لإحدى الفِتن التي جرت في دمشق بسبب الخلاف العَقَدي.

وقلَّة مظاهر التأثُّر بالنزعة المذهبية نجدها أيضا في كتابي ابن العديم، ونرى من خلال اطِّلاعنا على تاريخه أنَّه لم يتحامل على الفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي (الحنفي)، ولم يتعرّض إلى الخلاف

بين أهل الحديث وأهل الكلام إلا بإشارات قليلة، ولم يُعلِّق في مواضع كثيرة على ما ذكره من معطيات متعلِّقة بفِرَق الشيعة، وفي مواضع أخرى استنكر انحرافاتهم. ونشير إلى أنَّه نقل من القصص الصوفي دون تعليق على ذلك.

ويتّضح للمطّلِع على تاريخ ابن الدَّبيثي أنَّه لا يُعلِّق على ما يذكره من معطيات المذاهب والفِرَق إلاّ من خلال تلميحات في مواضع قليلة. و لا يتطرّق للخلاف بين أهل الحديث و المُتكلِّمين. ولم نقف في كتابه على نقل للادعاءات المُلفَّقة باسم الكرامات إلاّ في ترجمتين؛ وهذا عنصر إيجابي، كما أنَّه لم يتحامل على الفقهاء من غير مذهبه (الشافعي). و تقلُّ - فيما اطّلعنا عليه من تاريخ ابن النجَّار- المعطيات المتعلِّقة بالمذاهب وكذا التعاليق عليها.

وتباين تأثّر كُتب الطبقات والتراجم بالنزعة المذهبية بصفة جليّة؛ فإذا نظرنا إلى طبقات السُّبكي وجدنا هذا الأخير قد تأثَّر تأثُّرا عميقا بخلفيته المذهبية الأشعرية و بالتصوف، حيث صرّح في مواضع كثيرة من كتابه بإقرار كثير من خرافات الصوفية، و زعم أنَّ بعضهم لهم "مقام التصريف"، وادّعى اطِّلاع بعضهم على أمور غيبية، وساهم في الترويج للمزاعم الصوفية. كما اعتبر المنامات المكذوبة أدلّة يُحتَجّ بها حيث نقلها لترهيب غيره من نقد الأشاعرة و الصوفية، و أشار إلى بعض أقوال الاتحادية دون التصريح الواضح بالتحذير منها.

و قد أفرط السُّبكي في التحامل على أهل الحديث فاتهمهم بالتشبيه و التجسيم و وصفهم بأوصاف شنيعة، و أتى بدعاوى لا أدلَّة معها، و زعم أنَّ الذهبي متعصِّبٌ وغير مُنصف، و أنَّه يحكي الخرافات فناقض بذلك ما تدلُّ عليه مصنَّفات الذهبي من إنصاف و موضوعية وسعة أفق.

و وصل التأثُّر بالعقيدة الأشعرية بالسُّبكي إلى أن ادّعى أنَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قد "بشَّر" بظهور أبي الحسن الأشعري، و أنَّ الأشاعرة بإمكانهم " أن يعدّوا أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في...جملتهم"، و إلى تفسير بعض الأحداث التاريخية بتفاسير عجيبة. كما تغافل عن ذِكْر بعض

الحقائق في تراجم أعلام من الأشاعرة؛ فمِن الأمثلة على ذلك إغفاله – مع فَرْط استقصائه– في ترجمة المَلِك محمد الكامل الأيوبي تسليمه بيت المقدس للفِرنجة (سنة 626هـ/ 1229م) دون قتال ولا مُمانعة. ومع كلّ ما تقدَّم نجده يُحذِّر من المؤرِّخين المُتعصِّبين، و يُشير إلى قواعد للتعامل مع ما يذكرونه من أخبار لكنَّه لم يُجسِّد تلك القواعد في كتابه.

أمَّا "الديباج المُذهَّب " لابن فرحون" فإنَّ التعاليق المرتبطة بالمذاهب تقلُّ فيه، ولم يتوسَّع مُصنِّفه في نقل المزاعم الموضوعة باسم الكرامات رغم أنَّه نقل بعضها، وهذا عكس ما نجده في طبقات السُّبكي. ومن الفروق بين المصدرين حِرص السُّبكي على إدراج عبارات الإطراء و التوسع في ذلك، وهذا ما جعل كتابه يعج بالإنشاء الذي لا طائل من ورائه.

و لاحظنا أنَّ ابن فرحون لم يركِّز على التطرُّق إلى الخلاف بين المُتكلِّمين و أهل الحديث مع أنَّ تعاليقه الموجزة في مواضع قليلة تتضمن بعض التلميح للطعن في أهل الحديث. وتقلُّ مظاهر التأثُّر بالنزعة المذهبية في " الجواهر المُضيَّة " للقُرَشي، ولم ينقل الأخبار المُلفَّقة باسم الكرامات إلاّ في نحو ثلاث تراجم، وهذا عنصر إيجابي، كما لم نجد في كتابه عبارات المدح على النحو الذي وجدناه في طبقات السُّبكي.

و تضمَّنت طبقات ابن رَجَب بعض مظاهر التحذير من مقالات المُتكلِّمين، كما تضمَّنت تأييد منهج أهل الحديث و إشارات إلى ذمِّ الباطنية. و نقل المُصنِّف في تراجم قليلة بعض الأخبار الموضوعة باسم الكرامات. ولم يلجا في تراجم المشاهير إلى أسلوب الإطراء.

و كانت مظاهر النزعة المذهبية في "السِّيَر" مماثلة لِمَا تقدَّم عن " تاريخ الإسلام "؛ منها ذمّ الذهبي للباطنية و إيضاحه انعكاسات نشاطهم وما ألحقوه بالأُمَّة من مِحَن عظيمة، واستنكاره انحرافات الإثني عشرية، مع عدم اكتفائه بذِكر المثالب في تراجمهم ، وذلك من إنصافه لهم.

وتضمنت "السِّيَر" عناصر مهمَّة لا نجدها في كثير من المصنَّفات؛ منها إيضاح الذهبي للتغيرات التي عرفها التشيع عبر التاريخ و أثر المجتمع على اعتقاد الفرد و انعكاسات نشأة الدول الشيعية على تاريخ الأُمَّة.

وشمل نقد الذهبي الخوارج و الناصِبة و المُتكلِّمين و الفلاسفة و الاتحادية. و حرص على توقير الصحابة و أهل البيت وتأييد منهج أهل الحديث. ولم ينخرط في مظاهر التعصُّب للمذاهب الفقهية، فهو من أَسْلم المؤرخين من ذلك.

أمَّا كتاب "الوافي" للصفدي فإنَّ مظاهر تعليق مُصنِّفه على مقالات و أعمال فِرَق الشيعة أقلَّ ممَّا نجده في مصنَّفات الذهبي و ابن كثير و أبي شامة، مع وجود مظاهر استنكارٍ لانحرافات الشيعة والخوارج و الناصِبة. ولم يكن تأثير العقيدة الأشعرية على كتابه قويا بخلاف ما نجده في طبقات السُّبكي. ونبَّه الصفدي في مواضع قليلة على انحرافات الاتحادية، لكنَّ الذهبي كان أشد تحذيرا منهم.

و يتبيَّن لمن يتصفح " وفيات الأعيان" لابن خلِّكان قلَّة تعاليقه على المعطيات المرتبطة بالفِرَق و المذاهب، و رغم ميله إلى المذهب الأشعري فإنَّه لم يتحامل على علماء أهل الحديث الذين ترجم لهم أو ذكرهم ضمن التراجم، عكس ما نجده في طبقات السُّبكي. وقد نقد ابن كثير ابن خلِّكان لتركه التنبيه على الانحرافات إلا في مواضع قليلة من كتابه.

و رغم اطلاعنا على جزءٍ واحدٍ من الوفيات للبِرزالي، إلا أننا وقفنا على ما يوضِّح تحذيره من النُّصَيرية و الإثني عشرية، و إنصافه للفقهاء الذين لم يكونوا على مذهبه الفقهي. أمَّا كتاب الوفيات لابن رافع فمما يلاحَظ على تراجمه عدم التطرِّق للخلافات بين أهل الحديث والمُتكلِّمين، و اجتناب عبارات التوسع في الإطراء، بالإضافة إلى عنصر مُهمٍّ يتمثَّل في اجتناب نَقل القصص الصوفي.

ونجد الادعاءات الموضوعة باسم الكرامات على صِنفين من حيث صحة نسبتها إلى الأعلام، فمنهم من لُفِّقت على لسانه فنُسِبت إليه وهو منها بريء، وهذا كثير. ومنهم من صحَّت نسبتها إليه، وهذا أيضا

كثير. و في كِلا الحالتين تُعدُّ الادعاءات المذكورة من أبرز الآثار السلبية للحياة المذهبية على المصنَّفات التاريخية، فكلَّما كثُرت في مصنَّف تراجعت منزلته العلمية. و قد لا يعتبرها بعض الدارسين جانبا سلبيا في المصادر التاريخية بالنظر إلى رواج تلك المزاعم في المجتمع خلال (ق 7- 8هـ/ 13- 14م) وهذا لا يستقيم لوضوح بطلانها نظرا لتعارضها مع النَّقل والعقل والحِس، ولعدَّة وجوه أخرى مثل ردِّ بعض مؤرِّخي الفترة لجانبٍ منها، و اهتمام بعض العلماء بالإنكار على مُدّعي الكرامات.

و يمكن القول أنَّ مؤرخي القرنين (7- 8هـ/ 13-14م) تباين تعاملهم مع المزاعم الآنف ذكرها فمنهم من لم يعتن بنقلها، ومنهم من نقل نماذج قليلة منها، و أمعن آخرون في نقلها، متأثِّرين في ذلك بالتصوف الذي كانت له آثار جليَّة على مظاهر الحياة العلمية – ومنها المصنَّفات التاريخية – و الاجتماعية خلال القرنين المذكورين.

ولا رَيْب في تفاوت خطورة آثار النزعة المذهبية؛ فمِن أخطرها نقل بعض المصنِّفين المنامات المُلفَّقة المتضمِّنة الكذب على النبي صلّى الله عليه وسلّم، والاحتجاج بها، وذلك يعني اعتبارها مصدرا من مصادر التشريع، وحقيقة يمكن الاحتجاج بها خاصَّة فيما يتعلق بالخلافات العَقَدية . والهدف من اللجوء إلى ذِكْر هذه المنامات المكذوبة ترهيب المخالِف من النقد، و إيهام القارئ أنَّ مقالات الأشاعرة والصوفية لا انحرافات فيها، وبهذا اعتُبِرت هذه الدعاوى من جملة الأدلَّة العلمية بالنسبة لبعض المصنِّفين.

و نرى أنَّ أثر النزعة المذهبية على الأسلوب في المصادر التي تقدمت دراستها يمكن تقسيمه إلى حالات ثلاث؛ فبعض المصادر أغرق مصنِّفوها في توظيف عبارات الإطراء المسجوعة؛ كما هو الحال في طبقات السُّبكي، وكان تأثُّر بعض المصادر بدرجة أقلَّ، في حين تندر مظاهر التأثر في مصادر أخرى.

وقد ساهمت الحياة المذهبية في غزارة التصنيف التاريخي وتنوُّع المصنَّفات؛ إذْ ساهمت في الاهتمام بالتأليف حسب الطبقات وفي تصنيف كُتب في سِيَر بعض الأعلام. و رغم وجود مظاهر تأثُّر للحكام بالحياة المذهبية (ق7-8هـ/ 13- 14م)، إلا أنَّهم لم يؤثِّروا على الكتابة التاريخية، إذا استثنينا تخوُّف الذهبي من قيام الأشاعرة عليه لنفوذهم عند الحكام؛ فكان حذرا في نقده لهم. ونرى أنَّ الانتماء إلى الأقاليم لم تكن له صِلة بما وُجِد من فروق بين المصادر، باستثناء تأثير رسوخ التشيّع في العراق على بعض المؤرخين العراقيين خاصَّة ابن الطقطقي.

و اهتمّ بعض المؤرخين بذِكْر قواعد للكتابة التاريخية، وقد وجدنا هذا في مصنَّفات الذهبي و طبقات السُّبكي، و جسَّد الذهبي ما أشار إليه من مبادئ عَمَليا في كُتبه، لكنَّ السُّبكي شحن كتابه بما يُخالف القواعد التي ذكرها؛ فلو اطَّلع القارئ عليها ولم يُطالِع بقيّة الكتاب لتوهّم أنَّ مُصنِّفه على غاية الإنصاف.

و من أبرز الأحداث التي اتضح فيها أثر النزعة المذهبية أحداث الفتنة الكبرى و استشهاد الحسين (رضي الله عنه)؛ فتضمن – مثلا- كلام الذهبي عن ذلك الدفاع عن الصحابة و توقير أهل البيت و إنكار انحرافات الخوارج و الشيعة. كما أنَّ تراجم الأعلام المؤثِّرين في الحياة العلمية و المذهبية يتَّضح فيها أثر النزعة المذهبية في عدَّة مصادر.

– قائمة المصادر والمراجع:

– أولا– المصادر:

– أبو إسحاق الشيرازي، **طبقات الفقهاء**، (تحقيق: إحسان عبّاس)، ط1، دار الرائد، بيروت– لبنان، 1391هـ/1970م.

– أبو الحجاج المِزّي، **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، (تحقيق: بشار عواد)، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1434هـ/ 1992م.

– أبو الحسين بن أبي يعلى، **طبقات الحنابلة**، (تحقيق: عبد الرحمان العثيمين)، مكتبة الملك فهد، د.م، 1419هـ/1999م.

– أبو الفدا الأيوبي، **المُختَصَر في أخبار البشر**، ط1، المطبعة الحسينية، القاهرة – مصر، د.ت.

– أبو القاسم ابن بشكوال، **الصِّلة في تاريخ أئمّة الأندلس**، (تحقيق: العطار الحسيني)، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، 1374هـ/ 1955م.

– أبو القاسم ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، (تحقيق: محب الدين العمروي)، ط1، دار الفكر، بيروت– لبنان، 1415هـ/ 1995م.

– أبو شامة المقدسي، **الذيل على الروضتين**، (تحقيق: عزة العطار)، ط2، دار الجيل ، بيروت– لبنان، 1413هـ/ 1974م.

– ـ ـ ـ ـ ـ ـ ، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، (تحقيق: إبراهيم الزيبق)، ط1، 1418هـ/ 1997م.

– أحمد ابن عبد ربِّه، **العِقْد الفريد**، (تحقيق: مفيد قميحة)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1404هـ/ 1983م.

– أحمد ابن مِسكويه، **تجارب الأمم و تعاقب الهمم**، (حققه: أبو القاسم إمامي)، ط2، مطبعة سروش،

طهران – إيران، 1422هـ/ 2000م.

–أحمد بن حنبل ، **المسنَد**، (حققه: شعيب الأرنؤوط وآخرون) ، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، 1421هـ/2001م.

– أحمد بن علي القلقشندي، **صُبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، (تحقيق: محمد حسين)، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1408هـ/1987م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، (تحقيق: إبراهيم الأبياري)، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت– لبنان، 1400هـ/ 1980م.

– أحمد بن فارس اللغوي، **مُجمل اللغة**، (تحقيق: زهير سلطان)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1406هـ/ 1986.

– الحسن النوبختي و سعد القُمّي، **فِرق الشيعة**، (تحقيق: عبد المنعم الحنفي)، ط1، دار الرشد، القاهرة – مصر، 1412هـ/ 1992م.

– الخطيب البغدادي، **تاريخ مدينة السلام**، (تحقيق: بشار عواد)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت– لبنان، 1422هـ/ 2001م.

– المُوفّق ابن قُدامة، **الرد على ابن عقيل**، (تحقيق: أحمد المزيدي) ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1425هـ/2004م.

– _ _ _ _ _ _ ، **الكافي في فقه الإمام أحمد**، (تحقيق: عبد الله التركي)، ط1، دار هجر، د م، 1418هـ/ 1997م.

– برهان الدين ابن فرحون، **الدّيباج المُذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب**، (تحقيق: مأمون الجنان)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1417هـ/ 1996م.

– برهان الدين ابن مفلح، **المقصد الأرشد في ذِكر أصحاب أحمد**، (تحقيق: عبد الرحمان العثيمين)، ط1

مكتبة الرشد، الرياض – السعودية، 1410هـ/ 1990.

– برهان الدين البقاعي، **تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي**، (تحقيق: عبد الرحمان الوكيل)، مكتبة الباز، مكة، د.ت.

– تاج الدين ابن الساعي، **الجامع المختصَر**، (تحقيق: مصطفى جواد)، المطبعة السريانية، بغداد– العراق، 1353هـ/ 1934م.

– _ _ _ _ _ _ _ ، **مُختصَر أخبار الخلفاء**، ط1، المطبعة الأميرية، القاهرة – مصر، د.ت.

– تاج الدين السُّبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، (تحقيق: محمود الطناجي و عبد الفتاح الحلو)، ط1، دار إحياء الكتب العربية، بيروت – لبنان، د.ت.

– تقي الدين ابن تيمية، **التسعينية**، (تحقيق: محمد العجلان)، ط1، مكتبة المعارف، الرياض– السعودية، 1420هـ/1999م.

– _ _ _ _ _ _ _ _، **الصفَدية**، (تحقيق: محمد رشاد)، دن، 1406هـ/ 1985.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **بُغية المُرتاد**، (تحقيق: موسى الدويش)، ط3، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، 1422هـ/ 1991.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **بيان تلبيس الجَهمية**، (تحقيق: يحيى الهنيدي)، ط1، مكتبة الملك فهد، د.م، 1426هـ/ 2004م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **درء تعارض العقل والنقل**، (تحقيق: محمد رشاد)، ط2، دار هجر، القاهرة – مصر، 1414هـ/ 1991م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **مجموعة الفتاوى**، (تحقيق: عامر الجزار)، ط3، دار الوفاء، المنصورة – مصر، 1426هـ/ 2005م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **مناظرة ابن تيمية لطائفة الرِّفاعية،** (تحقيق: عبد الرحمان دميشقة) ، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، 1409هـ/1989م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ _، **منهاج السُّنة النبوية**، (تحقيق: محمد رشاد)، ط1، د.ن، 1406هـ/ 1986م.

– تقي الدين ابن رافع، **الوفيات،** (تحقيق: بشار عواد)، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، 1402هـ/ 1981م.

– تقي الدين ابن قاضي شُهبة، **طبقات الشافعية،** (تحقيق: عبد العليم خان)، ط1، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد– الهند، 1399هـ/ 1979م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **طبقات الشافعية،** (تحقيق: عبد العليم خان)، دار عالم الكتب، بيروت– لبنان، 1407هـ/ 1986م.

– تقي الدين المقريزي، **الخِطط المَقريزية،** (تحقيق: محمد زينهم و مديحة الشرقاوي)، ط1، مكتبة مدبولي القاهرة – مصر، 1420هـ/ 1998م.

– _ _ _ _ _ _ _ ، **السلوك لمعرفة دول الملوك،** (تحقيق: محمد عطا)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1418هـ/ 1997م.

– جلال الدين السيوطي، **طبقات الحُفاظ،** ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1403هـ/ 1982م.

– _ _ _ _ _ _ _ ، **لبّ الألباب في تحرير الأنساب،** دار صادر، بيروت – لبنان، د ت.

– جمال الدين ابن الدبيثي، **ذيل تاريخ مدينة السلام،** (تحقيق: بشار عواد)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1427هـ/ 2006م.

– جمال الدين ابن تغري بردي، **المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي،** (تحقيق: محمد أمين)، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة – مصر، د ت.

– _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة**، (تحقيق: محمد شمس الدين)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1413هـ/ 1992م.

– جمال الدين ابن منظور، **لسان العرب**، (حقّقه: عبد الله علي و آخرون)، دار المعارف ، القاهرة – مصر، د.ت.

– _ _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت– لبنان، 1414هـ/ 1993م.

– جمال الدين ابن واصل، **مُفرِّج الكُروب في أخبار بني أيوب**، (تحقيق: جمال الدين الشيال)، دار المنار، القاهرة – مصر، 1373هـ/ 1954م.

– حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون**، (تحقيق : محمد شرف الدين)، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان،1360هـ/1941م.

– حمزة ابن القلانسي، **تاريخ دمشق**، (تحقيق: سهيل زكار)، ط1، دار حسان للطباعة، دمشق– سوريا، 1403هـ/ 1983م.

– زين الدين ابن الوردي، **تتمّة المختصر في أخبار البشر**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1417هـ/ 1996م.

– سِبْط ابن الجوزي، **مرآة الزمان** (الحقبة: 481–517هـ)، (تحقيق: مسفر الغامدي)، مركز إحياء التراث، مكة، 1407هـ/1987م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **مرآة الزمان** (الحقبة: 345–447هـ)، (تحقيق: جنان الهموندي)، الدار الوطنية للنشر، بغداد– العراق، 1411هـ/ 1990.

– _ _ _ _ _ _ _، **مرآة الزمان**، (الحقبة: 495– 568هـ)، د.ن.

– شمس الدين ابن الجَزْري، **غاية النهاية في طبقات القُراء**، ط1، مكتبة ابن تيمية، د. م، 1351هـ/ 1932م.

– شمس الدين ابن القيّم، **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان**، (تحقيق: محمد حامد الفقي)، مكتبة المعارف، الرياض– السعودية، د.ت.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **مدارج السالكين**، (تحقيق: محمد البغدادي)، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، 1416هـ/ 1996م.

– شمس الدين ابن خلِّكان، **وفيات الأعيان**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار صادر، بيروت– لبنان، 1389هـ/ 1968م.

– شمس الدين الذهبي، **العِبَر في خبر من غبر**، (تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1405هـ/ 1985م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة**، (تحقيق: محمد الخطيب)، ط1، دار القبلة، جدة – السعودية، 1413هـ/1992م.

– _ _ _ _ _ _ _ _، **تاريخ الإسلام**، (تحقيق: بشار عواد)، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1424هـ/ 2003.

– _ _ _ _ _ _ _ _، **تذكرة الحُفاظ**، (تحقيق: زكريا عميرات)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لنبان، 1419، 1998.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **سِيَر أعلام النبلاء**، (حققه: شعيب الأرنؤوط و آخرون)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، 1416هـ/1995م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **سِيَر أعلام النبلاء** (الجزء المفقود)، (تحقيق: خيري سعيد)، ط1، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر، دت.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **معجم الشيوخ الكبير**، (تحقيق: محمد الخطيب)، ط1، مكتبة الصديق، الطائف– السعودية، 1408هـ/ 1988م.

– _ _ _ _ _ _ _ _، **معرفة القُراء الكبار**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان،1418هـ/1997م

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **ميـزان الاعتـدال**، (تحقيق: علي معوض وعادل أحمد)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1416هـ/ 1995.

– شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ** ، (تحقيق: روزنثال) (تر: صالح أحمد)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ب ت.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **التُّحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، (تحقيق: أسعد الحسيني)، ط1، د ن، 1399هـ/ 1978م.

–شهاب الدين ابن العماد، **شَذرات الذهب في أخبار من ذهب**، (تحقيق: محمود الأرنؤوط)، ط1، دار ابن كثير، دمشق– سوريا، 1412هـ/ 1999م.

–شهاب الدين ابن حجر، **الدُّرر الكامنة**، (تحقيق: سالم الكرنكوي) ، ط1، دار الجيل ، بيروت– لبنان، 1414هـ/ 1993م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **رفع الإصر عن قضاة مصر**، (تحقيق: علي محمد)، ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، 1418هـ/ 1998م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **لسان الميزان**، (تحقيق: سلمان عبد الفتاح) ، ط1، دار البشائر، بيروت– لبنان، 1423هـ/2002 م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **لسان الميزان**، ط2، مؤسسة الأعلمي، بيروت– لبنان، 1390هـ/ 1971م.

– شهاب الدين الدلجي، **الفلاكة و المفلوكون**، مطبعة الشعب، مصر، دت.

– شهاب الدين المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار صادر، بيروت– لبنان، 1997هـ/1997م.

- صلاح الدين الصفَدي، **الوافي بالوفيات،** (تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى) ، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، 1420هـ/ 2000 م.

- _ _ _ _ _ _ _ _ ، **نكث الهميان في نكت العميان،** (تحقيق: مصطفى عطا)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، 1428هـ/ 2007 م.

- عبد الرحمان ابن الجَوزي، **العِلل المتناهية في الأحاديث الواهية،** (تحقيق: إرشاد الأثري)، ط2، إدارة العلوم الأثرية، فيصل آباد- باكستان، 1401هـ/ 1981م.

- _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **المُنتظم في تاريخ الملوك و الأمم،** (تحقيق: محمد عطا ومصطفى عطا)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1412هـ/1992م.

- _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **الموضوعات،** (تحقيق: عبد الرحمان عثمان)، ط1، المكتبة السلفية، المدينة ، 1386هـ/ 1966م.

- _ _ _ _ _ _ _ _ _، **تلبيس إبليس،** ط1، دار الفكر، بيروت - لبنان، 1421هـ/ 2007 م.

- _ _ _ _ _ _ _ _ _ ، **مناقب الإمام أحمد،** (تحقيق: عبد الله التركي)، ط2، دار هجر، القاهرة - مصر، 1409هـ/ 1988م.

- عبد الرحمان ابن خلدون، **المقدمة،** (تحقيق: خليل شحادة و سهيل زكار) ، ط1، دار الفكر، بيروت- لبنان، 1421هـ/2001 م.

- عبد الرحمان ابن رجَب، **الذيل على طبقات الحنابلة،** (تحقيق: عبد الرحمان العثيمين)، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض- السعودية، 1425هـ/ 2004م.

- _ _ _ _ _ _ _ _ ، **فتح الباري شرح صحيح البخاري،** (حققه: محمود شعبان وآخرون) ، مكتبة الغرباء، المدينة، 1417هـ/1996م.

– عبد الرحمان ابن عبد الحَكم، **فتوح مصر والمغرب**، (تحقيق: عبد المنعم عامر)، ط1، دار الذخائر ، القاهرة – مصر، 1381هـ/ 1961م.

– عبد العظيم المنذري، **التكملة لوفيات النَّقَلة**، (تحقيق: بشار عواد) ، ط4، مؤسسة الرسالة، بيروت– لبنان، 1408هـ/1987م.

– عبد القادر القُرشي، **الجواهر المُضية في طبقات الحنفية**، (تحقيق: عبد الفتاح الحلو)، دار هجر، د.م، 1413هـ/ 1993م.

– عبد القادر النعيمي، **الدارس في تاريخ المدارس**، (تحقيق: إبراهيم شمس الدين) ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، 1410هـ/1990م.

– عبد الكريم السمعاني، **الأنساب**، (تحقيق: عبد الفتاح الحلو)، ط1، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، 1401هـ/ 1981م.

– عبد الكريم القُشيري، **الرسالة القُشيرية**، (تحقيق: عبد العليم محمود و محمود بن الشريف)، دار المعارف، القاهرة – مصر، د. ت.

– عبد الواحد المُراكشي، **المُعجب في تلخيص أخبار المغرب**، (تحقيق: محمد العريان)، نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة – مصر، 1383هـ/ 1963م.

– عزّ الدين ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، (تحقيق: محمد الدقاق)، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1407هـ/1987م.

– _ _ _ _ _ _ ، **اللّباب في تهذيب الأنساب**، دار صادر، بيروت– لبنان، د.ت.

– عزّ الدين ابن شداد، **الأعلاق الخطيرة في ذِكر أمراء الشام و الجزيرة**، (تحقيق: زكي يحيى)، ط1، منشورات وزارة الثقافة، دمشق – سوريا، 1412هـ/1991م.

– عفيف الدين اليافعي، **مرآة الجنان و عِبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان**، (تحقيق:

خليل منصور) ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، 1417هـ/ 1997م.

– علم الدين البِرزالي، **الوفيات،** (تحقيق: عبد الله الكندري) ، ط1، دار غراس، الكويت، 1426هـ/2005م.

– علي ابن حَزْم الأندلسي، **الفِصَل في المِلل و الأهواء و النحل،** (تحقيق: محمد نصر و عبد الرحمان عميرة) ، ط2، دار الجيل ، بيروت – لبنان، 1416هـ/ 1996 م.

–علي بن الحسن الهنائي، **المنجد في اللغة،** (تحقيق: أحمد مختار وضاحي عبد الباقي)، ط2، دار عالم الكتب، القاهرة – مصر، 1409هـ/ 1988م.

– عماد الدين ابن كثير، **البداية و النهاية،** (حققه: محمد تامر و آخرون)، ط1، دار البيان العربي، القاهرة – مصر، 1428هـ/ 2006م.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **طبقات الشافعيين،** (تحقيق: عبد الحفيظ منصور)، ط1، دار المدار الإسلامي، بيروت– لبنان، 1426هـ/ 2004م.

– عياض بن موسى ، **ترتيب المدارك و تقريب المسالك،** (تحقيق: سعيد أعراب) ، ط1، مطبعة فضالة، المحمدية – المغرب، 1404هـ/1983م.

– قطب الدين اليونيني، **ذيل مرآة الزمان،** دار الكتاب الإسلامي، القاهرة – مصر، 1413هـ/ 1992.

– كمال الدين ابن العديم، **بُغية الطلب في تاريخ حلب،** (تحقيق: سهيل زكار)، دار الفكر، دم، د.ت.

– _ _ _ _ _ _ _ _ ، **زبدة الحَلَب من تاريخ حلب،** (تحقيق: سهيل زكار)، دار الكتاب العربي، دمشق – سوريا، 1418هـ/1997م.

– مجد الدين الفيروزآبادي، **القاموس المحيط،** (حقّقه: محمد العرقوسي و آخرون)، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، 1426هـ/2005 م.

- محب الدين ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، (تحقيق: محمد عظيم الدين) ، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، د.ت.

- _ _ _ _ _ _ _ _ ، **تتمة ذيل تاريخ بغداد** (ضمن تاريخ بغداد وذيوله)، (تحقيق: مصطفى عبد القادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1417هـ/ 1996م.

- محمد ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، (تحقيق: عبد السلام الهراس)، ط1، دار الفكر، بيروت - لبنان، 1415هـ/ 1995م.

- محمد ابن الطِّقْطقي، **الفخري في الآداب السلطانية و الدول الإسلامية**، (تحقيق: محمود الكتبي)، ط1، المطبعة الرحمانية، القاهرة - مصر، 1339هـ/ 1920م.

- محمد ابن بطوطة، **تُحفَة النُظّار في غرائب الأمصار** ، ط1، المطبعة الخيرية، د.م، 1322هـ/ 1903م.

- محمد ابن عذاري، **البيان المُغْرب في أخبار الأندلس و المَغرب**، ط3، (تحقيق: كولان) ، ط3، دار الثقافة، بيروت - لبنان ، 1404هـ/ 1983م.

- محمد بن إسماعيل البُخاري، **الجامع الصحيح**، (حققه: محب الدين الخطيب وآخرون) ، ط1، المطبعة السلفية، القاهرة - مصر، 1400هـ/ 1979م.

- محمد بن جرير الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، (تحقيق: محمد إبراهيم)، ط1، دار المعارف، القاهرة - مصر، 1390هـ/ 1969م.

- محمد بن حبان، **الثقات**، ط1، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند، 1393هـ/1973م.

-محمد بن حميد النجدي، **السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة**، ط1، مكتبة الإمام أحمد، د.م، 1410هـ/1989م.

- محمد بن سعد، **الطبقات**،(تحقيق: علي محمد)، مكتبة الخانجي، القاهرة - مصر، 1421هـ/ 2001م.

– محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط1، دار صادر، بيروت– لبنان، 1396هـ/ 1974م.

– محمد بن طولون، **القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية**، (تحقيق: محمد دهمان)، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق– سوريا، 1401هـ/1980م.

– محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **المِلَل والنِّحَل**، (تحقيق: أمير مهنا و علي حسن)، ط3، دار المعرفة، بيروت– لبنان، 1414هـ/ 1993م.

– محمد بن عبد المنعم الحِمْيري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، (تحقيق: إحسان عباس)، ط2، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت – لبنان، 1401هـ/ 1980م.

– محمد بن عبد الهادي، **مناقب الأئمة الأربعة**، (تحقيق: سليمان مسلم)، دار المؤيد، د.م، د.ت.

– محمد بن عيسى التِرمذي، **سُنن التِرمذي**، (تحقيق: إبراهيم عوض) ، ط2، مطبعة مصطفى البابي، القاهرة – مصر، 1395هـ/ 1975م.

–محمد بن فتوح الحميدي، **جذوة المقتبس في ذِكْر ولاة الأندلس**، الدار المصرية للتأليف، القاهرة – مصر، 1386هـ/ 1966م.

– محيي الدين النووي، **صحيح مسلم بشرح النووي**، ط1، مكتبة الإيمان، المنصورة – مصر، د.ت.

– موفق الدين الخزرجي، **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، (تحقيق: محمد بن بسيوني)، ط1، دار الآداب ، بيروت– لبنان، 1403هـ/ 1983م.

–ياقوت الحَمَوي، **مُعجم الأدباء**، (تحقيق: إحسان عباس) ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، 1414هـ/ 1993م.

– _ _ _ _ _، **مُعجم البلدان**، ط1، دار صادر، بيروت – لبنان، 1397هـ/ 1977م.

ثانيا- المراجع:

- أبو بكر الجزائري، **مِنهاج المسلم**، ط4، مطبعة دار السلام، د.م، د.ت.

- أبو زيد مكي، **مادّة مقالات الفِرَق**، ط1، دار الحراز، جدة، 1429هـ/2008م.

- إحسان إلهي، **التصوف: المنشأ والمصادر**، ط1، إدارة ترجمان السُنة، لاهور - باكستان، 1406هـ/ 1986م.

- _ _ _ _ ، **الشيعة وأهل البيت**، ط1، إدارة ترجمان السُنة، لاهور- باكستان، د ت.

- أحمد الحربي، **الماتُريدية دراسة و تقويما**، ط1، دار العاصمة، د.م، 1413هـ/ 1992م.

- أحمد القُصَيّر، **عقيدة الصوفية**، ط1، مكتبة الرشد، الرياض - السعودية، 1424هـ/2003م.

- أحمد تيمور باشا، **نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة**، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، د.ت.

- أحمد سعيد، **المدخل إلى مذهب أبي حنيفة النُّعمان**، ط1، دار الأندلس، جدة، 1423هـ/ 2002م.

- أحمد صبحي، **العقائد الدينية في مصر المملوكية**، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة - مصر، 1422هـ/2000م.

- أحمد مختار وآخرون، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، ط1، دار عالم الكتب، د م، 1429هـ/ 2008م.

- إسماعيل باشا، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين**، دار إحياء التراث، بيروت- لبنان، د.ت.

- _ _ _ _ _ ، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين**، وكالة المعارف الجليلة، اسطنبول- تركيا، 1371هـ/1951م.

- بشار عواد، **مدارس العراق** (ضمن موسوعة حضارة العراق)، ط1، دار الحرية، بغداد- العراق، 1406هـ/ 1985م.

- بكر أبو زيد، **المدخل المُفَصّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل**، ط1، دار العاصمة، د.م، د.ت.

- جعفر الكنج الدندشي، **مدخل إلى المذهب العلوي النُّصَيري**، ط1، دار المكتبة الوطنية، د.م، 1422هـ/2000م.

- حسين مؤنس، **أطلس التاريخ الإسلامي**، ط1، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة – مصر، 1407هـ/ 1987م.

- _ _ _ _ _، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، د م، دت.

- خالد رمضان، **معجم أصول الفقه**، ط1، دار الروضة، د.م، 1419هـ/ 1998م.

- خالد كبير علال، **أخطاء المؤرِّخ ابن خلدون في كتابه المقدمة**، ط1، دار الإمام مالك، البليدة – الجزائر، 1426هـ/ 2000.

- _ _ _ _ _ _، **الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث**، ط1، دار الإمام مالك، البليدة – الجزائر، 1426هـ/ 2005م.

- _ _ _ _ _ _، **التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي**، ط1، دار المحتسب، د.م، 1429هـ/ 2008م.

- _ _ _ _ _ _، **الثورة على سيدنا عثمان**، ط1، دار البلاغ ، الجزائر، 1424هـ/ 2003م.

- _ _ _ _ _ _ ، **الصحابة المعتزلون للفتنة الكبرى**، ط1، دار البلاغ، الجزائر، 1424هـ/ 2003م.

- _ _ _ _ _ _، **بحوث حول الخلافة والفتنة الكبرى**، دار كنوز الحكمة، الجزائر، 1430هـ/2009م.

- خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ط15، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، 1424هـ/2002م.

- ربيع بن محمد، **الشيعة و الإمامة**، ط2، مكتبة ابن تيمية، القاهرة – مصر، 1414هـ/ 1993م.

- سليمان السلومي، **أصول الإسماعيلية**، ط1، دار الفضيلة، الرياض- السعودية، 1422هـ/ 2001م.

- شحاتة محمد، **كشف شبهات الصوفية**، مكتبة دار العلوم، البحيرة – مصر، د ت.

- شمس الدين الأفغاني، **الماتُريدية و موقفهم من توحيد الأسماء و الصفات**، ط2، مكتبة الصدّيق، الطائف – السعودية، 1406هـ/ 1986م.

- شوقي أبو خليل، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، ط5، دار الفكر، دمشق- سوريا، 1425هـ/ 2005م.

- صابر طعيمة، **دراسات في الفِرَق**، ط1، مكتبة المعارف، الرياض – السعودية، 1403هـ/ 1983م.

- طارق عبد الحليم، **الصوفية نشأتها و تطورها**، ط2، دار الأرقم، الكويت، 1404هـ/ 1984م.

- عبد الرحمان العزاوي، **التاريخ و المؤرخون في العراق**، ط1، دار الشؤون الثقافية، بغداد- العراق، 1414هـ/1993م.

- عبد الرحمان عبد الخالق، **الفكر الصّوفي**، ط1، مكتبة ابن تيمية، الكويت، 1404هـ/ 1984م.

- عبد العزيز سالم، **مناهج البحث في التاريخ الإسلامي**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية – مصر، 1387هـ/ 1967م.

- عبد القادر السندي، **ابن عربي الصوفي في ميزان البحث والتحقيق**، ط1، دار البخاري، المدينة، 1411هـ/ 1991م.

- عبد القادر السندي، **التصوف في ميزان البحث و التحقيق**، ط1، مكتبة ابن القيم، المدينة، 1410هـ/ 1990م.

- عبد القادر بن بدران، **المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل**، (تحقيق: عبد الله التركي)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، 1401هـ/1981م.

- عبد القادر بن محمد، **الأصول التي بنى عليها المبتدعة مذهبهم في الصفات**، دار الغرباء، د.م، د.ت.

- عمر الأشقر ، **المدخل إلى الشريعة و الفقه الإسلامي**، ط1، دار النفائس، عمان- الأردن، 1425هـ/ 2005م.

- غالب عواجي، **فِرَق معاصرة تنتسب إلى الإسلام**، ط4، المكتبة العصرية، جدة - السعودية، 1422هـ/ 2001م.

- فاروق فوزي، **الخلافة العباسية**، ط1، دار الشروق، رام الله - فلسطين، 1419هـ/ 1998م.

- فيصل الجاسم، **الأشاعرة في ميزان أهل السنة**، ط1، المكتبة الخيرية، الكويت، 1428هـ/ 2007م.

- قاسم عبده، **عصر سلاطين المماليك**، ط1، دار عين للدراسات، القاهرة - مصر، 1419هـ/ 1998م.

- كمال عيسى، **نظرات في معتقدات ابن عربي**، ط1، دار المجتمع، جدة - السعودية، 1405هـ/ 1985م.

- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، ط1، د.ن، 1400هـ/ 1980م.

- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة - مصر، 1425هـ/ 2004م.

- محمد الأمين الشنقيطي، **مذكرة في أصول الفقه**، ط5، مكتبة العلوم، المدينة، 1423هـ/2001م.

- محمد الحفناوي، **الفتح المبين في حلّ رموز و مصطلحات الفقهاء**، د.ن، د. ت.

- محمد الخطيب، **عقيدة الدروز**، ط1، دار البيان العربي، القاهرة - مصر، 1422هـ/ 2000م.

- محمد الخميس، **حوار مع أشعري**، ط1، مكتبة المعارف، الرياض- السعودية، 1426هـ/ 2005م.

- محمد الرميلي، **أحاديث السنن الأربعة الموضوعة بحكم العلامة الألباني**، ط1، دار ابن عفان، القاهرة - مصر، 1422هـ/ 2001م.

- محمد الفيومي، **الشيعة العربية و الزيدية**، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة - مصر، 1423هـ/ 2002م.

- محمد بن عمر، **ضوابط الجرح والتعديل عند الحافظ الذهبي**، ط1، إصدارات الحكمة، د.م، 1421هـ/2000م.

- محمد ترحيني، **المؤرخون و التاريخ عند العرب**، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، د.ت.

- محمد عبد الستار ، **بطلان عقائد الشيعة**، ط1، المكتبة الامدادية، مكة، 1403هـ/ 1982م.

- محمد عزيز وعلي بن محمد، **الجامع لسيرة شيخ الإسلام**، ط1، دار عالم الفوائد، مكة، 1420هـ/ 1998م.

- محمد مجاهد، **بحوث و دراسات في المذاهب**، ط1، دار هجر، د.م، د.ت.

- محمد نغش، **التعريف بكتاب محنة الإمام أحمد**، ط12، الجامعة الإسلامية بالمدينة، 1400هـ- 1980م.

- محمود الطحان ، **تيسير مصطلح الحديث**، مركز الهدى للدراسات، الإسكندرية – مصر، 1415هـ/ 1994م.

- مقبل بن هادي، **تراجم رجال الدارقُطني في سننه**، دار الآثار، صنعاء، د.ت.

- مناع القطان، **تاريخ التشريع الإسلامي**، ط5، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر، 1419هـ/1998م.

- ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ط1، مكتبة المعارف، الرياض- السعودية، 1415هـ/ 1995م.

- ـــــــــــــ ، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**، ط1، مكتبة المعارف ، الرياض- السعودية، 1417هـ/1996م.

- ناصر العقل، **أصول مذهب الشيعة**، د.ن، د.ت.

- ناصر العقل، **دراسات في الأهواء و الفِرَق**، ط1، دار إشبيلية، د.م، 1418هـ/ 1997م.

- ناصر القفاري وناصر العقل، **الموجز في الأديان والمذاهب**، ط1، دار الصميعي، الرياض- السعودية، 1413هـ/ 1992م.

- ناصر القفاري، **مسألة التقريب بين السنة والشيعة**، ط2، دار طيبة، د م، 1413هـ/ 1992م.

- وهبة الرخيلي، **أصول الفقه الإسلامي**، ط1، دار الفكر، دمشق - سوريا، 1406هـ/1986م.

- المراجع باللغات الأجنبية:

- Claude Cahen, La Syrie du nord à l'époque des croisades, Presse de l' i.f.p.o, Damas, 1940.

- Éric Geoffroy, L'époque mamelouke (Égypte –Syrie),Unversitat oberta de catalunya.

- _ _ _ _ _ _, Le soufisme dans la culture islamique,Universitat oberta de catalunya.

-Maribel Fierro, The new history of Islam, volume2,Cambridge university press,2010.

- O'leary Delacy,A Short History of the Fatimid kalifate, London, 1923.

- Samee – bhat,Towards Understanding the Muslim Historiography and Muslim Historians (Journal of Islamic Thought and Civilisation), Volume 4 .

أولا- فهرس الأعلام:

- الأعلام: **الصفحات:**

ثالثا- فهرس الأمصار:

الأمصار: **الصفحات:**

ثانيا– فهرس القبائل و الطوائف والفِرق و الشعوب:

– القبائل و الطوائف والفرق و الشعوب **– الصفحات:**

رابعا– فهرس المدن و البلدات والقرى و المواضع:

– المدن والبلدات والقرى والمواضع: **الصفحات:**

خامسا- فهرس المحتويات:

- <u>الفصل الثالث:</u> أثر النزعة المذهبية على كتب التاريخ العام خلال القرن الثامن الهجري (ق14م).

- الفصل الخامس: أثر النزعة المذهبية على كتب الطبقات.

- <u>الفصل السادس:</u> اثر النزعة المذهبية على كتب التراجم.

- الملاحق:

- قائمة المصادر و المراجع:

- الفهارس: